آذر نفيسي

أن تقرأ لوليتا في طهران

سيرة في كتاب

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ترجمة: ريم قيس كبة

منشورات الجمل

رواية

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الإهداء

إلى ذكرى أُمي نزهت نفيسي

وإلى أبي أحمد نفيسي

وإلى أُسرتي الصغيرة، زوجي بيجان نادري

وابنتي نيغار وولدي دارا

آذر

لمن نحكي ما يحدثُ على هذه الأرض؟ ولمن نضعُ المرايا الواسعة في كل مكان ونحن نأملُ أن تمتلئ حتى آخرها، وأن تبقى ممتلئة؟

تشسلاف ميوش ـ «أناليتا»

مقدمة الكاتبة

في هذا الكتاب، لم ألجأ إلى تغيير الأحداث والوجوه إلا حرصًا مني على أصحابها بالدرجة الأولى، ومن أجل حمايتهم. ولا أقصد هنا حمايتهم من عين الرقيب فحسب، بل من عيون أولئك الناس الذين يسعون لقراءة القصص بحثًا عن معرفة من يكون فلان وماذا فعل لعلان، فيزدهرون ويملأون فراغاتهم النفسية بأسرار الآخرين. إن أحداث ومعطيات هذه القصة حقيقية إلى أقصى مدى تستطيع أن تحمله الذاكرة من صدق، بيد أني بذلتُ قصارى جهدي لئلا أسيءَ لأحدٍ من أصدقائي أو طلبتي، فرحتُ أُعمِّدَهم بأسماء جديدة، وأمنح وجوههم أقنعةً تضللهم ربما حتى عن أنفسهم، ورحتُ أُغيّرُ وأستبدلُ تفاصيلهم الصغيرة، كي تكون أسرارهم في أمانٍ.

الفصل الأول

لوليتا

[1]

في خريف عام ١٩٩٥، وبعد استقالتي من آخرِ منصبٍ لي في الجامعة، قررتُ إطلاقَ العنانِ لنفسي، وإشباع رغبةٍ في روحي لتحقيق أحد أحلامي. فاخترتُ سبعةً من أفضلِ طالباتي وأكثرهنّ التزامًا، وقررتُ دعوتهنّ إلى بيتي صباحَ كل خميس لنخوضَ معًا في مناقشاتٍ في الأدب. كنّ نساءً طبعًا، فالتورّط في تدريس مجموعةٍ مختلطةٍ من الطلبةِ داخل البيت كان أمرًا لا يخلو من المخاطرة، حتى لو أننا لم نتعدَّ حدودَ المناقشات الأدبيةِ الصرف التي لم تكن لتسيءَ لأحد. بيد أن طالبًا مثابرًا واحدًا أصرّ على الاحتفاظِ بحقّهِ في الانضمامِ الينا، على الرغم من أنهُ مُنِعَ من ذلك. كان هذا هو «نيما»، الذي راح يقرأ الموادَ المقررة، وراح يزورني في أيامٍ محددة من الاسبوع لكي نناقش أنا وهو كل الكتب التي كنا ندرسها.

كنت غالبًا ما أناكفُ طالباتي وأذكّرهنّ بـ«ربيع الآنسة جين برودي» لـ«ميريل سبارك»، فأسألهنّ: «من منكنّ سوفَ تخونني في آخر المطاف؟». فأنا بطبعي متشائمة، وكنتُ متيقنةً تمامًا بأن واحدةً منهنّ على الأقل سوف تنقلبُ ضدّي ذات يوم. فوجدتُ «نسرين» تشاكسني بخبثٍ ذات مرة وقد استهوتها الفكرة: «ولم لا؟ انت نفسكِ قلتِ لنا مرةً بأننا جميعًا في المحصلة النهائية خائنونَ لأنفسنا، فكلٌّ منا يضمرُ في داخلهِ يهوذا لمسيحهِ الخاص!». فنبّهتنا «مانا» قائلةً بأنني لستُ «الآنسة برودي» على أية حال، وهن أيضًا لسنَ سوى أنفسهن. وذكرتْ لي عبارةً كنتُ مهووسةً بإعادتها على مسامعهنّ مرارًا: «إياكنّ.. تحت

وطأةِ أيّ ظرفٍ كان.. أن تقللنَ من قيمةِ أيّ عملٍ أدبي بأن تجعلْنه نسخةً كاربونية من الواقع. لأن ما نبحثُ عنهُ في الأدب ليس هو الواقع تمامًا، وإنما هو الاحتفاءُ بإظهار الحقيقة، مثلما يحتفلُ النصارى بعيد الظهور».

مع ذلك، أعتقد بأنني إذا ما سلكتُ دربًا معاكسًا لنصائحي، وفكرتُ بانتقاءِ عملٍ أدبي يعكسُ واقعنا في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فإن هذا العمل لن يكون بأي حال: «ربيع الآنسة جين برودي»، ولا حتى: «١٩٨٤»، بل ربما يكون: «دعوةٌ لضرب العنق» لـ«نابوكوف».. أو.. انني ربما أجدُ أقرب الأعمال حتى الآن هو: «لوليتا».

بعد عامينِ من إنشاءِ صفنا الخاص في صباحاتِ الخميس، وفي ليلتي الأخيرة في طهران، مر بي بعضُ الأصدقاء والطالبات لتوديعي ومساعدتي في الانتهاءِ من حزم الحقائب. كنا قد أفرغنا بيتنا من كلّ محتوياته، فتلاشتِ الأشياءُ وبهتتِ الألوانُ وتحوّلت جميعها إلى ثماني حقائبَ رصاصية. فبدتِ الألوانُ مثل أكثر من ماردٍ ضالٍ يتلاشى وهو ينسحبُ عائدًا إلى قمقمه. حينئذٍ وقفتُ أنا وطالباتي عند الحائطِ الأبيض العاري، والتقطنا صورتين فوتوغرافيتين.

ها أن الصورتينِ أمامي الآن: تظهرُ في الأولى سبعُ نساءٍ يقفنَ أمام حائطٍ أبيض، وقد اتشحْنَ بأرديةٍ وأغطية رأسٍ سودٍ وفقًا لقانون البلاد. كل شيءٍ فيهنّ مغطى ما خلا دوائرَ في الوجوهِ والأيادي. وفي الصورةِ الثانية، تبدو المجموعةُ ذاتُها وهي تقفُ الوقفةَ ذاتَها أمام الحائط ذاته. بيدَ ان الاختلافَ الوحيدَ هو أن مجموعةَ النساء تبدو هذه المرة بلا أغطية. فتبرزُ بقعُ الألوان لتميّزَ النساءَ عن بعضهن، تبدو الملامحُ أوضحَ والتفاصيلُ أدقّ لكلّ امرأةٍ من لونِ وشكلِ ملبسها أو لون وأسلوبِ تصفيفها لشعرها، بل ولم تشابه المرأتانِ اللتانِ لم تخلعا غطاء الرأس.

المرأة في أقصى اليمين هي شاعرتنا: «مانا» بيلوزتها البيضاء، الـتي شيرت»، وبنطلونها الجينز. «مانا» تنظم الشعر في أشياء لا يعبأ بها معظمُ

الناس. بيد أن الصورة لا تظهر ذلك الغموضَ الفريدَ الذي تنطوي عليه عينا «مانا» الغامقتان، عينان هما نافذتا عزلتها وطبيعتها الانطوائية.

إلى جانب «مانا» تقفُ «مهشيد»، وقد أظهرَ إيشاربها الأسودُ الطويلُ تناقضًا صارخًا بين ملامحها الرقيقةِ الناعمة وابتسامتها الخجولة. كانت «مهشيد» قوية وجيدة في الكثير من الأمور، بيد أنها كانت مرهفة حساسة حتى اننا أطلقنا عليها لقب: «سيدتي». لقد اعتادتْ «نسرين» أن تقول: «إننا إذ أطلقنا لقب «سيدتي» على «مهشيد»، لم نعرِّف بها فقط، وإنما أضفنا لكلمة «سيدتي» بعدًا آخر». و«مهشيد» إنسانة حساسة جدًا، فهي مثل البورسلين تتكسر بسهولة، كما وصفتْها «ياسي» ذات مرة، لذا فهي تبدو في غاية الرهافة في عيونِ من لا يعرفها جيدًا، لكن الويل الويل لمن يغضبها.

وتستطردُ «ياسي» بعفوية: «أما أنا فمثل البلاستكِ القديم.. لا أنكسرُ مهما فعل الآخرُ بي!». كانت «ياسي» الطالبةَ الأصغرَ في مجموعتنا (تبدو في الصورة مرتديةً اللونَ الأصفر، وتميلُ جانبًا وهي غارقة بالضحك). كنا نتعمدُ ان ندعوها: «ممثلتنا الهزلية» لإغاظتها. لقد كانتْ بطبعها خجولة، لكن بعض الأشياء كانت تثيرها إلى حدٍّ الذي يجعلها تفقدُ زمام نفسها، وكان في نبرةِ صوتها تشكيكٌ وسخريةٌ من نفسها قبل الآخرين.

أما أنا، فأبدو في الصورة مرتديةً البني، أقف إلى جانب «ياسي» وقد طوّقت إحدى ذراعيّ كتفَها. وتشخصُ خلفي مباشرةً «آذين»، أطول طالباتي، بشعرها الأشقرِ الطويلِ وبلوزتها الوردية الـ«تي شيرت». ها هي تضحك مثلنا جميعًا، بيد ان ابتسامةَ «آذين» لا تشبهُ أي ابتسامة. فهي توحي بأنها استهلالٌ لنوبةِ ضحكٍ صاخب لا يقاوم، بل ان «آذين» تشعّ بابتساماتها المميزة تلك حتى وهي تصفُ لنا آخر مشكلاتها مع زوجها. لقد كانت دائمًا عنيفةً وجريئة، وكانت تستمتعُ وهي ترى وقعَ تصرفاتها علينا وتعليقاتها الصادمة، وغالبًا ما كانت تصطدمُ مع «مهشيد» و«مانا». لقد أطلقنا عليها لقب «المتوحشة».

إلى الجانب الآخر مني تقف «ميترا» التي كانت ربما المرأةَ الأهدأ منا جميعًا.

كانت تبدو مثل ألوان الباستيل التي ميزت لوحاتها: باهتةً وكأنها تميل الى الإنسحاب دائمًا إلى عالم أكثر شحوبًا. بيد أنها خبّأت في غمازتيها الخارقتين جمالاً مبهرًا يفوقُ التصور، تلك الغمازتين اللتين استطاعتْ بهما فعلاً ان توقعَ الكثيرَ من العتاة ضحايا.. فتجعلهم طوعَ يمينها.. بغمازة.

في الصورة أيضًا تبدو «ساناز» وهي متشبّثة بذراع «ميترا». كانت «ساناز»، بضغطِ من الأهلِ والمجتمع، تتأرجحُ ما بين طموحها ورغبتها في الاستقلال، وبين خنوعها وحاجتها لنيل الرضا.

كان الكل يضحك. وكان «نيما»، شريكنا المتخفي، هو الذي التقط لنا الصورة. «نيما» هو زوج «مانا»، وكان سيصبحُ ناقدي الحقيقي الوحيد، لو أنهُ فقط تحلى بشيءٍ من المثابرة لكي يستكملَ تلك المقالاتِ المذهلة التي كان قد ابتدأ بها ذات يوم ولم ترَ النور.

وأيضًا: ثمة شخصٌ آخر: «نسرين».

«نسرين» لا تظهرُ معنا في الصورتين، لأنها لم تستطع البقاءَ معنا حتى النهاية. ومع ذلك فلن تكتملَ حكايتي من دون أن أمرّ بأولئك الذين لم يكونوا معنا طوال الوقت، أو أنهم لم يتمكنوا من البقاء. فقد ظلّ غيابهم حاضرًا فينا مثل ألم مبرح يوخزُ المشاعرَ من دون أن يكون له سبب عضوي. وهذا هو ما تعنيه ليَ طهرانُ تمامًا: فغيابها يبدو أكثرَ حقيقيةً وعمقًا من حضورها.

حينما أنظرُ إلى «نسرين» اليوم بعيونِ ذاكرتي، أرى صورتها ضبابيةً مشوشة بعض الشيء، وأحس بأنها بعيدة بطريقة أو بأخرى. وإذ أستعرضُ كل الصورِ التي التقطتها مع طالباتي عبر السنوات، أجدُ «نسرين» هناك، حاضرةً في الكثير منها، بيد أنها تبدو دائمًا وهي متوارية وراء شيءٍ ما: شخص ما.. شجرة.. عمود..!

في هذه الصورة مثلاً، أقفُ أنا مع ثمانيةٍ من طالباتي في الحديقةِ الصغيرةِ المقابلةِ لمبنى كليتنا، وهي اللقطةُ الأكثر شيوعًا لصورِ التخرج عبر السنين، تظللنا في الخلفيةِ شجرةُ صفصافٍ وارفة. الكل يضحك، وفي إحدى الزوايا،

من خلف أطول طالباتي، تلوحُ «نسرين». أراها تطلّ برأسها وكأنها طفلٌ مشاغبٌ يقحمُ نفسه في مشهدٍ هو أصلاً غير مدعو إليه. وفي صورة أخرى أراني لا أكادُ أستطيع تمييزَ ملامح وجهها في المساحةِ الصغيرة للمثلثِ المقلوب الذي يفصلُ بين كتفيّ طالبتين أخريين. وتبدو شاردةَ الذهن مقطبةَ الحاجبين، وكأنها غير معنيةٍ بالصورة.

كيف لي أن أصفَ «نسرين»؟ كنت قد أطلقتُ عليها ذات مرة لقبَ «القطة الشيرازية»[1] وهي تختفي وتظهرُ فجأةً بين الحينِ والحين. وأنا في الحقيقة لا أستطيع ان أجد لها وصفًا يعرّفها، فهي نسيجُ وحدِها، وليس بوسعِ المرءِ سوى أن يقول: إن «نسرين» لم تكن سوى «نسرين»!

كانت طالباتي في صباح كل خميسٍ تقريبًا، صحوًا كان الجو أو ماطرًا، وعلى مدى ما يقاربُ العامين، يأتينَ إلى بيتي. وكنتُ في كل مرةٍ من تلك المرات، أكادُ لا أستطيع أن أغالبَ صدمتي وأنا أراهنّ يلقينَ بأرديتهنّ الخارجية وحجاباتهنّ الإلزامية، فتتفجرُ منهنّ الألوان. بيدَ أن طالباتي، بعد أن وصلنَ إلى غرفةِ الطعام، رحنَ يخلعنَ عن أرواحهنّ ما هو أعمقُ بكثيرٍ من الجلابيبِ والإيشاربات. فقد بدأتْ كل واحدةٍ منهنّ تتعرّفُ شيئًا فشيئًا على ذاتها الفذّة، وتخطُّ لنفسها خطها وشكلها الخاصين بها.

فمن غرفة الطعام، تلك التي كان يؤطّر شباكَها «جبالُ البُرز» التي أعشق، كنا قد صنعنا عالمنا وصومعتنا الخاصين. ابتدعنا كونًا شخصيًا مستقلاً يسخرُ من واقعِ الإيشارباتِ السودِ والوجوه المذعورةِ لتلك المدينة التي تدبّ بعشوائيتها من دوننا.

كانت الثيمة الأساسية في صفنا الخاص هي رصدُ العلاقةِ ما بين الخيالِ والواقع، بين الكتابة والحياة. فقرأنا كلاسيكياتِ الأدبِ الفارسي، مثل حكاياتِ سيدة الخيال عندنا: «شهرزاد» في «ألف ليلة وليلة»، مثلما قرأنا

(١) القطة الشيرازية (The Cheshire cat) من الشخصيات الخرافية في حكاية «أليس في بلاد العجائب»، تختفي وتظهر فجأة بطريقة سحرية. (هامش المترجمة).

كلاسيكيات الأدب الغربي: مثل «الكبرياء والتحيز» و«مدام بوفاري» و«ديزي ميلر» و«ديسمبر الكاهن»، وأيضًا.. وبلا شك: «لوليتا».

يا إلهي! كلما كتبتُ عنوانَ كتاب، أجد الذكريات تنهمرُ في رأسي مثل المطر، فتشاكسُ هدوءَ هذا اليوم الخريفيّ الذي أقضيه في غرفةٍ اخرى ومدينة غير تلك المدينة.

ها أنني أرى نفسي الآن وأنا جالسة في ذلك العالم الغريب الذي غالبًا ما كان يظهر لنا بغتة من بين سطورِ نقاشاتنا، فأعيد استذكارَ نفسي وطالباتي، أو «بناتي» كما خلصتُ إلى تسميتهنّ، ونحن ندرسُ «لوليتا» في غرفةٍ توهّمنا بأنها مشمسةٌ في طهران. وإذا ما فكرتُ أن أسرقَ الكلمات من فم «هومبرت»، الشاعر المجرم في قصة «لوليتا»، فسأقولُ بأني بحاجة إليك أنتَ أيها القارئ. سأحتاجُ منك أن تتخيلنا لأننا لن نظهر فعلاً إذا لم تفعل. حاول أيها القارئ أن تتخيلنا، بعيدًا عن سطوةِ الوقتِ والسياسة. حاولْ أن تفعل ذلك بصيغةٍ لم نكنْ نحن أنفسنا أحيانا لنجرؤ عليها. تصوّرنا مثلاً ونحن في لحظاتنا الأكثر حميميةً وسريةً من سواها، أو ضمنَ تفاصيل حياتنا الأكثر عادية. تخيّلْنا إذ نحن نستمع إلى الموسيقى ونقع في الحب ونتمشى في الشوارع الظليلة، أو.. ونحن نقرأ «لوليتا».. في طهران. ثم حاولْ أن تتخيلَنا مرةً اخرى، وقد صودرَ منا كلّ ذلك ودفنَ تحت الرمادِ، حتى لم يعد لذلك العالم من وجود.

إنني إذ اكتبُ عن «نابوكوف» اليوم، فإنما أفعلُ ذلك فقط احتفاءً بدراستنا لـ«نابوكوف» في طهران، بعيدًا عن أي اعتباراتٍ اخرى. ومن مجملِ رواياته فكرتُ أن أنتقي آخر ما درّستُ لطالباتي، أو تلك التي ارتبطت عندي بالكثير من الذكريات: «لوليتا». بيد اني لن استطيعَ الكتابةَ عن هذه الرواية اليوم، من دون الكتابة عن طهران.

هذه إذن هي قصة «لوليتا» في طهران، وكيف أنها لوّنتْ طهران بلونٍ مختلف، وكيف أن طهران استطاعتْ أن تعيدَ التعريفَ برواية «نابوكوف»، حتى خلقَتْ منها هذه الـ«لوليتا» المختلفة: «لوليتا» الخاصة بنا وحدنا.

[2]

وهكذا، حدثَ ذات خميسٍ من أوائل شهر تشرين الأول/ أكتوبر أن نجتمعَ في غرفةِ الطعام ببيتي لنؤرّخ معًا لاجتماعنا الأول. وها أنهنّ يأتينني للمرة الثانية. الجرسُ يرن تتبعهُ هنيهةُ صمت، ثم أسمعُ صوتَ إغلاق الباب المفضي إلى الشارع، يتبعه وقعُ أقدام ترتقي السلم اللولبي صعودًا ومرورًا بشقة والدتي، أهرعُ الى الباب الأمامي، فألتقطُ قطعة السماء عبر الشباك الجانبي. ثم أفتح الباب للزائرة التي ما أن تدخلَ حتى تخلعَ عنها الجبةَ وإيشاربَ الرأس. وأحيانًا تفعلُ ذلك وهي تهزّ يدها يمنة وشمالاً، وتتريّثُ قليلاً قبل الدخول الى الغرفة (ها أنني اليوم بلا تلك الغرفة، ولم أعدْ أملكُ سوى فراغٍ مستقرٍّ في ذاكرتي).

كانت غرفة الطعام أكثر من أية غرفة أُخرى في بيتنا تمثلُ نموذجًا لطريقة معيشتي العشوائية والهامشية هناك. فكانت قطع الاثاث التي تجمّعتْ من أمكنة وأزمنة مختلفة تتكدسُ مع بعضها بعضًا، فكان جزء منها موجودًا لأسباب مادية صرف، والجزء الآخر بسبب طبيعةِ ذوقي الانتقائي الغريب. ومن المدهشِ حقًا أن تكون كل تلك المفردات المتنافرة قد شكّلَتْ تناسقًا افتقَدَتْه الغرفُ الاخرى التي كنا قد أولينا تأثيثها عناية فائقة.

كانت أمي تكادُ أن تفقد صوابها كلما رأت اللوحات الفنية وهي تستندُ مائلة إلى الحائط، وزهرياتِ الورد المتناثرةِ على الأرض، والشبابيك العارية من الستائر، تلك الشبابيك التي بقيتُ أرفضُ تغطيتها بالستائر، حتى ذكروني أخيرًا

أننا في دولة إسلامية ولابد للشبابيك من أن ترتدي سُتُرها. كانت أمي تقول لي وهي تندبُ حظها: «لا أدري ما إذا كنتِ أنت ابنتي حقًا! أوَلم اربّيكِ على أن تكوني إنسانة مرتّبة منظّمة؟ كانت نبرتها في غايةِ الجدية، بيد انها بقِيَتْ تكرر الشكوى ذاتها سنواتٍ طوالًا حتى أصبحت اليوم بمثابة طقسٍ حميم مكرور.

«آزي» هي صيغة التحبب من اسمي، وكانت أمي تناديني بها وهي تقول: «آزي. لقد أصبحتِ امرأةً ناضجة الآن، فتصرفي كما يليقُ بامرأة ناضجة!». كان هنالك شيء ما في نبرتها يجعلني أبقى أحسّ بأنني صغيرة ورقيقة وعنيدة، إلا أنني صرتُ كلما استعدتُ بذاكرتي نبرةَ صوتها تلك، أدرك تمامًا كم لم أحقق لها يومًا ما كانت تتمنى أن تراني عليه! فلم أكن لها أبدًا تلك المرأة التي حاولَتْ أن تجعلنيَأنا مَن أرغبُ أن أكونها».

لقد احتلتْ تلك الغرفة التي لم أكن لأعيرها أيّ اهتمام في ذلك الوقت، مكانةً مختلفة في عيون ذاكرتي اليوم، وأصبحت تشكلّ بالنسبة لي التفصيل الأعز من بين كل تفاصيل الذاكرة. كانت غرفةً ثرّة، ذات تصميماتٍ وأثاث متفرق عشوائي. يحتلُ الموقد الحجري إحدى زواياها، تلك البدعة العجيبة التي ابتدعها زوجي «بيجان». واتكأت على أحدِ الجدران أريكةٌ من مقعدين (كرسي الحب)، وقد أُلقيتْ عليها غطاءً من الدانتيلا كان هديةَ أمي منذ زمن بعيد. وثمة أريكة مشمشيةُ اللون شاحبة تقابل الشباك، وقد وُضعنا معها كرسيين وطاولة حديد ذات سطح من الزجاج.

كان مكاني دائمًا على الكرسي الذي أدارَ ظهرهُ للشباك المطلّ على طريق مسدود يدعى «آذر». وفي الجهة المقابلةِ لذلك الشباك يقعُ المستشفى الأميركي السابق. كان هذا المستشفى صغيرًا ومقتصرًا على فئاتٍ محددة من الناس، فتحول بعد ذلك إلى مركز صحي ضاج ومزدحم، مخصص لرعاية قدماء المحاربين من الجرحى ومعوقي الحرب. وفي كل عطلة نهاية الاسبوع، يومي الخميس والجمعة في إيران، راح الشارع الصغير يزدحمُ بزوار المستشفى

بضجيجهم وصراخِ أطفالهم ومأكولاتهم وكأنهم في نزهة. كانت الحديقة الأمامية لجارنا، قرة عينه ومدعاة سروره، هي الضحية الأكبر لغارات زوار المستشفى، خصوصًا في أيام الصيف حينما ينجح الأطفال في الوصول إلى زهور الورد(الجوري) الأعز على قلب جارنا. كنا نستطيع ان نسمع صراخَ الصبية وبكاءهم وضحكاتهم يتناهى إلينا ممزوجًا بأصوات الأمهات وهنّ يستصرخنَ أولادهن ويهددنهم بالعقاب. وقد يتسلل صبي أو صبيان، فيقرعان جرس بابنا ثم يفران هاربَين، ليعودا للعبتهما المثيرة مرة أخرى في كل حين.

كانت شقتنا في الدورِ الثاني من المبنى الذي تشغلُ أمي طابقه الأول، أما الطابق الثالث فقد ضمّ شقة أختي التي بقيَتْ فارغةً تقريبًا منذ أن غادرها إلى إنكلترا. ومن موقع شقتنا ذاك كنا نستطيع أن نرى الأغصان العليا لإحدى الأشجار الوارفة. وعلى مبعدة منها من خلف المباني، كنا نستطيع ان نرى جبال «البُرز». أما الشارع والمستشفى وزوارها فقد كانوا موجودين محسوسين، ولكنهم كانوا خارج المشهد. كنا نحسّ بوجودهم فقط عبر أصواتهم التي كانت تتصاعد من هناك.

لم يكن بإمكاني ان أرى جبالي الأثيرةَ من مقعدي حيث اعتدتُ ان أجلس أيام الخميس. بيد ان قُبالة كرسيّ، على الجدار البعيد لغرفةِ الطعام، كانت ثمة مرآةٌ تراثية عتيقة أهداها لي أبي، وعبرها كنتُ أستطيع أن أرى تلك الجبال وقد توّجَتْ قممها الثلوجُ صيفَ شتاء، وأن أمتّع ناظريّ بالأشجار وهي تبدّل ألوانها في المواسم.

كان ذلك المنظر المحسوس قد عمّق لدي الانطباع بأن الضجة لم تكن قادمة من الشارع في الأسفل، بل من مكان آخر في البعيد. مكان ظلّ طنينهُ المتواصل يشكل صِلتنا الوحيدة بذلك العالم الذي كنا نرفضه. فكنا ننساهُ بضع سويعات، وكانت الأصوات وحدها هي التي تعيدنا اليه وترغمنا على الاعترافِ بوجوده.

لقد أصبحتْ هذه الغرفة بالنسبة لنا بمثابةِ معقلٍ للآثام. وتراءتْ لنا وكأنها

بلاد العجائب. كنا ونحن جالسات متحلقات حول طاولةِ القهوةِ الواسعة وقد كلّلتها باقاتُ الزهور، نحلّق بنشوةٍ من روايةٍ لأُخرى نقرأها. وإذ أنظر للماضي الآن أراني مذهولة للكم الذي تعلمناه من دون ان نعي! فقد كنا، بحسبِ تعبير «نابوكوف»، نشهد بالتجربةِ الحية كيف يمكن لحصاةٍ عادية في حياتنا اليومية أن تستحيلَ جوهرةً ساطعة اذا ما نظرنا اليها عبرَ العينِ السحريةِ للأدب.

[3]

الساعة هي السادسة صباحًا، كان هذا هو اليوم الأول لصفنا الدراسي الخاص، وكنت صاحية فعلًا، لكنني كنتُ مُستفزة إلى الحد الذي منعني من تناول الفطور، فأدرتُ الإبريق الكهربائي لأعدّ قهوتي، وشرعتُ لأخذِ حمام هادئ غير آبهة بالوقت. داعبَ الماء رقبتي وظهري وساقيّ، فوقفتُ في مكاني جامدة ومحلّقة في آن. وتداعتِ الأفكار؛ ها أنني للمرة الأولى منذ سنين يتابني حدسٌ لا يشوبهُ التوتر، يوشوشني بأنني لن أكون مضطرّة بعد اليوم للخوضِ في غمارِ تلك الطقوسِ المهلكةِ التي وشَمَتْ أيامي حينما كنت أحاضرُ في الجامعة. تلكم الطقوس التي كانت تتحكم بهندامي وتصرفاتي، بل وحتى إيماءاتي التي كان عليّ دائمًا أن أتعلم السيطرة عليها. أما هنا في هذا الصف.. فستكون إستعداداتي مختلفة من دون شك.

فما اشبه الحياة في الجمهورية الإسلامية بتقلباتِ الطقس في شهر نيسان، حينما تفاجئنا السويعاتُ القصارُ لإشراقةِ الشمسِ وهي تفتح البابَ لزخاتِ المطر والعواصف. لم يكنْ بالامكانِ حتى التنبؤ بما قد يحدث. كان النظام يدخلُ في دواماتٍ من التسامح الذي تباغتهُ القوانين الصارمة من دون سابقِ إنذار. وكنا آنذاك، بعد حقبة من الهدوء النسبي أو ما يسمى باللبرلة، قد دخلنا من جديدٍ في مرحلةٍ من المعاناة المفاجئة. وأصبحتِ الجامعات مرة اخرى هدفًا لانتقادات المتشددينِ الذين صارَ شغلهم الشاغل فرضَ قوانين جديدة

أكثر صرامة. فراحوا يطالبون بفصلِ الذكورِ عن الاناث في الفصولِ الدراسية، وبمعاقبة الأساتذةِ غير الملتزمين بالتعليمات والضوابط الجديدة.

كانت جامعة «العلامة الطباطبائي»، حيث كنت أعمل منذ عام ١٩٨٧، قد تميّزت بكونها الجامعة الأكثر ليبرالية من بين جامعات طهران. وسرّتْ إشاعة تفيد بأن أحدَ المسؤولين من وزارةِ التعليم العالي تساءل باستنكار ما اذا كان منتسبو الكلياتِ في جامعة العلاّمة يظنون بأنهم يعيشون في سويسرا! وكانت كلمة «سويسرا» قد أصبحتْ تعبيرًا شائعًا لوصف الانحلالِ في الغرب، وصار أي برنامج أو نشاطٍ غير إسلامي يُستهان به بإطلاق عبارة ساخرة تقول: إن إيران أصبحت «سويسرا» من دون شك. بيد أن الضغطَ على طلبةِ الجامعة كان أقوى وأعنف. وكم كنت أشعر بالعجز كلما استمعتُ إلى تفاصيل المعاناة التي لا تنتهي، والتي كان يتعرض إليها طلبتي كل يوم!

فإذا ما أسرعَتْ طالبةٌ لتلحقَ بالدرس، عاقبوها على الهرولة! وإذا ضحكَتْ عاقبوها على الضحك في الممرات! وأيضًا، كانوا يعاقبونها إذا ما ضُبطَتْ وهي تتحدّث مع أحدٍ من الجنس الآخر! ذات يوم، اقتحمتْ «ساناز» قاعةَ الدرس قبل نهاية المحاضرة بقليلٍ وهي تبكي. ومن بين سيل دموعها المنهمرة استطعتُ ان أفهمَ بأنها تأخرتْ لأن حارساتِ البوابةِ عثرنَ على أحمرِ خدودٍ في حقيبتها عند التفتيش، وكنّ قد حاولنَ إعادتها الى البيت مع كتاب توبيخ!..

لماذا توقفتُ عن التدريس فجأة؟ كنت قد سألت نفسي هذا السؤالَ مرارًا. هل كان ذلك بسببِ مستوى الجامعةِ الذي بدأ ينحدر؟ أم بسببِ اللامبالاةِ التي بدأتْ تتفاقمُ أكثرَ فأكثر وسط ما تبقى من أساتذةٍ وطلبة؟ أم بسببِ المعاناةِ اليوميةِ مع القوانين والتعليماتِ الكيفيّة؟ ابتسمتُ وانا أحك بشرتي بقطعة الليفِ الخشنة، وأنا أتذكرُ ردةَ فعلِ المسؤولين في الجامعة أمام كتاب استقالتي. كانوا قد بدأوا يزيدون من مضايقتي، ويقيّدون حركتي بشتى الوسائل: بالتجسسِ عليّ وعلى زواري، أو بتحديد نشاطاتي، وبالمماطلة

لسنواتٍ في منحي استحقاقي بالتثبيتِ كأستاذة. ولكنني حين قدمتُ استقالتي، عمدوا إلى إغاظتي بادعاء التمسكِ بي فجأة، وبرفض الاستقالة. كان الطلاب قد هددوا بمقاطعةِ المحاضرات تضامنًا معي (ما أشعرني بشيء من الرضا، أنني أدركتُ بعد حين إن طلبتي قاطعوا فعلاً من أُريدَ له ان يحلّ محلي، على الرغم من أن الإدارة كانت قد هددتهم بالانتقام). وكان الجميعُ متيقنًا بأنني سوفَ أنهارُ في نهايةِ المطاف وأعدلُ عن فكرتي لا محالة.

كان قد مرّ عامان كاملان قبل ان يوافقوا أخيرًا على منحي الاستقالة. أتذكر صديقًا قالَ لي ذات يوم: «حاولي أن تفهمي طريقة تفكيرهم، فهم لن يوافقوا على الاستقالةِ لأنهم يعتقدون بأنه لا يحقّ لكِ تركُ العمل معهم، فهم وحدهم أصحاب القرار. ولهم الحق وحدهم في تقرير المدةِ التي يجبُ عليك البقاء فيها والتوقيتِ الذي سيتم الاستغناء به عن خدماتك». ولم يكن قرارُ الموافقةِ على استقالتي إلا غيضًا من فيضِ القرارات الكيفية التي أصبحتْ لا تطاق.

وأيضًا، لم يكفّ أصدقائي عن التساؤل: «وماذا ستفعلين الآن؟ هل سوف تمكثينَ في البيت فقط؟». كان يمكنني القول: «حسنًا، بإمكاني الآن أن أنجز كتابًا جديدًا» وفي الحقيقة لم يكن في البالِ مشاريعُ بعينها. فأنا لما أكنْ قد أفقتُ بعد من تبعاتِ طبع كتابي الأخيرِ عن «نابوكوف». ولم يكن ببالي سوى مجموعةٍ من الأفكارِ المبهمة مثل أبخرة تتصاعد لتجتاحني كلما فكرت بإنجاز كتاب جديد. وكان بإمكاني، في أقل تقدير، ان أعكفَ على مواصلةِ مهمتي الممتعة في دراسة الأدب الفارسي.

بيد أن مشروعًا بعينه كان هو الأولُ والأولى ببالي. ولم يكن سوى فكرةٍ محض كانت قد بدأتْ تتنامى منذ سنين: كنت أحلم منذ وقتٍ طويل بأن أنشئ صفًا دراسيًا خاصًا. صفًا يمنحني الحرية التي حُرمتُ من ممارستها في الفصول الدراسية التي قمتُ بتدريسها في الجمهورية الإسلامية. كنت راغبة في تدريس مجموعةٍ صغيرةٍ منتقاة بعناية من الطلبة الملتزمين والمهتمين بدراسة الأدب،

طلبة لم تفرضهمْ علينا الحكومة، ولم يختاروا دراسة الأدب الانكليزي لمجرّد انهم لم يحصلوا على القبول في أقسام أخرى، أو لأنهم ينظرون الى الحصولِ على شهادةٍ في اللغة الإنكليزية على أنها وعدٌ بالحصولِ على فرصةِ عمل جيدة.

كان التدريسُ في الجمهورية الإسلامية، مثله مثل أي وظيفةٍ اخرى، مرهونًا بالوضع السياسي، ومتأثرًا بالقوانين الاعتباطية. وكانت متعة التدريس غالبًا ما تفسدها الانحرافات والاعتبارات العشوائية التي كان يفرضها علينا النظام بالقوة. فكيف لنا أن نقوم بالتدريس كما يجب، حينما يكون أقصى اهتمام لمسؤولي الجامعة منصبًّا على لون شفاهنا، وعلى القابلية التدميرية لخصلة شعرٍ يتيمة قد تطيش من تحت الإيشارب، وليس على كفاءتنا في أداء واجباتنا العلمية؟ كيف للمرء أن يركز في عمله فعلاً، حينما يكون الشغل الشاغل للمسؤولين في الكلية هو حذفُ كلمةِ «نبيذ» من قصةٍ لـ«همنغواي»؟ أو حينما تكون من أولوياتهم إصدارُ قرارٍ بمنعِ تدريس «برونتي» لأنها، كما اتضح لبعض المسؤولين، «تتغاضى» عن فعل الزنى؟!

ذكرني ذلك بإحدى الصديقاتِ الرسامات التي كانت قد ابتدأتْ عملها بتجسيدِ مشاهد من الحياة اليومية، وبخاصة: غرف مهجورة أو بيوت مقفرة، أو صور فوتوغرافية قديمة لنساء وحيدات. وشيئًا فشيئًا أصبحتْ أعمالها تميلُ أكثر نحو التجريد. وفي معرضها الأخير، كانت الأعمال عبارة عن بقعٍ متناثرةٍ من الألوان الصارخة (مثل تلك اللوحتين الموجودتين في غرفة الطعام في بيتي: بقع سودٍ تشوبها قطيراتٌ صغارٌ من الأزرق). وحينما سألتها عن سبب تحوّلها من الواقعية الحديثة الى التجريد، أجابتني: «لقد أصبحنا نعيش واقعًا لا يطاق، واقعًا أسودَ قاتمًا إلى حدّ أنني لن أستطيع بعد الآن إلاّ أن أجسّدَ لونَ أحلامي».

«لونُ أحلامي».. كررتُ العبارةَ لنفسي وأنا أخطو خارج المغطسِ الى الأرضية الباردة للحمام. لقد أعجبتني العبارة، فكم من الناس يسعفهم الحظ

في ان يصوّروا ألوان أحلامهم؟ وضعتُ برنس الحمام الواسع، وشعرتُ بالراحة وأنا أنتقل من سريةِ الماء الذي احتضنتني الى الغطاء الواقي للبُرنس وهو يلتفّ حول جسدي. مشيتُ حافيةَ القدمين الى المطبخ، وصببتُ بعض القهوةِ في كوبي المفضل (الكوب ذي الفراولاتِ الحمر)، ثم جلستُ باسترخاءٍ تام على الديوان في الصالون.

كان هذا الصف هو لون أحلامي! فقد هيأ لي انسحابًا مثمرًا من الواقع الذي استحالَ بالتدريج الى منطقةٍ معادية. لقد كنتُ بأمَسِّ الحاجةِ الى التمسكِ بذلك الشعور النادر بالنشوة والتفاؤل الذي اجتاحني فجأة. فقد كنتُ في داخلي أجهلُ تمامًا ما ينتظرني في نهاية المطاف إذ أنا على أعتاب مشروع كهذا. قال لي أحد الأصدقاء: «بل لقد كنتِ مدركةً تمامًا بانك تسحبين أكثر فأكثر الى نفسك، أما الآن، وقد قطعتِ علاقتك بالجامعة، فستكونُ جلّ علاقتك بالعالم الخارجي مقتصرةً على غرفة واحدة من دون سواها». كان قد تساءل: «إلى أين ستفرينَ من هذا المكان؟». ففكرتُ وأنا أتوجّه الى غرفةِ النوم لاستبدال ملابسي: «إن الانسحاب إلى أحلامنا قد يكون خطرًا». لقد تعلمتُ ذلك من الحالمين المجانين في رواياتِ «نابوكوف»، مثل «كينبوت» و«هومبرت»...

حينما انتقيتُ طالباتي، لم أمعن النظرَ في خلفياتهنّ الأيديولوجية أو الدينية. ولكنني أيقنتُ لاحقًا بأن الإنجازَ الأعظم لهذا الصف الدراسي الخاص، هو أن هذا الخليط المتباينَ من الطالبات كان بحق قمة في الإخلاص لتلك الغاية التي اجتمعنا من أجلها وأنشأنا ذلك الصف، على الرغم من أنهنّ كنّ قد أتينَ من بيئات مختلفة اجتماعيًا أو دينيًا أو حتى إنسانيًا، بل وقد كانت متنازعة في أحيانٍ كثيرة.

وكان من بين الأسباب التي دعتني الى انتقاء هاتيك البنات من دون سواهن، هو ما لمستهُ فيهن من تمازجٍ فريد بين الرهافة والشجاعة. فقد كنّ من ذلك النوع من البشر الذي يصح عليهنّ القول بأنهن كن «متفردات» وذوات طبيعة خاصة،

ولم ينتمين لأيّ جماعة أو طائفة بعينها. لقد أذهلتني طاقتهنّ على مواصلةِ الحياة لا على الرغم من عوالمهنّ الانعزالية وإنما بسببها. لقد اقترحتْ علينا «مانا» ذات يوم بأن نسمّي هذا الصف: «الفضاء الخاص بنا»، في إشارة الى «فرجينيا وولف» و«الغرفة الخاصة بها».

قضيت وقتًا أطولَ من المعتاد في اختيارِ ما أرتديه في ذلك الصباح الأول. رحتُ أجرّب أثوابًا مختلفة، حتى وقع اختياري أخيرًا على قميصٍ أحمر مخطط وبنطلون جينز مضلّع. ووضعتُ مكياجي بعناية فائقة، وأضفتُ له حمرة شفاه ذات لون أحمر فاقع. ولكنني ما أن انتهيتُ من تثبيتِ القرط الذهبي الصغير في أذني، حتى انتابني ذعر مفاجئ: ماذا لو أن الأمر لم يتم على ما يرام؟.. ماذا لو أنهنّ لن يأتين اليوم؟

بيد أن هاجسًا قويًا راح يهتفُ داخلي متوسلًا: «كلا.. لا تقولي ذلك أرجوك.. أجّلي مخاوفكِ بضع سويعاتٍ فقط.. أرجوك.. أرجوك!».

قلت هذا لنفسي وانا أهمّ بانتعال حذائي، ثم ذهبتُ الى المطبخ.

[4]

كنت أعدّ الشاي حين رنّ الجرس، لكنني كنت مستغرقةً في أفكاري فلم أسمعه أول مرة. فتحتُ الباب لـ«مهشيد». قالت لي وهي تناولني باقةً من النرجس البري الأبيضِ والأصفر: «ظننتُ بأنك خارج البيت». فبادرتُها وهي تهمّ بخلع جبتها السوداء: «لا رجال في البيت.. بإمكانك خلع هذا عنك أيضًا». فترددتْ قليلاً، ثم أخذتْ تفكّ عنها إيشارب رأسها الأسود الطويل.

كانت «مهشيد»، هي و«ياسي»، قد التزمتا بارتداء الحجاب. بيد أن «ياسي» كانت مؤخرًا قد أصبحتْ أقل تشددًا وأكثر استرخاءً في ارتدائه. فكانت تربطه بعقدة غير محكمة تحت ذقنها، بينما يتسلل من تحت الإيشارب شعرها البني الغامقِ الطويل المفروق من منتصفه بلا مبالاة. بينما كان شعر «مهشيد» مصففًا دائمًا وملفوفًا بعناية تحت الإيشارب. كانت خصلاته القصار تمنحها ملامحَ غريبة لامرأة من طراز قديم، ملامح كانت تشعرني بأنها أوروبية أكثر من كونها إيرانية.

في ذلك اليوم، كانت «مهشيد» ترتدي قميصًا أبيض وسترة من الأزرق الداكن وقد طُرّزت من جانبها الأيمن بفراشة صفراء كبيرة. فأشرتُ الى الفراشة وقلت لها: «هل وضعتِ هذه الفراشة احترامًا لـ«نابوكوف»؟».

لم أعد أتذكر متى بدأتْ «مهشيد» تحضر محاضراتي في الجامعة. لقد بدتْ وكأنها كانت موجودة دائمًا بطريقة ما. كان والدها من المؤيدين المتحمسين للثورة، كان رجلاً مسلمًا ورعًا، فاقتنعَتْ بارتداء الحجابِ حتى قبل قيام الثورة. كتبَتْ ذات مرة في مذكرات الصف الخاصة بها، عن تلكم الصباحات

الموحشة التي كانت تذهب فيها الى الجامعة فترى الطالبات الزاهيات بآخر صيحات الموضة، وكيف أنها، للسخرية، كانت تشعرُ بالتجاهل والاهمال بسبب هيأتها التي لم تكن متماشية مع ذوق بنات الجامعة آنذاك. وبعد قيام الثورة سُجنتْ «مهشيد» خمس سنوات بسبب إنضمامها الى أحد الأحزاب الإسلامية المنشقة، ثم حُرمتْ من العودةِ الى الدراسة عامين كاملين عقبَ إطلاق سراحها.

أستطيع أن أتخيّلها في تلك الأيام التي سبقتْ الثورة، وهي تذرع الطريق الطويل أعلى التلّ باتجاه الجامعة في صباحات مشمسة لا يمكن حصرها، فأراها وهي تسير وحيدة مطرقة الرأس. وأيضًا أراها بعد حين، وهي عاجزة عن الاستمتاع بألَقِ الأيام الجديدة. أقول ذلك، لأن الثورة التي فرضت الحجاب على الاخريات لم تستطعْ ان تحرر «مهشيد» من قيود وحدتها. فقبل الثورة، كان يمكنها على الأقل ان تأنسَ في عزلتها بالفخر والاعتزاز بالنفس، فكان غطاء رأسها حينئذ بمثابة وثيقة عهدٍ لإيمانها، وكان قرارها فيه طوعيًا. أما حينما فرضت الثورة الحجاب على جميع النساء، فقد أصبح اختيارها وكأنه غير ذي قيمة.

و«مهشيد» إنسانة مثالية بكل معنى الكلمة. تتمتعُ بجمالٍ وكبرياء فريدين. بشرتها بلون بياض القمر، وعيناها لوزيتان، وشعرها أسود فاحم. ترتدي ملابس بألوان الباستيل وتتحدثُ بنعومة. وكان من المفترضِ أن تقيها تربيتها الدينية من الخوض في تلك التجربة المريرة، إلا أن ذلك لم يحدث، وما زلتُ لا أستطيع أن أتخيّلها وهي في السجن.

لم تحدثني «مهشيد»، طوال السنواتِ الكثيرة التي عرفتُها فيها، عن تجربتها في السجن ولو بشكل عابر. تلك التجربة التي خرجتْ منها بعجزٍ في إحدى الكِلْوتين، لتعيش بقيةَ حياتها بكلوة واحدة. كنا ذات يوم قد تطرقنا أثناء الدرس للحديثِ عن مخاوفنا اليومية وكوابيسنا، فذكرتْ لنا «مهشيد» بأن ذكرياتها في السجن كانت لا تزال تراود أحلامها بين الحين والحين، وبأنها لما تكنْ قد استطاعتْ بعد تجاوزها او إيجاد أي تفسيرٍ واضح لها. لكنها أضافتْ بأن حياتنا

اليومية لم تكن بأقلّ رعبًا من حياة السجن.

سألتُ «مهشيد» ما إذا كانت ترغب ببعض الشاي؟ ولأنها كانت حريصة دائمًا على شعور الآخرين، فضّلتْ أن تنتظر مجيء بقية الطالبات، مُعتذرة عن مجيئها المبكر. وسألتني: «هل من مساعدةٍ أستطيعُ القيام بها؟». فقلت لها وأنا أخطو الى المطبخِ حاملةً باقة الزهور باحثة عن مزهرية: «ليس ثمة ما يستدعي المساعدة فعلاً. أرجوكِ تصرفي كما لو كنتِ في بيتكِ». رن الجرس مرة أخرى، فصاحتْ «مهشيد» من غرفة الطعام: «سأفتح الباب». وسمعتُ بعض الضحكات، كانت «مانا» و«ياسي» قد وصلتا.

دخلتْ «مانا» المطبخَ حاملةً باقةً صغيرة من الروز(الجوري)، وقالت: «إنها من «نيما».. فهو يريدكِ ان تشعري بالذنبِ لأنك قررتِ استثناءهُ من الانضمام إلينا، وهو يقول لك بأنه سيحملُ باقة وردٍ ويعتصمُ أمام بيتكم طوالَ ساعاتِ الدرس احتجاجًا على قرارك. كانت تشعّ إبتسامًا، فتناثرتْ بعض الالتماعاتِ من عينيها ثم خبَتْ من جديد».

وضعتُ المعجنات على عربة طعام كبيرة، وأنا اسأل «مانا» ما إذا كانت قد جسّدت الكلماتِ التي في قصائدها بالألوان. ورحتُ أشرحُ قصدي: يقول «نابوكوف» في سيرته، بأنه كان قد شاهدَ، هو ووالدته، الحروف الأبجدية بالألوان، وهو يقولُ عن نفسه بأنه كاتبٌ يلوّن بالكلمات.

فقالت «مانا» وهي تلم بإصبعها الأوراقَ التي وقعتْ من باقة الورد: «لقد تبلّد إحساسي بالألوانِ بسببِ الجمهورية الإسلامية. صرتُ أميلُ إلى ارتداء الألوان الصارخةِ مثل الوردي الفاقع او الأحمر بلون الطماطم. صرتُ أحس بنهم للألوان يمنعني من رؤيتها في مفرداتٍ منتقاةٍ بعناية في قصيدة». كانت «مانا» من ذلك النوع الذي يمكنه أن يتقنَ الإحساسَ بالنشوة وليس الإحساس بالسعادة.

قلت لها: «تعالي معي.. أريد أن أريَكِ شيئًا». فسرنا إلى غرفة نومي، وقلت: «حينما كنتُ صغيرة، كنت مهووسةً بمعرفةِ ألوانِ الأماكن والأشياء في حكايا أبي التي كان يقصّها عليّ كل ليلة قبل النوم. كنت أريد ان أعرفَ كل شيء:

لون ثوبِ شهرزاد، ولون ملاءة سريرها، ولون ماردِ المصباح السحري، ولون المصباح. وذات يوم، سألتُ ابي عن لون الجنة. فقال لي بأنها من الممكن أن تكون باللون الذي أريدها أن تكون عليه. ولكن جوابهُ لم يقنعني. وبعد أيام، وإذ كان في زيارتنا بعض الضيوف، كنت أتناولُ حسائي في غرفةِ الطعام حينما وقعتْ عيناي على لوحةٍ زيتية في الجدارِ لم تكن قد غادرَتْهُ منذ أن تشكّلتْ ذاكرتي، وأدركتُ في تلك اللحظةِ تمامًا، ما هو لون جنتي!.. وها هي ذي!».

قلتُ الجملةَ الأخيرة بفخرٍ وانا أشيرُ الى لوحةٍ زيتية صغيرة ذات إطار خشبي قديم؛ تصوّر منظرًا طبيعيًا لخضرة وارفة، تتدلى أوراق أشجارها، ويظهر فيها عصفوران، وتفاحتان حمراوان قانيتان، وكمثري ذهبية، ولمسة من الأزرق.

فصاحتْ «مانا» وعيناها لا تزالان عالقتين باللوحة: «وأنا لون جنتي هو أزرق المسابح!» ثم التفتتْ إليّ قائلة: «لقد نشأنا في بيتِ جدي وجدتي، وهو بيت كبير ذو حديقة واسعة، أنت تعرفين الحدائق الإيرانية القديمة بأشجارها المثمرة الظليلة؛ كانت ملأى بالتفاح والكمثرى والكرز والبرسيمون(الكاكي)، ناهيكَ عن صفصافةٍ أو اثنتين. وما زلتُ أحتفظُ بأجمل الذكريات عن السباحة في مسبحنا الكبير ذي الشكل الغريب غير المنتظم.. أتعلمين؟.. لقد كنتُ ذات يوم بطلةً سباحة في المدرسة، وكان ذلك مصدر فخر لأبي. وبعد قيام الثورة بما يقاربُ العام، رحل أبي إثرَ نوبة قلبية، ثم صادرت الحكومة بيتنا وحديقتنا، وانتقلنا للعيش في شقة صغيرة. ولم أعد أمارس السباحة مطلقًا منذ ذلك الحين. وفي قعر ذلك المسبحِ تحديدًا.. يقبعُ حلمي». ثم أردفت ونحن نتوجّه الى غرفة الطعام: «لطالما عاودني في المنام حلم أرى فيه نفسي وأنا أقفزُ في المسبح محاولةً أن أستعيدَ شيئًا ما من ذكريات أبي وطفولتي».

كان الجرس قد رن من جديد. وصلتْ «آذين» و«ميترا» معًا. خلعتْ «آذين» جبّتها الشبيهة بثوبِ الكيمونو الياباني، وقد كان آخر صيحةٍ في ذلك الوقت، فظهر من تحت الجبة قميصها الأبيض البدائي الذي لم يكن يُبدي أي محاولة

لتغطية كتفيها، والتمعَ قرطاها الذهبيان الكبيران، وبرزَتْ حمرةُ شفتيها الوردية. قدمتْ لي غصنًا من أزهار الأوركيد الصفراء الصغيرة، وقالتْ لي بتلك النبرة التي تخصها وحدها، والتي تصدر من شفتيها المغناجتين: «هذي مني ومن ميترا».

ثم وصلت «نسرين»، ناولَتْني علبتين من حلوى «النوغا»، وقالتْ مؤكّدة: «إنها هديةٌ من أصفهان». كانت ترتدي زيّها المعتاد: جبةً من الأزرق الداكنِ وإيشاربًا من الأسودِ الفاحم وحذاءً أسود بدون كعب. حين رأيتُ «نسرين» في المحاضرة آخر مرة كانت ترتدي جادورًا واسعًا جدًا، ولم يكن يظهر منها الا وجهها البيضاوي وكفيها اللتين لا تعرفان الهدوء (فحتى إذا لم تكن «نسرين» تكتبُ أو تشخبط عابثة بالقلم أثناء الدرس، تكون كفّاها في حالةِ حركةٍ مستمرة وكأنهما تحاولان الفرار من معتقلِ القماش الأسود السميك). وقد استبدلتْ الجادور مؤخرًا، بجبةٍ واسعةٍ طويلة إما زرقاء أو سوداء أو بنيّ غامق، واختارتْ ما يلائمها من إيشاربات سميكة تخفي شعرها وتؤطّر وجهها. كان له وجه صغير ناحل، وبشرة بيضاء شفافة إلى حدّ أن بوسعِ المرء أن يحصي شرايينها. وكان لها حاجبان غامران، ورموش طويلة، وعينان بنيتان مفعمتان بالحيوية، وأنف صغير معتدل، وفم غاضب. لكأن وجهها كان صورةً مصغّرة ابتدعها فنان، نودي عليه فجأة وهو منهمك في عمله، فترك ذلك الوجه التي رُسِمَت ملامحه بعناية فائقة، تركه سجينًا في بقعةٍ مهملة من اللون الغامق! وكانت تلك البقعة هي ما ترتديه «نسرين».

سمعنا زعيقَ عجلاتِ سيارة وفرملةً مفاجئة. نظرتُ من الشباك، لأجد سيارة رينو صغيرة قديمة حليبية اللون تقفُ عند حافة الرصيف، يجلسُ خلف مقودها شاب ذو ملامح جريئة حادة، يضع نظاراتٍ شمسيةً على أحدث طراز، كما يضع ذراعه ذات الكم الأسود على حافةِ الشباك المفتوح، فيعطي انطباعًا بأنه يقود سيارة بورش. كان يحدّق أمامهُ مباشرةً وهو يتحدثُ الى المرأة الجالسة

الى جواره، ثم أدارَ رأسه فجأة صوب اليمين، ولم يكن من الصعب التخمينُ بأنه تفوّه بعبارة غاضبة، وكانت تلك هي اللحظة التي نزلتْ المرأة فيها من السيارة، ليصفقَ الباب بعدها بغضب. تقدّمت المرأةُ صوب بوابة بيتنا الأمامية، فأخرجَ الشابُ رأسه وصرخ ببضع كلمات، لكنها لم تلتفتْ لتجيب. كانت تلك الرينو القديمة هي سيارة «سانازْ» التي اشترتها بما ادخرته من عملها.

استدرتُ صوب الغرفة وقد احمرّتْ وجنتاي خجلاً من أجل «سانازْ»، وأيقنتُ بأنه لا بد وأن يكون هذا هو أخوها المقرف. ولم تمضِ لحظاتٌ حتى رنّ الجرس، وسمعتُ خطوات «سانازْ» اللاهثة، فهرعتُ لأفتح لها الباب. بدتْ في غاية الضيق والإنهاك، وكأنها كانت تركضُ هاربة من لص أو صياد. وما أن رأتني حتى أصلحَتْ ملامح وجهها بابتسامة، وقالت بأنفاس متقطّعة: «آملُ الاّ اكون قد تأخرتُ كثيرًا».

كان يهيمن على حياة «سانازْ» في ذلك الوقت رجلان مهمان؛ كان الأول أخاها. كان في التاسعة عشرة من عمره، ولم يكن قد أكمل دراسته الثانوية بعد وكان هو الولد الأثيرُ المدللُ لدى أبويهما. فقد رزقهما الله به بعد ابنتين، وقد شاء حظ الثانية ان تفارقَ الحياة وهي بعد في سن الثالثة. كان مدللاً إلى حد الإفساد، وكان هاجسه الأعظم في الحياة هو «سانازْ». فلجأ الى اثبات رجولته عبر التلصّص على اخته، واستراق السمع الى مكالماتها الهاتفية ومراقبة تصرفاتها وأيضًا؛ التجوّل بسيارتها. وقد حرص الأبوان على استرضاء «سانازْ» وتهدئتها طالبين منها ان تكون معه أكثر صبرًا وتفهمًا كونها الأخت الكبرى، وأن تلجأ الى أمومتها في استيعاب تصرفاته في هذه السن الحرجة.

أما الرجل الثاني في حياة «سانازْ» فقد كان حبيبَ صباها. ذلك الصبي الذي تعلّقتْ به وهي بعد في الحاديةَ عشرَة من عمرها. كانت عائلتاهما من أقرب الأصدقاء، وكانتا تقضيان معًا معظم الأوقات والإجازات. وقد تراءى وكأن «سانازْ» و«علي» كانا عاشقين منذ الأزل. كان الاهل قد باركوا تلك العلاقة،

وقالوا عنها بأنها أشبه بزيجةٍ من تدبير السماء. وبعد أن غادر «علي» الى إنكلترا قبل ستة أعوام، اعتادت والدته على مناداة «ساناز» عروسة «علي». وبقي العاشقان على اتصال، فكانا يتراسلان ويتبادلان الصور. وأخيرًا، وبعد أن تزايد المتقدمون لخطبةِ «ساناز»، تطرّق الأهل الى الحديث عن خطوبة العاشقيْن، وعن إعادة لمّ الشمل في تركيا، حيث لا يحتاج الإيرانيون الى سمة دخول. وكانت «ساناز» على أهبة الاستعدادِ في ذلك الوقت لاستقبال الحدث في أي لحظة، على الرغم من أنها كانت ترنو إليه بشيء من الخوف والارتباك.

لم أكن قد رأيت «ساناز» في غير زيها الموحد قبل ذلك الصباح. فوقفتُ أمامها مذهولةً بلا حراك تقريبًا، وانا أراها تنفض عنها جبّتها وايشاربَ رأسها. كانت ترتدي قميصًا برتقاليًا (تي شيرت) محشورًا في بنطلون جينز ضيّق، وجزمة (بوت). لكن التغيير الذي كان جذريًا أكثر من سواه بالنسبة لي كان في فوضى الشعر البني الغامق المتلألئ الذي بدا وكأنه الإطار الجديد لوجهها الآن. هزّت رأسها فتمايل شعرها الساحر ذات اليمين وذات الشمال في حركةٍ كان قد تبين لي لاحقًا أنها عادة متأصلة فيها. كانت ترفع رأسها بحركة مفاجئة وتمرّر أصابعها في شعرها بين الحين والحين، وكأني بها تحاول ان تتأكد من سلامة ممتلكاتها النفيسة. لقد بدتْ ملامحها أكثر نعومة وألقًا، فقد كان الإيشارب الأسود الذي تضعه خارج البيت يجعل وجهها النحيل يبدو شاحبًا وحاد الملامح.

قالت لي بأنفاسٍ متقطعة وهي تمرّر أصابعها في شعرها: «أعتذر لأنني تأخرتُ قليلاً. لقد أصرّ أخي على إيصالي إلى هنا ورفض النهوض من النوم في الوقت المناسب. فهو لا يصحو قبل العاشرة، ولكنه أراد أن يعرف إلى أين أنا ذاهبة في هذا الصباح، فقد أخرجُ الى موعد سري، كما تعلمين، أو إلى لقاء غرامي ربما.. أو أي شيء من هذا القبيل».

فقلت وأنا أدعوهنّ جميعًا لاتخاذ أماكنهنّ حول الطاولة في غرفة الطعام:

«لطالما خشيتُ من احتمال ان يسبب هذا الصف مشاكل لأيّ منكنّ. أتمنى على ذويكنّ وأزواجكنّ أن يشعروا بالارتياح لمشروعنا الصغير هذا».

كانت «نسرين» تدور في الغرفة وتمعنُ النظر في اللوحات وكأنها تراها للمرة الأولى، فتوقفتْ وقالتْ بعفوية: «لقد لمّحتُ لأبي بشكلٍ عرَضي جدًا، ورفض رفضًا قاطعًا». فسألتها: «وإذًا؟ كيف استطعتِ أن تقنعيه بالسماح لك بالمجيء؟». فقالت: «لقد كذبتُ عليه!».. «كذبتِ عليه؟»..

فأجابتْ بتحدٍ: «وماذا بوسعِ المرء ان يفعلَ سوى ذلك مع شخص دكتاتوري إلى الحدّ الذي لا يسمح لابنته، وهي في هذه السن، أن تنضمّ الى صفٍ تدرسُ فيه الأدب، ولا تحضرهُ سوى مجموعة من النساء؟ ثم.. أليستْ هذه هي الطريقة التي نتعاملُ بها مع النظام؟ هل بوسعنا ان نخبرَ حرس الثورة بالحقيقة؟ بل نحن نكذبُ عليهم! نخبّئُ منظومات الأطباق اللاقطة، وندّعي بأن بيوتنا خالية من الكتب الممنوعة أو المشروبات الكحولية. حتى والدي المبجّل يكذبُ حينما يتعلقُ الأمر بسلامة عائلته».

فقلتُ لأشاكسها قليلاً: «وماذا لو أنه هاتفني ليتحققَ من صدق كلامك؟». فأجابتْ: «لن يفعل.. لقد تدبّرتُ عذرًا بمنتهى الروعة، فقد ادّعيتُ بأننا قد تطوعنا أنا و«مهشيد» للمساهمة في ترجمة بعض النصوص الإسلامية الى اللغة الإنكليزية». فسألتُها: «وهل صدقك؟». أجابتْ: «في الواقع.. أظن بأنه لا يملك سببًا يمنعه من تصديقي.. ثم إنني قلتُ له ما يريد ان يصدقه هو، فهو يثق بـ«مهشيد» ثقة عمياء».

فأردفتُ بإصرار: «وإذًا؟ اذا اتصل.. فهل سأكون مضطرة للكذب؟». فقالتْ: «إنه قرارك أنت». ثم صمتتْ برهةً وهي تنظر إلى يديها اللتين لا تعرفان الهدوء، وقالتْ: «هل تعتقدينَ بأن عليك أن تبلغيه بالأمر؟.. هل ورّطتك في مشاكلي؟». وهنا بدأتُ ألمسُ شيئًا من اليأس في نبرتها.

كانت «نسرين» تتصرفُ دائمًا بثقة عالية، إلى حدٍّ يجعلني أحيانا أنسى كم تخفي من رهافة وحساسية خلف تصرفات تلك الفتاة الصلبة. قلتُ لها بشيء

من الحنان هذه المرة: «انا أحترمُ ثقتك بنفسك طبعًا، وكما قلتِ فأنت امرأة ناضجة، وبإمكانك تقدير الأمور حق قدرها».

كنتُ قد سكنتُ الى كرسيّ المعتاد مقابل المرآة حيث إستقرّتِ الجبالُ إلى الأبد. من الغريب حقًا ان تجلسَ أمام المرآة، وبدلاً من أن ترى نفسك ترى منظرًا في غاية البعد عنك! كانت «مهشيد» قد جلستْ، بعد قليل من التردد، على الكرسي الموجود على يميني. وعلى الأريكة، في أقصى اليمين، جلسَتْ «مانا»، بينما استقرتْ «آذين» في أقصى اليسار. فحرصتا من دون وعي منهما على إبقاء مسافة بينهما. أما «ساناز» و«ميترا» فقد ارتمتا على الكرسي ذي المقعدين (كرسي الحب)، وكانت يداهما تتشابكان كلما تهامستا أو ضحكتا.

وفي تلك اللحظة انضمتْ للمجموعة «ياسي» و«نسرين»، وراحتا تتطلعان حولهما بحثًا عن مكان. أشارتْ «آذين» الى ما تبقّى من فراغ على الأريكة وهي تدعو «ياسي» إلى الجلوس. فترددتْ «ياسي» للحظة، ثم اندستْ لتجلس بين «آذين» و«مانا» باسترخاء تام، حتى يبدو بأنها لم تدعْ لرفيقتيها من براح، فجلستا باستقامة وبشيء من التصلب في مكانيهما الخاصين. كشف جسد «ياسي»، من دون الجبة، عن بعض الوزن الزائد، حتى بدا وكأنه جسد طفلة لما تتخلص بعد من بدانةِ الطفولة.

كانت «نسرين» قد انسحبتْ إلى غرفة الطعام باحثة لها عن كرسي، فبادرتها «مانا»: «بإمكاننا ان نحشرَك هنا بيننا» فقالتْ: «لا شكرًا.. أنا في الواقع أفضّلُ الكراسي ذات الظهور المستقيمة». وحينما عادتْ، وضعتْ كرسيها بين الأريكة و«مهشيد».

وبإخلاصٍ شديد، حرصتْ طالباتي على المحافظة على هذا الترتيب في الجلوس حتى النهاية، حتى أصبحتْ تلك الجلسةُ بمثابةِ رمزٍ للحدود العاطفية والعلاقات الشخصية فيما بينهنّ.

وهكذا.. ابتدأنا درسنا الأول.

[5]

ـ «آبسيلابا»

سمعتُ «ياسي» تهتفُ وأنا أدخلُ غرفة الطعام مع عربة الشاي. كانت «ياسي» تعشقُ اللعب بالكلمات، حتى أنها قالتْ لنا ذات مرة بأن هوَسها بالكلمات ليس عاديًا، بل هو أشبه بالمرضِ العضوي. وأكملَتْ: «.. ثم إنني حالما أكتشفُ كلمةً جديدة لا بدّ وأن أستخدمها، تمامًا كمَن تشتري فستانًا سهرة وتتلهفُ لارتدائهِ حتى في السينما أو في دعوةٍ للغداء».

دعوني أتوقفُ هنا قليلاً وأعيدَ الشريط كي نتتبع معًا سيرَ الأحداثِ التي ستقودنا الى هتافِ «ياسي»؛ كان ذلك في درسنا الأول، كنا جميعًا متوتراتٍ وعاجزاتٍ عن التعبير. فقد كنا اعتدنا ألا نلتقي في العلنِ وسط الناس، غالبًا أثناء الدرسِ أو في قاعاتِ المحاضرات، وكنتُ أعرفُ كل طالبةٍ منهنّ على حدة. وباستثناء وجود صداقةٍ حميمة بين «نسرين» و«مهشيد»، وأُخرى تجمعُ «ميترا» و«ساناز» بطريقةٍ ما، إلا أنه لم تكن لباقي البناتِ علاقة ببعضهن. بل إنهن في الحقيقة، لم يكن من الممكن أن تجمعهن أي صداقة لو ترك لهنّ الخيار. وقد جعلتهم تلك الحميمية الجماعية في حالةٍ من الاستنفار وعدم الراحة.

كنت قد شرحتُ لهن الغرضَ من وراء هذا الصفّ الدراسي الخاص، وهو قراءةُ الأعمالِ الأدبية والنقاشُ بشأنها واستعابها. وكان على كل طالبةٍ ان

تحتفظُ بدفتر مذكراتها الخاص الذي تسجلُ فيه ملاحظاتها بشأنِ كل عمل، بالإضافة إلى البحث في الصلة بين تلك الأعمال والنقاشاتِ حولها وبين الحياةِ الشخصية والتجربة الاجتماعية لكل طالبة.

وشرحتُ لهن كيف أني انتقيتُ هذه المجموعة منهن من دون سواها لأني وجدتُ بأنهنّ أكثر اهتمامًا بدراسة الأدب من باقي طالباتي. وأشرتُ إلى أن أحد المعاييرِ التي وضعتُها لاختيار الكتب التي سوف ندرسها كان الإيمان العميق لكتّابها بالطاقة الهائلة، بل وربما السحرية للأدب. ثم ذكّرتُهنّ بـ«نابوكوف» الذي كان في التاسعة عشرة من عمره حينما قامتْ الثورة الروسية، وكيف أنه لم يكن يسمح لنفسه بأن يتأثر بأصوات الرصاص. فواصلَ كتابة قصائدِ الصوفية بينما كانت أصواتُ البنادقِ تتناهى لمسامعه، ويتراءى له المحاربون الدمويون عبر الشباك. وقلت لهنّ: «فدعونا نجرّبُ بعد سبعين عامًا من ذلك الحدث، ما إذا كان إيماننا الحقيقيّ بالأدب جديرٌ بأن يجعلنا نعيدُ صوغ هذا الواقعَ المظلم الذي خلقتْه لنا ثورة أخرى».

كان أول عملٍ أدبي نطرحهُ للمناقشةِ هو «ألف ليلة وليلة»، تلك الحكاية المعروفة عن الملك المخدوع الذي كان يذبحُ كل يوم زوجةً عذراء جديدة ثأرًا لكرامتِهِ التي هدرتْها خيانة الملكة، حتى كفَّ يديه الدمويتين بعض الوقت حينما سلبتْ لبّهُ راويةُ الحكايا «شهرزاد». وضعتُ لطالباتي بعض الأسئلة العامة ليتأملْنَها أو يبحثنَ فيها. وكان السؤال الأهم هو: كيفَ يمكنُ لهذه الأعمالِ الخياليةِ العظيمة أن تساعدنا وتنير لنا طريقنا كوننا نساء سقطنَ في شركٍ من الظروف العصيبة؟ لم نكن نبحث عن خطة منهجية أو عن وسيلة سهلة لإيجاد الحلول، بقدر ما كنا نتمنى فعلاً ان نجد العلاقة بين الفضاءات المفتوحة التي تمنحها الروايات وبين المساحات المغلقة التي تضيق بنا. أتذكرُ أنني قرأتُ لبناتي عبارة «نابوكوف»: «لقد ولد القراءُ أحرارًا ولا بد لهم أن يبقوا كذلك».

وما أثار اهتمامي أكثر من سواه في الإطار العام لقصة «ألف ليلة وليلة»، هو أنها تقدّم ثلاثة أنماط للمرأة، وكلّهنّ ضحايا لأحكام الملك غير المنطقية. فقبل أن تدخلَ «شهرزاد» المشهد، تنقسمُ النساء إلى: من يرتكبنَ خيانة فيُقتَلْن (أي الملكة)، ثم من يُقتَلْن قبل أن يرتكبْنَ فعل الخيانة (أي العذراوات). أما العذراوات، اللواتي كن بلا صوتٍ على عكس «شهرزاد»، فلم يثرنَ أي اهتمامٍ للنقادِ عمومًا. ومع ذلك فإن لصمتهنّ مغزى؛ فهنّ يتنازلْنَ عن عذريّتهنّ وحياتهنّ من دون أدنى احتجاجٍ أو مقاومة. وهنّ بلا وجود تقريبًا، فنحن لا نلمسُ أي أثرٍ في الحكاية لموتهنّ المجهول الملامح. أما خيانة الملكة، فإنها لم تجرد الملك من سلطاته المطلقة، لكنها فقط تُفقِدهُ توازنه. ولذا فكلا النمطينِ من النساء، الملكة والعذراوات، يتقبّلْنَ ضمنًا ويصمتِ تلك السلطات المطلقة للملك، بتصرفهنّ بما تسمحُ به حدودُ سيطرته، ويتقبلهنّ لأحكامه العشوائية.

وتأتي «شهرزاد» لترجئ سلسلة العنفِ بعض الوقت بأن تأخذَ على عاتقها أن تبتدعَ الحيل المختلفة التي تشغل بها الملك وتشدّ انتباهه. فتتعمّدُ أن تصوغَ عالمًا من الخيال وتداعياته، ولا تتكئ على القوة الجسدية مثلما كان يفعل الملك. وتنجحُ بذلك أن تستلهم الشجاعة والجرأة للمخاطرة بحياتها، مما يجعلها في منأى مما حصل لبقية شخوص القصة.

كانت النسخةُ التي قرأناها من «ألف ليلة وليلة» تقع في ستةِ أجزاء، وكنتُ لحسن الحظ قد اشتريتُ نسختي قبل أن تمنعها الرقابة فتباعُ في السوقِ السوداء بأثمانٍ باهظة. فوزّعتُ الأجزاء على طالباتي، وطلبتُ منهنّ، للمحاضرة القادمة، أن يقمنَ بتبويبِ الحكايا وفقًا لنمطِ النساء اللواتي لعبنَ الدور الأهم في كل قصة.

وما أن عيّنتُ لهنّ الواجب للمحاضرةِ القادمة حتى طلبتُ أن تحكي لنا كل طالبة: لماذا اختارت أن تقضي نهارات الخميس هنا، تناقش «نابوكوف» و«جين أوستن»؟ فجاءتْ كل الإجاباتِ تقريبًا مختصرة ومتكلفة. ولكي أذيب

بحاجز الجليد بيننا، اقترحتُ جوابًا مغايرًا فكان: «من أجل اللهو والاسترخاء، وتناول بعض المعجنات والشاي».

وهذا سيحيلنا مرة أخرى إلى تلك اللحظة التي أدخل بها الى غرفة الطعام وأنا أدفع عربة طعام فضية غير لامعة تضمّ ثمانية أقداح للشاي. وإعداد الشاي وتقديمهُ يعدُّ طقسًا جماليًا احتفاليًا في إيران، طقسٌ يقامُ مراتٍ متعددة في اليوم. فنحن نقدّمه في أقداح شفافة، صغيرة وذات شكل مميز، والأكثر شيوعًا منها تلك المسماة ذوات الخصور النحيلة: وهي أقداحٌ مدوّرة مفتوحة في قمتها، وضيقة من الوسط، ثم مدوّرة ومنتفخة من القعر. ومن لون الشاي ونكهته المميزة يستطيعُ المرءُ أن يحدسَ مدى براعة الشخص الذي أعده.

أخطو داخل غرفة الطعام مع ثمانية من الأقداح ذوات الخصور النحيلة، وفيها سائلٌ بلون العسل يتراقصُ بإغواء، فأسمع «ياسي» وهي تهتفُ بنبرةِ المنتصر: «آبسيلامبا». ترميني بالكلمة كما ترمي بكرة، فأتخذُ وثبةً ذهنيةً مباغتةً لألتقفها.

«آبسيلامبا»! تعيدني الكلمةُ إلى الوراء، الى ربيع عام ١٩٩٤، حينما كانت أربعة من طالباتي ومعهن «نيما» يحضرون كمستمعين مع صفٍّ كنت أدرّس له مادة الرواية في القرن العشرين. وكان الكتاب المفضل لهذا الصف الدراسي هو «دعوة لقطع العنق» لـ«نابوكوف». في هذه الرواية، يميز «نابوكوف» بطلهُ المتخيل الذي يشعر بالوحدة «سينسيناتس سي» عن كل من حوله كونه أصيلاً في مجتمع لا يعتبرُ السلوك الموحَّد قاعدةً عامةً وإنما قانونًا. ويستطرد «نابوكوف» فيخبرنا أن «سينسيناتس»، كان حتى في طفولته يقدّرُ عذوبةَ وجمال اللغة. بينما «كان الأطفالُ الآخرون يفهمون بعضهم بعضًا من كلمة واحدة، لأنهم لا يملكون مفرداتٍ كافية قد تنهي الكلام بشكلٍ غير متوقع، او بحرفٍ قديم منقرضٍ مثل «آبسيلامبا»، بينما يمكن لـ «آبسيلامبا» أن تدلّ على طيرٍ أو على أداةٍ لصيدِ الطيور(مرجام) بكلّ ما يمكن أن يترتّب على ذلك من نتائج عجيبة».

لم يكلف أحد في الصف نفسه بالسؤال عن معنى الكلمة. لا أحد، وأعني بذلك الطلبة النظاميين، لأن الكثيرات من طالباتي كنّ يواظبن على حضور محاضراتي حتى بعد تخرجهن. وغالبًا ما كنّ أكثر مثابرة واهتمامًا من طالباتي النظاميات الواتي كنّ يحضرن الدروس من أجل الحصول على الشهادة فقط. وكانت تلك المحاضراتُ تشجّع على أن يتجمّع في غرفة مكتبي بعضٌ من طالباتي المستمعات ومن بينهن: «نسرين» و«مانا» و«نيما» و«مهشيد» و«ياسي» ليسألن بعض الأسئلة وليناقشن معي ما قلت.

وقررتُ ذات يوم أن ألعبَ مع الطلبة لعبةً أختبرُ بها مدى فضولهن. فوضعتُ لهن سؤالاً في امتحان متصف الفصل الدراسي، كان نصه: «ما هي دلالة كلمة «آبسيلاميا» ضمن السياق الذي وردت فيه في «دعوة لقطع العنق»؟ وما هي علاقتها وتأثيرها على المعنى العام للرواية؟». وبإستثناء أربع أو خمس من الطالبات، لم تكن لدى أي أحد فكرة عما كنت أقصده بسؤالي. وصرتُ لا أتوانى عن تذكيرهن بذلك كل حين حتى نهاية ذلك الفصل الدراسي.

والحقيقة هي ان «آبسيلاميا» واحدةٌ من مفرداتِ «نابوكوف» الخيالية المبتكرة. وهي ربما نحتٌ لمفردةِ «آبسيلون»، وهو الحرف العشرون في الأبجدية الإغريقية، و«لامبدا»، الحرفُ الحادي عشر منها. بيدَ أننا في اليوم الأول من صفنا الخاص أطلقنا العنان لأفكارنا كي نلعب، ورحنا نبتدعُ معاني جديدة لنا وحدنا.

قلتُ لهن: إن «آبسيلاميا» ارتبطتْ عندي بالمتعةِ المستحيلةِ التي ترافقُ قفزةً مثيرةً في الهواء. فهتفتْ «ياسي» التي بدتْ مستثارةً لسبب ما بأنها تعتقدُ بـ: «أن الكلمة قد تعني اسمًا لرقصةٍ ما.. أعني.. هيا يا صغيرتي.. تعالي لنرقصَ الـ«آبسيلاميا»!».. واقترحتُ عليهنَ أن تكتبَ لي كل واحدة جملةً أو اثنتين تشرحُ فيها ما عنتْه تلك الكلمة لها، فنقرأهُ معًا في الخميس القادم.

كتبتْ «مانا» أن «آبسيلاميا» تعكسُ صورة «سمكةٍ فضية صغيرة تتقافزُ في

بحيرة مقمرة». وأضافَ «نيما» جملةً اعتراضيةً قال فيها: «رغم أنكِ أغلقتِ بابَ صفكِ دوني.. فـ«آبسيلامبا» لك أيضًا.. كي لا تنسيني..!». وكتبتْ «آذين» أنها كانت تدلّ عندها على صوتٍ ما.. أو لحنٍ ما. أما «مهشيد» فقد وصفتْ مشهدًا لثلاثِ بناتٍ يلعبنَ لعبةَ الحبل، ويهتفنَ «آبسيلامبا» مع كل قفزة. و«ساناز» وجدتْ أنها الإسم السحري السري لطفلٍ أفريقيّ صغير. ولم تكن «ميترا» متأكدة لماذا ذكرتها الكلمة بالتناقض الظاهري الذي يكمنُ وراءَ تنهيدةٍ سعيدة. أما «نسرين» فقد أحسّتْ بأن «آبسيلامبا» هي كلمة السرّ التي تفتحُ بها باب المغارةِ السحرية الملأى بالكنوز.

وهكذا، أصبحتْ هذه الكلمةُ جزءًا من مستودعنا المتنامي للمفرداتِ والعباراتِ المشفرة. ذلك الخزينُ الذي راح يكبرُ ويتراكمُ مع الأيام، حتى استطعنا شيئًا فشيئًا أن ننشئ لغتنا السرية وشيفراتنا الخاصة. وأصبحتْ هذه الكلمة بالذات إشارةً واضحة تدلّ على ذلك الإحساس الغامض بالبهجة، وعلى ذلك «الخدر في العظام» الذي توقعهُ «نابوكوف» من قرّائه. فقد ميّزَ نابوكوف القارئ «الجيد» عن القارئ «العاديّ» بقوله بأن القارئ الجيد هو ذلك الذي «يشعرُ بالخدرِ في العظام وهو يقرأ عملاً أدبيًا».

لقد أصبحتْ «آبسيلامبا» كلمة السرّ التي تفتحُ باب المغارةِ السحرية الملأى بالذكريات.

[6]

يذكرنا «نابوكوف» في مقدمته للطبعة الإنكليزية لروايته «دعوة لقطع العنق» ١٩٥٩ بأن هذه الرواية لا تقدم «كل شي لكل الناس»، بل إنها غير معنية بهذا تمامًا. ويقول: «إنها مثل كمانٍ يعزفُ في الفراغ». ويستطرد قائلاً: «بيد أني مع ذلك أعرفُ بعض القراء الذين يقفزون واقفين نافشين شعورهم، وهم يقرأونها».

حسنًا.. إليكم ما حصلَ بدقة: لقد طُبعت النسخة الأصلية تباعًا في حلقات عام ١٩٣٥، كما يخبرنا «نابوكوف». وبعد نحو ستة عقود، في عالم يجهله «نابوكوف» ولا سبيل لأن يعرفه تحت أي ظرف، في غرفة معيشة بائسة ذات شبابيك تطلّ من بعيدٍ على جبال بيضا القمم، صار المشهد يتكررُ مرة بعد أُخرى؛ حتى وجدتُ نفسي شاهدة على أولئك القراء النادرين وهم يفقدون صوابهم، ويقفزون واقفين نافشين شعورهم.

تبدأ رواية «دعوة لقطع العنق» بإعلان حكم الإعدام على البطل الرقيق «سينسيناتس سي» بتهمة «فساد الروح»؛ فقد كان غامضًا في مكانٍ كان يطالب كل مواطنيه بالوضوح والشفافية. إن السمةَ الرئيسة التي تميّز ذلك العالم هي العشوائية. وليس للمحكوم عليه سوى امتياز وحيد هو معرفة موعدِ إعدامه، ومع هذا فإن الجلادين يحرمونه حتى هذا الحق، جاعلين بذلك كل يوم يمرّ به وكأنه يوم الإعدام. وإذ تمضي أحداث الرواية، يتنامى لدى القارئ عدم

الارتياح إذ يكتشفُ حجم الزيف الذي يؤلف هذا المكان الغريب. فالقمر الذي يبدى من الشباك زائف، والعنكبوت على الزاوية زائف (على الرغم من أنه من المفترض أن يكون الرفيق المخلص للسجين، وفقًا لمعطيات الحوار). ويتضحُ للقارئ بأن مديرَ السجنِ والسجان ومحامي الدفاع هم جميعًا شخص واحد بعينه، ولكنه يقوم بتبديل مواقعه. أما الشخصية الأهم فهي شخصية الجلاد، الذي يُقدّم في البداية للسجين على أنه زميلٌ مسجون، ويُمنحُ اسمًا مستعارًا: «مسيو بيير». فيكون على السجين والجلاد أن يحبّ أحدهما الآخر وأن يتعاونا يوم تنفيذ الحكم، الذي سيتم الاحتفالُ به بمهرجانٍ بهيج. وفي خضم هذا الجو المسرحي الزائف، تكون الكتابةُ هي الشباك الأوحد لـ «سينسيناتس»، وكوّة النور الوحيدة إلى عالم آخر.

يتضحُ لنا أن عالم هذه الرواية هو عالمٌ كاملٌ من الطقوس الجوفاء. ويبدو لنا كل فعل في هذا العالم خاليًا من أي جوهر أو معنى. فيبدو حتى الموت مشهدًا مسرحيًا أو مهرجانًا يشتري من أجله المواطنون الطيبون تذاكر الدخول. ولولا تلك الطقوس الجوفاء لما أصبحتِ الوحشية والقسوة ممكنة عادية الى هذا الحد.

وفي رواية أخرى لـ «نابوكوف» وهي «الحياة الحقيقة لسيباستيان نايت»، يكشفُ شقيق «سيباستيان» صورتين تبدوان متضادين في مكتبة شقيقه المتوفي؛ الأولى لطفل جميل أجعد الشعر يلعب مع كلب صغير، والثانية لرجل صيني وهو يُعدم. فتذكرنا الصورتان بالعلاقة الوثيقة بين العادية والوحشية. ويقدّم لنا «نابوكوف» مصطلحًا خاصًا باللغة الروسية يصف فيه هذه العلاقة: «بوشلاست».

يقول «نابوكوف»: «إن بوشلاست قد لا تشير فقط إلى الشيء «الواضح التفاهة»، ولكنها أيضًا تشير بالدرجة الاولى الى الأهمية الزائفة والجمال الزائف والذكاء الزائف والإغراء الزائف».

وفعلاً ثمة أمثلة كثيرة على ذلك يمكننا استقاؤها من الحياة اليومية؛ من الخطابات المعسولة التي يطلقها السياسيون، إلى تصريحات بعض الأدباء، الى الدجاج!.. أجل..الدجاج. وأعني ذلك الذي نجده عند الباعة المتجولين هذه الأيام. على أية حال، من عاش في طهران لم يكن ليفوتهُ المشهد. فهم يغمسون الدجاجات بالأصباغ: وردي فاقع أو أحمر ناري أو أزرق فيروزي لكي يجعلونها أكثر إغراء. ولا يفوتني أن أذكر أيضًا تلك الزهور البلاستيك مثل الكلاديوس الاصطناعي ذي اللون الزهري والأزرق الصارخ الذي يعرضونه في الجامعة في مناسبات الحداد والاحتفالات على حد سواء!

ولا يكمنُ إبداع «نابوكوف» في روايته «دعوة لقطع العنق» في أنه يصوّر لنا الألم الجسدي الحقيقي والتعذيب في ظل نظام شمولي، وإنما لأنهُ يصوّر لنا طبيعة الحياة الكابوسية التي تكتنف العيش في أجواءٍ من الرعب السرمدي. ونحن نجد بأن «سينسيناتس سي» رجل ضعيف سلبي، ولكنه بطل أسطوري من دون أن يدري أو أن يعترف. فهو يقاومُ غرائزه، ويجعل من فعل الكتابة وسيلة للهرب والصمود. وهو بطل لأنه يرفض أن يكون مثل كل الآخرين.

وخلافًا للروايات اليوتوبيائية المثالية، نجدُ بأن قوى الشرّ في هذه الرواية ليست مطلقة كاملة النفوذ. ونجد بأن «نابوكوف» لا يترددُ في إظهار ضعفها لنا. فهي قوى تبعث على السخرية، ومن الممكن جدًا أن تهزم، بيد أن ذلك لا يقلّل من حجم المأساة أو الخراب. فرواية «دعوة لقطع العنق» مكتوبة من وجهة نظر الضحية؛ ضحية ترى بوضوح تام ذلك الدجلَ السخيف اللامعقول لمعذبيها، فتجدُ بأنه لا مناصَ سوى الانسحاب إلى داخل نفسها من أجل البقاء على قيد الحياة.

أما نحن الذين عشنا في كنفِ الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فكان علينا أن ندركَ مدى القسوة المأسوية اللامعقولة بل المضحكة التي نرزح تحت وطأتها. وكان علينا ان ندسّ المزاح في قلب مأساتنا، ونسخر من تعاستنا لكيما نبقى

على قيد الحياة. ناهيك عن أننا أدركنا بالفطرة معنى «بوشلاست»، ليس لدى الآخرين فحسب، وإنما في داخلنا نحن أيضًا. ولهذا السبب أصبح الأدب والفن جزءًا جوهريًا في حياتنا، ولم يعد مجرّد رفاهية، بل لقد غدا ضرورة من ضرورات الحياة. لقد أبدعَ «نابوكوف» في تصوير نسيج الحياة في مجتمع شمولي، حيث يحيا المرءُ وحيدًا بشكلٍ كاملٍ في عالم خدّاع تملأهُ الوعود الكاذبة. وحيث يصبحُ من المستحيل عليه التفريق ما بين المخلص والجلاد.

لقد أوجدنا صِلةً من نوع خاص تربطنا بـ«نابوكوف» على الرغم من صعوبة كتاباته النثرية. ومضى بنا الأمر إلى فهم ما هو أعمقُ من رصد التطابق ما بيننا وبين ما يرمي اليه في رواياته. فهو يبني رواياته على أرضياتٍ لها أبواب سرية مخفية، حتى لكأنّ حفرًا وفخاخًا مباغتة تنفتحُ فجأة وتسحب البساط من تحت أقدام القارئ، حفرًا يملأها الإرتياب وعدم الثقة بما نسميه الواقع اليومي، فتعمّقُ الإحساس بهشاشة الواقع وأنوائه وتقلباته.

كان ثمة شيء في كتاباته وحياته يجعلنا فطريًا ومن دون وعي منا نتمسّك ونتعلق به. وكان ذلك هو قدرتهُ على خلقِ حريةٍ مطلقة حتى حينما يُستلبُ منه حقه في الاختيار. وربما كان هذا الأمر هو الذي دفعني أنا أيضًا الى إنشاء هذا الصف. فقد كانت الجامعة هي حلقة الوصل الوحيدة بيني وبين العالم الخارجي. وبعد أن قطعتُ هذه الصلة، أصبحتُ على شفا حفرةٍ من الفراغ: فأما ان أخلق كماني، او أن أمنحَ الفراغ فرصةً لأن يبتلعني.

[7]

لا بد لهاتين الصورتين الفوتوغرافيتين أن تكونا جنبًا إلى جنب. فكلتاهما تجسدان، بحسب وصف «نابوكوف» لغربته: «اللاواقعية الهشة» التي نحياها في الجمهورية الإسلامية الايرانية. فكلا الصورتين تلغي الاخرى، ومع هذا فوجود واحدةٍ من دون الأخرى يجعلها ناقصة. وها أننا إذ نقفُ بجبيننا وإشارباتنا السود في الصورة الأولى، نبدو وكأننا مصنوعاتٍ من حلمِ حَلُمَ به سوانا. ونبدو في الثانية كما تخيلنا أنفسنا أن نكون. ومع ذلك فلم يكنْ بوسعنا أن نحسّ بأننا في مكاننا بشكلٍ كامل في أيٍ من الصورتين.

تنتمي الصورة الثانية إلى العالم الذي يقع «داخل» غرفة الطعام. أما هناك، في «الخارج»، أسفل الشباك الذي يتراءى وكأنهُ خزانة خدّاعة تعرضُ الجبال والأشجار، هناك فقط يشخصُ العالم الآخر، حيث تقبع الجنياتُ وساحرات الشر وهن ينتظرنَ أن يحولننا إلى مخلوقات مغطّاة تنتمي إلى العصور الأولى.

وأفضل وسيلة أستطيع بها أن أشرح ذلك التزييف للذات وذلك الجحيم من التناقض هو بأن ألجأ الى سرد حكاية واقعيةٍ نادرة. فللنوادر ميزة خاصة هي أنها تتحدى الخيالَ أن يأتي بمثلها.

وإليكم هذه الحكاية الواقعية: كان رقيبُ الأفلام الرئيس في إيران حتى عام ١٩٩٤ كفيفًا.. أعني بأنه كان أقرب الى الكفيف. وكان قد عملَ قبل ذلك رقيبًا للمسرح. حدّثني أحدُ أصدقائي من كتّاب المسرح ذات مرةٍ كيف كان ذلك

الرقيبُ يجلسُ في المسرح يضع نظاراتٍ سميكة بدتْ وكأنها تخفي أكثر مما تُظهر. وكان أحدُ المساعدين يجلسُ إلى جوارهِ ليشرحَ له المشهدَ وكل ما يجري على خشبة المسرح، فيعطي الرقيب أوامره بعد ذلك بحذفِ الأجزاء غيرِ المرغوبِ بها. وبعد عام ١٩٩٤، أصبح هذا الرقيبُ ذاته رئيسًا للقناة التلفزيونية الجديدة. فعمدَ حينئذٍ إلى تطوير وسائلِ الرقابية، وراحَ يطالبُ كتّاب السيناريو ومعدّي البرامج بأن يقدموا له أعمالهم على أشرطةٍ صوتية، وأصدر تعليماتٍ تمنعهم من أدائها أو تصويرها أو جعلها جذابة بأي شكل من الأشكال. وراح يقيّمُ الاعمالَ وفقًا لما تمليه عليه التسجيلات الصوتية فقط. بيد أن الأمر الأكثر إدهاشًا من كل ذلك، هو أن الذي خلَفَه في ذلك المنصب كان قد اتبع النظام ذاته، على الرغم من أنه لم يكن كفيفًا، وأعني فعليًا على الأقل.

إن عالمنا تحت حكم الملالي قد تشكّلَ وفقًا لمنظورِ العدساتِ عديمةِ اللون لذلك الرقيبِ الأعمى. ليس واقعنا فحسب، وإنما خيالنا أيضًا. فقد أصبح خيالنا هو الآخر خاضعًا خانعًا للتقلباتِ اللونية العجيبة، في عالم أصبح فيه الرقيبُ ندّا ينافسُ الشعراءَ في إعادة ترتيب وتشكيل واقعنا. فتزامنَ ابتكارنا لأنفسنا مع ابتكار شخص آخر لنا، حتى صرنا نموذجًا مزيفًا من صنع خياله.

وعشنا في كنف ثقافة لا تقيمُ أي وزن للإبداع أو التميّز في عمل أدبي، ولا تعدّه مهمًا إلا إذا كان يخدمُ ذلك الشيء الأكثر إلحاحًا وأهمية وأعني: الأيديولوجيا. فهذا بلدٌ يؤوّلُ كل إيماءةٍ تأويلاً سياسيًا أيًا كانت تلك الإيماءة خاصة أو شخصية. فهم يجدون بأن ألوان إيشارب رأسي، وربطة عنقِ أبي تمثل رموزًا للانحلالِ الغربي وللنزعة الإمبريالية؛ حلق اللّحى والمصافحة مع الجنس الآخر والتصفيق أو الصفير في التجمعات العامة، كلها كانت تعدّ كذلك تقليعات غربية، وإذًا فهي دليل دامغٌ على الانحلال، وهي جزء من خطة الغرب للتقليل من شأن ثقافتنا.

قبل بضع سنوات أنشأ أعضاءٌ في البرلمان الإيراني، لجنة رقابية لفحص

برنامج التلفزيون الرسمي. وقد أصدرت اللجنة تقريرًا مفصلاً منعتْ فيه عرض فيلم «بيلي بود» لأن قصته، بحسب ادعاء اللجنة، تروّج للعلاقات المثلية بين الرجال. وللسخرية، فإن مسؤولي البرامج التلفزيونية الإيرانية كانوا أصلاً قد إختاروا هذا الفيلم بالذات نظرًا لقلّة الشخصيات النسائية فيه! كما وانتقدتِ اللجنةُ بشدة إحدى نسخ فيلم الكارتون الذي يحكي رواية «حول العالم في ثمانين يومًا»، وذلك لأن الفيلم ينتهي في معقلِ الإمبريالية: لندن، ولأن بطله الرئيس كان بريطانيًا، رغم إنه لم يكن سوى أسد في تلك النسخة!

لقد أنشأنا صفنا الخاص في خضم تلك الأجواء. في محاولة للهرب من تفرّس عيني رقيب أعمى، ولو لسويعات يتيماتٍ كل اسبوع. فهناك، في غرفة الطعام تلك، استطعنا أن نكتشفَ من جديد بأننا أيضًا بشر يمكن أن نحيا ونتنفس. ويغض النظر عنمَّ آلتْ إليه الدولة من قمع، وأيًا كانت وسائلهم لترهيبنا وإرعابنا، فقد كنا مثل لوليتا نحاولُ أن ننأى بأنفسنا بحثًا عن جيوبٍ صغيرة للحرية. ومثل لوليتا أيضًا، لم نكنْ ندخرُ وسعًا للتمايل طربًا بتمردنا؛ كأن نُظهرَ شيئًا من خصلاتِ شعرنا من تحتِ الإيشاربات، أو أن ندسّ قليلاً من اللون في ذلك التشابه المملّ القاتم في مظهرنا، أو أن نطيلَ أظافرنا أو أن نستمع لموسيقى ممنوعة، أو نحب.

لقد أضحتْ حياتنا محكومة بتجلياتٍ روائيةٍ تجاوزتْ حدود المنطق. فحاولنا ان نستثمرَ فعل العيش في فضاءات مفتوحة، استطعنا أن نخلقها من بين الشروخ التي ظهرت ما بين غرفة الطعام التي أصبحتْ شرنقتنا الواقية، وبين عالم الرقيب في الخارج حيثُ تنتظرنا الساحرات والغيلان. فأي العالمين كان حقيقيًا أكثر من الآخر؟ ولأيّهما كنا ننتمي فعلاً؟ لم نعدْ نجد من إجابات لهذه الأسئلة. وإذا ما كانت ثمة وسيلة لسبرِ غور الحقيقة فلن تكون إلا بأن نقوم بما قمنا به: أن نشرح ونصفَ تفاصيل العالمَين وأن نحاول بالتخيّل أن نربط بينهما، وفي هذا الخضم قد نستطيع أن نكوّن صورة واضحة لرؤيانا وهوياتنا.

[8]

كيف يمكنني أن أصفَ ذلك العالم الآخر الذي يقع خارج الغرفة؟ لا مناصّ من الاستعانة بمخيلتكم مرة أُخرى. فدعونا نتخيل معًا إحدى البنات وهي تهمّ بمغادرة بيتي، ولتكن «ساناز» على سبيل المثال. ودعونا نتبعها من هنا الى حيث وجهتها الأخيرة. ها هي تسلّم على الجميع، ثم تضعُ جبّتها السوداءَ فوق قميصها البرتقالي وبنطلونها الجينز، وتغطّي رأسها بإيشاربٍ أسود، تلفّه حول عنقها وتخفي به قرطيها الذهبيين الكبيرين، تسوّي بعضًا من خصلاتِ شعرها المشاكسة وتواريها تحت الإيشارب، تضع دفترَ ملاحظاتها في حقيبتها الكبيرة وتضعها على كتفها، تخطو نحو الصالون، ثم تتوقف هنيهة أعلى الدرج لترتديَ قفازين خفيفين من الدانتيلا السوداء تخفي بهما أظافرها المطلية.

نتبعُ «ساناز» الى أسفل الدرج عند الباب الخارجي.. ثم الى الشارع. قد تلحظون تغيرًا في مشيتها وإيماءاتها، لأن أقصى ما يشغلها الآن هو ألا يراها أو يسمعها أو يلحظها أحد. لا تمشي منتصبة القامة، بل تطرق برأسها للأرض، من دون النظر الى المارين. وتسيرُ مسرعة يدعمها إحساس عالٍ بالإتجاه.

تنتشرُ في شوارع طهران والمدن الإيرانية الأُخرى دوريات لميليشيا تتحرك بسيارات بيضاء من نوع «تويوتا». وتتكوّن الدورية الواحدة من أربعة من الحرس المسلحين (رجالاً ونساءً)، تتبعها أحيانًا حافلة صغيرة (ميني باص).

ويطلق عليهم اسم: «دم الله». وظيفتهم مراقبة الشوارع خشية أن تكون ثمة نساء مثل «ساناز» لا يرتدين الحجاب بالشكل الصحيح، أو خشية أن يكنّ متبرجات أوأأنهن يمشين بمعيّة رجال ليسوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم.

ستمرّ «ساناز» بشعاراتٍ تغطي بعض الجدران، أقوال مأثورة للخميني أو لجماعة تدعى «حزب الله»: «الرجالُ الذين يضعونَ ربطاتِ العنق هم أذنابُ الأميركان»، أو «الحجابُ سترُ المرأة». وإلى جانبِ الشعارات تجدُ صورةً بالفحم لامرأة بلا ملامح، يؤطّر وجهها جادور داكن وثمة عبارة تقول: «يا أختي راقبي حجابك. يا أخي راقبْ عينيك».

إذا فكرتْ «ساناز» أن تستقلّ الحافلة، فإنها ستجدُ الكراسي معزولة، وسيكون عليها أن تصعدَ من الباب الخلفي لتستخدمَ المقاعدَ الأخيرة المخصصة للنساء. بيد أن الأمرَ سيكون مختلفًا في سيارات الأجرة التي تكون مكتظّة عادة بخمسة ركاب، فينحشرُ النساء فيها مع الرجال كأنهم في علب الساردين، كما يقول المثل. وكذلك الحال في الحافلات الصغيرة (الميني باص). ولكم سمعتُ القصص من طالباتي وهنّ يشتكينَ من المضايقات المتكررة التي يتعرضنَ لها هناك على أيدي رجال ملتحين يخافون الله!

وقد تتساءلون أيضًا: ماذا يدور بخاطرِ «ساناز» وهي تسير في شوارع طهران؟ وما الذي قد تؤثرهُ فيها هذه التجربة؟ والجواب هو أنها من المحتمل جدًا أن تحاول أن تنأى بنفسها قدرَ المستطاعِ عن كل ما يدور حولها. فهي ربما تفكرُ الآن بأخيها، أو بحبيبها البعيد والموعد الذي سيجمعهما معًا في تركيا. فهل تفكرُ بأن تقارنَ وضعها الحالي بوضع أمها حينما كانت في سنها؟ هل يساورها الغضب إذ تفكرُ بأن النساء من جيل امها كن يمشين في الشوارع بحرية أكبر، ويتمتعنَ بمخالطة الجنس الآخر، وينخرطنَ في سلك الشرطة، وقد يصبحنَ قائدات طائرات، ويعشن في ظل قوانين كانت تعدّ الأكثر تطورًا في العالم فيما يتعلق بحقوق المرأة؟ وهل تحسّ بالمهانةِ بسبب القوانين

والتشريعات الجديدة؟ مثلاً، تخفيض سنّ الزواج من ١٨ عامًا الى ٩ أعوام بعد الثورة؟ أو تشريع قانون الرجم بصفته عقوبةً للزنا؟

في غضون ما يقاربُ العقدين من الزمان، تحولت الشوارعُ هنا الى ساحاتِ حرب. فكان يتم اعتقالُ الشابات اللواتي لا يطعنَ الأوامر، فيدفَعونهنّ بعنفٍ الى سيارات الحرس، ثم يقتادوهنّ الى السجن، ويجلدوهنّ ويغرّموهنّ ويذلّوهنّ ويجبروهنّ حتى على تنظيفِ المراحيض، وحالما يُطلَقُ سراحهنّ، يعدنَ من جديد إلى فعلِ الأشياء نفسها!

هل تدرك «ساناز» قوتها الحقيقية؟ وهل تعي كم يمكنها أن تشكّل خطرًا حقيقيًا طالما أن كل إيماءةٍ شاردة منها هي مصدرُ إزعاجٍ للأمن العام؟ وهل تعي كم أن حرسَ الثورةِ خاوون طالما أنهم، طوال ثمانيةَ عشرَ عامًا، راقبوا الشوارعَ، وتحملوا شابات في عمرها وفي مختلف الأعمار وهنّ يتمشين ويتحاكين متباهيات بخصلاتٍ تظهر من شعورهنّ، لا لشيءٍ سوى ليذكّرنَ الحرس بأنهن لم يهتدينَ بعد؟

ها قد وصلنا الى بيت «ساناز»، حيث ستركها عند عتبة بابه، ربما لتصطدمَ بأخيها في الداخل، أو لتأنسَ لوحدتها فتفكر في سرها بحبيبها.

لقد كان لكل واحدة من هاتيك البنات، بناتي، تأريخان معًا: أحداهما حقيقي، والثاني مبتكر. وعلى الرغم من أنهنّ انحدرنَ من خلفياتٍ اجتماعيةٍ متباينة جدًا، إلا أن النظام الذي حكمهنّ حاول جاهدًا طمسَ تواريخهنّ الشخصية، وتعميق الهوة بينها وبين هوياتهن. فلم يكن بوسعهنّ التحرر مطلقًا من تلك الصفة التي أسبغها عليهنّ النظام بوصفهنّ: «نساءً مسلمات».

وعلى الرغم من أنه لم يكنْ مهمًا فعلاً أي ديانةٍ كنا نعتنق، وما إذا كنا راغباتٍ بارتداء الحجاب أو لا، أو ما إذا كنا ملتزماتٍ بمبادئ دينية معينة، أو لم نكن، أيًا ما كنا، فقد أصبحنا جميعًا في المحصلة النهائية نموذجًا مختلقًا عن أنفسنا، نموذجًا لحلم شخصٍ آخر يحاولُ تحقيقه بنا.

لقد جاءنا أحدُ «آيات الله» المتشددين؛ داعية وملك فيلسوف، جاءنا ليحكم أرضنا، جاء باسم ماضٍ ما كان قد سُرِقَ منه بحسبِ دعواه. وها هو الآن يعيدُ صوغنا على طراز ذلك الماضي المزعوم. فهل سيكون من العزاء القول بأن ما فعله بنا هو ما سمحنا له نحن أنفسنا بفعله؟ ها أننا لا نريد حتى أن نتذكّر تلك الحقيقة.

[9]

عجبًا، كيف يمكن للحظة إنفتاح يتيمةٍ أن تتحولَ إلى حرية هائلة، حينما تبدو كل الإمكانيات وكأنها قد سُلبتْ منا. لقد أحسسنا حينما كنا معًا بأننا نتنفَّسُ الحرية الكاملة، أو نكاد. وكان ذلك الإحساس قد غمرَ الجو منذ صباح الخميس الأول. وكنت قد حددتُ بعض الخطوط العريضة للدراسة، وانتقيتُ عددًا من الكتب التي سيكون علينا بحثها، ومع هذا كنت مهيأة مسبقًا لجعلِ هذا الصف يشكلني؛ كنت مهيأة للكمان كي يملأ الفراغ، وكي يغيّر هذا الفراغ بالموسيقى.

ولطالما سألت نفسي: هل كنت أنا من اخترتُ تشكيلة هذا الصف؟ أم أنهن اخترنني؟ فعلى الرغم من أنني فعلاً كنت قد وضعتُ معيارًا دقيقًا ببالي حينما دعوتهنّ للانضمام إليه، بيد أن الأمر يبدو وكأنهن أنفسهن اللواتي شكّلن هذا الصف، وأنهنّ بطريقةٍ ما أرشدنني عبر وكالة سرية الى تلك المجموعة التي حضرتْ إلى غرفة معيشتي.

وإليكم على سبيل المثال، أصغرهنّ: «ياسي». ها هي في الصورة الأولى ترنو بعينين تواقتين حزينتين.. وقد مالتْ برأسها صوب إحدى الجهات غير واثقة أي تعابير كان عليها أن تنتقي على وجهها! وقد وضعَتْ على رأسها إيشاربًا رصاصيًا أبيض الجوانب عقدتْه بلا مبالاةٍ عند الحنجرة، وكأنها تعبّر عن ولاءٍ روتيني لخلفيةِ عائلتها المتشدّدة دينيًا. كانت «ياسي» طالبة في الصف

الأول حينما انضمتُ بصفة مستمعة إلى دورتي التدريبية للخريجين في سنتي الأخيرة في الجامعة. وكانت متهيبة من الطلبة الأكبر سنًا، فقد اعتقدتُ بأنهم بفضل أقدميتهم، لم يكونوا ممسكين بناصية اللغة فحسب، وإنما بالحكمة أيضًا. وعلى الرغم من أنها كانت تستوعبُ أصعبَ النصوص بما يجعلها تتفوّق على الكثير من الخريجين، وعلى الرغم من أنها كانت تذاكر النصوص بحرصٍ أكبر وباستمتاع أكثر من معظم الطلبة، الا أنها كانت تجدُ اطمئنانها في إحساسها الرهيب بعدم الإطمئنان!

كان قد مضى نحو الشهر على قراري السري بترك جامعة العلامة الطباطبائي، وكنا نقف انا و«ياسي» مقابل البوابة الخضراء عند مدخل الجامعة. دعوني أحدّثكم قليلاً عن تلك البوابة، فلا شك بأن أكثر ما أتذكره الآن من الجامعة هو تلك البوابة الخضراء. كنت أمرّ بها في الأقل مرتين يوميًا لسنوات طوال، ولكنني مع هذا لا أستطيع استحضار شكلها بدقة، فذاكرتي تمنحُ البوابة الحديد مرونة تجعل منها بوابة سحرية غير مدعمة بأسوار تحرس أرض الجامعة. بيد أني أتذكر مقترباتها وكل ما يحيطُ بها. فهي تفضي من جهة الى شارع عريض يؤدي مباشرة الى الجبال. ومن جهتها الداخلية تواجهُ حديقة تابعة لكلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية. وهي حديقة ملأى بالورود الإيرانية وبمختلف أنواع الزهور، تتحلق حول نافورة مزخرفة متشققة، وقد توسّط حوضها الخالي من الماء تمثالٌ مكسور.

وأنا أدين لـ«ياسي» بذكرياتي عن البوابة الخضراء، فقد ذكرتْها في إحدى قصائدها وعنوانها: «كم هي صغيرة تلك الأشياء التي أحب». وفيها تصف اشياءها الحبيبات: «.. صرة برتقالية، معطفٌ زاهي الألوان، درّاجة هوائية مثل دراجة ابن عمي تمامًا».. ثم تمضي القصيدة وتقول: «.. وكم أحب دخول الجامعة من البوابة الخضراء!». فتظهر البوابةُ في قصائدها، وبعض كتاباتها الأُخرى، وكأنها مدخلٌ سحري إلى عالم ممنوع، عالم تملأه كل الأشياء العادية التي حرمتها منها الحياة.

بيد أنهم أغلقوا البوابة الخضراء دوننا، ودون كل طالباتي. وفتحوا بجانبها فتحة صغيرة مغطاة بستارة. كانت فتحة قبيحة الشكل وتثير الفضول وفي غير مكانها، وكأنها انشقتْ هناكَ عنوةً على يدِ فضوليّ متعجرف. ومنها، من تلك الفتحة الصغيرة تحديدًا، كانت تدخل كل الطالبات ومعهن طالباتي، إلى الجامعة. ولكنهن قبل ذلك، يجتزْنَ الفتحة إلى غرفة صغيرة داكنة لغرض التفتيش. وستشرحُ لنا «ياسي» لاحقًا، بعد أن يكون قد مرّ وقتٌ طويل على خميسنا الأول، ما الذي كان يحدثُ لها في تلك الغرفة. فتقول: «سيتحققون مني أولاً للتأكد من أن ملابسي مناسبة وغير مخالفة؛ لون معطفي، الطول الصحيح لجبتي(زيّي الموحّد)، سُمْك غطاء رأسي، شكل حذائي، ثم الأشياء التي في حقيبتي، والآثار التي قد تبدو على وجهي من مساحيق التجميل(حتى الأخف منها)، وحجم خواتمي ومستوى الإثارة فيها! كل هذا يجب التأكد منه قبل أن أدخل حرم الجامعة، الجامعة ذاتها التي يدرس فيها الذكور الذين تنفتحُ لهم وحدهم تلك البوّابة الخضراء بمصراعيها الهائلين وشعاراتها وأعلامها، ومنها يدخلون كالفاتحين على الرحب والسعة».

كانت تلك الفتحةُ الجانبية الصغيرة مصدرًا لحكايا لا أول لها ولا آخر من خيباتٍ وإهاناتٍ وأسى. كان المقصود من وجودها هو جعلُ شكلِ الفتيات عاديةً أو ربما غيرَ مرئي أو ملفت. غير أنهم عوضًا عن ذلك، جلبوهنّ الى دائرة الضوء، فصرنَ مدعاةً للفضول، ومحطًا لأنظارِ الجميع.

والآن، تخيلوا «ياسي» وهي تقفُ معي مقابل تلك البوابة الخضراء، ونحن نسرقُ الضحكاتِ من بين همساتنا المتواطئة. كانت تحدثني عن أستاذ مبادئ الدين الإسلامي والترجمة. قالت عنه: «إنه مثل شخصية «بلسبري دو بوي»، وقد تزوج الأختَ الأصغر لزوجته بعد وفاةِ الأخيرة بثلاثة أشهر فقط، لأن للرجل».. وهنا أخفضَتْ «ياسي» من صوتها وقالت: «.. للرجل احتياجاته الخاصة!»

ثم اتخذ صوتها نبرةً أكثر جدية حينما بدأت تصفُ مقلّدة محاضرته الأخيرة عن الفرق بين الإسلام والمسيحية. فبدتْ وكأنها النسخة الشابة لذلك الأستاذ، بوجهه الدائري الشبيه بالكعكة، وقد وقف الى السبورة، وفي إحدى يديه قطعة من الطباشير الوردية، وفي الأخرى قطعة بيضاء. وكتب في جهةٍ من السبورة بحروف بيض كبيرة: «المرأة المسلمة». ثم وضعَ خطًّا عموديًا وكتبَ في الجهة الاخرى بحروفٍ وردية كبيرة: «المرأة المسيحية». ثم سأل الطلبة ما إذا كانوا يعرفون الفرق بين الاثنتين. وبعد هنيهةٍ من الصمت غير المريح، قال أخيرًا: «إحداهما عذراء، بيضاء نقية، تحافظ على نفسها وتخلص لزوجها، وفقط زوجها، وقوتها متأتية من تواضعها. أما الثانية.. حسنًا.. ليس ثمة ما يقال كثيرًا بحق الثانية سوى أنها ليست عذراء!». وكان من المدهش لـ «ياسي» فعلاً أن تبدأ الطالبتان الجالستان خلفها بالضحك والقهقهة، وكلتاهما كانتا عضوان بارزتان في جمعية الطلبة المسلمين، وهمستا: «لا عجبَ إذًا ان يتحول المزيد من المسلمين كل يوم الى المسيحية!».

ها إننا نقف معًا وسط الشارع العريض ونتضاحك. كانت تلك من اللحظات النادرة الأولى التي أرى فيها ابتسامة «ياسي» الخجولة الانعزالية تختفي لتفسحَ الطريق لما تضمره خلفها من مزاحٍ وعبثٍ طفولي صافٍ. فأنا لا أجد ذلك النوع من الضحك في معظم صورها، اذ أراها غالبًا ما تقفُ على مسافة ما من الآخرين، كما لو أنها توحي لهم بأنها تعرف حجمها ومكانتها لكونها الأصغر سنًا بينهم.

غالبًا ما كنا نستعيدُ أنا وطالباتي كل يوم سردَ تلكم الحكايا والحوادث. فكنا نضحكُ إذ نحكيها، ثم صرنا نشعرُ أحيانًا بالغضبِ أو بالحزن، على الرغم من أننا لم نكفّ عن تكرارها مرارًا في الحفلاتِ وفي جلساتِ الشاي والقهوة أو إذا نحن في طوابير الخبز أو في سيارات الأجرة. وكأنما كان مجرد تكرارها يمنحنا بعض السيطرة عليها؛ فنبرة استنكارنا وإيماءاتنا وحتى ضحكاتنا الهستيرية، بدتْ وكأنها تقلص من سطوتها على حياتنا.

ونحن في غمرة حميمية لقائنا الدافئ غير المحسوب، دعوتُ «ياسي» إلى تناول الآيس كريم معًا. فذهبنا الى محلٍ صغير، وكان لجلوسنا متقابلتين تتوسطنا كأسان من الـ «كافيه غلاسيه» أن يغير من مزاجنا. فأصبحنا أكثر جدية إذا لم نقل كئيبتين. تنتمي «ياسي» إلى عائلة دينية متنورة تعرضتْ للأذى بشكل قاسٍ على يد حكومة الثورة. وكانت العائلة تحسّ بأنه لم تكن الجمهورية الإسلامية تعني التزامًا بالإسلام بل تعني الخيانة له. وفي بداية الثورة، انخرطت أم «ياسي» وخالتها الأكبر في تنظيم تقدمي للمرأة المسلمة، ثم اضطرتا الى العمل في الخفاء، بعد أن بدأت الحكومة بتصفية مسانديها السابقين. فاضطرتْ الام والخالة الى الاختباء زمنًا طويلاً. وكان للخالة بنات أربع، كلهن أكبر من «ياسي»، وكانت كل واحدة منهن تنتمي أو تؤيّد بطريقةٍ أو بأخرى حزبًا معارضًا بعينه، كانت له قواعده الشعبية بين الشبيبة الإيرانية المسلمة. وقد تعرّضنَ جميعًا للاعتقالِ والتعذيب، ما خلا واحدةٍ فقط. وبعد إطلاق سراحهنّ تزوجنَ جميعًا في غضونِ عامٍ واحد. ومعظمهنّ تزوجنَ كيفما اتفق، وكأنهنّ يتبرّأنَ من تمرّدهنّ السابق. وكان رأي «ياسي» أنهن استطعنَ تحمل السجن، لكنهن لم يستطعنَ التخلص من قيود الزواج التقليدي.

أما بالنسبة لي، فتبدو «ياسي» هي المتمردة الأهم، على الرغم من أنها لم تنخرط في أي تجمّع أو تنظيم سياسي. بيد أنها حينما كانت في سنّ المراهقة، تحدّت تقاليد العائلة، ولم تدعْ اعتراضاتهم القاسية تقفُ دونها ودون ولعها بالموسيقى. فقد كان محرّمًا في عائلتها الإستماع لأي نوع من الموسيقى غير الدينية حتى وإن كانت من الراديو. لكن «ياسي» فرضتْ رغبتها على الجميع. لقد كانت عبارة عن سندريلا صغيرة تعيش في ظلالِ قصرٍ منيف، وتعشقُ أميرًا مجهولاً تنتظر أن يأتي إليها ذات يوم ويستمع لموسيقاها.

لم يتوقف تمرّدها عند هذا الحد، بل زادت عليه برفضها الزواج من الخطيب المناسب في الوقت المحدد. وعوضًا عن ذلك، أصرّت على ترك

بلدتها الأم «شيراز» لكي تلتحقَ بالجامعة في طهران. وأقامتْ مع أختها الأكبر وزوجها، وأحيانًا عند أحد أعمامها ذي النزعة الدينية المتعصبة. وقد خذلتها الجامعة بمستواها الأكاديمي المتدني وأخلاقياتها البالية وأيديولوجياتها الضيقة. فمن وجهة نظرها بدتْ الجامعة أكثر تقييدًا حتى من البيت، فقد كانت هناك في الأقل تنعم بالحب وتعيش في كنفِ أجواءٍ ثقافية. وكان لافتقادها الحبّ والدفءَ والحنان أن يورثها لياليَ طوالاً من الأرقِ في طهران. فصارت تفتقدُ أهلها وعائلتها، وبدأ يساورها الإحساسُ بالذنب لما سببتهُ لهم من ألم. وقد علمتُ لاحقًا أن ذلك الشعور بالذنب قد أورثها هو الآخر صداعًا نصفيًا مدمّرًا.

ولكن ما الذي كان بوسعها أن تفعل؟ لم تكن مؤمنة بالسياسة ولم تكن راغبة بالزواج، ولكنها كانت مفعمة بالفضول للحب. في ذلك اليوم، وهي جالسة أمامي تلعب بملعقتها، شرحَتْ لي كيف يمكن أن تتحوّل كل الأفعال اليومية المعتادة إلى تمرداتٍ صغيرة وعصيان سياسي. فكانت تقوم بها هي والكثير غيرها من الشابات. وأخبرتني كيف أنها عاشتْ طوال حياتها متقوقعة، وأنها كانت دائمًا قيد النظر، فلم يكن مسموحًا لها أن تنفرد بنفسها، أو أن تكون لها زاوية خاصة تستطيع أن تركن إليها؛ فتسرحُ بأفكارها بعيدًا عن الجميع، تحسّ وتتأمّلُ وتحلم وتكتب. ولم يكن مسموحًا لها طبعًا أن تلتقي بشاب بمفردها، فلم تكن العائلة تملي عليها كيف لها أن تتصرّف إزاء الجنس الآخر فحسب، بل كانوا وكأنهم يملون عليها كيف يجب عليها أن تشعر إزاءهم أيضًا. قالت لي: «إن ما قد يبدو طبيعيًا معتادًا بالنسبة لشخص مثلك، قد يبدو في غاية الغرابة، وغير مألوفٍ تمامًا بالنسبة لي».

هل يمكنها فعلاً أن تحيا حياة شخص مثلي؟ تحيا بمفردها، تتمشى في الشوارعِ ساعاتٍ ويدها تحضنُ يدَ من تحب؟ وهل من الممكن أن يكون لها كلب صغير أيضًا؟ لم تكن تعرفُ جواب ذلك. إنه تمامًا مثل الحجاب الذي لم

يعد يعني الكثير بالنسبة لها ومع هذا فإنها بدونه تحسّ بالضياع. لقد ارتدتِ الحجابَ طوال حياتها. فهل كانت راغبةً حقًا بارتدائه أم لا؟ هي لم تعد تدري. أتذكرُ حركة يديها حينما قالتْ لي ذلك؛ كانت تلوّح بهما أمام وجهها وكأنما تتفادى بها ذبابة غير مرئية. وقالت بأنه لا يمكنها أن تتخيلَ «ياسي» بدون حجاب، كيف كان يمكن أن تبدو؟ كيف سيراها الآخرون؟ هل ستصبح امرأة أكثر ذكاء أم أكثر غباء اذا ما خلعَتْ عنها الحجاب؟ كانت مهووسة بتلك الأسئلة تمامًا مثل هوسها ببعض الكتب الحبيبة إلى قلبها كروايات «أوستن» و«نابوكوف» و«فلوبير».

قالتْ لي مرة اخرى بأنها لن تتزوج أبدًا أبدًا. وقالت بأن السبب وراء ذلك يكمنُ في أنها لم تكن تجدُ فتى أحلامها إلا في الكتب، وبأنها ستعيشُ حياتها مع «مستر دارسي» مثلاً. بل وحتى في الكتب فإنها نادرًا ما كانت تجدُ رجلها المناسب! قالت لي باستنكار: «وما الضير في ذلك؟.. هل هو خطأ؟». فقد كانت تريد الذهاب الى أميركا مثلما فعلَ أخوالها ومثلما فعلتُ أنا. لم يسمحوا لوالدتها وخالتها بالسفر، لكنهم سمحوا لأخوالها بذلك. فهل ستتمكن من تخطّي كل العقبات للوصول الى أميركا؟ وهل لا بد لها ان تذهب؟ هل سيكون ذلك في صالحها؟ كانت تسألني النصيحة. وكان الجميع قد قدّم لها النصح، فما الذي سيكون بوسعي القول؟ لقد وجدتُ أنها فتاة طموحة جدًا، وتريد من الحياة أكثر بكثير مما وهبتها الحياة.

لم أجد في واقعنا ما أستطيع أن أمنحه لها، فرحتُ أحدثها عن «نابوكوف» و«العالم الآخر». وسألتها ما إذا كانت قد لاحظتْ أن في معظم أعمال «نابوكوف» ثمة ظلال لعالم آخر لا يمكن الوصول اليه أو إحرازهُ إلا عن طريق الأدب. ويبدو ذلك جليًا في رواياته: «دعوة لقطع العنق» و«المنعطف المشؤوم» و«آدا» و«بنن» مثلاً. إنه ذلك العالم الذي يحمي أبطاله وبطلاته، ويحول دون وقوعهم فريسة اليأس الكامل. حتى ليغدو ذلك العالم ملجأهم الأوحد في حياة من قسوة لا ترحم.

فلنأخذ «لوليتا» على سبيل المثال، فهذه قصة طفلة في الثانية عشرة من عمرها، لم تكن تجد من تلجأ اليه. حاول «هومبرت» أن يجعل منها عشيقة له، وجزءًا من هوسه وحبه القاتل، فدمّرها.

إن ما يبعث على اليأس في قصة «لوليتا» ليس اغتصاب فتاةٍ في ربيعها الثاني عشرَ على يدِ عجوزٍ قذر فحسب، وإنما هو «أن يصادرَ شخصٌ حياة شخصٍ آخر». فنحن لا نعلم ما الذي كانت ستؤول اليه «لوليتا» لو لم يدخل «هومبرت» في حياتها ويبتلعها. ومع هذا فإن الرواية في المحصلة النهائية تبدو متفائلة. وهي عملٌ أدبيٌ جميل، بل هو دفاعٌ عن الجمال والحياة، تلك الحياة اليومية العادية، بكل المتع اليومية الطبيعية التي حُرمتْ منها «لوليتا»، مثلما حُرمتْ منها «ياسي».

أخذتني الحماسةُ أكثر، فخطر ببالي فجأة أن أضيف: في الواقع، لقد ثأر لنا «نابوكوف» من أصحاب نظرية الـ«أنا» في حياتنا؛ من آية الله الخميني، ومن خطيب «ياسي» الأخير، ومن الأستاذ ذي الوجه الشبيه بالكمكة، كله من أجل ذلك الأمر. فلقد حاولوا تشكيل الآخرين وفقًا لأحلامهم ورغباتهم الشخصية. بيد أن «نابوكوف»، عبر تقديمه لشخصية «هومبرت»، فضح كل أصحاب نظرية الـ«أنا» الذين يفرضون وجودهم ويتسلطون على حيوات الآخرين.

كانت «ياسي» تتمتعُ بالقدرة على أن تكون ما تريد تمامًا؛ زوجة صالحة أو مدرّسة أو شاعرة، بيد أن الأهم من ذلك كان أن تعرف ما تريد بالضبط لكي تكونه.

ومضى بنا الحديث، ورحتُ أحكي لها عن إحدى قصص «نابوكوف» الأثيرة عندي وكانت بعنوان: «غرفة الساحر». وقلتُ بأن «نابوكوف» كان ينوي في البداية أن يطلق عليها عنوان: «الرجل السرّي». وتتحدّثُ القصة عن كاتب وناقد موهوب، كان عشقهُ الأكبر في الحياة هو الكتب والأفلام. وبعد الثورة، كل ما عشقه كان قد مُنع وحُرّم وأُجبرَ على الاختفاء تحت الأرض. فقرّر

التوقفَ عن الكتابة، والتوقف عن العملِ والحياة ما دام الشيوعيون على رأس السلطة. ولازمَ شقتهُ الصغيرة، وصار نادرًا ما يغادرها. حتى مرّتْ به أيامٌ عصيبة قاربتْه من الموت جوعًا. ولولا وجود بعض أصدقائه المخلصين وطلبته وبعض المال الذي خلّفه له أهله، لكان قد هلك بالفعل.

ثم بدأتُ أصفُ لها شقته بالتفصيل؛ فقلتُ بأنها كانت عارية بيضاء، مثل بياض أثيم: الحيطان والأرضيات، وحتى خزائن المطبخ. وكان الديكور الوحيد فيها موجود في غرفة الطعام، ولم يكن أكثر من لوحة على الجدار الفارغ المقابل للمدخل. وكانت لوحة من أشجارٍ وظلال كثيفة من الخضرة المنداحة فوق الخضرة. لم يكن في الغرفة نور، بيد أن أشجار اللوحة بدتْ منيرةً وكأنها عكستْ سطوعًا داخليًا لا فضلَ لنور الشمس فيه.

أما الأثاث في غرفة طعام الساحر فلم يكن أكثر من أريكة بنية وطاولة صغيرة وكرسيين متوائمين. وكان ثمة كرسي هزاز يبدو وكأنه مهجور في الفراغ ما بين غرفة الطعام وفسحة غرفة الطعام. وثمة بساط صغير مرميّ أمام الكرسي الهزاز، كان هديةً من حب ضائع منسيّ.

في هذه الغرفة، وعلى تلك الأريكة البنية، كان الرجل السرّي يستقبل زواره الذين كان يختارهم بانتقائيةٍ وتأنٍ. كانوا من المشاهير: صنّاع سينما وكتّاب سيناريو وأدباء وفنانين ورسامين ونقاد، بالإضافة الى طلبة سابقين وبضعة أصدقاء. كان الكل يأتيه ويسأله المشورة بشأن الأفلام أو الكتب، أو حتى المشاكل العاطفية. فكان البعضُ يسألُ عن طريقةٍ يتخطّى بها التعليمات الصارمة، أو يراوغ بها الرقيب. والبعضُ يسأل عن وسيلةٍ للحفاظ على علاقة حبٍ سرية خشية أن يكتشفها النظام. فكان الساحر يساعد الكثيرين في صوغ أعمالهم وحيواتهم بالنصح والمشورة. كان يقضي ساعاتٍ طوالاً في الحديث عن فكرة فيلم أو كتاب، وساعات أُخرى في غرفة المونتاج مساعدًا في منتجة أحد الأفلام.

كان يرشدُ بعض أصدقائه الى كيفية التصالح مع من يحبون، ويشير إلى سواهم بأنهم إذا أرادوا أن يكتبوا ويبدعوا بشكل أفضل فإن عليهم أن يحبّوا؛ أن يعيشوا معنى كلمة حب. وكان قارئًا فذًّا لكل ما ينشر تقريبًا في الاتحاد السوفياتي، ومتابعًا جيدًا إلى حدٍ بعيد لأحدث وأفضل الأفلام والكتب في الخارج.

كان الكثيرون يتمنون أن يكونوا جزءًا من مملكته السرية. بيد أنه لم يكن ينتقي سوى أولئك الذين يجتازون اختباراته الشخصية التي لا علم لأحدٍ بماهيتها، والتي كان يضع وفق معيارها كل احتمالات الرفض أو القبول. ولم يكن يطلبُ من أحدٍ اي طلبٍ مقابل عطاءاته السخية، سوى التكتم، وبألاّ يعمدَ أحدٌ على ذكرِ اسمه أو التعريف به أو حتى الإشارة إلى وجوده في العلن. وقد أنهى علاقاته مع الكثيرين، فقط لأنهم تصرفوا على الضد من رغبته. وإني لأتذكرُ عبارة كان مولعًا بتكرارها: «لا أريدُ أن يتذكّرني أحد.. أريد أن أُنسى.. فأنا لستُ واحدًا من هذا القطيع».

كانت تعابير وجه «ياسي» هي التي شجّعتني على ابتداع تلك القصة وروايتها لها. فقد ذكرتني بنفسي حينما كنت طفلة، وما كنت ربما أبدو عليه حينما كان يجلسُ أبي عند فراشي وينسج الحكايا من أجلي في الليل أو في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى عمله. كان أبي يحوّل كل تفاصيل اليوم إلى حكايا، فإذا غضب مني لسببٍ ما، أو أراد مني أن أقوم بشيء ما، أو أنه رغب باسترضائي، حوّل الأمر الأرضيّ إلى حكاية خياليةٍ تهزّني وتثير في روحي الرعشة.

أما ما لم أُخبر به «ياسي» في ذلك اليوم، هو أن شخصية ساحر «نابوكوف» المفترضةِ تلك، أو ذلك الرجل الذي كان يشكل خطرًا على الحكومة مثلما كان يشكله متمرد مسلح، لم يكن له وجود، أو على الأصح أنه لم يكن بطلاً في رواية. لقد كان شخصًا حقيقيًا، وكان يسكن على بعد ربع ساعةٍ فقط من جلستنا تلك. إذ نحن نلعبُ بلا مبالاةٍ بملعقتين طويلتين في قدحَين طويلين.

وهكذا، اخترتُ أن أدعو «ياسي» للانضمام معنا الى الصف الخاص.

[10]

لقد سبق وطلبتُ منك أن تتخيّلنا، عزيزي القارئ. أن تتصورنا ونحن نقرأ «الوليتا» في طهران. «الوليتا»، تلك الرواية التي تتحدث عن رجل أراد أن يمتلكَ طفلة في الثانية عشرة من عمرها وأن يسيطرَ على حياتها. فتسبب بموتِ والدتها «شارلوت» بشكلٍ أو بآخر، وأبقى الفتاة لديه عامين كاملين، جاعلاً منها عشيقة سبيّة. فهل يحيّركَ أمر «الوليتا»؟ هل تتساءل لماذا؟.. لماذا «الوليتا» في طهران؟ او.. ما هي علاقة «الوليتا» بطهران؟

أريد أن أؤكّد لك مرة أخرى بأننا لم نكن «الوليتا»، ولم يكن «آية الله» هو «هومبرت»، وليست هذه الجمهورية بأي حال هي ما أطلقَ عليه «هومبرت» «إمارة البحر» التي يمتلكها، ولم تكن «الوليتا» يومًا روايةً نقدية للجمهورية الإسلامية. بيد أنها تقفُ على الضد من أي وجه من أوجه الشمولية.

دعونا نأخذ مثالاً ذلك المشهد: حينما يمر «هومبرت» لاصطحاب «الوليتا» من مخيمها الصيفي بعد وفاة والدتها، ولم تكن على علم بالأمر. كان هذا هو المشهد الافتتاحي لعامين قادمين من الأسْر، كانت «الوليتا» في غضونهما تنتقل من فندقٍ الى آخر مع العشيق الحارس:

«دعوني أستذكر للحظة ذلك المشهد بكل تفاصيله التافهة والقاتلة معًا: العجوز «هولمز» تكتبُ إيصالاً، تحكُ رأسها، تسحبُ دُرْجًا في طاولة المكتب، وتضع باقي النقود في راحة يدي التي نفد صبرها، ثم تفرشُ فوقها

بأناقةٍ ورقة نقدية واحدة وتقول بسطوع: «.. وإليك خمسة!» صورُ فوتوغرافية لبناتٍ صغيرات، فراشة مبهرجةً أو ربما عثة مجنحة على قيد الحياة، مثبّتةً على الجدار بدبوس (خاصة في درس الأحياء)، شهادة دبلوم مؤطّرة لخبيرة التغذية في المخيم، كفّاي المرتعشتان، بطاقة أعدّتْها «هولمز» الكفوءة، وتقريرٌ عن سلوك «دوللي هايز» لشهر تموز/ يوليو: «جيدة إلى حد ما.. حريصة على السباحة والملاحة».. صوتُ أشجارٍ وعصافير، صوت قلبي الذي يخفقُ ويخفق.. كنتُ أقفُ وظهري الى الباب المفتوح، ثم.. أحسستُ بالدمِ يصعدُ الى رأسي ما إن أحسستُ بأنفاسها وصوتها خلفي»..

ومع أن هذا هو ليس المشهد الأكثر إثارة في رواية «لوليتا»، إلا أنه يقدم لنا دليلاً واضحًا على مهارات «نابوكوف». واني لأعتقد فعلاً بأنها تمسّ قلب الرواية (إنها تمسك بقلب الرواية). يقول «نابوكوف» عن نفسه بأنه كاتبٌ يلوّن بالكلمات. ويعطينا هذا المشهد فكرة جيدة عما يقصده. فنحن نجدُ بأن التعابير هنا حبلى بالتوتّرِ بين ما حدث في الماضي وبين المعرفة باحتمالية حدوث كوارث جديدة وحوادث أكثر فظاعة. وأعني ما حدث في الماضي: اكتشاف «شارلوت» خيانة «هومبرت»، ثم الصِدام الذي حدث بينهما والذي قادها الى مصيرها المحتوم.

فـ«نابوكوف» ينذرنا مسبقًا بنيات «هومبرت» الفظيعة وبِيُتم «لوليتا»، باعتماده إسلوبيًا على وضع الأشياء التافهة بشكلٍ متلاحق وخلطها مع بعضها البعض؛ فيضع مثلاً: أشياء غير ذات قيمة: («شهادة دبلوم مؤطرة»، «صور فوتوغرافية لبناتٍ صغيرات»)، مع إجراءات تفصيلية عادية: («جيد إلى حد ما.. الحرص على السباحة والملاحة»)، مع مشاعر وانفعالاتٍ شخصية: («راحة يدي التي نفد صبرها»، «كفاي المرتعشان»، «قلبي الذي يخفقُ ويخفق»). ففي هذا المشهد الذي يتراءى وكأنه وصفي، نجد بأن المشاعر الإجرامية الكامنة عند «هومبرت» تجرّدُ الأشياء العادية من استقرارها. ومن الآن فصاعدًا، سنجدُ بأن

ارتجافات «هومبرت» وارتعاشاته ستصبغُ كل التفاصيل الدقيقة التي تكتنفُ السرد، فيفرضُ عواطفة على المكان والزمان والحدث، مهما كان الحدثُ هامشيًا او غير ذي قيمة. فهل شعرتَ عزيزي القارئ، مثلما شعرتُ طالباتي، بأن الشرّ الكامن في تصرفاتِ «هومبرت» ومشاعره هو أخطرُ وأكثر بشاعةً لأنه كان يتظاهرُ بأنه زوجٌ طبيعي، وأبٌ (أو زوجُ أُمٍ) طبيعي، وإنسانٌ طبيعي ولا تشوبه شائبة؟

ولا ننسى أيضًا «الفراشة»، ام تراها كانت «عثة مجنحة»؟ إن افتقار «هومبرت» القدرة على التمييز بينهما، أو لا مبالاته، تنطوي على لا مبالاةٍ أخلاقية حيال أمور أُخرى. وتتبدى تلك اللامبالاة العمياء في موقفه المتبلّد القاسي صوب وفاة ابن «شارلوت»، أو صوب تنهدات «الوليتا» ونحيبها الليلي. أما أولئك الذين يخبروننا أن «لوليتا» ليست أكثر من طفلةٍ صغيرةٍ لعوبٍ تستحقّ كل ما يجري لها، فلا بد لهم أن يتذكروا نحيبها الليلي وهي بين يدي آسرها ومغتصبها، فهي «لا تملك أي مكانٍ آخر تذهب اليه». وهو ما يخبرنا به «هومبرت» بمزيجٍ من الرثاء واللّذة.

لقد أضاءتْ لنا هذه الفكرة ونحن نناقش في «صفنا الخاص» مصادرة «هومبرت» حياة «الوليتا». فمن الصفحة الأولى للرواية، صدمتنا فكرة تقديم «الوليتا» على أنها صنيعة «هومبرت»، ووجدنا بأنها لا تظهر لنا إلا في لقطاتٍ عابرة خاطفة. وتطالعنا عبارة «هومبرت» الصادمة: «إن ما امتلكتُهُ بجنون هو ليس «الوليتا»، وإنما ما صنعته منها، فقد صنعتُ منها «الوليتا» أُخرى أكثر إمتاعًا، ربما، أو أكثر حقيقة من تلك الـ«لوليتا» التي تبدو بلا إرادة وبلا وعي، هي فعلًا لا تملك حياة حقيقية تخصها».

يبتدئ «هومبرت» بالسيطرة على «الوليتا» بأن يطلق عليها اسمًا سيحاكي فيما بعد رغباتَه وأهواءه. وهناك، في الصفحة الاولى تمامًا، نراه يشير الى أسمائها المختلفة؛ فقد منحها أسماءً لمختلف المناسبات: «لو».. «لولا».. إلخ. أما

حينما تكون بين ذراعيه، فلا يكون اسمها سوى: «الوليتا». ثم نعلمُ أيضًا باسمها الحقيقي: «دولورس» التي تعني بالإسبانية: «ألم».

كان على «هومبرت» لكي يعيدَ ابتداع «الوليتا»، أن يأخذ منها تاريخها الحقيقي ليضع مكانه التاريخ الذي يريد. فما كان منه إلا أن يمسخ «الوليتا» ليحوّلها الى نسخةٍ تجسّدُ حبيبته «أنابيل لاي» وحبه الضائع الفتي غير المتحقق لها. ثم إننا لا نتعرّف على «الوليتا» بشكل مباشر، وإنما عن طريق «هومبرت». ولا نتعرّف عليها عبر ماضيها، وإنما عبر ماضٍ خيالي مُفترض يبتدعهُ الراوي الذي يقحمُ نفسه في حياتها. وهذا هو بالضبط ما أطلق عليه بعض النقاد، ومن بينهم «نيما» أحد طلبتي، نظرية الأنا عند «هومبرت»، وهي ما يتمثّل بامتلاك «هومبرت» لـ«الوليتا».

بيد أن «الوليتا» كانت تملك ماضيًا حقيقيًا يخصهما. وعلى الرغم من محاولات «هومبرت» لجعل «الوليتا» يتيمة منقطعة الجذور بمحاولته سرقة تاريخها، فان ذلك الماضي الذي تملكه يبقى يتراءى لنا بين الحين والحين ولو عبر لمحات بسيطة. وإن إبداع «نابوكوف» يجعلنا نشعرُ بتلك اللّمحات العابرة تبدو وكأنها الأهم والأكثر تأثيرًا، على النقيض من شعورنا بهَوس «هومبرت» بماضيه الخاص الذي يلقي بظلاله الكاملة على الرواية.

ونتعرّف على ماضي «الوليتا» المأساوي: أبٌ متوفٍ، وأخٌ ذو عامين متوفٍ، والآن ايضًا امٌ بوافيها الأجل. ومثلما يحدث لطالباتي فإن ماضي «الوليتا» لا يُعاودها مثل حلمٍ مفقودٍ ضائعٍ، وإنما مثل فراغات ونقصٍ في شيءٍ ما.. وهي لذلك مثل طالباتي: تتحول إلى نموذجٍ مزيّف لحلم شخص آخر يحاول تحقيقه بشخصها.

وبطريقة أو بأخرى، نجدُ بأن ماضي إيران الحقيقي قد أصبحَ أمرًا ثانويًا لأولئك الذين استحوذوا عليه، تمامًا مثلما أصبحَ ماضي «الوليتا» الحقيقي ثانويًا بالنسبة لـ«هومبرت». لأنه كان لا بد للماضي أن يغدو ثانويًا مثلما كان لا

بد لحقيقة «الوليتا» ورغباتها وحياتها أن تغدو بلا معنى أو لون أمام هوس «هومبرت» الأول: وهو جعلُ طفلة صعبة المراس وفي الثانية عشرة من عمرها عشيقة له.

كلما فكّرتُ بـ«الوليتا»، أجد نفسي أفكر بتلك الفراشة نصف الحية المثبتة بدبوس على الجدار. قد لا تكون الفراشةُ رمزًا واضحًا، لكنها في الوقت نفسه تعطينا الانطباع بأن «هومبرت» يعمدُ الى تثبيتِ «الوليتا» بالأسلوب ذاته الذي يُثبَتُ فيه الفراشة. فهو يريد منها أن تتحوّل من إنسانة حية نابضة، إلى مخلوقٍ ساكنٍ مطيعٍ، وأن تقلع عن حياتها في مقابل الحياة الساكنة التي يمنحها هو. وستبقى صورة «الوليتا» إلى الأبد مرتبطة في عيون قرّائها بصورة سجانها. فـ«الوليتا» بمفردها لا معنى لها، ولا يمكنها أن تأتي الحياة إلا عبر قضبان سجانها.

بهذه الطريقة أقرأ رواية «الوليتا». ومرة بعد أُخرى، كلما ناقشنا هذه الرواية في الصف كانت مناقشاتنا مشوبةً بالأسى والفرح الشخصي الذي تضمرهُ طالباتي في أعماقهنّ. ومثل قطراتِ دمع على رسالة، كانت غزواتنا إلى الشخصي والمخبوء في أعماقنا تشوبُ نقاشاتنا عن «نابوكوف». وكنتُ بين الحين والحين، أعود الى التفكير بتلك الفراشة؛ لأنها كانت تشبهنا جدًا، وكان يجمعنا بها تلك الألفة الشاذة التي تربط ما بين السجّان والضحية.

[11]

كنت أدونُ ملاحظات الصف الخاص في دفتر كبير. وكانت صفحات المذكرات في معظمها فارغاً باستثناء أيام الخميس، فكانت تطفح الحروف أحيانًا لتغطي أيام الجُمَع والسبوت والآحاد. وحينما غادرتُ إيران، اقتطعتُ من الدفتر أوراقه الأهم عندي، فقد وجدتُه ثقيلاً على السفر إذا أخذته معي كاملاً. وما أملكه الآن أمامي هو صفحات ممزقة وذات ندوبٍ من مذكرات لا تنسى. ثمة خربشات وإشارات لم أعد أستطيع فكَّ رموزها، بيد أن ملاحظاتي للأشهر الأولى بدتْ أكثر ترتيبًا ونظافة. وكانت في أكثرها تشير إلى التماعاتٍ ذهنية كنت أستقيها عبر المناقشات.

في الأسابيع الأولى للصف الخاص، كنا في الغالب نذاكرُ ونناقش الكتب التي قررتُها للصف بشكل منهجي ورسمي. كنتُ أهيّئ مجموعة من الأسئلة لطالباتي، أصوغها على غرار أسئلة بعثتها لي إحدى صديقاتي من «برامج تدريس النساء». وكنت أروم فقط ان أحفزهنّ على الكلام بحرّية. ولم يكنَّ يُجبنَ على الأسئلة إلا لكونها جزءًا من الواجب البيتي. كانت أسئلة على غرار: «ما هو رأيك بوالدتك؟»، أو «سمي لي ست شخصيات تعتقدين أنك معجبة بها دون سواها، وست شخصيات أُخرى لا تعجبك مطلقًا»، أو «كيف تصفين نفسك بكلمتين؟». كانت أسئلة مملة غبية ولم أكنْ أحظى منهنّ سوى بإجاباتٍ غبية. فلقد كتبنّ ما هو متوقع منهنّ. وأتذكر ان «مانا» وحدها حاولتْ ان تجعل

إجاباتها أكثر خصوصية. فحينما كان السؤال مثلاً: «ما هو تصورك عن نفسك؟»، كانت قد أجابت: «لستُ مستعدة لهذا السؤال الآن». فعلاً لم يكنّ مستعداتٍ، على الأقل، ليس بعد.

في البداية، كنت أسجل ملاحظاتي الدقيقة وكأنني بإزاء تجربة مختبرية. كان ذلك مبكرًا جدًا. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر، إذ لم يكن قد مضى على اجتماعاتنا الأسبوعية أكثر من شهر، كتبتُ الآتي: تقول «ميترا»: «إن النساء الأُخريات يزعمنَ بأن قدرهنّ هو إنجاب الاطفال، وكأنهنّ منذورات لذلك القدر». فعلّقتُ على عبارتها: «بعض طالباتي أكثر تطرفًا حتى مني، في استيائهن من الرجال. وكلهن يبحثن عن الاستقلال. ويعتقدن بأنهن لم يجدْنَ رجالاً جديرين بهن، أو مساوين لهن. ويعتقدن بأنهن قد كبرن ونضجن بينما ما زال الرجال في حياتهن غير ناضجين، بل إنهم حتى لم يتجشموا عناء التفكير!» وفي ٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر كتبتُ الآتي: تقول «مانا»: «أنا خائفة من نفسي، فلا شيء مما لدي أو مما أفعل يشبه ذلك الذي لدى من هم حولي، أو ما يفعلون. الآخرون يخيفونني، وانا أخافني».

لقد خلصتُ منذُ البداية وحتى آخر الحصص لنا معًا، الى أن بناتي لم يكنّ يمتلكنَ تصوّرًا واضحًا عن أنفسهنّ. ولم يكنْ بإمكانهنّ صوغ ذواتهنّ إلا عبر عيون الآخرين، بل وللسخرية، فأنا أعني بالـ«آخرين» تحديدًا أولئك البشر الذين كانوا طالباتي يكرهْنَ ويزدرين.

كتبتُ بعد ذلك: «أحبّي نفسكِ»، و«ثقي بنفسكِ»، ووضعتُ خطًا تحتهما.

بيد أن نقاشاتنا الأدبية كانت الفضاء الأرحب الذي أطلقَ العنان لهنّ وجعلهن أكثر اهتمامًا. كانت الروايات ملاذنا الآمن من قسوة الواقع، فكنا نستطيع أن نعبّر بحرّية عن إعجابنا بجمالها أو كمالها، تاركين جانبًا كل القصص والحكايا عن العمداء والجامعة وميليشيا حماية الأخلاق في الشوارع. كان ثمة براءة من نوع ما تكتنفُ قراءتنا لتلكَ الكتب. فقد قرأناها بمعزل عن تاريخنا وتوقعاتنا

للمستقبل. لقد كنا مثل «أليس»، بطلة حكاية «أليس في بلاد العجائب» وهي تركض وراء الأرنب الأبيض وتركض في المروج الخضر. لم تذهب تلك البراءة أدراج الرياح، بل لقد أتتْ ثمارها؛ لأننا لولا براءتنا ما كنا لنعبر عن أنفسنا، ولا لندرك عجزنا عن التعبير. والغريب أن الروايات التي كنا نهرب إليها من واقعنا أخذت تحفّزنا على التساؤل عن ذلك الواقع الذي كنا نحسّ إزاءه بالعجز والخرَس.

وبخلاف جيل الكتّاب والمثقفين الذين نشأتُ معهم، والذين أنسجم معهم اليوم أكثر من سواهم، لم يكن ذلك الجيل الذي تنتمي إليه بناتي، مهتمّا بالأيديولوجيا والمراكز السياسية. فكان لهذا الجيل فضول أصيل، وجوع حقيقي لأعمال الكتاب العظام الذين حكم عليهم النظام ومثقفي الثورة ممّا بالتعتيم والإلغاء، فمُنعتْ معظم كتبهم وحرّم تداولها. وبخلاف عهد ما قبل الثورة، أصبح «الكتّاب غير الثوريين» اليوم هم حملة المبادئ الذين يحتفي الشباب بهم. فأصبحت أسماء بعض الكتّاب مثل «جيمس» و«نابوكوف» و«وولف» و«بيللو» و«أوستن» و«جويس» أسماءً مبجلة، وصار يُنظَرُ اليهم على أنهم سفراء ذلك العالم المحرم الذي حولناه نحن الى شيء ما أكثر نقاء وسطوعًا مما كان أو ما يمكن أن يكون ذات يوم.

وبحسب تعبير «فاديم»، الراوي في رواية «نابوكوف» الأخيرة: «أنظروا الى المهرّجين»، كان التوق إلى الجمال والرغبة الفطرية في الوقوف بوجه «الأشكال الخاطئة للأشياء»، قد جعل الكثيرين يأتون من أقطاب أيديولوجية متباينة وينضوون جميعًا تحت ما نطلق عليه عمومًا اسم: «ثقافة». فهذا هو الفضاء الأهم الذي لا تلعب فيه الأيديولوجيا إلا دورًا هامشيًا صغيرًا جدًا.

وأنا أميلُ إلى التصديق بأن كل ذلك التوق إنما كان يعني شيئًا ما؛ كان يعني بأن ثمة في الجو العام لطهران ما ينبئ بشيء أهم. لم يكن ذلك هو الربيع تمامًا، وإنما كان أشبه بنسيمٍ عليلٍ، أو حركة في الهواء تنبئ بأن الربيع قادم. وهذا ما

أميلُ أنا شخصيًا الى التمسّك به؛ بتلك النفخة الخفيفة من الإثارة المكبّلة المستديمة التي تذكرني بقراءة كتاب مثل «لوليتا» في طهران. وها أنني ما زلتُ أجد ذلك في رسائل طالباتي السابقات. فعلى الرغم من كل المخاوف والقلق بشأن مستقبل بلا وظائف أو ضمان، وعلى الرغم من الحاضر الهشّ الغادر، فإنهنّ ما زلْنَ يكتبن عن «البحث عن الجمال».

[12]

لا ادري ما إذا كنتَ تستطيعُ أن تتخيّلنا؟ فها نحن نتحلّقُ حول طاولة الزجاج والحديد، ذات يوم تشريني غائم، بينما كانت أوراق الشجر الحمر والصفر التي تعكسها مرآة غرفة الطعام، يبللها الندى. وأنا أضع، نسخة من كتاب «لوليتا» في حضني، وتفعلُ مثلي ربما طالبتان فقط. أما بقية الطالبات، فقد وضعنَ نسخًا مصوّرة سميكة عن الرواية، لأن كتبًا من هذا النوع لم تكن سهلة المنال. فلم يعد في الإمكان شراؤها من المكتبات بعد أن منعها الرقيب مبكرًا، ثم أوقفت الحكومة بيعها.

لقد أغلقت معظم المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية. وكان بعض أصحاب المكتبات يعتمدون على مخزون الكتب لديهم منذ ما قبل الثورة. كان يمكننا أن نجد بعض الكتب الأجنبية في متاجر بيع الكتب المستعملة، والبعض القليل كان يمكن أن نعثر عليه في معرض الكتاب الدولي السنوي في طهران. أما كتاب مثل «لوليتا» فقد كان العثور عليه صعبًا جدًا، خصوصًا تلك الطبعة منه التي كانت مزدانة بالهوامش، والتي كانت ترغب بها بناتي. وقد صوّرنا الرواية كاملة بصفحاتها الثلاثمئة لكل من لم تستطع إيجاد نسخة من الكتاب.

بعيد ساعة من الدرس، ستبدأ فترة الراحة. وسنحتسي بعض الشاي أو القهوة مع المعجنات. لا أذكر على من كان دور المعجّنات هذه المرة. فقد كنا نتناوب، وفي كل إسبوع كان على واحدةٍ منا أن تحضر المعجنات.

[13]

«مراهقة، وحشة صغيرة، فاسدة، ضحلة، طفلة مزعجة».. كانت كل هذه وسواها من الصفات هي ما أطلقه النقاد على «الوليتا». ومقارنة بكل ذلك الهجوم، فقد بدتْ لهم اعتداءات «هومبرت» على «لوليتا» ووالدتها، وكأنها ألطفُ بكثير، على الرغم من أنها قريبة من كل تلك الأوصاف. وثمة آخرون، ليس أقلهم «لاينول تريلينغ»، يجدون أن الرواية تتحدث عن قصة حب عظيمة. وثمة من يدين رواية «لوليتا» لأنه يرى أن «نابوكوف» أحالَ قصة اغتصاب طفلة في الثانية عشرة الى تجربة جمالية.

أما نحن في صفنا الخاص، فلم نتفقْ مع كل تلك التأويلات. وإني لأشعر بشيء من الفخر إذ أقول بأننا اتفقنا بالإجماع مع رأي «فيرا نابوكوف»، واتخذنا جميعًا جانب «لوليتا».

كتبَتْ «فيرا» في مذكراتها تقول: «لقد أشبعَتْ رواية «لوليتا» تحليلاً في الصحف من كل الجوانب الممكنة، لكن أغفلَ عن الجميع عنصر الجمال وعنصر الشفقة. فقد فضّل النقاد البحث عن الرموز الأخلاقية في الرواية، وإيجاد المسوغات أو الإدانة، أو اللجوء إلى تفسير محنة «هومبرت هومبرت». ولكن، كم تمنيتُ لو أن أحدًا ما كان قد تنبّه الى ذلك الوصف الرقيق لعجز الطفلة وقلة حيلتها واعتمادها المثير للشفقة على «هومبرت هومبرت» البشع، وشجاعتها التي تمزق الفؤاد في تكبّد عناء ذلك الزواج الحقير الذي يبدو في

جوهره نقيًا صحيًا، ثم رسالتها وكلبها الصغير، وذلك التعبير الرهيب الذي يعلو ملامح وجهها حينما يخدعها «هومبرت هومبرت» من أجل متعة عابرة كان يمنّي بها نفسه. والكل يفوته حقيقة أن «لوليتا»، تلك «الطفلة المزعجة البغيضة» إنما هي فعلاً إنسانة جيدة جدًا، وإلا لما كانت لتستقيم حياتها لاحقًا بعد أن سُحقت ودُمِّرتْ بكل تلك البشاعة، ولما كانت لتخلق لنفسها حياة أُخرى لائقة مع «ديك» المتواضع الأقرب إلى نفسها من سواه».

لقد اتّبع «هومبرت» أسلوب الاعتراف في سرده للحدث، وذلك بالمعنى المعتاد لمصطلح الاعتراف أولاً، وثانيًا لكونه كتب بشكلٍ مباشر مذكراته في السجن بانتظار محاكمة قاتل الكاتب المسرحي «كلير كويلتي» الذي هربتْ معه «لوليتا» لتنجو بنفسها من «هومبرت»، والذي لفظها عنه بعدما رفضَتْ مشاركته في ألعابه الجنسية الوحشية. ويبدو لنا «هومبرت» بصفته راويًا ومغويًا في آنٍ واحد. ولكنه لا يغوي «لوليتا» وحدها، وإنما يغوينا نحن أيضًا؛ نحن قراءه الذين يخاطبنا على طول صفحات الكتاب بصيغة: «أيتها السيدات أيها السادة هيئة المحلفين» (وأحيانا: «أيها السادة المحلفون الأفاضل»). وإذ تتنامى الرواية، تظهر لنا جريمة أبشع وأخطر من جريمة «كويلتي» وهي الإيقاع بـ«لوليتا» واغتصابها (نلاحظ بينما نقرأ مشاهد «لوليتا» بأنها مكتوبة بانفعال وبعاطفة ورقة، في الوقت الذي لا تتعدى مشاهد «كويلتي» أن تكون وصفًا هزليًا وحشوًا فارغًا). ويتميّز النثر الفني لـ«هومبرت» بالنزوع الى الزخرف اللفظي المنمّق الفج بين الحين والحين، وهو بهذا إنما يهدف الى إغواء القارئ المتيقظ وتضليله، فيؤخذ الأخيرُ عنوة مخدوعًا بتلك البهلوانيات اللفظية المشبعة في المعرفة.

أما «لوليتا» فإنها تنتمي الى ذلك النوع من الضحايا العزل المجرّدين من دفاعاتهم، والذين لم يمنحهم أحد فرصة للتعبير عن أنفسهم وشرح قصتهم ذات يوم. ولهذا فقد أصبحَتْ ضحية مرتين؛ ولم تُسلبُ منها حياتها فحسب،

وإنما سُلبَتْ منها قصة حياتها ايضًا. لقد قررنا فيما بيننا أنا وبناتي بأننا أوجدنا الصف لكي نحمي أنفسنا من أن نصبح ضحايا للجريمة الثانية، ولكي نتمكن على الأقل من امتلاك قصتنا والتعبير عنها.

نحن نقرأ إدانة «الوليتا» ووالدتها حتى قبل أن نراهما. فها هو «هومبرت» يطلق على بيت آل «هَيز» وصف: البيت الغامض الذي يميل إلى الرمادي بدلاً من اللون الأبيض.. وبأنه: «بيتٌ تعلم مسبقًا بأنه من ذلك النوع الذي ستجد فيه أنبوبًا مطاطيًا موصولاً بحنفية حوض الاستحمام عوضًا عن الدوش». وإذ نقف في الصالون الأمامي الذي تزيّنه أجراس الباب و..«تلك اللوحة التي يعتزّ بها المتثاقفون من الطبقة الوسطى، وهي تقليد لوحة «آرليسين» لـ«فان غوخ»»، نجدُ بأن ابتساماتنا قد استحالتْ أصلاً إلى زهو وسخرية. ثم تتطلع بنظرة عجلى إلى السلالم وقد تناهى إلى سمعنا صوت السيدة «هَيز» الرنان، «وهو ليس أكثر من خلطةٍ واهية ضعيفة عن صوت «مارلين ديتريش»».. وذلك قبل أن يصلنا صوت «شارلوت»، وهي تدخل معنا في المشهد.

وهكذا، يعمدُ «هومبرت» إلى تحطيم صورة «شارلوت» جملة بعد أُخرى، وكلمة على إثر كلمة، حتى وهو يصفها قائلاً: «كان من الواضح أنها من هاتيك النسوة التي توحي لك كلماتها المتصنعة بأنها في أحد منتديات الكتاب أو أحد صالات القمار، أو ما شاكل من تلك التجمعات القاتلة المقرفة، كلماتٌ.. لا يمكنها أن تكون قطعًا نابعة من روحها».

فلم تكن لتلك المرأة المسكينة من فرصة ذات يوم للتعبير عن حقيقتها، ولم تحسّن من صورتها أمام القارئ الذي يبقى مستمتعًا بوصف «هومبرت» لها ولسطحيتها ورغبتها المتوقّدة والغيورة فيه هو، وكذلك وصفه لوضاعتها مع ابنتها. وعبر اللغة الجميلة لـ«هومبرت» (مثل قوله: «بإمكانك أن تثق دائمًا بقاتل حينما يكون أسلوبه النثري شيقًا»). نجده يجعل اهتمام القارئ منصبًا على تفاصيل تافهة وشرور صغيرة متعلّقة بالاستهلاكية الأميركية، وبذلك يخلقُ

نوعًا من التعاطف عند القارئ جاعلًا منه شريكًا في الجريمة. وبذلك أيضًا يشجع القارئ على أن يكون متفهمًا مستوعبًا إغواء «هوبرت» المريع لأرملة وحيدة، ومن ثم زواجه فعلًا منها، لا لشيء سوى إغواء ابنتها.

يتجلى إبداع «نابوكوف» في قدرته على جعلنا نحس بالتعاطف مع ضحايا «هومبرت» حتى وإن لم نكن متفقين معهم. فنحن على الأقل نتعاطف مع زوجتيه «فاليريا» و«شارلوت»، ونستهجنُ أفعال «هومبرت» الوحشية بحقهما على الرغم من تأييدنا لحكمه عليهما بالابتذال. وإذًا فإننا هنا أمام الدرس الأول في الديمقراطية: «بإمكان كل فرد أن يتمتع بحقه في الحياة والحرية والسعي لنيل السعادة، أيًا كانت تفاهة أو وضاعة ذلك الفرد».

وفي روايتَي «دعوة إلى ضرب العنق» أو «المنعطف المشؤوم»، نجد بأن أشرار أو أوغاد «نابوكوف» هم السوقيون أو الحكام الدكتاتوريون الذين يحاولون امتلاك العقول القادرة على صنع الخيال والسيطرة عليها. أما في رواية «لوليتا»، فالوغد هو ذاته صاحب العقل القادر على صنع الخيال. ولا يمكن أن يلتبسَ حكم القارئ على شخصية «مسيو بيتر»، ولكن كيف به إزاء شخصية «مسيو هومبرت»؟

فـ«هومبرت» لا يدّخر وسعًا في استثمار أقصى قدراته الفنية الماكرة في تهيئة القارئ للقبول بشكلٍ تام بجريمته النكراء؛ وأعني محاولته الاولى للاستحواذ على «لوليتا». فهو يهيّئنا لمشهد الاغتصاب الرئيس بتلك البراعة العجيبة التي نراهُ يهيّئ بها نفسه لتخدير «لوليتا» وامتلاك جسدها المسترخي. فهو يحاول أن يكسبنا إلى جانبه بأن يصنّفنا كما يصنّف نفسه: نقادًا متحمسين للثقافة الاستهلاكية. ويعمدُ الى وصف «لوليتا» بأنها ثعلبة مبتذلة، وبأنها: «فتاة صغيرة عادية بشكل مقزز، ولا تصلح حتى أن تكون تلك الطفلة الرقيقة التي تليق برواية أنثوية».

ومثل هيئة دفاع دامغة، تبهر الجميع ببلاغتها وبراعتها في الخطابة وتهيب

بأخلاقنا وضمائرنا أن نكون مؤيدين لها، نرى «هومبرت» يبرّئ نفسه ويورط ضحيته. ولكم كان هذا الاسلوب دارجًا ومألوفًا لنا في الجمهورية الإسلامية. (صرح آية الله الخميني ذات يوم بعد أن أضرم أتباعه النار في دور السينما قائلاً: «نحن لسنا ضد السينما، وإنما نحن ضد البغاء!»).

يقول «هومبرت» موجهًا حديثه إلى «النساء المحترمات في هيئة المحلفين: سأحدثكنّ عن أمر في غاية الغرابة، لقد كانت هي من أغوانِي»... ثم يستطرد كمن يبوح بسرٍ: «أنا لم ألمس ذرة احتشام لدى تلك الصغيرة الجميلة سيئة التربية، فقد أفسد أخلاقها تمامًا نظام التعليم المختلط الحديث، والعادات الصبيانية، وعربدات الحفلات الشبابية، والمخيمات وما إلى ذلك. وقد كانت تنظرُ الى الفعل الفاضح على أنه مجرّد جزءٍ من الحياة الشبابية المسروقة التي لا علم لأحد بها».

قد يتراءى لنا مما سبق أن «هومبرت» المجرم قد نجح بمساعدة «هومبرت» الشاعر في إغواء وتضليل كل من «الوليتا» والقارئ معًا. لكنه في واقع الأمر قد أخفق في كلا الحالتين. ففي حالة «الوليتا»، لم ينجح «هومبرت» في امتلاكها طواعية وبرغبتها هي، حتى غدت كل ممارسة للحب بينهما عبارة عن اغتصابٍ أكثر وحشية وبشاعة، ولم تكفّ «لوليتا» عن مراوغته والتملّص منه في كل مرة. كما وأخفق «هومبرتْ» في إغواءِ وتضليل القرّاء بشكل كامل، أو بعضهم على الأقل، بل إننا نجد، ويا للسخرية، بأن قدراته الشعرية، وإبداعه في النثر الفني المنمّق هو الذي يساعدنا في إنشاء حقيقته وفضحها.

ها قد رأيتم كيف استطاع «نابوكوف» بنثره الفني البارع أن يضع للقارئ غير المستريب فخاخًا أرضية؛ فحقيقة «هومبرت» المخفية التي يدل عليها الوصف ضمنًا هي التي تفضحه وتتحدى تصديق الجميع لادعاءاته. وهكذا، تظهر لنا «الوليتا» أُخرى، تتجاوز الصورة الكاريكاتورية لفتاة وقحة مبتذلة ومتبلدة المشاعر. وعلى الرغم من أنها ليست بعيدة عن تلك الصفات، لكنها أيضًا

تبدى لنا بصفتها فتاة وحيدة يتيمة وبلا مأوى، وبصفتها طفلة مجروحة ومتألمة ومحرومة من طفولتها.

وفي واحدةٍ من تجليات «هومبرت» النادرة يسرّب لنا بعض اللمحات من شخصيتها ومن وحدتها ورهافتها؛ فيقول بأنه لو كان بإمكانه أن يرسم الجداريات في فندق «إنشانتد هَنترز» حيثُ اغتصبها أول مرة، لكان رسم بركةً وعريشةً تشتعل وكان من الممكن أن يضيفَ إلى اللوحة أخيرًا: «نارٌ متغيرة الألوان تتبدّد صورتها في بركة سباحةٍ على شكل دائرة متماوجة، ثم.. خفقة أخيرة.. ولمسةٌ لونية أخيرة.. أحمر لاسع، او زهريّ لاذع.. حسرة.. وطفلة جافلة». (طفلة! أرجوكم «أيتها السيدات أيها السادة المحلّفون» أن تتذكروا بأنها طفلة. على الرغم من أن طفلة كهذه لو أنها عاشتْ في الجمهورية الإسلامية لكانت قد بلغتْ سن الزواج منذ زمن، ولكانت تزوّجتْ من رجل أكبر حتى من «هومبرت»).

ويتنامى الرواية، تتنامى قائمة «هومبرت» للشكوى والتذمر من «لوليتا». فنجدهُ يطلق عليها: «غاليتي الفاسقة الوضيعة»، ويمضي ليحدثنا عن «ساقيها البضتين الداعرتين». ولكننا سرعان ما نكتشفُ بأن تذمره منها كان مثلًا بسبب جلوسها في حضنه وهي تلعب بأنفها مستغرقة في «قراءة الجزء الأكثر إثارة من جريدة ما، غير آبهة بنشوتي وكأنها تجلسُ على شيء.. أي شيء: فردة حذاء.. أو دمية.. أو مقبضٍ لمضرب تنس!». وبلا شك فإن لدى القتلة والظالمين دائمًا قوائم طويلة يدينون بها ضحاياهم، والفرق الوحيد هنا هو أن معظمهم لا يملك فصاحة «هومبرت هومبرت».

وأيضًا، لم يكن «هومبرت» عاشقًا لطيفًا على الدوام؛ فكانت أقل محاولة تبديها «لوليتا» للاستقلال بنفسها تجعله يستشيطُ غضبًا: «.. ألقمتها بظاهر يدي صفعةً مروّعة أصابتْ عظم خدها القاسي الصغير. ثم جاء الندم، وتلك الحلاوة اللاذعة من النشيج والبكاء تكفيرًا، ومن التذلل حبًا، ومن محاولات الاسترضاء الحسّية المستحيلة. وفي تلك الليلة المخملية، في فندق «ميرانا» (آه.. يا

«ميرانا»!)، رحتُ أُقبِّلُ باطن قدميها المصفرّتين ذات الأصابع الطوال... أفنيتُ روحي قربانًا لها... دون جدوى. فقد كان كلانا على موعد مع قدره، وسرعان ما كان عليّ أن أُلجَ من جديد في دوامة الاضطهاد».

ولا شيء في الرواية يمسّ شغاف القلب مثل حقيقة عجز «الوليتا». فها هي في صبحية اليوم الذي تلا لقاءهما الجنسي الأول، (ذلك اللقاء الذي كان ممتعًا لـ«هومبرت» ومؤلمًا لها وقد أدت فيه الدور الأكثر شجاعة)، تطلبُ من «هومبرت» نقودًا لتتصل بوالدتها:

ـ «ولماذا لا يمكنني أن أتصل بأمي وأنا أريد أن أتصل بها؟».

فيجيبها «هومبرت»:

ـ «لأن أمك قد ماتت!»

في تلك الليلة، شغَلَ «هومبرت» و«الوليتا» غرفتين منفصلتين في الفندق، ولكنها: «عندما انتصفَ الليل، جاءت الى حجرتي وهي تشهقُ وتبكي، وحدث بيننا ما حدث بمنتهى الهدوء. أرأيتم؟.. انها لا تملكُ مطلقًا أي مكان آخر تذهبَ إليه».

وهنا يكمنُ بيت القصيد: إنها لم تكن تملكُ مطلقًا أي مكان آخر تذهبُ إليه، فكان «هومبرت» طوال عامين يجبرها على الامتثال لرغباته في الفنادق الحقيرة أو في الشوارع الخلفية أو في بيته أو حتى في المدرسة. وكان يمنعها من مخالطة أطفال في سنها، ويشدد من مراقبتها خشية أن يكون لها أصدقاء من الجنس الآخر، وكان يخيفها كي لا تفشي سره، ويقوم برشوتها بالمال من أجل الجنس، وكان ما أن ينال مرادهُ منها حتى يعافها، ثم يعود إليها من جديد.

وقبل أن يحكم القارئ على شخصية «هومبرت» أو على شخصية رقيبنا الأعمى، لا بد لي أن أذكّر بأنه في مرحلةٍ ما من الرواية يعمدُ «هومبرت» الى مخاطبتنا قائلاً: «يا قارئي.. يا أخي».. فيحيلنا بذلك إلى بيت شعري معروف لـ«بودلير»، في مقدمة ديوانه «أزهار الشر» حينما يخاطب القارئ قائلاً: «يا قارئي المنافق المرائي.. يا شبيهي.. يا أخي».

[14]

كانت «ميترا» تمد يدها الى قطعة من المعجنات وهي تحدثنا عن شيء ما ظل يشغلُ بالها بعض الوقت: «الماذا نحسّ بالفرح إزاء قصص مثل «لوليتا» و«مدام بوفاري»، مع أنها قصص حزينة جدًا وفي غاية المأساوية؟ أليس من الخطيئة أن نحسّ بالمتعة إذ نقرأ شيئًا مريعًا كهذا؟ وهل كنا سنشعر الشعور ذاته لو أننا قرأنا عنها في الصحف مثلًا؟ أو لو أنها حدثت لنا نحن؟ وإذا ما كتبنا عن حياتنا هنا في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فهل سيكون علينا أن نجعلَ قرّاءنا يحسّون بالفرح؟»

في تلك الليلة، مثل ليالٍ أُخرى كثيرة، أخذتُ كل ما حدثَ معي في الصف إلى الفراش وأنا أهم بالنوم. كنت أحس بأنني لم أعطي تساؤلاتِ «ميترا» حقها في الإجابة. كنتُ أتمنى أن أتصلَ بالساحر.. ساحري.. لأحدثه عما تناقشنا فيه. فقد كانت تلك من اللياليِ النادرات التي لا يؤرقني فيها القلق أو الكوابيس، وإنما يشدّني للسهر شيءٌ مثيرٌ منعش. فغالبًا ما كان أرقي الدائم بسبب انتظار وقوع كارثة ما غير متوقعة تحل على بيتنا، أو بسبب انتظار مكالمةٍ هاتفية تتحفنا بأنباء سيّئةٍ عن أحد الأصدقاء أو الأقارب. وكنتُ ربما أحسّ بأن بقائي متيقظة يجنبني تلك الأنباء، وبأن الحوادث المؤلمة لن تداهمني إلا وأنا في غمرة أحلامي.

وإذا أردتُ أن أعود بذاكرتي لأقتفي بدايات أرقي وعذاباتي الليلية، أصل إلى ذلك الزمن الذي كنت فيه طالبة في سنتي الثانية في مدرسة بغيضة في سويسرا.

أتذكر كيف تم استدعائي إلى مكتب المدير، وكنت أحضر درس التاريخ مع مُدرّس أميركي صارم. وأبلغوني بأنهم كانوا قد سمعوا للتوّ عبر الراديو بأن والدي، وهو أصغر محافظٍ في تاريخ طهران، قد تم اعتقاله. كنت قبل ثلاثة أسابيع فقط قد رأيتُ له صورة كبيرة بالألوان في صحيفة «باريس ماتش» وهو يقفُ جنبًا إلى جنب مع الجنرال ديغول. ولم يكن بمعية الشاه أو أية شخصية مهمة أُخرى، لقد كانت الصورة تضمّ بابا فقط والجنرال ديغول.

كان والدي معتدًا بنفسه، مثله مثل كل أفراد عائلتنا. وكان قد انخرط في السياسة وراح يستخفّ بالسياسيين ويتحداهم بمناسبة أو بغير مناسبة. كان متبجحًا بتفوقه العالي، وفي الوقت نفسه، كان متحدثًا لبقًا وشخصية عامة محبوبة، وعلى علاقة جيدة بالصحافيين. كتب الشعر، واعتقدَ بأن موهبته الحقيقية لا بد وأن تكون في الكتابة. وقد علمتُ لاحقًا بإعجاب الجنرال الشديد به، على الخصوص بعد أن ألقى خطبةً ترحيبية بديغول باللغة الفرنسية، كانت مفعمة بالتضمينات الأدبية لكتّاب فرنسيين أمثال «شاتوبريان» و«فيكتور هوغو». فقرر الجنرال تكريمهُ بمنحه «وسام جوقة الشرف». لكن ذلك لم يرقَ للنخبة الإيرانية، فقد كانوا مستائين أصلاً من مواقف والدي السابقة التي وجدوها استعلائية متمرّدة، وكان ذلك الاهتمام الزائد به قد أثار غيرتهم وحفيظتهم منه.

أما أنا، فلم أجد سوى تعويضٍ بسيط جدًا مقابل ذلك الخبر السيئ الذي أتحفوني به في المدرسة؛ وهو أنني لم أعدْ ملزمةً بعد ذلك باستكمال دراستي في سويسرا. وفي إجازة عيد الميلاد من تلك السنة، عدتُ الى بلدي بمرافقة حرس خاص أوصلني الى المطار. ولحظةَ أن وطأتْ قدماي مطار طهران ولم أجد أبي بانتظاري، تأكّدتُ تمامًا بأنهم اعتقلوه.

طوال السنوات الأربع التي أوقفَ فيها أبي في سجنه «الموقت»، في مكتبة السجن المتاخمة للمشرحة، كانت تصلنا الأخبار بالتعاقب: فتارة يُقال لنا بأنه

سيُعدم غدًا، وتارة يقالُ بأنهم سيطلقون سراحه فورًا. وفي آخر المطاف تمّتْ تبرئته من كل التهم الموجهة اليه، ما خلا تهمة واحدة: هي تهمة «التمرد».

بقيتُ طوال حياتي لا أستطيع نسيان هذه الكلمة، حتى أصبح التمرد فيما بعد بمثابةِ أسلوب حياة بالنسبة لي. وبعد مرور زمن طويل قرأتُ عبارة لـ «نابوكوف» تقول: «الفضولُ هو التمرّد في أنقى صوره». ولم أشفَ من تلك الصدمة أبدًا: صدمة اللحظة التي انتزعوني فيها من طمأنينتي في درس الاستاذ الصارم «هولمز»، كان هذا هو اسمه على ما أذكر، وقالوا لي إن والدي «المحافظ» قد أصبح الآن سجينًا. ولاحقًا، ستنتزعُ الثورةُ الإسلامية كل أحاسيس الطمأنينة التي كنتُ أحاول استعادتها في داخلي بعد إطلاق سراح أبي.

.....

بعد مرور بضعة أشهرٍ على صفنا الخاص، اكتشفنا أنا وبناتي بأن كل واحدةٍ منا لا بد وأن تكون قد خاضتْ تجربة الكابوس ذاته بطريقة أو بأخرى، ولو مرة واحدة على الأقل؛ كابوس كنا نرى فيه أنفسنا وكأننا نسينا ارتداء الحجاب أو أننا تعمّدنا الاّ نرتديه، وكانت الحالمة فينا غالبًا ما تجري وتجري. وتذكّرتُ كابوسي أنا، حينما وجدتُ نفسي أحاول الركض دون جدوى، فقد تجذّرتْ قدماي في الأرض عند باب بيتي تمامًا، ولم أستطعْ حتى الاستدارة إلى الوراء ودخول بيتي للاختباء فيه. كان بيننا طالبة واحدة ادّعتْ بأنها لم ترَ ذلك الكابوس مطلقًا، وكانت «نسرين». قالت لنا وهي تهز كتفها باستهجان: «كنت دائمًا أخشى فكرة أن أكون مضطرة للكذب. فأنا مؤمنةٌ بالمثل القائل: لأجل نفسك كن صادقًا وكفى». ثم أضافتْ بعد تفكير قصير: «ولكنني تطوّرتُ الآن».

حدّثتنا «نيما» لاحقًا عن ابنِ أحد أصدقائه، وهو طفل في العاشرة، كان قد أيقظ والديه مرتعبًا ذات ليلة، وأخبرهما بأنه كان يحلم حلمًا غير شرعي! قال بأنه رأى نفسه في الحلم وهو على شاطئ البحر، وحوله نساء ورجال يقبّل

بعضهم بعضًا، ولم يكن يدري ما عليه أن يفعل، وبقي يردد لأبويه بانه يحلم أحلامًا ممنوعة.

وفي «دعوة لقطع العنق»، نقرأ على جدار زنزانة «سينسيناتس سي»، التي صُمّمتْ وكأنها فندق من الدرجة الثالثة، تعليمات للسجناء مثل: «خضوع السجين هو مفخرة للسجن». أما القانون رقم ٦ الذي يقع في قلب الرواية فينصّ على أنه: «من المستحبّ الاّ يحلم النزيل مطلقًا، وإذا ما حلم، فسيكونُ عليه هو نفسه أن يقمعَ أحلامه المتطرّفة التي قد تتعارضُ مع وضعه في السجن. فثمة أحلام متطرفة: مثل المناظر الطبيعية الخلابة، أو الخروج للنزهة مع الأصدقاء، أو الغداء مع العائلة، بالإضافة الى ممارسة الجنس مع أشخاص لا يحتملون أن يقال بأن أحدًا قد اقترب منهم في الواقع أو في حالة الصحو، وفي هذه الحالة، سيعتبرُ السجين متهمًا بجريمة الاغتصاب بحكم القانون».

كنتُ عادةً في النهارات أفضل حالاً، كنت أحس بالشجاعة، فأجيب على أسئلة حرس الثورة، وأجادلهم، ولا أحس بالخوف إذ أتبعهم إلى اللجان الثورية. ولم يكن لديّ الوقت الكافي للتفكير بكل أقاربنا وأصدقائنا الذين ماتوا، أو التفكير بفرصنا وآمالنا الضعيفة التي تجنبنا المصير ذاته. كانت معاناتي وهواجسي لا تتداعى إلا في الليل حينما أعود: «ما الذي سوف يحدث الآن؟.. من الذي سوف يُقتل؟.. متى سيأتون؟». لقد حوّلتُ الخوف إلى هاجسٍ ذاتي داخلي لكي لا أفكر فيه فيجتاحني طوال الوقت. لكني بقيتُ أعاني أرقًا مزمنًا، فكنتُ أجولُ في أرجاء البيت ليلاً ثم أقرأ حتى أنام بنظاراتي، وغالبًا ما يكون كتابي بين يديّ. ومع الخوف كان يأتي الكذب على الذات، وتأتي المبررات التي مهما كانت مقنعة فإنها ستقلل من شأن احترامنا لذواتنا، كما قالت لنا «نسرين» بألم.

كنتُ أجد العزاء لدى بعض البشر وبعض الأشياء: أولها أسرتي وأهلي، ومجموعة صغيرة من الأصدقاء. ثم تلك الأفكار والآراء والكتب التي كنتُ

أناقشها مع الساحر، أو ذلك «الرجل السري» الذي حدّثتُ عنه «ياسي» على أنه قصة لـ«نابوكوف». فكنا نناقشُ كل شيء ونحن نمشي ونمشي ونجوب الشوارعَ بعد الظهر. وكم كان دائم القلق علي! كان يكرر: «كيف إذا استوقفنا أحد؟ أي عذر سنعطي؟ وبأي مبرر سنتجو؟ فلسنا متزوجيَن، ولستُ أخالك»..
كان يقلق عليّ وعلى عائلتي، وكنتُ كلما وجدتهُ أكثر قلقًا رحتُ ازيد في جرأتي، فأدع الإيشارب يتزلقُ عن رأسي، أو أتعمّدُ الضحك بصوتٍ عالٍ. لم أكن أستطيع أن أفعل «لهم» شيئًا، لكنني كنت أستطيع أن أصبّ غضبي عليه هو، أو على زوجي، أو على كل رجل كان يتصرّف معي بدافع الحرص والقلق «من أجلي»!

بعد نقاشنا الأول بشأن رواية «الوليتا»، أويتُ الى فراشي وانا مستنفرة ويملأني تساؤل «ميترا» فعلاً، لماذا ملأتنا «لوليتا» و«مدام بوفاري» بكل تلك المتعة؟ هل العيبُ فينا أم أنه في الروايتين؟ أوَلَم يكن «فلوبير» أو «نابوكوف» وحشيين بما فيه الكفاية في هاتين الروايتين؟ لكنني في الخميس الذي تلا ذلك مباشرة، كنت قد رتّبتُ أفكاري، ولم أكن أطيقُ الانتظار حتى أشاطرَ بها طالباتي. قلت لهن: إن «نابوكوف» يَعتبر كل رواية عظيمة حكاية من حكايات الجنيات، وأنا أتفقُ معه في هذا الرأي. دعوني أولاً أذكّركُنّ بأن حكايات الجنيات تزخر عادةً بالساحراتِ الشريرات اللواتي يأكلنَ الأطفال، وبزوجات الأبّ الشريرات اللواتي يقمْنَ بدسّ السُم لبنات أزواجهنّ الجميلات، وبالآباء الضعفاء الذين يتركون أطفالهم في الغابة الموحشة. أما السحر فهو ما يأتي عادةً من قوى الخير، تلك القوى التي تعلّمنا بألاّ نستسلم ونذعن للقيود والحدود التي يفرضها علينا «السيد القدر»، على حدّ تعبير «نابوكوف».

وتمنحنا كل حكاية من تلك الحكايات القوة والقدرة على تجاوز القيود في واقعنا، ولذا فإنها بطريقة ما تمنحنا الحرية التي يحرمنا الواقع منها. وفي كل الأعمال الأدبية العظيمة، مهما كان واقعها مريرًا، ثمة تمسّك بالحياة وتوكيد

يقفُ على الضدّ من سرعة زوال تلك الحياة، ويمثل تحديًا جوهرياً لها. ويكمن هذا التمسك بالحياة في الأسلوب الذي يتّبعه الكاتب في السيطرة على الواقع وذلك عبر إعادة سرده له بطريقته الخاصة، وبهذا يخلق عالمًا جديدًا مبتكرًا. ولي أن أقول ملأ حنجرتي بأن كل عمل أدبي عظيم هو احتفالية بحد ذاته، وهو فعل للعصيان والتمرد على الخيانة والرعب والكفر الذي يملأ الحياة. حتى نجد أن كمال الشكل وجماليته يتمردان على قبح ورداءة الموضوع. ولذا نجد أنفسنا نحب «مدام بوفاري» ونبكي على «إيما»، ولهذا أيضًا نقرأ رواية «لوليتا» بنهم، فيما تتفطر قلوبنا على بطلتها المبتذلة الصغيرة اليتيمة التي يملأها التحدي والشاعرية.

[15]

وصلَتْ «مانا» و«ياسي» مبكرتين بعض الوقت، وأخذنا الحديث بطريقة ما الى الأسماء التي اخترعناها لكل طالبة. قلتُ لهنّ بأنني أطلقتُ على «نسرين» اسم «القطة الشيرازية» لأنها اعتادت الظهور والاختفاء في أوقات غريبة. وحينما وصلتْ «نسرين» مع «مهشيد» أخبرناهما بما كنا نقول. فقالت «مانا»: «لو كان عليّ ان أختارَ اسمًا لـ«نسرين» لأطلقتُ عليها: التناقض اللفظي!» ولسبب ما كان هذا الكلام قد أغضب «نسرين». فاستدارتْ صوب «مانا» وقالت بما يشبه الاتّهام: «أنت الشاعرة و«ميترا» هي الرسامة، أما أنا؟ فماذا يمكن أن أكون؟ التناقض اللفظي؟»

كان توصيف «مانا» شبه الساخر لـ«نسرين» ينطوي على شيء من الحقيقة. فقد تلازَمتْ واتحدَتْ عند «نسرين» ساعات الصفاء والتلبّد معًا، وكانت مزاجيتها المفرطة وحساسيتها تتبعان تلك الأنواء النفسية المتقلّبة. فكانت عباراتُها الصادمةُ تنفجرُ من فمها بطريقة تحرج الجميع الى أقصى حد. وكانت كل طالبتي قد فاجأنني أو أدهشنني بطريقة او بأخرى.. بيد أن «نسرين» كانت الأكثر إدهاشًا لي من منهن جميعًا.

ذات يوم، بقيَتْ «نسرين» معي بعد الدرس بقصد مساعدتي في ترتيب وتصنيف أوراقي وملاحظاتي. فتطرقنا الى الحديثِ بشكل عام عن أيام الجامعة، وعن النفاق والتظاهر بالتقوى الذي يبديه بعض المسؤولين

والناشطين في الجمعيات الإسلامية المختلفة. كانت تضع قصاصات الورق في ملفات زرق وتدوّن التاريخ والموضوع على كل ملف، وهي تحكي لي بهدوء عن عمها الأصغر، وكيف أن ذلك الرجل التقيّ الورع كان قد تحرش بها جنسيًا وهي طفلة لما تتجاوز الحادية عشرة من عمرها. روتْ لي كيف أنه كان يردد دائمًا بأنه يريد أن يبقى طاهرًا عفيفًا من أجل زوجة المستقبل، وكان يرفض ان يقيمَ العلاقات مع النساء لهذا السبب. وراحتْ تكرر بسخرية: «طاهرًا عفيفًا!».

كان يمرّ بهم ثلاث مراتٍ في الاسبوع، ويعطي «نسرين»، تلك الطفلة العنيدة صعبة المراس، دروسًا خصوصية لمدّة عامٍ كامل، فكان يساعدها في مادة اللغة العربية والرياضيات أحيانًا. وكان أثناء الدرس بينما يجلسان جنبًا الى جنب عند طاولتها، يمرّر يديه على ساقيها وتفاصيل جسدها وهو يردّدُ على مسامعها صيغ الماضي والمضارع والأمر في الأفعال العربية.

كان ذلك يومًا لا ينسى لأكثر من سبب. ففي الصف، كنا نناقش مفهوم شخصية «الوغد» أو «الشرير» في الرواية. وقد ذكرتُ لهن أن «هومبرت» هو «الوغد» في رواية «لوليتا» لأنه لم يكن معنيًا بالآخرين، وكان يفتقر إلى الفضول تجاههم وتجاه حيواتهم، وحتى تجاه الشخص الذي عشقه من دون سواه؛ وأعني «لوليتا». فـ «هومبرت»، مثله مثل أي دكتاتور آخر، لم يكن يهمه إلاّ وجهة نظره الشخصية عن الآخرين. فقد خلق لنفسه «لوليتا» على هواه، ولم يكن ليحيدَ عن تلك النظرة. وذكّرتهن بعبارته حينما تمنى لو أنه استطاع أن يوقف الزمن ليحتفظ بـ«لوليتا» إلى الأبد في «جزيرة من زمن النشوة»، وهو أمرٌ لا يمكن أن يقوم به إلا الله.. أو الشعراء!

حاولتُ أن أشرح لهنّ لماذا تُعتبرُ «لوليتا» الرواية الأكثر تعقيدًا من بين الروايات السابقة التي درسناها لـ«نابوكوف». فعلى الرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى أكثر واقعية من سواها إلاّ أنها كانت تضمرُ للقارئ تلك الفخاخ الأرضية والمنعطفات المفاجئة ذاتها التي اشتملَتْ عليها بقية أعمال الكاتب. ثم أطلعتهنّ

على صورةٍ فوتوغرافية صغيرة التقطَتْ للوحة «عمر البراءة» لـ«جوشوا راينولدز» التي كنت قد عثرتُ عليها بالصدفة ضمن أوراق أحد الخريجين القدامى. وكنا نناقش المشهد الذي يمر فيه «هومبرت» على «الوليتا» الى المدرسة، فيجدها جالسة في أحد صفوف الدرس، وكانت صورة «راينولدز» معلّقة فوق السبورة (اللوح)، وهي عبارة عن صورة طفلة صغيرة ذات شعر بنّي مجعّد ترتدي الأبيض.

في ذلك المشهد، تجلسُ «الوليتا» خلف «حورية» أُخرى، حورية شقراء فاتنة ذات «رقبة خزفية عارية جدًا وشعر رماديّ بلاتينيّ ساحر». ويجلس «هومبرت» إلى جانب «الوليتا»، «تمامًا خلف تلك الرقبة وذلك الشعر». يفتحُ «هومبرت» أزرار معطفه، ويغري «الوليتا» بالرشوة فيدفع بها إلى أن تمدّ يدها «الصغيرة حمراء المفاصل والملطخة بالحبر والطباشير» تحت المنضدة لكي تُرضي ما يُطلقُ عليه باللغة الدارجة: شهوته.

دعونا نتوقف قليلاً عند هذا الوصف العابر لِديّ «الوليتا» المدرسيتين. فبراءة الوصف تتناقض تمامًا مع الفعل الذي تقوم به «الوليتا» رغمًا عنها. وتكفي كلمات مثل «حمراء المفاصل» و«الملطخة بالحبر والطباشير»، لتصل بنا إلى حافة الدمع! فعلاً لا بد من وقفة.... فهل لي أن أتخيل تلك الوقفة الآن؟ وهل توقفنا طويلاً فعلاً بعد ان ناقشنا هذا المشهد؟

قلتُ لطالباتي: «لا شك أن ما يزعجنا أكثر من سواه هو ليس عجز «الوليتا» الكامل، وإنما حقيقة أن «هومبرت» يسرقها من طفولتها».

التقطَتْ «ساناز» نسختها المصوّرة من الرواية وشرعَتْ تقرأ: «إن ما أذهلني هو انني اكتشفتُ، بينما كانت ركبتاي تعلوان وتهبطان بآلية، بأنني لا أعرف شيئًا عما يدور ببال حبيبتي، وأنها من الممكن أن تُضمر خلف صبيانيتها المبتذلة حديقةً وأفقًا وبوابةَ قصر، إن هي إلا مجاهل غامضة أسرة، تصادف أنها كانت من دون شكٍ محجوبةً عني تمامًا، فحرمتُ منها أنا بأسمالي الملوّثة وتشنجاتي البائسة»....

حاولتُ تجاهل النظراتِ ذات المعنى التي تبادلتها بناتي فيما بينهن.

قالت «مهشيد» أخيرًا: «من الصعب عليّ جدًا قراءة الأجزاء التي تصف مشاعر «الوليتا». فكل ما كانت تريده هو أن تكون طفلة طبيعية. ألا تتذكرن المشهد الذي يأتي فيه أبو «آفيس» لاصطحابها من المدرسة، وكيف يشدّ انتباه «الوليتا» تعلّقُ البنت الصغيرة البدينة بأبيها وتعلّق الأب بها؟ إن كل ما أرادتْهُ «الوليتا» هو أن تحيا حياةً طبيعية».

فقالت «نسرين»: «إنه لمنَ المثير فعلاً أن نجد «نابوكوف»، القاسي جدًا على الـ«بوشلاست»، هو ذاته يجعلنا نشعرُ بالأسف على ضياع القوالب الجاهزة الأكثر تقليدية في الحياة».

فتقاطعها «ياسي» قائلة: «هل تظنينَ أن «هومبرت» يغيّر نظرته لـ«لوليتا» عندما يراها في النهاية: منكسرة وحاملاً وفقيرة؟».

كان وقتُ استراحتنا قد حان وانتهى، بيد أن النقاش قد أخذنا إلى حدّ أننا لم نتنبّه لذلك. رفعَتْ «مانا» رأسها، من الواضح أنها كانت منهمكة بقراءة فقرة من الكتاب، وقالت: أمرٌ غريب فعلاً، يبدو أن بعض النقاد قد تعاملوا مع النص بالأسلوب ذاته الذي يتعامل به «هومبرت» مع «الوليتا»! فهم لا ينظرون إلا إلى أنفسهم وما يرغبون برؤيته. «ثم التفتَتْ إليّ لتكمل: أعني.. ألا ترينَ أن بعض الرقباء والنقاد المسيّسين يفعلون الشيء ذاته؛ يقتطعون ويحذفون صفحاتٍ من الكتب، ثم يعيدون صوغها وفقًا لوجهات نظرهم؟ فما حاول أن يفعله «آية الله الخميني» بحياتنا هو أن يحوّلنا، كما قلتِ، الى نماذج من صنع خياله، وهو ما حاول أن يفعله بآدابنا أيضًا، خذي مثلاً قضية سلمان رشدي».

رفعَتْ «ساناز» بصرها وهي تلعب بخصلاتِ شعرها الطويل وتلفّه حول إصبعها، وقالت: «يشعر الكثير من الناس بأن «رشدي» حاولَ تصوير دينهم بطريقة «مشوهة» و«غير محترمة»، أعني أنهم لا يعترضون على أسلوبه الفني، وإنما على أسلوبه الهجومي المسيء».

فقالتْ «نسرين»: «وهل من الممكن كتابة رواية «محترمة» و«جيدة» في آنٍ واحد؟ ناهيك عن أن العقد مع القارئ ينصّ على أن الروايات لا علاقة لها بالواقع، فهي عالمٌ متخيّلٌ مبتكر». ثم أضافتْ بنزق: «يا إلهي! ألا يمكن أن تكون ثمة فسحة لعبثة في الحياة يمكننا أن نصبح فيها هجوميين ولو قليلاً؟!».

بدَتْ «ساناز» جافلة بعض الشيء بسبب ردّ «نسرين» العنيف. على الرغم من ان «نسرين» كانت طوال ذلك النقاش منهمكة في رسم خطوط غاضبة في دفتر ملاحظاتها، وبعد أن انتهتْ من إلقاء خطبتها عادتْ لتستأنفَ الرسم.

قالتْ «ياسي»: «المشكلة مع الرقباء هي أنهم جامدون و.. تعوزهم المرونة!». نظرنا إليها جميعًا، فهزّت كتفها بلا مبالاة وكأنما لتقول بأنها لم تقاوم سحر الكلمة! وواصلَتْ: «الا تذكّرنَ كيفَ أنهم قاموا بحذف شخصية «أوفيليا» من النسخة الروسية لـ«هاملت» في التلفزيون؟»

فقلت: «.. «حدادًا على أوفيليا». هذا عنوان ممتاز لورقة بحثية!» فمنذ عام ١٩٩١، حينما بدأتُ أذهب في رحلات الى الخارج للمشاركة في الندوات والمؤتمرات، خصوصًا في الولايات المتحدة وإنكلترا، وانا أجد كل المواضيع تحيلني مباشرة الى عنوان ورقة بحثية أو محاضرة.

قالت «مانا»: «كل شيء صار يُعدّ هجوميًا ومسيئًا بالنسبة لهم، فهو إما أن يكون مرفوضًا سياسيًا أو جنسيًا». خطر ببالي وأنا أنظر إلى شعرها القصير بتصفيفته الحديثة الأنيقة وبلوزتها الزرقاء وبنطلونها الجينز، كم كانت تبدو في غير مكانها وهي ملفّعة بحجابها الفضفاض متعدد الطبقات.

أما «مهشيد» التي كانت قد التزمَتِ الصمت حتى تلك اللحظة، فقد انبرتْ فجأة لتقول: «أنا لدي مشكلة إزاء ذلك كله. فنحن نبقى نناقشُ فكرة أن «هومبرت» على خطأ، وأنا مقتنعة بأنه مخطئ فعلاً، ولكننا لا نتطرّق إلى مناقشة القضية الأخلاقية. فثمة أمور يجدها بعض الناس «مسيئة» فعلاً». توقفتْ فجأة وكأنما أجفلَها عنف كلماتها، ثم تساءلتْ وهي تنظرُ إليّ: «أعني مثلاً، أن

أهلي متدينون جدًا، فهل هذه جريمة؟ أوَليس من حقهم أن يتوقعوا مني أن أكون مثلهم؟ فلماذا أدين «هومبرت» وليس المرأة في رواية «التسكّع بقصد»؟[1] وهل لا بد لي أن أقول بأنه لا ضير في إقامة العلاقات الجنسية ولا ضير في الزنى؟ كلها أسئلة جدّية خطيرة، ومن الصعب جدًا تطبيقها على أرض الواقع». قالت جملتها الأخيرة ثم خفضتْ بصرها صوب الأرض وكأنها تحاول أن تجدَ الإجابة في نقوش السجادة.

فبادَرَتْها «آذين» بسرعة: «أعتقدُ بأن امرأة زانية هي أفضل بكثير من امرأة منافقة».

كانت «آذين» في غاية التوتّر. فقد اصطحبتْ معها للدرس ابنتها ذات الثلاثة أعوام (كانت دار الحضانة مغلقة في ذلك اليوم، ولم يكن ثمة من يعتني بها)، وقد واجهنا صعوبة فعلاً في إقناعها بترك أمها بعض الوقت والذهاب الى الصالة لمشاهدة أفلام الكارتون مع طاهرة خانم التي كانت تساعدنا في أعمال المنزل.

التفتتْ «مهشيد» الى «آذين» وقالت بهدوءٍ وباحتقارٍ مبطّن: «لسنا بصدد عقد مقارنة بين الزنى والنفاق! فسؤالنا هو: أليسَ ثمة مبادئ أخلاقية نحتكم إليها؟ هل يمكننا التسليم بأن كل شيء ممكن ومقبول؟ وهل أننا لسنا معنيين بالآخرين بقدر ما نحن معنيون بإرضاء رغباتنا؟».

فأضافتْ «مانا»: فعلاً هذا هو بيتُ القصيد في الأعمال الأدبية العظيمة مثل «مدام بوفاري» أو «آنا كارنينا» أو روايات «جيمس». ومن هنا يأتي السؤال المحيّر ما إذا كان علينا أن نفعل ما هو صحيح أم أن نفعل ما نريد أن نفعله!

فقالت «نسرين» من دون أن تكلّف نفسها هذه المرة بأن ترفع رأسها عن دفترها: «وماذا لو قلنا بأن «الصحيح» هو أن نفعل ما نريده نحن، وليس ما يريده منا المجتمع أو بعض رموز السلطة؟»

---

(١) «التسكع بقصد»: رواية لاموريل سبارك»، والعنوان مأخوذ من تهمة في القانون البريطاني توجّه للمرأة التي تتسكع في الشوارع لغرض الإيقاع بالرجال. (هامش المترجمة).

في ذلك اليوم، كان ثمة شيء في الأجواء لا يمتّ بصِلَة مباشرة للكتب التي كنا نقرأها. فقد قادتْنا نقاشاتنا فجأة الى صراعاتٍ فردية وأكثر خصوصية. وقد وجدتْ بناتي إنه لم يكن بإمكانهنّ ان يجدنَ الحلول لمشكلاتهنّ الخاصة، بذلك الإتقان الذي استطعْنَ به حلّ مشكلات «إيما بوفاري» و«لوليتا».

مالتْ «آذين» برأسها الى الأمام، كان قرطاها الذهبيان الطويلان يلعبان لعبة الاختباء مع عقصاتِ شعرها المجعّد، وهي تقول: «حسنًا لنكن صادقات مع أنفسنا، أعني أن هذا هو الشرط الأساسي للإجابة عن السؤال القائل: هل يحق لنا نحن النساء التمتع بالجنس مثلما يحق للرجال؟ كم واحدة منا ستقول نعم؟ نعم.. يحق لنا التمتع بالجنس تمامًا مثل الرجال، واذا لم يرضِنا أزواجنا، فسيكون لنا الحق أيضًا في البحث عن الرضا في مكان آخر». لقد حاولتْ جعل فكرتها تبدو عرضية بقدر المستطاع، بيد أنها نجحَتْ في مفاجأتنا جميعًا.

كانت «آذين»، البنت الأطول في مجموعتنا، شقراء الشعر حليبية البشرة. وقد اعتادتْ أن تعضّ على زاوية شفتها السفلى لتشرعَ بإلقاءِ خطب جريئة عنيفة عن الحب والجنس والرجال. فكانت مثل طفلٍ صغير يقذف بحجرٍ كبير في بركة سباحة، ليس من أجلِ رؤيته وهو يطرطشُ بالماء فقط، وإنما لكي يبتلّ بسببه كل الكبار في الوقت ذاته!

تزوجتْ «آذين» ثلاث مرات، وكانت آخر زيجة لها من تاجر غنيٍ وسيم ينحدرُ من عائلةٍ ريفية تقليدية من تجار البازار. وقد رأيتُ زوجها في الكثير من المؤتمرات والاجتماعات التي شاركتُ فيها وحضرَتْها معي بناتي. كان يبدو فخورًا جدًا بـ«آذين»، وكان يعاملني أنا باحترام مبالغ به. فكان حريصًا جدًا على راحتي في كل اجتماع؛ فإذ لم يكن ثمة ماء على المنصة كان يأخذ على عاتقه معالجة الأمر بنفسه، وإذا احتجنا الى مقاعد إضافية، راح يوجه العاملين وكأنه رئيسهم. المهم أنه كان بطريقةٍ أو باخرى يبدو في تلك التجمعات وكأنه مضيفنا الكريم الذي يفتح لنا داره ويهبنا من وقته بسخاء، فكأن ذلك كان أقصى ما يمكن أن يهب.

كنت على يقين بأن هجوم «آذين» كان موجهًا ولو جزئيًا الى «مهشيد»، وربما بشكل غير مباشر أيضًا الى «مانا». فلم تكن صراعاتهنّ مع بعضهن بسبب تباين خلفياتهن الأسرية فقط. لقد كانت تصريحات «آذين» الصادمة وحديثها المكشوف عن حياتها الشخصية ورغباتها، قد جعلتْ كلاً من «مهشيد» و«مانا» المحافظتين بطبعهما، غير مرتاحتين لها. ولذا لم تكنْ تلقى لديهما القبول، وكانت تشعر بذلك. وقد رفضتا محاولاتها لنيل صداقتهما، واعتبرتا ذلك محض رياء.

كانت ردة فعل «مهشيد» هي الصمت كالمعتاد. فقد آثرتْ ان تنسحبَ الى داخلها، قاصدةً ألاّ تملأ الفراغ الذي خلّفه سؤال «آذين». وامتدّتْ عدوى الصمتِ إلى ألاخريات، حتى قطعتْه «ياسي» أخيرًا بضحكة مكتومة. فوجدتُ بأن هذا هو الوقت الأنسب للاستراحة، وذهبت للمطبخ لإحضار الشاي.

حينما عدتُ بالشاي، سمعتُ «ياسي» وهي تضحك. وفي محاولة منها لتلطيف الأجواء قالت: «لماذا يظلمنا الله الى هذا الحد فيخلق المرأة المسلمة منا كتلة كبيرة من اللحم التي لا تتمتع الا بالقليل من الجاذبية الجنسية؟ ثم استدارتْ صوب «مهشيد» ورمقتها بنظرة رعبٍ مصطنعة ساخرة».

خفضَتْ «مهشيد» بصرها، ثم رفعتْ رأسها بخجل وأنفة، وقالتْ لـ«ياسي» وعيناها الوسنانتان تتسعان مع ابتسامتها المتسامحة: «أنت لستِ بحاجة إلى الجاذبية الجنسية!».

لكن «ياسي» لم تكف، وراحت تتوسل بـ«مهشيد»: «إضحكي أرجوك اضحكي».. ثم التفتَتْ إليّ وقالتْ: «يا دكتورة «نفيسي».. أرجوك أن تأمري «مهشيد» بأن تضحك!» بيدَ أن محاولة «مهشيد» للضحك ضاعَتْ وسط ضحكات الأخريات التي بدتْ أكثر صخبًا.

انقطعتِ الأصواتُ برهة وحلّ الصمت وأنا أضعُ صينية الشاي على الطاولة، وفجأةً قالت «نسرين»: «أنا أفهم تمامًا ما الذي يعنيه التأرجح ما بين التقاليد والتغيير. فلقد مكثتُ في منتصف المسافة بينهما طوال حياتي».

ثم غيّرَتْ «نسرين» مكانها لتجلسَ على ذراع كرسي «مهشيد». بينما راحت الأخيرة تحرص أن تشرب شايها بحذر شديد خشية أن يتعارض ذلك مع يدي «نسرين» الملوّحتين اللتين كانتا تتحركان في كل اتجاه، حتى أنهما كادتا أن تطيحا بالقدح غير مرة.

قالت «نسرين»: «لقد خبرتُ ذلك مبكرًا، فقد انحدرَتْ والدتي من عائلة ميسورة علمانية وعصرية. كانت هي الأخت الوحيدة لأخوين اختار كلاهما العمل في السلك الدبلوماسي. كان جدي متحررًا جدًا، وقد أراد لابنته الوحيدة ان تستكمل دراستها وتدخل الجامعة. فأرسلها الى المدرسة الأميركية». فردّد صوت «ساناز» مثل الصدى ويدها تلاعبُ شعرها بحب: «المدرسة الأميركية؟!»

«نعم.. المدرسة الأميركية! في الوقت الذي لم تكن غالبية البنات لتكمل دراستها الثانوية، فكيف بمن تدرس في المدرسة الأميركية؟ وتمكنَتْ أمي من إجادة اللغتين الانكليزية والفرنسية». بدتْ «نسرين» سعيدة، فخورة وهي تخبرنا بهذه الحقيقة. وواصلتْ وهي ترفع يدها اليسرى مرةً اخرى بشكل قريبٍ جدًا ومقلق من قدح «مهشيد»: «ولكن ما الذي فعلتْهُ أمي بعد ذلك؟ لقد وقعَتْ في حُبّ أبي، مدرّسها الخاص! كان مستواها في العلوم والرياضيات ضعيفًا. ومن المثير للسخرية فعلاً أن يعتقد أهلها بأن اختيارَ أبي لتدريسها دون سواه، بخلفيته الدينية الصارمة، أمرٌ مضمون ولا يدعو للقلق. فقد كانت شابة عصرية، ولن يثيرها رجلٌ مثله؛ متحفّظ ولا يبتسم إلا نادرًا ولا ينظر إليها في عينيها، وكانت والدته وأخواته جميعًا يرتدين الجادور. بيد أنه أعجبها، ربما لأنه كان مختلفًا جدًا، وربما لأنها وجدتْ أن ارتداء الجادور والعناية بمن تهوى أكثر رومانسية من استكمال الدراسة، ومن مستقبلٍ قد تصبح فيه طبيبة أو ما شابه. وهي تقول بأنها لم تندمْ على زواجها منه مطلقًا، لكنها كانت تحدثنا دائمًا عن مدرَسَتها الأميركية وعن صديقات وزميلات الدراسة القديمات اللواتي لم تَرُقْهُنّ بعد زواجها أبدًا.

قد علمتني الإنكليزية. في البدء، حينما كنت صغيرة جدًا، علمتني حروف الهجاء. ثم راحتْ تأتيني بعد ذلك بالكتب الإنكليزية وتقرأ لي وتدرّسني. وأنا أشعر بالامتنان لها دائمًا لأنني لم أواجه أي مشكلة في هذه اللغة، وكذلك كان الحال مع أختي التي تكبرني بتسع سنوات. وهو أمر غريب بعض الشيء على امرأة مسلمة مثلها، أعني أنه كان حَريًا بها أن تدرّسنا اللغة العربية، لكنها لم تتعلم العربية مطلقًا لتدرّسها لأحد.

وخلافًا لأمي، تزوّجتْ أختي من رجل قاب قوسين: متحرر! كانت «نسرين» ترسم بيديها علامة قوسين كبيرين، وتواصل: «وقد سافرَتْ معه إلى إنكلترا ليعيشا هناك. ولم نعدْ نراهما الا في زياراتهما لطهران».

انتهى وقت الاستراحة. لكن حكاية «نسرين» غمرتنا، حتى أن «آذين» و«مهشيد» بدتا وكأنهما قد عقدتا هدنة موقتة. فحينما مدّتْ «مهشيد» يدها لالتقاط قطعةٍ من معجنات الـ«كريم باف»، ناولتها «آذين» الطبق مع ابتسامة ودٍّ أرغمَتْ «مهشيد» على ردها بشكر جزيل!

استكملتْ «نسرين»: «وبقيَتْ أمي مخلصة لأبي، وغيرتْ من أجله حياتها كلها من دون تذمّر. كان الامتياز الذي منحها إياه هو أنه كان يدعها تعدّ لنا الأكلاتِ الغربية؛ «أكلات فرنسية فاخرة»، كما كان يحلو لأبي أن يسميها. فقد كانت كل أكلة غربية بالنسبة له هي أكلة فرنسية! وعلى الرغم من اننا نشأنا وتربينا وفقًا لتوجيهات ابي، فقد كانت عائلة امي وماضيها حاضرًا دائمًا، ويلوح لنا وكأنه أسلوب مثير لحياة من نوع آخر. ولم يكن ذلك لأن امي لم تستطع الاندماج مع عائلة أبي الذين كانوا يعتبرونها متعالية وغريبة عنهم، وإنما كان ذلك لأن ماضيها بدا لنا أكثر إثارة.

فكم انت وحيدة يا أمي! أحيانًا أجد نفسي أتمنى لو أنها استطاعتْ أن ترتكبَ الزنى.. أو أي شيء من هذا القبيل!».

جفلتْ «مهشيد» ورفعتْ عينيها لترمق بهما «نسرين»، فنهضتِ الأخيرة من مكانها وضحكتْ قائلة: «شيء من هذا القبيل!».

كانت قصة «نسرين» والمناوشات الكلامية بين «آذين» و«مهشيد» قد غيّرتْ مزاجنا وأبعدتنا كثيرًا عن احتمالية العودة الى نقاشاتنا ودرسنا من جديد. فانتهى بنا المطاف إلى حوارات عابرة لم تخرج في جوهرها عن نطاق النميمة وأخبار الجامعة. وهكذا، انتهى الدرس...

حينما غادرتِ البنات في ذلك اليوم، تركنَ في الأجواء آثار مشكلاتهنّ المعلقة بلا حلول، وشعرتُ بأنني مستنفدة تمامًا. فاتّبعتُ الطريقة الوحيدة التي أعرف للتعامل مع المشكلات؛ ذهبتُ الى الثلاجة وغرفتُ بعضًا من آيس كريم القهوة، وصببْتُ عليه قليلاً من القهوة الباردة، ثم بحثتُ عن الجوز، لأكتشف بأنه نفد، فجلبتُ بعضًا من اللوز وسحقته بأسناني ونثرته فوق خلطتي العجيبة، وجلستُ لآكل.

كنتُ أعلم أن جزءًا من شراسة «آذين» كان في حقيقته دفاعًا عن النفس. كانت هذه هي طريقتها في اختراقِ دفاعات «مهشيد» و«مانا». كانت «مهشيد» تظن أن «آذين» لا تتقبلها بسبب خلفيتها الاجتماعية التقليدية وربطاتها السميكة الغامقة، وأسلوبها العام كونها امرأة تقدّم بها السن من دون أن تتزوج. ولكنها لم تكنْ لتدرك ما يمكن ان يفعله صمتها الذي يقطرُ احتقارًا. فقد كان جسد «مهشيد» الصغير ورقتها وابتسامتها الشاحبة، بروشات الأحجار الكريمة التي كانت تتزيّن بها وأقراطها الصغار وقمصانها الشاحبة الزرقة المزرّرة حتى الرقبة، كل ذلك كان كفيلاً بأن يجعل منها عدوّة مهابة. فهل كانت لتدرك هي و«مانا» كم كان صمتهما المطبق وبرودتهما ورفضهما التام لـ«آذين» مؤثرًا؟ وكم كان كل ذلك كفيلاً بأن يجعلَ الأخيرة عزلاء من أي دفاع؟

ذات مرة، في إحدى مشادّاتهنّ الكلامية وقت الاستراحة، سمعتُ «مهشيد» تقول لـ«آذين»: «نعم.. لديك تجاربك الجنسية ومعجبينك، ولستِ عانسًا مثلي.. نعم.. أنا عانس.. فلست متزوجة من رجل غني، وليس عندي سيارة، ولكن ذلك لا يمنحك الحق في عدم احترامي!». فهتفتْ «آذين» معترضة:

«ولكن كيف؟ كيف وجدتِ بأنني لا أحترمك؟». فأشاحتْ «مهشيد» بوجهها، وتركتها حيث هي، مع ابتسامة باردةٍ تشبه بقايا الطعام البارد.

لم تجدِ كل جهودي في الكلام والنقاش معهما في محاولةٍ مني لرأبِ الصدع بين الفريقين، سواء أكان ذلك في الصف بحضور الكل، أم مع كل منهنّ على انفراد. فكان أقصى ما حصلنا عليه هو أنهنّ حاولنَ التنازل قليلاً في الدرس، بأن يدعنَ الصداماتِ جانبًا. لقد كانت «تعوزهنّ المرونة»، بحسب تعبير «ياسي».

[16]

هل كانت هذه هي البداية؟

كنّا جالسَين في غرفة طعامه، نأكلُ بنهم شطائر الـ«هام»[1] بالجبنة حينما أطلقنا عليها معًا: «كروك مسيو»[2]. لا بد وأن كلانا كان قد التقط التعبير ذاته في عينيّ الآخر بطريقة أو بأُخرى، ذلك التعبير عن المتعة الخالصة الآثمة، مما حدا بنا أن نغرق في الضحك في اللحظة ذاتها. رفعتُ له كأس الماء وقلت: «من كان يصدق أن وجبة بسيطة كهذه يمكنها أن تبدو لنا وكأنها وليمة ملكية؟». فقال: «لا بد لنا أن نشكر الجمهورية الإسلامية لأنها جعلتنا نعيد اكتشاف كل تلك الأشياء التي كنا نعتبرها أمورًا عادية، بل ونتحسر عليها؛ فمثلاً سيكون بوسع أحدنا الآن أن يكتبَ بحثًا أكاديميًا عن متعة تناول شطيرة «هام» بالجبنة!». فقلت: «ياه.. كم كثيرة هي الأشياء التي علينا أن نكون من أجلها شاكرين!». ومنذ ذلك اليوم الذي لا يُنسى، بدأنا نكتب قائمةً تفصيلية طويلة بمجمل الأشياء والأفعال التي ندين بها للجمهورية الإسلامية: إقامة الحفلات، أكل الآيس كريم علنًا والضحك علنًا، الوقوع في الحب، تشابك الأيدي، استخدام أحمر الشفاه، وأيضًا.. قراءة «الوليتا».. في طهران.

---

(١) الـ«هام» ham: شرائح من اللحم تؤخذ من فخذ الخنزير.

(٢) «كروك مسيو» Croque Monsieur: حلويات راقية جدًا تقدّم بعد وجبة طعام فاخرة. (هامش المترجمة).

لقد كان هذا هو «الساحر».. ساحري.

كنا أحيانا نلتقي في زاوية ما من الشارع الواسع الظليل الصاعد نحو الجبل لنتمشى بعد الظهر. وكنت أتساءل: «ما الذي ستظنّه لجان الثورة ساعة تكتشفُ تلك اللقاءات؟». وهل سيلقون القبض علينا بتهمة «المؤامرة السياسية» أم بشبهة «الموعد الغرامي»؟ ومن العجيب أن ما كان يمنحني الجرأة أكثر هو إحساسي بأنهم ربما لن يستطيعوا أن يفهموا أو يحدسوا السبب الحقيقي من وراء لقاءاتنا. ألن تكون الحياة أكثر إثارة حينما يصبح أقلّ تحرّكٍ فيها صعبًا وشائكًا وكأنه تحضيرٌ لمهمةٍ سرية خطرة؟ كان لدينا دائمًا ما نتبادله: كتبًا أو مقالاتٍ أو أشرطة كاسيت أو علب شكولاتة تأتيه من سويسرا. وكان يأتيني بأشرطة فيديو نادرة لأفلام مثل: «ليلة في الأوبرا» و«كازابلانكا» و«القرصان جوني غيتر». فكنا نشاهدها أنا وأطفالي، ولاحقًا صارت طالباتي يشاهدنها معي.

لقد اعتاد ساحري القول بأنه يستطيع أن يعرف الكثير عن الناس عبر النظر إلى صورهم، وعبر استدارة أنوفهم على وجه الخصوص. وبعد شيءٍ من التردد، جلبتُ له بعض الصور لبناتي، وأنا أتلهّف قلقةً لسماع رأيه. كان عادة يمسك بالصورة ويمعن النظر فيها من زوايا مختلفة، ثم يطلق حكمًا مختصرًا. كنت أتمنى عليه أن يقرأ كتاباتهن، وأن يلقي نظرة على رسوماتهن، وأن أسمع رأيه بعد ذلك. بيد أنه نظر إليّ وقد علتْ وجهه ابتسامة ساخرة لأب متسامح واكتفى بالقول: «أناسٌ جيدون».

«ماذا؟.. أناسٌ جيدون؟». كنت أتمنى أن يقول لي بأنهنّ بناتٌ عبقريات! على الرغم من أنني سررتُ في داخلي بتأكيده لي أنهنّ «جيدات». ثم أضاف أنه يرى أن مستقبلاً في الكتابة ينتظرُ اثنتين منهنّ.

وسألته: «هل لي أن آتيك بهنّ؟ أعني.. هل يمكن أن أعرّفك عليهن؟». فأجابَ باختصار: «لا». لقد كان يحاول الفرار من الناس، ولم يكن يرغب بأن يضيف المزيد الى معارفه.

[17]

يحدثنا «سينسيناتس سي» بطل رواية «دعوةٌ لقطع العنق» عن: «نوع من الزمن النادر.. يكمنُ في الوقفة أو الصمت ما بين صوتين.. في الفجوة ما بينهما.. حينما يصبح القلب مثل ريشة.. إن بعضًا من أفكاري تتهافتُ دائمًا حول الحبل السري الخفي الذي يربط ما بين هذا العالم وبين شيء ما.. شيء لن أسميه الآن».

لقد أطلق السجانون سراح «سينسيناتس سي» بسبب اكتشافه عميقًا في داخله ذلك الحبل السري الذي يربط بينه وبين عالم آخر ما. ولذا فهو يستطيع الهرب أخيرًا من عالم إعدامه الممسرح والمزيف. ويصف «نابوكوف» في مقدمة كتابه «المنعطف المشؤوم» حلقة وصل مشابهة لعالم من نوع آخر، وتتمثّل في بركة ماء صغيرة موحلة تتراءى في مشاهد مختلفة من الرواية لـ«كرانك» البطل المتخيل: «فهي كوة صغيرة في عالمه تفضي به إلى عالم آخر من الرقة والسطوع والجمال».

وأعتقد بأن قراءاتنا ونقاشاتنا في الصف الخاص قد أصبحتْ بطريقة ما هي لحظة التوقف أو «الصمت ما بين صوتين»، هي حلقة الوصل ما بيننا وبين ذلك العالم الآخر: عالم «الرقة والسطوع والجمال». بيد أننا في المحصلة النهائية، كنا مُجبرين دائمًا على العودة الى عوالمنا من جديد.

في وقت الاستراحة ذات صباح، وبينما كنا نتمتع بتناول القهوة

والمعجنات، راحتْ «ميترا» تحدثنا عن مشاعرها وهي ترتقي السلالم صوب بيتي صباح كل خميس. فقالت بأنها كانت تحسّ درجةً بعد أُخرى بأنها تعلو شيئًا فشيئًا عن أرض الواقع، تاركةً خلفها تلك الزنزانة المظلمة الرطبة التي تحيا فيها، لتصلَ الى السطح، فتنعمَ ببضع سويعاتٍ في الشمس والهواء والفضاء المفتوح. ثم، ما أن ينتهي الدرس، حتى تعود إلى زنزانتها من جديد. وقد أحسستُ مع ذلك بأن تلك كانت ضد فكرة الصف. وكأنما كنت أريد للصف أن يتكفل بإضفاء الشمس والهواء على عوالم تتعدى تخومه المحدودة. وقد قادتنا اعترافات «ميترا» إلى جدلٍ بشأن حاجتنا إلى تلك الوقفة بين صوتين في الحياة الواقعية، لكي نضمن العودة إلى ذلك الواقع بتجدد ونشاط وباستعداد تام للمواجهة. وظلت فكرة «ميترا» تلحّ عليّ: ولكن ماذا بعد تلك الوقفة؟ فقد كان لعوالمنا الخارجية التي تعدّتْ تخوم غرفة الطعام، متطلباتها واستحقاقاتها هي الأُخرى، سواء شئنا ذلك أم أبينا.

بيد أن أجواء حكايات الجنيات التي لمّحَتْ إليها «ميترا» هي التي جعلتنا نحن الثماني نثقُ ببعضنا ونتبادل ذلك الكم الكبير من الأسرار الشخصية. وتلك النسمات السحرية من الإلفة، هي التي جعلتْ «مهشيد» و«مانا» تصلان الى ذلك التعايش السلمي مع «آذين» سويعاتٍ قلائلَ صباح كل خميس، وهي التي أتاحتْ لنا أن نتحدى الواقع القمعي الذي يتربص بنا خارج الغرفة. وليس هذا فقط، بل لقد جعلتنا نثأر لأنفسنا من أولئك الذين استبدوا بحياتنا. فكنا في تلك السويعات الغالية نحس بطعم الحرية ونحن نتحدّثُ عن أفراحنا وأتراحنا وخيباتنا الشخصية وضعفنا الإنساني. وتخلينا، لبعض الوقت فقط، عن مسؤولياتنا لأهلنا وأقاربنا وأصدقائنا، وأيضًا.. للجمهورية الإسلامية. واستطعنا أن نعبّرَ عن كل ما يحدثُ لنا بكلماتنا الخاصة، واستطعنا للمرة الأولى أن نرى أنفسنا وفقًا لنظرتنا الخاصة، وبأعيننا نحن لا بعيون الآخرين...

امتدّ نقاشنا لرواية «مدام بوفاري» حتى تجاوزَ الوقتَ المحدّد للدرس. كان

ذلك قد حدث قبلاً، بيد أننا هذه المرة لم نكن نرغبُ بإنهاء المحاضرة. كان الوصف الدقيق لطاولة العشاء، والريح التي تداعبُ شعر «إيما»، والوجه الذي تراه قبل أن تموت، وكل تلك التفاصيل قد حدتْ بنا الى البقاء لساعات.

في البدء، لم تكن ساعات الدرس لتتجاوز الاثنتين؛ من التاسعة حتى الحادية عشرة صباحًا. ولكنها شيئًا فشيئًا أخذتْ تمتدّ حتى إلى ما بعد الظهر. وفي ذلك اليوم تحديدًا، اقترحتُ على بناتي ان نستكملَ نقاشاتنا ويبقى الجميع فنتناول الغداء معًا. وأظن أننا منذ ذلك اليوم استوحينا فكرة الغداء معًا.

أتذكر بأنه لم يكن في ثلاجتنا في ذلك اليوم سوى بعضٍ من البيض والطماطم، فأعددنا معًا أومليت الطماطم وكان هذا هو غداؤنا. لكننا بعد اسبوعين أقمنا وليمة حقيقية؛ فأعدّتْ كل واحدة من بناتي أكلة مميزة: رُز بلحم الغنم و«دولمة» ورز بالزعفران وسلطة بطاطس، بالإضافة الى كعكة مدورة كبيرة. وانضمّتْ إلينا أسرتي، فتجمعنا حول مائدة الطعام ونحن نمزح ونضحك. لقد منحتنا «مدام بوفاري» ما لم تمنحه لنا سنواتٌ من التدريس في الجامعة: فقد خلقَتْ لنا جوًا من الحميمية والإلفة العجيبة.

في تلك الحقبة، تعرفتِ البناتُ على الكثير من تفاصيل حياتي: أسرتي وأهلي، مطبخي وغرفة نومي، أسلوبي في اللبس وطريقتي في المشي والكلام داخل البيت. أما انا، فلم أضع قدمًا داخل بيت أية واحدةٍ منهن؛ فلم ألتقِ بالأم المغلوبة على أمرها، ولا بالأخ الفاسد ولا بالأخت الخجولة. ولم أتمكن ذات يوم من وضع أسرار بناتي ضمن سياقٍ أو مكانٍ بعينه. فقد تعرّفتُ على حيواتهنّ جميعًا ضمن سياق الحيز السحري لغرفة الطعام. وقد كنّ يأتين بيتي وهنّ في حالةٍ موقتة من تحرر الروح عن جسدها. وقد جلبنّ إلى غرفة طعامي كل الأسرار والآلام والهدايا.

وشيئًا فشيئًا أصبحتْ حياتي وأسرتي وهي تغدو وتعود من وإلى غرفة الطعام أثناء الاستراحات مثل جزء لايتجزأ من المشهد. كانت «طاهرة خانم» تنضمّ إلينا

أحيانًا، لتحدثنا عن «الجزء الخاص بها من المدينة» كما يحلو لها أن تسمي الحي الذي تسكن فيه.

أتذكرُ يوم عادتْ ابنتي «نيغار» من المدرسة وهي تجهشُ ببكاء هستيري، كانت تكرر من بين الدموع بأنها لن تستطيع البكاء «هناك»، اذ لم تشأ أن تراها البنات وهي تبكي. ذهبتْ «مانا» إلى المطبخ وعادتْ ومعها «طاهرة خانم» وقدحٌ من الماء. أخذتُ «نيغار» إلى حضني وضممتها بين ذراعيّ وأنا أحاولُ تهدأتها. خلعتُ عنها بلطفٍ إيشارب رأسها الأزرق وجبّتها، فوجدتُ شعرها مبللاً بالعرق تمامًا من تحت الإيشارب السميك، بدأتُ أفتحُ أزرار جبّتها وأنا أسألها أن تخبرنا بما حدث.

علمنا منها أنه في ذلك اليوم، في منتصف حصة الدرس الأخيرة، وكانت للعلوم، اقتحمت المديرة الصف ومعها مدرّسةُ الأخلاق، وطلبَتْ من الطالبات أن يضعنَ أيديهنّ على الطاولات. ثم أخرجَتْ جميع الطالبات إلى خارج غرفة الدرس من دون تفسير. تمّ تفتيش الحقائب بحثًا عن أسلحةٍ أو ممنوعات: أشرطة، روايات، أساور صداقة.. إلخ. ثم تمّ تفتيش أجسام الطالبات وأظافرهنّ. وأخيرًا اقتيدَتْ إحدى الطالبات إلى غرفة الإدارة بسبب أظافرها التي كانت طويلة جدًا، وهي طالبة كانت قد عادتْ قبل عام فقط مع أسرتها من الولايات المتحدة.

قامتْ المديرة بنفسها بتقليم أظافر الطالبة، وقد فعلَتْ ذلك بمغالاة إلى حدّ أنها أنزفتْها دمًا. وبعد الانصراف وجدتْ «نيغار» زميلتها في ساحة المدرسة بانتظار العودة إلى البيت، وهي تحاول تطبيب إصبعها الـ«المدان»، وقد وقفَتْ مدرّسة الأخلاق إلى جوارها لكي تحولَ دون وصول بقية الطالبات إليها. وقد وجدتْ «نيغار» بأن عجزها عن الاقتراب من صديقتها ومواساتها يوازي صدمتها بالتفتيش. وراحتْ تكرر: «ولكن يا ماما.. إنها لا تعرف شيئًا عن قوانيننا وأنظمتنا.. أتدرين بأنها عادتْ لتوها من هناك؟ فماذا يمكن أن يكون

شعورها وهي تراهم يجبروننا على أن ندوس العلم الأميركي بأقدامنا ونصرخ: الموت لأميركا؟ أنا أكره نفسي.. أكره نفسي». كانت تكرر هذه الكلمات وأنا أهزّ جسدها الغضّ لتهدأ، وأمسح عن بشرتها الناعمة حبّات العرق التي امتزجت بالدموع.

كان هذا الحدث من دون شك قد غيّر مسارَ الدرس بشكل كامل. وكانت كل منا تحاول تسلية «نيغار» وتهدأتها بالمزاح أو بسرد قصص مشابهة حدثتْ لها. فحدثَتْها «نسرين» كيف أنها أرسلَتْ ذات يوم إلى لجنة تأديبية للتحقق من رموشها، فقد كانت رموشها طويلة وقد اتّهموها بأنها تضعُ «الماسكارا». فبادرتها «مانا» قائلة: «وماذا يكون هذا أمام ما حدث لصديقات أختي في «جامعة أمير كبير التكنولوجية»؟ ففي استراحة الغداء، كانت ثلاثة من صديقات أختي يأكلن التفاح، فتمّ توجيه توبيخ رسمي لهنّ بتهمة أنّهنّ كنّ يقضمنَ التفّاح بطريقة مغرية جدًا!».

وبعد برهة، كانت «نيغار» قد بدأتْ تضحك معهنّ وتمزح، وأخيرًا ذهبتْ مع «طاهرة خانم» لتتناول غداءها.

[18]

لنقُلْ بأنه أول الربيع، قُبيلَ غروب الشمس، والساعة تشير إلى نحو السادسة مساء. تخيل نفسك وأنت تنحدرُ ماشيًا في طريق ذي أشجارٍ مورقة؛ الشمس تهمّ بالانسحاب، إذ انت تسير بمفردك تداعبك أشعة آخر النهار المفعمة بالنسائم. وفجأة، تحسّ بقطرةِ ماءٍ كبيرة تسقط على ذراعك اليمنى. ترفع رأسك صوب السماء سائلاً هل أمطرَتْ؟ ما زال الطقس يبدو مشمسًا وما زالت الشمس تراوغك بأشعتها لولا شذراتٍ من الغيوم التي تتباطأ متناثرة هنا وهناك. وتمرّ بضعُ ثوانٍ لتتبع القطرةَ الاولى قطرةٌ أُخرى. وإذا بالشمس لا تزالُ متربّعة وسط السماء، وأنتَ مبللٌ تمامًا بوابلٍ من مطرٍ غزير. هكذا كانت تجتاحني الذكريات! وتجعلني على حين غرة ودون أدنى توقع: مبللة تمامًا، وإذا بي أجد نفسي وحيدة مرة أخرى على طريقٍ مشمسٍ مفعم بذكريات من مطر.

لقد قلتُ قبلاً بأننا اجتمعنا في هذه الغرفة لنحمي أنفسنا من الواقع خارجها. وقلت أيضًا بأن ذلك الواقع قد فرض وجوده علينا مثل طفل مزعج سيئ الطبع، لا يدع لوالديه المحبَطَين لحظة هدوء. بيد أنه، أي واقعنا، كان سببًا في خلق صداقة حميمة بيننا، جعلتنا نتواطأ عليه من دون أن نعي. حتى نمتْ بيننا بطريقة أو بأخرى علاقاتٌ شخصية فريدة من نوعها. كان نور أسرارنا يمنحُ نشاطاتنا العادية سطوعًا متجددًا، وكانت حياتنا العاديةُ تكتسبُ أحيانًا قيمة تشبه التظاهر

أو الخيال. كان علينا أن نضيء لبعضنا بعضًا زوايا في الروح لم نكن لنعلم حتى بوجودها. وكم كنتُ أشعر دائمًا بأنني أُعرّي داخلي أمام أشخاص هم في الواقع غرباء من الطراز الأول.

[19]

قبل بضعة أسابيع، كنت أنا وطفليّ («نيغار» و«دارا») نستعيدُ ذكرياتنا عن طهران وأنا أقود السيارة في شارع جورج واشنطن التذكاري الكبير. وساورني قلقٌ مفاجئ إذ أحسستُ بالنبرة الغريبة «الأجنبية» التي صبغَتْ حديثهما عن بلدهما. فقد كانا يكرران الضمير «هم».. ويقولان: «هم هناك.. إنهم هناك».. ماذا تقصدان؟ هناك أين؟ هناك حيث دفنتما طير الكناري الذي مات عند شجيرة «ورد الجوري» مع جدكما؟ هناك حيث جلبَتْ لكما جدتكما الشوكولاتة ومنعتاكما من أكلها؟

وقد أفلتَتْ ذاكرتهما الكثير من التفاصيل. فكانت بعض الذكريات تشعرهما بالحزن والحنين للماضي وبعضها الأخر آثرا نبذها وإلغاءها تمامًا. أما بعض الأسماء، مثل اسم والدي أو والدتي أو عمة «بيجان» وعمه والأصدقاء المقربين، فكانت تتراءى لهما مثل كلماتٍ سحرية تظهرُ أو تختفي بمرح مع كل محاولة للنطق بها.

فما الذي أطلق العنان لسيل الذكريات فانهمرتْ؟ هل هو القرص المضغوط: «الأبواب» الذي جاءني هدية منهما مؤخرًا في عيد الأم، وكانا قد اعتادا الاستماع إليه في إيران؟ كان صوت «جيم موريسون» اللامبالي يتسرب بإغراء مثل صوت قطة عبر ستيريو السيارة: «أرغب ان أحظى.. بقبلة أخرى».. كان صوته يتمطّى ويتماوج ويتلوى: «ثعلبة هي.. من القرن العشرين».. بينما

نحن ندردش ونضحك. كان بعض الذكريات يشعرهما بالملل، وبعضها الآخر يبدو مثيرًا، مثل تلك الذكريات وهما يسخران من أمهما (أنا) وهي تتراقص جيئة وذهابًا في البيت، من الصالون إلى غرفة الطعام، وهي تغني: «تعال يا حبيبي.. واشعل ناري».. يقولان بأنهما نسيا الكثير من التفاصيل، وقد أصبحتِ الكثير من الوجوه تبدو لهما معتمة. وكنتُ إذ اسألهما: ألا تذكران كذا أو كيت؟ فإنهما غالبًا ما يجيبان بـ«لا».

كان «جيم موريسون» قد انتقل الآن إلى أغنية أُخرى لـ«بريشت»: «آه..أرِني الطريق.. لبار الويسكي الثاني»، كان يغني ونحن نردد معه في المقطع الذي يليه: «آه.. ولا تسأل لماذا.. لا تسأل».. حتى حين عشنا في طهران، لم تكن لدى الطفلين أي اهتمامات بالموسيقى أو الأغاني الإيرانية، مثلهما مثل معظم الأطفال الذين لديهم الخلفية الاجتماعية نفسها. فقد كانت الموسيقى الإيرانية تعني بالنسبة لهما الأناشيد الوطنية والمارشات العسكرية، اما المتعة فقد كانت في مكان آخر. وقد صدمتُ فعلاً حينما علمتُ بأن ذكريات طفولتهما في الغناء لم تتعدَّ «الأبواب» و«ماركس برذرز» و«مايكل جاكسون».

كان ثمة حدث واحد أشبعاهُ تفصيلاً، حتى أدهشني فعلاً أنهما ذكّراني بأدّق تفاصيل ذلك الحدث التي كنتُ أنا قد نسيته أو غفلتُ عنه. وإذ رحتُ أتذكرهُ وتتشكل صوره ببالي راح يتعالى صوت أحدهما مقاطعًا الآخر، ويتهادى صوت «جيم موريسون» ليشكل الخلفية الموسيقية للحوار: «بلى بالتأكيد.. لقد كانت «ياسي» معنا في ذلك اليوم».. إنهما يتذكران كل طالباتي، بيد أن «ياسي» كانت أكثر حضورًا في الذاكرة لأنها كانت قد غدت في وقتٍ ما جزءًا لا يتجزأ من أسرتنا. كلهنّ قد أصبحن كذلك: «آذين» و«مانا» و«مهشيد» و«نسرين»، بالإضافة إلى «نيما» الطالب الوحيد. فكانوا زوارًا دائمين، وكانوا قد اعتادوا على تدليل الطفلين وجلب الهدايا لهما رغمًا عني. وقد تقبّلَتِ الأسرة بفضول وبصبرٍ جميل وجود هؤلاء الدخلاء، واعتبرتهم تحصيلاً حاصلاً لتصرفاتي الغريبة.

لقد تذكرنا معًا ما حدث ذات يوم من صيف العام ١٩٩٦، بعد أن عاد الطفلان من المدرسة. كان يومًا ملائمًا للكسل، فكنا ندور في البيت بلا هدف وقد أعددنا فطورنا متأخرين. كانت «ياسي» قد باتتْ عندنا قبل ليلة، وكانت قد اعتادتْ ذلك بانتظام منذ مدّة، فبدأنا نعتاد على تقبلها بيننا. كانت تنام في غرفة إضافية بجوار غرفة الطعام من المفترض أن تكون غرفة مكتبي، لكنها اذ بدتْ لي ضاجة جدًا قمتُ بنقل أثاث المكتب إلى غرفة في الطابق الأرضي ذات شباك يطل على الحديقة الصغيرة. ولم تكن غرفة «ياسي» أكثر من مخزن للأثاث الزائد. فضمّتْ طاولة مكتب و«لابتوب» قديم جدًا، وبعض الكتب، وبعضًا من ملابسي الشتوية، بالإضافة إلى سرير «ياسي» الموقت ومصباحها. أحيانًا، كانت «ياسي» تقضي ساعات في تلك الغرفة وقد أطفأت أنوارها بسبب حالات الصداع التي كانت تنتابها. ففي كل مرة كانت تعود بها من قريتها كان يصيبها صداع شديد. أما في ذلك الصباح، فأنا أتذكر فعلًا كم كانت تبدو مشرقة. هكذا أراها: في المطبخ أو في الصالون.. واقفة أو جالسة.. أتخيّلها وهي تقوم بتقليد حركاتِ أحد الاساتذة الكوميديين، فتبرع بتمثيل دوره وهي تضحك.

كان ذلك الصيف تحديدًا مليئًا بالأيام التي يتكرر فيها مشهد «ياسي» وهي تتبعني في أرجاء المنزل وتقص لي القصص. كان المطبخ والصالون هما مسرح حركتنا، وكنت أستمتع بفكرة أنها تحبّ ما أطبخ من طعام، بعكس رأي الطفلين وسواهما من الكبار. كانت تعشق ما أسميه الـ«بان كيك» الذي أعده بطريقتي، والتوست الفرنسي، وخلطاتي من البيض والطماطم والخضار. فلم أجدها ولو لمرة تبتسم تلك الابتسامة المتسامحة التي أراها على وجوه الكبار من أصدقائي، وكأن لسان حالهم يقول لي: متى ستتعلمين الطبخ؟ وبينما كنت أعد الطعام كانت «ياسي» تتحرك معي وهي تنسجُ لي الحكايا، وكان معظمها عن الجامعة والدراسة. وكانت «نيغار»، التي لم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة حينئذ، تنضم إلينا فنشتبك نحن الثلاثة في حديث لساعات.

في ذلك اليوم، كانت «ياسي» تستطرد بالحديث في موضوعها الأثير: أخوالها. كان لها خمسة أخوال وثلاث خالات، وكان أحد الاخوال قد قُتل على يد جلاوزة الجمهورية الإسلامية، وعاش الباقون في الولايات المتحدة أو أوروبا. كانت النساء تشكل العمود الفقري للعائلة، وكن السند الذي يعتمد عليه الجميع. فعملنَ في البيت وخارجه، وقد تزوّجنَ مبكرًا زيجاتٍ تقليدية من رجالٍ أكبر منهن جدًا. وباستثناء إحدى الأخوات، وهي أم «ياسي»، كان على الخالات أن يعشنَ ويحتملنَ أزواجًا مناكدين فاسدين، وأقل من مستواهن الفكري وسواه.

وكان رجال العائلة، الأخوال، هم دائمًا المعهود لهم بمستقبل «ياسي»، وكانوا مثل «بيتر بان» يهبطون كل حين من أرض اللاعودة. واذ يصلون مدينتها، تتوالى الاجتماعات العائلية والاحتفالات إلى ما لا نهاية. وكان كل ما يتفوّه به الأخوال يبدو ساحرًا فاتنًا بالنسبة لـ«ياسي». فهم الذين رأوا أشياء لم يرها أحد من قبل، وفعلوا أشياء لم يفعلها أحد سواهم. وكانوا كثيرًا ما يلاطفون «ياسي»، فينحنون ويمسّدون شعرها ويقولون: «هاي.. أيتها الصغيرة.. ماذا تراك تفعلين؟».

كان النهار هادئًا مفعمًا بالسَكينة. كنت أرتدي ثوبي البيتي الطويل وأجلس متربعة على أحد الكراسي في غرفة الطعام وأنا أستمع إلى حكاية «ياسي» عن قصيدة كان أحد أخوالها قد بعث بها إليها. وكانت «طاهرة خانم» في المطبخ. وكانت تتناهى إلى سمعنا أصوات مختلفة عبر باب غرفة الطعام المفتوحة: صوت ماء ينهمر من حنفية مفتوحة، صليل خفيض لارتطام أوعية في المطبخ، نصف جملة موجّهة للأطفال الذين كانوا يتناوبون الضحك والعراك في الصالة قرب المطبخ. وأتذكر أيضًا نرجسًا بريًا أبيض وأصفر؛ كانت غرفة الطعام برمتها تزينها مزهريات ملأى بالنرجس. لم أكن قد وضعتُ المزهريات على الطاولات، بل على الأرض، جنبًا إلى جنب مع

لوحة زيتية لزهور صفر تزين مزهريتين زرقاوين، وكانت اللوحة هي الأُخرى على الأرض.

كنا بانتظار قهوة أمي التركية. فقد كانت أمي تعد قهوة تركية خرافية الطعم؛ كانت سميكة القوام، حلوة بمرارة. وقد كانت هذه حجة أمي الدامغة لاقتحامنا بشكل دوري مع قهوة لذيذة. كنا نسمعها بين الحين والحين وهي تنادي علينا من الباب المشترك بين الشقتين، فتصيح: «تاااهرا....تاااهرا!».... وتبقى تنادي حتى لو أجبنا أنا و«طاهرة» بصوت واحد. وقد نؤكّد لها بأننا نريد قهوتنا فعلاً، إلا أنها تغيب من جديد وأحيانًا لساعة كاملة.

كانت هذه هي طريقة أمي في التواصل مع الناس منذ أن وعيتُ وكان لي ذاكرة. وكان فضولها بشأن صفي صباح كل خميس، وإحساسها بالفخر لمجرد الانضمام إلينا قد جعلها تستثمر القهوة بصفتها إذنًا رسميًا لدخول الصومعة.

فقد حدث ذات صباح، أن ترتقي أمي السلالم «من دون قصد» وتنادي عليّ من المطبخ، وتسألني عبر الباب المفتوح وهي تلقي نظرة فضولية على طالباتي المبتسمات: «هل ترغب ضيفاتك ببعض القهوة؟». وهكذا كان لنا أن نضيفَ طقسًا جديدًا إلى خميساتنا: أي الساعة المخصصة لقهوة أمي التركية. ولم يمضِ وقت طويل حتى استطاعتْ أمي أن تنتقي من طالباتي الأقرب اليها، وحاولت البدء بإقامة علاقات جانبية معهن.

ومنذ أن وعيتُ وكانت لي ذاكرة، كنتُ أجد أمي تدعو أعتى الغرباء لتناول فنجان قهوة في بيتنا! ذات مرة، كان علينا أن نتصرف بحكمة للتخلّص من رجل رياضي مريب في نهاية الثلاثين من عمره، كان قد أخطأ ورنّ جرس بابنا سائلاً عن سيدة دعتْه لتناول فنجان قهوة حينما كان قريبًا في الجوار. وكان حراس المستشفى المقابل لبيتنا «زبائن» دائمين عندها. كانوا في البدء غالبًا ما يقفون باحترام وتحفّظ وبين أيديهم فناجين القهوة، ثم، نزولاً عند إصرار أمي، نجدهم يجلسون بتردد وخجل على حافات الكراسي وهم ينقلون إليها

كل النميمة المتعلّقة بأخبار الجيران وما يحدث يوميًا في المستشفى. وهكذا كنا نعلم نحن بدورنا بكل تفاصيل ذلك اليوم.

كنت أنا و«ياسي» بانتظار قهوتنا، وكنا مستمتعتين برفاهية الاحساس بعدم وجود التزام محدد حينما رن جرس الباب. بدا صوت الجرس أعلى رنينًا بسبب هدوء الشارع ذلك النهار. واذ يرنّ الجرس في ذاكرتي مرة أخرى أسمعُ «طاهرة خانم» وهي تجرجر نعليها على الأرض متجهة صوبَ باب الشقة، وأسمع خطواتها وهي تخفتُ شيئًا فشيئًا اذ تهبط درجات السلم صوب الباب المؤدي للشارع، لتتناهى إلى مسمعنا بضع كلمات تتبادلها مع رجل في الخارج.

عادتْ إلينا «طاهرة خانم» وهي شبه جفلة وقالت بأن ثمة ضابطين من الشرطة السرية التابعة للّجان الثورية على الباب، وبأنهما كانا يريدان اقتحام شقة السيد «كولونل» التي كان يسكنها أحد المستأجرين.

كان السيد «كولونل» قد جاوَرَنا مؤخرًا. ولطالما تجاهلتْه أمي بسبب تصرفاته التي تنم عن ثراء حديث. كان قد أفسد حديقة فارغة غنّاء قرب بيتنا وشيّد مكانها مبنى قبيحًا رماديّ الحجر من ثلاثة أدوار. فسكنَ هو في الطابق الثاني، وسكَنَتْ ابنته في الطابق الثالث، وأجّر شقة الطابق الأول. وقالت «طاهرة خانم» بأن الضابطين أرادا اعتقال مؤجر شقة السيد «كولونل»، لكنهما لم يتمكنا من استخراج إذنٍ باقتحام المنزل. لذا فقد أرادا استخدام فناء بيتنا وتسلّق سياجنا للوصول إلى بيت الجيران. وكان من الواضح، أو ربما لم يكن من الواضح جدًا، أننا تمنّينا أن نرفض منحهم ذلك الإذن. لكن «طاهرة خانم» قالتها بحكمة: «أي ضابط لجانٍ خائب هذا الذي، لأنه لا يملك إذنًا بالتفتيش، لا يمكنه الدخول إلى البيت المطلوب إلا عن طريق فناء الجيران؟» فهم لم يكونوا بحاجة إلى اذن تفتيش ذات يوم بقدر تعلّق الأمر باقتحام بيوت الناس المحترمة. فلماذا كانوا عديمي الحيلة إلى هذا الحد حينما وصل الأمر إلى هذا «المحتال» دون سواه؟ كنا على خلاف مع جارنا، ولكننا لم نكن ننوي تسليمه الى اللجان الثورية لأي سبب.

بينما كانت «طاهرة خانم» تحدثنا عن كل ذلك، حدثتْ جلبة في الشارع. فتعالتْ أصواتُ رجالٍ يتصايحون وأصواتُ أقدامٍ تتراكض وصوت محرك سيارة تهمّ بالانطلاق. لم نكن قد أنهينا تحليلاتنا عن اللجان حتى رنَّ الجرس مرة أخرى. وبُعيد دقائق عادتْ «طاهرة خانم» بصحبة شابّين بالزي الكاكي الذي كان شائعًا بين حرس الثورة يومئذ. وفهمنا بأنهم لم يعودوا بحاجة إلى سياج حديقتنا ليعبروا منه إلى بيت الجيران، فقد قفز المجرم وعبَرَ إلى حديقتنا وهو الآن مختبئ فيها وهو مسلح. فطلبوا استخدام شرفتنا وشرفة الطابق الثالث لمشاغلته برميه بالرصاص، بينما يسعى زملاؤهم للقبض عليه. وكل ذلك لم يكن يتطلّب إذنًا منا، ومع هذا فقد كانوا حذرين وأخذون في الاعتبار ما يسمى حرمات الآخرين، لذا فقد طلبوا الإذن ولو شكليًا. وقد لمّحوا لنا ضمنًا بأن المتهم كان خطرًا جدًا، فلم يكن «مغامرًا مخمورًا ومسلحًا فحسب، وإنما كان متهمًا بجرائم أُخرى كثيرة».

ثم ارتقى السلالم باضطراد ثلاثةُ رجال آخرين وانضموا إلى الرجلين اللذيْن اقتحمانا. واكتشفتُ لاحقًا بأن ما شغلَ بالي وقتئذٍ كان ما شغل بال «طاهرة خانم» تمامًا؛ فهناك في الطابق العلوي، في زاوية ما من سطح المنزل الكبير، كنا قد خبأنا طبقنا اللاقط الكبير الممنوع. ولاحقًا أيضًا، تعجبنا جميعًا كيف اننا لم نعرْ اهتمامًا كبيرًا للخوف على حياتنا، ولحقيقة وجود خمسة رجالٍ غرباء مسلّحين يستخدمون بيتنا كساحة معركة مع جارٍ هو الآخر مسلح ومختبئ في مكان ما من حديقتنا، بقدر ما كنا قلقين على منظومة طبقنا اللاقط! فقد كنا مذنبين، مثلنا مثل أي مواطن إيراني عادي، ولدينا دائمًا ما نخاف عليه ونخبّئه. وقد وقع على عاتق «طاهرة خانم» الصعود إلى الطابق الأعلى، لأنها بدتْ رابطة الجأش أكثر مني ولأنها كانت تجيد لغة الحوار مع أولئك الناس أفضل مني. وقد وقع على عاتق «ياسي» مسؤولية الاهتمام بطفليّ المرتعبين. بينما قمتُ أنا بمرافقة رجلين الى شرفتنا المطلة من غرفة نومنا على

الحديقة. أتذكر أنني في خضم المعمعة وفي لحظة ما، خطر ببالي خاطر: يا لها من قصة هائلة لأخوال «ياسي»! أراهن أنهم حتى لا يمكن أن يتخيلوها.

ورغم أننا، أنا والطفلين، كنا قد أشبعنا أحداث ذلك اليوم تفصيلاً إلا أنها بدتْ مشوشة ومحيّرة بعض الشيء. وإذ أتذكرها أجد نفسي وكأنني كنتُ في كل الأماكن في اللحظة ذاتها، مثل مارد مصباح علاء الدين في فيلم الكارتون. ففي لحظة ما، كنت في الشرفة وسط وابلٍ من النيران المتبادلة، أستمع لرجال اللجان وهم يهدّدون المجرم، بينما يحكون لي بالتفصيل عن تاريخه الإجرامي الأسود، ويلمّحون لكونه مسنودًا من «جهات عليا»، مما يفسر لماذا لم يكن معهم إذن رسمي بالتفتيش. ثم كنتُ أيضًا في الطابق العلوي و«طاهرة خانم» تطمئنني إلى أن الحرس كانوا مشغولين لدرجة تلهيهم عن ملاحظة الطبق اللاقط. وقد فهمتُ منها لاحقًا بأن الحرس كانوا قد حاولوا أن يجعلوا منها هي درعًا بشرية متذرعين بأن ذلك الرجل سوف يطلق النار عليهم وليس عليها هي.

وفي خضم وابل الرصاص أكد لي استقرائي للأحداث المتصاعدة بأنه حتى لو نجح الحرس في مهمتهم الراهنة، فلا شك بأن جارنا سيُطلقُ سراحه سريعًا بفضل مسانديه ذوي السلطات العليا. كان أحد الضباط يحذّرني بشدة من الطبيعة الإجرامية المرعبة لذلك الرجل، بينما كان الأخير قد لجأ الى أقصى زاوية ممكنة من حديقتنا، تحت ظلال شجرة الصفصاف الوارفة (أثيرة قلبي). وبما يشبه الكوميديا السوداء، كان الحرس يتوجهون إلينا بالشكوى من صعوبة أو استحالة مهمتهم، بينما كنا نحن قد اعتبرنا كلا الطرفين متساويًا في الإجرام، وبأن كلاهما كان متطفلاً مقتحمًا لحياتنا، وكنا نتمنى على الطرفين أن يغادرا بأسرع وقت.

انتقلَتْ ساحة المعركة الى بيت جيران آخر، فالتجأ من ذلك البيت إلى الشارع طفلان مرتعبان مع أختهما الرضيعة. كان أحد شبابيك بيتهم قد تهشم بفعل الرصاص. وكان المجرم قد اختبأ بعض الوقت عند سقيفة صغيرة لخزن المُدَد في نهاية حديقتهم قرب بركة السباحة.

وهنا كان الحرس قد نجحوا أخيرًا في الوصول إليه ومحاصرته من كل اتجاه، فرمى بمسدسه إلى بركة السباحة (ولا أحد يدري لماذا)، لينتقل المشهد بعد ذلك إلى الشارع.

أدخلْنا أطفال الجيران إلى بيتنا، وتجمعنا أنا و«ياسي» وأطفالي وأطفال الجيران عند الشباك لمشاهدة رجال اللجان وهم يقذفون بضحيتهم في الصندوق الخلفي لسيارة الدورية التويوتا البيضاء، وكان الرجلُ يصرخ طوال الوقت وينادي على زوجته وابنه، ويحذّر الزوجة بألا تفتح باب البيت لأحدٍ أيًا كانت الظروف.

في ذلك اليوم، كان لنا أن نتناول قهوتنا أخيرًا ولكن بعد ان تجمّعتْ كل الأطراف المشاركة: أنا و«ياسي» و«طاهرة خانم» والأطفال والإضافة الى حراس المستشفى. فكنا في غرفة الاستقبال عند أمي نتبادل سرد ما حدث، وقد نقل إلينا حراس المستشفى الأنباء السرية المثيرة التي تتعلق بمستأجر شقة السيد «كولونل». فعلمنا بأنه كان شابًا في أوائل الثلاثين من العمر، وكان متعجرفًا خشنًا في تعامله مما جعل العاملين في المستشفى يخافونه ويضمرون له الحقد معًا. وعلمنا بأن أعضاء اللجان الثورية كانوا قد وضعوا شارعنا طيلة ستة أسابيع خلتْ تحت المراقبة، حتى قاموا أخيرًا بتلك العملية.

وقد اتفقنا جميعًا بأن المعركة لم تكن أكثر من صراع مصالح، وأن المتهم لا بد وأن يكون قد عمل لحساب بعض المسؤولين الكبار، مما يفسّر كيف أنه استطاع في هذه السن المبكرة أن يتكفل ببدل إيجار الشقة الباهظ، وثمن الأفيون والسيارات القديمة «الأنتيكا» المتوقفة في مرآب بيته. ولقد تناهى إلى مسامع حراس المستشفى بأن المتهم كان واحدًا من الإرهابيين المسؤولين عن بعض عمليات الاغتيال التي تمتْ في باريس طوال السنوات العشر الماضية. وقد تنبّأتْ لجنة التحقيقات التي أنشأناها نحن أنفسنا بأنه سيتم إطلاق سراحه سريعًا. وكانت توقعاتنا في محلها فعلاً. بيد أنه لم يُطلق سراح الرجل فحسب،

وإنما وصل به الأمر في الوصول إلى بابنا بعد أيام من عودته، محاولاً إقناع «طاهرة خانم» بأن تقدّم شكوى ضد أعضاء اللجان الثورية الذين اقتحموا منزلنا لغرض إلقاء القبض عليه، الأمر الذي لم نفعله نحن طبعًا.

وفي الليل، واذ كنا انا وزوجي نتناول الشاي في اجتماع آخر عقدناه في بيت الجيران، قرر الأطفال الذين أسَرَتهم أحداث اليوم أن يتفحصوا كل الأماكن التي كانت مسرحًا للمناوشات. فاكتشفوا أثناء بحثهم وجود جهاز تسجيل صغير في جيب سترة جلدية سوداء كان المجرم قد خبأها في السقيفة. وبما أننا مواطنون يحترمون القانون، فقد سلمنا جهاز التسجيل والسترة الى أعضاء اللجان، على الرغم من احتجاجات الأطفال الغاضبة. سلمناهما بعد أن استمعنا الى محادثاتٍ غير مفهومة تدور حول مقايضات وصفقاتٍ ما.

وقد أعدنا سرد هذه الحكاية مرات ومرات، حتى في درس الخميس الذي تلا الحادث. فقامتْ «طاهرة خانم» والطفلان بإعادة تمثيل المشاهد أمام جمهور متحمّس مبتسم. وكانوا في ذلك الوقت قد تجاوزوا فضولهم وخجلهم، ومعه فقدوا حدود اللياقة اللازمة التي كانت تبقيهم خارج تخوم الصف الدراسي.

كان من المثير حقًا أن نرى رجال اللجان وهم عاجزون متخبطون عديمو الخبرة. وعلى حد قول «ياسي»: «لقد شاهدنا أفلام «آكشن» أفضل من هذا بكثير!» ومع هذا فلم نكن نملك ما نعزّي به أنفسنا إذ ندرك بأن أرواحنا كانت رهنًا بيد بضعةِ حمقى متخبطين. وعلى الرغم من جو الإثارة والمرح الذي أحسسنا به وقتذاك، إلا أننا بدأنا نحسّ بأن بيتنا قد أصبح أقلّ أمنًا. وبقينا لوقتٍ غير قصير نجفلُ كلما سمعنا رنين جرس الباب. وفي الحقيقة، لقد أصبح جرس الباب بمثابة إنذار لنا من ذلك العالم الآخر الذي حاولنا أن نحيله إلى مزحة.

لم تكدْ تمر بضعة شهور على ذلك حتى جاءنا صوت الجرس برجلين آخرين

من أعضاء اللجان. فاقتحما بيتنا، وقاما بمصادرة طبقنا اللاقط. ولكنهما في هذه المرة لم يقوما بأية بطولاتٍ أو ملاحم مصطنعة. وبعد أن غادرا، بدا بيتنا وكأنه يرزحُ تحت وطأة ما يشبه الحداد. وحينما عاتبتُ ابنتي على موقفها المفرط في الميوعة بادرتني بترفّع بأنني لن أتمكن من تفهّم ما تحسّ به من أسى مهما حاولتُ، وتساءلَتْ بمرارة: «حينما كنتِ أنت في مثل سني، هل كانوا يعاقبونك على وضع شريط حذاء ملون؟ أو على الركض في فناء المدرسة؟ أو على لعق الأيس كريم في العلن؟».

في الخميس التالي، ناقشنا كل ذلك بتفاصيله. ومرة أُخرى كنا نتقافز جيئة وذهابًا ما بين حياتنا اليومية وبين الروايات. فهل كان من المفاجأة أن نُعجبَ جدًا بـ«دعوة لقطع العنق»؟ أوَلسنا جميعًا ضحايا الطبيعة العشوائية لأي نظام شمولي؟ نظام لا يكفّ عن التدخل في حياتنا واقتحام أكثر تفاصيلنا حميمية وخصوصية، ولا يكفّ عن فرضِ خيالاته المريضة القاسية على حياتنا. فهل كان هذا هو حكم الإسلام؟ أي ذاكرة نمنحُ لأطفالنا؟

كان ما يرعبني فعلاً أكثر من سواه: تلك المداهمات المستمرة، وذلك الغياب الدائم للشفقة والرحمة.

[20]

قبل ذلك ببضعة أشهر، مر بي «نيما» و«مانا» يطلبان النصح. كانا قد ادخرا مبلغًا من المال، وكان عليهما أن يختارا ما بين شراء «بعض لوازم الحياة»، بحسب تعبيرهما، أو شراء منظومة طبق لاقط. لم يكن بحوزتهما إلا القليل جدًا من المال، وكانا قد ادخرا ذلك القليل من الدروس الخصوصية. كان قد مرّ على زواجهما أربعة أعوام، ومثل الكثير سواهما من الأزواج الشباب، لم يكن بإمكانهما العيش في بيت مستقل، فعاشا مع أم «مانا» وأختها الأصغر. لا أذكر ما هي النصيحة التي أسديتها لهما يومئذ، لكنني أعلمُ بأنهما اشتريا منظومة طبق لاقط بعد ذلك بمدة بسيطة. فأصبحا في غاية الخفة والنشاط بعد شرائه. وصارا يحدّثاني كل يوم عن فيلم أميركي كلاسيكي شاهداهُ مؤخرًا.

كانت منظومات الأطباق اللاقطة قد غدتْ شائعة في عموم إيران، على الرغم من أنها كانت ممنوعة. ولم تعد الرغبة بامتلاكها مقصورةً على أشخاص مثلي أو أشخاص من الطبقة المتعلمة فقط. فقد أخبرتنا «طاهرة خانم» بأنه حتى في المناطق الأفقر والأكثر تدينًا في طهران كان بإمكان العائلة التي تمتلك منظومة أن تؤجّر برامج معينة منها للجيران. وأتذكر أنني حينما زرتُ الولايات المتحدة عام ١٩٩٦، فوجئتُ بـ«ديفيد هاسيلهوف» نجم برنامج «باي واتش» يصرّح متفاخرًا بأن عرضه كان من العروض الأكثر شعبية في إيران.

بوسعي أن أقول بشكلٍ قاطع بأنه لا «مانا» ولا «نيما» كانا يومًا من طلبتي

النظاميين. كان كلاهما يعمل على رسالته لنيل درجة الماجستير في الأدب الإنكليزي بجامعة طهران. وكانا قد قرأ مقالاتي وسمعا عن محاضراتي من بعض الأصدقاء. وذات يوم وجدتهما في صفي من دون مقدمات، وسألاني بعد ذلك ما إذا كان بإمكانها الحضور بصفة مستمعين في الحلقات الدراسية التي كنت أقيمها. فواظبا على حضور كل الساعات في كل الصفوف التي كنتُ أدرّسها، بالإضافة إلى ندواتي ومحاضراتي العامة. كنتُ غالبًا ما أراهما في تلك الندوات وهما واقفان قرب الباب وقد علّتْ وجهيهما ابتسامات دائمة. كنت أحس لسان حالهما عبر تلك الابتسامات إنما يقول لي: «واصلي حديثك عن «نابوكوف» و«بيللو» و«فيلدلنغ»، فنحن معك». أو: «كم هو رائع وعصيب أن تواصلي فعل ذلك، رغم كل شيء، ومهما كان الثمن الذي ستتحمّله معًا، نحن وأنت على حد سواء!».

كانا قد التقيا في جامعة شيراز، فأحبّ أحدهما الآخر، وكان اهتمامهما المشترك بالأدب وإحساسهما بالعزلة عن عموم الحياة الجامعية سببين رئيسين لقصة حبهما. وقد حكَتْ لي «مانا» لاحقًا كيف أن ارتباطهما كان أساسه «الكلمات» أكثر من أي شيء آخر. وكيف أنهما كانا في بداية علاقتهما يكتبان الرسائل ويقرآن الشعر، حتى أصبحا مهووسين بالعالم السري الذي ابتدعاه معًا عبر الكلمات. فكان عالمًا تآمرا فيه معًا على كل ما هو عدواني وخارج حدود السيطرة ليجعلاه رقيقًا لينًا قابلاً للاحتواء. كانت أطروحة «مانا» عن «فرجينيا وولف» والانطباعيين، بينما كانت أطروحة «نيما» عن «هنري جيمس».

كانت «مانا» تنفعلُ بطريقة هادئةٍ جدًا، حتى ليبدو بأن السعادة كانت تنبثق من أعماقٍ مجهولة في داخلها. ما زلت أذكر بدقة ذلك اليوم الأول الذي رأيتهما فيه هي و«نيما» في صفي. فقد ذكراني بطفليّ حينما يحوكان لي مؤامرة تجعلني سعيدة. في البدء كان «نيما» هو المتحدّث الثرثار أكثر منها. كان يمشي إلى

جانبي تتبعه «مانا» بنصف خطوة؛ فيحدثني (هو) ويقصّ القصص، لأراها وهي تحدّق بي عبرةُ لتستقرئ من ملامحي ردة فعلي. ونادرًا ما كانت تحاول أن تتطوع هي بنفسها للحديث. وكانت قد مرت شهور حتى استطعتُ بإلحاحي أن أجعلها تطلعني على شعرها، مما اضطرها إلى الحديث معي مباشرة وليس عن طريق «نيما».

اخترتُ لهما اسمين متناغمين، على الرغم من أن اسميهما لا يتشابهان في الواقع. فقد اعتدتُ أن أراهما دائمًا معًا وهما يعبّران عن الأفكار والمشاعر ذاتها، حتى انني بِتّ أحس بأنهما أخٌ وأخته، وقد اكتشفا للتوّ شيئًا عجيبًا في حديقة البيت الخلفية، فكان ربما بابًا سريًا يفضي إلى مملكة سحرية. أما أنا فقد كنت لهما بمثابة الأم الروحية للجنيات، أو المرأة المجنونة التي إئتمناها على السر.

أتذكر ذات يوم أننا كنا نرتّب معًا بعض الأوراق ونعيد ترتيب مكتبي في البيت (كنا نضع الرواية مع الرواية، ونضع أوراق الملاحظات في ملفاتها المختلفة)، وأتذكر كيف أنهما كانا يتبادلان معًا بعض القصص والأخبار عن جامعة طهران، حيث كنتُ أعمل قبل سنوات. كنت أعرف الكثير من الناس الذين جاء ذكرهم في الحديث، بمن فيهم نذلنا الأثير الأستاذ «إكس»، وهو واحد من الأساتذة القلائل بل النادرين الذين لم يستقيلوا أو يُقالوا بعد أن تركتُ أنا العمل في الجامعة. وفهمتُ بأنه كان يضمرُ حقدًا عجيبًا لهما معًا، وفي الوقت نفسه كان يعتقد بأنهما لا يكنّان له الاحترام الكافي.

كان قد ابتدع طريقة فعالة لحل جميع المشكلات المعقدة في النقد الأدبي؛ فكان يُخضع كل الأفكار والتحليلات إلى التصويت، وطالما أن التصويت لن يتعدى رفع الأيادي، فقد كان كل الجدل في النهاية يميل الى ترجيح الكفة لصالحه هو.

بدأتْ الشرارة الأولى للخلاف بينه وبين «مانا» و«نيما» حينما أعدّتْ «مانا»

ورقة بحثية عن «روبرت فروست». وفي المحاضرة التالية، أخبر الطلبة بشأن نقاط خلافه المتعددة مع طروحات «مانا»، وطلب منهم التصويت في الأمر. فصوّت الجميع، باستثناء «مانا» و«نيما» وطالب آخر، لصالح رأي الأستاذ. وما أن انتهى التصويت حتى التفَتَ الأستاذ نحو «نيما» وسأله كيف له أن يتخلى عن مبادئه إلى هذا الحد؟ وهل أن سبب ذلك يعود ربما إلى أن زوجته قد غسلت دماغه؟ ثم راح يغالي في التشكيك بآرائهما وبوضع أفكارهما رهنًا للتصويت، مما جعلهما في المقابل يزيدان عنادًا. فشرعا يأتيانه بكتب نقدية لنقاد بارزين تفند آراءه وتدعم آراءهما، حتى تفجر الموقف بينهما إثر سورة غضب منه، فطردهما من صفه.

كان أحد الطلبة قد اختار أن يكتب أطروحته عن «لوليتا». وعلى الرغم من أنه لم يستخدم في بحثه أي مصدر علمي، ولم يقرأ «نابوكوف»، إلاّ أن أطروحته نالتْ إعجاب الأستاذ. فقد كان للأخير طروحات خاصة بشأن الفتيات الصغيرات اللواتي يفسدْنَ حيوات الرجال المثقفين. وقد أراد هذا الطالب أن يكتب في موضوعة إغواء «لوليتا» لـ«هومبرت»، وتحطيمها حياة ذلك الشاعر المثقف. فسأل الأستاذ «إكس» ذلك الطالب مع نظرة تأملٍ حادة، ما إذا كان يعرف شيئًا عن الانحرافات الجنسية لـ«نابوكوف» نفسه؟ وهنا راح «نيما» يقلّد صوت الأستاذ، وهو يهزّ رأسه بحزنٍ ويقول بنبرةٍ متهدّجةٍ ساخرة: «يا للهول! ها أننا صرنا ننتقلُ من رواية إلى أُخرى، لنجد رجالاً مثقفين تدمّر حياتهم نساءٌ طائشات!». وحلفَتْ لي «مانا» بأنه ما لبث يرمقها بنظرات تنضح سمًّا وهو يواصل شرح موضوعه الأثير. وللسخرية، فعلى الرغم من آراء هذا الرجل عن «نابوكوف» وصغيراته اللعوبات الطائشات، فإنه حينما قرر الزواج للمرة الثانية، كان شرطه الأساس هو ألا يتجاوز عمر من سيقع عليها الاختيار الثالثة والعشرين. وعليه، وفقًا للمواصفات المطلوبة، كانت زوجته الثانية تصغره بعقدين في أقل تقدير.

[21]

كان خميسًا حارًا بدّتْ حرارته وكأنها اخترقَتْ برودة بيتنا المكيّف. كنا سبعة فقط في ذلك الصباح، وكنا نتحدث في مواضيع متفرقة قبل بداية الدرس؛ فتحدّثنا عن «ساناز» التي تغيّبتْ عن درس الخميس الماضي من دون اتصال أو شرح. ولم تكن قد اتصلتْ طوال تلك المدة بأحد، ولا حتى بـ«ميترا». فكنا قلقات، ولم نكن نعلم ما إذا كانت ستأتي بعد ذلك أو لا. وقد خمّنا أن يكون الأخ المزعج قد دبّر لها مكيدة جديدة. فقد كان أخو «ساناز» قد أصبح مادة ثابتة للحديث بصفته جزءًا من مسلسل «الذكور الأوغاد»، ذلك الموضوع الذي كان يتجدد ويطرح نفسه على طاولة الحوار أسبوعًا بعد آخر.

قالت «مانا» بشيء من السخرية: «يقول لي «نيما» بأننا لا يمكن أن نفهم المعاناة التي يواجهها الرجال هنا، فهم أيضًا مرتبكون ولا يعرفون كيف لهم أن يتصرفوا. وقد يتصرفون أحيانًا باستعراضٍ للرجولة أو بتنمّر زائف لأنهم يشعرون بهشاشتهم من الداخل».

فقلتُ: «حسنًا، هذا كلام صحيح إلى حد بعيد، فللعلاقة طرفان، وحينما نغيّب نصف المجتمع، فإن النصف الثاني سيعاني من دون شك».

فقالت «نسرين»: «أي رجلٍ هذا الذي يُثار جنسيًا لمجرد النظر الى خصلة من خصلات شعري؟ أي رجلٍ هذا الذي يجنّ جنونه لمرأى إصبعٍ من قدمِ امرأة؟.. يا إلهي!.. أن إصبع قدمي سلاح فتاك!».

فقالت «آذين» بجرأة منمّقة: «إن النساء اللواتي يغطينَ أنفسهن إنما هنّ شريكات في الجريمة لأنهنّ يحرضْنَ ويدعمن النظام».

التزمَتْ «مهشيد» الصمت وهي تركزُ بصرها على المسند الحديد للطاولة.

قالتْ «مانا» وهي تحدّق ببرود: «وماذا عن اللواتي يتميزنَ مثل علامة فارقة بأحمر شفاهٍ ناري ويتمحّكنَ فج للأساتذة؟ هل تجدين أنهنّ يفعلنَ ذلك إخلاصًا ودعمًا للقضية؟». احمرّ وجه «آذين» ولم تنبس ببنت شفة.

فاقترحتْ «نسرين» ببرود: «ماذا لو بُترت أعضاء الرجال التناسلية من أجل كبح جماح الشهوة عندهم؟». كانت «نسرين» حينذاك تقرأ كتابًا لـ«نوال السعداوي» عن العنف ضد المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية. والدكتورة السعداوي (وهي طبيبة) كانت قد بذلتْ جهدًا حثيثًا لإيضاح الآثار المروعة لما يُعرف بختان البنات الشائع في بعض المجتمعات للاعتقاد بأنه يكبح جماح الشهوة الجنسية لديهن. وواصلَتْ «نسرين»: «كنت أشتغل على هذا النص في مشروعي الخاص بالترجمة».

ـ «مشروعك الخاص بالترجمة؟».

ـ «نعم.. ألا تتذكرْن؟ لقد أخبرتُ أبي بأنني أقوم بترجمة بعض النصوص الإسلامية الى الإنكليزية لمساعدة «مهشيد»!».

فقلت: «لكنني كنتُ أظن أن هذه لم تكن سوى حجة تمكنك من المجيء إلى هنا».

قالت مبتسمة: «لقد كان الأمر كذلك، ولكنني قررت ان أقوم بتلك الترجمات فعلاً ثلاث ساعات في الأسبوع على الأقل، وأحيانًا أكثر، ربما من أجل كذبات إضافية! لقد توصلتُ إلى هذه التسوية مع نفسي لكي أرضي ضميري». واستطردَتْ تقول: «لا بد من القول بأن آية الله الخميني نفسه لم يكن مبتدئًا أو جاهلاً في الأمور الجنسية، فقد كنت أترجم رائعته: «المبادئ السياسية والفلسفية والاجتماعية والدينية لآية الله الخميني». وثمة تفاصيل جديرة بالاهتمام فعلاً».

فقالت «مانا»: «ولكن الكتاب قد تُرجم فعلاً، فما الحكمة في إعادة الترجمة؟».

أجابت «نسرين»: نعم، لقد تمتْ ترجمة أجزاء منه فعلاً، ولكن صار من الصعب جدًا العثور على الترجمة بعد أن أصبح الكتاب أضحوكة المجالس، وقد وجدَتْ سفارتنا في الخارج أن الناس راحت تقرأ الكتاب من أجل المتعة لا من أجل التثقيف. وعلى أية حال فإن ترجمتي للنص شاملة مدعومة بالمصادر ومستندة إلى أعمال كتاب بارزين آخرين. هل تعلمن بأن إحدى طرق تفريغ الشهوة الجنسية لدى الرجال هي ممارسة الجنس مع الحيوانات؟ وأنه ثمة مشكلة تترتّب على ممارسة الجنس مع الدجاج؟ لأن على المرء أن يسأل: «اذا مارس رجل الجنس مع دجاجة فهل يجوز له أكلها بعد ذلك؟». لقد منحنا قائدنا إجابة على هذا السؤال بقوله: «كلا.. لا هو ولا أي أحد من أفراد أسرته الأقربين ولا الجار القريب يجوز له أن ياكل من لحم تلك الدجاجة، ولكن لا بأس مع الجار الذي يسكن على بعد بابين». ثم أضافتْ بشيءٍ من العبث: «أما أبي.. فهو يفضل أن أكرس وقتي لنصوص كهذه، عوضًا عن «جين اوستن» أو «نابوكوف»!».

لم تدهشنا أو تصدمنا تلميحات «نسرين» الفجة بشأن كتابات «آية الله الخميني». فقد كانت تشير إلى نصٍ شهير للخميني هو بحثه الخاص، أي ما يعادل الأطروحة، وهو ما يُطلبُ كتابته من رجل الدين الذي يتصدّى للمرجعية لنيل درجة آية الله، والهدف من ذلك الإجابة عن الأسئلة والمعضلات التي يمكن أن يطرحها عليه المريدون. وكثيرون قبل الخميني كانوا قد كتبوا في قضايا مشابهة إلى حد بعيد. بيد أن المزعج في الأمر فعلاً هو أن هذه النصوص كان يأخذها على محمل الجد أشخاصٌ يحكموننا، وعلى راحاتهم تجثو أرواحنا ومقدّرات بلادنا. ففي كل يوم يطالعنا في الإذاعة الرسمية المرئية والمسموعة، أولئك الأوصياء على الأخلاق والثقافة، ليتحفونا بتصريحاتهم

المماثلة، وليناقشوا قضايا من هذا النوع وكأنها أهم المواضيع وأكثرها جدية، أو لكأنها الأجدر بالاهتمام والتأمّل من كل ما عداها.

وفي خضم ذلك الحوار الثقافي الذي كانت تخفّفُ ضحكة «آذين» المجلجلة ومناكدة «مهشيد» المتصاعدة، سمعنا صليلاً صارخًا لمكابح سيارة. عرفتُ فورًا بأنها «ساناز» وقد أوصلها الأخ أخيرًا. هنيهة، وسمعتُ باب سيارة ينصفق.. جرس الباب.. ثم بضع ثوان تدخل بعدها «ساناز»، وكان أول ما تنطق به شفتاها كلمات اعتذار. بدتْ في غاية الهياج لأنها تأخرت وفاتها الدرس حتى كادتْ أن تنفجر بالبكاء.

حاولت تهدئتها، وذهبتْ «ياسي» إلى المطبخ لتجلبَ لها بعض الشاي. كان بين يديها علبة معجنات كبيرة، فبادرتُها: «لماذا كلفتِ نفسكِ؟». فأجابت بوهَن: «أبدًا.. كان دوري في الأسبوع الماضي، وغبتُ، فجلبتها اليوم». وتناولتُ منها العلبة. كانت تنضح عرقًا، فحلّت إيشارب رأسها وجلبابها الأسود. كانت قد ربطتْ شعرها بقوة إلى الخلف بطوق مطاطي، وقد بدا وجهها عاريًا متصحّرًا.

وأخيرًا سكنت إلى مقعدها المعتاد إلى جانب «ميترا» وفي يدها كأس كبيرة من الماء المثلج وقد استقر كوب شايها أمامها على الطاولة، وكنا جميعًا ننتظر بصمت سماع ما ستقول. حاولتْ «آذين» أن تكسرَ حاجز الصمت بمزحة فقالت: «لقد حسبنا جميعًا بأنك سافرتِ إلى تركيا من أجل حفلة الخطوبة ونسيتِ دعوتنا!» أبدَت «ساناز» محاولة عابرة لأن تبتسم، ثم ارتشفتْ شربة ماء بدل أن تجيب. بدت وكأنها كانت تريد أن تبوح ولا تريد أن توضّح في آن واحد. كانت ثمة دموع تتهدج في نبرة صوتها قبل أن تظهر جلية في عينيها.

كان ما حدث لـ«ساناز» قد غدا أمرًا مألوفًا واردًا؛ كانت قد قرّرت قبل اسبوعين هي وخمسة من صديقاتها الذهاب في رحلة يومين إلى بحر قزوين. وفي اليوم الأول قرّرنَ القيام بزيارة خطيب إحدى الصديقات الذي كان يسكن

في منزل مجاور. بقيت «ساناز» تؤكد لنا بأنهن كن جميعًا يرتدين ملابس مناسبة جدًا، وكن يضعن الإيشاربات والجلابيب الطوال، وبأن الجميع كان يجلس في الخارج، في حديقة المنزل؛ ستّ فتيات وشاب واحد، وبأنه لم تكن ثمة مشروبات كحولية في البيت أو أشرطة غير مرغوب بها أو أقراص مدمجة. بدتْ وكأنها كانت تعني أنه لو كان ثمة أشياء من هذا النوع فهنّ ربما يستأهلْنَ سوء المعاملة التي حظينَ بها على يد حرس الثورة!

ثم جاؤوا، بأسلحتهم ومسدساتهم، فاجأوا الجميع وهم يقفزون من فوق السياج الواطئ للبيت؛ كان «هؤلاء» هم ميليشيا حماية الأخلاق. ادّعوا بأنهم أبلغوا عن وجود نشاطات وأمور غير قانونية، وبأنهم يريدون تفتيش المكان. وإذ لم يجدوا أي عيب في الهيئة العامة للبنات والشاب، قال أحد الحراس متهكمًا: «ويعد الاطلاع على الوضعية الغريبة للشباب».... فقاطعتها «نسرين»: «وما هي الوضعية الغريبة؟!» فنظرت إليها «ساناز» وابتسمتْ قائلة: «إذا التقينا ثانية.. سأسأله!».

أما حقيقة الأمر فتتلخص في أن بحثهم عن المشروبات الكحولية والأشرطة الممنوعة والأقراص المدمجة لم يفضِ إلى أي شيء، وإذ كان معهم إذن بالتفتيش لم يريدوا له أن يضيع هباء. فاقتاد الحرس الجميع إلى سجن خاص بالتجاوزات الأخلاقية. وعلى الرغم من احتجاجات البنات تم وضعهن في غرفة صغيرة مظلمة حيث قضينَ ليلتهنّ الأولى مع مجموعة من المومسات وإحدى مدمنات المخدرات. وفي غضون تلك الليلة جاءتهنّ ناظرات السجن مرتين أو ثلاث مرات، كي يوقظن من استبد بها النعاس أو غفت فينهلْنَ عليها بالسباب والشتائم.

قضينَ في تلك الغرفة ثماني وأربعين ساعة. لم يُسمح لهنّ الاتصال بذويهن على الرغم من طلباتهن الملحة. ولم يبرحْنَ الغرفة سوى مرتين، باستثناء زيارات خاطفة إلى الحمام في مواعيد محددة. فاقتادوهنّ في المرة الأولى إلى

مستشفى حيث خضعن لفحص العذرية الذي تم على يد طبيبة نسائية جمعتْ طلابها لمراقبة الفحص. ونظرًا لأنهم لم يثقوا بحكم الطبيبة، فقد اقتادوهنّ إلى عيادة خاصة لإعادة الفحص مرة أخرى.

وفي اليوم الثالث، كان أهالي البنات في طهران قد استبدّ بهم القلق وفقدوا أي أثر لبناتهم، فأخبرهم بواب المنزل بأنهنّ ربما قد لقينَ حتفهنّ في حادث سيارة. فانطلق الأهل مباشرة إلى المصيف بحثًا عن بناتهم. وأخيرًا عثروا عليهنّ، وكنّ حينذاك قد خضعْنَ لمحاكمة صورية مختصرة، وأجبرن على التوقيع على وثيقة يعترفنَ فيها بذنوبٍ لم يرتكبنها، ثم حُكم على كلٍ من هنّ بخمسٍ وعشرين جلدة.

كانت «ساناز»، النحيفة، ترتدي بلوزة «تي شيرت» تحت جلبابها. فتمازحَ سجانوها قائلين بأنها طالما كانت ترتدي كسوة إضافية فلن تحس بالألم، فقاموا بجلدها بضع جلدات إضافية (فوق البيعة!) كان الألم الجسدي قد بدا لها أكثر احتمالاً من المعاملة المهينة في فحص العذرية، ومن احتقار الذات الذي أحسّت به وهي توقّع اعترافًا بالإكراه. فكانت تنظر إلى الأمر من زاوية معكوسة بطريقة ما، وكأنها تعاند نفسها لتجد في العقاب الجسدي خلاصًا وجزاءً عادلاً لاستسلامها لكل ما لاقته من ذلٍ وهوان.

وحينما أطلقَ سراحهنّ أخيرًا وعدن إلى بيوتهنّ بصحبة الأهالي، كان على «سانازِ» أن تواجه إهانات من نوع آخر، ليس أقلها التعنيف الذي تلقّته على يد أخيها: «.. وماذا كانوا يتوقعون إذاً، بعد أن سمحوا لست بنات طائشات بالذهاب في رحلة من دون إشراف رجل؟». فهل كان من الممكن ألا يصغي إليه أحد لمجرد كونه أصغر منها؟ لقد كان لسان حال أهلها يقول: «هو ليس بأصغر منها كثيرًا، وهي فتاة مشتتة الذهن، غافلة، ألا يكفي أنها لم تتزوّج حتى الآن!». فعلى الرغم من تعاطف والديها معها في محنتها، كان لا بد لهما أن يتفقا مع أخيها في وجهة نظره، وقد وجدا أنه ربما لم يكن من المناسب

السماح لها بالقيام بتلك الرحلة، ليس لأنهما لا يثقان بها، وإنما لأن ظروف البلد لم تكن تسمح بحماقات من هذا النوع. قالت «ساناز»: «وفوق ذلك كله صرتُ أنا المذنبة. فحرمتُ من استخدام سيارتي، وصار لزامًا عليّ ألاّ أتحرّك إلا برفقة أخي الحكيم.. الأصغر!».

لم تبرحني قصة «ساناز» يومًا، فقد كنت ولا زلتُ أجد نفسي بين الحين والحين أعود اليها وأعيد بناءها في ذاكرتي من جديد؛ أسوار الحديقة، البنات الست وهنّ جالسات في شرفة الحديقة مع ذلك الشاب، وهنّ ربما يطلقن النكات ويتضاحكن. ثم.. فجأة.. يأتي «أولئك» الرجال. أتذكر تلك الحادثة مثلما أتذكر الكثير مما عشته بنفسي في إيران. وأتذكر حتى الأحداث التي كتبها وحدثني بها أشخاص آخرون بعد رحيلي. ومن العجيب فعلاً أن تصبح هذه وسواها جزءًا لا يتجزأ من ذاكرتي الشخصية.

لكنني ربما أصبحتُ الآن فقط، وأنا على هذا البعد الشاسع عن إيران، أستطيع الحديث عن هذه التجارب بحرية ومن دون خوف، وأستطيع ان أشرع في فهمها واستيعابها والتغلب على إحساسي المرعب بالعجز إزاءها. أما في إيران فقد كانت ثمة مسافة عجيبة بيننا وبين تلك التجارب اليومية من الإذلال والعنف. فهناك كنا نتحدث عنها وكأنها أحداث لا تخصنا ولا تمت إلينا بصلة، كنا مثل مريض الشيزوفرينيا، نحاول أن نبقي أنفسنا بعيدين عن تلك النفس الأخرى، القريبة منا والغريبة عنا في آن واحد.

[22]

يقدّم لنا «نابوكوف» في سيرته الذاتية «تحدّثي أيتها الذاكرة»، وصفًا للوحة بالألوان المائية كانت معلقة فوق فراشه عندما كان طفلاً صغيرًا، منظرًا طبيعيًا لطريق ضيق يفضي إلى غابة كثة الأشجار يختفي فيها الطريق. ويقول بأن والدته حكت له قصة عن صبي اختفى ذات يوم في لوحة معلّقةٍ فوق فراشه. ومنذ أن سمع القصة أصبحتْ أمنية «فلاديمير» الصغير التي يصلي من أجلها كل ليلة: هي أن يختفي في اللوحة. واذ تخيّلنا، عزيزي القارئ، ونحن في تلك الغرفة لا بد لك أن تتفهّم رغبتنا في ذلك التلاشي الخطير. فكلما أوغلنا في الانسحاب إلى داخل صومعتنا، كلما أصبحنا أكثر اغترابًا وبعدًا عن حياتنا اليومية. حتى لقد صرتُ أسألُ نفسي كلما سرتُ في شارع من شوارع طهران: هل هؤلاء هم ناسي؟ هل هذا هو وطني؟ وهل أنا أنا؟

لم يكن لا «هومبرت» ولا الرقيب الأعمى ليستطيع الاستحواذ على ضحاياه تمامًا، لأنهم يراوغونه دائمًا ويتملّصون منه، تمامًا مثل الوهم الذي نحسّه في متناول اليد وبعيد المنال في آن واحد. وبغض النظر عن مدى الانكسار الذي قد يحيقُ بالضحايا، إلا أنه لن يستطيع أحد أن يجبرهم على الإذعان.

كان كل هذا يدور ببالي ذات مساء خميس بعد الدرس، وأنا أتصفّح مذكرات الصف التي تركتها بناتي عندي، بالإضافة إلى مقالاتهنّ الجديدة وقصائدهن. كنت في المحاضرات الاولى قد طلبتُ أن تصف لي كل واحدة منهن صورتها.

وحينذاك لمّا يكنّ بعدُ مستعدات للإجابة عن ذلك السؤال، لكني بقيتُ بين الحين والحين أعود فأسألهن السؤال ذاته من جديد. وها أنني الآن، أجلس شبه متربعة على كرسي الحب، وبين يديّ عشرات الإجابات التي وصلتني من هنّ لاحقًا.

ها هي ذي إجابة «ساناز»، وكانت قد أعطتني إياها بُعيد وقتٍ قصير من تجربة اعتقالها. وهي عبارة عن رسم بسيط بالأسود والأبيض، لفتاة عارية، وقد علِقَ بياضُ جسدها داخل فقاعة سوداء. وتبدو الفتاة داخل الفقاعة وهي تجثو بوضع يكاد أن يكون قاتلاً، وتحتضن ركبتها المنحنية، وقد مدّت ساقها الثانية الى البعيد. ويبدو شعرها الطويل السارح متخذًا شكل محيط ظهرها المنحني. أما الفقاعة فتبدو في الهواء وقد حملها طائر عملاق ذو مخالب طويلة سود. ما لفت انتباهي في التخطيط تفصيل يبدو صغيرًا جدًا إذا ما قارناه بالرمز الأوضح للفتاة والفقاعة ويد الفتاة التي تصل إلى خارج الفقاعة ممسكة بالمخلب. وهذا التفصيل هو أن عري الفتاة الخانع يبدو معتمدًا تمامًا على مخلب الطائر العملاق، وتبدو الفتاة وكأنها تجهد نفسها كي تصل إليه.

لقد أحالني الرسم مباشرة إلى جملة كتبها «نابوكوف» عن «الدفقة الصغيرة الأولى» التي نَبَضَتْ في داخله ليكتب رواية «لوليتا»، وذلك في تعقيبه الشهير على رواية «لوليتا» عام ١٩٣٩ أو بدايات عام ١٩٤٠، بعد أن تعرض لنوبة تشنّج عنيفة بين الأضلاع. يقول «نابوكوف» مستذكرًا: «كانت الارتجافة الأولية للوحي مستلهمة بطريقة ما من قصة في إحدى الصحف. وتحكي القصة عن قرد في الحديقة النباتية، ظل يلاطفه ويداعبه العلماء شهورًا حتى استطاعوا أن ينتزعوا منه أول تخطيط بالفحم يرسمه حيوان على الإطلاق. وقد أظهر هذا التخطيط قضبان القفص الذي كان المخلوق المسكين محبوسًا فيه».

في هذا التخطيط وفي تخطيط «ساناز»، تتجلى لنا حقيقة مرعبة، تكمن فضاعتها في حقيقة أن ثمة فعلاً للعنف تم اقترافه في كلتا الحالتين. ويذهب بنا

الرمز أبعد ليتجاوز حدود القضبان، ويكشف التقارب والحميمية التي تكنها الضحية صوب سجانها! ويهمنا أن نركز في كلتا الصورتين على النقطة المرهفة التي يلمس فيها السجين قضبانه، أي عند ذلك التلامس والاتصال الخفي بين اللحم النابض وبرودة المعدن.

وقد عبرت بقية الطالبات عن أنفسهن بالكلمات. فوصفتْ «مانا» نفسها وكأنها ضباب يتحرك فوق كتل كونكريتية، متخذًا شكل الكونكريت من دون أن يتحول إلى «ضباب كونكريتي»، أي من دون أن تتحول «مانا» الى كونكريت. وصوّرت «ياسي» نفسها على أنها شيء مزوّر. وكتبتْ «نسرين» ذات مرة شرحًا لكلمة «مفارقة» أو «تضاد» نقلاً عن قاموس أوكسفورد الإنكليزي. لكنني، في جميع الإجابات تقريبًا، أستطيع أن أقرأ ضمنيًا أن طالباتي لا يستطعْنَ أن يصفنَ أنفسهنّ إلا ضمن سياق واقع خارجي يمنعهنّ من تعريف أنفسهنّ بوضوح أو بتفرّد.

كتبتْ «مانا» ذات مرة عن جواربها الوردية التي نالتْ بسببها توبيخًا رسميًا من جمعية الطلبة المسلمين، وحينما اشتكتْ لأحد أساتذتها المقرّبين، أغاظها قائلاً بأنها قد احتالتْ أصلاً على الرجل الذي تريد، «نيما»، وأوقعته في شباكِها، ولم تعد بحاجة إلى الجوارب الوردية لتحكم عليه قبضتها أكثر فأكثر!

ثمة اختلاف جوهري واحد بين جيل طالباتي وجيلنا نحن. فجيلنا يشكو من الضياع، من الفراغ الذي ظهر في حياتنا حينما سرقوا ماضينا وجعلوا منا غرباء منفيين ونحن في وطننا. ومع هذا، فنحن لنا ماضٍ نقارنه بالحاضر، ولنا ذكريات وصور لما قد سُرق منا على أية حال. بينما تحدثني طالباتي دائمًا عن قبلات مسروقة وأفلام لم يشاهدنها أبدًا، ونسمات لم يشعرن بها يومًا وهي تداعبُ أديمهن. إنهم جيل بلا ماضٍ، فلم تعدّ ذكرياتهم أن تكون رغبات غير واضحة ولم تتحقق، شيء ما لم يحظوا به مطلقًا. فكان إحساسهم بالافتقاد

وتوقهم لتفاصيل الحياة العادية المفروغ منها، هو الذي منح كلماتهم نبضًا ساطعًا أقرب ما يكون إلى الشعر.

أتساءل: لو أنني الآن، في هذه اللحظة، استدرتُ صوب هؤلاء الناس الجالسين حولي في هذا المقهى، في بلد هو ليس إيران، ورحتُ أحدثهم عن الحياة في طهران، فماذا ستكون ردة فعلهم؟ هل سيدينون التعذيب والاعدامات والتطرف في انتهاك حقوق الانسان؟ اظنهم سيفعلون ذلك. ولكن ماذا عن انتهاك حياتنا اليومية العادية، مثل رغبة أحدنا في ارتداء زوج من الجوارب الوردية؟!

كنت قد ذكرتُ طالباتي بمشهد الرقص في «دعوة لقطع العنق». في هذا المشهد نجد السجّان وهو يدعو «سينسيناتس» إلى الرقص. فيبدأن برقص الفالس معًا. ويمضيان معًا الى الباحة. وفي زاوية ما يصادفان أحد الحراس، فنجدهما «يرسم السجانُ والحارس معًا دائرة بالقرب منه، ثم ينزلقان عائدين إلى الزنزانة. والآن، بدأ يراود «سينسيناتس» إحساسٌ بالأسف لأن نشوة القبول والمودة لم تدم طويلاً». إن تلك الحركة الدائرية هي الحركة الرئيسة في الرواية. فطالما تقبل «سينسيناتس» ذلك العالم الزائف الذي فرضه عليه سجانوه، فسيبقى سجينًا لهم ولن يتحرك إلا ضمن حدود الدوائر التي رسموها له. ان أسوأ الجرائم التي يمكن أن ترتكبها عقول الأنظمة الشمولية، هي أن تجعل مواطنيها، وبضمنهم ضحاياها، شركاء في جرائمها. فحينما ترقص مع جلادك، وتشارك بنفسك في حكم الإعدام على نفسك، فإن ذلك الفعل هو أقصى درجات الوحشية. وقد شهدتْ طالباتي ذلك في عروض المحاكمات في التلفزيون، وقمنَ بتقمص الأدوار في كل مرة يخرجن بها الى الشارع وهنّ يرتدين ما قد طلب منهن ارتداؤه. وربما لم يصبحنَ جزءًا من الحشود التي تتفرج على الإعدامات، لكنهنّ في الوقت نفسه عجزنَ عن الاعتراض عليها.

والحل الوحيد الذي سيمكّن «سينسيناتس» من الخروج من الدائرة،

بالتوقف عن الرقص مع الجلاد، هو بالوصول إلى طريقة يحافظ بها على تفرده، على تلك القيمة الاستثنائية للتفرد التي تتحايل على فكرة «الدوائر»، وفي الوقت نفسه يوجد الاختلاف بينه وبين الآخرين. فهم ليسوا أكثر من عالم تحكمه الطقوس الفارغة الزائفة. ولم يكن ثمة اختلاف كبير بين جلاّدينا، وجلاّدي «سينسيناتس». فقد اجتاحوا كل فضاءاتنا الشخصية، وحاولوا أن يشكلونا بحسب هواهم كل التفاتة وإيماءة كي يجبرونا على أن نصبح جزءًا منهم، وكان هذا بحد ذاته شكلاً آخر من أشكال الإبادة الجماعية.

وفي النهاية، حينما اقتيد «سينسيناتس» إلى منصة الإعدام، واذ وضع رأسه على المنصة استعدادًا لإعدامه، راح يردد الكلمة السحرية: «بيَدي لا بِيَدِ عمرٍ». إن هذا التذكير المستمر بتفرده، ومحاولاته لكتابة ولفظ وخلق لغة تختلف عن تلك التي يفرضها عليه جلادوه، كل ذلك كان وراء انقاذه في اللحظة الأخيرة. فحين أخذ رأسه بين يديه، ومضى بعيدًا خلف الأصوات التي كانت تنادي عليه من العالم الآخر، نجد المنصة والجلادين وكل العالم الزائف حوله قد بدأ يتفسخ ويتلاشى.

الفصل الثاني

غاتسبي

[1]

ثمة إمرأة تقف بمفردها وسط حشدٍ في مطار طهران. تجثو على ظهرها حقيبة ظهر، وعلى إحدى كتفيها تتعلّق حقيبة أخرى كبيرة، وتدفع بأطراف أصابع قدميها حقيبة ثالثة كبيرة جدًا. تعلم بأن أباها وزوجها، الذي ارتبطتْ به منذ عامين، لا بد وأن يكونا في مكان ما في الخارج ومعهما حقائب أُخرى للملابس. تقفُ في منطقة الجمارك، وعيناها الدامعتان تستميتان بحثًا عن وجه متعاطف واحد تستطيع أن تتشبث به لتقول: «آه.. كم أنا سعيدة! كم أنا مسرورة! أنا سعيدة بكل ما تعنيه الكلمة بأن أعود إلى وطني! فأخيرًا، وبعد انتظارٍ طال، ها أنني عائدة لأبقى في وطني!». ولكن ليس ثمة حتى من يبتسم. حيطان المطار تلاشت مستحيلة إلى منظر في غاية الغرابة، تزينها صور عملاقة لآية الله وهو يحدّق إلى الأسفل بعينين لائمتين. وتعكس الصور أمزجتها في شعارات باللونين الأسود والأحمر الدموي: «الموت لأميركا»، «تسقط الامبريالية والصهيونية»، «أميركا عدونا الأول».

وإذ لم تكن تلك المرأة قد تأكّدتْ حتى الآن بأن الوطن الذي غادرتْهُ منذ سبعة عشر عامًا، في سن الثالثة عشرة، لم يعد هو الوطن، فهي تقفُ بمفردها وهي ملأى بمشاعر مضطربة تتقلّب ذات اليمين وذات الشمال، مشاعر على أهبة الانفجار لأدنى سبب.

إني أحاول ألا أراها، ألا أواجهها، أحاولُ أن أمر بها من دون أن ألتفتَ إليها، مع هذا أجد نفسي عاجزة تمامًا عن تجنّبها.

طالما استنفر هذا المطار، مطار طهران، كل ما هو سيّئ في داخلي. حينما غادرته للمرة الأولى، كان مكانًا جميلًا سحريًا. كان به مطعم رائع تقام به الحفلات في أماسي الجمع، ومقهى بشبابيك فرنسية واسعة تطلّ على شرفة كبيرة. حين كنا صغارًا، كنا نقفُ أنا وأخي ملتصقين بتلك الشبابيك، نأكل الآيس كريم ونحن نحسب عدد الطائرات. وفي كل مرة كنا نصل بها المطار من سفر، يكون ثمة لحظة احتفالية عجيبة حينما يعلن حقلٌ من الأنوار فجأة عن وصولنا، ويعلنُ بأن طهران كانت تتمدد هناك في الأسفل بانتظارنا. لقد قضيتُ سبعة عشر عامًا وأنا أحلم بتلك الأنوار، كانت بمنتهى الجاذبيّة والإغراء، وكم حلمتُ أن تغمرني وألا أغادرها إلى الأبد.

وها قد تحقّق حلمي، كنت في وطني أخيرًا، ولكن لا أدري ما بال مزاج المطار لم يكن يهلل لقدومي؟ كنت كئيبة وعدوانية بعض الشيء، مثلي مثل صور «آية الله الخميني» وخليفته المكرّس «آية الله منتظري» التي كانت تغطي الجدران من دون أن تبتسم.

يبدو وكأن ساحرة شريرة بعصاها السحرية قد حلّقت فوق مبنى المطار، وبحركة واحدة من عصاها جعلتْ كل ما أتذكره من مطاعم ونساء وأطفال بملابس زاهية.. وكل شيء يتلاشى ويغيب. لقد تعمّق عندي هذا الشعور حينما لمحتُ ذلك القلق المشوب بالحذر في عيني أمي وأصدقائي الذين حضروا إلى المطار لاستقبالنا والترحيب بعودتنا إلى الوطن.

واذ كنّا نهمّ بمغادرة منطقة الجمارك، استوقفنا شاب كئيب طالبًا تفتيشي، فذكّرته بأننا فُتشنا للتو. فقال باختصار وفجاجة: ليس الحقائب الكبيرة. «ولكن لماذا؟ هذا بلدي!». هذا ما مر ببالي وأردتُ قوله، وكأن ذلك كان سيمنحني حصانة ضد الشك والإجراءات الأمنية. كان يريد ان يفتشني بحثًا عن المشروبات الكحولية، فأخذت إلى زاوية ما، وكان زوجي «بيجان» يراقبني بقلق، من دون أن يعلم ممن عليه أن يخاف أكثر: مني أنا، أم من الرجل

الكئيب. كان وجهه يرسمُ ابتسامة أصبحتْ فيما بعد أليفة جدًا بالنسبة لي: متواطئة، مستسلمة، وساخرة. سألني أحدهم لاحقًا: «هل تتجادلين مع كلب مجنون؟!». ربما كان هذا هو معنى نظرته!

في البدء أفرغوا محتويات حقيبة يدي: أحمر شفاهي، أقلام الحبر والرصاص، مذكراتي وحافظة النظارة. ثم انقضوا على حقيبة الظهر، ومنها انتزعوا شهادة الدبلوم، عقد زواجي، كتبي: «آدا» و«يهود بلا مال» و«غاتسبي العظيم».. التقطها الحارس باحتقار شديد وكأنه يحمل ملابس قذرة لا تخصه، لكنه لم يصادرها حينذاك. لقد صادروها مني في وقت لاحق.

[2]

طوال سنواتي الأولى في الخارج، حينما كنت في المدرسة في إنكلترا وسويسرا ولاحقًا حينما عشتُ في أميركا، كنت أحاول أن أشكل الأماكن المختلفة على ضوء مفهومي عن إيران. كنت أحاول أن أنظر إلى كل المناظر الطبيعية على أنها ايرانية، حتى أنني حوّلت أوراقي ذات فصل دراسي إلى كلية صغيرة في «نيومكسيكو» لا لشيء سوى لأنها كانت تذكرني بوطني:

«أترى يا فرانك؟
أترين يا نانسي..؟
هذا الجدول تحضنه الأشجارْ؟
يتهادى ليشق طريقهْ
للأرض الظمأى
للغدرانْ؟
تريان؟
يشبه ايرانْ
يشبه ايرانَ ويشبهني
يشبه وطني»..

كنت أقول لكل من يهمه أن يعرف، بأن ما أثر في نفسي أكثر من سواه في

طهران هو جبالها بمناخها القاسي المعطاء، أشجارها وزهورها التي تتبجس من تربتها العطشى لتنمو وتتفتح وكأنها تمتص الشعاع من شمسها.

حينما اعتقلوا والدي، عدتُ إلى وطني، وسمحوا لي بالبقاء عامًا واحدًا. كان إحساسي باللاأمان قد دفع بي إلى الزواج بشكل مرتجل قبل أن أتمّ الثامنة عشرة من عمري. فارتبطتُ برجل كانت أهم ميزاته هي أنه لم يكن يشبهنا. كان شديد الثقة بنفسه، وبدا أسلوبه في الحياة عمليًا وخاليًا من التعقيد، على العكس تمامًا من أسلوب حياتنا. ولم يكن يعرْ أي اهتمام للكتب: «مشكلتك أنت وأهلك أنكم تعيشون في الكتب أكثر مما تعيشون في الواقع!». كان غيورًا بشكل مجنون، كانت الغيرة جزءًا من الصورة التي يريدها لنفسه بصفته رجلاً مهيمنًا على مقدراته وممتلكاته. كان مهووسًا بالنجاح: «حينما سيكون لي مكتبي الخاص، سيكون كرسيٌّ أعلى من كراسي الضيوف، كي يحسّوا دائمًا بالمهابة من وجودي!». وكان يعشقُ «فرانك سيناترا».

ومنذ اللحظة الأولى التي قلت فيها «نعم»، كنت أعلم بأنني سأنطلق منه. لكن لم يكن ثمة حدّ لعنادي، كنت أمتلك حوافز لا حد لها لتدمير نفسي، واستعدادًا خالصًا للتضحية بحياتي بلا سبب.

وانتقلتُ للعيش معه في نورمان، أوكلاهوما، حيث كان يعدّ لنيل الماجستير في الهندسة في جامعة أوكلاهوما. ولم تكد تمرّ ستة أشهر حتى حسمتُ أمري، وقررتُ أن أنطلّقَ ما أن يطلقوا سراح أبي. لكن ذلك كان قد أخذ مني ثلاث سنوات أُخرى، إذ رفض أن يطلقني: «بثوب العرس الأبيض تدخل المرأة بيت زوجها، ولا تغادره الا بكفنٍ أبيض!».

كان يستخفّ بي، ويبخسني حقّ قدري. كان يريد زوجة في غاية الأناقة، تعتني بطلاء أظافرها، وتزور صالون التجميل كلّ أسبوع. فكنت أتحداه بفساتيني الطوال وبنطلونات الجينز البالية، وأترك شعري منسدلاً طويلاً، وأفترش العشب الأخضر في أرض الجامعة مع أصدقائي الأميركان، بينما يمرّ بنا أصدقاؤه ويرمقوننا بنظراتهم الخبيثة.

كان أبي يؤيدني تمامًا في موضوع الطلاق، وقد هدّد زوجي بمقاضاته برفع دعوى «النفقة»، وهو الحقّ الوحيد الذي تتمتعُ به المرأة تحت حكم الإسلام. وفي النهاية، انتزعتُ موافقة زوجي على الطلاق، بعد ان تنازلتُ عن النفقة، وعن مدخراتنا في المصرف، بالإضافة الى السيارة والسجاد.

وعاد إلى الوطن، بينما بقيتُ أنا في «نورمان»؛ الطالبة الأجنبية الوحيدة في قسم اللغة الإنكليزية. وقد نأيتُ بنفسي عن الاختلاط بأحدٍ من التجمعات الإيرانية، على الأخص الرجال منهم، بسبب ما يحملونه من أوهام قد توحي لهم بأن «شابة صغيرة مطلقة مثلي تكون غالبًا سهلة المنال».

هذه هي ذكرياتي عن «نورمان»؛ التربة الحمراء والبرَعات (الحشرات المضيئة)، والغناء والتظاهر عند المبنى البيضاوي لإدارة الجامعة، قراءة «ميلفيل» و«بو» و«لينين» و«ماو تسي تونغ». قراءة «أوفيد» و«شكسبير» في صباحات الربيع الدافئة مع أحد الأساتذة المقربين ذوي الميول السياسية المحافظة، ومرافقة أستاذٍ آخر بعد الظهر ونحن نردّد الأناشيد الثورية، ثم مشاهدة الأفلام الجديدة لـ«بيرغمان» و«فيلليني» و«غودار» و«بازوليني» في المساء. أتذكرُ تلك الأيام، فتتداخلُ الصور وتمتزج بالأصوات: تتماهى الصور الساكنة الحزينة لطلةِ «بيرغمان» مع الصوت الدافئ لـ«ديفيد»، أستاذي الراديكالي وهو يدندنُ على الغيتار:

وعاظٌ خطباءْ
بشعورٍ شعثاءْ
في كل مساءْ
يأتونْ
يعظونْ.. يعظونْ
يُهدونَ الغافلْ
ما الحقّ وما الباطلْ

لكنك إذ تسألُ أن تأكل شيًا
لن تسمع إلا ردًا عسليا
بُنيكَ ستأكلُ
يومًا ما
أحلى الأشياءْ
في بقعةِ مجدٍ غَناءْ
في العلياءْ
فاعملْ عملكْ..
وتضرّعْ.. صَلِّ..
عِشْ
فوق القشْ
وستأكلُ حلوى
في الملكوتْ
حين تموتْ
يعظونْ.. يعظونْ
كذّابونْ!

كنا نتظاهر أحيانًا في الصباحات، فنحتلُ مبنى الإدارة ونطلق الأغاني فوق العشب الأخضرِ المقابل لقسم اللغة الإنكليزية المسمى: المبنى البيضاوي الجنوبي، فنرى بعض المندفعين الطارئين وهم يركضون قاطعين المساحة الخضراء باتجاه مبنى المكتبة ذي الحجر الأحمر. كنتُ إذ أسير في التظاهرة أجد طلبة التدريبات العسكرية المكابدين يحاولون أن يتجاهلوا وجودنا هناك على النجيل، في أيام التظاهرات ضد حرب فيتنام. ولاحقًا، صار بإمكاني الانضمام بقلب صادق إلى أحزاب بعينها، أحزاب كان لها أن تعرّفني على «نابوكوف» الذي أهداني كتابه «آدا»، وكتب لي على الورقة البيضاء الأولى:

«الى آذر، «آدا» التي تخصني، تيد».

كانت عائلتي تنظر باستعلاء دائم نحو السياسة، مثل متمرّد حرون متنازل. كانوا معتدين بأنفسهم، وبحقيقة كون آل نفيسي ظلوا معروفين بمآثرهم الأدبية والعلمية منذ ما يربو على ثمانمئة عام، «أربعة عشر جيلًا» كما تحبّ أمي أن تذكّرنا دائمًا باعتزاز. فكان الناس يطلقون على رجال آل نفيسي الحكماء ورجال المعرفة، أما نساؤهم فقد التحقنَ بالجامعات وعملن بالتدريس في زمن لم تجرؤ فيه إلا قلة من النساء على مغادرة البيوت. وحينما تقلّد والدي منصب محافظ طهران، ساد في العائلة شعور بالقلق وعدم الاستقرار عوضًا عن الفرح والاحتفال. ورفض أعمامي الأصغر، الذين كانوا طلبة في الجامعة آنذاك، أن يعترفوا بأن أبي هو أخوهم. ولاحقًا، حينما أحس والدي بأنه لم يعد مرغوبًا به لدى الحكومة، نجحت العائلة في أن تجعلنا نحسّ بفخرٍ أكبر لأنه أعتقل، وهو ما لم نفعله مطلقًا حينما كان بعدُ في منصبه.

انضممتُ إلى حركة الطلبة الإيرانيين على مضض. كان لاعتقال والدي والتعاطف الوطني الغامض لدى عائلتي أن جعلاني شديدة الحساسية تجاه السياسة. فكنت أقرب إلى متمردة من كوني ناشطة سياسية، على الرغم من أنه في ذلك الزمن لم يكن ثمة فارق كبير بين الحالتين. وكان من بين الأسباب التي شدّتني للانضمام لهم؛ هي أن لا أحد من رجال الحركة كان قد حاول يومًا مضايقتي أو التحرّش بي. وبدلاً عن ذلك، كانوا يقيمون لنا حلقاتٍ دراسية قرأنا وناقشنا فيها بعضًا من كتب «إنجلز»: «أصل العائلة» و«الملكية الخاصة والدولة»، وبعضًا من كتب «ماركس»: «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت». كانت الأجواء السياسية العامة في السبعينات تميل إلى الثورية ليس في أوساط الطلبة الإيرانيين فحسب، وإنما في أوساط الطلبة الأميركان والأوروبيين أيضًا. ومثال ذلك كوبا، والصين طبعًا. فكان الميل إلى الثورية والأجواء الرومانسية منتشرًا بشكل يشبه العدوى. وكان الطلبة الإيرانيون في

مقدمة الصراع، فكانوا ناشطين، بل وحتى صداميين، وقد سجنوا ذات يوم لأنهم احتلوا القنصلية الإيرانية في سان فرانسيسكو.

كانت حركة الطلبة الإيرانيين في أوكلاهوما واحدة من تنظيمات «الاتحاد العالمي للطلبة الإيرانيين»، الذي كان يضم أعضاء وفروعًا انتشرت في معظم المدن الكبيرة في أوروبا والولايات المتحدة. وكان فرع أوكلاهوما مسؤولاً عن تعريف الجامعة بمجموعة «الطلبة المناضلين» التابعة للحزب الشيوعي الثوري، ومسؤولاً عن تشكيل «لجنة العالم الثالث لمناهضة الإمبريالية» التي ضمتْ طلبة راديكاليين من جنسيات مختلفة. كان «الاتحاد العالمي للطلبة الإيرانيين» يتبع مبدأ الديمقراطية المركزية لـ«لينين»، وبذا كان يحكم على أعضائه بقبضة من حديد.

وكلما مرّ بنا الوقت، كان الطلبة الماركسيون والمناضلون يحكمون سيطرتهم على المجموعة، فراحوا بذلك يعزلون أو يحجّمون أو يحلّون محل الطلبة ذوي الميول الوطنية الأكثر اعتدالاً.

وكان أعضاء المجموعة من الرجال يرتدون ستر «غيفارا» الرياضية وأحذيته برضا وولاء كاملين. أما النساء فكن يبترن شعورهن أو يخترنَ قصات ولّادية قصيرة. وكنّ يرتدين الكاكي وسترات «ماو»، ونادرًا ما يستخدمن مساحيق التجميل.

ثم دخلَتْ حياتي في مرحلة من الشيزوفرينيا، كنت أحاول إزاءها التوفيق ما بين طموحاتي الثورية وبين أسلوب الحياة الذي كنت أراه أمتع بالنسبة لي. ولم يحدث مطلقًا أن أندمجَ في الحركة بشكل كامل. فكنت في الاجتماعات الطويلة الصدامية التي تجري بين الأطراف المتنازعة، غالبًا ما أترك القاعة تحت أكثر من ذريعة، وكنت أحيانًا أحبس نفسي في المرافق الصحية تهرّبًا. وبعيدًا عن الاجتماعات، كنت مصرّة على ارتداء أثواب طويلة، ورفضتُ أن أقص شعري قصيرًا. ولم أقلع يومًا عن عادة قراءة وعشق الكتّاب غير الثوريين من أمثال:

«ت. س. إليوت» و«أوستن» و«بلاث» و«نابوكوف» و«فيتزجيرالد». بيد أني كنت أخطب بين الحشود بحماسة كبيرة، وكنت أعجن الكلمات لتتحوّل إلى أصواتٍ تنادي بالثورة، مستلهمةً حروفي من بين سطور الروايات والقصائد التي كنت مولعة بقراءتها.

كنتُ أعبّر عن حنيني الجارف للوطن بالخُطب الحماسية اللاذعة ضد الطغاة العائدين إلى وطني ومن ورائهم حلفاؤهم الاميركان. وعلى الرغم من أنني كنت أشعر بالغربة داخل الحركة التي لم تكن بيتًا لي مطلقًا، إلا أنني مع هذا وجدتُ لنفسي فيها إطارًا أيديولوجيًا استطعتُ من خلاله أن أبرر حماستي الطائشة التي لم تكن تقف عند حد.

وكانت أواخر عام ١٩٧٧ لا تُنسى بالنسبة لي لسببين: زواجي في أيلول/ سبتمبر، والزيارة الرسمية الأخيرة والأكثر دراماتيكية لشاه إيران إلى الولايات المتحدة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. قبل عامين من ذلك التاريخ، كنت قد إلتقيت بـ «بيجان نادري» في أحد الاجتماعات في بيركلي. كان قائدًا للمجموعة التي كنتُ متحمسة لها أكثر من سواها. ووقعت في غرامه لأسباب كلها بدتْ خاطئة: فلم أعشقه بسبب نبوغه الثوري مثلاً، وإنما لأنه كان يمتلك إحساسًا بالاعتداد بنفسه وبمعتقده إلى الحد الذي جعله يتفوق حتى على هستيريا الحركة. وكان يتصرف بإخلاص وحماسة إزاء كل ما يمكن أن يلقى على عاتقه: أسرته، أو عمله، أو الحركة. بيد أن ذلك لم يعمِ عينيه عما قد تؤول إليه الحركة، فاعجبتُ به لهذا السبب بقدر اعجابي به لاحقًا حينما رفض الانصياع لأوامر الثورة.

وعبر التظاهرات الكثيرة التي شاركتُ فيها، وأنا أهتف بشعارات تندّد بالتدخل الأميركي في إيران، وعبر الاجتماعات الاحتجاجية التي كنا نصل الليل فيها بالنهار ونحن نتجادل معتقدين بأننا نتحدث عن إيران ونحن في الواقع مهتمين أكثر بما حدث في الصين!.. عبر ذلك كله، وبسببه، كانت

صورة الوطن قد بدتْ لي أكبر من حجمها بكثير. لقد كان وطني أنا.. وكان بأمكاني أن أستحضره دائمًا، وأن أرسم علاقتي بكل العالم عبر صورته الضبابية تلك.

لقد كان ثمة تناقضات جوهرية في فكرتي عن «الوطن». كان ثمة إيران حميمة مألوفة كنت أشعر إزاءها بالحنين الجارف؛ فكانت موطن أهلي وأصدقائي وليالي الصيف على شاطئ بحر قزوين. وفيما يشبه الحقيقة، بدتْ لي إيران الأُخرى: تلك التي خلقناها نحن، والتي كنا نتحدث عنها اجتماعًا بعد آخر، ونحن نختلف معًا ونتشاجر بشأن ما يريده جماهيرها هناك.

وإذ أصبحت الحركة أكثر تشددًا في السبعينات، بدأتْ الجماهير تطالبنا بشكل مباشر بألاّ نقدّم المشروبات الكحولية في احتفالاتنا، وبألاّ نعزف أو نرقص على الموسيقى الغربية «المنحلّة»، فسمحوا لنا بالموسيقى والأغاني الثورية والشعبية فقط. وراحوا يطالبون البنات أن يقصّوا شعورهنّ مثل الأولاد، أو أن يكتفين بضفيرة واحدة في الخلف. ثم راحوا يحضّوننا على الابتعاد عن العادات البرجوازية: مثل الدراسة!

[3]

لم يكن قد مضى شهر واحد منذ أن وطئنا مطار طهران حتى وجدتُ نفسي أقف في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة طهران. وحين وصلتُ القسم صادفتُ شابًا مجعّد الشعر ودود الملامح، يرتدي بدلة رصاصية، علمتُ لاحقًا أنه منتسب جديد، وكان مثلي عائداً لتوه من الولايات المتحدة وهو مفعم بأفكار جديدة مثيرة. ابتسمتْ لي السكرتيرة التي كان وجهها يشعّ بقدسية خاصة رغم جمالها البدين، ودلفتْ تجرجرُ أقدامها عبر باب ما إلى رئيس القسم. وعادت بعيد لحظات وهي تومئ لي بأن أدخل. وإذ هممتُ بالدخول، تعثّرتُ بحافة خشبية صغيرة على الأرض بين بابين، ففقدتُ توازني ولم أتمالك نفسي إلا قرب طاولة رئيس القسم.

رحّب بي الرجلُ بابتسامة من ذهول ودعاني للجلوس. كنت قد مررت بهذا المكتب قبل أسبوعين، والتقيتُ برئيس قسم آخر. كان رجلاً ودودًا طويل القامة، وكان قد سألني عن بعض الأقارب من الكتّاب والأكاديميين البارزين. كنت ممتنة له لأنه حاول ان يسهل عليّ الامور، ولكنني مع هذا شعرتُ بالقلق والارتباك، وخشيت ان أكون مضطرة أن أقضي بقية حياتي وأنا في تنافس مع بعض الأشباح من الأقارب البارزين.

أما هذا الرجل السيد «أ» فقد بدا مختلفًا. كانت ابتسامته ودودة ولكنها لم تكن حميمة، بل ربما كانت أقرب إلى الاستكشافية. وقد دعاني إلى حفلة في بيته في

ذلك المساء نفسه، ومع هذا بدت تصرفاته غير أليفة. تحدثنا عن الأدب، وليس عن الأقارب. وحاولتُ ان أشرح له السبب الذي جعلني أغيّر رأيي بشأن موضوعي لأطروحة الدكتوراه، فقلت له: «حسنًا.. أريد أن أعدّ دراسة مقارنة بين أدب العشرينات وأدب الثلاثينات، الكتّاب البروليتاريين وغير البروليتاريين، ووجدتُ أن النموذج الأمثل هو «فيتزجيرالد»، أعني فيما يتعلّق بأدب العشرينات، لكنني وجدت صعوبة بعد ذلك في اختيار المقارن معه، فهل لي أن أختار «شتاينبك» أم «فاريل» أم «دوس باسوس»؟ أنت لا تعتقد بأن أحدًا منهم سيكون موازيًا لـ«فيتزجيرالد»، أليس كذلك؟»

ـ «فعلاً.. من الناحية الأدبية على الأقل».

ـ «وهل تجد ثمة نواحي أُخرى؟» على كل حال، طالما أنني بصدد دراسة البروليتاريين الحقيقيين فإن أفضل من يمثل روحيتهم هو «مايك غولد».

ـ «من؟»

ـ «مايك غولد»! كان رئيسًا لتحرير المجلة الأدبية الشعبية الراديكالية «الجماهير الجديدة»، قد لا تصدق ذلك، لكنه كان نجمًا ساطعًا في زمانه، ويُعدّ أول من أرسى مفهوم الأدب البروليتاري في الولايات المتحدة، حتى أن كتابًا مثل «همنغواي» اعتبروه كاتبًا مرموقًا جديرًا بالاهتمام (وقد أطلق على «همنغواي»: «كاتب الياقات البيض»، وعلى «ثورنتون وايلدر»: «دعامة إميلي الثقافية»).

وفي النهاية، قررت ان أدع «فيتزجيرالد» جانبًا، كان يشدني الفضول لـ«غولد»، وفي البحث وراء أسباب انتشاره وشهرته، لأنه كان قد اشتهر فعلاً. وقد برز في الثلاثينات كتاب كثيرون مثل «فيتزجيرالد» مدفوعون بذلك النمط الجديد، وكنت أتوق لمعرفة السبب. بالإضافة الى كوني ثورية أنا الأُخرى، وكنت أود أن أفهم طبيعة الحماس الذي كان يحرّك كتابًا أمثال «مايك غولد».

ـ «تبحثين عن الحماس، وتتركين «فيتزجيرالد» لتتشبثي بذلك الآخر؟». كان نقاشنا ممتعًا، وقد قبلتُ دعوته بالفعل إلى حفلته ذلك المساء.

أما الرجل الثاني، رئيس القسم الودود الطويل القامة الذي كنت قد التقيته في زيارتي الأولى، فقد أخبروني بأنه قد سجن. ولا أحد يعلم متى سيطلقون سراحه أو ما إذا كان سيُطلق سراحه أصلاً، وكان الكثير من الأساتذة في ذلك الحين قد طُردوا، وثمة آخرون سيلحقون بذلك الركب قريبًا. هكذا كان الحال في الأيام الأولى للثورة. في تلك الأيام تحديدًا بدأت عملي في التدريس، بسذاجة وبمشاعر لم تكن لتتناسب مطلقًا مع ملابسات الظرف العام، وكنت أصغر وأحدث عضواً في الهيئة التدريسية في قسم اللغة الإنكليزية، في كلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية في جامعة طهران. ولو كان لي أن أحصل على وظيفة مماثلة في جامعة أوكسفورد أو هارفرد، لما شعرت بأعشار الفخر أو القلق الذي شعرتُ به وأنا في جامعة طهران.

كانت النظرة التي علَتْ وجه الدكتور «أ» حينما تعثّرت عند بابه، نظرة ستبقى تباركني طوال السنين التي عملتُ بها في طهران، وكانت أيضًا قد علَتْ وجوه أشخاص آخرين يختلفون عنه جدًا. كانت نظرة متفاجئة يشوبها الحنان والتسامح، فبدتْ وكأنها تقول لي: يا لك من طفلة مضحكة! طفلة تحتاج إلى الإرشاد وإلى أن توضع في مكانها الصحيح أحيانًا. ولكنني بدأتُ ألمحُ نظرة جديدة تبزغ أمامي لاحقًا؛ وهذه المرة نظرة من خيبة أمل، وكأنني خنتُ العهد ولم أعد أتصرّف كما اتفقنا سابقًا، أو لكأنني خرجتُ عن حدود السيطرة وأصبحتُ طفلة عنيدة صعبة المراس.

[4]

تدور كل ذكريات السنوات الأولى لعودتي في فلك جامعة طهران. فقد كانت الجامعة هي المحور الثابت الذي تدور حوله كل النشاطات السياسية والاجتماعية. وحين كنا في الولايات المتحدة، وقرأنا أو سمعنا عن الاضطرابات في إيران، بدتْ لنا جامعة طهران وكأنها المسرح الذي تدور على خشبته كل المعارك. فكانت كل الأطراف تستغلّ الجامعة لتكون منبرًا لتصريحاتها.

وهكذا، لم يكن مفاجئًا أن تقيم الحكومة الإسلامية الجديدة صلاة الجمعة على أرض الجامعة. وقد جنت من وراء ذلك فائدة مضاعفة؛ ففي كل الأزمنة وحتى ما بعد الثورة، لم يكن الطلبة الإسلاميون، خصوصًا أولئك الأكثر تشدّدًا، ليتجاوزوا كونهم أقلية تنزوي في الظل من الحركات اليسارية والعلمانية للطلبة. فبدا وكأن صلاة الجمعة قد جعلت الطلبة الإسلاميين يضمنون انتصارهم على كل التجمعات السياسية الأخرى. ومثل جيش منتصر قرر احتلال أعزّ بقعةٍ في أرض العدو: تموضعوا في الجامعة، في عرين الأسد. وراح في كل جمعةٍ يعتلي المنصة أحد رجال الدين البارزين مخاطبًا أولئك الآلاف الذين احتلوا أرض الجامعة، وقد انقسموا إلى نصفين؛ رجال من جانب ونساء من الجانب الآخر. وكان من الممكن أن نرى رجل الدين البارز على المنبر وفي يده مسدس وهو يلقي خطبة الاسبوع واعظًا ومناقشًا

القضايا المهمة على الساحة السياسية. ومع كل ذلك، فقد بدا وكأن أراضي الجامعة نفسها قد أعلنت العصيان على ذلك الإحتلال.

كنت أحسّ في تلك الأيام كما لو أن فريقين سياسيين مختلفين يخوضان نزالاً للمصارعة، وبأن حلبة الصراع كان أساسها أرض الجامعة. لم أكن أعلم حينئذ أنني سألج في حلبة الصراع، وسيكون لي حربٌ عليّ أن أخوضها أنا أيضًا. وإذ أتذكر ذلك الماضي الآن، أجد نفسي سعيدة لأنني لم أكن أعي حقيقة حساسيتي وقابليتي على الانكسار من الداخل. فكنت أبدو وأنا أتأبط مجموعتي الصغيرة من الكتب، وكأنني عميل سريّ لبلاد لا وجود لها، وقد عدتُ للتو بمخزونٍ من الأحلام يجعلني أزعم مرة أخرى بأن هذه الأرض هي وطني. ففي خضم الحديث عن الخيانة العظمى والتغيرات في الحكومة، وكل تلك التفاصيل التي أصبحت الآن ملتبسة ومشوّشة في ذاكرتي، كنت أنا كلما وجدتُ فرصة سانحة أجلس ناثرةً كتبي وأوراقي حولي، وأحاول تنظيم خطتي التدريسية.

ساهمتُ في ذلك الفصل الدراسي الأول، بحلقة دراسية موسّعة جدًا، أطلقنا عليها اسم «البحث»، ركزنا فيها على «مغامرات هوكليبَري فِن»، بالإضافة إلى استعراض لأدب الرواية في القرن العشرين. وقد حاولت، سياسيًا، أن أكون موضوعية إلى حدّ ما في انتقائي للكتب المنهجية. فكنت أدرّس «غاتسبي العظيم» و«وداعًا للسلاح» جنبًا إلى جنب مع أعمال «مكسيم غوركي» و«مايك غولد». كنت أقضي معظم أيامي وأنا أدور في محلات بيع الكتب التي كان يغصّ بها الشارع المقابل للجامعة. كان هذا الشارع، الذي كان قد تغيّر اسمه حينئذٍ الى شارع الثورة، مركزًا لأهم دور النشر والمكتبات في طهران. وكم كان ممتعًا أن أدور من مكتبة لأخرى، لأقع مصادفة على بائع أو زبون يرشدني إلى كنزٍ طالما بحثتُ عنه، أو يجعلني أجفل وهو يعرّفني على كاتب إنكليزي مغمور يدعى «هنري غرين».

في خضم انشغالي المحموم بالإعداد لمحاضراتي، كنت أستدعى إلى الجامعة لأسباب لا علاقة لها بالتدريس والكتب. ففي كل أسبوع تقريبًا، وأحيانا في كل يوم، كانت ثمة تظاهرات واجتماعات، وكانوا يجرّوننا إليها جرًا مثل المغناطيس، بغض النظر عن رغبتنا أو عدمها.

لا أدري لماذا، ثمة ذكرى ما زالت تطنّ في أذني بإلحاح دون سواها، وما زالت تعذّبني دون هوادة. كانت قهوتي في إحدى يديّ، وفي الأخرى قلم الحبر ودفتر الملاحظات. وكنت أتهيأ للجلوس في الشرفة لأشتغل على خطتي المنهجية للعام الدراسي، حينما رنّ جرس الهاتف. فجاءني صوت لاهثٌ مقلق لإحدى الصديقات، تسألني ما إذا كنت قد سمعت بالخبر: إن آية الله الطالقاني، أحد أبرز شخصيات الثورة المثيرة للجدل، وهو رجل دين ذو شعبية عالية، قد توفي. لم يكن كبيرًا في السن، وكان متشددًا، وثمة إشاعات انتشرت بسرعة تفيد بأنه قد اغتيل. وقالت إنهم أعدوا موكب عزاء كبير سينطلق من جامعة طهران.

لم أعد أذكر الوقت بدقة، لكنني أظن بأننا بعد نحو ساعة من تلك المكالمة، كنا أنا و«بيجان» عند مدخل الجامعة. قبل أن نصل كان ثمة ازدحام مروري، مما حدا بنا إلى الترجل من سيارة الأجرة عند مقتربات الجامعة، ورحنا نمشي أنا وهو باتجاه البوابة. وبعد برهة، أحسسنا لسبب ما بقوة خفية راحت تدفع خطونا المتهادي، فتسارع متحوّلاً إلى هرولة. كانت ثمة أفواج هائلة من المعزين قد احتشدت قاطعة الطرق المؤدية إلى الجامعة. وقد تسرّبت بعض الأنباء عن صراع جرى بين أفراد من المجاهدين، وهم تنظيم ديني متشدد يزعم بأنه الوريث الروحي والسياسي للطالقاني، وبين أعضاء ما يسمّى تجاوزًا «حزب الله» الذي تمثله جماعة من المتعصبين المتحمّسين المؤمنين بأنهم المسؤولون عن تنفيذ أحكام الله على الأرض. وقد حسم القتال لصالح أحد الفريقين الذي فاز بنيل شرف أن يحمل نعش الفقيد. كانت الحشود تنوح

وتندب، وكثيرون كانوا يلطمون صدورهم ورؤوسهم وهم يهتفون: «اليوم يوم للنواح.. الطالقاني راح راح»..، «اليوم يوم للعزاء.. والطالقاني في السماء».. بقينا طوال عقدين كاملين بعد ذلك الحادث نسمع هذا الهتاف بعينه يتردّد إثر رحيل الكثيرين بعد الطالقاني، فلكأنه صار رمزًا لوثيقة التكافل التي أبرمها صنّاع الثورة مع الموت.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أخوض فيها تجربة من هذا النوع؛ لأجرّبَ متعة الاندماج التام في هذا الطقس من العزاء الشعبي العلني. كان هذا هو المكان الوحيد الذي يختلط فيه البشر فتتلامس الأجساد وتتماهى العواطف دون كبتٍ أو تحفّظ أو شعور بالذنب. أحسستُ أن في الأجواء شعورًا جماعيًّا عارمًا ينضحُ بالفطرية الجسدية. حتى أنني حينما قرأت لاحقًا شعارًا للخميني يقول بأن الجمهورية الإسلامية باقية ما دامتْ هنالك مواكب عزاء دينية، قلتُ بأنني أشهد أن هذه هي الحقيقة.

التقيت بالكثيرين في ذلك اليوم، كان الناس يظهرون ويختفون مثل شخصيات كارتونية. فهل التقيتُ بـ«فريدة» هناك فعلاً؟ كانت «فريدة» تنتمي الى مجموعة يسارية في غاية التشدد، وكان أخي، الذي يعرف بعضًا من رفاقها، عرفني عليها على أنها ستساعدني في تسوية أموري في الجامعة. لمحتها ربما لثانية أو بضع ثانية، كانت مشغولة كعادتها، وعلى شفا الهجوم على أحد ما أو شيء ما. رأيتها وأضعت أثرها في اللحظة نفسها.

كنت أقف وسط دوامة أصارع فيها بحثًا عن وجه أعرفه. فوسط تظاهرات حاشدة كهذه، أجدني دائمًا أفقد أثر من جئتُ معه. وكنت في تلك الساعة قد فقدتُ أثر زوجي، وبقيتُ مدة من الزمن أبحث عنه. كانت الحشود تندفع صوبي، وبدت الأصوات وكأنها تنبعثُ مردّدةً صدى بعضها البعض عبر مكبرات صوت كثيرة متداخلة. وتراءت صور «الطالقاني» الكبيرة وكأنها تتبرعم وتتكاثر لتغطي كل شيء؛ الجدران، أبواب وشبابيك المكتبات،

وحتى الأشجار. وبدا الشارع العريض المقابل للجامعة وكأنه يتقلص وينبسط متناغمًا مع إيقاع حركتنا. فبقيتُ مدة من الزمن أنا الأُخرى أندفعُ بلا وعيٍ مني متمايلة على إيقاع الأفواج. حتى وجدتُ نفسي فجأة وأنا أضرب بقبضتي جذع شجرة وأجهش ببكاءٍ مرير، وكأن الشخص الأقرب إلى روحي قد فارق الحياة وتركني وحيدة في هذا العالم الفسيح!

[5]

قبل بداية الفصل الدراسي الجديد، في أيلول من عام ١٩٧٩، كنت أقضي معظم وقتي في البحثِ عن كتبٍ تفيد خطتي في المنهج. وذات يوم، إذ كنت في إحدى المكتبات أقلّب نسخًا من «غاتسبي العظيم» و«وداعًا للسلاح»، اقترب مني صاحب المكتبة وقال وهو يومئ برأسه بحزن: «إذا كنت مهتمة بهذه الكتب فخذيها الآن». نظرت اليه بتعاطف، وقلت بثقة: «الطلب كثير عليها.. ولن يكون بوسعهم أن يقفوا دون رغبة الناس، ألا ترى ذلك؟».

بيد أن الرجل كان على حق، ففي غضون بضعة أشهر فقط، أصبح من الصعب جدًا العثور على كتب «فيتزجيرالد» أو «همينغواي» في أي مكان. وإذ لم تستطع الحكومة سحب كل الكتب من السوق، فإنهم أخذوا بالتدريج، يغلقون بعض أهم المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية، ثم أوقفوا توزيع تلك الكتب في إيران كلها.

كنت متوترة جدًا في الليلة التي سبقتْ محاضرتي الأولى، تمامًا مثل طفلة في أول يوم في المدرسة. وفي الصباح، اخترت ملابسي بعناية فائقة، ولم اتردد في الذهاب مرة أخرى إلى المحل المتواضع الذي أشتري منه كتبي. فقد كنت أبقيتُ الكثير من كتبي في الولايات المتحدة عند أخت زوجي (تركتُها مع مرآة قديمة أنتيكة، كانت هدية من أبي)، ظنًا مني أنني سأتمكن من استعادتها في وقت قريب، فلم أكن أعلم أنني لن أعود إلى هناك حتى أحد عشر عامًا

قادمًا، وهي مدة كانت كافية لتجعل أخت زوجي في حلّ من الاحتفاظ بمعظم كتبي.

في ذلك اليوم الأول لي، ذهبت إلى الجامعة متسلحة بمصدر ثقتي: «غاتسبي». كانت تبدو على الكتاب أمارات الإرهاق والقِدَم. فكلما كان الكتاب أقرب الى قلبي، كلما صار عرضة أكثر لأن يهترئ ويتعب. كان كتاب «هوكليبَري فِن» ما زال متوفرًا في المكتبات. ومع هذا اشتريتُ نسخة منه كإجراء وقائي، وكذلك التقطتُ كتاب «آدا»، رغم أنه لم يكن ضمن خطتي المنهجية، لكنني رميته في حقيبتي وكأنه دثار احتياطي!

كانت الجامعة قد بُنِيَتْ في عهد «رضا» شاه في الثلاثينات، وتحتوي المباني الرئيسة منها على أعمدة سميكة تدعم سقوفها العالية. وغالبًا ما تكون باردة بعض الشيء في الشتاء، ورطبة جدًا في الصيف. وقد صرفت عليها مبالغ طائلة جعلتها تبدو وكأنها في غاية الضخامة، ولكنها في الواقع ليست كذلك. وأيضًا ثمة شعور ينتاب المرء إزاء تلك المباني الثلاثينية الغالية، فهي تبدو وكأنها مبنية للحشود، لأنك لا يمكن أن تشعر إزاها بأنك في بيتك.

في طريقي إلى قسم اللغة الإنكليزية، وقَعَتْ عيناي وأنا شاردة الذهن على مجموعة من المنصّات المختلفة كانت موضوعة في الصالة الكبرى أسفل الدرج الواسع الكبير. كان هناك ما يزيدُ على عشر مناضد طويلة تزخر بالكتب الأدبية التابعة لمجموعات ثورية مختلفة. كان الطلبة يقفون بشكل مجموعات صغيرة وهم يتحاورون وأحيانًا يشتبكون ويتشاجرون فيما بينهم. كان كلٌّ منهم يملك دفاعاته الجاهزة عن معتقده ليشهرها في اللحظة بوجه العدو. وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة عدو واضح، إلا أنه كان ثمة إحساس بالخطر والتهديد يتمشى في أرجاء الصالة.

كانت تلك أيام حرجة وعصيبة في تاريخ إيران. فهنالك حرب على كل المستويات تدور رحاها حول شكل الدستور وجوهر الحكومة الجديدة. وكان

معظم الناس، ومن بينهم رجال دين مهمون، يؤيّدون وضع دستور علماني للبلاد. كانت الأحزاب المعارضة القوية، العلمانية منها والدينية، تهيّأ للتظاهر احتجاجًا على الميول الاستبدادية التي بدأت تظهر على الطبقة الحاكمة. كان الأقوى بين الاحزاب المعارضة هما «الحزب الإسلامي الشعبي الجمهوري» الذي يقوده آية الله «شريعتمداري»، و«الجبهة الديمقراطية الوطنية» ومجملُ أعضائها من التقدميين العلمانيين. وكانا يقفان في مقدمة الصراع للحفاظ على الحقوق الديمقراطية التي تتضمن حقوق المرأة، وحرية الصحافة. كانا قد نالا شعبية واسعة آنذاك، وفي الذكرى الثانية عشرة لرحيل الزعيم الوطني الأسبق «مصدق»، استطاعا اجتذاب ما يقارب المليون شخص إلى قرية «أحمد آباد» حيث دفن «مصدق». وتم شنّ حملة واسعة شعواء للمطالبة بانشاء «مجلس تأسيسي».

لقد أدى إغلاق صحيفة «آيندیغان»، التقدمية الأوسع انتشارًا في إيران، إلى اندلاع سلسلة واسعة من التظاهرات العنيفة. وكان يتصدى للمتظاهرين، بدعم من الحكومة، أعضاء في لجان للاقتصاص الفوري. فأصبح من المعتاد في تلك الأيام رؤية أولئك «البلطجية» وهم يقودون دراجاتهم النارية حاملين الأعلام السود والشعارات، يتقدمهم أحيانًا رجل دين في سيارة نوع «مرسيدس بنز» المضادة للرصاص. وعلى رغم كل أمارات الشؤم تلك، كان أعضاء «حزب تودة الاشتراكي» و«تنظيم الفدائيين الماركسيين» يدعمون الرجعيين المتشددين ضد ما كانوا هم أنفسهم يصفونهم بالليبراليين، ولم يكفّوا عن الضغط على «البازركان»، رئيس الوزراء الذي كانوا يتهمونه بالتعاطف مع أميركا.

فما كان من الحكومة إلا أن ترد على المعارضة: بعنف وحشيّ وبقسوة. وجاء خطاب الخميني مدوّيًا: «لقد صبر عليكم المتدينون والمعممون ومنحوكم الفرصة، فبعد قيام أي ثورة، يكون مصير بضعة آلاف من الأفراد الفاسدين هو الإعدام علنًا ثم الحرق، وينتهي الأمر، فأي ثورة هذه التي تسمح

للفاسدين أن يصدروا صحفًا؟». وواصل حديثه مشيرًا إلى ثورة أكتوبر وإلى كون الحكومة ما زالت تحكم سيطرتها على الصحافة: «سوف نغلق كل الأحزاب ما خلا حزبٍ أو بضعة أحزاب يمكننا أن نطمئن إلى أنها ستتصرف بشكل مناسب. لقد أخطأنا جميعًا، اعتقدنا بأننا كنا نتعامل مع بشر، وقد ثبت غير ذلك، فها أننا نكتشف أننا نتعامل مع حيوانات مفترسة. وسيكون علينا من الآن فصاعدًا ألا نتسامح أكثر»...

إنه لمن دواعي دهشتي الآن وأنا أستعيد تفاصيل تلك السنوات، أن أكتشف كم كنت غاية في التركيز في عملي! فقد كنتُ حريصة قلقة على استقبال صفي لي، تمامًا مثل قلقي بشأن الاضطرابات السياسية.

كانت محاضرتي الأولى في غرفة طويلة ذات شبابيك من جانب واحد. وكان الصف مكتمل العدد حينما خطوت داخله، وما إن جلستُ خلف المنضدة المخصصة حتى زال عني التوتر. وقد لاحظتُ بأن الطلبة كانوا هادئين بشكل غير اعتيادي.

كانت يداي تنوءان بحمل كتب أصلية ومصورة كثيرة جلبتها من أجل الدرس؛ وكانت عبارة عن تشكيلة انتقائية من أعمال كتّاب ثوريين تُرجمت أعمالهم إلى الإيرانية، وأعمال كتّاب الصفوة أمثال «فيتزجيرالد» و«فوكنر» و«وولف».

مرّت الحصة الأولى بسلام، وفي الحصص التالية أصبح الأمر أسهل. كنت متحمسة وساذجة ومثالية، وكنت واقعة في الغرام مع كتبي. كان لدى الطلبة فضول بشأني انا والدكتور «ك»، ذلك الشاب مجعد الشعر الذي التقيته مصادفة في مكتب الدكتور «أ». فكلانا كان عضوًا جديدًا غريبًا في آن واحد، في وقت كان الطلبة يبذلون قصارى جهدهم لطرد أساتذتهم لأنهم كانوا جميعًا «غير ثوريين». كان هذا مصطلحًا قابلًا للإطلاق على أي تصرف في ذلك الوقت: بغض النظر عما إذا كان الموصوف به يعمل مع النظام السابق، أو أنه كان يستخدم لغة فاحشة داخل الصف.

في ذلك اليوم الأول، سألت طلبتي: «ما الذي يمكن أن تحققه الرواية باعتقادكم؟ ولماذا على المرء أن يتعب نفسه بقراءة الروايات أصلاً؟». كانت تلك طريقة غريبة لبداية، ولكنني نجحتُ فعلاً في لفت انتباههم. وبيّنتُ لهم أننا في هذا الفصل الدراسي سندرس ونناقش الكثير من الكتّاب الذين يختلفون عن بعضهم البعض، لكن الصفة التي يشترك بها جميع هؤلاء الكتّاب هي صفة «الزعزعة» أو «التهديم». وقلت بأن بعض الكتّاب مثل «غوركي» و«غولد» هم هدّامون بشكل علني وواضح في أهدافهم السياسية. بينما ثمة آخرون مثل «فيتزجيرالد» و«تُوين»، هم أكثر «تهديمًا» من وجهة نظري، حتى وإن بدا ذلك أقل وضوحًا. وعدتهم بأننا سنعود لمناقشة هذا المصطلح لأن وجهة نظري كانت بطريقة ما تختلف عن التعريفات المعتادة الشائعة بشأنه. ثم كتبتُ على السبورة مقولة أثيرة للمفكر الألماني «ثيودور ادرنو»: «إن أعلى درجات الفضيلة هي ألا يشعر المرء أنه في بيته حينما يكون في بيته». وقلتُ بأن معظم الأعمال الخيالية العظيمة مغزاها أن تجعلك تحس بأنك مثل غريب وأنت في بيتك أو وطنك. والعمل الأدبي الأفضل هو ذلك الذي يدفعنا دائمًا إلى الشك والارتياب بشأن ثوابتنا، ويجعلنا نشكك في التقاليد والتوقعات والآمال حينما تبدو لنا وكأنها ثوابت لا تقبل الجدل. قلت لطلبتي إنني أتمنى عليهم في قراءتهم أن يتأملوا ويمعنوا النظر في الأسباب التي تجعل من عملٍ أدبيّ ما يهزّ استقرارهم ويحرّك القلق في داخلهم، ويحثّهم على إعادة تقييم العالم حولهم بعيونٍ أخرى مختلفة، تمامًا مثلما حدث مع «أليس في بلاد العجائب».

في ذلك الوقت كان يمكننا تمييز الجميع، الطلبة والأساتذة، وفقًا لانتماءاتهم السياسية. وكنت بالتدريج قد بدأت أطابق الأسماء والوجوه معًا، وتعلمتُ كيف أقرأها وأن أعرف من كان مع من وضد من، ومن ينتمي لهذه الجماعة أو تلك. ويبدو من المخيف فعلاً، أن أرى هذه الصور وهي تنبجسُ فجأةً من قلب الفراغ، مثلما تظهر وجوه الموتى وهي عائدة إلى الحياة لتنتهي من تنفيذ بعض المهمات غير المنجزة.

أستطيع ان أرى السيد «بحري» في الصف الأوسط وهو يلعب بقلمه الرصاص، مطرق الرأس منهمكًا بالكتابة؛ وأتساءل: أتراه يكتب كلماتي أنا؟ أم أنه فقط يتظاهر بذلك؟ أراه يرفع رأسه بين الحين والآخر، ويرمقني بنظرة وكأنه يحاول فكّ رموز لغز غامض، ثم يطرق رأسه ثانية ويعود ليواصل الكتابة.

في الصف الثاني، عند الشباك، يجلس رجل ما زلتُ أتذكر ملامح وجهه بدقة. أراه يجلس شابكًا ذراعيه على صدره، وهو يحاول أن يستمع بتحدٍ الى كل شيء، كلمة بكلمة، لا لأنه يريد ذلك أو لأنه يحتاج أن يتعلم، وإنما لحاجة في نفس يعقوب كان قد قرر بألاّ يفوته أي شيء من الدرس! سأطلق عليه اسم السيد «نيازي».

يجلس طلبتي الأكثر تطرفًا في الصفوف الأخيرة، تشعّ منهم ابتسامات ساخرة. أتذكر أحد الوجوه جيدًا: «مهتاب». كانت تجلس بانتباه، تنظر بتركيز إلى السبورة وهي واعية تمامًا لمن يجلس إلى يمينها وإلى يسارها. أراها الآن: سمراء البشرة، حزينة العينين، ذات وجه بسيط الملامح يتراءى وكأنه قد احتفظ بسمته الطفولية واستقال. كنتُ قد اكتشفت لاحقًا بأنها من «عبادان»، وهي مدينة نفطية تقع جنوب ايران.

وأيضًا، هنالك «زارين» طبعًا، وصديقتها «ويدا» اللتان خطفتا بصري منذ اليوم الأول لأنهما بدتا مختلفتين تمامًا، فأحسستُ بأنه ربما لا يحق لهما أن تكونا في هذا الصف الدراسي، ولا على أرض الجامعة بسبب ذلك الاختلاف. فلم تنطبق عليهما أي من التصنيفات التي كانت تميّزُ الطلبة بشكلٍ واضح في تلك الأيام. فمثلاً كان الذكور اليساريون يغطّون شفاههم العليا بشوارب كثة تميّزهم عن الإسلاميين الذين كانوا يتركون مسافة حافة موسى بين شفاههم العليا وشواربهم، أو يربون لحاهم حتى تطول، أو يطلقونها فقط لتنمو خفيفة نابتة. أما البنات اليساريات فقد كنّ يرتدين قمصانًا فضفاضة تتهدل على بنطلونات مهلهلة باللون الكاكي أو الأخضر الغامق، بينما ترتدي البنات

الإسلاميات إيشاريات رأس أو جادور. وما بين هذين النهرين الثابتين تندرج فئة ثالثة قوامها ما تبقّى من طلبة غير مسيّسين، وكانوا جميعًا يصنفون على أنهم «ملكيون» دون جدال. ولكن حتى الملكيين الحقيقيين لم يكونوا بتألّق «زارين» و«ويدا».

أرى «زارين» ببشرتها الغضة الصافية، وعينيها العسليتين الرائقتين وشعرها البني الفاتح الذي تعقصه خلف أذنيها، تجلس هي و«ويدا» في الصف الأول في أقصى اليمين قرب الباب، وهما تبتسمان.

منذ اليوم الأول، كان مظهرهما في داخل الهف في غاية الصفاء والروعة وكأنهما مرسومتان رسمًا. فتراءى لي كأن ثمة خطأ ما بوجودهما في هذا المكان. فحتى أنا التي كنت حينذاك قد تخلّيتُ عن مجمل أفكاري الثورية، دُهشت بهما!

بدتْ «ويدار» أكثر اتزانًا وأقرب إلى كونها طالبة جامعية تقليدية، ولكن وجود «زارين» معها كان ينبئ دائمًا باحتمال الزلل أو فقدان السيطرة. وبخلاف الكثير من الطلبة الآخرين، كانت «زارين» و«ويدا» غير مستعدتين للدفاع عن مواقفهما غير الثورية، ولم يبدُ بأنهما كانتا معنيتين بتقديم المبررات لأحد. كان طلبة تلك الايام غالبًا ما يتغيبون عن الدروس لأي عذر تافه، أو يتفقون على إلغاء المحاضرة. ففي كل يوم تقريبًا، كان هنالك جدالات جديدة وأحداث جديدة. وفي خضم ذلك كله كانت «زارين» وصديقتها تتعمدان حضور جميع المحاضرات، ليس بدافع الواجب، وهما مفعمتين بالنشاط والترتيب ولا تشوبهما شائبة.

أتذكر ذات يوم، حينما ألغى المحاضرة طلبتي الشيوعيون للتظاهر احتجاجًا على اغتيال ثلاثة من المناضلين الثورويين الذين تمت تصفيتهم حديثًا، فأدركتني «زارين» و«ويدا» وأنا أنزل الدرج. كنت قد أشرت في المحاضرة السابقة إلى أنهم قد يواجهون مشكلة في العثور على نسخ بعض الكتب التي

طلبتها منهم، فأرادتا أن تخبراني عن محل لبيع الكتب كان يمكن أن نجد فيه أكبر مخزون للكتب الإنكليزية في طهران، وقالتا بلهفة وحماسة بأنه ما زالت تتوافر لديه نسخ من «غاتسبي العظيم» و«هيرزوغ».

كانتا قد قرأتا «غاتسبي»، وسألتاني ما إذا كانت باقي أعمال «فيتزجيرالد» شبيهة بهذا الكتاب؟ وواصلنا الحديث عن «فيتزجيرالد» ونحن ننزل الدرج الواسع معًا، ومررنا عبر الطاولات المختلفة ببضاعتها السياسية المعروضة للبيع، وعبر الجموع التي بدأت تحتشدُ أمام جدار الصِفَتْ عليه بعض الصحف. وتمشّينا معًا على الإسفلت الحار، ثم جلسنا على إحدى المصاطب إذ كانت المواكب تمر بنا وهي تقطع الجامعة سيرًا. أحسست بأني صغيرة جدًا في السن، فقد كنا نتحدّث مثل أطفال يتقاسمون بتواطؤ بضع كرزات مسروقة. بقينا نحكي ونضحك، حتى ذهبتْ كل منا في طريقها، ولم نذهب أعمق من ذلك الاقتراب والحميمية منذ ذلك اليوم.

[6]

«لا يجب إخضاع المجرمين الى المحاكمة، فمحاكمة المجرم هي ضد حقوق الإنسان. لأن حقوق الإنسان تطالبنا بأن نكون قد قتلناهم أصلاً منذ اللحظة التي نعلم فيها بأنهم مجرمون».

كان هذا هو التصريح الذي أدلى به آية الله الخميني ردًا على احتجاجات المنظمة الدولية لحقوق الإنسان على حملة الإعدامات التي تلت قيام الثورة، وقال أيضًا: «إنهم ينتقدوننا لأننا نقوم بإعدام البهائم!».

إن أجواء البهجة واحتفالات النصر والتحرير التي تلت سقوط الشاه سرعان ما انقلبتْ لتفتح الباب أمام الإعتقالات والرعب حينما واصل النظام التصفيات وحملات الإعدام لـ«أعداء الثورة». وطفتْ على السطح عدالة المحاكمات الفورية التي تمثّلتْ بزمرٍ من البلطجية أو المقاتلين الذين نظموا أنفسهم على شكل ميلشيات أرهبت الشوارع.

الاسم: أوميد غريب

الجنس: ذكر

تاريخ الاعتقال: ٩ حزيران/ يونيو ١٩٨٠

مكان الاعتقال: طهران

مكان الاحتجاز: طهران، سجن قصر

التهم الموجهة: الغربنة، النشأة في أسرة مغربنة، البقاء

مدة طويلة جدًا في أوروبا للدراسة، تدخين سجائر
غربية، إظهار ميول ماركسية.

الحكم: السجن ثلاث سنوات؛ ثم الموت.

تفاصيل المحاكمة: تمت محاكمة المتهم محاكمة سرية. وكان قد ألقي القبض عليه بعد أن عثرت السلطات على رسالة كان قد بعث بها إلى صديق له في فرنسا. وقد حكم عليه بالسجن مدة ثلاث سنوات في عام ١٩٨٠.وفي الثاني من شباط/ فبراير١٩٨٢، وأثناء قضاء «أوميد غريب» مدة محكوميته، علم ذووه بأنه أعدم، أما الظروف التي أحاطت بواقعة الإعدام فهي غامضة وغير معلومة.

ملاحظات أخرى: تاريخ الاعدام ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢

مكان الإعدام: طهران

المصدر: تقرير منظمة العفو الدولية، تموز/ يوليو ١٩٨٢

العدد السابع ــ رقم٧

في تلك الأيام، أصبحنا جميعًا عابرين في شوارع مزدحمة من مدينة ميتروبوليتانية، وجوهنا غائرة عميقًا في ياقاتنا، وقد أثقلتها همومنا الخاصة. كنت أحسّ بمسافة تفصلني عن معظم طلبتي. في الولايات المتحدة، حينما كنا نهتف: «الموت لهذا» أو«الموت لذاك»، كان ذلك الموت يبدو أكثر رمزية، أكثر تجريدًا، وكأن استحالة تحقيق ذلك الموت هي التي كانت تدفعنا للتمسك بشعاراتنا أكثر فأكثر. أما في طهران ١٩٧٩، فقد كانت الشعارات تتحوّل إلى موت مرعب بالغ الاتقان. وكنت أشعر بالإحباط والعجز، فلم يعد ثمة مهرب من مواجهة واقع أسود حوّل كل الشعارات الى حقيقة.

في أواسط شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وكانت قد مرت أسابيع ثلاثة على

بدء السنة الدراسية، كنت قد بدأت أعتاد الإيقاع غير المنتظم لأيامي في الجامعة. فكان من النادر جدًا أن يمر يوم دون أن يقاطع روتينه موت أو اغتيال. كانت الاجتماعات والتظاهرات غالبًا ما تتخذ من الجامعة مسرحًا لها لسبب أو لآخر. وغالبًا ما كان ثمة مقاطعة أو إلغاء للدروس لأنه سبب أو حجة في كل أسبوع. فكانت الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أجعل لحياتي إيقاعها الثابت، هو بأن أواصل القراءة وبأن أجهد نفسي في ترتيب وضع محاضراتي غير المنتظمة، تلك المحاضرات التي كان من المدهش أنها وسط كل تلك الاضطرابات قد بدأت تتشكل بصورة طبيعية معقولة إلى حد ما، وكان يحضرها معظم الطلبة.

وذات يوم تشريني لطيف، كنت أحاول أن أشق طريقي عبر حشد كان قد تجمع أمام مبنى كليتنا متحلقًا حول أستاذة يسارية معروفة من قسم التاريخ. فوقفتُ مع الطلبة وقد دفعني الفضول واللهفة إلى الاستماع إليها. لم أعد أتذكر الكثير مما قالته، بيد أن جزءًا من الذاكرة التقطَ بعض الكلام وخبّأه في ركن ركين؛ كانت تقول للحشد المتجمهر حولها بأنها مستعدة لارتداء الحجاب من أجل عيون الاستقلال، وبأنها مستعدة لارتداء الحجاب لكي تحارب الأميركيين الإمبرياليين، ولكي تجعلهم يرون ذلك بأنفسهم..(تجعلهم يرون ماذا؟!).

تركتُ الحشد وشققتُ طريقي بعجالة إلى قاعة المؤتمرات في قسم اللغة الإنكليزية. كنت على موعد مع أحد الطلبة: السيد «بحري». كانت علاقتنا رسمية وقد اعتدتُ على مناداته والتفكير به باسمه الأخير، حتى إنني لم أعد أذكر اسمه الأول مطلقًا، على أية حال، هذا موضوع آخر. أما الموضوع الأهم بطريقة ما، فهو بشرته المضيئة وشعره المعتم، صمته الرهيب الذي يُرجِعُ صداه الكلام، وابتسامته التي بدتْ دائمًا مائلةً قليلاً، تلك الابتسامة التي لوّنتْ كل شيء كان يقوله، وأعطتْ انطباعًا بأن كل ما لم يقله ويخبئه بشكل واضح متجاوزًا من يستمع إليه، كان كفيلاً بأن يضعه في أعلى مقام.

كتب السيد «بحري» واحدة من أفضل البحوث التي قرأتها لطالب عن «مغامرات هوكليبَري فِن»، ومنذ ذلك اليوم، وطيلة مدة وجودي في جامعة «طهران، كان بطريقة او بأخرى يبدو دائمًا بجانبي أو حولي، في كل الاجتماعات الصاخبة. لقد أصبح ظلّي تمامًا، وهو يلقي بثقل صمته المائل قليلاً على روحي.

في ذلك اليوم أراد أن يقول بأنه معجب بطريقتي في التدريس، وبأن ـ «هم» راضون عني. واذ كنت قد اعتدتُ إعطاء الطلبة فروضًا كثيرة، كانت ردة فعلهم في بادئ الأمر هو التفكير بمقاطعة محاضراتي، ولكنهم لاحقًا وبعد تفكير، صوتوا ضد المقاطعة. وأراد أن يطلب مني، أو ربما أن يملي عليّ تعليمات بأن أضيف المزيد من المواد «الثورية»، وأن أضع المزيد من الكتاب الثوريين في المنهج. وجرنا الحوار إلى نقاشات مثيرة حول المعاني الضمنية لكلمات مثل «أدب» و«برجوازية» و«ثورية». وعلى حد ما أذكر، راح النقاش بيننا يتنامى متخذًا شكلاً عاطفيًا حادًا، على الرغم من أننا لم ننجز أي إنجاز يذكر على صعيد التعريف البسيط للكلمات. وكنا طوال ذلك الحوار الساخن نوعًا ما، نقف أنا وهو عند حافة طاولة اجتماعات طويلة تحيطها كراسٍ فارغة. وفي نهاية الحوار كنت في غاية الانفعال لأنني أحسست بأني مسستُ قلبه وقرأت وجودي فيه عبر نظرة من عينيه ملؤها المودة والصداقة.

ثم.. حينما هممنا بالمغادرة، وجدته يتعمّد أن يسحب بصمتٍ كلتا يديه ويعقدهما خلف ظهره، وكأنه ينأى بهما عن أية احتمالية ممكنة للمصافحة. فاعتراني الحرج والذهول، وملأني الإحساس بالغربة إزاء «الأساليب الثورية» الجديدة، للحد الذي لم أستطع اعتبار تلك النظرة خطوة إلى الأمام. ولاحقًا، حينما رويتُ ما حدث لأحد زملائي، ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يذكّرني بأنه لا يجوز لرجل مسلم أن يلمس امرأة «نامحرم»، أي: امرأة سوى زوجته أو أمه أو أخته او ابنته. ثم التفتَ اليّ غير مصدق وقال: «أحقًا لم تعلمي بذلك؟».

لقد تشكلتْ تجاربي في إيران، وبخاصة تجربة التدريس، عبر ذلك الشعور والملمس الذي صاحبَ تلك المصافحة التي لم تتم، مثلما تشكّلتْ عبر ذلك الاقتراب الأول والاتقاد الذي اعترى حوارنا الساذج المثير. فبقِيَتْ صورة تلك الابتسامة المائلة لطالبي ساحرة مبهمة. بينما بقيت الغرفة والحيطان والكراسي وطاولة الاجتماعات الطويلة تبتعد ويتراكم فوقها المزيد والمزيد مما اعتادوا تسميته: «غبار» في معظم الأعمال الأدبية.

[7]

قضيتُ الأسابيع الأولى للدراسة في معمعة صاخبة من الاجتماعات. فكنت أحضر اجتماعات القسم، واجتماعات الكلية والاجتماعات مع الطلبة، وأشارك في اجتماعات لمساندة المرأة ومساندة العمال والمقاتلين الأكراد والأقليات التركمانية.. إلخ. وفي تلك الأيام أقمتُ علاقات طيبة وصداقات؛ مع رئيس القسم، ومع زميلتي المثقفة اللامعة الراديكالية «فريدة»، ومع آخرين من قسم علم النفس والقسم الألماني واللسانيات. فكنا نجتمع أحيانًا لنذهب إلى مطعمنا المفضل القريب من الجامعة لتناول الغداء وتبادل آخر الأحداث والنكت. كنا نتمتع بمزاجٍ خالٍ من الهموم رغم أنه بدا خارج الزمن والمكان، فقد كنا ما نزال نملك شيئًا من الأمل.

كنا قد قضينا في جلسات الغداء تلك وقتًا لا بأس به في المزاح والسخرية مع أو من أحد زملائنا الذي كان قلقًا على وظيفته آنذاك، فقد هدّد الطلبة الإسلاميون بطرده بتهمة أنه استخدم عبارات «فاحشة» داخل قاعة الدرس. والحقيقة أن هذا الأستاذ كان مهووسًا بالقلق على نفسه. كان قد طلق زوجته مؤخرًا، وكان عليه أن يعيلها، بالاضافة إلى نفقات بيته الكبير ذي المسبح. كنا قد سمعنا منه الكثير عن ذلك المسبح. وكان بطريقة ملتوية وغير ملائمة يصرّ على مقارنة نفسه بـ«غاتسبي»، وكان يطلق على نفسه اسم «غاتسبي العظيم» الصغير! كان التشابه الوحيد الذي كنتُ أراه أنا شخصيًا هو المسبح. كانت هذه

التفاهة والسطحية تنسحب على فهمه للأدب، وبهذه الطريقة كان يتعامل مع مجمل الأعمال الأدبية العظيمة.

في نهاية الأمر لم يتم فصل ذلك الأستاذ من الجامعة، بل لقد بقي في مكانه من دوننا جميعًا. وشيئًا فشيئًا راح يضيق ذرعًا بطلبته الأذكياء والمتميزين. وقد اكتشفت بعد ذلك بسنوات، أن اثنين من هؤلاء الطلبة («نيما» و«مانا») دفعا ثمنًا باهظًا بسبب اختلافهما معه في الرأي. وبحسب معلوماتي، أنه ما زال في مكانه يدرّس حتى الآن، وما زال يعيد ويكرّر المواد نفسها للطلبة الجدد عامًا بعد آخر. ولم يتغير فيه شيء سوى أنه تزوج بامرأة أخرى أصغر من الأولى بكثير.

كنا، ناهيك عن جلسات الغداء، نجتمع لنذهب إلى نادي السينما الذي لمّا يكن قد أغلق بعد، فنحضر عروضًا لأفلام «ميل بروكس» و«أنتونيوني» مثلاً. ومن هناك كنا ننطلق لنتجوّل في المعارض. كنا نفعل ذلك كله ونحن لا نزال نعتقد بأن الخميني وزمرته لن ينجحوا في مآربهم، وبأن الحرب لما تنته بعد. وذات يوم، اصطحَبَنا الدكتور «أ» إلى معرض للصور الفوتوغرافية يصوّر الاحتجاجات والتظاهرات إبان حكم الشاه. كان الدكتور «أ» يتصدرنا في المشي ويشير إلى صور مختلفة وهو يعلق قائلاً: «أخبروني.. هل وجدتم أحد الملالي يتظاهر؟ أروني كم واحدًا من هؤلاء.. أولاد الـ. شوهد في الشوارع وهو يهتف لأجل الجمهورية الإسلامية؟».

في غضون ذلك، كانت تحاك المؤامرات وتُنفذ تهديدات الاغتيال، وكان بعضها يُنفذ بذلك الأسلوب الجديد؛ التفجيرات الانتحارية. وتمّ استبعاد العلمانيين والليبراليين من الساحة، وبدأت خطابات «آية الله الخميني» عن الشيطان الأكبر وعملائه في الداخل تتنامى لتغدو أكثر قسوة وحقدًا يومًا بعد يوم.

يدهشني فعلاً أن أرى كيف يمكن لكل شيء أن يسقط في الروتين. ويبدو

أنني لم أكن ألحظ في الحياة اليومية ذلك الإيقاع اللاهث وغير المتوقع الذي كان يحبط أي محاولة للاستقرار. فبعد مدة من الزمن، بدأت حتى الثورة تخلص إلى إيقاعها المنتظم: العنف، الإعدامات، الاعترافات العلنية بالجرائم التي لم ترتكب، الحكام الذين يتحدثون ببرود عن بترهم كفّ السارق أو رجليه، وعن قتلهم السجناء السياسيين لعدم وجود أماكن كافية لهم في السجون!

كنت ذات يوم أتفرج على التلفزيون فإذا بمشهد لأم وابنها يسمرني في مكاني. كان الابن ينتمي إلى أحد التنظيمات الماركسية، وكانت الأم تقول له بأنه لا يستحق الحياة لأنه خان الثورة والعقيدة فوافقها. كانا يجلسان هناك، في مكان بدا وكأنه مسرح فارغ الا من كرسيين متقابلين. كانا يتحدثان كما لو أنهما يناقشان تفاصيل زواجه الوشيك، والفرق الوحيد هو أنهما كانا بالمصادفة متفقان تمامًا بأن جرائمه كانت شنيعة إلى الحد الذي لن يستطيع التكفير عنها وغسل شرف العائلة إلا بأن يتقبّل الموت بصدر رحب.

اعتدتُ في الصباحات أن أشقّ طريقي إلى الجامعة عبر الشوارع الواسعة المورقة الأشجار وأنا اتأبط كتاب «هوكلبيّري فِن». وكنت كلما ازداد اقترابي من الجامعة، أجد بأن الشعارات تزداد على الجدران وتصبح مطالبها أكثر عنفًا. ولم أجد مطلقًا أي شعار يندد بالقتل والموت المجاني، بل لقد كانت المطالب غالبًا ما تحرّض بشكل واضح وصريح على المزيد من الدماء.

في النهار، كنت أشغل نفسي بالعمل مثلي مثل سواي. أما في الليل وفي مذكراتي، فقد كان يأسي المتنامي ينهمر مع الكوابيس بلا رادع. وإذ أتصفح اليوم تلك الاوراق المكتوبة بأقلام حبر مختلفة الألوان، في دفتر ملاحظات ذي غلاف بلاستيك أسود، أجد كمّ اليأس المكبوت الذي لم يعلُ يومًا ليمسّ سطح حياتي اليومية. فقد كنت أسجلُ في هذا الدفتر كل الوفيات التي لم نكن نتحدّث عنها مطلقًا، رغم أن الصحف كانت تكتظُ بها ويضجّ بها التلفزيون.

وذات ليلة، إذ كنت في البيت ذاهبة إلى المطبخ لشرب الماء، لمحتُ على التلفزيون وجهًا تعلوه الرضوض والكدمات. وعلمت فورًا بأنه الرئيس السابق لمنظمة المخابرات والأمن القومي المرعبة (سازمان اطلاعات وامنيت كشور ـ «سافاك»). وهو جنرال عرف بقسوته، وكان واحدًا من المسؤولين المتورطين في تلفيق التهم لوالدي وسجنه. لا بد وأن ذلك كان إعادة لاعترافاته المسجلة، لأننا كنا نعلم أنه أعدم منذ بضعة شهور. ما زلت أذكر، حينما كان والدي في السجن، كم من المرات كانت أمي تسب وتلعن هذا الجنرال ورفاقه المتآمرين. وها هو الآن هنا بملابس مدنية، يلتمس العفو من القضاة الذين بلغت شدة قسوتهم حدًا لا يمكن لأحد أن يتكهّن بها، ولا حتى هو. لم أجد في ملامح وجهه ذرة إنسانية واحدة. وكأنما كان قد أجبر على أن يتبرأ من أفعاله السابقة فتنازل في غضون ذلك عن مكانته مثلما فعل آخرون. شعرت بصِلة غريبة تربطني به بشكل غريب. وكأن استسلامه التام وتخليه عن كرامته إلى هذا الحد، كان قد مس كرامتي أنا الأخرى وقلل من شأني.

كم من مرة حلمتُ بالانتقام من هذا الرجل دون سواه، فهل هكذا يجد المرء أحلامه قد تحقّقت؟

ثم قامت الصحف اليومية الرسمية بنشر صوره وصور آخرين بعد الحملة الثانية من سلسلة الإعدامات تلك. وتم طبع تلك الصور في كراسات رخيصة بورق أصفر، وراح يبيعها باعة متجولون على الأرصفة جنبًا إلى جنب مع كتيبات عن أسرار الصحة والجمال. اشتريتُ واحدًا من تلك الكتيبات المسمومة. كنت أريد أن أحتفظ في ذاكرتي بكل شيء. كانت وجوههم، على الرغم من بشاعة لحظاتهم الأخيرة، وكأنها قد أجبرت على افتعال الهدوء اللامبالي للموت، ولكن لا شيء يمكنه أن يصف كم الاحساس بالعجز واليأس الذي كانت توقعه فينا صور تلك الوجوه المروعة. أعني نحن الباقين.. الناجين!

في غضون الأشهر والسنوات اللاحقة، كنا نتصدم أنا و«بيجان» في كل مرة نشاهد فيها في التلفزيون تلك المحاكمات العلنية لرفاقنا القدماء الذين كانوا معنا في الولايات المتحدة. كنا نراهم وهم يعلنون بحماسة براءتهم من أفعالهم الماضية، ومن رفاقهم القدماء، ومن أنفسهم سابقًا، ويعترفون بأنهم حقيقة كانوا أعداء الإسلام. كنا نشاهد تلك اللقطات بصمت. كان «بيجان» أهدأ مني، ونادرًا ما كان يُظهر أي انفعال. كان يجلس على الأريكة، وعيناه مسَمرتان جامدتان تنظران للشاشة، لا يرمش له جفن، بينما أثور أنا وأتململ، فأغدو وأعود مرة بحجة جلب كأس ماء ومرة بحجة تغيير مكاني. وذات يوم، أحسست بأنني بحاجة ماسة إلى التمسك جيدًا بشيء ما، وإلى أن أغوص عميقًا في كرسيي. التفتُّ إلى «بيجان» فصدمتني ملامح وجهه المتماسكة، وانبجسَتْ في داخلي دوامة من الغيظ: يا إلهي! كيف يمكنه أن يكون رابط الجأش إلى هذا الحد؟ ومرة غيرت جلستي لأفترش الأرض حيث كان يجلس هو على الأريكة. لا أتذكر أنني أحسست طوال حياتي بالوحدة المطلقة مثل ذلك اليوم، بعد دقائق.. كان «بيجان» قد وضع إحدى كفيه على كتفي.

التفتّ صوب «بيجان» وسألته: «هل مرّ بخاطرك يومًا أن كل هذا سيحدث لنا؟». فأجاب: «كلا لم يخطر ببالي ذلك ولكن كان لا بد لي أن أتوقعه، فلم يكن قدرنا المحتوم هو الجمهورية الإسلامية، وإنما لقد ساهمنا نحن جميعًا في خلق هذه الفوضى». لقد كان «بيجان» على حق بطريقة ما. فقد كانت ثمة حقبة صغيرة من الزمن بين مغادرة الشاه في ١٦ كانون الثاني/ يناير١٩٧٩، وعودة الخميني إلى إيران في ١ شباط/ فبراير من العام نفسه. وحينذاك أصبح أحد القادة الوطنيين الدكتور «شهبور بختيار» رئيسًا للوزراء. كان «بختيار» ربما الرجل الأكثر ديمقراطية وبعدًا للنظر في ذلك الوقت من بين رجال المعارضة الذين آثروا بدل الاصطفاف إلى جانبه ومساندته أن يحاربوه ويلتفوا حول الخميني. كان قد قام مباشرة بحل الشرطة السرية الإيرانية وأطلق سراح

السجناء السياسيين. إن الشعوب الإيرانية، مع نخبها المثقفة، برفضهم لـ«بختيار» وبمساهمتهم باستبدال العائلة المالكة البهلوية، بنظام أكثر رجعية واستبدادية منها، إنما ارتكبوا ما يمكن اعتباره خطأ جسيمًا في التقدير. وأتذكر كم كان صوت «بيجان» وحيدًا مفردًا في مساندته لـ«بختيار»، بينما كانت كل الأصوات الأخرى، حتى صوتي تطالب بالتخلص من بقايا العهد البائد وتدميره، من دون رؤيا حقيقية لكل ما يترتب على ذلك.

وذات يوم، اذ كنت أتصفح جريدة الصباح، طالعتني صورٌ لـ«علي» و«فرمارز» وأصدقاء آخرين من الحركة الطالبية. فهمتُ في اللحظة بأنهم أُعدموا، على الرغم من أنها لم تكن صورًا قد التقطت بعد الإعدام مثلما كان يحدث مع الجنرالات. بل كانت صورًا قديمة من النوع الذي يوضع في جواز السفر أو في بطاقة هوية الطالب. كانوا في هذه الصور الخادعة في براءتها، يبتسمون بخجل من يقف أمام الكاميرا. اقتطعت الصفحات من الجريدة وخبأتها لشهور في خزانة ملابسي، ورحت استخدمها هناك، أخرجها كل يوم تقريبًا، لأنظر من جديد إلى تلك الوجوه التي كنت قد التقيتها آخر مرة في بلد آخر، لم أعد أراه اليوم إلا في أحلامي.

[8]

بدأ السيد «بحري» يدلي بملاحظاته العميقة في الصف بعد أن كان متحفظًا وراغبًا عن الحديث أول الأمر. كان يتحدث ببطء، متوقفًا بين كلمة وكلمة أو جملة وأخرى، وكأنه كان يحاول صوغ أفكاره بينما يعبر عنها. كنت أراه أحيانًا مثل طفل يتعلم المشي وهو يتفحص الأرض بخطواته ويحاول اكتشاف القدرات الدفينة في داخله. كان في ذلك الوقت أيضًا قد بدأ يغرق حتى اذنيه في السياسة؛ فأصبح عضوًا ناشطًا في التجمع الطالبي الذي تدعمه الحكومة، أي «جمعية الطلبة المسلمين»، وصرت غالبًا ما أراه في أروقة الجامعة وهو منهمكٌ في نقاشات ونزاعات لا أول لها ولا آخر. صار وجوده يلحّ عليّ، وكذلك عيناه اللتان أصابتا هدفهما وكان لهما القرار الفصل.

واذ زادت معرفتي به لاحظتُ أنه لم يكن مغرورًا كما كنت اعتقد، أو لعلي كنت قد ألفتُ منه ذلك النوع الخاص من الغرور الذي لا يتسم به إلا شاب مثله: متحفظ خجول بطبعه، وقد وجد ضالته في ملاذٍ آمن ثابت اسمه الاسلام. فكان عناده واليقين الذي اكتشفه حديثًا هما اللذان أسبغا عليه تلك الصفة. كنتُ أجده أحيانًا في غاية اللطف، وحينما يتحدث فإنه لا ينظر في عينيّ محدّثته، ليس لأنه لا يجوز للمسلم أن ينظر إلى امرأة في عينيها فحسب، بل لأنه كان في غاية الخجل. كان ذلك المزيج من التكبر والخجل هما ما أثار فضولي وانتباهي إليه.

كنا على الدوام، كلما تحدثنا وكأننا في اجتماع سرّي، وغالبًا ما نكون غير متفقَين، ولكن يبدو أنه كان من الضروري جدًا أن نناقش اختلافاتنا ليقنع أحدنا الآخر بصحة أفكاره. كانت قوته تزداد وتتنامى، وكنت أنا ازداد غربةً وأزداد ابتعادًا وانعزالاً عما حولي، وبالتدريج، رحنا ببطء ومن دون وعيٍ منا نتبادل الأدوار. هو لم يكن داعية (فلم يكن خطيبًا مؤثرًا جدًا)، بيد أنه كان يرتقي سلم النجاح بعناد وصبر وتفانٍ. وحين فُصلتُ من الجامعة، كان قد غدا في ذلك الوقت رئيسًا لجمعية الطلبة المسلمين.

حينما كان الطلبة المتشددون يقاطعون المحاضرات، كان السيد «بحري» من القلائل الذين يحضرون المحاضرة معبرًا عن استنكاره الشديد. وقد كنا إبان تلك المحاضرات الملغاة، غالبًا ما نناقش القضايا السياسية بالإضافة إلى الأحداث المختلفة التي تتصاعد وتيرتها في الجامعة. كان يحاول بشكل حذر أن يجعلني أتفهّم ما الذي يعنيه الإسلام السياسي، وكنت أصده. فقد كان ذلك تحديدًا، أي الإسلام بصفته كيانًا سياسيًا هو ما أرفضه تمامًا. حدثته عن جدتي التي لم أعرف في حياتي مسلمة في مثل ورعها وتقواها؛ «كانت أكثر ورعًا حتى منك يا سيد «بحري»، ومع هذا كانت تنأى بنفسها عن السياسة». وأخبرتُه أنها كانت مستاءة جدًا من فكرة أن حجابها، الذي هو بمثابة رمز للعلاقة المقدسة بينها وبين الله، كان قد أصبح في ذلك الوقت أداة بيد السلطة، جاعلين من النسوة اللواتي ارتدينه رموزًا وشعاراتٍ سياسية. «فإلى أي اتجاه تنتمي بولائك يا سيد «بحري»؟ إلى الإسلام؟ أم الى الدولة؟».

لم أكن غير معجبة بالسيد «بحري»، ومع هذا اكتسبتُ بالتدريج عادة تأنيبه وجعله يبدو مسؤولاً عن كل شيء خاطئ قد يحدث. كان رأيه مشوشًا حول «همينغواي»، ومتأرجحًا حول «فيتزجيرالد»، وكان يعشق «توين»، ويرى أنه كان لا بد وأن يكون لنا كاتب «وطني» مثله. وكنت أعشق «توين» ومعجبة به جدًا، بيد أني كنت أعتقد بأن كل الكتّاب هم في الواقع كتّاب وطنيون، وليس ثمة شيء يسمى «كاتبًا وطنيًا» و«كاتبًا غير وطني».

[9]

لا أتذكر أين كنت وما الذي كنت أفعله في ذلك الأحد، حينما سمعتُ بالخبر: لقد احتلت مجموعة من الطلبة الغوغائيين مبنى السفارة الأميركية في طهران. إنه لأمرٌ غريب! ما أتذكره هو أنه كان يومًا مشمسًا معتدلاً، وإن الخبر لم يعرف حتى اليوم التالي، حينما أعلن «أحمد» نجل الخميني دعم أبيه للطلبة وأصدر بيانًا متحديًا يقول: «اذا لم يسلّمونا المجرمين، فإننا سنفعل كل ما يجب أن يُفعل». وقصد بالمجرمين: «الشاه» و«بختيار». وبعد يومين، أي في السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر، استقال رئيس الوزراء «مهدي بازركان» بعد أن تنامى عليه هجوم المتدينين المتشدّدين وكذلك اليساريين الذين اتهموه بالليبرالية وبأنه حليف للغرب.

وسرعان ما غطّت الشعارات أسوار السفارة: «أبدًا أبدًا لن تتمكن.. اميركا أن تفعل شيئًا»، «ليست حربًا بين أميركا وإيران.. هي حربٌ بين الحق والشيطان»، «كلما زاد موتانا، ازدادت قوتنا وتقوانا». ثم نصبوا خيمة على السور الجانبي للسفارة ضجّتْ بالدعاية ضد أميركا، فكانوا يفضحون جرائمها في أنحاء العالم، ويطالبون بضرورة تصدير الثورة. أما في الجامعة، فقد كانت الأجواء بهيجة مهللة، ولكنها لم تكن تخلو من التوجس. اختفى بعض طلبتي، ومن بينهم «بحري» و«نيازي». وكان من الوارد جدًا أن يكونوا في الخطوط الأمامية من الصراع. وحلت النقاشات الحامية المحتدمة والهمس المثير محل المحاضرات اليومية والدراسة المنتظمة.

كان المتدينون واليساريون، خصوصًا المجاهدين والفدائيين الماركسيين، كلاهما يؤيّد احتجاز الرهائن. أتذكر واحدًا من النقاشات الساخنة حينما كان أحد طلابي الذين يدّعون الليبرالية يكرّر قوله: «وما الحكمة في احتجازهم رهائن؟ أولم نلغِ وجودهم أصلاً؟». فما كان من طالب آخر إلا أن أدلى بمنطقية لا منطق فيها قائلاً: «لا.. ليس بعد.. فما زال التأثير الأميركي في كل مكان، لن نحسّ بالتحرر فعلاً إلا إذا أُغلِقَتْ إذاعة صوت أميركا».

لم تعد السفارة الأميركية بعد ذلك تُعرف باسم «السفارة الاميركية»، لقد أصبح اسمها منذ ذلك الوقت: «عش الجواسيس». وإذ كان يسألنا سائق سيارة الأجرة: «الى أي مكان تريدون الذهاب؟» كنا نقول: «من فضلك.. هلا أوصلتنا إلى عش الجواسيس؟» كانوا يجيئون بالناس بالحافلات من الأقاليم والقرى بشكل يومي؛ أناس لا يعرفون حتى أين يمكن أن تكون أميركا، حتى أن بعضهم كان يعتقد بأنهم ربما يأخلونه الى أميركا. كانوا يمنحوهم مالاً وطعامًا ليتمكّنوا من البقاء والاستمتاع والتنزه مع عوائلهم عند «عش الجواسيس». وفي المقابل، كان مطلوب منهم أن يتظاهروا ويحتجوا، وأن يهتفوا: «الموت لأميركا»، وأن يقوموا بين الحين والحين بحرق العلم الأميركي.

كان ثمة ثلاثة رجال جالسين في نصف حلقة يتحدّثون بحماسة، بينما كان ثمة أب وامرأتان ترتديان الجادور الأسود وثلاثة أو أربعة أطفال يحومون حولهم. كانت النساء يعددنَ الشطائر ويناولنها للرجال. (هل نحن في احتفال؟ أم نزهة؟ أم مهرجان غنائي إسلامي؟). واذا تقدمنا أكثر قليلاً من هذه المجموعة الصغيرة، سوف نستمع إلى حديثهم، إلى لهجتهم التي تدلّ على أنهم من إقليم «أصفهان». كان أحدهم قد سمع بأن آلافًا من الأميركان يعتنقون الإسلام كل يوم، وبأن «جيمي كارتر» مذعور فعلاً. فردّ عليه آخر: «لا بد وأن يكون مذعورًا!!». قال ذلك وهو يأخذ قضمة من شطيرة بين يديه. «لقد سمعت

بأن الشرطة الأميركية تصادر اليوم أي صورة تعثر عليها للإمام!» تختلط الحقائق بالإشاعات المتطرفة المتحمسة: إشاعات تفيد بأن حلفاء الشاه الغربيين بدأوا يسيئون معاملتهم له بسبب أصالة الثورة الإسلامية في أميركا، مما عمّق التساؤل: «هل تعتقدون بأن أميركا ستتخلى عن الشاه؟».

واذا توغلنا أعمق بين الحشود، ستتناهى إلى سمعنا إيقاعات أشدّ وأكثر إحكامًا: «ولكن هذه ليست الديمقراطية المركزية»..، «استبداد ديني»..، «حلفاء استراتيجيون».. بالإضافة إلى الكلمة التي تتردّدُ أكثر من سواها: «ليبراليون». كان هناك أربعة أو خمسة طلاب يتأبطون كتبًا وكراسات، وكانوا منهمكين في جدل عميق. استطعت أن أميّزَ أحدهم، وكان واحدًا من طلبتي اليساريين، فلمحني وابتسم وهرع إليّ: «أهلاً يا أستاذة.. أرى أنك انضممت إلينا أخيرًا». فسألته: «ومن تعني بقولك إلينا؟». فيجيبُ بجديّة مطلقة: «نحن.. الجماهير.. الناس الحقيقيين».. وأقول: «ولكن هذه ليست تظاهرتكم، وجودك هنا خطأ». فيقول: «لا بد وأن نكون هنا كل يوم لكي تبقى النار مشتعلة، لكي نحمي الليبراليين من خرق الاتفاق».

وتقاطِعُنا مكبرات الصوت: «لا شرقية.. لا غربية.. نريد دولة إسلامية»، «أبدًا أبدًا لن تتمكن اميركا أن تفعل شيئًا»، «لا تسوية.. لا مفاوضات.. سنقاتل حتى الممات».

لم أستطع احتمال ذلك الجو الاحتفالي، وذلك الصخب الجامح والعجرفة التي سيطرتْ على الجموع أمام السفارة. وكان على مبعدة شارع ثمة واقع مختلف تمامًا يشهر وجوده. كنت أحسّ أحيانًا بأن الحكومة قد فعلت ما فعلت في عالم منعزل خاص بها؛ فابتدعتْ سيركًا كبيرًا، أو أنها قدّمَتْ مسرحية عظيمة، بينما الناس ماضون كل الى غايته.

والحقيقة، هي أن أميركا، ذلك المكان الذي أعرف، والذي فيه عشتُ سنينًا، نجحَتْ الجمهورية الإسلامية فجأة في تحويله إلى عالم خيالي مثل

أرض اللاعودة في قصة «بيتر بان». أما أميركا الماضي، فقد بدأتْ تبهتُ صورتها ببالي، بعد أن باغتها واستبدّ بها صخبٌ جارف من التعريفات الجديدة. كان ذلك حينما بدأت اسطورة أميركا ترسخ وتتعمّق في إيران، وأصيبَ بالهوسِ حتى أولئك الذين كانوا يلعنونها ويهتفون بالموت لها، فأصبحوا مأخوذين بها، وأصبحتْ أميركا بالنسبة لهم وكرًا للشيطان وبقعة من الفردوس المفقود في آن واحد. ولقد أوقدوا في الناس فضولاً سريًا مكتومًا، سينمو بمرور الزمن ليجعل مختطفي الرهائن.. هم أنفسهم رهائن الفضول!

[10]

في مذكراتي لعام ١٩٨٠، وجدتُ عبارة صغيرة تقول: «غاتسبي» من «جف». كان «جف» صحافيًا من «نيويورك»، وكنت قد طفتُ معه شوارع طهران لبضعة شهور، في وقتٍ لم أكن أفهم فيه لماذا أصبحتُ مهووسة بالسير في الشوارع على غير هدى. واذ اعتاد بعض الناس تعاطي الكحول أثناء التسكع في الشوارع، فقد اعتدتُ أنا أن أتعاطى: «جف». كنت بأمسّ الحاجة إلى أن أبوح بما كنت شاهدة عليه لذلك الجزء الآخر من العالم الذي تركته خلفي، وربما إلى الأبد. وكنتُ قبل ذلك قد اعتدتُ كتابة رسائل إلى أصدقائي الأميركيين، معززة بأدقّ التفاصيل والأحداث اليومية في إيران، بيد أن معظم تلك الرسائل لم أكن أرسلها لأحد.

كان من الواضح أن «جف» كان وحيدًا. وعلى الرغم من أنه كان مهووسًا بعمله الذي أصبح بسببه معروفًا فعلًا، إلا أنه كان بحاجة إلى الحديث مع أحد ما، أحد يفهم لغته، ويشاطره تفاصيل بعض الذكريات. ولقد أدهشني أن أكتشفَ أنني كنت مبتلاةً بالمأزق ذاته؛ كنت قد عدتُ للتو إلى وطني، حيث سيمكنني أخيرًا أن أتحدث بلغتي الأم، ولكنني ما إن عدتُ حتى وجدتُ نفسي أتوق إلى الحديث مع أي أحد يجيدُ الإنكليزية.. ويا حبذا لو كان ذلك بلهجة نيويورك! أحد ما؛ يكون ذكيًا ويقدّر «غاتسبي» و«هاغن دازس» ويعرف شيئًا عن «ضفة الشرق الأدنى» لـ«مايك غولد».

كانت الكوابيس قد بدأت تهاجمني، وكنت أحياناً أفيقُ في الليل وأنا أصرخ. كان السبب الأول وراء ذلك هو إحساسي بأنني لن أستطيع مغادرة هذي البلاد. كان السبب وراء هواجسي تجربتين مريرتين خضتهما في محاولة للسفر، فمُنِعتُ، وعدت أدراجي من المطار، حتى أنني في المرة الثالثة أخِذْتُ مخفورة إلى القيادة المركزية لمحكمة الثورة. وفي نهاية المطاف، لم أتمكنْ من مغادرة إيران مدّة اثني عشرَ عامًا، حتى أنني، بعد أن تأكّدتُ بأنهم سيمنحوني موافقة السفر أخيرًا، لم أجدْ في نفسي القدرة على القيام بإجراء بسيط يتمثّل في المرور بدائرة الجوازات وتقديم طلب الحصول على جواز سفر. كنتُ أحسّ بأنني استُنفِدتُ تمامًا حدّ العجز أو الشلل التام!

[11]

«لم يعدْ الفن أمرًا نخبويًا متعجرفًا أو جبانًا، فهو يعلّم الفلاحين كيف يستخدمون الجرارات، ويمنح الأناشيد للمقاتلين الشباب، ويصمّم القماش الذي ترتديه العاملات في المصانع، ويكتب المسرحيات الهزلية لمسرح المصنع، وله فوق ذلك مائة مهمة أخرى. الفن مفيد.. مثله مثل الخبز».

اقتبستُ هذا التصريح الطويل بعض الشيء من مقالة «نحو فنٍ بروليتاري» لـ «مايك غولد» التي كتبها عام ١٩٢٩ في صحيفته الراديكالية: «الجماهير الجديدة». وقد أحدثت المقالة ضجة واهتمامًا واسعًا في ذلك الحين، وأرّخت لولادة مصطلح جديد في الدوريات السنوية للأدب الأميركي وهو مصطلح «الكاتب البروليتاري». ولكون المقالة استطاعت أن تحدث تأثيرًا واضحًا حدا ببعض الكتّاب الجادين لأخذها على محمل الجد، كل ذلك كان قد شكّل إشارة واضحة على تغيّر الزمن. فقد نُشِرَتْ رواية «غاتسبي العظيم» عام ١٩٢٥، ورواية «رقيقٌ هو الليل» عام ١٩٣٥، وإبان الحقبة ما بين نشر هاتين الروايتين العظيمتين، حدثتْ أمور كثيرة في الولايات المتحدة وأوروبا جعلت من «غولد» كاتبًا مؤثرًا ردحًا من الزمن، وقلّلت من أهمية كاتب مثل «فيتزجيرالد» وجعلته غير ذي صلة تقريبًا بالمشهد الاجتماعي والأدبي. فقد عمّ الكساد الاقتصادي، وبدأت التهديدات الفاشية بالتزايد، وكان تأثير الماركسية السوفياتية يتنامى بشكل ملحوظ.

قبل أن أشرع في تدريس «غاتسبي العظيم» كنا قد ناقشنا في الصف بعض القصص القصار لـ«مكسيم غوركي» و«مايك غولد». كان «غوركي» محبوبًا جدًا في ذلك الوقت، فقد تُرجمت له الكثير من القصص إلى اللغة الفارسية، بالإضافة إلى ترجمة روايته «الأم». وكان مقروءًا بشكل كبير لدى الثوريين، الشباب منهم وكبار السن. كان لهذا أن يجعل من رواية «غاتسبي» تبدو غريبةً وغير ذات صلة بكل ما يدور. وكان من الغريب فعلًا أن يتم اختيارها لتُدرّس في جامعة كان معظم طلبتها تقريبًا تمورُ فيهم الحماسة الثورية. وإذ استعيد الأحداث اليوم وأتأملها، أجد أن «غاتسبي» كان الاختيار الأمثل. رغم أني لم أكن أعي إلا بعد حين بأن القيم التي بُنِيَتْ عليها تلك الرواية هي على النقيض تمامًا من قيم الثورة. وللسخرية، فإنه بعد مضيّ مدة من الزمن، راحت قيم رواية «غاتسبي» هي التي تسود الواقع، وتنتصر على سواها. ولكننا في ذلك الوقت لما نكن قد وعينا بعدُ إلى أي مدىً كنا نخونُ أحلامنا.

كنّا قد ابتدأنا بدراسة «غاتسبي» في تشرين الثاني/ نوفمبر، ولكننا لم نتمكن من استكماله حتى كانون الثاني/ يناير بسبب التوقّفات المستمرّة. كنت أغامر بعض الشيء بتدريس كتاب من هذا النوع في ذلك الوقت تحديدًا حينما كانوا يمنعون تداول كتبٍ ما دون سواها بحجة أنها تفسد الأخلاق. كانت معظم الجماعات الثورية تتفق مع الحكومة في موضوع الحريات الفردية التي تنازلوا عنها وأطلقوا عليها: «برجوازية» و«انحطاط». وكان هذا الأمر قد سهّل على النخبة الحاكمة الجديدة تمرير بعض القوانين الأكثر رجعية. وذهبوا أبعد من ذلك حدًّا جعلهم يحرّمون ويمنعون بعض الإيماءات والتعبير عن بعض المشاعر، فكان الحبّ واحدًا من المحرمات. وقبل أن يقوموا بوضع دستور جديد أو إنشاء برلمان جديد، قاموا بإلغاء قانون حماية الزواج. وحرّموا الباليه والرقص؛ وخيروا راقصات الباليه بين التمثيل والغناء. ثم قاموا بعد ذلك بمنع النساء من الغناء، لأن صوت المرأة مثل شعرها: مثير للغرائز، ولا بد له أن يكون مخفيًا محجوبًا.

لم يكن لاختياري رواية «غاتسبي» أي علاقة بالمناخ السياسي لذلك الوقت، وانما ببساطة لأنني وجدت بأنها رواية عظيمة. كان عليّ ان أدرّس فصلاً عن الرواية في القرن العشرين، وقد وجدتُ في كونها رواية عظيمة مبدأً يكفي ليحسم قراري في اختيارها دون سواها. وبعيدًا عن هذا وذاك، كنت قد وجدتُ بأن ذلك الاختيار سيمنح طلبتي نبذة عن عالم بدأتْ تحجبهُ عنا جعجعة الاتهامات الصاخبة. كنت أقرأ وأعيد قراءة «غاتسبي» وأنا أتساءل بفضول: «هل يمكن لطلبتي أن يشعروا بالتعاطف ذاته الذي شعرَ به «نِك» تجاه الحب القاتل الذي يكنّه «غاتسبي» لـ«ديزي فاي» الجميلة الخائنة؟» لم أكن أطيق الانتظار حتى أشاطر طلبتي قراءة كتابي، بيد أن إحساسًا غريبًا داهمني وكبح مشاعري فجأة؛ وهو أنني لم أكن أريد لأي أحد أن يشاركني كتابي!

كان طلبتي متحيّرين بعض الشيء بشأن «غاتسبي»، فالرواية تحكي قصة شاب مثالي، يقع في غرام امرأة جميلة غنية تخونه. وقد يبدو هذا أمرًا غير مستساغ بالنسبة لمن يرى أن التضحية لا يمكن تعريفها إلا عبر كلمات مثل «الجماهير» أو «الثورة» أو «الإسلام». فقد كانوا يعتقدون بأن «الحماسة» و«الخيانة» إن هي الا مصطلحات سياسية، أما الحب فهو بعيد كل البعد عن ذلك الاضطراب الذي يعتري «جاي غاتسبي» أمام السيدة «توم باكانان». (لقد اعتُبرَ «الزنى» في طهران جريمة يعاقب عليها القانون، وقد أصبحَتْ عقوبتها الرجم علنًا).

قلت لطلبتي إن هذه الرواية واحدة من كلاسيكيات الأدب الأميركي، وتعتبرُ بطريقة أو بأخرى عيّنة نموذجية تلخّصُ الرواية الأميركية. وثمة روايات أُخرى قد توازيها في الأهمية؛ مثل «مغامرات هوكليّري فِن» و«موبي دِك» و«الرسالة القرمزية». وكان بعض النقاد يتعمّدون الإشارة إلى الثيمة الأساسية لتلك الروايات، أي الحلم الأميركي، للدلالة على أهميتها وتميّزها. فنحن في الدول العريقة لدينا ماضينا، ولذا فنحن مهووسون بالماضي وبالحنين الى

الماضي، أما الأميريكيون، فليس لديهم ماضٍ وإنما حلم، ولذا فهم مفعمون بالحنين إلى وعود المستقبل!

قلت لطلبتي: على الرغم من أن الرواية تتحدث بشكل خاص عن «غاتسبي» والحلم الأميركي، إلا أن كاتبها أراد لها أن تتخطى المكان والزمان المحدّدين. وقرأت لهم بعض السطور الأحب الى «فيتزجيرالد» من الـ«كونراد» في مقدمة «زنجي النرجس». وقد تحدث فيها «فيتزجيرالد» عن الفنان وكيف «أنه يستفزّ فينا القدرة على الفرح والدهشة، ويحاكي الإحساس بالغموض الذي يغلف حياتنا، ويداعب إحساسنا بالشفقة وبالجمال وبالألم، وكيف أنه يناشد فينا قناعاتنا بفكرة تعاضدنا مع بعضنا البعض، تلك القناعات الثابتة والمستوحشة في آن واحد، وذلك التعاضد الذي يضمّ القلوب الوحيدة إلى بعضها؛ في الحلم والفرح والأسى والطموح والوهم، أو في الخوف الذي يشدّ الانسان لأخيه الانسان، ويجعل البشرية أقوى وأكثر تماسكًا، يشدّ الموتى للأحياء والأحياء لمن لم يولدوا».

وحاولت أن أوضح لطلبتي بأن «مايك غولد» و«ف. سكوت فيتزجيرالد» كانا قد كتبا في الموضوع ذاته: الأحلام، وعلى الأخص الحلم الأميركي. أما ما كان «غولد» قد حلم به فقط دون أن يحقّقه، فقد تحقّق له الآن في هذا البلد البعيد جدًا، بيد أن اسم الحلم الذي تحقّق كان غريبًا بعض الشيء: أي «الجمهورية الإسلامية الإيرانية»! لقد كتب «غولد» يقول: «إن المُثل العليا القديمة البالية لا بد لها أن تموت. فدعونا نزج بكل ما فينا إلى مراجل الثورة، لأن ما سينبثق من موتنا هو المجد الحقيقي». وجملة كهذه، كان من الممكن جدًا أن نجدها في أية صحيفة ايرانية. والفرق الوحيد هو أن «غولد» كان يتوق لانبثاق ثورة ماركسية، أما ثورتنا فهي ثورة إسلامية. بيد أن تشابهًا عظيمًا كان يجمع بين الاثنتين. فكلتاهما مؤدلجة وشمولية. وبتصاعد الأحداث أساءت الثورة الإسلامية للإسلام أكثر من أي غريب كان يمكن أن يسيء، وذلك باستخدام الإسلام وسيلة للاستبداد والجور.

قلت لطلبتي لا تحاولوا اللهاث وراء الثيمة الأصلية للرواية أو تهدروا الوقت في البحث عن المعنى العام لها، وكأنما هي فكرة معزولة عن متن القصة. فالفكرة أو الأفكار التي تكمن وراء القصة، لا بد وأن تتأتى لكم من التجارب المطروحة في الرواية، وليس على أنها شيء مضاف للرواية أو مفروض عليها. لنأخذ مثلاً هذا المشهد لنثبتَ فكرتنا؛ أرجو أن تفتحوا صفحة ١٢٥. نحن نتذكَّر حين يقوم «غاتسبي» بزيارة إلى بيت «ديزي» و«توم باكانان» للمرة الأولى. من فضلك يا سيد «بحري»... هلا قرأتَ لنا بعض السطور مبتدئًا من: «تلعّ «ديزي» في.. ؟».

تلعّ «ديزي» في السؤال: «من منكم يريدُ الذهاب إلى القرية؟».

كانت عينا «غاتسبي» تهيمان بها، فتهتفَ «ديزي»: «ياآآه.. تبدو في غاية الروعة!».

التقتْ عيونهما، وراحا يمعنان النظر أحدهما صوب الآخر، وحيدَين في فضاءٍ فسيح. ثم بذلَتْ جهدًا لتخفض نظرتها وترنو إلى الطاولة.

وكرّرت: «تبدو في غاية الروعة.. دائمًا».

كانت قد أخبرته بأنها مغرمة به، وكان «توم باكانان» قد شهد ذلك. فصعق!.. يفتح الأخير فمه قليلاً وينظر إلى «غاتسبي»، ثم يعود لينظر إلى «ديزي» وكأنه يكتشف للتو بأنها هي ذاتها التي يعرفها منذ زمن طويل.

في أحد مستويات الحدث، نقرأ بأن «ديزي» تقول لـ«غاتسبي» ببساطة بأنه «يبدو رائعًا»، ويخبرنا «فيتزجيرالد» بأنها ما زالت تحبه، ولكنه لا يقول لنا ذلك بصورة مباشرة. فهو يريد أن يضعنا هناك في الغرفة. دعونا نرى ماذا فعل لكي يمنحَ هذا المشهد نسيجًا من تجربة واقعية؛ فهو أولاً، يخلقُ توترًا بين «غاتسبي» و«ديزي»، ثم يعقد الأمر بدخول «توم» فيجعل توم شاهدًا مباغتًا

على علاقتهما، وتصبح هذه اللحظة المقحمة في منتصف المشهد أكثر تأثيرًا مما لو كان أحد ما قد أخبر «نِك» بأن «ديزي» حاولت أن تقول لـ«غاتسبي» بأنها تحبه.

قاطعنا السيد «فرزان»: «نعم، لأنه مغرم بالمال، وليس بـ«ديزي»، فهي ليست أكثر من رمز».

لا بل هي «ديزي» وليست رمزًا، وهو فعلاً مغرم بها. ثم هنالك المال أيضًا ولكن هذا ليس كل شيء، وليس هو المقصود. و«فيتزجيرالد» لا يخبرنا بذلك، بل يأخذنا الى داخل الغرفة، ويعيدُ لنا تصوير التجربة الحسّية لذلك اليوم الصيفي الحار الذي مرّت عليه عقود طويلة. ونحن القراء نكتمُ أنفاسنا جافلين مع «توم» إذ ندرك ما حدث للتوّ بين «غاتسبي» و«ديزي».

سأل صوت من آخر الصف: «ولكن ما جدوى الحب في هذا العالم الذي نحياه؟». وسألتُ بدوري: «وكيف برأيك يمكن أن يكون العالم المناسب للحب؟».

رفع «نيازي» كفًا كالسهم وقال: «لا وقتَ لدينا للحب الآن، فنحن منذورون لحب أسمى وأكثر قدسية».

فاستدارتْ «زارين» صوبهُ وقالت بابتسامة ساخرة: «فمن أجل ماذا إذًا تقودون ثورة؟».

احمرّ وجه نيازي جدًا، وأطرق رأسه، وبعيد برهة تناول قلمه وراح يكتب غاضبًا.

وباستعادة شريط الأحداث، أجد الآن فقط وأنا أكتب عن هذا الأمر، كم هو غريب فعلاً أن أقف في قاعة المحاضرات تلك لأتحدث عن الحلم الأميركي! في الوقت الذي كان يتناهى إلى مسامعنا من أسفل الشباك أصوات مكبرات الصوت وهي تذيع أغاني كانت إحدى لازماتها: «مارغ بار أميركا»: أي الموت لأميركا.

كانت المحاضرة تقترب من نهايتها حين قلت: «ليست الرواية استعارات ومجاز، إنها تجربة حسية لعالم آخر. فاذا لم تدخلوا ذلك العالم، لتتنفسوا وتحبسوا أنفاسكم مع شخصياته، وتشاركوهم مصيرهم، فلن يكون بإمكانكم الدخول إلى عمق الشخصيات أو التعاطف معها، والتعاطف هو جوهر الرواية. بهذه الطريقة يجب أن تقرأ الرواية: باستنشاق التجربة. فلتبدأوا بالتنفس، أريدكم فقط ألاّ تنسوا ذلك. وكفى»..

انتهت المحاضرة.

[12]

في غضون ذلك العام، أي بين خريف ١٩٧٩ وصيف ١٩٨٠، جرَتْ أحداث كثيرة غيّرت المسار العام للثورة ولحياتنا أيضًا. اندلعت حروب ولم تحصد سوى الهزائم، وكان من أهمها تلك التي قامتْ من أجل حقوق المرأة. فمنذ الساعات الأولى لقيام الثورة شنّت الحكومة حربًا على النساء. وجاءت ردود الفعل عنيفة جدًا.

وذات يوم، أظن بأنه كان في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد أن اندفعتْ آخر مجموعة من طلبتي ودخلت الصف بغير انتظام، قلت لهم بأنهم كانوا قد ألغوا المحاضرات مراتٍ كثيرة لأسباب خاصة بهم، وبأنني كنت مبدئيًا غير موافقة على ذلك، ولكنني سأكون مضطرة هذا اليوم تحديدًا ان أسير عكس هوى مبادئي وأن ألغي المحاضرة. قلت لهم بأنني ذاهبة لحضور اجتماع احتجاجي، لتأكيد رفضي محاولات الحكومة فرض الحجاب على النساء، ومحاولتهم التقليص من حقوق المرأة. كان قد فاتني الكثير من المظاهرات المهمة التي تناهض سياسة الحكومة «الثورية» تجاه المرأة. وصار لزامًا عليّ ألاّ يفوتني ذلك بعد الآن.

لقد كنت بلا وعي مني أنشئ لنفسي عالمين. ففي العلن، كنت منهمكة بما رأيتُ أنه دفاع عن نفسي كإنسانة، وكان ذلك يختلف جدًا عن نشاطاتي السياسية السابقة أيام كنت طالبة، وهي نشاطات كنت أقوم بها لصالح كيان

مجهول كان اسمه: الشعوب المضطهدة! فقد كان ذلك تعبيرًا شخصيًا لا يشبه انخراطي السابق في الحركة الطالبية في أميركا. وفي الوقت نفسه، كان ثمة تمرّد أكثر خصوصية راح يثبتُ وجوده في ميول ونزعاتٍ بعينها مثل القراءات المتواصلة والشغف الشبيه بهوس «هيرزوغ» المتمثل بكتابة رسائل إلى بعض الأصدقاء في الولايات المتحدة (رسائل لم ترسل أبدًا). وكنت أحسّ بتحدٍ صموت كان هو الآخر يبلور رغبتي المعلنة للدفاع عن كيانٍ هلامي وغير واضح كنت أظن بأنه يمثل نفسي.

منذ أول قيام الثورة، كان هناك الكثير من المحاولات لفرض الحجاب على النساء، لكنها وئدتْ في مهدها. فقد فشلت كل تلك المحاولات بسبب المقاومة العنيدة المستميتة التي أبدتها النساء الإيرانيات بشكل رئيس. فقد اكتسب الحجاب دلالة رمزية على نظام الحكم لأكثر من سبب. وكانت إعادة فرضه على النساء ستحقق النصر الكامل للوجه الإسلامي للثورة الذي لمّا يكن بعد قد تبلور بشكل كامل في تلك السنوات. كان قرار إلغاء الحجاب الذي أمر به «رضا شاه» عام ١٩٣٦ قد انطوى على رمز أخلاقي حداثي مثير للجدل، وإشارة صارخة تدلّ على تقليص سطوة رجال الدين. فأصبح من المهم جدًا لدى الطبقة الحاكمة من رجال الدين أن يستعيدوا الدفاع عن سطوتهم المستقبلية.

أجد نفسي اليوم قادرة على إيضاح كل ذلك، مستثمرة استيعابي المتأخر لتلك الأحداث التي لم تكن بهذا الوضوح مطلقًا حينذاك.

تجمّد السيد «بحري» في مكانه وهو يحاول التركيز على حروفي، بينما احتفظت «زارين» بابتسامتها المعتادة، وقد همستْ لها «ويدا» همسة متواطئة. لم أُعِرْ ردودَ أفعالهم اهتمامًا كبيرًا، فقد كنت في غاية الغضب.. وكان هذا الغضب شعورًا جديدًا لم أكن قد خبرته من قبل.

تباطأ السيد «بحري» في مغادرة الصف بعد أن ألغيتُ المحاضرة، وظل

يحوم حول تجمع الطلبة الذين تحلقوا حولي، لكنه لم يبد أية محاولة للتقرب أكثر. أعدت كتبي ودفتر ملاحظاتي إلى الحقيبة باستثناء «غاتسبي» الذي لم أنتبه إلى نسيانه في إحدى يديّ.

لم أشأ أن أدخل في جدل مع «مهتاب» وأصدقائها. فقد كان تنظيمهم الماركسي ضمنيًا يساند الحكومة، ويتهم المحتجّين بأنهم منحرفون مرتدون ويسببون الفتنة وأنهم في النهاية لا يخدمون إلا المصالح الإمبريالية. وبطريقة ما، وجدت نفسي لا أصطدم مع السيد «بحري»، وإنما مع أولئك الذين يزعمون التقدمية. فهم يتذرّعون «بأن ثمة «سمكة» أكبر يجب طبخها: وبأنه لا بد من محاربة الإمبرياليين وعملائهم في الدرجة الأولى. أما التركيز الآن على موضوع حقوق المرأة فهو أمر فرداني برجوازي، وهو ليس سوى ورقة يلعبون بها ضدنا!».

ـ «أية امبريالية؟ وأي عملاء تقصدون؟ هل تقصدون تلك الوجوه المدماة الذليلة التي تُعرض علينا كل ليلة في التلفزيون وهي تعترف بجرائمها؟ أم أنكم تقصدون هاتيك المومسات اللواتي رُجمن حتى الموت مؤخرًا؟ أو ربما تقصدون مديرة مدرستي السابقة السيدة «بارسا» التي اتُهمتْ مثلما اتُهمَتْ المومسات، بـ«الفساد في الأرض» وبـ«الجرائم الجنسية» وبـ«سوء الأخلاق والسلوك» كونها أصبحت وزيرة للتعليم؟ بسبب أيّ من تلك الجرائم المزعومة تم وضعها في كيس ورجمت أو أطلق عليها الرصاص حتى الموت؟ هل هؤلاء هم العملاء الذين تتحدثون عنهم؟ وهل سيكون علينا، لكي نمحو هؤلاء من وجه الأرض، أن نستسلم وألاّ نحتج؟!». ثم أعدت ضرب كرة الكلام من جديد: «لقد ألفتُ أسلوبكم في الجدل، لأنني على أية حال كنت في المعترك ذاته قبل مدة غير بعيدة».

حينما كنت أتجادل مع طلبتي اليساريين، كان ينتابني شعور مضحك بأنني كنت إنما أجادلُ نسخة مني أصغر قليلاً في السن. وكم كانت تخيفني تلك

الومضة التي ألمحها في تلك الوجوه الغريبة/ المألوفة! ولكن لا شك بأن طلبتي كانوا أكثر احترامًا وأقل عدوانية مني حينما كنت مثلهم أناقش قضية ما. فهم على أية حال كانوا يناقشون أستاذتهم التي يتعاطفون معها بعض الشيء، وكأنهم وجدوا فيّ رفيقة رحلة كانوا يحاولون إنقاذها.

وها أنني إذ أكتب عنهم في خضم ضبابية ادراكي المتأخر لكل ما حدث، أجد وجه «مهتاب» وقد بدأ يخفتُ شيئًا فشيئًا ليتخذ شكل فتاة أخرى.. شابة مثلها.. في نورمان أوكلاهوما!

[13]

في ذلك الوقت، حينما عشت في أوكلاهوما، حدث ذات مرة أن أقيم مؤتمر دعا إليه أحد الأحزاب المنافسة لحركتنا الطالبية، وهو التجمع الأكثر تطرفًا ضمن الاتحاد العالمي للطلبة الإيرانيين. ولم أحضر المؤتمر، لأنني كنت في اجتماع آخر في تكساس. وعند عودتي لاحظتُ في الأجواء آثارًا لحدث مثير على غير العادة، ضجّ به أعضاء «حزبنا» و«حزبهم». فهمتُ بعدها أن أحدًا من أعضائهم، وهو عدّاء سابق، كان يُشكّ بأنه عميل للاستخبارات الإيرانية «سافاك»، وقد قرّر بعض الأعضاء المتحمسين انتزاع الحقيقة من فمه. فاستدرجوه إلى غرفة في فندق الـ«هوليداي إن» وحاولوا إرغامه على الاعتراف باللجوء إلى التعذيب، حتى إنهم أحرقوا أصابعه بالسجائر مثلًا. وحينما تركوا الغرفة إلى موقف السيارات التابع للفندق، تمكن ضحيتهم من الهرب.

في اليوم التالي، انفتح الباب فجأة في خضم المؤتمر، واقتحم القاعة عدد من شرطة الـ«اف بي آي» مع كلابهم البوليسية بالإضافة إلى المتهم الذي طُلِبَ منه التعرف على مَن اعتدى عليه. سَردت لي إحدى صديقاتنا ما حدث، وكانت هي نفسها التي لامتني سابقًا على ارتدائي ملابس غير ثورروية. كان صوتها يتهدّج بسبب الانفعال وهي تروي لي القصة متفاخرة بـ«قوة الجماهير». وكانت تشير بذلك إلى الأعضاء المشاركين في المؤتمر الذين اصطفوا على الجانبين ليفسحوا المجال للشرطة بالمرور هم وكلابهم و«الضحية» المسكين.

وإذ كانوا يمرون عبر الطريق الضيق الذي فسِح لهم، دمدم الأعضاء بتهديدات باللغة الإيرانية موجّهة للضحية الذي وصل أخيرًا قرب أحد قادة ذلك الحزب، وهو الأكثر شعبية بينهم؛ كان شابًا قصير القامة مهيب الطلعة، وكان مثل كثير من رفاقه قد ترك الدراسة ليصبح ثوريًا متفرغًا، وقد اعتاد ارتداء قبعة ومعطف تيمنًا بـ«لينين». وهنا انهار «الضحية» وأجهش بالبكاء معاتبًا القائد وسأله بالإيرانية عن السبب الذي حدا به إلى معاملته بكل تلك القسوة. فألقى القائد الذي يدعو نفسه «لينين» الثورة الإيرانية، نظرة المنتصر على الرجل متحديًا إياه أن ينبس ببنت شفة للـ«اف بي آي». فلم تطاوعه نفسه على أن يشي بمعذبيه وخرج من القاعة مع الشرطة؛ صامتًا، مؤكدًا مرة أُخرى: «عدالة الشعوب المضطهدة»!

في اليوم التالي، نشر تقرير مختصر عن الحادث في صحيفة «أوكلاهوما ديلي». وما أرعبني فعلاً أكثر من التقرير، ردود الفعل التي عبر بها الكثير من الطلبه تجاه الحادث. فحيثما كان يجتمع الطلبة السياسيون الإيرانيون؛ في المقاهي وفي اتحاد الطلبة وفي الشوارع المشمسة لـ«نورمان»، كنت أرى النقاشات الساخنة تجري على قدم وساق. كان الكثيرون منهم يقتبسون العبارات الخطابية الرنّانة للرفيق «ستالين»، من آخر صيحة من كتبه آنذاك: «مختصر تاريخ الحزب البلشفي»، أو سواه من الكتب. وكانوا يتشدّقون بشعارات عن الحاجة الماسة لتدمير شامل وتام لكل من «التروتسكيين» و«الجيش الأبيض» والنمل الأبيض وكل الفئران التي تعتزم إخماد الثورة.

أذكر ذات مرة، كان بعض رفاقنا جالسين في اتحاد الطلبة يتناولون القهوة والكوكا، فتملّكهم الغضب فجأة، حتى إنهم ازعجوا الطاولة القريبة التي كان يتغازل حولها عاشقان، وراحوا يدافعون عن حق الشعوب في تعذيب ظالميهم وتصفيتهم جسديًا. وأتذكر أن أحدهم، وكان شابًا ممتلئ الجسم ذا وجه ناعم طفولي الملامح، وقد برزت حدود بطنه الدائريّ من تحت سترته الزرقاء

الصوفية، كان قد رفض الجلوس، ويقي ينظر من عليائه إلى طاولتنا وهو يؤرجح كأسًا من الكوكا بإحدى يديه بطريقة بهلوانية وهو يهتفُ مصرّحًا: إن هناك نوعين من التعذيب ونوعين من القتل: القتل على يد الأعداء والقتل على يد الأصدقاء. فلا بأس إذًا من أن نقتل أعداءنا.

استطعت أن أقول للسيد «بحري» آثر نقاش احتدم بيننا، وقد أصبح قريبًا مني بشكلٍ نهائي: «اسمعني.. انتبه لما قد تتمنى وحاول أن تحذر من أحلامك، لأنها قد تتحقق فعلاً ذات يوم!». كان بإمكاني أن أخبره بأن يتعلم من «غاتسبي»: «غاتسبي» الوحيد الانطوائي، الذي حاول هو الآخر أن يحيي الماضي، وأن يمنح الخيال لحمًا ودمًا، كان هذا حلمه الذي لم يتعدَّ أن يكون أكثر من حلم. ولقد قتل، وتُرك في مسبحه وحيدًا في مماته مثلما كان وحيدًا في حياته: «أنا أعلم جيدًا أنك في الغالب لم تكمل قراءة الكتاب حتى الآن، فلا بد أنك كنت مشغولاً جدًا في نشاطاتك السياسية، فدعني أحدثك عن الخاتمة على أية حال، لأنك بحاجة لأن تعرفها كما يبدو: ففي نهاية الرواية يُقتَلُ «غاتسبي».. يُقتل بسبب جريمة ترتكبها «ديزي»، بأن تَدهسَ عشيقة «توم» بسيارة «غاتسبي» الصفراء، فيشيرُ «توم» بأصابع الاتهام إلى «غاتسبي» محرّضًا الزوج المفجوع بموت زوجته، فيقتل الزوج «غاتسبي»، ليتمدد الأخير طافيًا في ماء مسبحه بانتظار أن تتصل به «ديزي». فهل كان من الممكن لرفاقي القدماء أن يتوقعوا أن يأتيهم يوم يحالون فيه الى المحاكم الثورية، فيُعذبون ويقتلون بتهم الخيانة والتجسس؟ هل كان بإمكانهم توقع كل ذلك يا سيد «بحري»؟ أستطيع أن أخبرك جازمة بأن ذلك لم يكن ممكنًا بحال. ولا حتى في أعتى الكوابيس!».

[14]

لقد تركتُ «مهتاب» وأصدقاءها، ولكن لم يكن من السهل عليّ ترك تلك الذكريات. فها هي تطاردني مثل متسوّل لجوج مزعج لتوصلني إلى الاجتماع الاحتجاجي.

ضمّ المحتجّون مجموعتين مختلفتين ومتعاديتين، راح أفرادهما يتبادلون نظرات الشك والريبة. وكانت المجموعة الأولى، وهي الأصغر، متكونة بشكل رئيس من عمال حكوميين وربّات بيوت. وقد تجمعوا هنا بسبب غريزي لإحساسهم بأن مصالحهم أصبحت مهددة. كان من الواضح أنهم لم يعتادوا جو التظاهرات، فقد تهافتوا مع بعضهم بعضًا متجمهرين، يملأهم التلفّتُ والاستياء. أما المجموعة الثانية فقد تألفت من فرقة من المثقفين من مثلي ومثل سوابي الذين لا يعرفون سوى القليل القليل عن المظاهرات. وأخيرًا كانت هناك مجموعة من الصاخبين المعتادين الذين كانوا يطلقون صيحاتهم ونداءاتهم البذيئة المهددة. وكان ثمة اثنان من بينهم يتقافزان بين الجموع بطريقة مقلقة ويلتقطان الصور، فغطينا وجوهنا وانسحبنا إلى الخلف ونحن نصرخ.

وسرعان ما ازداد عدد أفراد لجان الاقتصاص الفوري، فتجمعوا في مجموعات صغيرة، ثم بدأوا بالتحرك باتجاهنا. أطلقت الشرطة بعض العيارات النارية الروتينية في الجو، بينما تقدّمَ باتجاهنا رجالٌ مسلحون بالسكاكين والهراوات. وبدلاً من حماية النساء، راحت الشرطة تفرقنا، دافعين

بعضًا منا بأعقاب الرشاشات وهم يأمرون «الأخوات» بالكف عن إثارة المشاكل، وبالعودة إلى بيوتهن. كان ثمة شعور بالغضب العارم يعمّ الأجواء، وكان يتصاعد كلما زادت الإهانات والسخرية، وقد استمرت التظاهرة، على رغم كل الاستفزازات.

مرّت بضع ليالٍ على ذلك، وأقيم احتجاج آخر في الجامعة التكنولوجية. وعند وصولي كان حشد كبير قد تجمع في قاعة الاجتماعات الكبرى وهم يضحكون ويتحاورون. توجّهتِ المتحدثة إلى المنصة، وهي امرأة طويلة القامة جميلة الهيئة ترتدي تنورة طويلة خشنة، وقد ربطتْ شعرها الطويل إلى الخلف. قبل أن تصل المنصة انقطعتْ الكهرباء. سمعنا دمدمات احتجاج، بيد أن أحدًا لم يتزحزح من مكانه قيد أنملة. وقفت المتحدثة على المنصة بتحدٍ وثباتٍ والنص أمامها، بينما وقف بجانبها شخصان أحدهما حمل شمعة والآخر كشاف بطارية لكي تتمكن من القراءة. وكل ما استطعنا أن نراه هو وجهها الذي اختفَتْ ملامحه والورقة البيضاء التي في يدها وقد أضاءها النور من خلفها. ولم يبقَ في بالي إلا نبرة صوتها وذلك الضياء، فلم نكن نستمع لكلماتها، لقد كنا هناك فقط للمساندة والدعم، ولكي نكون شهودًا على الواقعة، فتحتفظ ذاكرتنا بصورة تلك المرأة وهي تومض وتخفتُ على ضوء الشمعة.

لم يُكتب لنا عمومًا أن نلتقيَ أنا وتلك المرأة الا في خضم النشاطات والأحداث العامة. وقد التقينا آخر مرة في خريف عام ١٩٩٩ في نيويورك، اذ كانت مدعوة للحديث في جامعة كولومبيا، بصفتها أول ناشرة نسوية في إيران. وبعد الاجتماع جلسنا معًا نتناول القهوة بالذكريات، إذ لم نكن قد التقينا قبل ذلك منذ عام ١٩٩٣، حينما كنا في معرض طهران للكتاب.

في معرض الكتاب، كانت قد دعتني لتقديم ورقة عن الرواية الحديثة. كانت الندوة في الطابق الثاني لمقهى مفتوح في المبنى الرئيس للمعرض. وما إن

بدأت بالحديث حتى بدأ انفعالي حول موضوعي يتزايد شيئًا فشيئًا، وراح إيشاربي ينزلق عن شعري إلى الوراء بالتدريج. كان عدد الجمهور يتزايد، ولم يعد ثمة مكان للجلوس أو حتى للوقوف. وما أن انتهتْ الندوة، حتى استدعى رجال الأمن تلك المرأة، ونالتْ منهم ما نالته من توبيخ على حجابي غير المناسب وعلى حديثي التحريضي الملتهب. والحقيقة هي أنني كنت قد تحدثت عن أعمال أدبية صرف، ولم أتحدّث عن شيء ذي قيمة بالنسبة لهم. وبعد هذا الحادث قاموا بمنعها من استكمال سلسلة نشاطاتها الثقافية.

كنا نبتسم إزاء تلك الذكريات، ونحن جالستان بأمان، في ركن معتم من أحد المطاعم في مساءٍ نيويوركي دفيء منشغلٍ عنا بلا مبالاته. فجأةً أحسست بأن تلك المرأة لم تتغير مطلقًا، منذ أن ألقتْ ذلك الخطاب منذ سنوات خلت. فها هي ما زالت ترتدي تنورة طويلة خشنة، وما زال شعرها الطويل معقوصًا إلى الخلف. لم تتغير سوى ابتسامتها: فقد كانت حينذاك ابتسامة من خيبة.

بعد أشهر من ذلك اللقاء ألقي القبض على المرأة مع عدد من الناشطين البارزين والصحافيين والكتّاب والقادة الطالبيين. كانت هذه الاعتقالات جزءًا من موجة عنف جديدة تم في غضونها إغلاق أكثر من خمسة وعشرين صحيفة بالإضافة إلى اعتقال أو الحكم بالسجن على الكثير من المعارضين. وإذ سمعت الخبر وأنا جالسة في مكتبي في «واشنطن دي سي»، انتابني شعور كنتُ نسيته منذ زمن بعيد: إحساس بالعجز الكامل، بالغضب الصموت الذي يشوبهُ إحساس غامض مُلِحّ بالذنب.

[15]

كان يومًا خريفيًا شبيهًا بهذا اليوم حينما تحدثنا أنا والسيد «بحري» مرة أخرى. قال لي: «ولكن يا أستاذة، إنهم عمومًا يستحقون ذلك، فالطلبة غاضبون جدًا». كنا نتحدث عن ثلاثة من أعضاء الهيئة التدريسية المهددين بالفصل، وقد هدّدوا أحدهم لكونه أميركيًا، وبحجة أنه استخدم لغة فاحشة داخل قاعة الدرس، وهي التهمة نفسها التي وُجّهتْ لزميلي الذي كان يصف نفسه بأنه «غاتسبي العظيم الصغير». أما الثالث فقد اتُّهم بأنه عميل للـ«سي آي أي». وكان الدكتور «أ»، الذي لم يكن بعدُ قد ترك رئاسة القسم آنذاك، قد رفض التصديق على فصلهم.

كان الدكتور «أ» نفسه قد بدأ يفقد شعبيته بشكل متسارع. ففي الأيام الأولى للثورة، قدّمهُ الطلبة في جامعة طهران للمحاكمة بتهمة دفاعه عن حارس سجن، وكان الأخير طالبًا سابقًا عنده. وبعد ثمانية عشر عامًا من الحادث، قرأت إطراءً كتبْتهُ بحقه إحدى طالباته السابقات، وكانت قد أصبحتْ مترجمة معروفة آنذاك. وتقول فيما تقول: إنها كانت ذات يوم تشاهد على التلفزيون محاكمة وكيل للشرطة السرية، فسمعت صوتًا مألوفًا أثار انتباهها فإذا به صوت الدكتور «أ» تقول بأنه كان يدلي بشهادته لصالح طالب سابق له. وقد شهد بأنه كان شخصًا رحيمًا عطوفًا، وكان غالبًا ما يساعد زملاءه إذا ما تورّطوا في مشكلة. قال الدكتور «أ» للمحكمة الثورية: «أظن أن من واجبي كإنسان أن

أُطلع المحكمة على هذا الجانب من شخصية المتهم». وإبان تلك الأيام الأولى، أيام الأسود والأبيض للثورة، لم نكن نسمع بعملٍ كهذا مطلقًا، وكان من يقوم به يعرّض نفسه لخطر حقيقي.

كان المتهم، وهو طالب في الدراسة المسائية في الجامعة، يعمل حارسًا في أحد السجون، واتضح بانه متهم بضرب وتعذيب سجناء سياسيين. وقد قيل إنه استنادًا إلى شهادة الدكتور «أ» التي كانت لصالحه، استطاع أن ينفد بجلده من العقاب، ولم يحكم عليه بغير سنتي سجن، ولا يعرف أي من أصدقائي أو معارفي شيئًا عمّا حدث له بعد ذلك.

تقول طالبة الدكتور «أ» بأنها من جانبها نَدِمتْ لأنها شاركت في المحكمة من دون أن تدلي بشهادة. وتستمر في الحديث مستنتجة بأن العمل الذي قام به الدكتور «أ» هو تطبيق عملي واضح للمبادئ التي كان يُدرّسها في محاضراته الأدبية. وتضيف قائلة: «إن فعلاً كهذا لا يأتي به إلا شخص ضالع في الأدب، وقد خَبر أن أي إنسان في العالم لا بد وأن تكون لشخصيته أكثر من بعد واحد، وعلى هؤلاء القضاة أن يأخذوا في الاعتبار مختلف الجوانب التي تكوّن شخصية الفرد. فعبر الأدب فقط، يمكن للمرء أن يضع نفسه موضع الآخر، فيحسّ به ويتفهم الجوانب المختلفة والمتناقضة فيه، مما يحول دون أن يكون معه قاسيًا جدًا. أما خارج نطاق الأدب، فلن نعرف للمرء ربما إلا وجهًا واحدًا. فاذا ما تفهمنا الأبعاد المختلفة للآخر لن يكون من السهل علينا قتل الآخر. آه!.. لو أننا فقط كنا فهمنا هذا الدرس من الدكتور «أ»، لكان مجتمعنا قد أصبحَ في وضع أفضل بكثير مما هو عليه الآن!».

كانت التهديدات بالفصل جزءًا من عمليات التطهير الواسعة التي استمرّت طوال ذلك العام، والتي لم تتوقف في الواقع حتى يومنا هذا. وبعد اجتماع لنا مع الدكتور «أ» وزميلين آخرين بشأن هذه القضية، خرجتُ غاضبة ليصادفني السيد «بحري». كان واقفًا في زاوية الممر الطويل يتحدث إلى رئيس جمعية

الطلبة المسلمين في الجامعة. كان الاثنان متفقين معًا في موقفهما تجاه الرجال المتورطين في القضايا الخطرة الجسيمة؛ أو قضايا الحياة والموت. ناديتُه فهرع إليّ بكثير من الاحترام وهو يحاول بلباقة إخفاء أي ارتباكٍ كان من الممكن أن يبدو عليه إثر ذلك التشتت. وسألته عن المحاكمات وقرارات الفصل غير الشرعية للأساتذة.

بدتْ تعابير وجهه متأرجحة بين التحذير والحسم. وأوضح لي أن عليّ أن أدرك بأن الأمور قد تغيّرت. قلت لهُ: «وماذا تعني بهذا الكلام؟ ماذا يعني «أن الأمور قد تغيّرت»؟ تعني بأن الأخلاق هي الأهم لطلبتنا وبأن الأساتذة هم المُثل العليا للأخلاق، هل هذا هو ما تريد قوله؟ وهل هذا يكفي لتبرير إحالة أستاذ مسؤول ومتفانٍ في عمله مثل الدكتور «أ» للمحاكمة؟».

أجاب السيد «بحري» بأنه هو نفسه لم يكن مشاركًا في تلك المحاكمة، ثم أضاف: «لا شك أن تصرفات الدكتور «أ» مغرية جدًا، وهو رجلٌ غَزِلٌ خليع».

فرددتُ عليه: «فهذه إذًا هي التعريفات الجديدة لمصطلح: «الغرينة»؟! أين نعيش رسميًا بالضبط؟ في الاتحاد السوفياتي أم في الصين؟ وهل سيكون علينا الآن أن نحاكم الدكتور «أ» بسبب كونه غَزِلاً؟».

فقال: «لا.. وإنما لا بد له هو أن يحسن تقدير بعض الأمور. فلا يمكنه مثلاً المضي في مساندة جاسوس عميل، أو شخص مسؤول عن موت الكثيرين».

ومضى يحدثني بأنه يرى أن ثمة آخرين كثيرين هم أخطر جدًا من الدكتور «أ» وتجب محاكمتهم. فثمة جواسيس للـ«سي آي أي» مثل أستاذنا «ز»، الذي يمضي فوق الأرض حرًا طليقًا من دون أن يجد من يردعه.

فأخبرته بأنّ لا دليل لديهم على أن المومى إليه عميل للـ«سي آي أي». وعلى أية حال، أنا أشك فعلاً أن الـ«سي آي أي» أغبياء إلى حدّ أن يوظفوا أحدًا مثلهُ. ولكن حتى أولئك الذين يدعوهم هو بـ«أزلام النظام السابق»، فبغض النظر عن ذنوبهم، لا يجب أن يُعاملوا بهذه الطريقة. ليس بوسعي أن أفهم لماذا تشعر

الحكومة الإسلامية بـ«الظفر» لموت هؤلاء الناس؟ ولماذا يعرضون لنا صورهم بزهوٍ بعد تعذيبهم وإعدامهم؟ لماذا يعرضون لنا تلك الصور؟ لماذا يصرخ طلبتنا كل يوم رافعين شعارات تطالب بالمزيد من قرارات الإعدام؟

لم يجبْني السيد «بحري» في البداية، بل اكتفى بصمته، مطرقًا رأسه ويداه معقودتان أمامه. ثم بدأ كلامه ببطء وهو يحاول لجم توتره وضبط انفعاله: «حسنًا.. لا بد لهم من أن يدفعوا الثمن.. فهم يحاكمون على أفعالهم السابقة، ولن تغفر لهم الامة الإيرانية تلك الجرائم». فبادرته ما إن لفظ كلمته الأخيرة: «وماذا عن الجرائم الجديدة؟ هل لا بد لها من أن تُغتفرَ بصمت؟ لقد أصبح كل فرد في هذه الأيام عدوًا لله؛ الوزراء السابقون، التربويون، أساتذة الجامعة، اليساريون، الثورويون.. إنهم يُقتلون بشكل يوميّ. فما الذي فعله هؤلاء البشر ليستحقوا هذا العقاب؟».

احتدّت ملامح وجهه، ولوّنت عينيه ظلالُ العناد. وكرّر بأن على هؤلاء أن يدفعوا ثمن جرائمهم السابقة. وقال: «إنها ليست لعبة.. إنها ثورة!». فسألته ما إذا كنت أنا الأخرى سأحاكم على ماضيّ؟

ومع هذا فقد كان على حق بطريقة ما، لأن علينا جميعًا أن ندفع الثمن في المحصلة النهائية. فليس ثمة أبرياء في لعبة الحياة، إنه لأمر أكيد ولا جدال فيه. كان علينا جميعًا أن ندفع الثمن، ولكن ربما ليس بسبب الجرائم التي نُتّهَم بها، بل ثمة حسابات أخرى كان لا بد من تصفيتها ودفع ثمنها. ولم أكن أعلم ساعتها بأنني كنت أصلاً قد ابتدأت بالسداد، وبأن ما يحدث كان جزءًا مهمًا من ذلك الثمن. وكان قد مضى وقت طويل جدًا حتى بدأت تلك المشاعر تصبحُ واضحة مفهومة.

[16]

كانت الساعة متأخرة، وكنت قد قضيتُ الوقت في المكتبة، كنت أقضي وقتًا طويلاً هناك بالفعل في تلك الأيام، فقد أصبحت صعوبة العثور على روايات «إمبريالية» تغدو مستحيلة يومًا بعد آخر في أماكن بيع الكتب. كنت خارجة من المكتبة وأنا أتأبّطُ عددًا من الكتب عندما لمحته واقفًا عند الباب. كانت يداه معقودتين أمامه تعبيرًا عن احترامه لي بصفتي أستاذته، بيد أنني كنتُ أستطيع أن أحدس عبر ابتسامته المشدودة المتكلّفة مدى إحساسه بقوته. لا أستطيع أن أتذكر السيد «نيازي» إلا وهو يرتدي قميصًا أبيض مزرّرًا حتى الرقبة، متهدّلاً فوق بنطاله (لم أره وقد أدخل قميصه في البنطال أبدًا!). كان قصير القامة ممتلئ الجسم، عيناه زرقاوان وشعره بنيّ فاتح ذو قصة تكاد تقترب من الصفر، ورقبته سميكة وردية كانت تبدو وكأنها مصنوعة من طين طري، وكأنها، بالحرف الواحد، تتربّع مستريحةً على ياقة قميصه. لقد كان دائمًا في غاية الأدب والتهذيب.

- «سيدتي.. هل يمكنني الحديث معك لثوانٍ؟».

رغم أننا كنا في منتصف الفصل الدراسي إلا أنني لما أكن بعدُ قد أستلمتُ مكتبًا خاصًا بي، لذا فقد وقفنا معًا هناك في الممر لأستمع اليه. كان يشتكي من «غاتسبي» قائلاً بأنه لم يكن ليتحدّث في الأمر لولا حرصه على مصلحتي (مصلحتي؟ يا له من تعبير غريب!). قال بأنني لابد من أن أكون متأكدة من تقديره ومعزّته لي وهو هنا من أجل ذلك فقط، وقال بأن لديه اعتراض.

ـ «اعتراض؟.. على من؟.. ولماذا اخترتني أنا لتعترض؟».

ـ «الدي اعتراض على «غاتسبي»..!».

فسألته بمزاح ما إذا كان قد ملأ أي استمارة شكوى رسمية ضد السيد «غاتسبي»، وذكّرته بأن أي إجراء من هذا النوع، سيكون غير ذي قيمة على أية حال، لأن الرجل أصلاً قد مات. ولكنه بدا جادًا فعلاً.

ـ «لا يا أستاذة، أنا لا أعترض على السيد «غاتسبي» نفسه، وإنما على الرواية.. فهي رواية لا أخلاقية، إنها تعلّم الشباب أمورًا خاطئة، إنها تسمّم أفكارهم، هذه حقيقة، وأنا أرى ذلك واضحًا جدًا!».

لكنني لم أكن أرى ذلك واضحًا، وذكّرته بأن رواية «غاتسبي» هي عملٌ أدبي وليست كتيّب إرشادات: أفعل ولا تفعل. ولكنه أصرّ: «أنا أرى ذلك واضحًا فعلاً، وأجد بأن هذه الروايات وشخوصها قد أصبحوا مثلاً لنا في حياتنا اليومية. فربما يكون السيد «غاتسبي» لا بأس به بالنسبة للأميركيين، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للشباب الثوروي».

ولسبب ما، راحتْ تلحّ عليّ جدًا فكرة أن يكون السيد «نيازي» ربما توّاقًا لأن يصبح شبيهًا بـ«غاتسبي»!

لم يكن ثمة فرق لدى السيد «نيازي» بين الخيال عند «فيتزجيرالد» وبين الحقائق في حياته الواقعية. قالَ بنبرة في غاية الجدية: إن رواية «غاتسبي العظيم» هي تمثيل نموذجي لأميركا، وأميركا هي «سم» و«فساد» لنا، إنها فعلاً كذلك، وعلينا أن نعلّم الشباب الإيراني أن يحاربوا ضد الفجور الأميركي. «لقد كان صادقًا جدًا، قادمًا عن طيب خاطر ونية حسنة».

وفجأة خطرت ببالي فكرة مشاكسة؛ لماذا لا نبادر نحن أيضًا في تلك الأيام، أيام مسلسلات المحاكمات العلنية، ونقوم بمحاكمة «غاتسبي»؟ فيكون السيد «نيازي» هو القاضي، ويكون عليه أن يقدم ورقة يعرض فيها أدلته! وقلت له بأنه حينما طُبعت كتب «فيتزجيرالد» في الولايات المتحدة، أحسّ الكثيرون

بما يحسّ به الآن، ربما كانوا قد عبّروا عن أنفسهم بشكل مغاير، ولكنهم كانوا يقولون الشيء نفسه بطريقة أو بأُخرى، لذا فإن عليه ألا يشعر بالوحدة إذ يعبّر عن وجهة نظره.

وفي اليوم التالي، طرحتُ الفكرة على طلبتي في المحاضرة، وعلى الرغم من أنه لم يكن بإمكاننا إقامة محكمة بالمعنى الحقيقي، الا أنه كان من الممكن جدًا أن نعيّن طلبة ليقوموا بأدوار الادعاء العام ومحامي الدفاع والمدّعى عليه، بينما نفترض أن يكون باقي الطلبة بمثابة محلفين. وإذ افترضنا أن يكون السيد «نيازي» هو الادعاء العام، فقد كنا بحاجة الى قاضٍ ومدّعى عليه ومحامي دفاع.

ولمّا لم يتطوع أحدٌ لشغل أيّ من المناصب، استطعنا أخيرًا بعد جدل ونقاش كبيرين أن نقنعَ أحد الطلبة اليساريين بأن يكون القاضي. وحينئذٍ اعترض السيد «نيازي» وأصدقاؤه: «لأن هذا الطالب لن يكون منصفًا مع الادعاء العام!». وبعد مشاورات ومداولات أعمق، تمّت الموافقة على السيد «فرزان»، وهو طالب معتدل مجتهد في الدراسة، معتدٌّ بنفسه بعض الشيء، وكان لحسن الحظ خجولاً أيضًا. ولكننا لم نستطعْ أن نقنعَ أحدًا بأن يكون محامي الدفاع. وربما كان لا بد لي، طالما أنني انتقيتُ الكتاب بنفسي، من أن أتولى بنفسي الدفاع عنه. فحاولت إقناع طلبتي أنه في هذه الحالة، لا بد لي من أن أكون المدّعى عليه، وليس محامي الدفاع، ووعدتهم بأن أتعاون بأقصى درجة مع المحامي، وأن اقدّم دفاعي الشخصي أيضًا. كانت «زارين» قد عقدتْ مؤتمرًا سرّيًا هامسًا مع «ويدا»، وبعد بضع لكزات مقنعة قررتْ أخيرًا أن تبادر. فسألتني ما إذا كنت أنا «فيتزجيرالد» ام أنني الكتاب نفسهُ. فقررنا أن أكون الكتاب. فقد كان من الممكن أن يكون لـ«فيتزجيرالد» بعض الخواص التي وضعها في الكتاب أو أنه غفل عنها، وقررنا بأننا سنستطيع الوقوف عندها ومناقشتها. ثم اتفقنا على أنه يجوز في هذه المحكمة أن يقاطع بقية الطلبة المحامي أو الادعاء العام في أية نقطة يجدون أنها قد تجيب على أسئلتهم أو تفيد تعليقاتهم.

أحسستُ بأنني أخطأتُ في اختياري أن أكون المُدّعى عليه، لا لشيء سوى لأن ذلك قد يضع الادعاء العام في موقف حرج. وفي كل الأحوال كان الأمر سيغدو أكثر إثارة لو أن أحد الطلبة اختار أن يكون مكاني. لكنني لمستُ في السيد «نيازي» غطرسة عصبيّة على المعالجة، حتى أقنعتُ نفسي في النهاية بأن عليّ أن أصدّه وألاّ أستسلم لتهديده.

وبعيد أيام، جاءني السيد «بحري»، بدا لي وكأننا لم نلتقِ منذ زمنٍ بعيد. كان غاضبًا بعض الشيء، استمتعتُ لأنها كانت المرة الأولى التي أراه فيها مستثارًا، حتى أنه نسي طريقته المتأنية الحذرة في الحديث. وقال: «هل كان من الضروري أن تُخضع ذلك الكتاب للمحاكمة؟!». فجفلتُ للحظة؛ هل كان يريد مني أن ألقي بالكتاب جانبًا من دون حتى كلمة للدفاع عنه؟ وقلت لهُ: «أليس هذا هو الزمن الأنسب للمحاكمات؟!».

[17]

بقيتُ أسبوعًا كاملاً قبل المحاكمة مشغولة البال ولو جزئيًا بصوغ دفاعي فيها؛ أينما كنت ومهما كان ما أفعله سواء أكان حديثًا مع الأصدقاء أو العائلة أو إعدادًا للدرس. فلم يكن الأمر على أية حال محض دفاع عن رواية «غاتسبي»، وإنما عن أسلوب برمته يخصّ النظرة إلى الأدب وعلاقته بالواقع وتقييمنا للذلك الأمر. أما «بيجان»، الذي بدا مقتنعًا بجدية المحكمة، فقد قال لي ذات يوم بأنني كنتُ أقرأ «غاتسبي» بجديّةٍ ودقّةِ محامٍ يتفحّصُ كتابًا في القانون. فالتفتُّ إليه وقلت: «لا تقلْ لي إنك تنظر بجدية إلىّ كل ذلك؟» فأجاب: «لا شك أنني أنظر إليه بجدية. لقد وضعتِ نفسك في موضع هشّ أمام طلبتك، فسمحتِ لهم بأن.. لا.. ليس هذا.. بل لنقل إنك دفعتِ بهم دفعًا الى التشكيك في حكمك كأستاذة. لذا فإنه سيكون لزامًا عليك أن تكسبي هذه القضية، إنه أمر في غاية الأهمية لأستاذة مثلك؛ جديدة في الهيئة التدريسية وفي أول فصل دراسيّ لها. أما إذا كنت تبحثين عن التعاطف، فإنك لن تجدي ذلك عندي، أنت مولعة بالأمر، عليك أن تعترفي بذلك، فأنت تعشقين هذا النوع من الإثارة والتشويق، واحسّ بأنك في المرحلة القادمة، سوف تحاولين إقناعي بأن الثورة برمّتها تعتمد على محاكمة «غاتسبي» بشكل كامل!».

فقلتُ بما يشبه التوسّل: «ولكنها كذلك فعلاً.. ألا ترى ذلك؟». فهزّ كتفه باستخفاف وقال: «أرى ذلك تمامًا!.. بل وأقترحُ أن تطرحي آراءك على آية الله الخميني!».

في يوم المحاكمة.. ذهبت إلى دوامي مبكرة، تسكّعتُ في الشوارع المورقة الأشجار قبل أن أتوجّه إلى الدرس. دخلت مبنى كلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية. وعند الباب، وجدتُ «مهتاب» تقف مع فتاة أخرى، وقد ارتسمتْ على وجهها ابتسامة عريضة مميزة مثل طفلٍ كسول فاز بدرجة كاملة. وبادرتني: «يا أستاذة.. لا أدري ما إذا كان لديك أي مانع من حضور «نسرين» معنا محاضرة هذا اليوم؟». فنظرتُ إلى رفيقتها الأصغر منها ولم تكن قد تجاوزت الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر. كانت في غاية الجمال رغم جهودها الكبيرة الواضحة لمحاولة إخفاء ذلك. كانت ملامحها الرقيقة متناقضة مع تعابير وجهها التي حاولت أن تجعلها تبدو مهيبة وحيادية ومنغلقة. كان جسدها وحده يبدو وكأنه يعبر عن شيء ما؛ فلم تكفّ عن الاستناد على ساقٍ ثم على الأخرى تباعًا، بينما كانت يدها اليمنى تمسك وترخي الطوق السميك للحقيبة الثقيلة التي حملتها على كتفها.

أخبرتني «مهتاب» بحيوية تجاوزت المعتاد بأن لغة «نسرين» الإنكليزية هي أفضل من معظم الـ«أطفال» الجامعيين! وبأنها حينما سمعَتْ منها عن محاكمة «غاتسبي» كانت في غاية الفضول حتى أنها قرأت الكتاب كلّه. فالتفتُّ إلى «نسرين» وسألتها: «وما رأيك بـ«غاتسبي»؟». فصمتتْ قليلاً، ثم قالت بهدوء: «لا أستطيع القول». فقلتُ: «هل تعنين أنك لا تعرفين.. أم أنك لا تستطيعين أن تقولي لي؟». فقالت: «لا أعرف.. ولكن ربما أنني فقط لا أستطيع أن أقول لك».

وكانت هذه هي بداية كل شيء مع «نسرين». وقد جاءتني بعد المحاكمة، وطلبتْ مني السماح لها بمواصلة حضور محاضراتي كلما استطاعتْ.

حدّثتني «مهتاب» بأن «نسرين» كانت جارتهم، وهي تنتمي إلى تنظيم إسلامي، ولكنها فتاة جديرة بالاهتمام، وكانت «مهتاب» تشتغل عليها، وهو مصطلح استخدمه اليساريون لوصف تحرّكهم نحو شخصٍ ما في محاولة لتنظيمه.

قلت لـ«نسرين» إن بإمكانها حضور محاضراتي شرطَ أن تعدني بتقديم ورقة بحثية عن «غاتسبي» من خمسَ عشرة صفحة في آخر الفصل الدراسي. فصمتَتْ كما كانت تفعل دائمًا، وكأنها لم تكنْ تملكُ الكلمات الكافية للتعبير، كانت تجيب دائمًا وكأنها مضطرة للإجابة أو كارهة لها، وبوسع أي أمرئ أن يشعر بالذنب لأنه جعلها تتكلّم. في البدء تردّدتْ قليلاً ثم قالت: «لستُ بهذه الكفاءة».. وقلت: «أنت لستِ بحاجة لأن تكوني غاية في الكفاءة، رغم أنني متأكدة بأنك كذلك، ففي أقل القليل أنت تقضين أوقات فراغك هنا. وأنا لا أطالبك بكتابة بحث أكاديميّ، أريد منك فقط أن تكتبي لي انطباعاتك الشخصية، حدثيني بإسلوبك الخاص عما تعنيه لك رواية «غاتسبي»». كانت تنظر إلى طرف حذائها، وهي تتمتمُ قائلةً بأنها ستحاول.

ومنذ ذلك الحين، صرت كلما دخلتُ الصف أتطلّع حولي لأبحثَ عن «نسرين». كانت عادةً تتبع «مهتاب» وتجلس قربها، ثم وجدتها في أكثر من مرة حاضرة برغم غياب «مهتاب»، وكنت أراها غالبًا مشغولة بكتابة الملاحظات طوال وقت المحاضرة. وفجأة انقطعَتْ عن الحضور، حتى حان موعد آخر محاضرة في الفصل الدراسي، فرأيتها جالسة عند الزاوية تشغل نفسها بملاحظات تخربشها على الورق.

في ذلك الصباح، وبعد أن سمحتُ لصبيتي الجديدة أن تحضر معنا محاكمة «غاتسبي»، تركتُ الفتاتين معًا ومضيت في طريقي. كنت مضطرة إلى المرور برئاسة القسم لأخذ كتاب كان الدكتور «أ» قد تركه لي هناك. وحينما دخلت قاعة المحاضرات بعد ظهر ذلك اليوم، أحسستُ بصمتٍ ثقيل يتبعني إلى هناك. كان عدد الطلبة مكتملاً ولم يتغيب سوى طالب أو اثنين. بالإضافة الى السيد «بحري» الذي حال دون حضوره نشاطاته السياسية أو استنكاره. كانت «زارين» تضحك وتتراشق الملاحظات مع «ويدا»، بينما وقف السيد «نيازي» في الزاوية يتحدث إلى اثنين من الطلبة الإسلاميين، وانتظم الثلاثة في أماكنهم

عندما لمحوني. أما «مهتاب» فقد جلستْ مع رفيقتها الجديدة وهما تتهامسان متواطئتَين.

تحدثتُ بإيجاز عن فروض الأسبوع القادم، ثم شرعتُ في تقديم المحاكمة. في البداية، ناديتُ على السيد «فرزان»، القاضي، وطلبتُ منه الجلوس في كرسيّ المعتاد خلف طاولة المكتب. فتمشى ببطء وهو يجرّ أقدامه صوب مقدمة القاعة بتظاهر بائس بالثقة بالنفس. وقد وضعنا كرسيًا قرب القاضي من أجل الشهود. وجلستُ أنا قرب «زارين» في الجانب الأيسر من الصف، عند الشباك الكبير، بينما جلس السيد «نيازي» مع بعض أصدقائه في الجانب الآخر عند الحائط. أعلن القاضي بدء المحاكمة. وبهذا بدأت قضية الجمهورية الإسلامية.. ضد المُدّعى عليه «غاتسبي العظيم».

نوديَ على السيد «نيازي» ليدلي بدعواه على المدّعى عليه. وبدل أن يقف، ارتأى سحْبَ كرسيّه إلى منتصف القاعة، وبدأ يقرأ بنبرة رتيبة كلماتٍ من ورقة مكتوبة سلفًا. جلس القاضي خلف طاولة مكتبي بغير ارتياح، وبدا وكأنه مسحور بكلام السيد «نيازي»، فكان يرمش بشيء من الانفعال بين الحين والحين.

قبل أشهر قليلة، قررتُ أخيرًا أن أقوم بتصفية أوراقي وملفاتي القديمة، ووقعت بالصدفة على تلك الورقة التي كتبها السيد «نيازي» بخطه المرتب النظيف، وقد افتتحَ صفحته بعبارة: «بسم الله» التي أصبحتْ فيما بعد إلزامية في الأوراق الرسمية والخطابات العلنية كافة. كان السيد «نيازي» يلتقط أوراقه الواحدة تلو الأخرى، وكان يبدو متشبثًا بالورقة وليس ممسكًا بها، وكأنما كان يخشى عليها أن تحاول الهرب من بين يديه وهو يقرأ: «إن الإسلام هو الدين الوحيد في هذا العالم الذي منحَ الأدب دورًا دينيًا خاصًا في إرشاد وهداية الإنسان إلى حياة الورع، ونستطيع أن نلمس ذلك جليًا حينما نتأمل القرآن الكريم، وهو كلام الله عز وجل، ونتأمل كيف أنه كان معجزة الرسول محمد.

فبالكلمة تستطيع أن تشفي أو تدمّر، تستطيع أن تهدي أو تفسد. ولهذا فإن الكلمة قد تنتمي إلى الله سبحانه وتعالى.. أو إلى الشيطان».

وواصل خطبته برتابة، وبإحساس بهيج بالنصر، وهو يضع ورقة ويلتقط الأخرى: «لقد أوكل الإمام الخميني للكتّاب والشعراء مهمة عظيمة، ووضع على عاتقهم رسالة مقدسة؛ رسالة هي أسمى بكثير من تلك التي يمتلكها الكتّاب الماديون في الغرب. فإذا ما كان إمامُنا هو الراعي الذي يقود القطيع إلى مرعاه، فعلى الكتّاب أن يكونوا كلاب الحراسة المخلصين الذين يقع عليهم واجب اتباع القيادة وفقًا لما تمليه مشيئة الراعي».

تناهت قهقهة من آخر الصف، فاستدرتُ وألقيتُ نظرة عجلى حولي، لأضبط «زارين» و«ويدا» وهما تتهامسان. كانت «نسرين» تحدّق في السيد «نيازي» بتركيز، وهي تقضم قلمها الرصاص من دون وعي منها. وبدا السيّد «فرزان» منشغلاً بذبابة غير مرئية، وكان يغالي وهو يطرفُ عينيه بين الحين والحين. وحينما عدت إلى السيد «نيازي» وجدته يقول: «فلتسأل نفسك إذًا: أيهما تُفضّل أكثر؛ أن يُعهد إليك بمهمة دينية مقدسة، أم أن تحظى بالمال والمنصب أو بالتقدير المادي الذي أفسد»... وهنا توقّف قليلاً من دون أن يرفع بصره عن ورقته، وكأنه كان يحاول أن ينتشل كلماته الغارقة ليطفوا بها إلى السطح، فكرر مرة أخرى: «..الذي أفسد الكتّاب الغربيين وجرّد أعمالهم الأدبية من الهدف الروحي؟ يقول لنا إمامنا بهذا الصدد بأن القلم أمضى من السيف».

بدأت الهمهمات والضحكات نصف المكبوتة القادمة من الصفوف الخلفية تصبح مسموعة. لم يكن السيد «فرزان» قاضيًا بارعًا حتى يتنبّه لذلك. فبادرُ أحد أصدقاء السيد «نيازي» من الخلف وهو يصيحُ متوسلاً: «يا سيادة القاضي.. هلاّ أوعزتَ إلى السادة والسيدات في الخطوط الخلفية إلى احترام المحكمة والادعاء العام؟».

فقال السيد «فرزان» بلا مبالاة: «وليكن كذلك».

وواصل السيد «نيازي»: «إن شعراءنا وكتابنا وهم يخوضون هذه المعركة ضد الشيطان إنما يقومون بالدور نفسه الذي يقوم به جنودنا المخلصون الغيارى، ولسوف يُجزون على ذلك خير الجزاء في الآخرة. أما نحن الطلبة، حرّاس المستقبل الثقافي، فثمة مهمة جسيمة تقع على عاتقنا اليوم؛ فلقد رفعنا اليوم راية الاسلام الخفاقة بالنصر في عقر عشّ الجواسيس، وعلى تراب أرضنا نحن. ومهمتنا، كما أوعز لنا إمامنا، هي تطهير البلاد من الثقافة الغربية الفاسدة و....»

وهنا وقفتُ «زارين» وصاحتْ: «أعترض يا سيادة القاضي».

فنظر إليها السيد «فرزان» بشيء من المفاجأة: «لماذا الاعتراض؟». فقالت: «من المفترض أن تكون المحاكمة لـ«غاتسبي العظيم»، ولقد أخذ الادعاء العام خمس عشرة دقيقة من وقتنا الثمين من دون أن يتفوه بكلمة بشأن المُدّعى عليه، فإلى أين يمضي بنا؟».

نظر إليها كل من السيد «فرزان» والسيد «نيازي» نظرة حائرة بضع ثوان. ثم بادر السيد «نيازي» من دون أن ينظر الى «زارين»: «هذه محكمة إسلامية وليست محكمة «بَري مايسون»[1]، وأستطيع طرح قضيتي بالطريقة التي أراها ملائمة، وها أنني بصدد تحديد أبعاد القضية. وما أريد أن أقوله هو أنني، كوني مسلمًا، لا أستطيع أن أتقبل «غاتسبي»»...

فقال السيد «فرزان» محاولاً تعزيز دوره: «حسنًا.. فلتكمل مرافعتك إذًا».

كانت مقاطعة «زارين» قد أزعجت السيد «نيازي»، الذي قام بُعيد صمت قصير برفع رأسه عن ورقته وقال بشيء من الانفعال: «أنتم على حق.. لا جدوى، فالأمر لا يستحق كل ذلك».

تركَنا السيد «نيازي» بضع ثوان للحيرة والبحث عن الشيء الذي لا يستحق

---

(1) «بَري مايسون»: اسم محام، وهو شخصية روائية نالت شهرة واسعة منذ الخمسينات وحتى اوائل التسعينات، جسّدتها عشرات الكتب والأفلام والمسلسلات الأميركية.

كل ذلك. ثم استأنف حديثهُ قائلًا: «لستُ مضطرًا للقراءة في ورقة، ولست بحاجة للحديث عن الإسلام، فلديّ ما يكفي من الأدلة».. وراح يصرخ محتجًّا: «.. ففي كل صفحة.. في كل صفحة مفردة يكمن دليل إدانة هذا الكتاب». والتفتَ إلى «زارين» وكانت نظرة واحدة منه إلى تعابير وجهها اللامبالية تكفي لإثارته، فعاد ليصرخ: «منذ انبثاق الثورة ونحن نقول بأن الغرب هو عدوّنا، وبأنه الشيطان الأكبر، ليس بسبب قوته العسكرية، وليس بسبب ثقله الإقتصادي، وإنما بسبب.. بسبب...» وقفة صمت أخرى، ثم: «.. بسبب هجومه وحقده على جذورنا الثقافية وعمقها، وهو ما أُطلق عليه إمامنا العدوان الثقافي، وسأُطلق عليه أنا اغتصاب ثقافتنا!».. (كان السيد «نيازي» يستخدم في تصريحه مصطلحًا سيصبح بعد ذلك واحدًا من أهم مصطلحات نقد الجمهورية الإسلامية للغرب). «وإذا ما أردتم التعرف على الاغتصاب الثقافي، فلن تكونوا بحاجة إلى الذهاب أبعد من ذلك الكتاب». والتقط نسخته من كتاب «غاتسبي» من تحت كومة الأوراق، وأخذ يلوّح بها أمامنا.

فنهضَتْ «زارين» من مكانها مرة أخرى، وقالت بازدراء لم تحاول إخفاءه: «سيادة القاضي، هذه كلها ادّعاءات باطلة لا أساس لها، وكذب وتزوير و...».

ولم يدعْ السيد «نيازي» مجالاً لسيادة القاضي بالرد، فنهض عن كرسيه بما يشبه الوقوف وصرخ: «هلا تدعيني أكمل؟ ستأخذين دورك في الحديث، سأخبرك لماذا.. سأخبرك لماذا!».. ثم استدار نحوي وقال بنبرة ألطف وأخفّ حدّة: «لا أقصد الإساءة إليك سيدتي».

أما أنا، وقد بدأتُ أستمتع باللعبة، فقد قلت لهُ: «أرجو أن تواصل، ولا تنسَ أنني هنا أمثل دور الكتاب، وسآخذ دوري بالحديث في النهاية على أية حال».

فاستأنف «نيازي»: «ربما..إبان حقبة نظام بهلوي الفاسد، كان الزنى نمطًا مقبولاً للسلوك»...

لم تكن «زارين» من النوع الذي يدع ذلك ليمرّ بسهولة فصرخت: «أعترض.. ليس ثمة دليل على هذا التصريح».

فسلّم السيد «نيازي» بذلك، وقال: حسنًا.. ولكن القيم كانت من التدنّي إلى حدّ أنها كانت تدع الزنى يمرّ من دون عقوبة. أما هذا الكتاب، فهو يروّج للعلاقات غير المشروعة بين الرجل والمرأة. لدينا أولاً «توم» وعشيقته والمشهد الذي يجمعهما في شقتها، وحتى الراوي «نِك»، متورط هو الآخر. صحيح أنه لا يحب كذبهم، ولكنه لا يمانع من ارتكابهما فعل الزنى ومن جلوسهما بأحضان أحدهما الآخر.. و.. و.. تلك الحفلات في بيت «غاتسبي».. لا تنسوا أيها السيدات والسادة أن «غاتسبي» هذا هو بطل الكتاب، ومن يكون؟ إنه ليس أكثر من دجّال، زانٍ كذّاب.. وهو نفسه الرجل الذي يحتفي به «نك» ويشفق عليه، هذا الرجل خرّاب البيوت! كان الانفعال والغضب واضحين على السيد «نيازي» وهو يستحضر أرواح الزناة والكذابين والمفسدين الذين يروحون ويجيئون بحرية في عالم «فيتزجيرالد» الصاخب وهم بمنأى عن أي عقابٍ أو جزاء. واندفع مدوّيًا: «والشخص الوحيد الجدير بالتعاطف كان السيد «ويلسون»: الزوج الديوث.. وإذ يقوم بقتل «غاتسبي»، فإنْ هي الاّ يد الله. ان «ويلسن» هو الضحية الوحيدة في الكتاب. إنه النموذج الأصيل للشخص المقهور المظلوم في أرض الـ. أرض الشيطان العظيم».

كانت مشكلة السيد «نيازي» بأنه حتى حينما انفعل ولم يعدْ يقرأ ما كتب، كان طرحهُ رتيبًا وعلى وتيرة واحدة. وقد صار الآن يصرخ ويتصايح من مكانه الثابت/ المتحرّك. فكان يلوّح بإحدى يديه بالمتهم وهو يقول: «إن الحسنة الوحيدة التي تحسب لهذا الكتاب هو أنه يفضح الفجور والانحلال اللذين ينضحُ بهما المجتمع الأميركي.. ولكننا حاربنا لكي ننأى بأنفسنا عن هذه المزبلة، وقد بلغ السيل الزبى وآن الأوان فعلاً لوضع حد لهذا، ولمنع هذا النوع من الكتب».

وبقيَ يطلق على «غاتسبي»: «السيد غاتسبي هذا»، ولكن لم تطاوعه نفسهُ أن يسمي «ديزي» باسمها، فاكتفى بالإشارة إليها بقوله: «تلك المرأة». فوفقًا

لوجهة نظر السيد «نيازي»، لم تكن ثمة امرأة فاضلة في الرواية برمتها. كان يتطلّع إلى جمهوره المأسور وهو يسأل: «أي نموذج ترانا نقدّمُ لأخواتنا الخجولات البريئات، ونحن نضع بين أيديهنّ كتابًا كهذا ليقرأنه؟».

كان يزداد حيوية كلما واصل الحديث، بيد أنه أبى طوال حديثه أن يتزحزح عن كرسيه، كان صوته يزداد حدّة: «إن السيد «غاتسبي» هذا مخادع وغير شريف، إنه يجمع المال بأساليب غير مشروعة، ويحاول شراء الحب من امرأة متزوجة. يفترض بهذا الكتاب أن يحكي قصة الحلم الأميركي، ولكن أي حلم هذا؟! فهل قصد الكاتب أن يقترح علينا أن نكون جميعًا زناةً ولصوصًا؟ الأميركيون زناة! وهم في قاع الرذيلة لأن هذا هو حلمهم! انهم ينحطون يومًا بعد آخر، وليست هذه سوى السكرات الأخيرة لثقافة تحتضر». كان قد استنتج ذلك بافتخار المنتصر، ليثبت أنه لم تكن «زارين» وحدها التي شاهدت «بَري مايسون».

فقالت «ويدا» بعد أن أصبح واضحًا تمامًا أن السيد «نيازي» قد استهلك أخيرًا كل ما في جعبته للادعاء: «أظن أنه لا ينبغي على ممثل ادعائنا الموقر أن يكون بهذه القسوة، فان «غاتسبي» يموت في النهاية، وبوسعنا أن نقول بأنه نال جزاءه العادل!».

لكن ذلك لم يقنعْ السيد «نيازي»، فقال بازدراء وسخرية واضحين: «وهل إن «غاتسبي» وحده هو الذي يستحق الموت؟.. لا..! إن المجتمع الأميركي برمّته يستحقّ ذلك المصير، فأي حلم هذا الذي يخطف من الرجل زوجته ويروّج للجنس ويغش ويحتال و.. ؟ وبعد ذلك.. يأتينا ذلك الرجل، الراوي «نِك»، ليزعم لنا بأنه على خلق!».

كان السيد «نيازي» قد مضى في إذكاء ذلك الجو حتى وصل الى لحظة انقطاع مفاجئة وكأنما اكتظت كلماته فأغرقتهُ فصمَت. ولكنه حتى في تلك اللحظة لم يتزحزح من مكانه، وبطريقة ما، لم يطرأ ببال أي أحدٍ منا أن يقترح عليه العودة إلى مكانه بينما الجلسة قائمة.

[18]

ثم نوديَ على «زارين» للدفاع، فوقفتْ بمواجهة الطلبة؛ كانت بارعة الأناقة بتنورتها ذات الثنيات واللون الأزرق البحري، بسترتها الصوفية ذات اللون نفسه والمزررة بأزرار ذهبية، وقد برز من تحت كميّها ردنان بيضاوان. كانت تعقص شعرها بشريط الى الخلف على شكل ذيل الفرس أسفل رأسها، ولم تكن تضع من الحليّ سوى قرطين ذهبيين يزينان أذنيها. كانت تدور ببطء حول السيد «نيازي»، لتتوقف فجأةً بين الحين والحين، فتستدير وتؤكد على نقطة من دون سواها. وكانت قد كتبتْ بعض الملاحظات إلا أنها لم تكن تتطلع إليها إلا نادرًا وهي توجّه دفاعها للطلبة.

منذ أن بدأتْ بالكلام طفقتْ تذرع القاعة جيئة وذهابًا، وكان ذيل الفرس في شعرها يتناغم مع حركتها يمينًا وشمالاً وهو يداعبُ بلطف ظهر رقبتها، وكانت لا تستدير الا لتشتبك مع السيد «نيازي» الذي بقي في مقعده ذاك؛ صلبًا صامدًا مثل صخرة. وبدأت دفاعها بأن تستشهد بسطور من قصة قصيرة لـ«فيتزجيرالد» كنت قد قرأتها لهم ذات مرة. فقالت: «لقد ارتكب ادعاؤنا العام العزيز خطأً فادحًا باقترابه الشديد من «مدينة الملاهي»، فلم يعد بإمكانه التفريق ما بين الأدب والواقع».

وابتسمت وهي تستدير بلطف نحو «ادعائنا العام» العالق في كرسيّه. واستأنفتْ: «فهو لم يدعْ أيّ مجال أو متنفس ما بين العالمين. ولقد برهن لنا

بجدارة ضعفه الخاص: وأعني عدم قدرته على قراءة رواية وفقًا لمعطيات الرواية. لأن جلّ ما يعرفه هو الحكم والتقييم الساذج الفج لمعنى الخطأ والصواب». رفع السيد «نيازي» رأسهُ عند سماعه تلك الكلمات، وقد بدا وجهه في غاية الاحمرار، بيد أنه لم يتفوّه بكلمة. وواصلت «زارين» وهي تخاطبُ الطلبة: «ولكن.. هل يصح لنا أن نعتبر رواية ما جيدة فقط لأن بطلتها امرأة طاهرة؟ وهل يمكننا أن نعتبر الرواية سيئة اذا كانت الشخصية الرئيسة فيها ضالة عن سبيل الأخلاق التي يصرّ السيد «نيازي» على فرضها ليس علينا فحسب، وإنما على الأدب أيضًا؟».

وهنا وَثَبَ السيد «فرزان» من مكانه فجأةً وقال يخاطبني: «سيدتي.. لكوني أنا القاضي.. فهل هذا يعني أنني لا أستطيع أن أقول أي شيء؟».

فقلت لهُ: «بلى.. تستطيع أن تقول طبعًا». فشرع بعد ذلك بإلقاء خطبة عصماء طويلة ومشوّشة عن وادي الرماد وعن الحفلات الماجنة التي كان يقيمها «غاتسبي». وقد ذهب إلى الاستنتاج إلى أن الإخفاق الأدهى عند «فيتزجيرالد» هو أنه لم يستطع أن يتجاوز جشعه الشخصي، فراح يكتب قصصًا رخيصة وقد أسرتْه حياة الأغنياء. ثم قال أخيرًا: «وكلنا نتذكّر قول «فيتزجيرالد»: الأغنياء هم أناس مختلفون!» وكان بهذه الفكرة قد استنفد نفسه تمامًا.

هزّ السيد «نيازي» رأسهُ مؤيدًا بشدّة، وقد ملأه زهو واعتداد شديد بالنفس، ورضا واضح عن التأثير الكبير الذي أحدثته كلماته في الآخر، وقال: «فعلاً.. وإن ثورتنا تعارض بشدّة تلك القيم المادية التي يبشر بها السيد «فيتزجيرالد»، فنحن لسنا بحاجة إلى المادية الغربية، أو إلى البضائع الأميركية». توقّف برهة ليأخذ نفسًا، لكنه لم يكنْ قد استكمل بعد: «على أية حال، ربما بإمكاننا أن نستخدم مهاراتهم التكنولوجية، ولكن لا بد لنا من أن نرفض أخلاقياتهم».

تطلّعتُ «زارين»، وكانت رابطة الجأش ولا مبالية، انتظرتْ أن تمرّ بضع

ثوان على انفعال السيد «نيازي»، ثم قالتْ بهدوء: «يبدو أنني بصدد مجابهة اثنين من الادعاء العام! والآن.. هل لي أن أستأنف دفاعي رجاءً؟». ألقتْ نظرة توحي بالإلغاء إلى زاوية السيد «فرزان»، ومضتْ تقول: «أودّ أن أذكر الادعاء العام والمحلفين بالنص الذي قرأناه ضمن نقاشنا الأول بشأن هذا الكتاب، وهو نصّ مأخوذ عن «جاك القدري» لـ«ديديروت»، يقول: «أنا أجد أن الحرية التي تميز أسلوب الكاتب هي الضمان لنقاء أخلاقه». كما ودرسنا بأنه لا يمكننا اعتبار رواية ما أخلاقية بالمعنى المعتاد للكلمة، وأن من الممكن أن نطلق عليها تلك التسمية حينما تشدّنا من سباتنا وتجعلنا في صراع مع الثوابت التي نؤمن بها. فاذا كان هذا القول صحيحًا، فبوسعنا ان نقول إن رواية «غاتسبي» قد نجحتْ نجاحًا باهرًا، لأن هذه هي المرة الأولى التي يستطيع بها كتاب ما أن يُحدِثَ خلافًا مثل هذا في صف دراسي!».

ثم أضافتْ: «لقد أحلنا كتاب «غاتسبي» للمحاكمة لأنه أثار فينا القلق، أو أنه أقلقَ بعضنا على الأقل».. وأطلقت بضع ضحكات، ثم استدارتْ وذيل الحصان يستديرُ معها: «وهذه ليست المرة الأولى التي تحال فيها رواية للمحاكمة على يد الدولة، مع أنها رواية غير سياسية. ألا تذكرون المحاكمات الشهيرة لروايات «مدام بوفاري» و«يوليسيس» و«عشيق الليدي تشارلي» و«لوليتا»؟ وفي كل قضية من هذا النوع، كانت الرواية هي التي تكسب. ولكن دعوني أشير إلى نقطة ما ربما خلقَت التباسًا لدى سيادة القاضي والادعاء العام: إغراء المال، ودور ذلك في الرواية».

«صحيح أن السيد «غاتسبي» قد أدرك أن المال هو أحد الأشياء التي تغري «ديزي»، وفي الواقع، هو الذي لفتَ أنتباه «نِك» إلى أنها تملك في سحر صوتها جرس النقود، ولكن هذه ليست رواية تتحدث عن عشق شاب فقير دجّال للمال والثروة». توقّفتْ «زارين» هنا للتأكيد: «وكل من يزعم ذلك، فإنه فعلاً لم يقرأ واجبه البيتي كما يجب!». واستدارتْ بغير وعي تقريبًا صوب

المدّعي العام الثابت في مكانه إلى اليسار منها، ثم مضتْ إلى مكانها والتقطت نسختها من «غاتسبي»، ورفعتها إلى الأعلى مخاطبة السيد «فرزان» وظهرها للسيد «نيازي»، وقالت «لا يا سيادة القاضي، هذه الرواية هي ليست عن الأغنياء الذين يختلفون عنك وعني، على الرغم من أنهم كذلك فعلاً، في الواقع يختلفون، مثلما يختلف الفقراء، ومثلما تختلف أنت أيضًا عني! إنها تتحدث عن الغنى فعلاً، ولكن ليس عن المادية السوقية التي تصرّان أنت والسيد «نيازي» على تأكيدها»..

فصاح صوت من الصفوف الخلفية: «قولي لهم ذلك.. أخبريهم!». استدرتُ خلفي، كانت ثمة ضحكات وهمهمات. صمتتْ «زارين» وهي تبتسم، وصاح القاضي وهو جافل بعض الشيء: «صمتًا صمتًا.. من هذا الذي صاح؟». لم يكن يتوقّع أن يحظى بجواب.

وقالتْ زارين بسخرية: «يبدو أن ادعاءنا العام الموقر ليس بحاجة الى شهود. فمن الواضح أنه جعل من نفسه الادعاء والشهود في آنٍ واحد، ومع هذا دعونا نتادي على بعض الشخوص للمثول أمام المحكمة، سأنادي الآن على الشهود الأهم».

استدارت «زارين» وقالت وهي تخاطب الطلبة: لقد نصّب السيد «نيازي» نفسه قاضيًا على شخوص «فيتزجيرالد»، بيد أن «فيتزجيرالد» لديه خطة أُخرى؛ فقد هيّأ لنا قاضيًا خاصًا به. لذلك فربما سيكون علينا أن نصغي إليه، وأعني قاضي «فيتزجيرالد». فأي الشخوص برأيكم يستحق أن يكون هو القاضي؟.. إنه «نِك» طبعًا.. لعلكم تذكرون كيف أنه يصف نفسهُ قائلاً: «لدى كل واحد منا فضيلة واحدة في نفسه على الأقل تدعوه إلى أن يشك فيها، وهذه هي فضيلتي التي أشك فيها: هي أنني واحد من قلائل الناس الصادقين الذين عرفتهم في حياتي!»، وعليه.. فإذا كان لا بد من قاضٍ من داخل الرواية فهو «نك»، لأنه بطريقة او بأُخرى، الشخصية الأقل تلوّنًا، لأنه يأخذ في الرواية دور المرآة.

أما الشخصيات الأخرى، فسيكون حكمنا عليها مبنيًا على أساس صدقها ونزاهتها. ويتضح لنا بأن الشخصيات التي تمثل جانب الغنى هي الأقل صدقًا ونزاهة. دعونا نستعرض ذلك معًا؛ أولاً: «جوردان بيكر» التي يتعلّق «نِك» بها بطريقة رومانسية. ثمة فضيحة تخص «جوردان»، لا يتذكرها «نك» في البداية، فهي تكذب اذ تتحدّثُ عن إحدى المباريات، وتكذب بشأن سيارة استعارتها ثم تركتها مفتوحة السقف تحت المطر، حتى يخبرنا «نك» بأنها «كاذبة بشكلٍ لا شفاء منه، ولم تكن تملك القدرة على تحمّل أي خسارة، وأعتقد بأنها مُنِحتْ ذلك العناد لأنها لجأت إلى التصرف بمكر ودهاء منذ صغرها لكي تحتفظ بابتسامتها المغناج الدافئة وهي تدير ظهرها للعالم، ومن ثم تشبع رغبات جسدها الموغل في المتع».

ثانيًا: «توم باكانان»، الذي تبدو لنا عدم نزاهته أكثر وضوحًا، فهو يحتال على زوجته، وهو يغطي على جريمتها من دون أدنى إحساس بالذنب. أما قضية «ديزي» فهي أكثر تعقيدًا، لأن سحرها وفتنتها، مثل كل شيء آخر فيها، يكمن في مراءاتها وكذبها، وهي تُشعر الآخرين بأنهم متواطئون معها في الكذب، لأن كذبها يغويهم! ثم لدينا طبعًا «ماير ولفشايم»، ذلك الرجل المشبوه الذي يشارك «غاتسبي» في تجارته، والذي يقوم بإصلاح كأس العالم: «لم أرَ في حياتي رجلاً يمكنه أن يبدأ حياته بالاحتيال والتلاعب بمعتقد خمسين مليون إنسان بأن يعقد العزم بمفرده ببساطة وهوس لص يسرق خزنة!».

لذا، فإن قضية الصدق والكذب والنزاهة أو عدمها، وقضية الأشخاص وكيف يقدّمون أنفسهم للعالم، إنما تبدو فكرة ثانوية تلوّن الأحداث الأساسية للرواية. ومن هم الأشخاص الأقل نزاهةً في هذه الرواية أصلاً؟.. وأجابتْ نفسها وهي تركّز بصرها على المحلّفين: «إنهم الأغنياء من دون شك!». ثم أضافت وهي تلتفتُ الى السيد «نيازي» فجأةً: «إنهم الاغنياء أنفسهم الذين يزعم السيد «نيازي» بأن «فيتزجيرالد» راضٍ عنهم».

«ولكن ليس هذا كل شيء، فنحن لم نكمل حديثنا عن الأغنياء بعد». والتقطت «زارين» كتابها وفتحته عند صفحة مؤشّرة وقالت: «بعد إذن السيد «كاراواي» فأنا أود أن أقتبس عنه بعضًا من كلامه عن الأغنياء».. ثم بدأت بالقراءة: «لقد كان «توم» و«ديزي» شخصين لا مباليين مستهترين تمامًا، فكانا يدعان الأشياء والمخلوقات تدمّر بعضها بعضًا، ثم لا يلبثا ينسحبان متقهقرين إلى نقودهما أو إلى لا مبالاتهما واستهتارهما العجيب، أو إلى أي شيء يبقيهما معًا، ويتركان للآخرين مهمة تنظيف الفوضى التي كانا سببًا فيها»...

ثم استدارتْ صوب السيد «فرزان» وقالت: «إذًا.. ها أننا نجد بأن هذا هو الحكم الذي يدلي به الشخص الأكثر ثقة في الرواية بشأن الأغنياء. فالأغنياء في هذه الرواية، الذين يمثلهم بالدرجة الأولى «توم» و«ديزي»، وبدرجة أقل «جوردان بيكر»، هم أشخاص طائشون غير مبالين. ألم تكن «ديزي» نفسها هي التي دهسَتْ «مارتل» وألقتْ بالتهمة على «غاتسبي»، من دون أن ترسل ولو وردة واحدة في جنازته؟». توقفتْ «زارين» برهة، لتدور حول الكرسي، فبدتْ وكأنها تتجاهل القاضي والادعاء والمحلفين.

وقالت: «ان كلمتَيْ «اللامبالاة» و«الطيش» هما المفتاح هنا، تذكروا معي ذلك المشهد حينما يقوم «نِك» بتأنيب «جوردان» على قيادتها السيارة بصورة طائشة، فترد عليه باستخفاف قائلة بأنها حتى وإن كانت طائشة فإنها تعتمد على أن الآخرين سيكونون أقل طيشًا منها. «الطيش» هي الصفة الأولى التي تخطر في البال عند وصف الأغنياء في هذه الرواية. والحلم الذي يجسّدونه ليس سوى حلم مزيّف مشوبه يحطم كل من يحاول الاقتراب منه. وعليه.. أنت ترى يا سيد «نيازي» أن في هذا الكتاب إدانة واضحة للطبقات الاجتماعية العليا الميسورة، إدانة لا تقلّ عن تلك التي نجدها في أي كتاب من الكتب الثورية التي قرأناها».

وفجأة التفتتْ إليّ «زارين» وقالت بابتسامة: «لا أدري ما هي الصيغة التي

يمكنني بها أن أخاطب كتابًا!.. فهل تتفقينَ معي بأن هدفك لم يكن الدفاع عن الطبقة الاجتماعية المرهفة؟!».

أجفلني سؤال «زارين» المباغت، بيد أني تَمَنّتُ لها تلك المبادرة لكي أوضّح نقطة كانت جوهرية في نقاشاتي حول الأدب عمومًا. وقلت وأنا شبه مرتبكة: «إذا كان انتقادنا للطيش واللامبالاة خطأ، فنحن لسنا وحدنا أصحاب هذه النظرية. لأن الطيش واللامبالاة هما في الواقع دليل على افتقار الشخصية لسمة «التعاطف». ويظهر لنا ذلك جليًا في شخصيات «جين أوستن» السلبية؛ في الليدي «كاترين» وفي السيدة «نوريس» وفي السيد «كولينز» أو أسرة «كراوفورد». وهذه الثيمة تعود لتظهر لنا من جديد في قصص «هنري جيمس» وعند شخصيات «نابوكوف» الشريرة مثل «هومبرت» و«كينبوت» و«فان» و«آدا فين». فالخيال في تلك الأعمال إنما هو المعادل الموضوعي للتعاطف. فنحن ليس باستطاعتنا أن نجرب كل ما يمرّ به الآخرون، ومع هذا فإن بإمكاننا أن نفهم حتى أكثر الشخصيات فظاعة في الأعمال الأدبية. والرواية الجيدة هي تلك التي تظهر العقد الداخلية للشخصيات، وتمنح المساحة الكافية لكل تلك الشخصيات لكي يكون لها صوتها المسموع. وبهذه الطريقة يمكن أن نطلق على رواية ما صفة الديمقراطية، لا لأنها تدافع عن الديمقراطية، وإنما لكونها ديمقراطية بطبيعتها. ونحن نحسّ بثيمة التعاطف في جوهر رواية «غاتسبي»، مثل كثير من الروايات العظيمة، فالخطيئة هي أن يغمض المرء عينيه او يتعامى عن مشاكل وآلام الآخرين، فعدم النظر اليها يعني إنكار وجودها». قلت ذلك كله بنفس واحد وبلا توقف، وقد أدهشتني حماستي فعلًا.

قالت «زارين» وكأنها تقاطعني عند هذه النقطة: «فعلًا.. وهل يستطيع أحد أن ينكر حقيقة أن هذا «التعامي» أو «اللامبالاة» بالآخرين انما هو تذكير لسمة أخرى من سمات الأشخاص الطائشين اللامبالين؟». ثم ألقتْ نظرة عجلى على «نيازي» وأضافتْ: «أما أولئك الناس الذين يرون العالم بالأسود والأبيض، فهم سكارى بالمبررات الأخلاقية لخيالهم الخاص».

واستطردتُ بشيء من الحرارة: «.. و.. يا سيد «فرزان». إذا كان «فيتزجيرالد» في الواقع مأخوذًا بالأغنياء وبالغنى، فإنه في رواياته إنما يكشف لنا قدرة المال على إفساد وتحطيم أناس محترمين مثل «غاتسبي»، أو مبدعين حيويين مثل «دِك دايفر» في «رقيق هو الليل». وإذ فشلَ السيد «نيازي» في إدراك هذه النقطة، فهذا يعني أنه فشلَ في فهم وإدراك فكرة الرواية بكاملها».

أما السيد «نيازي» الذي كان قد أطال النظر في الأرض بعض الوقت، فقد وثب فجأة وقال: «أنا أعترض!».

فقالت «زارين» بتهذيب ساخر: «وعلى ماذا، تحديدًا، تودّ أن تعترض؟».

فردّ عليها مباشرة: «الطيش واللامبالاة وحدهما لا يكفيان!.. إنهما لا تجعلان الرواية أكثر أخلاقية!.. أنا أسألك عن خطيئة الزنى.. عن الكذب والغش وأنت تحدثيني عن اللامبالاة؟».

صمتتْ «زارين» ثم التفتتْ إليّ مرة أخرى: أرجو من المدّعى عليه المثول الآن أمام هيئة المحكمة. ثم التفتتْ إلى السيد «نيازي» وقد التمعتْ عيناها بالخبث: «هل ترغب باستجواب المدّعى عليه؟». فتمتم «نيازي» بتحدٍ: «لا».. فقالتْ: «حسنا. سيدتي.. هلاّ تفضلتِ بالمثول أمام المحكمة؟».

فنهضتُ من مكاني وأنا جافلة بعض الشيء، ونظرتُ حولي، لم يكن ثمة كرسي، فتنبه السيد «فرزان» هذه المرة ومنحني مكانه. وقالت «زارين» تخاطبني: «لقد استمعتِ إلى مذكرة الادعاء العام، فهل لديك ما تقولين في دفاعك؟».

كنت أحس بعدم الارتياح، بل وحتى بالخجل، ولم أكن راغبة في الحديث. لقد أدّتْ «زارين» عملها على أكمل وجه، وبدا الأمر وكأنه غير محتاج الى أي فتوى مني. بيد أن جمهور الصف كان ينتظر.. ولم يعد أمامي أي فرصة للتراجع.

جلستُ بصورة مرتبكة على مقعد «فرزان». كنت طوال المدة التي قضيتها في

التحضير للمحكمة، أفكر بأنني مهما حاولت فلن أستطيع التعبير عن الأفكار والمشاعر التي جعلتني مهتمة إلى هذا الحد برواية «غاتسبي». كنتُ أستعيد تفسيرات «فيتزجيرالد» نفسه حول الرواية فهو يقول: «إن هذه هي الفكرة الرئيسة للرواية: «ضياع الأوهام»، تلك الاوهام التي تلوّن العالم، حتى لا يعود المرء يبالي ما إذا كانت الأشياء حقيقة أم خيالاً طالما أنها تنضح بذلك الألق السحري». أردتُ أن أقول لهم بأن هذا كتاب يحدثنا عن ضياع الأحلام، وليس عن الزنى. لقد بدا الأمر بالنسبة لي وكأنه ضرورة ملحّة أن يتقبل طلبتي «غاتسبي» كما هو، وأن يحضروا به ويحبّونه لجماله الأخاذ المؤلم. لكن ما كان عليّ قوله هنا في هذا الصف، كان لا بد من أن يكون أكثر دقةً وواقعية.

وقلت: «نحن لا نقرأ «غاتسبي» لنعرف ما إذا كان الزنى خيرًا أو شرًا، وإنما لكي نعرف إن قضايا مثل الزنى أو النزاهة أو الزواج، هي قضايا معقدة في الواقع. وإن الروايات العظيمة تجعلنا نسمو بأحاسيسنا ورهافتنا تجاه تعقيدات الحياة والناس، وهي تمنحنا الحماية من مفاهيمنا الشخصية عن الخطأ والصواب، تلك المفاهيم التي تعتبر الأخلاق قوالب ثابتة للخير والشر»..

فقاطعني السيد «نيازي» وقال بتجهّم: «ولكن يا سيدتي.. ليس ثمة تعقيدات في إقامة علاقة غرامية مع زوجة رجل آخر، فلماذا لا يكون للسيد «غاتسبي» زوجة خاصة به؟!».

فسمعنا ثرثرة مكتومة من مكان غير محدد من الصفوف الوسطى: «ولماذا لا تكتب أنت رواية خاصة بك؟!». بدا على السيد «نيازي» أنه جفل أكثر. ومن هنا، لم أعدْ أستطيع حتى أن أشارك بكلمة، لقد بدا وكأن الجميع قد اكتشفوا فجأة بأنهم بحاجة إلى المشاركة في النقاش. فطلب السيد «فرزان» عشر دقائق للاستراحة، نزولاً عند مقترحي.

تركتُ القاعة وخرجتُ إلى البهو يرافقني بعض الطلبة الذين شعروا بأنهم بحاجة إلى بعض الهواء النقي. وفي الرواق، وجدت «مهتاب» و«نسرين» غارقتين في النقاش، فانضممتُ إليهما وسألتهما عن رأيهما في المحاكمة.

كانت «نسرين» غاضبة جدًا وقالتْ: «يبدو وكأن «نيازي» يعتقد بأنه المسؤول والمحتكر الوحيد للأخلاق!». وأضافت بأنها لم تقل إنها تتفق تمامًا مع «غاتسبي»، ولكنها تجد على الأقل بأنه كان مستعدًا للموت في سبيل حبه. وبدأنا نحن الثلاثة نتمشى في الرواق بطوله. وكان معظم الطلبة قد تحلّقوا حول «زارين» و«نيازي» اللذين كانا منهمكين في معمعة حقيقية من الجدل الحامي. كانت «زارين» تتهم «نيازي» بأنه يقول عنها إنها بغيّ، وكان وجه «نيازي» يكاد أن يبدو أزرق من شدة الغضب والحنق، وكان يتهمها في المقابل بأنها كاذبة وحمقاء.

كانت «زارين» تصرخ: «وماذا عساني أرى في شعاراتك التي تتهم النساء اللواتي لا يضعن الحجاب بأنهنّ إما بغايا أو أتباعًا للشيطان؟ فهل هذه هي الأخلاق؟ وماذا عن النساء المسيحيات اللواتي لا يؤمن بارتداء الحجاب؟ فهل هن جميعًا بلا استثناء بغايا فاسقات؟».

فصرخ «نيازي» بعنف: «ولكن هذه دولة إسلامية، وهذا هو القانون.. وكل مَن»..

فقاطعته «ويدا»: «القانون؟!.. أنتم الذين جئتم لتقتحموا حياتنا وتغيّروا القوانين! هو قانون إذاً؟ هكذا كان من يرتدي النجمة الصفراء في ألمانيا النازية! فهل كان على كل اليهود أن يضعوا النجمة الصفراء فقط لأنه كان القانون المدمّر؟!».

فقالت «زارين» بتهكم: «آوه.. لا تحاولي حتى الكلام معه في هذا الأمر، فسوف يقول لك إنهم جميعًا صهاينة ويستحقون كل ما قد حلّ بهم». بدا على السيد «نيازي» أنه مستعدٌ تمامًا أن يثبَ من مكانه ويصفعها.

فهمستُ لـ«نسرين»: «أعتقد بأنه آن الأوان لاستخدام سلطتي». كانت «نسرين» تقف إلى جانبي جامدة تمامًا، وطلبتُ من الجميع التزام الهدوء والعودة إلى أماكنهم. وبعد أن خمد الصراخ، وخمد شيءٌ من سيل الاتهامات

والاتهامات المضادة، اقترحتُ عليهم أن نفتح باب النقاش. لم نتمكن من التصويت للحصول على نتائج للمحاكمة، لكننا استطعنا على الأقل أن نستمع لرأي المحلفين، فكان من الممكن لهم أن يمنحونا حكمًا نهائيًا عن طريق سماعنا وجهات نظرهم.

دافع بعض الناشطين اليساريين عن الرواية، أحسست بأن جزءًا مهمًا من دفاعهم عنها كان بسبب اعتراض الإسلاميين المستميت عليها، ولم يكن دفاعهم ليختلف كثيرًا في جوهره عن إدانة «نيازي». فذهبوا بالقول إلى أنهم بحاجة إلى قراءة رواية مثل «غاتسبي العظيم» لأنهم بحاجة الى معرفة مدى انحطاط ولا أخلاقية الثقافة الأميركية. قالوا بأنهم يحسون بضرورة أن يقرأوا المزيد من المواد الثورية، مع هذا فلا بد لهم أيضًا من قراءة كتب من هذا النوع، من مبدأ إعرف عدوّك!

وذكر أحدهم مقولة شهيرة للرفيق «لينين» مفادها أن الاستماع إلى «سوناتا ضوء القمر» يجعله يحس بالرقة والنعومة، ويقول بأنها تجعلهُ راغبًا في أن يربت على أكتاف بعض الآخرين في ظرف يتطلبُ منه أن يضربهم بمضرب أو ما شاكل. وعلى كل حال، كان الاعتراض الأساسي لطلبتي الراديكاليين على الرواية هي أن قراءتها تلهيهم عن واجباتهم بصفتهم ثوريين.

على الرغم من الجدل الحامي، وربما بسببه، كان الكثير من طلبتي قد التزم الصمت، مع أن الكثيرين منهم أيضًا كانوا قد تجمّعوا قبل قليل حول «زارين» وهم يتمتمون بكلمات التشجيع والإطراء. واكتشفت لاحقًا أن معظم الطلبة كانوا يساندون «زارين»، بيد أن القليل منهم فقط كان مستعدًا للمغامرة بطرح وجهة نظره للتصويت، لأنهم «كانوا أصلًا لا يمتلكون الثقة الكافية بالنفس لتقديم آرائهم «بفصاحة» مثلما فعل محامي الدفاع والمدعي العام» (هذا ما قالوه لي). وقد ادعى بعضهم سرًا بأنه شخصيًا أحب الكتاب، ولماذا لم يقلْ ذلك بوضوح؟ «لأن الآخرين كانوا واثقين ومتأكدين جدًا من مواقفهم

واستطاعوا التعبير عنها، أما هم فلم يعرفوا حتى لماذا أحبوا العمل، لقد أحبوه وكفى».

وقبيل موعد قرع الجرس بقليل، نهضتْ «زارين» من مكانها فجأة، وكانت قد التزمتْ الصمت طوال الوقت منذ انتهاء الاستراحة. ورغم أنها تحدثتْ بصوت واطئ إلا أن انفعالها كان واضحًا جدًا. قالت: يدهشني أحيانًا ان أجد بعض الأشخاص وهم يتعبون أنفسهم في ادعاء التخصص بالأدب، وأتساءل: «هل يعني ذلك شيئًا فعلًا؟». أما فيما يخص الكتاب فقالت بأنه لم يكن لديها ما تقولهُ أكثر في الدفاع عنه. ربما ثمة أشياء نتعلّمها منه، ومن «فيتزجيرالد». ولكنها لم تتعلم من قراءتها للكتاب بأن الزنى هو شيء جيد، وبأن علينا جميعًا أن نصبح محامين أفاقين. فهل خرج الناس جميعًا في تظاهرات أو أنهم انطلقوا فارين نحو الغرب بعد قراءتهم لـ«شتاينبك»؟ وهل خرج الناس لصيد الحيتان بعد أن قرأوا «ميلفيل»؟ أليس الناس أكثر تعقيدًا من ذلك ولو قليلًا؟ وهل أن الثورويين هم أناس بلا مشاعر أو عواطف؟ ألا يمكن أن يقعوا في الحب أبدًا أو يستمتعوا بالجمال؟ وقالت بهدوء: «إن هذا كتاب رائع.. إنه يعلّمنا أن نحترم ونقدّر أحلامنا، وأن نقلق عليها أيضًا، وأن نبحث عن النزاهة في غير أماكنها المعتادة. على أية حال، لقد استمتعتُ جدًا بقراءته، ويمكن لذلك أن يؤخذ في الاعتبار أيضًا.. ألا ترون ذلك؟».

كانت في عبارتها الأخيرة «ألا ترون».. ثمة رغبة صادقة، سَمَتْ بها عن ازدرائها أو حقدها على السيد «نيازي»، فبدتْ وكأنها كانت تريد منه هو الآخر أن «يرى»، أو إنما «لا بد له أن يرى». صمتت برهة وألقت نظرة على الصف، وعلى زميلاتها، كان الكل صامتًا، وبقي كذلك بعض الوقت. ولم يكن حتى لدى السيد «نيازي» شيء ليقوله.

في ذلك اليوم، شعرتُ بشيء من التحسّن بعد الدرس. فحينما رنّ الجرس، لم يكن معظمنا حتى قد شعر به. ولم يكن ثمة شكل واضح لحكم محكمة

قاطع، بيد أن الاهتمام الذي أبداه الطلبة حينئذٍ كان الحكم الأفضل والأهم بالنسبة لي. وانهمك الجميع في الجدل والنقاش لحظة غادرتُ القاعة، بيد انهم هذه المرة لم يناقشوا موضوع الرهائن، أو التظاهرات الأخيرة، أو رجوي أو الخميني، وانما كانوا يناقشون «غاتسبي».. وحلمه الزائف!

[19]

لبعض الوقت، بدتْ نقاشاتنا حول «غاتسبي» مثيرة ومهمة مثل أهمية الصراعات الأيديولوجية التي كانت تجتاح البلاد. وفي الواقع بدأت تظهرُ بمرور الزمن اساليب جديدة مختلفة من الصراع في المشهد السياسي والفكري. فأحرق الكثير من دور النشر ومحال بيع الكتب بتهمة الترويج لأعمال روائية لا أخلاقية. وكما اعتقلت إحدى الروائيات بسبب كتاباتها، ووجهت إليها تهمة نشر البغاء. وتواصلت الاعتقالات لتشملَ الصحافيين أيضًا، وأغلقت الكثير من الصحف والمجلات، وقد خضعتْ للرقابة الصارمة أو للمنع مجموعة من أعمال أهم شعراء إيران الكلاسيكيين أمثال «جلال الدين الرومي» و«عمر الخيام».

اعتقد الثورويون الإسلاميون، مثل كل المؤدلجين الذين سبقوهم، بأن الكتّاب هم حماة الفضيلة. وللسخرية، فإن فكرة في غير محلها مثل هذه الفكرة إنما تمنح الكتّاب مكانة مقدّسة، ولكنها في الوقت ذاته، تشلّهم، لأن الثمن الذي يدفعونه في مقابل تلك المكانة المتفوقة الجديدة، غالبًا ما يكون نوعًا من العجز الفني.

كانت محاكمة «غاتسبي» قد فتحت لي، شخصيًا، شباكًا على مشاعري ورغباتي الخاصة. ولم أكن قد مررت بذلك الإحساس من التوقّد والحماسة نحو عملي ونحو الأدب عمومًا طوال مدة دراستي ونشاطاتي الثورية. وكنت

أحسّ برغبة في أن أنشر هذه الروحية من الرضا والارتياح لكل من حولي. فخطر لي أن أطلبَ من «زارين» في اليوم التالي البقاء بعد المحاضرة لأعبّر لها عن إعجابي الشديد بدفاعها. بيد انها ردّت عليّ بشيء من اليأس: «أخشى أن كلماتي لم تخاطب سوى آذانٍ صمّاء!». فقلت لها: «لا تكوني واثقة إلى هذا الحد، فالأمر لا يستهان به».

وبعد يومين، صادفتُ أحد زملائي الأساتذة في الممر، وقال لي: «سمعت صياحًا قادمًا من قاعة محاضرتكِ قبل أيام، وتخيّلي مفاجأتي إذ لم أسمع جدل «لينين» و«الإمام»، بل «فيتزجيرالد» والإسلام! بالمناسبة، لا بد وأن تكوني ممتنة جدًا لتابعك الأمين ومريدك». فسألته ضاحكة: «من تعني؟» فقال: «السيد «بحري» طبعًا، يبدو أنه قد أصبح فارسك في علاقة غرامية متألقة، سمعت بأنه هدًأ من روع الغاضبين وأخرس الأصوات الحانقة، فأقنع جمعية الطلبة المسلمين بطريقة ما، بأنكِ قمتِ بتقديم أميركا للمحاكمة!».

كانت الجامعة تمر بالكثير من المتغيرات السريعة، وغدت النزاعات بين الطلبة الراديكاليين والإسلاميين أكثر وضوحًا وتكرارًا. وذات مرة، خاطب الخميني مجموعة من الطلبة الإسلاميين مؤنبًا: «كيف يحصل هذا؟ تجلسون متراخين وتسمحون لشرذمة صغيرة من الشيوعيين أن يسيطروا على الجامعة؟ هل أنتم أقل منهم؟ تحدّوهم، جادلوهم.. قفوا لهم بالمرصاد وعبروا عن أنفسكم». ثم ضرب مثلاً رمزيًا بقصة من نوع رديء، مثلما اعتاد دائمًا في خطبه. وكان مفادها هذه المرة أن الخميني سأل أحد القادة من رجال الدين السياسيين وهو «المدرّس»، ما الذي عليه أن يفعلهُ لو أن أحد الموظفين من قريته قرر أن يسمي كلبين من كلابه: «شيخ» و«سيد»؟ وهي إهانة واضحة لرجال الدين. فكانت نصيحة «المدرس»، بحسب الخميني، مختصرة وتصيب الهدف تمامًا: «أقتلهُ!». فخلص الخميني من عبارة «المدرس» إلى القول: «إذًا فلتهجموا أولاً، ثم دعوا الآخرين يشتكون. لا تكونوا الضحية، كي لا تشتكوا».

[20]

حدثَ أنني بعد أيام من محاكمة «غاتسبي»، كنت قد لملمتُ أوراقي وكتبي على عجلٍ وغادرتُ القاعة وأنا مشغولة البال قليلاً. وكانت أجواء المحاكمة ما زالت تعبق من جو الصف. فكان غالبًا ما يكمن لي بعض الطلبة في الأروقة للحديث عن «غاتسبي» وتقديم آرائهم، حتى وصلتني ورقتين بحثيتين أو ثلاث كتبها الطلبة طواعية عن الموضوع. وإذ كنت أخطو صوب الخارج، حيث الأشعة الوادعة لشمس ما بعد الظهر، وقفتُ على المدرّج وقد أثارتني مشادة حامية بين مجموعة صغيرة من الطلبة الإسلاميين وخصوم لهم من العلمانيين والماركسيين. كانوا يتصايحون ويلوّحون بالأيادي، ولمحتُ «نسرين» وهي تقفُ على مبعدة منهم لتستمع للمشادّة.

بعد قليل، انضمّتْ إليّ «زارين» و«ويدا» وصديقة لهما من صف آخر. وقفنا جميعًا في مكاننا هادئات نتفرّج على المشهد ونرمي بتعليقات عابرة. ورأيتُ السيد «بحري» وهو يخرج من الباب وعلى وجهه إمارات تقطيبة ذات معنى. توقف لبرهة وهو يحوم حولي على الدرجات الواسعة، وتبعت نظرته نظرتي صوب نقطة التقاطع عند المشادة. فاستدار صوبي مبتسمًا وقال: «لا شيء غير عادي، انهم فقط يقضون بعض الوقت ويمرحون». ومضى. وبقيت شبه مذهولة في مكاني مع «زارين» وصديقتها.

حينما انفضّ الجمع، بقيَتْ «نسرين» بمفردها محتارة، فأومأتُ إليها أن

تنضمّ إلينا، فتقدمتُ صوب مجموعتنا بخجل. كانت ظهيرة دافئة، بدتْ الأشجار وظلالها وكأنها مشغولة برقصة مغناج. وبطريقة ما، نجحتْ طالباتي في أن يدعونني للحديث عن أيام دراستي. ورحت أكلمهنّ عن مفهوم الطلبة الأميركان عن التظاهر والاحتجاج، وعن شباب بشعور طويلة يقفون محتجّين في ساحات الجامعة.

تضاحكنا بعد أن أكملت قصصي، وأعادَنا المشهدُ أمامنا إلى الصمت من جديد. قلت لهنّ بأن أجمل ذكرياتي كانت مع أساتذتي، وضحكتُ وأنا أتذكر: «.. في الواقع، كان أربعة منهم هم الأقرب إلي؛ وهم الدكتور «بوخ» الذي كان من المحافظين، والدكتور «غروس» وكان ثوريًا، أما الدكتور «فيل» والدكتور «الكونن» فكان كلاهما ليبراليًا». فقالت لي إحداهنّ: «آه يا أستاذة!» (كانوا ينادونني يا استاذة، وقد بدتْ الكلمة أكثر غرابة بالنسبة لي مما تبدو عليه الآن) «.. ربما كان من الممكن ان يكون الدكتور «راء» الأقرب إليك هو الآخر، كان أستاذًا في قسمنا حتى وقت قريب».

واحدة أو اثنتان منهنّ لم يكونا قد سمعا بالدكتور «راء»، وكانت واحدة منهنّ قد حضرتْ له بعض المحاضرات. كان أستاذًا في كلية الفنون الجميلة، وهو قاص وناقد سينمائي ومسرحي مثير للجدل. كان من النوع الذي يصحّ أن يطلق عليه «مبتدع تقليعات». ففي الحادي والعشرين من عمره أصبح المحرر الأدبي لإحدى المجلات. وفي غضون وقت قصير استطاع هو ومجموعة صغيرة من أصدقائه أن يخلقوا لهم الكثير من المعجبين والأعداء في الوسط الأدبي. ويبدو أنه كان الآن، وقد أصبح في الثلاثين من عمره، قد أعلن اعتزاله، وثمة شائعات تفي بأنه منهمك في كتابة رواية.

قالت إحداهنّ بأنه كان مزاجيًا ولا يمكن التكهن بأنوائه! فصححتْ لها صديقة «زارين»: «لم يكن مزاجيًا.. كان فقط شخصًا مختلفًا». والتفتتْ أخرى صوبي وكأن فكرة عميقة التمعتْ لديها فجأة: «أتعلمين يا أستاذة؟.. انه من

ذلك النوع من البشر الذين يتمتعون بموهبة وقدرة خاصتين لأن يصنعوا من أنفسهم أسطورة، أعني أنه لا يمكن لأحد أن يتجاهلهم بأي حال من الأحوال».

كان جزءًا من الأسطورة، أنه لم يكن يحدّد مواعيد ثابتة لمحاضراته، حتى ان محاضراته كانت تبدأ أحيانًا في الثالثة من بعد الظهر ولا تنتهي قبل خمس أو ست ساعات. وكان على الطلبة البقاء حتى ما يشاءُ هو أن ينتهي. وسرعان ما ذاع صيته بين الجامعات، خصوصًا بين أولئك المهتمين بالسينما. وتسلل الكثيرون من الجامعات الأخرى تاركين دروسهم لحضور محاضراته، غير آبهين بتهديد أو عقاب. ولم يكن مسموحًا لهم بدخول جامعة طهران من دون بطاقة هوية الطالب، بيد أن المشاركة في دروسه كانت قد أصبحت في ذلك الوقت مسألة تحدٍ. فكان الطلبة الأكثر إصرارًا وتمردًا يقفزون من فوق سياج الجامعة هربًا من حرس البوابة. وكانت محاضراته مزدحمة دائمًا، حتى إن بعض الطلبة كانوا يضطرون للوقوف ساعات فقط من أجل الدخول.

كان يدرّس مواد «المسرح» و«السينما»، فدرّس المسرح الإغريقي و«شكسبير» و«ستوبارد»، بالإضافة إلى «لوريل وهاردي» و«الأخوة ماركس». كان يعشق «فينسنت مانيللي» و«جون فورد» و«هاورد هاوكس».

كنت قد سجّلتُ هذه القصص وركنتها في زاوية ما للمستقبل! وبعد سنوات حينما أهداني هدية عيد ميلادي أشرطة الفيديو: «القرصان» و«غيتار جوني» و«ليلة في الأوبرا»، عدتُ بذاكرتي إلى ذلك اليوم الدافئ على مدرجات الجامعة.

سألتني «ويدا» ما إذا كنت قد سمعتُ بآخر أفعاله المثيرة قبل فصله من الجامعة. فصحّحَتْ لها طالبة أخرى: «لقد ترك الجامعة قبل أن يتمكنوا من فصله». قلت بأنني لم أكن قد سمعت شيئًا عن مغادرته الجامعة بما في ذلك «آخر أفعاله المثيرة»، على حد تعبيرها. ولكنني بعد أن سمعت القصة، صرت متلهفة دائمًا لإعادة سردها لأي مستمع يهمه أن يسمع. ولاحقًا جدًا حينما

تعرفت إليه، ساحري، كنت أطلب منه دائمًا ان يسردها لي ويعيد سردها مرة بعد أخرى.

علمتُ أنه حدث ذات يوم أن يجتمع بعض الطلبة الراديكاليين مع أعضاء من الهيئة التدريسية في قسم المسرح في كلية الآداب من أجل تغيير المناهج الدراسية. كانوا قد وجدوا أن بعض المواد «برجوازية» للغاية وانه لم تعد ثمة حاجة لتدريسها، وأرادوا إضافة بعض المواد الثورية الجديدة. وقد أسفر ذلك الاجتماع الحاشد عن جدلٍ ساخن، حينما طالب بعضٌ من طلبة قسم المسرح أن يحلّ محل «شكسبير» و«أسخيليوس» و«راسين»، كل من «بريخت» و«غوركي». ناهيك عن انهم قالوا بأن نظريات «ماركس» و«انغلز» الثورية، أهم بكثير من المسرحيات. كان أعضاء هيئة التدريس قد جلسوا على المنصة في القاعة، باستثناء ذلك الأستاذ الذي كان واقفًا في الخلف، عند الباب.

ثم سأل المجتمعون، بلفتةٍ ديمقراطية عابرة، ما إذا كان الجميع متفقاً على بنود المقترحات الجديدة. فجاءهم صوت من آخر القاعة قائلاً بهدوء: «أنا أعترض». فسقط الجميع في صمت مطبق. وشرح الصوت بأن سبب ذلك الاعتراض هو قناعته الشخصية بأنه لا يجدُ أحدًا، وكان يعني لا أحد فعلاً، لا قائداً ثورياً ولا بطلاً سياسيًا، أهم من «راسين». وأن ما يمكن أن يدرسه هو «راسين»، أما إذا كانوا لا يريدون أن يعرفوا شيئًا عن «راسين»، فإن ذلك شيء عائدٌ لهم. ومتى قرروا أن يؤسّسوا جامعة على أسس صحيحة، ويعيدوا فيها الاعتبار لـ«راسين»، فإنه سيكون سعيدًا بالعودة مرة أخرى للتدريس. استدارت الرؤوس فجأة إلى جهة الصوت وهي غير مصدّقة. وقد كان هذا هو ساحري الجريء. بدأ البعض بمهاجمته ومهاجمة آرائه «الشكلانية» و«المتفسخة»، واتهموه بأن أفكاره كانت بالية وخارج السياق وقد آن الأوان له بأن يواكب تغيّرات الزمن. نهضت فتاة وحاولت تهدئة الصرخات الغاضبة. وقالت بأن هذا الأستاذ كان في الواقع يحظى دائمًا بأفضل اهتمامات الطلبة، وبأنه لا بد من إعطائه فرصة للدفاع عن نفسه.

لاحقًا، حينما رويت له القصة كما سمعتها، صحح لي قائلاً بأنه كان قد بدأ حديثه من آخر القاعة، لكنهم طلبوا منه أن يتقدم إلى المنصة. فمشى إلى هناك في ظل أجواء من الصمت وضعته من البداية موضع المتهم المحال إلى المحاكمة.

ولما استأنف حديثه قال للمجتمعين بأنه يحسّ بأن فيلمًا واحدًا لـ«لوريل وهاردي» هو أجدى وأجدر بالاحترام من كل كراريسهم السياسية، بما فيها تلك التي تخص «ماركس» و«لينين». وإن ما كانوا يسمّونه «عاطفة» لم يكن لا «عاطفة» ولا حتى خَبَلًا، ولم يكن أكثر من مشاعر رديئة خشنة لا يمكن ان تكون جديرة بأدب حقيقي. وقال لهم بأنهم إذا غيّروا المناهج فانه سيترك الجامعة. وكان صادقًا في كلمته، فلم يعد للتدريس مطلقًا بعد تلك الحادثة، على الرغم من أنه شارك في اعتصامات الطلبة ضد إغلاق الجامعات. فقد أراد لطلبته أن يعلموا بأن انسحابه في ذلك اليوم لم يكن بسبب خوفه من انتقام الحكومة.

علمتُ بأنه كان تقريبًا يحبسُ نفسه في شقته، ولا يلتقي إلا بمجموعة منتخبة من الأصدقاء والمريدين. قالت لي إحدى طالباتي بلهفة: «أراهِنُ بأنه سيلتقي بك يا أستاذة!».. لكنني لم أكن أراهِن!

[21]

كان الثلج الكثيف قد غطى الشوارع في آخر يوم لنا مع «غاتسبي» في كانون الثاني/ يناير. وكانت ثمة فكرتان أردتُ من طلبتي مناقشتهما.

لم أعد أملك نسختي المهترئة من «غاتسبي»، تلك التي تملأها الملاحظات المشفرة في الحواشي وفي نهاية الكتاب. فحينما غادرتُ إيران، تركت خلفي كتبي الأثيرة. أما هذه النسخة، فهي جديدة، مطبوعة في عام ١٩٩٣، غلافها غريب عليّ، ولا أدري كيف سيمكنني التعامل معها!

بدأت الشرح لطلبتي قائلة: أريد أن أبتدئ بأن أستشهد بعبارة لـ«فيتزجيرالد»، وهي أساسية في فهمنا لرواية «غاتسبي»، ومجمل أعمال «فيتزجيرالد». كنا قد تحدثنا طوال الوقت عن كل ما تقدمه لنا رواية «غاتسبي». وقد ذكرنا أكثر من مغزى، ولكن ثمة مغزى خفي لعموم الرواية، أعتقد بأنه يحدد لنا جوهر الرواية؛ ألا وهو قضية «الضياع».. ضياع الوهم. فالرواي «نِك» لا يتفق مع كل الناس الذين يجد «غاتسبي» متورطًا معهم بطريقة أو بأخرى، ولكن رأيه ذاك لا ينسحب على «غاتسبي». لماذا؟ لأن «غاتسبي» كان يمتلك «الخيال النزيه»، بحسب «فيتزجيرالد» في قصته «الغفران».

عند هذه النقطة، احتجّ السيد «نيازي» فرفع يده وقال: «ولكن «غاتسبي» مخادع، وهو الأقل نزاهة من الجميع، فهو يجمع الأموال بطرق غير مشروعة ويرافق المجرمين».

فقلت: أنت على صواب بطريقة ما، فـ«غاتسبي» يزيّف كل شيء، حتى اسمه. ولدى كل الشخصيات الأخرى في الرواية مراكز ووظائف وبطاقات تعريف أكثر استقرارًا منه. فالآخرون هم الذين يصنعون «غاتسبي» ويعيدون تصنيعه بشكل مستمر. وفي كل حفلاته، يتهامس مجملُ ضيوفه بتواطؤ متسائلين عمّن يمكن أن يكونه «غاتسبي»، وعن الأعمال التي قام بها سواء أكانت خرافية لا تُصدّق أو مريعة وغير مشروعة. يقرر «توم» أن يبدأ بالتحرّي عن شخصية «غاتسبي» الحقيقية، حتى أن «نك» نفسه يملأه الفضول بشأن «جَيْ غاتسبي» الغامض. إن ما يوحي به «غاتسبي» هو الغموض المشوب بالهيبة والجلال. فهو في واقعه الحياتي اليومي شخص أفّاق، ولكنه في حقيقته شخص حالمٌ رومانسي أسطوري، ويتحول إلى بطل ملحمي بسبب اعتقاده الراسخ بالوهم الذي خلقه لنفسه.

وإذ لا يستطيع «غاتسبي» احتمال حياته البائسة، فهو يمتلك «موهبة خارقة للعادة على صنع الأمل، واستعدادًا كبيرًا للرومانسية، ورهافة حس متألقة صوب وعود المستقبل». وهو إذ لا يستطيع تغيير العالم، فإنه يعيد خلق ذاته على ضوء حلمه الشخصي. دعونا نرى كيف يصف لنا «نك» ذلك: «إنّ «جَيْ غاتسبي»، وهو من «ويست ايغ» في «لونغ آيلند»، قد انبجس متحدّرًا من فكرته الأفلاطونية عن نفسه. فهو ابن الله ـ وهذه عبارة إذا كانت تعني شيئًا فهي لا تعني سوى نفسها ـ كان لا بد له من أن يكون حاضرًا في مكان ما من تجارة أبيه التي كانت تدور في فلك الجمال المبتذل المبهرج الواسع الانتشار. ولذا فقد إخترع ذلك النوع من الـ«جَي غاتسبي» الذي يمكن جدًا أن يرغب باختراعه صبيًا في السابعة عشرة من عمره، وقد أصبح مخلصًا لهذه الفكرة حتى النهاية».

كان ولاء «غاتسبي» خالصًا لشخصيته الجديدة وقد وجدت تلك الشخصية ضالتها في صوت «ديزي». وهو يبقى مخلصًا لمعطيات تلك الشخصية، للضوء الأخضر في آخر رصيف الميناء، وليس لحلمٍ بائس في الوصول إلى

الغنى أو الرفاهية. ولذلك فإنه من أجل ذلك «الوهم العظيم»، يؤثِر حتى أن يضحّي بحياته. وكما يقول «فيتزجيرالد» فإنه: «لا اتّقاد، مهما كان كبيرًا، ولا انتعاش يمكن له أن يتحدى ويضاهي ما يدّخره إنسان في جوهر روحه».

وأيضًا ثمة علاقة بين إخلاص «غاتسبي» لـ«ديزي» وإخلاصه لتلك الفكرة المتخيلة المبتَدَعة عن نفسه .«كان كثيرًا ما يتحدث عن الماضي، وأعتقد بأنه كان بذلك يحاول التعتيم على شيء ما، على فكرة مخفية تخص شخصيته ربما، وهو بسبب تلك الفكرة عشقَ «ديزي». ومنذ ذلك اليوم ارتبكتْ حياته واضطربت. ولكنه لو استطاع العودة الى نقطة بداية ما وراح يتأملها ببطء، فسيكون بإمكانه فهم تلك الفكرة»..

وعلى أية حال، فان الحلم يبقى كما هو: غير قابل للإفساد أو التدمير، حتى انه يتسع ليتجاوز حياة «غاتسبي» الشخصية، وليتشر في مدى أوسع. فيظهر في المدينة، في نيويورك نفسها، وفي الشرق حيث الميناء الذي غدا ذات يوم حلمًا لمئات الآلاف من المهاجرين، وأصبح اليوم قِبلة «الغرب أوسطيين»[1] الذين يصلون إليه بحثًا عن حياة جديدة وإثارات جديدة. وبينما تستحضر المدينة أحلامًا ساحرة وأنصاف وعود، فان الواقع لا يحملُ في جعبته سوى علاقات غرامية وضيعة وصِلاتٍ مثل تلك التي تربط بين «توم» و«ماريل». فالمدينة مثلها مثل «ديزي»، تعد بالكثير؛ تعد بالحلم، بالسراب الذي ما أن تقترب منه حتى تحسّ بانحطاطه وفساده. والمدينة هي صلة الوصل بين حلم «غاتسبي» والحلم الأميركي.

وهو حلم لا علاقة له بالمال، وإنما بخيال «غاتسبي» عن نفسه. وهو ليس انتقادًا لأميركا كونها بلدًا ماديًا وإنما لكونها بلدًا «مثاليًا»، بلدًا جعل من المال وسيلة لإحياء الحلم. ولا شيء خالصًا أو واضحًا هنا، ربما لأن الوضوح قد

(١) «الغرب أوسطيين»: القادمون من الغرب الأوسط للولايات المتحدة.

اختلط بالحلم حتى صار من الصعب جدًا التفريق بين الاثنين. وفي محصلة الحاصل تصبح أفضل المثل العليا منسابة مع الواقع الأكثر خسة، ويصبح الخيال الأنقى والواقع الأقذر إنما اسمين لشيء واحد.

هلا فتحتم الصفحة الأخيرة من فضلكم؟ نحن نتذكّر بأن هذه هي عبارات «ذِكْ» الوداعية لبيت «غاتسبي». يا سيد «بحري»، أرى أنك قد شرفتنا اليوم بحضورك، فهلاّ تفضّلت بقراءة القطعة؟ نعم.. السطر الثالث.. الفقرة التي تبتدئ بـ«إن معظم الأماكن الساحلية»..

ـ «وإذ ارتفعَ القمرُ، بدأت البيوت المُهَمْشة تتلاشى بعيدًا، حتى غدوتُ شيئًا فشيئًا أتوجّسُ حذرًا من هذه الجزيرة العجوز التي أزهرَتْ في عيون البحارة الألمان مثل قلب أخضر لعالم جديد. رأيتُ الأشجار الزائلة المتلاشية للذلك العالم وهي تحاذي الطريق المفضي إلى بيت «غاتسبي»، وهي تغوي بهمسٍ وتروّج، مثل سمسارٍ، للحلم الأعظم الأخير الذي ترنو إليه البشرية، أو وهي تروّج لتلك اللحظةِ الساحرة العابرة التي يحبس المرء فيها أنفاسه إذ يجد نفسه هنا على هذه القارة، لآخر مرة في التاريخ، وجهًا لوجه مع شيء ما بحجم أحلامه ودهشته، فيحسّ بأنهُ مُقحَمٌ في لحظة تأمل جمالي لا يفهمها ولا يرغب فيها»..

ـ «.. هل أواصل القراءة؟».

ـ «أرجو أن تفعل حتى نهاية الفقرة التالية».

ـ «وإذ جلستُ هناك أفكر مليًا بالعالم القديم المجهول، خطرتْ ببالي حيرة «غاتسبي» حينما رأى للمرة الأولى ذلك الضوء الأخضر في آخر الرصيف عند «ديزي». كان قد قطع شوطًا كبيرًا حتى وصل إلى هذا المرج الأزرق، ولا بد من أن حلمه كان قد تراءى له من القرب إلى حدّ أنه لم يكن أمامه سوى التشبث به. ولم يكن يدري بأنه كان أصلاً خلفه تمامًا، في مكان ما من تلك العتمة الهائلة ما وراء المدينة، حيث الحقول المظلمة للدولة تعملُ تحت جنح الليل».

كان يمكنه أن يغدو أفاقًا أو غير نزيه في حياته، وكان يمكنه أن يكذب بشأن

شخصيته وهويته، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكانه فعلهُ هو أن يخون خياله. حتى نجد بأن من يخون «غاتسبي» في المحصلة النهائية هو «صدق ونزاهة خياله».

إن «غاتسبي» يموت، لأن شخصًا مثله لا يمكن أن يحيا على أرض الواقع!

أما نحن القرّاء، فمثلنا مثل «نِك»، نتقبّل «غاتسبي» ولا نتقبّله في آن واحد. ونحن واثقون مما لا نحبه فيه أكثر من ذلك الذي نحبه. لأننا مثل «نك» أيضًا، مأخوذون بالمعنى الرومانسي الذي ينضحُ به حلمه. فقصة «غاتسبي» هي اختصار لحكايا المهاجرين الأوائل الذين وصلوا إلى موانئ أميركا بحثًا عن أرض جديدة ومستقبل جديد، وهي اختصارٌ لحلمهم، الذي كان قد تلطخ أصلاً بالعنف الذي ساهم في تحويل هذا الحلم إلى واقع.

قلتُ لطلبتي بأنه لم يكن من المفروض أن يحاول «غاتسبي» امتلاك حلمه. و«ديزي» تعلم ذلك، وهي تعشقه فعلاً بكل طاقتها على العشق، ومع هذا فهي لا يمكن أن تتصرف معه خلافًا لطبيعتها الشخصية، فلا تخونه.

وذات ليلة خريفية، توقفا في مكان ما، «حيث كان الرصيف أبيض من لون القمر. فرأى «غاتسبي» بطرف عينه بأن حجر الرصيف قد استحال فعلاً الى سلّم يفضي صعودًا إلى مخبأ سرّي فوق الأشجار. كان يمكنه ارتقاء السلّم لو انه كان بمفرده، وما أن يصل إلى هناك سيمكنه أن يرضع من ثدي الحياة، وأن يعبّ من حليب العجائب الذي لا مثيل له. كانت نبضات قلبه تتسارع وتتسارع كلما اقترب وجه «ديزي» الأبيض من وجهه. وكان يعلم بأنه حينما قبّل تلك الفتاة، وربط للأبد بين خيالاته التي لا توصف وأنفاسها الفانية، فإن خياله لن يسرحَ مرة أخرى.. تمامًا مثل خيال الله!».

والآن.. هلا انتقلتَ إلى الصفحة ٨ من فضلك؟ ولتبدأ القراءة من: «لا.. لقد أصبح «غاتسبي»...»..

ـ «لا.. لقد أصبح «غاتسبي» أفضل في آخر المطاف، انه ما يؤذي ويثير بشأن

«غاتسبي»، انه ذلك الغبار الملوّث الذي يطفو فوق صحوة أحلامه، فيجعلني أتخلّصُ موقّتًا من انشغالي بالأحزان الموؤودة وبالتيه والابتهاج العابر الذي يعتري الرجال»..

يجد «غاتسبي» أن الوصول إلى الغنى وسيلة للوصول إلى نهاية، وإنه وسيلة لامتلاك الحلم. وهذا الحلم يسلبه القدرة على التمييز بين الخيال والواقع، فهو يحاول أن يبتدع عالمًا ساحرًا من «الغبارِ الملوّث». وهو، لبعض الوقت، يستمدّ من أحلام يقظته «فسحةً للتخيّل، فتصبح تلك الأحلام بمثابة إشارة مريحة مُرْضِية توحي بلا واقعية الواقع، وبأن صخرة العالم قابعة بأمان وسلام على جناح جنية».

والآن دعونا نراجع كل النقاط التي ناقشناها؛ تحكي الرواية عن علاقات حية حقيقية، عن حب رجل لامرأة، وخيانة امرأة لذلك الحب. هذا صحيح، ولكنها أيضًا تتحدث عن الغنى، بإغرائه العظيم وبسطوته التدميرية على حد سواء. وعن الطيش واللامبالاة التي تأتي نتيجة للغنى. و.. فعلًا.. إنها تتحدث عن الحلم الأميركي؛ عن حلم المال والسطوة، عن تلك الإنارة الخداعة في بيت «ديزي»، وفي ميناء الدخول إلى أميركا. كما وتحدّثنا الرواية عن الضياع، عن قدرة الأحلام على التلاشي حالما ننزل بها إلى أرض الواقع الأليم. وحده الحنين، بنقائه وتجرّده من المادية.. هو الذي يجعل الأحلام خالصة نقية.

إن الشيء المشترك الذي يجمعنا بـ«فيتزجيرالد» هنا في إيران هو ذلك الحلم، الذي غلب على حياتنا واجتاح واقعنا. انه ذلك الحلم المُتعِب الجميل، المستحيل تحقيقه، والذي من أجله يمكن تبرير كل أشكال العنف والتغاضي عنها. إن هذا هو الشيء المشترك، على الرغم من أننا لم نكن قلقين بشأنه في ذلك الحين.

فليست الأحلام، يا سيد «نيازي»، سوى مُثل عليا خالصة، قائمة بذاتها وكاملة مكتملة. فكيف يمكنك أن تفرضها على واقع غير مكتمل وغير متكامل

ويتغير باستمرار؟ ستتحول إلى «هومبرت» وهو يدمّر جسد الحلم، أو إلى «غاتسبي» وهو يدمر نفسه!

حينما خرجتُ من القاعة ذلك اليوم، لم أخبرهم بما قد بدأت أكتشفه للتو أنا أيضًا؛ فكم كان قدرنا يقترب ليصبح شيئًا فشيئًا أكثر تطابقًا مع قدر «غاتسبي». فقد أراد «غاتسبي» أن يحقق حلمه بأن يستعيد الماضي، فاكتشفَ في النهاية بأن الماضي قد مات، وبأن الحاضر زائف، ولم يعد ثمة مستقبل. أليس هذا شبيهًا بثورتنا التي جاءت باسم ماضينا الجمعي المتراكم، وحطّمتْ حياتنا باسم الحلم؟

[22]

بعد المحاضرة شعرت بالإنهاك، حاولت أن أغادر بسرعة، فادعيتُ بأن لدي بعض الأشغال المهمة عليّ انجازها. وفي الحقيقة، لم يكن لدي شيء. ارتديت معطفي وقبعتي وقفازيّ ومضيتُ. لم يكن ثمة مكان بعينه أذهب إليه، كانت كميات كبيرة من الثلوج قد هطلت بعد ظهيرة ذلك اليوم، ثم سطعت الشمس فوق ركام الثلوج البيض النقية.

قبل مغادرتي إلى إنكلترا، كانت لي صديقة طفولة أكبر مني، كنت أحبها جدًا. كنا نتمشى أحيانًا على الثلج ساعات طويلة، ونمرّ على متجر الحلويات الذي نحب، حيث كانوا يقدمون نوعًا رائعًا من الـ«كريم بف» المصنوع من كريمة أصلية. كنا نشتري الـ«كريم بف» لنخرج إلى الثلج من جديد، فنلتهم الحلوى ونحن بين أحضان الثلج الحانية؛ نتبادل الكلام الفارغ والضحكات والمشي إلى ما لا نهاية.

غادرتُ الجامعة ورحت أمشي عبر الشارع المكتظ بالكتب. كان باعة الأشرطة المتجولون يرفعون أصوات المسجلات ويتقافزون من قدم لأخرى طلبًا للدفء، وقد أنزلوا قبعاتهم الصوفية على آذانهم والبخار يتسرب من أفواههم وكأنه يتصاعد مع أصوات الموسيقى، متساميًا ومتلاشيًا في زرقة السماء. مشيت حتى آخر الشارع، حتى بدأت محلات بيع الكتب تفسح الطريق للمحلات الأخرى بالظهور. وصلت إلى إحدى دور السينما التي اعتدنا

ارتيادها حين كنا صغارًا، لكنها كانت قد أغلقت حينئذ. (لقد أحرقوا الكثير من دور السينما في تلك الأيام البهيجة للثورة!) أكملت مشيتي حتى آخر الشارع، حيث وصلت إلى ساحة تدعى ساحة «الفردوسي»، وقد أطلق عليها هذا الاسم تيمنًا بشاعرنا الملحمي العظيم. وهناك توقفت. فهل كنا قد توقفنا عند هذا المكان أنا وصديقتي لنضحك ذات يوم ونحن نلعق الـ«كريم بف»؟

بمرور السنين، تلوّث الثلج بسبب التلوث المتزايد في طهران، وصديقتي غادرت البلاد الى المنفى، وعدتُ أنا إلى الوطن. وحتى ذلك الحين كانت فكرة الوطن ما زالت محيّرة وغير متبلورة. كان الوطن يراودني، مثل ومضات تعذّبني بحميميتها العجيبة في صور عائلية قديمة. لكن كل تلك المشاعر كانت قد بدأت تنتمي للماضي، وكان الوطن يتغيّر أمام عينيّ بشكل مستمر.

كان ينتابني في ذلك اليوم شعور عجيب بأنني بصدد أن أخسر شيئًا ما. كنت كمن يندبُ موتًا لم يحن أوانه بعد. أحسست كما لو أن كل شيء شخصي كان ينسحقُ مثل نبتة برية، لتحل محله حديقة أكثر زخرفًا، وليكن كل شيء فيها مدجنًا ومنظمًا. ولم يكن قد مرّ بي شعور مثل هذا الشعور بالضياع حينما كنت طالبة في الولايات المتحدة. فطوال تلك السنوات، كان حنيني مرتبط بيقيني أن الوطن ملكي، وبأنني كنت أملك أن أعود إليه متى شئت. ولم أكن لأدرك المعنى الحقيقي للمنفى، حتى تلك الحظة التي وصلت فيها إلى الوطن. فها أنني إذ أمشي في تلك الشوارع التي أعشقها جدًا والتي أتذكرها جدًا، انما أحس بأنني أسحق الذكريات التي تفترش الأرض تحت قدميّ.

[23]

بنذير شؤم، ابتدأ فصل الربيع الدراسي. فمنذ البداية لم تكن ثمة دراسة حقيقية. كانت الحكومة، طوال العام الذي سبق، منهمكة بقمع حركات المعارضة وبإغلاق الصحف والمجلات التقدمية وبمعاقبة الموظفين الحكوميين السابقين، بالإضافة إلى شنّ حرب ضد الأقليات وعلى الأخص: الأكراد. وكانت قد تفرّغت في ذلك الربيع لتصبّ اهتمامها صوب الجامعات؛ معقل المرتدين، وحيث لم يستطع الإسلاميون الثورويون أن يحكموا قبضتهم بعد. فلعبت الجامعات دور الصحف الممنوعة، وذلك بالاحتجاج على قمع القوى التقدمية. وكانت تقام في كل يوم تقريبًا، التجمعات الاحتجاجية وتُلقى الخطابات وتُنظم التظاهرات في إحدى الجامعات، وخصوصًا جامعة طهران.

وذات يوم، وأنا ألجُ مبنى القسم، حدست بأن شيئًا غريبًا يحدث. كان ثمة صورة مكبرة لـ«هاشمي رفسنجاني» معلّقة على الحائط أمام المدخل، وقد كان حينذاك الناطق الرسمي للبرلمان. وقد عُلقت بجانبها نشرة لتوعية الطلبة بالمؤامرة الوشيكة لغلق الجامعات. وتحلّقَتْ حول الصورة والنشرة مجموعات كبيرة متداخلة من الطلبة. تقدمتُ أكثر، ففسحَ الطلبة لي طريقًا للمرور. وتعرفتُ على بعضهم وكانوا من طلبتي. ثم رأيتُ السيد «نيازي» وسط الحشد وهو يقود نقاشًا حاميًا مع أحد قادة التنظيم الطالبي اليساري.

كان السيد «نيازي» يُنكر بحماسة شديدة أن تكون لدى الحكومة أية نيّة

لإغلاق الجامعات، فأشار الطالب الآخر إلى خطبة «رفسنجاني» في جامعة مشهد، وقد أكّد فيها الأخير إلى الحاجة الماسة لتطهير نظام التعليم وتفجير ثورة ثقافية في الجامعات. واستمرّ النقاش حاميًا وقد صحبَتْه همهمات تشجيعية من حشد الطلبة المحيطين، لكنني لم أمكثْ حتى نهاية النقاش، فقد بدا واضحًا أنه لن تكون ثمة نهاية.

كانت القوى العلمانية واليسارية تحكم قبضتها على الجامعات أيامئذٍ. وكانت ثمة تطورات متسارعة تأخذ مكانها على الارض، ولكنها لم تكن لتخطر ببال الكثير منا. فلم تكن فكرة إغلاق الجامعات واردة أو محتملة، تمامًا مثلما لم يكن ثمة احتمال وارد لإخضاع النساء وإجبارهنّ أخيرًا على ارتداء الحجاب. ولم يمض وقت طويل حتى أعلنت الحكومة نيّتها تعليق الدراسة وتشكيل لجنة تكون وظيفتها تفعيل الثورة الثقافية. ومنحت اللجنة سلطات كاملة تمكّنها من إعادة تشكيل الجامعات حتى تصبح مقبولة ومناسبة في نظر قادة الجمهورية الإسلامية. ولم يكن واضحًا تمامًا ما كانوا يريدونه بالضبط، بيد أنهم لم يشكّوا للحظة فيما كانوا لا يريدون. وقد مُنحوا سلطات مطلقة بفصل أي أستاذ أو موظف أو طالب غير مرغوب به، وبصوغ مجموعة جديدة من القوانين والمناهج العلمية. كان ذلك هو أول جهد منظّم من نوعه لتطهير إيران مما كان يسمى «الثقافة الغربية المنحلّة». ولما لم يذعنْ غالبية الطلبة والهيئة التدريسية لتلك التعليمات، فقد غدت جامعة طهران من جديد ساحة معركة.

بدأ الانتظام بالدرس يوشك أن يصبح مستحيلاً يومًا بعد يوم. فقد كنا جميعًا نتقافزُ من اجتماع إلى آخر مثل المسعورين، وكأننا كنا نحاول بالتحرك وحده أن نضع حدًا لما يجري. كانت الهيئة التدريسية تتحرك والطلبة يتحركون، وكانت الخلافات تتنامى وسط التنظيمات الطالبية المختلفة.

قاد الطلبة تظاهرات واعتصامات واسعة، وكنت أشارك في معظمها على الرغم من أنني لم أكن أتفق مطلقًا، في تلك المسألة بالذات، مع أي تنظيم من

التنظيمات. كنت مؤمنة بأنه: لو كان اليساريون قد استلموا السلطة، لفعلوا الشيء نفسه. ومع هذا، فلم تكن هذه هي القضية طبعًا، لقد كانت القضية هذه المرة تتعلّق بالجامعة التي كان لنا جميعًا يدٌ في تدميرها، مثلها.. مثل إيران.

[24]

وهكذا، ابتدأتْ سلسلة جديدة من التظاهرات العنيفة. كنا نبتدئ المسيرات عادةً من أمام جامعة طهران. وما أن نشرع بالتحرك حتى تتزايد الحشود. كنا نسير باتجاه المناطق الأكثر فقرًا، وما أن نصل إلى زقاق ضيق أو نقطة تقاطع معينة، حتى يأتوا.. (هم).. ويهاجموننا بالسكاكين والهراوات. فيتفرّق المتظاهرون، ليعيدوا تنظيم أنفسهم بهدوء في مكان أبعد قليلًا. كنا نسير عبر الطرقات المتعرجة وانعطافات الأزقة غير المعبدة، وفجأة يباغتوننا.. (هم).. من جديد في نقطة تقاطع أخرى تتقدمهم سكاكينهم، فنهرب من جديد، لنلتقي مرة أُخرى في نقطة أخرى على مبعدة بضع عمارات.

أتذكر أحد الأيام بشكل تفصيلي واضح؛ كنت قد تركتُ البيت مبكرة مع بيجان، وقد أوصلني قرب الجامعة وهو في طريقه إلى عمله. فلمحتُ، قبل بضعة مبانٍ من الجامعة مجموعة معظمها من الشباب، وهم يحملون اللافتات متوجهين إلى الجامعة. ولمحتُ بينهم «نسرين» التي لم أكن قد رأيتها منذ بضعة أسابيع. كانت تحمل بعض الكراسات في يدها وتسير في الصف الأمامي. وفي زاوية معينة من أحد الشوارع انفصلت هي وفتاة أُخرى عن المجموعة وانسحبتا إلى داخل الشارع. وخطر ببالي فجأة بأن «نسرين» لم تكن قد أعطتني تلك الورقة البحثية التي وعدتني بها عن «غاتسبي»، وبأنها كانت قد اختفتْ من حياتي فجأة، تمامًا مثلما كانت قد ظهرت فجأة. وتساءلتُ ما إذا كنت سأراها ذات يوم من جديد.

وجدت نفسي وأنا أسير مع مجموعة من الطلبة المنشدين، الذين ظهروا معي بشكل يشبه السحر. وفجأة سمعنا صوت إطلاق عيارات نارية بدتْ وكأنها قادمة من لا مكان. كان الرصاص حقيقيًا. وفي لحظة ما، كنا نقف أمام البوابة الحديد الكبيرة للجامعة، ثم وجدت نفسي أركض باتجاه محلات بيع الكتب التي كان معظمها قد أغلق أبوابه بسبب تلك الأحداث. احتميتُ تحت مظلة أحد المحلات القليلة غير المغلقة، وكان على مقربة منه أحد الباعة المتجولين يصرّ على إبقاء صوت جهاز التسجيل عاليًا، ورحت أستمع لصوت أحد المطربين المفعم بالشجن وهو يندب حبيبته الخائنة!

كان ذلك اليوم بأكمله وكأنه كابوسٌ طويلٌ، كنتُ قد فقدت الإحساس بالزمان والمكان، ووجدت نفسي أنضم إلى مجاميع مختلفة كانت تتفرق عاجلاً أو آجلاً، وهي تجرفني معها من طريق لآخر. وبعد الظهر، انطلقت تظاهرة كبيرة، وسرعان ما اتسعتْ لتصبح المواجهة الأكثر دموية بين الحكومة والطلبة. كانت الحكومة قد أتت بحافلات ملأى بعمال من مختلف المصانع، بالإضافة إلى البلطجية وقطاع الطرق وأفراد الميليشيات، وقد سلّحوهم بالسكاكين والعصي ليقوموا بتظاهرة مضادة لتظاهرة الطلبة. وقد اختير العمال بالذات نكاية باليساريين الذين ينظرون إلى الطبقة البروليتارية نظرة مثالية بصفتهم حلفاء راسخين.

وما أن بدأ إطلاق النار، حتى ركضنا جميعًا في مختلف الاتجاهات، أتذكر بأنني في لحظة ما، عثرتُ على إحدى زميلات صفي القديمات، ورحت أركض صوبها (كانت أقرب صديقاتي في الصف السادس الابتدائي). وفي خضم إطلاق النار والأناشيد، احتضنَتْ إحدانا الأخرى ورحنا نتحدث عما جرى لنا في مجمل الأعوام العشرين التي مضت منذ أن التقينا آخر مرة! وعلمتُ منها أخيرًا بأن الكل كان يمضي صوب المستشفى قرب جامعة طهران، حيث من المفترض أن يكون الجرحى وجثث الضحايا من الطلبة نُقلوا إليها. ولا أدري كيف فقدتُ

أثرها فجأةً بين الحشود، ووجدت نفسي وحيدةً في باحة المستشفى الكبير الذي كانوا قد غيروا اسمه مؤخرًا من مستشفى «بهلوي»، وهو اسم شاه إيران الأخير، إلى مستشفى الإمام «الخميني».

بدأتْ تسري إشاعات تفي بأن الشرطة والحرس قد سرقوا جثث الطلبة المقتولين لمنع تسرب خبر قتلهم. وأراد الطلبة اقتحام المستشفى ليحولوا دون نقل الجثث.

مشيتُ صوب المبنى الرئيس، وإذ أبحثُ في ذاكرتي الآن؛ أجدني لا أستطيع أن أرى نفسي إلا وأنا أمضي صوب ذلك المبنى إلى الأبد، ولكنني لا أصل إليه. كنتُ أسيرُ من دون وعيٍ مني، مع بشرٍ يتراكضون صوبي وآخرين يمضون في الاتجاه المعاكس. وبدا لكل منهم غايةٌ أو قصد في البال يمضي إليه، إلاي أنا، فقد كنت وحدي، أسير مثل الجميع، ولكن من دون هدف واضح. وفجأة تراءى لي أن وجهًا مألوفًا يتقدم نحوي، وكان ذلك هو وجه «مهتاب».

في تلك اللحظة التي نظرتُ بها إليها وهي مصعوقة وجامدة، بدتْ لي، أكثر من أي شيء آخر، أشبه بحيوان ضائع وفي خطر. ربما كانت الصدمة هي التي جعلتها تسير بخط مستقيم بشكل آلي تقريبًا من دون أن تنحرف يمنة أو يسرة، وباتزانٍ مثالي إلى حدٍ بعيد. تخيلوا معي «مهتاب» وهي تتقدم نحوي، ثم تحول فتاتان بيني وبينها لتظهر أمامي من جديد. كانت ترتدي قميصًا ذا لون بني فاتح يتهدّل على بنطلون جينز. تتحرك لتغدو ضمن مساحة الرؤية المتاحة لي، ثم تلتقي نظراتنا. كانت مهيّأة لأن تتخطاني، لكنها توقّفتْ لبرهة خاطفة. اذًا ها نحن هنا.. نحن الاثنتين.. نتقاسم اللحظة في خضم البحث المريع. كانت قد توقّفتْ لتخبرني بأنهم.. (هم).. قد نجحوا في اختطاف الجثث من مشرحة المستشفى، ولا أحد يعلمُ إلى أي مكان نُقلت. قالت ذلك.. واختفت.. ومنذ تلك اللحظة، لم أرها مطلقًا، إلا بعد سبع سنوات.

وبينما كنتُ أقف هناك، وحدي في باحة المستشفى، والبشر حولي يروحون

ويجيئون، خطر لي هاجس عجيب؛ أحسستُ وكأن قلبي قد انتُزع من صدري، ووقع على الأرض بصوت مكتوم في فضاء فارغ، فضاء واسع مهول، لم أكن أعلم بأنه يمكن أن يكون له وجود. أحسست بالتعب والخوف. لم يكن خوفًا من الرصاص، فقد كان الرصاص ابن لحظته تمامًا، بل لقد كنت مرتعبة بسبب احساسٍ بالافتقاد، وكأن المستقبل كان يتوارى بعيدًا.. ويتخلى عني.

[25]

كان الطلبة يقيمون الخفارات ويعتصمون في الجامعة لحمايتها والحيلولة دون إغلاقها. وأصرّوا على الاعتصام هناك حتى كاد الأمر أن يبلغ معركة دموية، على الرغم من أن السلاح كان بيد القوات الحكومية فقط، حتى أُخليت الجامعة من الطلبة، لتحتل الميليشيات وحرس الثورة والشرطة مباني الجامعة وأرضها.

وفي واحدة من تلك الخفارات، التقيتُ بالسيد «بحري». كانت ليلة ملؤها القلق، ناهيك عن الأجواء العائلية الزائفة التي تكتنف مواقف من هذا النوع. كنا نفترش الأرض ونجلس باقتراب حميم، نتبادل النكت والمعلومات والحكايا، وأحياناً نتجادل طويلاً لقضاء الساعات في الليالي الدافئة الممتعة. وفي تلك الليلة، كان يقف بمفرده في زاوية مظلمة وهو يتكئ بجسده على شجرة، وسألته: «وإذًا؟ ما رأيكَ بما يحدث؟». فابتسمَ ابتسامته الساحرة التي أحب، وقال: «لا يا سيدتي.. ليس هذا هو السؤال.. بل: ما رأيك أنت بما يحدث؟».

فأجبت ببطء: «يا سيد «بحري».. إن رأيي فيما يحدث بدأ يصبح شيئًا فشيئًا «غير ذي علاقة»، إنه في الواقع غدا «غير ذي علاقة» تمامًا، حتى إنني بدأت أفكر بالعودة إلى البيت لألتقط كتابًا أقرأه، وأحاول أن أحظى ببعض النوم!».

أعلم أنني صدمتهُ بتلك العبارة، وربما صدمتُ نفسي أنا الأخرى قَبل أن

أصدمه. لقد أحسست فجأة بأن هذه لم تكن معركتي أنا؛ ربما لإن الإثارة التي أتتْ بها المعركة كانت تعني لمعظم الحاضرين كل شيء تقريبًا، أما أنا فلم يكن الأمر ليثيرني، أعني ليس بهذه الطريقة على الأقل. فما الفرق اذا كان اليساريون هم الذين سيغلقون الجامعة وليس الإسلاميون؟ لم يكن هذا الأمر ليعنيني في شيء، لأن ما كان يهمني أكثر هو الاّ تُغلق الجامعة مطلقًا، والا يُسمح بأن تكون سوى جامعة، وفقط جامعة. والاّ تصبح أرض معركة للقوى السياسية المتناحرة. وقد استغرقتُ وقتًا طويلاً، سبعة عشر عامًا في الواقع، لكي أستوعبَ الأمر أخيرًا وأعيد صوغ فهمي له.

لكنني في ذلك اليوم تحديدًا، عدت إلى بيتي.

ولم يمضِ وقتٌ طويل، حتى نجحت الحكومة بعد ذلك في إغلاق الجامعات. وقاموا بـ«تطهير» الكليات من طلبة وأساتذة. فقُتِلَ بعض الطلبة أو سجن، واختفى البعض الآخر. وأصبحت جامعة طهران مرتعًا لليأس وخيبات الأمل والحزن العميق والألم. ولم يحدث بعد ذلك أن أحسَّ باللهفة وأنا أمضي بسذاجة فرحي إلى التدريس، كما كنت أفعل فجر الثورة.

[26]

ذات يوم من ربيع ١٩٨١ أصبحتُ «غير ذات علاقة»!

لا زلت حتى الآن أستطيع أن أستشعر الشمس ونسائم الصباح وهي تداعب خدي في ذلك اليوم. فبعد عام واحد من عودتي إلى بلدي.. مدينتي.. بيتي، اكتشفتُ بأن القرار الذي حوّل الكلمة المفردة: «إيران» إلى: «الجمهورية الإسلامية الإيرانية»، هو نفسه الذي جعلني أنا كُلّي: «غير ذات علاقة». وعلى الرغم من انني كنت أشاطر الكثيرين هذا القدر، لكن ذلك لم يكن كافيًا لتخفيف وطأته عليّ.

في الواقع كنت قد أصبحتُ غير ذات علاقة قبل ذلك ببعض الوقت. فبعد ما يُسمى «الثورة الثقافية» التي تمخّض عنها إغلاق الجامعات، أصبحت تقريبًا بلا عمل. فكنا نذهب الى الجامعة، لكن لم يكن لدينا ما نفعله هناك. كنتُ أقضي الوقت بكتابة مذكراتي وقراءة «أغاثا كريستي». ورحت أتسكع في الشوارع مع صديقي الصحافي الأميركي، ونحن نتحدث عن «جهة الشرق الأدنى» لـ«مايك غولد»، وعن «الحافة الغربية» لـ«فيتزجيرالد». وكنا عوضًا عن التدريس نُستدعى لاجتماعات لا أول لها ولا آخر. كانت الإدارة تطالبنا بالاّ نعمل، وأن نتصرف في الوقت نفسه بشكل طبيعي وكأن شيئًا لم يكن. فمع أن الجامعات كانت مغلقة، كانت الهيئة التدريسية مُطالبة بالحضور، وبتقديم مقترحات بشأن الثورة الثقافية إلى اللجان المختصّة.

كانت أيامًا لا جدوى منها، وكان الأمر الوحيد الذي يجعلها تُحتمل هو ذلك النسيج المتين من العلاقات التي نشأتْ بيننا نحن الأساتذة من داخل القسم وخارجه. كنت الأصغر بينهم، والأحدث في المجموعة، وكان أمامي الكثير لأتعلمه. وقد حدّثوني عن الأيام التي سبقت الثورة، وعن الإثارة والأمل. كما حدثوني عن بعض زملائهم الذين لم يعودوا أبدًا.

وأخيرًا اختيرت لجنة لتفعيل الثورة الثقافية، وقاموا بتقديم آرائهم عن كلية القانون والعلوم السياسية، وكلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية، وذلك في مبنى الاجتماعات العامة في مدرسة القانون.

على الرغم من التعليمات الرسمية وغير الرسمية الموجهة للنساء من الهيئة التدريسية والموظفات في الجامعة بشأن ارتداء الحجاب، إلاّ أن معظمهن لم يكنّ قد امتثلنَ للأوامر الجديدة حتى ذلك اليوم. وكان هذا الاجتماع هو الأول الذي أحضره وأجد فيه كل الإناث المشاركات وهنّ يضعنَ إيشاربات الرأس. فكنّ جميعهن محجبات باستثناء: «فريدة» و«لالة» وأنا..! كنا نحن الثلاث مستقلات، وكانت الغالبية يعتبرنا غريبات الأطوار، وقد تصادف أن نذهب نحن الثلاث إلى ذلك الاجتماع بلا حجاب.

جلس ثلاثة من أعضاء لجنة الثورة الثقافية بشيء من عدم الارتياح على منصة عالية جدًا في مبنى الاجتماعات العامة. وكان خطابهم يتأرجح ما بين الغطرسة والتوتر والجرأة. وأستطيع أن أصف الاجتماع بأنه الأخير من نوعه في جامعة طهران، حيث انتقدَ الأساتذة سياسة الحكومة بحرية تامة وبشكل مفتوح في كل ما يتعلق بالتعليم العالي. بيد أن المكافأة التي قدموها لمعظم الأساتذة على وقاحتهم كانت: الفصل من الجامعة.

كان جلوسنا معًا أنا و«فريدة» و«لالة» ملفتًا للنظر مثل ثلاثة أطفال مشاكسين. كنا نتهامس ونتشاور مع بعضنا طوال الوقت، ولم نكفّ عن رفع أيدينا للتعليق والكلام. كانت «فريدة» تعنّف اللجنة على استخدامها الحرم

الجامعي لتعذيب الطلبة وتهديدهم وإرهابهم. وقلتُ بأن أمانتي ونزاهتي كأستاذة وكامرأة تتعرّض لمساومة حقيرة بسبب إصرار اللجنة على ارتدائي الحجاب تحت ذرائع واهية، مقابل بضعة تومانات(*) في الشهر. وقلتُ بأن قضيتي لا تتلخّص في الحجاب تحديدًا، وإنما في حرية الاختيار. كانت جدتي قد رفضتْ ذات يوم مغادرة المنزل لثلاثة أشهر حينما أُجبرتْ على عدم ارتداء الحجاب، وكنتُ أتخذ موقفًا مشابهًا في عنادي ورفضي. ولكنني لم أكن أعلم أنني سأكون قريبًا مضطرةً للاختيار ما بين التحجّب وبين الجلد أو حتى القتل اذا لم أمتثل للأمر.

بعد ذلك الاجتماع، ارتَدت الحجابَ إحدى زميلاتي الأكثر عملية مني. كانت امرأة «مودرن»، وقد قرّرت التحجّب وبقيَتْ في وظيفتها سبعة عشر عامًا بعد خروجي أنا من الجامعة. قالتْ لي وقد اعترى نبرتها شيء من السخرية: «أنت تخوضين معركة خاسرة! فلماذا تخسرين وظيفتك بسبب قضية كهذه؟ فأنتِ في غضون أسبوعين ستكونين مضطرة لارتداء الحجاب حتى وأنت في سوق الخضار». وأجبتها ببساطة بأن الجامعة ليست سوقًا للخضار.

بيد أن زميلتي كانت على حق، فقد كنّا مُجبرات بُعيد مدة وجيزة على ارتداء الحجاب في كل مكان. وكانت ميليشيا حماية الأخلاق، بأسلحتها وسياراتها التويوتا البيض، تجوبُ الشوارع للتحقّق من التزامنا. وعلى أية حال، فنحن حينما سجّلنا احتجاجنا أنا وزميلاتي في ذلك اليوم المشمس، لم نكن نرى أن ما يحدث لنا هو أمرٌ مقدّر وحتمي. وقد احتجّ الكثيرون من الهيئة التدريسية، لأننا كنا نعتقد فعلاً بأننا قد نفوزُ في النهاية.

غادرْنا الاجتماع وقد غمرَنا شعور بالانتصار. لقد هوجمَت اللجنة بشكل صريح، وكانت دفاعاتهم وردودهم واهية. وإذ كانت تتصاعد وطأة النقاش

(*) تومان: ورقة نقدية إيرانية تساوي عشرة آلاف دينار، تعادل اليوم خمس سنتات أميركية. (الناشر).

شيئًا فشيئًا كانت الإجابات تغدو أكثر تفكّكًا ولا تتعدى الدفاع والتبرير. وإذ خرجنا من قاعة الاجتماعات، وجدتُ السيد «بحري» بانتظاري مع أحد الأصدقاء. لم يتحدّث إلى زميلتيّ، كان يوجه كل تعليقاته لي أنا، فلم يكن يفهم: «كيف لي أن أفعل ذلك؟!». وقال معاتبًا: «ألسنا أصدقاء فعلاً؟». فأجبت: «بلى نحن أصدقاء، ولكنّه ليس بالأمر الشخصي مطلقًا.. ليس كما تنظر للأمر». فقال بحزن: «ألا ترينَ أنك من دون وعي منك تخدمينَ العدو، وتخدمين الإمبريالية؟ هل تجدين أن من الصعب عليك جدًا أن تستجيبي وتطيعي بعض التعليمات لإنقاذ الثورة؟». كان بوسعي أن أسأله: «ثورة مَن تعني؟». لكنني لم أفعل، فقد كنا أنا و«فريدة» و«لالة» في غاية الفرح والانتعاش، وكنا ننوي الخروج معًا للغداء احتفالاً بالمناسبة.

بُعيد شهورٍ قلائل، شُكلت لجان جديدة قامتْ بتطهير الجامعة والتخلّص من بعض أفضل الأساتذة والطلبة. فاستقال الدكتور «أ»، وغادر إلى الولايات المتحدة. وفُصِلتْ «فريدة» لتغادر بعدها بمدة إلى أوروبا. وبعد وقتٍ قصير، فُصل ذلك الأستاذ الشاب اللامع الذي التقيته في مكتب الدكتور «أ»، وقد التقينا بعد ذلك بأحد عشر عامًا في مؤتمر في «أوستن» بولاية «تكساس». ولم يتبقَ من مجموعتنا القديمة سوى أنا و«لالة» ليأتي دورنا في الفصل بعد ذلك بقليل نحن أيضًا.

وأخيرًا جعلت الحكومة ارتداء الحجاب إلزاميًا. وأحالتْ المزيد من الطلبة والهيئة التدريسية للمحاكمة. فنظّمتْ جماعة «المجاهدين» تظاهرة كبرى، دعمتْها كل قوى المعارضة باستثناء الحزب الشيوعي «تودا»، وتنظيم الفدائيين. وكان أول رئيس للجمهورية مختبئًا في ذلك الوقت، ولاحقًا كان سيفرّ هاربًا خارج البلاد.

وقد شاركتُ في تلك التظاهرة التي شارك فيها أكثر من نصف مليون شخص، فغدت المعركة الأكثر دمويةً منذ اندلاع الثورة. فاعتقل أكثر من ألف

شخص، وكان الكثيرون منهم، بينهم فتية وفتيات في سن المراهقة، قد أُعدِموا في اللحظة. وبعد ثمانية أيام، وتحديدًا في الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو، فُجِّر المقر الرئيس للحزب الجمهوري الإسلامي، وقتل أكثر من ثمانين شخصًا من أعضائه وقياداته العليا. فجاء ثأر الحكومة بإعدام واعتقال الناس بطريقة بدت في معظمها في غاية العشوائية.

وحينما بدأت إدارة الجامعة بإجراءات فصلي، كان من المدهش فعلاً أن أجد السيد «بحري» وأصدقائه من طلبتي السابقين، اللذين كان معظمهم قد حصل على علامة "F"، وهي علامة الرسوب بسبب الغياب، وقد هبّوا للدفاع عني وتأخير أمر فصلي من الجامعة بأقصى طاقاتهم، وهو الأمر الذي لم يفعله أيٌّ من زملائي العلمانيين.

كانت تلك المشاعر التي تخيلت بعض الوقت بأني نسيتها قد عاودتني من جديد بعد تسعة عشر عامًا تقريبًا، حينما قام النظام الإسلامي بالوقوف ضد طلبته من جديد. ولكنه في هذه المرة أطلق النار على أولئك الذين منحهم حق الالتحاق بالجامعة دون سواهم.. أو.. أولئك الذين هم في الواقع أبناء النظام.. وأبناء الثورة. ومرة أُخرى ذهب طلبتي إلى المستشفيات بحثًا عن الجثث التي سرقها الحرس واللجان والبلطجية، وراحوا يحاولون منعهم من سرقة الجرحى! بيد أن الفرق الوحيد كان؛ أنني في هذه المرة، لم أكن أسير على تلك الطرقات إلا في خيالي، وأنا أقرأ الرسائل عبر الفاكس والبريد الإلكتروني في مكتبي في واشنطن دي سي. رسائل تأتيني من طلبتي السابقين في إيران، أقرأها وأنا أحاول فكّ الرموز التي تتراءى لي من وراء السطور الهستيرية.

كم وددت لو أعرف أين يمكن أن أجد السيد «بحري» الآن، في هذه اللحظة؛ لأسأله فقط: «كيف انقلب السحر على الساحر؟».. وهل هذا هو حلمك يا سيد «بحري»؟ هل هذا هو حلمك بالثورة؟ من الذي يدفع ثمن كل تلك الأرواح التي تحلّق في ذاكرتي؟ من يدفع ثمن تلك اللقطات والمشاهد للقتلى والمعدومين التي خبأناها في خزائننا ونحن نحاول أن نمضي الى أشياء

أخرى؟ قل لي ياسيد «بحري».. أخبرني، أو دعني أستعير تلك العبارة الغريبة لـ«غاتسبي»: «أخبرني يا رفيقي القديم، ما الذي سوف نفعله بكل تلك الجثث التي بين أيدينا؟».

الفصل الثالث

جيمس

[1]

اندلعتِ الحرب ذات صباح.

جـاءت فـجـأةً ومـن دون أدنى تـوقّـع، وأعـلـنَ عـنـهـا في ٢٣ أيـلـول/ سبتمبر١٩٨٠، اليوم الذي سبق بدء العام الدراسي في الجامعات والمدارس. كنا في السيارة عائدين من رحلة إلى بحر قزوين، حينما سمعنا من الراديو عن الهجوم العراقي. لقد ابتدأ الأمر ببساطة مطلقة، وكأنه أمرٌ واقعٌ، أو بالطريقة التي يعلن فيها الناس عن ولادة أو عن موت. وقد تقبّلناها مثل حقيقة واقعة لا حياد عنها. فراحتْ تتسلل إلى كل الاعتبارات الأُخرى لتتشرّب بها حياتنا وتسود شيئًا فشيئًا لتمتلئ بها كل الجهات. فكم من حدثٍ قد يشترك في تلك اللحظة الحاسمة وغير المتوقعة من حياتك، حينما تفيق من نومك ذات صباح لتكتشف أن قوى خارجة عن إرادتك تمامًا قد غيّرت حياتك الى الأبد؟!

فما الذي أشعل فتيل الحرب؟ هل هي غطرسة القيادات في الثورة الإسلامية الجديدة؟ أولئك الذين لم يكفوا عن استفزاز الأنظمة التي كانت تنعتهم بالرجعية والهرطقة في الشرق الاوسط، ولم يكفّوا عن تحريض شعوب تلك البلاد على الثورة؟ هل اندلعت لأن النظام الجديد قد أضمرَ عداءً خاصًا لصدام حسين الذي طرد من العراق آية الله «الخميني» وقد كان منفيًا هناك، بعد أن أشيع عن صفقة تمتْ بين صدام والشاه؟ هل كانت بسبب العداء التاريخي القديم، أم لأن النظام العراقي، الذي تسلح بوعود الدعم من الغرب المعادي لإيران، قد حلم بنصر جميل وخاطف؟

وباستعادة شريط الذكريات، بعد أن تتجمع الأحداث التاريخية معًا ويتم تحليلها وتصنيفها الى مقالات وكتب، تتضح أوراقها المختلطة، وتكتسب منطقها الواضح المحدد، حتى لينسى المرء بأنه عاش فوضاها ذات يوم. وقد كانت الحرب بالنسبة لي، مثلما كانت بالنسبة لملايين الإيرانيين العاديين؛ حربًا جاءت من لا مكان ذات صباح خريفيّ دافئ، حربًا غير متوقعة، غير مرغوب بها، وبلا معنى تمامًا.

كنت طوال ذلك الخريف أغيب في مشيات طويلة، وأنا أذرع بقدميَّ الأزقة العريضة الوارفة الأغصان المحاطة بالحدائق العابقة والجداول المتعرجة الرقراقة قرب بيتنا. كنت أمشي طويلاً، وأتأمل أفكاري المتناقضة صوب الحرب؛ فقد اختلط الغضب في داخلي بمشاعر الحب والرغبة بالدفاع عن بيتي ومدينتي.

ذات مساء من أيلول/ سبتمبر، وكان يومًا من أيام الشفق ما بين الفصول، حينما يصبح الجو في وقت قصير مفعمًا بمزيج من الصيف والخريف، شغلتني عن هواجس الحرب ألوان الغروب الرائعة وقد تبدّتْ أمام ناظريّ. وتصادف أن أرى مشهد الضياء وهو يتلاشى ما بين الأغصان المتشابكة الرقيقة لنباتٍ متسلّق بين مجموعة من الاشجار القريبة، فوقفتُ في مكاني أتأملُ روعة وشفافية رقصة الغروب، حتى انتبهتُ إلى وجود شخصين يمشيان بعكس اتجاه سيري وهما يرمقاني بتعجّب، فواصلتُ السير. وعند المنحدر أسفل الشارع، على اليمين مني، كان ثمة عبارة كُتبت بحروف سود كبيرة على الجدار، عبارة قالها آية الله الخميني: «هذه الحرب نعمة وبركة عظيمة لنا!». قرأت الشعار بغضب، وقلت في نفسي: «بركة عظيمة لمن؟!».

[2]

اندلعت الحرب مع العراق في أيلول من ذلك العام، ولم تنتهِ حتى أواخر تموز من عام ١٩٨٨. وكل ما حدث لنا عبر تلك السنوات الثماني للحرب، والأسلوب العجيب الذي سارت عليه حيواتنا بعد ذلك كان بشكلٍ أو بآخر محكومًا بذلك الصراع. لم تكن تلك هي الحرب الأسوأ في العالم، على الرغم من أنها خلّفت ما يربو على مليون قتيل وجريح. في البدء، بدت وكأنها توحّد البلاد المقسّمة بعضها إلى البعض الآخر، فقد كنّا جميعًا أمام الحرب: إيرانيين وقد استهدف العدو وطننا. ولكن حتى في هذا المقام لم يكن مسموحًا للجميع المشاركة بشكلٍ كامل. ومن وجهة نظر النظام، لم يكن العدوّ قد هاجم إيران فقط، وإنما هاجم الجمهورية وهاجم الإسلام.

كان الاستقطاب الجماهيري الذي قام به النظام قد أربك كل جوانب الحياة. فلم تكن «قوى الله» تحارب رسول الشيطان صدام حسين فحسب، وإنما كانت تقارع أيضًا «عملاء الشيطان» الذين انتشروا في البلاد. ففي كل الأزمنة، منذ اندلاع الثورة حتى بدء الحرب، ثم مرورًا بكل سني الحرب وما تلاها، لم يكن النظام قد نسي أو غفل عن حربه ضد أعدائه في الداخل. وقد بدأت كل أشكال الانتقاد الآن تنصب في اعتبار أي عدو هو عراقيّ الهوى وهو تهديد للأمن القومي. وقد استبعِدَ عن المشاركة الفاعلة في الحرب كل الجماعات والأفراد الذين كان يُشك بولائهم المطلق لتوجهات النظام. فكان من الممكن

تصفيتهم أو إرسالهم إلى الجبهة، ولكن لم يكن من الممكن تحت أي ظرف أن تسمع أصواتهم أو أن يكون لهم حق الاختيار سياسيًا أو اجتماعيًا. فقد كانت ثمة قوتان فقط في هذا العالم «جيش الله».. و«جيش الشيطان».

وهكذا أصبحَ كل حدث وكل التفاتة أو إيماءة اجتماعية إنما يُعتبر تجسيدًا لولاءٍ ما، أيًا كانت رمزيته. لقد ذهب النظام الجديد إلى ما هو أبعد من الرمزية الرومانسية السائدة لأي نظام سياسي، وتخطاها ليقيم في عالم من الولاء المطلق الذي راح يجر وراءه الكثير من التداعيات المدمّرة. (لم تكن الجمهورية الإسلامية مجرد إعادة صوغ لذلك الأسلوب الذي أسسه الرسول محمد في الجزيرة العربية، بل لقد كانت تجسيدًا حقيقيًا لحكم الرسول. وكانت حرب إيران مع العراق تُشبّه بالمعركة التي قادها الإمام الحسين ضد الكفّار، وهو الإمام الثالث والأكثر بطولة. وكان الإيرانيون في سبيلهم إلى فتح مدينة كربلاء، حيث ضريح الإمام الحسين ومقامه. وكانت كتائب الإيرانيين تسمى بأسماء النبي والأئمّة الاثني عشر المعصومين؛ فكانوا «جيش علي» و«جيش الحسين» و«جيش المهدي»، وهو الإمام الثاني عشر الذي ينتظر ظهوره المسلمون الشيعة. وكانت الهجومات العسكرية على العراق تكنى دائمًا بأسماء المعارك المأثورة للرسول محمد. ولم يكن آية الله الخميني قائدًا دينيًا أو سياسيًا فحسب، بل لقد كان إمامًا مطلق اليد دينيًا ودنيويًا.

أخذتني في تلك الأيام هواية تجميع نهمة لا تهدأ. فكنتُ أحتفظ بصور الشهداء؛ أولئك الشباب اليافعين أو الأطفال الصغار التي كانت تنشر صورهم الصحف اليومية جنبًا إلى جنب مع أمنياتهم الأخيرة قبيل الذهاب إلى الجبهة. اقتطعتُ من الصحيفة مديح الخميني لذلك الفتى ذي الثلاثة عشر ربيعًا الذي ألقى بنفسه أمام دبابة للعدو. جمعتُ قصصًا لشبابٍ مُنحوا مفاتيح الجنة ليعلقوها في أعناقهم وهم يمضون إلى الجبهة، وقد قيلَ لهم بأنهم إذا ما استشهدوا فانهم سيذهبون إلى الجنة مباشرةً. وما كان قد ابتدأ بنزوة جامحة

تسجيل الأحداث في دفتر المذكرات، استحال شيئًا فشيئًا إلى عملٍ محموم وجوعٍ للادّخار، وكأنني كنت بفعلٍ كهذا أحاول التعويض عن قدرٍ مشؤوم فرضته عليّ قوى خارجة عن إرادتي، بأن أفرض عليها شيئًا من منطقي وإيقاعي الشخصي.

كان الوقت قد أخذ منا مأخذًا لا بأس به قبل أن ندرك المعنى الحقيقي للحرب، على الرغم من أن الإذاعة والتلفزيون والصحف كانت تضجّ بالحرب. كانوا يحثّون الناس على اتباع تعليمات التعتيم، واستخدموا نظام إنذار خاص لتوجيهنا: فكانوا يشعلون ضوءًا أحمر، نسمع بعده صوتًا يقول لنا: «انتباه! انتباه!.. الرجاء التوجه إلى الملاجئ..!». وكان هذا هو الإنذار!

ملاجئ؟.. أي ملاجئ؟! فطوال الأعوام الثمانية للحرب، لم تنشئ الحكومة مطلقًا أي برنامج حقيقي أو مدروس من أجل سلامة أو أمن مواطنيها. ولم تكن كلمة ملاجئ لتدلّ على شيء سوى السراديب أو الطوابق السفلى من العمارات التي كان من الممكن أحيانًا أن نموت مدفونين تحت أنقاضها. ولم نكن ندرك إلا لاحقًا، كم كنا معرّضين نحن أيضًا للهجوم حتى قُصِفَتْ طهران، مثلها مثل بقية المدن.

كان موقفنا المتناقض المتضارب تجاه الحرب نابع من تناقضنا وازدواجيّتنا تجاه النظام. أتذكر ذات يوم في واحدة من الغارات الجوية الأولى على طهران، قُصِفَ بيتٌ في أحد الأحياء الغنية من المدينة. وسرت إشاعة مفادها أن أفرادًا من العصابات المناوئة للحكومة كانوا يشغلون قبو ذلك البيت. وفي محاولة للتهدئة من روع الجماهير الخائفة، صرّح المتحدث باسم البرلمان آنذاك السيد هاشمي رفسنجاني في خطبة الجمعة بأن الانفجارات لم تُحدِث ضررًا حقيقيًا حتى الآن، طالما أن الضحايا لم يكونوا أكثر من شرذمة من المخرّبين والأغنياء المتغطرسين. وكانوا سيُعدمون عاجلًا أو آجلًا على أية حال. وقد نصح أيضًا بأن ترتدي النساء ملابس مناسبة أثناء النوم، حتى إذا ما تعرضتْ بيوتهنّ للقصف، فلا تراهنّ «عيون الغرباء وهن غير محتشمات».

[3]

قالت «لالة» قبل أن تجلس إلى المائدة في مطعمنا الأثير حيث كنت أنتظرها: «هيا فلنحتفل».. كان هذا بعد بضعة أسابيع من مواجهاتنا مع لجنة الثورة الثقافية، وكنا قد أدركنا حينها بأنها مسألة وقت فقط ليحين موعد اختيارنا بين الانصياع إلى القوانين أو الفصل. كانت الحكومة قد جعلت الحجاب إلزاميًا في أماكن العمل. لذا لم أجد سببًا واضحًا يجعل «لالة» تبدو في غاية الحيوية والمرح. وملأني الفضول لأفهم: «نحتفل بماذا؟!». فصمتَتْ برهة، وأخذت نفسًا عميقًا (زيادةً في الإثارة) وقالت: اليوم، وبعد تسع سنوات، ثمانٍ ونصف على وجه الدقة، فُصلت رسميًا من الجامعة، وأنا الآن رسميًا «غير ذات علاقة»، على حدّ تعبيرك. ولذا فالغداء على حسابي، وطالما أننا لن نستطيع أن نشرب علنًا احتفالاً بمناسبة حصولي على هذه المكانة الجديدة، فدعينا إذًا نأكل أنفسنا حتى الموت. كانت تقول ذلك بجهد شجاع في محاولة لتخفيف وطأة حدثٍ جعلها بلا مصدر للرزق، والادهى انه أجبرها على التخلي عن وظيفة عَشِقَتْها وأبدعَتْ فيها. كانت «تزمّ شفتها العليا»، أعتقد بأن هذا هو المصطلح الذي يمكن إطلاقهُ على حالة «لالة». وقد أصبحت هذه الحركة حينئذٍ آخر صيحة انتشرت بين أصدقائي وزملائي.

وفهمتُ بأنها كانت قد ذهبت إلى الجامعة في ذلك اليوم لمناقشة قضيتها مع رئيس قسم علم النفس، القسم الذي بقيَتْ تدرّس فيه منذ عودتها من ألمانيا قبل

بسنوات. ولم تكن قد وضعتْ إيشاربًا على رأسها بالطبع. و.. بالطبع نادى عليها أحد الحرس عند بوابة الجامعة من داخل «قفصه». أستطيع أن أتخيله الآن؛ فموقع الحرس، وهو نتوء بارز كبير من القضبان، هو قفص فعلاً ولكنه كان يستخدم غرفة للحرّس. وكان ربما مبنيًا من معدن ما أو اسمنت مع شباك وباب جانبي. أستطيع أن أرفع سماعة الهاتف الآن وأكلم «لالة». فقد وصلتْ أخيرًا قبل عامين إلى الولايات المتحدة. وهي تعيش الآن في لوس أنجلوس. بإمكاني سؤالها طبعًا، فهي تملك ذاكرة حادة جدًا لا تشبه ذاكرتي.

سألتني «لالة»، إذ علِقَ خيطٌ من ورقة خسٌ لينة في طرف شوكتها: «هل سبق لك أن صادفتِ ذلك الحارس الجديد؟.. ذلك الأخرق المتجهّم؟.. ذلك الضخم.. الـ.. كانت تحاول أن تتجنب استخدام كلمة بدين. فقلت: «كلا.. لم أتشرّف بلقاء الحارس آنف الذكر». ولكن الوصف لم ينتهِ عند هذا الحد، فقالت وهي تعضّ بضراوة على قطعة الخس: «على أية حال هو يملك جسم «أوليفر هاردي».. أو أضخم قليلاً.. أعني ذلك الشخص.. انه.. رجل مترهل وغير بشوش.. واحد من أولئك الاشخاص ذوي الوزن الزائد.. الكالحين المتجهمين الذين لا يستمتعون حتى بالأكل.. تفهمينني..؟».

ورحت أتوسل: «هلاّ تدعينا من الحارس المتجهّم وتواصلين سرد ما حدث لك اليوم؟». لم تواصل حديثها حتى اصطادت بشوكتها حبة طماطم بحجم الكرزة بعد أن تزحلقتْ منها مرارًا، وقالت أخيرًا: «خرج من قفصه وقال: [سيدتي.. أريدُ بطاقة هويتك رجاءً..]. فاستخرجتُ بطاقتي ولوّحت بها أمام وجهه وأنا أهمّ بالمشي. لكنه نادى عليّ من جديد: [سيدتي.. لا يمكنك الدخول وأنت هكذا!]. فقلت له بأنني طوال ثماني سنوات وانا أمر من هذه البوابة وأنا «هكذا»! فقال: [لا يا سيدتي.. عليك أن تغطي رأسك.. تعليمات جديدة.]. فأجبته بأن هذه مشكلتي وليست مشكلته! لكنّه لم يدع الأمر يمرّ بسلام، وقال: [أنا مخوّل ولديّ سلطات لإيقاف أية امرأة..]. فقاطعته عند

هذه الكلمة.. وقلت مستجمعةً كل ما أستطيع من سلطة: [أنا لست «أية امرأة»!]. فردّ محتجًا: [إنه هنا.. أمرٌ مكتوب وموقّع من الرئيس بنفسه، يقولُ بأنه «لا فتاة» ـ وصحح العبارة من عنده ـ «لا امرأة» يمكن أن تمرّ وهي في حالتك»]..

فسألتها: «هل قال «في حالتك»..؟». قالت: «نعم كان هذا ما قاله، وإذ خطوتُ خطوة أُخرى سدّ عليّ الطريق! خطوت يمينًا.. فخطا يمينًا، توقفتُ.. فتوقف. ولبضع ثوان وقفنا كلٌ في مكانه نتبادل النظرات. ثم أضاف: [إذا مررت من هنا في حالتك هذه فسأكون أنا المسؤول.] وسألتُه: [أية حالة تعني؟ حين تحققتُ آخر مرة وجدتُ بأنني وحدي المسؤولة عن حالتي، فلا تراوغني وتدّعي بأنك مسؤول عني!]»..

بدأتْ يدها ترتجف من الانفعال وهي تحكي: «.. لا أدري أي تيه حدا بي لأن أتشاجر مع هذا الرجل المسكين، وأن أقول أشياء لم يكن بإمكانه أن يفهمها. لقد بقينا واقفَين بضع دقائق هناك. لكنني باندفاع مفاجئ نظرت من فوق كتفه اليسرى، وما أن استدار حتى تملّصتُ منه، وبدأت أركض».

ـ «تركضين؟!».

ـ «أجل.. لقد ركضت!»

جاء النادلُ بطلبنا من «إسكالوبيني» لحم العجل والبطاطس المهروسة. بدأت «لالة» تفتّش عن كنزٍ ما كان ربما مخبّأً في البطاطس المهروسة في طبقها، فراحت تجري بحثًا دائريًا بشوكتها الفضولية، وقالت أخيرًا: «ظننتُ بأنه سيكفّ عني، أعني ان كل ما كان عليه فعله هو أن يرفع سماعة الهاتف ويبلغ أية سلطة أعلى منه. ولكن هيهات، ليس هو! فحين توقفتُ لبرهة كي أتطلع خلفي وأرى إن كان قد تراجع، وجدته هناك.. خلفي تمامًا. والله!.. كان قد سحب حزامه للأعلى وراح يؤرجحُ وركيه من جهة إلى أخرى، وكأنه بصدد الإحماء!».

ـ «لا؟.. كان يؤرجح وركيه؟».

ـ «أقسم لك!».

وراحت تمرجح شوكتها داخل البطاطس المهروسة وقالت: «ثم راح يتبعني راكضًا».

ركضت «لالة» والحارس البدين بأقصى سرعة عبر الأروقة المشجرة العريضة للجامعة. كانت لالة تلتفتُ بين الحين والحين لتتأكد ما إذا كان الحارس ما زال مصرًا على مطاردتها. وحلفَتْ بأنها كانت كلما وقفتْ والتفتَتْ، تجد الحارس يتوقف هو الآخر بدل أن يحاول الإمساك بها، وكأنه كان يدوس على كوابح مخفية لكي يتوقف فجأة! ثم يروح يسحب حزامه إلى الأعلى من جديد ويفعل الشيء ذاته بوركيه، ليواصل المطاردة. وقالت: «لقد ذكّرني بلوحة السمكة العملاقة المترهلة».

ركضت «لالة» وهي تمرّ بثلاثة طلبة جافلين، واستطاعت اجتياز الدرجات القصيرة صوب كلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية، وكادت أن تسقط أرضًا حينما علِق كعب حذائها في حفرة صغيرة. قطعت الفضاء العريض المفتوح أمام المبنى، وأسرعت لتمرّ عبر الباب المفتوح على الصالة الباردة المعتمة، وصعدتْ درجات السلم الواسعة المؤدية إلى الطابق الثاني، حيث انتهت إلى توقف مفاجئ عند مدخل قسم علم النفس.

كادتْ أن ترمي بنفسها في أحضان رئيس قسمها الذي كان واقفًا عند مدخل الباب يتحدث إلى زميل. حاول الرجل تجاوز إحراجه بأن يسألها بدهشة: «ما الأمر يا أستاذة نصري؟».. هل حدث خطبٌ ما؟».. وبُعيد ثوانٍ، وصل الحارس المطيع للأوامر؛ قبّعته بين يديه، والعرق يتصبّب من خدّيه مثل دموع يائسة، وقد توقّفَ أمام الباب محدثًا صرير مكابح مفاجئة. وهنا اتّضحت الرؤيا تمامًا.

تحيّر رئيس القسم بين الضحك والعبوس، ولكنّه طرد الحارس واعدًا بتقديم تقريرٍ ضدّه إلى السلطات. وبعد ساعة، انطلقت «لالة» خارجة من باب القسم،

وطفقتُ عائدة إلى بوابة الجامعة، ومن دون أن تلقي نظرة عجلى على الحارس، سارت خارجةً من الجامعة.. وهي امرأة حرة!

- «امرأة حرة؟!».

- «أجل.. لقد خُيرت بين أن أمتثل حالاً للأوامر، وبين أن أتقبّل الاستغناء عن خدماتي. وقد اخترتُ عدم الامتثال، ولذا فأنا الآن امرأة حرة».

فسألتها وكأنني لستُ في المركب نفسه أنا أيضًا: «وماذا ستفعلين الآن؟». فهزّتْ كتفها بلا مبالاة وقالت: «لا أدري، أظن بأنني سأعود للخياطة أو عمل المعجّنات».

كان هذا هو ما يدهشني في «لالة». فقد كانت تبدو وكأنها آخر إنسانة في العالم يمكنها عمل كعكة! لكنها كانت خياطة بارعة وطباخة مذهلة. حينما التقيت بها أول مرة أذهلتني إذ وجدتُها على العكس مني تمامًا: فهي مُرتّبة ومنظمة، ومتحفظة بعض الشيء، ومن ذلك النوع الذي يصح عليها القول بأنها «على صواب دائمًا». وقد نضيف إلى هذه الصورة الخادعة أثر تعليمها الألماني عليها. كنت أتعمد إغاظتها بالقول إن كلمة «نقية» استُحدِثت من أجلها هي فقط. وحينما بدأت أعرفها أكثر اكتشفتُ بأن كل ذلك النظام والترتيب إنما هو تمويه لطبيعتها العاطفية التي تنمّ عن رغبات محمومة.

تملك «لالة» شعرًا كثيفًا غير طيّع تمامًا، فهو من ذلك النوع الذي لا يخضع بسهولة لمشط أو فرشاة أو «جِلّ» أو حتى «برمنات». ولذا فهي قد تقضي ساعات من الجهد المتواصل في تسريحه وتصفيفه، حتى يعطيها مظهرًا لا يناسب إلا مديرة قاسية متوعّدة! كانت تقول لي بنبرة يشوبها الغضب: «لدي خيار من اثنين: إما أن أحلق شعري تمامًا، أو أن أصفّفه بهذه الطريقة!». وحدهما عيناها السوداوان الواسعتان اللتان تتلامعان بالمكائد العابثة والمشاكسة كانتا تتناقضان مع مظهرها المتحفظ. ولاحقًا، حينما رأيتها وهي تتسلق الأشجار مع طفلتي ذات السنوات الثلاث،

استطعت أن أدرك كمَّ القسوة التي كانت تمارسها على نفسها لكي تسيطر على رغباتها وتضبط نزواتها الجامحة.

وحدث أن اضطرتْ «لالة» أن تؤمّن قوت عيشها عبر عملها بالخياطة لعامين تاليين. فلم يُسمح لها بإجازة لممارسة اختصاصها في مجال علم نفس الطفل، ورفضت التدريس بالحجاب. امتهنت الخياطة، ذلك العمل الذي كانت تمقته بشدة، حتى عرضتْ عليها إحدى الصديقات أخيرًا أن تعمل في مدرستها. لكننا كنا في مرحلة ما أنا ومجموعة من الصديقات، نسرح ونمرح ونحن نرتدي تنانير قطنية لطيفة بنقوش من أزهار في غاية الجمال، كلها كانت من صنع «لالة».

يبدو أن شهيتنا للطعام في ذلك اليوم كانت مفتوحة بشكلٍ أقرب للشراهة. فطلبتْ «لالة» طبق «كريم كراميل»، وطلبتُ أنا كرتين من الآيس كريم بطعم الفانيلا والقهوة، وطلبتُ أن يُصبّ عليها قهوة تركية وقليلاً من الجوز على الجانب. نثرتُ الجوز على الآيس كريم المشبع بالقهوة وأنا مستغرقة في التفكير. أطلنا التأمل بحزن فيما آل إليه قسمنا؛ فقد فصلوا «فريدة»، وغادر الدكتور «أ» إلى الولايات المتحدة. وقد علمنا من بعض زملائنا الأكثر حرصًا منا، إذ تدبروا أمرهم في البقاء في وظائفهم، بأن استبعاد «فريدة» لم يكن بسبب إدارة القسم بقدر ما كان بسبب مقاومة فريدة العنيدة مثل عناد بغل، كما أبدع في وصفها أحد الزملاء!

[4]

بعد بضعة أيام، ذهبتُ إلى جامعة طهران للاجتماع للمرة الأخيرة بالسيد «بحري». كان قد طلب الاجتماع بي متأملاً أن يتمكّن من إقناعي بالامتثال للقوانين الجديدة. مررتُ بالبوابة الخارجية وأنا مستعدة بشكل كامل لمباريات في الركض، ولكن للمفاجأة، لم أجد من يعاملني مثلما عومِلْتُ «الالة». كان الحارس الكئيب الذي عليه الواجب في ذلك اليوم لا يشبه ذلك الذي وصفته لي؛ فلم يكن لا جلفًا ولا بدينًا، بل ولم يسألني حتى عن بطاقة هويتي. لقد تظاهر ببساطة بأنه لم يرَني. وقد ساورني الشك بأن يكون السيد «بحري» قد أنذره بعدم التدخل.

بدت غرفة الاجتماعات شكلاً ومضمونًا تمامًا مثلما كانت حينما التقيتُ فيها لأول مرة مع السيد «بحري» لمناقشة الدور الذي يلعبه الأدب في الثورة؛ كانت واسعة، باردة، وفارغة إلا من شعوري نحوها بالغبار، على الرغم من أنها لم تكن تحتوي على ما يجمع الغبار باستثناء الطاولة الممتدة والاثني عشر كرسيًا. كان السيد «بحري» وصديقه قد اختارا الجلوس قبلي قريبًا من وسط الطاولة مقابل الباب. فوقف كلاهما عند دخولي، وانتظرا ريثما جلست حتى عادا إلى جلستهما السابقة. وقد اخترت أن يكون موقعي مقابلاً لهما.

لم يأخذ السيد «بحري» وقتًا طويلاً للدخول في الموضوع بشكل مباشر. فذكَّرَ موضوع مغامرة «الالة»، وصبر الإدارة الجدير بالإعجاب إزاء «تصرفاتٍ من هذا

النوع». كانت عيناه تحدّقان، طوال مدة الاجتماع، بقلم حبر أسود كان يحركه بشكل دائري مستمر بين يديه، وكأنه شيء غامض كان يأمل أن يفك طلاسم غموضه. قال بأنه وأصدقائه يعلمون تمام العلم أن الأستاذة «نصري» كانت ترتدي الإيشارب كلما ذهبتْ إلى الأحياء الأفقر والأكثر تقليدية في المدينة حتى قبل قيام الثورة. فقلت لهم ببرود: «أجل لقد كانت تفعل ذلك فعلاً، ولكن بدافع الاحترام لإيمان أولئك الناس، وليس لأن ارتداء الحجاب كان إلزاميًا». بقي صديق السيد «بحري» طوال ذلك الحوار على العموم صامتًا تمامًا.

لم يفهم السيد «بحري» لماذا كنا نحدث كل تلك الجلبة حول قطعة قماش محض! ألم نكن نجد أنه ثمة قضايا أكثر أهمية تستدعي التفكير؟ وبأن حياة الثورة برمتها هي التي كانت على المحك؟

وسأل: «أيهما أهم وأجدى؟ أن نقاتل ضد تأثير الشيطان الغربي الإمبريالي أم أن نغالي في التمسك بأولويات شخصية كانت سببًا في إحداث الشقاق بين صفوف أبناء الثورة؟». ربما لم تكن هذه كلماته بالحرف الواحد، ولكنها كانت العمود الفقري للغته. فأيامئذٍ، كانت الناس تتحدث فعلاً بهذه الطريقة، حتى يساور المرء اذ يكون في الأوساط الثقافية أو الثوروية، بأن الناس يتحدثون وهم يقرأون نصوصًا مسرحية مكتوبة متقمصين شخصيات رواية سوفياتية مؤسْلَمَة.

وقلت ساخرة: يدهشني أن أجد السيد «بحري».. المدافع عن الإيمان.. وهو يعمدُ إلى وصف الحجاب بـ«قطعة قماش محض»! عليّ أن أذكرك بأنه لا بد لنا أن نقدّر ونحترم أكثر تلك «القطعة من القماش»، بدل أن نفرضها على اشخاص غير راغبين بها! هل تتخيل يا سيد «بحري» ما يمكن أن يظنه طلبتنا بنا اذ يجدوننا نرتدي الحجاب بعد أن حلفنا بألا نرتديه أبدًا؟! أوَلَن يقولوا بأننا بعنا معتقداتنا مقابل بضعة آلاف من التومانات شهريًا؟! وما الذي يمكن أن تظنه أنت يا سيد «بحري»؟

وماذا يمكن أن يظن؟! لقد قرر آية الله الصارم، الفيلسوف ـ الملك، أن يفرض حلمه على بلدٍ وشعب بأكمله، وقرر أن يعيد صوغه على هوى خياله غير البعيد النظر. لذا فقد صاغ مني مثالاً للمرأة المسلمة، المرأة المسلمة المدرّسة، وأراد مني باختصار أن أبدو وأن أتصرف.. و.. أن أحيا وفقًا لذلك المثال. وحين رفضنا أنا و«لالة» القبول بذلك المثال، لم نكن نتّخذ موقفًا سياسيًا، وإنما اتخذنا موقفًا خاصًا بوجودنا. كنت أستطيع أن أقول للسيد «بحري» أخيرًا: «لا.. لم تكن تلك القطعة من القماش المحض هي التي أرفض، بل لقد كان ذلك التحوّل الذي يُفرَض عليّ ليجعلني أنظر إلى المرآة فأكره تلك الغريبة التي صرتها!»

أعتقد بأنني في ذلك اليوم أدركت كم لم يكن مجديًا مناقشة آرائي مع السيد «بحري». فكيف يمكن لإنسانٍ أن يجادل ممثل الله على الأرض؟ ففي ذلك الوقت على الأقل، كان السيد «بحري» يستمد قوّته من حقيقة لا يمكن إنكارها: وهو أنه كان يقف إلى جانب الحق.. أما أنا فلم أكن أكثر من مخطئة ضالة، في أفضل الاحتمالات.

كنت أحسّ بأنها قادمة.. مرّت شهور وأنا أحس بوجودها.. لكنني أعتقد بأنها وصلتْ في ذلك اليوم. فبعد أن تركتُ السيد «بحري» وصديقه، أحسست بوقعها عليّ للمرة الأولى: تلك الحقيقة التي تحسسني بأني لم أعد معنية بكل ما يدور، وبأنني «غير ذات علاقة».

حينما غادرت الغرفة، لم أرتكب حماقة أن احاول مصافحة السيد «بحري»، الذي مشى معي مثل مضيف خلوق يوصل ضيف الشرف إلى الباب، ويداه مشبوكتان بحزم خلف ظهره. بقيتُ أكرر: «أرجو ألا تتعب نفسك». وكدتُ أن أقع على الدرج من شدة لهفتي للفرار.

التفتُّ لألقي نظرة قبل وصولي إلى الطابق الأول، فوجدتهُ لمّا يزل واقفًا هناك، ببدلته البنية المهترئة، وقميص «ماو» المزرّر حتى الرقبة، ويداه لا

بالاِلان مشبوكتين خلف ظهره. كان ينظر إلى الأسفل ويحدجني بنظرة ارتباك وحيرة. «نظرة وداع لعاشق»، هكذا وصفتها «الالة» بخبث لاحقًا، حينما رويت لها ما حدث وأنا أتناول طبق آيس كريم (غير ذلك الطبق). وكنا هذه المرة جالستين في غرفة الطعام الباردة في بيتها.

حينما غادرت السيد «بحري» بعد ظهر ذلك اليوم، بقيت أمشي نحو خمسًا وأربعين دقيقة. وتوقفت عند محل بيع الكتب الإنكليزية الأثير عندي. أدخلني إليه هاجس مفاجئ حدّثني بأنني لن أجد فرصة سانحة لفعل ذلك في المستقبل القريب. وكنت على صواب. فبعد شهور قليلة فقط، شنّ حرس الثورة غارة على المحل وأغلقوه. وكان القفل الحديد الكبير والسلاسل التي وضعوها على باب المحل يدلّان على قرارهم الذي لا رجعة فيه.

بدأت ألتقط الكتب بسرعة وبنَهم؛ فبحثتُ في الطبعات الشعبية لأجمع كل أعمال «جيمس» تقريبًا والروايات الست لـ«أوستن»، و«نهاية هوارد»، و«غرفة تطلّ على منظر». أخذتُ كتبًا لم أقرأها: أربع روايات لـ«هنريش بول»، واخرى قرأتها منذ زمن بعيد: «معرض الزهو» و«مغامرات رودريك راندم» و«هبة همبولت» و«هندرسون ملك المطر». اقتطفتُ مجموعة ثنائية اللغة من قصائد «ريلكة» و«تحدّثي أيتها الذاكرة» لـ«نابوكوف». تردّدتُ بعض الوقت في اتخاذ القرار حول نسخة غير منقحة لـ«تلّة فاني». ثم رحت أفتش عن الروايات البوليسية، فالتقطتُ بعضًا من أعمال «دوروثي سايرز» وكم كانت فرحتي غامرة حين عثرتُ على «القضية الأخيرة لترنت»، واثنين أو ثلاثة كتب جديدة لـ«أغاثا كيرستي»، ومختارات من «روس مكدونالدز»، والمجموعة الكاملة لـ«رايموند تشاندلر» وكتابين لـ«داشيل هاميتس».

ثم اكتشفتُ بأنني لم اكن أحمل ما يكفي من النقود لأدفع ثمن كل تلك الكتب. فأخذت منها ما استطعتُ شراءه، ورفضتُ العرض النبيل الذي عرضه عليّ صاحب المحل بأن آخذ بقية ما اخترت من كتب وأدفع حسابها لاحقًا.

وضع الرجل في كيسين كبيرين من الورق ما دفعتُ ثمنه. وإذ راح يعيد البقية إلى أماكنها ازددتُ تمسّكًا بالكيسين فابتسم مداعبًا وقال لي: «لا تقلقي.. لا أحد سيأخذها منك، فلم يعد ثمة من يعرف هؤلاء الكتّاب، ثم من ذا الذي سيرغب بقراءتهم الآن؟ في هذا الوقت؟».

فعلاً.. من ذا الذي سيرغب؟ فإن أشخاصًا مثلي صاروا غير ذوي علاقة، تمامًا مثلما كان «فيتزجيرالد» لا علاقة له بـ«مايك غولد»، أو «نابوكوف» باتحاد ستالين السوفياتي، أو «جيمس» بالجمعية الفابية، أو «أوستن» بالثوريين في زمنها.

في سيارة الأجرة، أخرجتُ الكتب القليلة التي دفعت ثمنها من الكيس، ورحت أتفحّص أغلفتها وأداعب أسطحها اللامعة، فبدتْ مرنة طيّعة إزاء لمستي. لقد أدركتُ أن اجتماعي بالسيد «بحري» كان يعني أن فصلي من الجامعة لم يعد أكثر من مسألة وقت. فقررت ألا أذهب للجامعة بعد الآن وأنتظر في البيت قرار الفصل. أما الآن، وإذ صار عندي كل ذلك الوقت الكبير، سوف أتمكن من القراءة من دون أدنى شعور بالذنب.

[5]

لم تنتظر الحكومة طويلاً حتى مرّرت تعليمات جديدة تحدّد ما ترتديه النساء في العلن، فأجبرتنا على ارتداء جادور أو ثوب طويل و إيشارب. وقد أثبتت التجارب ان الطريقة الوحيدة التي تعطي أهمية لتلك التعليمات هي بأن يتم فرضها بالقوة. وبسبب الاعتراضات الشديدة التي أبدتها النساء في عموم البلاد، اضطرت الحكومة إلى فرض تلك القوانين في أماكن العمل، ومن ثم في المحلات، إذ فرضوا على أصحاب المحلات عدم التعامل مع النساء غير المحجبات، وعاقبوا من لم يطبق القانون بالغرامة أو بالسجن أو بالجلد حتى ست وسبعين جلدة. ولاحقًا أنشأت الحكومة ميليشيا حماية الأخلاق (السيئة الصيت): وهم عبارة عن أربعة من النساء والرجال المسلحين، مع سياراتهم التويوتا البيض، يراقبون الشوارع لضمان فرض القانون.

وإذ أحاول الآن أن أربط أحداث تلك الأيام غير المترابطة وغير المتجانسة، أجد أن إحساسي المتنامي بسقوطي في الهاوية أو في الفراغ كان متزامنًا مع حدثين خطيرين؛ الحرب، وفقداني لوظيفتي كأستاذة. ولم أكن أدرك حينذاك كم أن الروتين اليومي قادر على خلق وهم الاستقرار. ففي ذلك الوقت: إذ لم أعد أستطيع أن أقول عن نفسي بأنني أستاذة أو كاتبة، واذ لم أعد أستطيع ارتداء ما اعتدتُ ارتداءه بشكل طبيعي، أو أن أتمشى في الشوارع على هوى جسدي، أو أن أصرخ إذا أردت، أو أن أضرب زميلاً لي على ظهره ارتجالاً،

بعد أن أصبح كل ذلك غير مسموح به في ذلك الوقت وخارج على القانون، أحسستُ بأنني خفيفة أو بأنني خيال محض. أحسستُ وكأني أسير على الهواء، وكأني كتبْتُ في دفتر الوجود، ثم مُحيتُ بمسحةٍ خاطفة واحدة.

وقد قادني هذا الشعور باللاواقعية الى ابتداع ألعاب جديدة، «ألعاب البقاء على قيد الحياة» هكذا سأسمّيها. كان هاجسي الدائم بالتفكير بالحجاب قد حدا بي لأن أشتري جلبابًا أسود واسعًا جدًا، غطى جسدي حتى الكاحل. وكانت ردناه الطويلتان الواسعتان شبيهتين بأردان الكيمونو. ورحت أعتاد أن أسحب يديّ الى داخل الردنين للتظاهر بأنني بلا يدين. وبالتدريج، رحتُ كلما ارتديتُ ذلك الجلباب، أتظاهر بأن جسدي قد اختفى: وأحسّ بأن ذراعيّ، وصدري، ومعدتي، وساقيّ، كلها ذابت واختفت، وكل ما تبقى مني لم يعد سوى «قطعة قماش محض» هي التي تشكّل هيئة جسدي الذي يتحرّك جيئة وذهابًا مدفوعًا بقوى خفية.

كان لتلك اللعبة بدايتها التي أستطيع تحديد تاريخها بدقة. فقد ذهبتُ ذات يوم إلى وزارة التعليم العالي مع صديقة لي أرادت تصديق شهادتها الدبيلوم. وفُتشنا من الرأس إلى القدم، وقد اعتبرتُ هذا التفتيش هو الأسوأ بين كل التعرشات الجنسية التي تعرضتُ لها طوال حياتي. فقد طلبت المفتشة مني أن أرفع يدي إلى الأعلى، وبقيَتْ تقول: «.. إلى الأعلى.. إلى الأعلى». وراحت تفتشني بهوس وهي تمر على كل قطعة من جسدي، واعترضَتْ قائلة بأني أبدو كما لو كنت لا أرتدي شيئًا تحت جلبابي مطلقًا. فأوضحتُ لها بأن ما أرتديه تحت جلبابي لا يخصها مطلقًا. التقطَتْ منديلاً ورقيًا وطلبتْ مني أن أمسح وجهي وأن أنظف خديّ من المساحيق التي كنت أضعها عليهما. فقلتُ لها بأنني لا أضع أي مسحوق على خديّ. فالتقطَتْ المنديل الورقي وبدأتْ تمسح خديّ بنفسها، وإذ لم تحصل على النتائج المطلوبة لأني لم أكن أضع أي مكياج كما أخبرتها، راحت تمسح بشدة وبعنف، حتى أحسستُ بأنها ربما تحاول أن تمسح بشرتي!

شعرت بالحرقة تجتاح وجهي، وأحسست بأنني قذرة، أحسست بأن جسدي كله صار عبارة عن قميص ملوث مبلّل بالعرق، ولابد لي أن أتخلّص منه. فخطرت ببالي فكرة تلك اللعبة، وقررت أن أجعل جسدي مخفيًا أو غير موجود. كانت يدا المرأة الملوثان بمثابة أشعة x مقلوبة تجعلُ السطح سليمًا موجودًا والداخل مخفيًا. وما أن انتهت من تفتيشي حتى أصبحتُ بخفة الريح؛ وصرتُ مخلوقة هلامية بلا لحم أو عظام. وتكمن الخدعة وراء هذا العمل السحري في أنني لكي أبقى غير مرئية، لا بد لي أن أتجنب التماس مع أي سطح خشن، خصوصًا التماس مع البشر، وأن أدع اختفائي نسبيًا إلى الحد الذي يمكنني من جعل الآخرين لا يشعرون بي ولا يلحظون وجودي. ثم، طبعًا، كان بإمكاني من حين لآخر أن أعيد جزءًا مني للوجود. فمثلًا، أحتاج أحيانًا أن أتحدى رمزًا مزعجًا من رموز السلطة، فأدع بضع خصلات من شعري تتسرب من الحجاب، وأجعل عينيّ تظهران من جديد لأتحدى الآخرين أو أزعجهم.

كنت أحيانًا، أقوم بسحب يديّ من الكُمّين الواسعين، بلا وعي مني، وأروح أتحسس ساقيّ أو بطني. فهل ان أعضائي موجودة فعلًا؟ هل أنا موجودة؟ هذه البطن، هذه الساق، هاتان اليدان؟ ولسوء الحظ، فإن حماة الأخلاق، نساءً ورجالاً، لم ينظروا إلى العالم كما كنتُ أنظر اليه أنا. فكانوا يرون أيادي ووجوهًا وأحمر شفاه وردي، ويرون خصلات شعر وجوارب عنيدة، بينما لم أكن أرى إلا مخلوقات أثيرية صامتة تغدو وتعود في الشارع.

منذ ذلك اليوم وانا أكرّر لنفسي وكل من يهمه أن يسمع، بأن أشخاصًا مثلي أصبحوا غير معنيين و«غير ذوي علاقة». ولم تكن هذه العلّة المرضية قد أصابتني وحدي، بل لقد أحسّ الكثيرون مثلي بأنهم فقدوا مكانهم في العالم. ذات يوم كتبتُ بصورة أقرب للمسرحية رسالة لأحد الأصدقاء الأميركان: «تسألني ماذا يعني أن يكون المرء غير معني أو غير ذي علاقة؟ إنه شعور يشبه شعورك حين تزور بيتك القديم مثل شبح تائه لم يتمّ إنجاز مهمةٍ ما. تخيّل

نفسك وأنت عائد إلى هناك، البناء مألوف، ولكنك تجد الباب معدنيًا بعد أن كان خشبيًا، الحيطان مطلية بلون زهري فاقع. الكرسي المريح الذي كنت تعشق قد اختفى، غرفة مكتبك أصبحت غرفة العائلة خزائن كتبك الأثيرة حلّ محلها جهاز تلفزيون حديث الصنع. هذا هو بيتك ولكنه ليس بيتك. فلا يعود يعنيك المكان ولا تعود لك أي علاقة به؛ لا الجدران ولا الأبواب ولا الأرضيات: وأنت لم تعدْ توجد في المكان!».

ماذا يفعل الأشخاص الذين أصبحوا غير ذوي علاقة؟ إنهم يهربون أحيانًا، أعني جسديًا. وإذا لم يكن ممكنًا، سيحاولون القيام بعودة ليصبحوا جزءًا من اللعبة، محاولين تقليد السمات التي يتمتع بها المهيمنون عليهم. أو يهربون إلى الداخل، وكمثل «كلير» في «الأميركي»، يحوّلون زاويتهم الصغيرة إلى صومعة، فيصبح الجزء الحقيقي من حياتهم مخفيًا أو تحت الأرض.

كانت «اللاعلاقية» المتنامية في داخلي، وذلك الفراغ الذي بدأت أحسه في داخلي، قد جعلاني أغتاظ دائمًا من السلام والسعادة التي كان يشعر بهما زوجي، ناهيك عمّ يبدو عليه من عدم اكتراث لما كنت أعاني منه كامرأة وكأكاديمية. وفي الوقت ذاته، كنتُ أعتمد عليه تمامًا بسبب الإحساس بالأمان الذي منحه لنا جميعًا. ففي الوقت الذي كان كل شيء حولنا ينهار ويتداعى، كان هو قد شرع في التأسيس لعمله بهدوء، وحاول أن يوفّر لنا حياة هادئة طبيعية. فنظرًا لطبيعته الانطوائية الشديدة، كان يركز طاقته في تأمين وحماية حياته في البيت مع العائلة والأصدقاء، وكذلك في العمل. كان شريكًا في مكتب للهندسة والعمارة، وقد أحب شركاءه الذين كانوا مثله مخلصين مهتمين بعملهم فقط. فطالما لم يكن لعملهم علاقة مباشرة بالثقافة أو السياسة، وكان المكتب أهليًا، فقد كانوا يعيشون بسلام نسبي بمنأى عن التماس المباشر مع النظام. إذ لم يكن لمهندس معماري بارع أو مهندس مدني متفانٍ أن يشكل تهديدًا للنظام. وكان «بيجان» سعيدًا بالمشاريع العظيمة التي أوكلت إليهم:

حديقة عامة في «أصفهان»، ومصنع في «بروجُرد»، وجامعة في «قزوين». كان يحسّ بأنه شخص مبدع ومرغوب به، وأفضل ما يمكن أن يصف حالته هو أنه كان يحسّ بأنه يقدّم خدماتٍ جليلة للوطن. فقد كانت وجهة نظره هي أننا لا بد وأن نقدم خدمة لبلدنا بغض النظر عمّن يمكن أن يكونه الحاكم. وكانت المشكلة بالنسبة لي هي أنني فقدت أي إحساس بمفاهيم مثل «الوطن» و«الخدمة» و«البلد».

في تلك الحقبة، عدتُ من جديد تلك الطفلة التي كنتُها، وأنا ألتقط الكتب من هنا وهناك بشكل منفلتٍ ومن دون تمييز، لأنتحي أقرب زاوية متاحة وأغرق في القراءة إلى ما لا نهاية. كنتُ قد التقطتُ كتبًا مثل «جريمة في قطار الشرق السريع» و«الإدراك والشعور» و«السيّد ومارغريتا» و«هيرزوغ» و«الهبة» و«الكونت دي مونت كريستو» و«آل سمايلي». كنت آخذ تقريبًا أي كتاب أجدهُ أمامي؛ في مكتبة أبي، أو في محلات بيع الكتب، أو مكتبات الأصدقاء التي لم تطلْها يد التخريب. وكنت أقرأ كل شيء مثل مدمنة تحاول الهرب من أحزانها الدفينة.

وقد اخترتُ الكتب لأنها الملاذ الأوحد الذي أعرف، والذي كنتُ بأمسّ الحاجة إليه لكي أواصل فعل العيش، ولكي أقي بعض الجوانب من نفسي وقد بدتْ في تقهقرٍ دائم. أما الملاذ الثاني الذي ساعدني في الحفاظ على توازني وسلامة عقلي وأعاد إليّ شيئًا من «علاقتي» بالحياة، فقد كان أمرًا أكثر خصوصية وحميمية؛ ففي ٢٣نيسان/ أبريل١٩٨٢، وُلِدَتْ ابنة أخي «صنم»[1] قبل أوانها (خديج). ومنذ اللحظة الاولى التي رأيتها فيها بجسدها الصغير المنطوي داخل الحاضنة الزجاج التي بقيَتْ فيها بعض الوقت لتبقى على قيد الحياة، حتى أحسستُ بدفءٍ وبِصِلة خاصة تربطني بها. وعلمتُ منذ تلك اللحظة بأنها ستكون بخير من أجلي، وستكون نبعَ خير لي. وفي ٢٦

(١) «صنم» باللغة الفارسية تعني المرأة الجميلة مثل التمثال. (هامش المترجمة).

كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤، وِلدَتْ ابنتي «نيغار». وولد ابني «دارا» في ١٥أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥. لا بد لي أن أكون دقيقة في تحديد تواريخ ولاداتهم باليوم والشهر والسنة، فتلك التفاصيل تتلاعب أمامي وتسخر مني كلما استعدت ولاداتهم المباركة، فلا أعود أحسّ بوخز الضمير إذ أصبحتُ عاطفية حساسة بعد أن نوّروا حياتي. وكانت بركة وجودهم ملتبسة مختلطة مثل سواها لسبب واحد: هو أنني أصبحت أكثر قلقًا. ورغم أني كنت قبل ولادتهم قلقة دائمًا على سلامة أهلي وزوجي وأخي وأصدقائي، إلا ان قلقي على أطفالي قد فاق كل ذلك. وقد أحسستُ بولادة ابنتي بأن الله قد منحني هبة عظيمة، هبة استطاعتْ أن تقيني وتحفظ لي سلامة عقلي. وكذلك كان الأمر بولادة ابني. بيد أن ما كان مصدرًا لحزني وأسفي الدائمين هو أن تكون ذكريات طفولتهما عن الوطن مشوّهة، على العكس من ذكرياتي.

كانت ابنتي «نيغار» تحمرّ خجلاً كلما قلتُ لها بأن عنادها الاستثنائيّ، ودفاعها المتحمّس عمّا كانت تعتقد بأنه العدلُ والصواب، إنما يرجع سببه إلى قراءات أمها المكثفة لروايات القرن التاسع عشر في شهور الحمل! فلدى «نيغار» طريقة خاصة في ليّ رأسها إلى الخلف واليمين قد لا تجد لها نظيرا شبيهة، ولها طريقة فريدة في مطّ شفتيها قليلاً باستخفاف وتحدٍ لأية سلطة قد لا تعجبها في لحظة ما. كنتُ غالبًا ما أحرجها، فتلعّ بالتساؤل: «لماذا تقولين أشياء مستحيلة غير معقولة كهذه؟». فأجيبها: «حسنًا.. يقولون إن كلّ ما تأكله الأم في شهور الحمل، وما تتعرض له من تقلبات في المزاج والمشاعر، ينعكس تأثيره على الجنين، أليس كذلك؟ وأنا، حينما كنتُ حاملاً بك، قرأتُ الكثير لـ«جين أوستن» و«برونتي» و«جورج إليوت» و«هنري جيمس». ألَم تلاحظي ان الروايتين الأحب إلى قلبك دون سواهما هي «الكبرياء والتحيّز» و«مرتفعات ويذرنغ»؟»..

ثم أضيف بمرح: «أما أنت.. فأنت «ديزي ميللر» تمامًا.. بقضّها وقضيضها!». فتقول لي وهي تزمّ شفتيها: «وأنا لا أعرف لا «ديزي» ولا

«ميزي»، ولا أيًا مَنْ تكون تلك التي تهمّك منهما، وأنا لن أحب «جيمس»، أنا أعلم ذلك جدًا!». ولكنها فعلاً مثل «ديزي»؛ مزيجٌ من الرهافة والشجاعة التي تبدّى واضحة في طريقتها وهي تستخفّ وتتحدى، في إيماءاتها، وهي تميل برأسها إلى الخلف. وقد تنبّهتُ الى ذلك وهي طفلة لما تتجاوز الرابعة من عمرها، حين كنا معًا في غرفة الانتظار في عيادة طبيب الأسنان.

ويسألني «دارا» ممازحًا: «وماذا عني أنا؟».. ماذا فعلتِ حينما كنتِ حاملاً بي؟». فأقول له: «أنت؟ لقد أصبحتَ كل شيء لم أتخيّل أنك ستكونه! ولا لشيء سوى لكي تتحداني!». كلما قلتُ ذلك، أجد نفسي وقد بدأتُ أصدّقه وأؤمن به تمامًا! فحتى حينما كنتُ حاملاً به، أخذ «دارا» على عاتقه مهمة إثبات عكس ما جاءت به هواجسي المميتة. ففي ذلك الوقت، كانت طهران ترزح تحت وطأة قصفٍ صاروخيّ متواصل، مما جعلني عرضة للهستيريا. فقد كنا نسمع الكثير من القصص والإشاعات عن حواملَ يضعنَ أطفالاً مشوّهين، وعن قلقِ الأمهات الذي لا مناصّ من تأثيره السيئ على أجنّتهنّ. وقد تخيلتُ أن يأتيَ طفلي مصابًا بكلّ تلك العلل، هذا إذا ما رحمني الله وكتب لي عمرًا حتى أشهد لحظة ولادته. فمن لي أن أعلم انه، عوَضًا عن حمايتي له، سيأتي إلى هذا العالم لكي يحميني أنا؟!

[6]

بقيتُ ردحًا من الزمن أتمّرغ بإحساسي بالـ«لاعلاقية». وفي غضون ذلك، كنتُ دون وعيٍ مني، أفكّر مليًا بما هو متاح أمامي من خيارات؛ فهل أستسلم تمامًا لهذا العدم الذي فرضته عليّ قوى خارجية لم أكن أحترمها؟ وهل أتظاهرُ بالإذعان، ثم أعمدُ الى خداع النظام في الخفاء؟ وهل أغادرُ البلاد مثلما فعل الكثير من أصدقائي، أو مثلما أجبر الكثير منهم على فعله؟ وهل سأتخلى عن وظيفتي بصمت، بذلك الأسلوب الذي فعله معظم زملائي الشرفاء المحترمين؟ وهل كان ثمة خيار آخر؟

كنتُ إبان تلك المرحلة من حياتي قد انضممتُ إلى مجموعة صغيرة اتّفقَتْ على قراءة ودراسة كلاسيكيات الأدب الفارسي. فكنا نجتمعُ كل ليلة أحد من كل أسبوع في بيتِ أحد المشاركين، ونجلس لساعاتٍ ونحن نقرأ النصوص تباعًا، وأحيانًا على ضوء الشموع في أيام التعتيم.

وسنة إثر سنة، راحت تجمعنا ليالي الآحاد؛ كل ليلةٍ أحدٍ في بيت مختلف. فكانَ سحرُ النصوص يجمعنا ويؤلّفنا، حتى حينما كانت خلافاتنا الشخصية والسياسية تفرّقنا عن بعضنا البعض. فكنا مثل زمرة من المتآمرين؛ نتحلّقُ جالسين في غرفة الطعام في أحد البيوت، ونحن نقرأ نصوصًا شعرية ونثرية لـ«حافظ» و«سعدي» و«الرومي» و«الخيام» و«النظامي» و«الفردوسي» و«العطّار» و«البيهقي».

وأحيانًا كان يأخذُ كل واحدٍ منا دوره في إلقاء المقطوعاتِ تباعًا. فكانت المفردات والتعابير تتطاير في الهواء مثل ضباب شفيف، لتهطل علينا مثل رذاذ المطر، فتمسّ شغاف الحواس كلها. فكم كان في تلك الحروف من قيمة مشاكسة مستفِزّة! وكم كان من الممتع الاحساس بقدرة اللغة على الإدهاش والإسعاد! بقيتُ أتساءلُ: منذ متى لم نعد نمتلك تلك القيمة؟ تلك القدرة الفائقة على المشاكسة وعلى إضاءة زوايا الحياة عبر الشعر؟! في أية لحظة دون سواها أضعنا تلك القدرة؟ فما نملكه الآن لا يتعدّى أن يكون «سُكّرين» من الخطابة الرنّانة المباشرة، ومن المبالغات اللغوية الباتة المتلوّنة التي تتفصّد منها رائحة ماء وردٍ وفيرٍ رخيص.

ذكّروني برواية سمعتها مرارًا وتكرارًا، تحكي عن فتح العرب لبلاد فارس، ذلك الفتح الذي أدخلَ إيران في الإسلام. تقول الرواية بأنه حينما غزا العربُ بلاد فارس، انتصروا بسبب خيانة الفرس أنفسهم لمليكهم، ربما لأنهم كانوا قد ضاقوا ذرعًا بالطغيان، ففتحوا الأبواب مشرعةً للعدو. وتقول الرواية بأنهم، أي الفرس، بعد الغزو، بعد أن أحرقَتْ كتبهم ودُمّرَتْ معابدهم وأهملَتْ لغتُهم، عمدوا للانتقام بإعادة كتابة تاريخهم الذي أحرقَ وسُلب، وذلك عبر الأساطير واللغة العالية. وقد قام شاعرنا الملحميّ العظيم «الفردوسي» بإعادة كتابة الأساطير الفارسية المُصادرة عن ملوك وأبطال بلاد فارس بلغة صافية عالية مثل النصوص المقدّسة.

كان والدي، الذي دأب على أن يقرأ لي «الفردوسي» و«الرومي» في طفولتي، قد اعتاد القول بأن وطننا الحقيقي، وتاريخنا الحقيقي يكمن في شعرنا. وقد خطرتْ ببالي تلك الرواية في ذلك الوقت لأننا بطريقة ما، فعلنا الشيء نفسه؛ أعني أننا خُنّا بلادنا. لكننا هذه المرة لم نفتح الأبواب لغزاة أجانب، وانما فتحناها لعدوٍ منّا، من أهلنا. فتحناها لبشرٍ جاؤوا باسم تاريخنا نفسه، ولكنهم شوّهوا وحرّفوا كل بوصة فيه، وسرقوا منا «الفردوسي» و«حافظ».

بالتدريج، بدأتُ أنغمس في بعض المشاريع الثقافية مع تلك المجموعة. فمثلاً، استثمرتُ المادة الأولية التي جمعتها لأطروحتي للدكتوراه عن «مايك غولد» والكتّاب البروليتاريين في الثلاثينات في أميركا، لأكتب مقالتي الأولى باللغة الفارسية. وأقنعتُ إحدى الصديقات في المجموعة للقيام بترجمة كتاب صغير لـ«ريتشارد رايت» هو «الجوع الأميركي»، وقمتُ بكتابة مقدمةٍ له. ويشتملُ الكتاب على تجربة «رايت» الشيوعية؛ محاكماته ومعاناته وانفصاله الأخير عن الحزب.

ثم شجعتُ صديقتي لاحقًا على ترجمة «محاضرات في الأدب الروسي» لـ«نابوكوف»، وقمتُ بترجمة قصائد لـ«لانغستون هوغز». وقد شجّعني أحد أعضاء المجموعة، وهو كاتب إيراني معروف، على كتابة سلسلة مقالات عن الرواية الإيرانية الحديثة لإحدى المجلات الأدبية التي كان هو نفسه محرّرًا فيها. وأيضًا حثّني لاحقًا على المساهمة في حلقاتٍ نقاشية أدبية اسبوعية مع كتّاب شباب».

كانت هذه هي البداية لمهنتي في الكتابة، وقد امتدتْ منذ ذلك الوقت وحتى الآن عبر عقدين من الزمن. فابتدعتُ لنفسي قوقعة واقية، مكثتُ فيها، ولم أعد أفكر بشيء سوى الكتابة، وتحديدًا: الكتابة النقدية. رميتُ بدفتر مذكراتي في زاوية من خزانة ملابسي ونسيته، ورحتُ أكتب من دون العودة إليه مرة أُخرى.

وقد نالتْ مقالاتي اهتمامًا واسعًا، بيد أني لم أكن يومًا راضية عنها تمامًا. فكنتُ أجد أن معظمها كان أكاديميًا أكثر من اللازم، أو أنها ربما كانت ثقيلة وتعليمية بعض الشيء. كنت شغوفة بالمواضيع التي أكتب عنها، لكن كان ثمة قواعد وتقاليد كان عليّ اتّباعها في الكتابة، فافتقدتُ بذلك حماستي وحيويّتي التي كنت أتمتع بها في التدريس. فهناك، كنتُ أستطيع أن أقيم حوارات مثيرة متفاعلة مع طلبتي. أما مع مقالاتي، فقد بتّ أشعر بأنني أشبه ما أكون بمُدرّسة جافّة. وقد نجَحتْ مقالاتي للسبب نفسه الذي لم يكن يعجبني فيها؛ فقد نلتُ التقدير والاحترام نظرًا لطروحاتي العملية الدقيقة.

[7]

لابد وأن يكون ثمة سبب واضح ومنطقيّ جعلني أرفع سماعة الهاتف ذات يوم دون مقدمات، لأطلب «الساحر». صحيحٌ انني كنت قد بدأتُ أطيل التفكير في حياتي الثقافية التي لم تكن ترضيني، وصحيحٌ أنني كنتُ أفتقد طلبتي ومحاضراتي وكنت أشعر بالإحباط والقلق، ومع هذا فأنا لا أعلم لماذا قررتُ في ذلك اليوم تحديدًا، لا قبله ولا بعده، أن أتصل به.

كانت تدور حوله الكثير من الأساطير والحكايا؛ منها أنه لم يكن يلتقي الا بقلّةٍ منتخبة من الناس، وأنه إذا ما أنيرتْ إحدى غرف شقته المطلّة على الشارع في الليل، فهذا يعني بأنه مستعدٌ لاستقبال الضيوف. وسوى ذلك، لم يكن يحقّ لأحدٍ أن يزعجه. ولم تكن تلك الحكايا لتثيرني في شيء، بل لقد كانت في الواقع سببًا يجعلني أترددُ في الاتصال به. كان قد نسج حول نفسه قصةً خيالية محكمة عن علاقته بالعالم الخارجي. لكنني كنتُ كلما سمعتُ عن ادعائه العزلة عن العالم، وبأنه غير معنيّ بما حوله، كلما ازددتُ اعتقادًا بأنه في غاية الاهتمام والارتباط بما ينأى بنفسه عنه. كانت الاسطورة هي شرنقته؛ قوقعته الواقية. فعلى هذه الأرض، لا بد لكلٍ منا أن يبتدع شرنقته الخاصة، وأن يتقنَ فعل الكذب ليقيّ نفسه ويحميها: انه شيء أشبه بالحجاب.

إذًا فنحنُ متفقون على أنني اتصلتُ به بتهوّر ومن دون سبب وجيه. فقد كنتُ وحدي في ظهيرة أحد الأيام. وكنتُ قد قضيتُ اليوم كلّه في القراءة بدل

العمل؛ أنظرُ إلى ساعتي بين الحين والحين وأنا أقول لنفسي سأبدأ بعد نصف ساعة أو ساعة، أو سأكفّ عن القراءة ما أن أكمل هذا الفصل، ثم أقوم إلى الثلاجة وأُعدّ لنفسي شطيرة آكلها وأنا أواصل قراءة كتابي. وأظن أنني كنتُ قد أكملتُ شطيرتي حينما قمتُ وطلبتُ رقم هاتفه.

رنةٌ.. رنّتان.. ويأتيني صوتٌ في الثالثة: «ألو؟».

ـ «ألو.. السيد «راء»؟».

ـ «نعم؟».

ـ «أنا «آذر».. «آذر نفيسي»»..

ـ «آه.. نعم.. نعم».

ـ «هل من الممكن أن أراك؟».

ـ «أكيد طبعًا.. متى تودّين المجيء».

ـ «متى سيكون الأنسب بالنسبة لك؟».

ـ «ما رأيك ببعد غدٍ.. في الخامسة؟».

لاحقًا، علمتُ أن مساحة وتصميم شقته كانا يسمحان له بالإجابة على الهاتف عند الرنة الثالثة أينما كان، فإذا لم يجبْ، فذلك معناه بأنه إما خارج البيت، أو أنه لا يريد الإجابة.

برغم الحميمية والاقتراب الذي نما بيننا بعد حين، بقيتُ أرى نفسي دائمًا وكأننا في لقائنا الأول. كنتُ أجلسُ أمامه على الكرسيّ المفرد، إذ جلس هو على الأريكة البنية الخشنة. كلانا كان يضع يديه على ركبتيه؛ هو: لأنه كان معتادًا على ذلك، وأنا: لفرط ارتباكي. وقد اتخذتُ من دون وعيٍ مني موقف تلميذة تجلسُ في حضرة أستاذٍ مهيب. وقد وضع على الطاولة بيننا صينية عليها كوبان بلونٍ أخضرَ غامق فيهما شاي، وعلبة شوكولاتة مربعات من الأحمر الصافي مكتوب عليها بحروف سود «الينذت». وتلك كانت رفاهية نادرة، لا لشيء سوى لأنه لم يكن من الممكن أن توجد مثلها في الأسواق، ولأنها

كانت تباع في محلات خاصة، وبأسعار خيالية. وكانت الشوكولاتة هي الرفاهية الوحيدة التي كان يسمح لنفسه التمتع بتقديمها لزواره. كان لا بد من أن تمرّ به دائمًا لحظات يقترب بها من الجوع الحقيقي، وهو على أية حال، لم يكن يمتلكُ مخزنًا للشوكولاتة في ثلاجته نصف الفارغة، ومع ذلك لم يكن يأكل منها هو نفسه، بل يدّخرها لزواره.

نسيتُ أن أذكر بأنه كان يومًا غائمًا مُثلجًا. ولا أظن أنه ثمة ما يضيرُ إذا ما قلتُ بأنني كنتُ أرتدي كنزة صوفية صفراء اللون، وبنطالاً رصاصيًا وجزمة (بوط) سوداء. أما هو فقد ارتدى كنزة بنية وبنطالاً من الجينز.

كان يبدو في غاية الارتياح، على العكس مني. وقد تصرّف وكأنني قادمةٌ إليه طلبًا للمساعدة، وكانت مهمّتنا هي تدبير خطة محكمة لإنقاذي! وقد كانت هذه هي الحقيقة، بطريقة أو بأخرى. كان يتحدّث وكأنه يعرفني تمامًا، أو لكأنه لم يكن يعرف ما هو معروف عني فحسب، وإنما كأنه على اطلاع تام بكل الأسرار الخفية. وبهذا نجح في خلقِ حميمية ولو شكلية بيننا، وغرابة متبادلة. وقد بدا لي وكأننا كنا، منذ ذلك اليوم الأول، مثل «توم سوير» و«هوك فِن» قد اتفقنا على التآمر معًا. ولم تكن تلك مؤامرة سياسية، وإنما أشبه بخطة يتدبرها أطفال لحماية أنفسهم من عالم الكبار.

في ذلك اليوم، كان يكمل جُمَلي عني، ويعبّرُ لي عن أمنياتي ومطالبي، ولم أغادر بيته إلا وخطتي جاهزة بين يديّ. وكانت هذه واحدة من أحلى صفاته؛ فكل من يزوره ينتهي به الأمر إلى الحصول على خطة أو حل بطريقة أو بأخرى، بغض النظر عن طبيعة المشكلة. فالخطة جاهزة للتعامل مع حبيب أو للبدء بمشروع أو الإعداد لخطاب.. أو.. إلخ. أنا لا أتذكر الآن بدقة طبيعة الخطة التي عدتُ بها إلى البيت، لكنه يتذكّر، أنا واثقة من ذلك، فهو نادرًا ما ينسى. لم أكمل شرب كوب الشاي، ولم أكن قد أكلت الشوكولاتة، لكنني عدتُ الى بيتي وأنا منتشية ومحلّقة ومتخمة تمامًا. وقد تحدّثنا عن حياتي في ذلك الوقت،

وعن شؤون المشهد الثقافي، ثم عن «جيمس» و«الرومي» وكل ذلك بنفسٍ واحد. وقد تهنا في نقاشات بلا هدف، قادتنا من دون قصد، إلى مكتبته الأنيقة العامرة، لأمضي الى بيتي وأنا أتأبّط بضعة كتب جديدة.

كان لهذا اليوم الأول أن يلوّن علاقتنا، في خيالي على الأقل، حتى آخر لحظة غادرتُ بها طهران. ولم أدع العلاقة بيننا تتطوّر كثيرًا، لأنها كانت تناسبني تمامًا كما هي، بل وترضيني وتعفيني من كثير من المسؤوليات. بينما عمدَ هو إلى أن يضع نفسه في هالة من الوهم تجعله يبدو هو «المعلّم» أو «الأستاذ»، أو ذلك الشخص المسيطر على الوضع دائمًا، على الرغم من أنه لم يكن في «حالة سيطرة دائمة» مثلما تخيّلتُ أن يكون. وأنا بدوري، لم أكن أيضًا تلك الراهبة المبتدئة قليلة الحيلة!

اعتدتُ زيارته مرتين في الأسبوع؛ مرة للغداء، ومرة عند أول المساء. ثم أضفنا إلى ذلك جولات المشي المسائية حول بيتي أو بيته. وكنا في تلك المشيات نتبادلُ الأخبار والنميمة ونناقشُ المشاريع القادمة. وكنا أحيانًا نجلسُ في أحد المقاهي أو المطاعم الأثيرة مع أحد أصدقائه. وقد صار بيننا، بالإضافة إلى ذلك الصديق، صديقان مشتركان آخران. وكانا يملكان محلاً لبيع الكتب، كان ملتقىً لبعض الكتّاب والمثقفين وبعض الشباب. فكنّا ننضمّ إليهما في جلسات غداء عابرة أو رحلاتٍ قصيرة إلى الجبال.

لم يزر بيتي يومًا، لكنه كان يرسل بيدي بعض التذكارات تحية منه لعائلتي؛ مثل علب الشوكولاتة التي أصبح معروفًا بها لديهم. حتى صاروا يتوقّعون منه إرسال بعض التحايا في أيام محدّدة من الأسبوع، مثل الكتب او أشرطة الفيديو، و.. أحيانًا.. الآيس كريم.

كان يسمّيني: «السيدة الأستاذة»، وهو مصطلح أقل غرابة وأكثر تداولاً في إيران. وقد قال لي لاحقًا: «سألني أصدقائي بعد لقائنا الأول: كيفَ وجدتَ السيدة الأستاذة؟ فقلتُ لهم: لا بأس، إنها أميركية جدًا، وكأنها نسخة أميركية

ن «أليس في بلاد العجائب»». فسألته: «وهل هذا مديح أم ذم؟». فأجاب: «لا هذا ولا ذلك، انه وصف دقيق لا أكثر».

هل سبق وأخبرتكم بأن «جين آرثر» كانت نجمتهُ المفضّلة؟ وبأنه كان يحب «رينوار» و«مينيللي»؟ وبأنه كان يتمنى أن يصبحَ روائيًا؟

[8]

غالبًا ما تُشعِرُنا نقاط التحوّل بأنها تأتي مباغِتة وفي الصميم، أو لكأنها تنبجسُ فجأةً ومن دون أدنى توقّع. بيد أن هذه ليست الحقيقة طبعًا. فثمة دائمًا سلسلة بطيئة من الأحداث التي تتضافر لتساهم جميعها في إحداثِ ذلك التغيير. وها أنني إذ أعود بذاكرتي إلى الوراء، أجد نفسي لا أستطيع أن أحدد بدقّة ذلك الحدث الذي جعلني فجأةً أعودُ إلى قاعة الدرس، بالضد من رغبتي تقريبًا، وأنا أغطي رأسي بالحجاب الذي كنتُ قد أقسمتُ بألاّ أرتديه!

لقد تضافرتِ الأحداث الصغيرة فعلاً، لتشير بمُجملها إلى ما كان على وشك الحدوث؛ ومن بين الأحداث تلك المكالمات غير المتوقعة التي تلقيتها من جامعات مختلفة، بما فيها جامعة طهران، تعرض عليّ العودة للتدريس. وإذ كنتُ أرفض، كانت غالبًا ما تأتيني الإجابة بالقول: «فما رأيك بتقديم محاضرة أو اثنتين لكي تتعرّفي فقط على طبيعة الأجواء في الجامعة الآن؟». كان الكثيرون يحاولون إقناعي بأن الأمور لم تعدْ كما كانت، «فقد تغيّر الكثير»، وبأن أشخاصًا مثلي أصبحوا مطلوبين الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، وبأن الأجواء الآن قد أصبحتْ أكثر استرخاءً. وقد وافقتُ فعلاً، وحاضرتُ لفصلٍ أو فصلين في الجامعة المفتوحة، وفي الجامعة القومية (الملغاة حاليًا)، إلا أنني لم أوافق مطلقًا على العودة إلى التدريس بصفة استاذة في الملاك الرسمي الدائم.

في منتصف الثمانينات، ظهرت إلى الوجود بالتدريج جماعات إسلامية

جديدة. فقد أحسّ البعض بأن الطريق الذي كانت تسير عليه ثورتهم لم يكن صحيحًا، ووجدوا أن الوقت قد حان للسير في طريق الاعتدال. كنا قد ابتدأنا نجني ثمارًا سيئة من حربنا مع العراق التي لم نحرز فيها أيّ تقدّم. وكان الثورويون المتحمّسون في بداية الثورة، وقد وصلوا الآن إلى أواخر المراهقة وأول الشباب، بالإضافة إلى الجيل الأصغر الذي تبعهم، قد بدأوا يستشعرون فساد وعدم جدوى القيادات التي جاءت للسلطة. وكانت الحكومة أيضًا قد أحسّتْ بحاجتها إلى ذلك الكادر المهم الذي استغنَتْ عنه بعشوائية مجحفة من الجامعات، لكي تواجه بهم تلك المتطلبات المتنامية بين كيانات الطلبة.

وقد أدرك البعض من أفراد الحكومة ومن الثورويين السابقين أخيرًا بأنه لم يكن من الممكن للنظام الإسلامي أن يمحونا من الوجود، وأعني: نحن المثقّفين. لأنهم إذ دفعوا بنا إلى الاختباء جعلوا منا أناسًا محبوبين، وأكثر ألقًا وخطورة، وأيضًا، بطريقة غريبة، جعلونا أكثر تأثيرًا وقوة. لقد أصبحنا عملة نادرة، ولذا فقد أصبحنا مطلوبين ومرغوبًا بنا جدًا. ولذلك أيضًا، فقد قرّروا استعادتنا، على الغالب لكي يكونوا واثقين من إحكام سيطرتهم علينا. فطفقوا يتصلون بأشخاص مثلي بعد أن اتهموهم سابقًا بـ«الانحلال» و«الغربنة».

كانت السيدة «رضوان»، وهي أستاذة طموحة في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة العلامة الطباطبائي، قد قامتْ بلعب دور الوسيط بين الإسلاميين الثورويين التقدميين، وبين المثقفين العلمانيين المُبعَدين. في بداية الثورة، كان زوجها من الإسلاميين المتطرّفين، أما هي فقد كان لها اتصالات واسعة مع ثورويين تقدميين ومع علمانيين في الداخل والخارج. وقد عمدَتْ إلى الاستفادة من علاقاتها بالطرفين معًا.

يبدو وكأن تلك السيدة قد انبجستْ فجأة من لا مكان، وعقدَت العزم على تغيير مسار حياتي مدفوعة بقوة إرادتها فقط. لا زلتُ أتذكّر جيدًا لقائي الأول بها. ربما لأن لقاءنا جاء في خضم ما اصطُلِحَ عليه في تاريخ الحرب باسم:

«حرب المدن». كان الفريقان يشُنّان بشكل متقطّع هجماتٍ عنيفة مكثّفة تدوم شدّتُها بعض الوقت، على بعض المدن الرئيسة مثل طهران وأصفهان وتبريز في إيران، أو بغداد والموصل في العراق. ثم غالبًا ما يهدأ القتالُ بعض الوقت، حتى يحين الانفجار الجديد الذي قد يمتدّ أحيانًا ليكون مدمّرًا مدّة عامٍ كامل.

ذات يوم من شتاء عام ١٩٨٧، وكان الوقتُ منتصف النهار، كنا نحن الثلاثة فقط في البيت: أنا وابنتي ذات الثلاثة أعوام وولدي ذي العام ونصف العام. وكان قد ضَربَ طهران صاروخان في الصباح الباكر. كنتُ احاول إلهاء الطفلين وصرف انتباههما عن الحدث بعزفِ أغنية كنا نحبها من جهاز تسجيل صغير. كانت الأغنية تحكي عن ديك وثعلب. هل يبدو الأمر وكأنه فيلمٌ عاطفي.. أمْ شجاعة وطفلان شجاعان؟ أنا لم أكن شجاعة مطلقًا! ولم تكن السَكينة المفترضة سوى نتيجة لقلقٍ مدمّر ترجمَ نفسه الى هدوء. بعد الهجمات، ذهبنا إلى المطبخ، وأعددتُ لهم الغداء. ثم انتقلنا إلى الصالة إذ كنا نشعر بأنها أكثر أمنًا من باقي الغرف، لأن شبابيكها كانت أقل. ورحتُ أبني لهما بيوتًا من ورق اللعب ليدمّروها بلمسة واحدة من أصابعهما الصغيرة.

بعد الغداء مباشرة، رنّ جرس الهاتف. كانت المكالمة من صديقة لي، كانت سابقًا إحدى طالباتي وقد تخرّجَتْ قبل عام. وقد سألتني إن كنتُ أستطيعُ المجيء إلى بيتها مساء الأربعاء، لأن السيدة «رضوان»، وهي زميلة لها، تودّ جدًا أن تراني. وقالت: «إنها معجبة بك جدًا، وقد قرأتْ كل مقالاتك».. ثم أردفت كمن إستنتجَ شيئًا: «على أية حال، إن السيدة «رضوان» لوحدها ظاهرة فريدة.. ولو لم تظهر في حياتنا، لكان علينا ربما أن نخترعها! فهلا تفضّلتِ بتشريفنا سيدتي؟».

وبعد ليالٍ قليلات، وفي معمعة حقبة جديدة من التعتيم، توجّهتُ إلى بيت صديقتي. كان الظلام قد حلّ عند وصولي، ولما دخلتُ إلى الصالة الكبيرة،

استطعتُ أن أميّزَ في العتمة العميقة هيئة امرأة قصيرة القامة ممتلئة الجسم، تتلامعُ في انعكاسات مصباح الكيروسين، ترتدي اللون الأزرق. ما زال مظهرها ذاك حيًّا نابضًا في ذاكرتي؛ أستطيع أن أرى ملامح وجهها البسيط: أنفها المستدق الحاد ورقبتها القصيرة وشعرها الغامق القصير المبتور. ولكن، لا شيء من هذا يمكنه أن يصف تلك المرأة التي كان اسمها: السيدة «رضوان»، على الرغم من بلوغ الحميمية بيننا أقصى حدودها، ورغم اننا تبادلنا الزيارات البيتية ونمتْ صداقة بين أبنائنا، وتعرّفَ زوجانا أحدهما الى الآخر. فما لا يمكنني وصفه فيها بأي حال من الأحوال هو طاقتها التي بدتْ وكأنها حبيسة جسدها. كانت السيدة «رضوان» تتراءى وكأنها في حركة دائبة مستمرة، وهي تذرعُ الأماكن جيئةً وذهابًا؛ ما بين غرفة مكتبها الصغيرة، وغرفة طعامي، وأروقة الجامعة.

كانت تبدو دائمًا عاقدة العزم على شيء، أو تلوي على شيء، وليس ما تنوي فعله هي بنفسها فقط، وإنما كانت تعقد العزم على أن تجعل الآخرين الذين انتخبَتْهم بعناية يقومون بمهماتٍ محدّدة قامتْ بالتخطيط لها بالنيابة عنهم. لم أكن قد التقيتُ قبلها بشخصٍ تهيمن إرادته على جسده بهذا الشكل. فلم تكن ملامحها البسيطة العادية هي ما يمكث في الذاكرة، وإنما التصميم والإرادة والنبرة نصف الساخرة التي كانت تلوّن صوتها.

كانت تمرّ بي أحيانًا من دون سابق توقّع، وهي في غاية القلق والتوتّر، حدّ أنني أخشى أن تكون ثمة كارثة قد حلّت بها. فإذا بزيارتها لا تتعدّى أن تكون لإبلاغي بأن «من واجبي» أن أحضر اجتماعًا ما أو ما شاكل. وكانت دائمًا تغلّفُ تلك الطلبات بفكرة أنها مسألة حياة أو موت. لا شك بأنني مدينة لها فعلاً بالعرفان عن بعض تلك «الواجبات». فقد حفّزتني ذات مرة للقاء مجموعة من الصحافيين المتدينين التقدّميين، الذين اصطُلِحَ على تسميتهم هذه الأيام بـ«الإصلاحيين»، ودفعتني للكتابة في صحيفتهم. كانوا معجبين بالأدب

والفلسفة الغربية، ولدهشتي، وجدتُ فعلاً بأن ثمة الكثير من النقاط المشتركة بيننا.

وفي ذلك المساء، في لقائنا الأول، بادرتني السيدة «رضوان»: «انه لشرف ومكسبٌ عظيم أن ألتقي بك.. لكم وددتُ فعلاً أن أكون طالبة عندك!». قالت ذلك وقد علتْ وجهها ملامح في غاية الجدية، ومن دون أدنى لمحة من المرح أو السخرية. فشعرتُ بأنني فقدتُ توازني تمامًا، حتى انتابني نفور من تلك المرأة التي أسقطتني في هوة خجلي وأخرستني تمامًا.

في ذلك المساء، كانت هي سيدة الكلام في الجلسة. كانت قد قرأتْ مقالاتي، وعرفَتْ عني الكثير عن طريق بعض الأصدقاء والطلبة. لا.. لم تكن تحاول أن تتملقني أو أن تمتدح فقط.. كانت تريد أن تتعلّم فعلاً. وأيًا كان الأمر، ومهما كانت الظروف: لا بد لي أن أدرّس في جامعتهم، الجامعة الوحيدة المتفتّحة في إيران، تلك التي ما زالت تُبقي على بعض أهم العقول النيّرة. أما رئيس القسم، الذي سيعجبك حتمًا، فهو ليس من رجال الأدب فحسب، وإنما هو عالِمٌ بحق. وحال الأدب في هذه البلاد لن يكون أسوأ مما هو عليه، أما حال الأدب الإنكليزي، فميئوس منه تمامًا. ولا بد لنا نحن المعنيين بهذا الأمر أن نفعل شيئًا، لا بد لنا أن نضع خلافاتنا جانبًا ونعمل معًا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

بعد لقائنا الأول، راحت تمارس الضغط عبر مختلف الوسطاء، لتجعلني أقبل عرضها بالتدريس في جامعة العلامة الطباطبائي بشكل رسمي على ملاك الجامعة. وراحتْ تتصل بي من دون هوادة؛ وهي تناشدُ واجبي نحو الوطن، وتهيبُ بواجبي صوب الأدب، وتوسّط طلبتي، وتستعطف الله، كأنما أصبحتْ جلّ مهمتي في الحياة هي التدريس في جامعة الطباطبائي! وقد وعدتني بالكثير مقابل موافقتي: أن تكلّم من أجلي حتى رئيس الجامعة أو كل من شئتُ أن تكلّمه من أجلي.

كنتُ أقول لها بأنني على الأقل لا أريد أن أرتدي الحجاب في قاعة المحاضرات. فتسألني: ألم أكن أرتدي الحجاب أينما ذهبت؟ ألم أكن أرتديه في سوق الخضار وفي الشوارع كلما خرجتُ من البيت؟ يبدو انه كان عليّ أن أذكّر الناس دائمًا بأن «الجامعة ليست سوقًا للخضار!». وكانت تحاججني: «أيهما أهم؟ الحجاب أم أولئك الآلاف من الشباب التوّاقين إلى التعلّم؟». فأسأل: «وماذا عن حرّيتي في اختيار ما أجده مناسبًا للتدريس؟». فتبادرني بمراوغة: «ماذا عن ذلك؟». فأعود لأقول: «ألم يمنعوا أي نقاشٍ عن العلاقة بين الرجل والمرأة؟ وأي نقاشٍ عن الشرب؟ أو عن الدين والسياسة؟ فما الذي تبقّى لنا كي نناقشه أو ندرسه؟». فتجيب: «بقدر تعلّق الأمر بك، سيكون ثمة استثناء طبعًا. وعلى أية حال، لقد تغيّر الكثير، وأصبحتِ الأجواء أكثر حرية الآن. لقد تذوّقوا جميعًا طعم الأشياء الجيدة، وهم أيضًا يريدون أن يكونوا في الصورة، وأن يبلغوا ما بلغتم. فلماذا لا نمنحهم الفرصة ليتعرّفوا على «جيمس» و«فيلدنغ» وسواهما؟ لمَ لا؟».

[9]

كان لقائي بالسيدة «رضوان» قد أحدثَ خللاً في توازني. كانت مثل وسيط يدافعُ عن معشوقٍ غادرٍ لا يُنسى، وراحت تقدّم الضمانات لولاءِ المعشوق المطلق، لا لشيء سوى المحبة. كان «بيجان» يرى أن عليّ أن أعود للتدريس، لأنه يحسّ بأن هذا هو ما أريده أنا فعلاً، وكان عليّ فقط أن أعترف بذلك لنفسي. وحيّرني معظم أصدقائي لأنهم وجدوا أنني وحدي سبب المشكلة. «ألم يكن من الأفضل تقديم يد المساعدة للشباب بدل أن تفوتهم الفرصة لمعارضة النظام بشكل واضح وصريح؟». كان كلا الجانبين واضح وعلى صواب تام في موقفه؛ فقد رأى البعض أن من الخيانة أن نتخلّى عن الشباب وندعهم فريسة للأيديولوجيات الهدّامة. بينما أصرّ الجانب الآخر أنني سأكون خائنة لكل المبادئ التي اعتنقتها إذا ما قبلتُ بالعمل تحت عباءة نظام مسؤول عن تدمير حياة الكثيرين من زملائنا وطلبتنا. بلى.. لقد كان كلا الجانبين على حق.

ذات صباح، اتصلتُ بـ «ساحري» وأنا في حالة من الحيرة الرهيبة. واتفقنا على لقاء عاجل عصر ذلك اليوم في أحد المقاهي الأثيرة. كان المكان صغيرًا حميمًا، وقد كان بارًا قبل الثورة فتمّ تحويره ليصبح مقهى. كان صاحبه أميركيًا، وسيكون عليّ أن أعتاد من الآن فصاعدًا أن أجد عبارة إلزامية تقول: «أقليات دينية»، وقد كُتِبتْ على الباب الزجاجي للمقهى بحروف سودٍ كبيرة،

إلى جانب اسم المقهى المكتوب بحروف صغيرة. فقد أصبح لزامًا على كل المطاعم التي يديرها أشخاص غير مسلمين أن يضعوا هذا الإشعار على أبواب مطاعمهم، تحذيرًا لكل مسلم ملتزم، لأن المسلم الملتزم يَعتبر كل من هو غير مسلم «نجسًا»، ولا يشاركه في مأكله.

كان المكان من الداخل ضيّقًا ومصمّمًا على شكل قوس واسع، وقد وُضِعَتْ كراسٍ بلا ظهور عند أحد جانبي البار، وفي الجانب الثاني، وُضِعَتْ مجموعة أخرى عند مرآة كبيرة بارتفاع الجدار. وعند دخولي، وجدتُ «ساحري» قد اختار الجلوس في الزاوية البعيدة من البار. فوقف وأحنى رأسه انحناءة احترام صغيرة وقال مازحًا: «ها أنذا سيدتي.. رهن إشارتك.. وخادمك المطيع»..

وسحب لي كرسيًا وهو يدعوني للجلوس.

أمرَ لنا بما نشرب، وقلتُ بنَفَس مقطوع: «إنها حالة طوارئ!». فقال: «وصلني هذا الإحساس.. ماذا حدث؟»؟

ـ «لقد طلبوا مني العودة الى الجامعة».

ـ «وما الجديد في ذلك؟»؟

ـ «الجديد هو انني مرتبكة ومتحيّرة هذه المرة، ولا أدري ماذا أفعل».

ثم بطريقة ما، وجدتُ نفسي أحيدُ عن سبب لقائنا الطارئ، ليتحوّل الحديث إلى نقاش عن الكتاب الذي كنتُ منهمكة بقراءته حينئذ «العملية الاوروبية لـ«داشييل هاميت»، وعن مقالة «ستيف ماركوس» الرائعة عن «هاميت»، وقد استشهد فيها بكلماتٍ لـ«نيتشه» أذهلتني لأنها تنطبق علينا تمامًا. يقول «نيتشه»: «من يُقاتِلُ الوحوش، عليه أن يحذر لئلا يُصبِحَ وحشًا في خضم القتال، وحينما تمعنُ النظر إلى عمق الهاوية، فإن الهاوية ستنظرُ هي الأخرى إليك في العمق».

كنتُ أمتلكُ موهبة فريدة في إفساد أجنداتي الخاصة، ولذا فقد حدثَ أن ندمجَ في نقاشاتنا حتى لقد نسيت تمامًا السبب الرئيس الذي دعاني إلى ترتيب ذلك اللقاء.

قال «الساحر» فجأة: «ألم يدركك الوقت؟». كان عليّ أن أعرف كم أدركني الوقتُ وكم تأخرتُ في العودة عبر تغيّر الألوان في الشبابيك، والضياء الشاحب الذي كان ينسحب إلى زوال. ذهبتُ لأتصل بـ«بيجان»، وأخبرته بخجلٍ بالغٍ بأنني سأتأخر. وإذ عدتُ إلى الطاولة وجدتُ «ساحري» يدفع الحساب، فقلتُ باحتجاجٍ خجول: «ولكننا لم نكمل حديثنا بعد! ما زال أمامنا أن نناقش الأمر الأهم الذي جئتُ إلى هنا من أجله». فقال: «حقًا؟.. لقد اعتقدتُ بأن كل ما كنّا نناقشه هو الأمر الأهم؛ وأعني إعادة اكتشافكِ لحبكِ صوب «هاميت» وشركائه. أنت محظوظة لأنني أقلعتُ عن الحياة العامة، ولأنني لا أحاول إغواءك! وكل ما سيكون عليّ فعله هو أن أدعك لحال سبيلك، تتحدثين عن «هاميت» أو عن ازدرائك للسلطة البوليسية في إيران وكل تلك الأمور التي تجعلك تتوهّجين بشكلٍ واضح».

فأجبت بشيءٍ من الحرج: «لا.. أنا أعني.. أعني موضوع عودتي للتدريس». فقال كمن يحسمُ أمرًا: «آه.. ذلك الموضوع، انه واضح وضوح الشمس: يجب أن تُدرِّسي».

ولكنني لم أكن من النوع الذي يدع جملة كهذه تمرّ بسهولة. فقد كنتُ مهووسة بفكرة المبادئ والاعتبارات الأخلاقية واتخاذ المواقف وما إلى ذلك. ولذلك فقد رحتُ ألحّ بشدّة على جدلي بشأن مدى «أخلاقية» العودة إلى وظيفة كنتُ قد أقسمتُ بالاّ أعود إليها طالما أنها تجبرني مُكرَهةً على ارتداء الحجاب.

فرفع أحد حاجبيه وقال بابتسامةٍ متسامحة: «سيدتي ..أرجوك.. هلاّ حاولتِ استيعاب المكان الذي تعيشين فيه؟ أما بشأن وخز الضمير الذي ينتابك إزاء إذعانك للنظام، فلا أحد منا يستطيعُ أن يشرب كأس ماءٍ واحد من دون موافقة الحرس: حماة الأخلاق في الجمهورية الإسلامية. أنت تعشقين العمل، فهلمّي إذًا، كوني لطيفة متسامحة مع نفسك، وتقبّلي الحقائق كما هي. فنحن المثقفون، بخلاف المواطنين العاديين، إما أن نذعنَ ونكون تحت إمرتهم

ونحن نشكّ ونوَسوس، مسمّين ذلك «حوارًا بنّاءً»، أو أن ننسحب من الحياة تمامًا رافعين شعار: الحرب على النظام. وقد صنع الكثيرون أسماءهم عبر معارضتهم للنظام، ولكن حتى هؤلاء، لن ينجحوا في مقاصدهم من دون وجود النظام. وأنت لا تفكرين بحمل السلاح ضد النظام، أليس كذلك؟».

فأجبتُ باستسلام: «كلا طبعًا.. ولكنني في الوقت نفسه لا أريد إبرام الصفقات معهم. على أية حال، كيف يمكنك «أنت» أن تنصحني بذلك؟ ألا تنظر إلى نفسك؟».

ـ «وماذا عني؟».

ـ «ألم ترفضْ أن تُدرّس؟ أو أن تكتب؟ أو أن تفعل أي شيء في ظل هذا النظام؟ أفلا تقول لنا عبر أفعالك ومواقفك بأن علينا جميعًا أن ننسحب؟».

ـ كلا.. أنا لا أقول ذلك.. لا زلتِ ترتكبين الخطأ نفسه بأن تجعلي مني نموذجًا أو مثالاً يُحتذى به. وأنا لست نموذجًا و مثالاً لأحد، بل إنني، لأكثر من سبب، يمكن أن يُقال عني بأني «جبان». أنا لا أنتمي لهم، لكنني في الوقت نفسه أدفع ثمنًا باهظًا مقابل ذلك. أنا لستُ بخاسر، ولا رابح. وعليه، في الواقع، فإنني لا أظهر.. لا أوجد.. أنا بلا وجود حقيقي. أعني انني لم أنسحب من الجمهورية الإسلامية فحسب، وإنما انسحبت من الحياة ككل أيضًا. بينما «أنتِ»، أنت لا يمكنك فعل ذلك، ولا ترغبين بذلك أصلاً.

حاولت أن أعكس الموقف، ورحتُ أذكّره بأنه أصبحَ نموذجًا لا يقتدي به أصدقاؤه فحسب، وإنّما خصومه أيضًا. فلم يعجبه ما قلت وعلّق: «لا.. لا.. بل إن السبب الذي يجعلني محبوبًا إلى هذا الحد، هو انني أعيد للآخرين ما يحتاجون العثور عليه داخل ذواتهم. فأنتِ مثلاً، لستِ بحاجة إليّ لأقول لك ما أريدك أن تفعليه، وإنما لأنني أترجمُ لك وأبرّر ما تريدين أنت نفسك فعله. وهذا ما يجعلك تودينني: لأنني إنسان بلا خواص، هذه هي حال صديقك المخلص!». وسألته: «ولكن ماذا عمّ تريده أنت؟».

ـ «لقد تنازلتُ عن ذلك، أنا أحاول أن أجعل ماتشائينه ممكنًا، فأنت التي ستدفعين الثمن في النهاية. تذكّري ذلك القول الذي قرأتِ لي عن الهاوية، فمن المستحيل أن تكوني بمنأى عن الهاوية. أنا أعلم كم تودّين الاحتفاظ بكعكتك وبأن تأكليها في الوقت نفسه! أنا أعرف تمامًا تلك البراءة، اعرف شخصية «أليس» التي تودّين الاحتفاظ بها. وأنت تعشقين التدريس، وجميعنا، حتى أنا، إنما عبارة عن بدائل تعويضية عن التدريس الذي تفتقدين. إنه متعتك، فلِمَ لا؟ انطلقي، ودرّسي، ودرّسيهم «هاميت» و«أوستن» وكل أصدقائك الآخرين. هلمّي، استمتعي».

فقلت بسرعة: «ولكننا لسنا بصدد الحديث عن المتعة». فقال ساخرًا: «آه فعلاً!.. ها إن السيدة التي لا تكفّ عن التفاخر دائمًا بحبها لـ«نابوكوف» و«هاميت» تخبرني الآن بأن علينا ألاّ نفعل ما نحب!». ثم أردف بشيء من الجدية: «إن هذا بالضبط هو ما أسميه لا أخلاقيًا. ها إنك تنضمّين إذًا إلى حزب الجبناء. فما تشرّبتِ به من هذه الثقافة يحدّثك بأن كل شيء يجعلنا نحسّ بالمتعة هو شيء سيّئ ولا أخلاقي. فهل ستكونين أكثر أخلاقًا لو أنك مكثتِ في البيت تعبثين بإبهامك؟ إذا كنت تتوقعين مني أن أقول لك بأنه «من واجبك» أن تُدرّسي، فقد أخطأتِ في العنوان، لن أقول لك ذلك.. ليس أنا. أنا أقول لك إفعلي ذلك لأنه متعتك. سيكون تذمّرك في البيت أقل، وستصبحين أفضل مما أنت عليه الآن. وحتمًا سيستمتع طلبتك أيضًا، وقد يتعلمون شيئًا».

في الطريق إلى البيت، في سيارة الأجرة، التفَتَ صوبي وقال كاسرًا حاجز الصمت الذي شَخَص بيننا: «بجد.. عودي إلى العمل. لن يكون الأمر مؤبّدًا، سيكون بإمكانك الانسحاب دائمًا إذ تشائين. اعقدي صفقاتك، واذهبي للحد الذي يمكنك بألا تساومي على الجوهر. ولا تبالي بكل ما سنقوله من وراء ظهرك، أعني نحن أصدقاءك وزملاءك، فنحن سنغتابك أيًا ما كان فعلك؛ فإذا عدتِ سنقول: استسلمَتْ، وإذا لم تعودي سنقول بأنها خائفة من التحدي!».

وأخذتُ بنصيحته، وتحدّثوا عني بكل ما وجدوه مناسبًا.

[10]

لم يكن قد مضى أسبوع على اجتماعنا الطارئ، حتى اتصلَتْ بي السيدة «رضوان». كانت تطلب مني أن ألتقيَ برئيس القسم، وكانت تصرّ: «إنه رجل لطيف جدًا، سترين كيف أن الامور قد تغيّرت الآن، لقد أصبحوا أكثر تحرّرًا، لقد أحسّوا بقيمة الأكاديميين الجيدين». بيد أن ما غفلَتْ السيدة «رضوان» عن قوله هو أنهم ـ «هم» ـ إنما كانوا يطلبون المستحيل: فهم يريدون أكاديميون جيدين يبشّرون بأفكار النظام، ولا يعملون إلا وفقًا لمتطلباته. على أية حال، لقد كانت السيدة «رضوان» على حق فيما يتعلّق برئيس القسم؛ فهو لُغَويّ من الطراز الأول، وقد تخرّج في واحدة من أفضل الجامعات في الولايات المتحدة. كان متدينًا، ولكنّه لم يكن مؤدلجًا أو متملّقًا للنظام، وكان معنيًا بشكلٍ أساسيّ بالمستوى العلمي.

بعد لقائي الأول برئيس القسم، كان ثمة مقابلة أقل سرورًا مع عميد الكلية الذي بدا أقل مرونة وأكثر تديّنًا. فبعد الترحيب والمقدمات المعتادة، صارت ملامحه أكثر جدية، وكأن لسان حاله يقول: كفانا خوضًا في مواضيع تافهة مثل الفلسفة والأدب، فلنتناقش ما هو أهم. واستأنفَ بأن أبدى بعض الاهتمام بـ«ماضيّ»، خصوصًا مسألة رفضي ارتداء الحجاب. فقلتُ له بأن ذلك قد أصبح الآن قانون البلاد، فلم يعد يمكنني أن أظهر في أي مكان علنًا من دون حجاب، لذا فسأفعل ذلك في الجامعة أيضًا. ولكنني لن أساوم على الدرس،

وسأقوم بتدريس ما أجده مناسبًا للدراسة. فتفاجأ جدًا، لكنه قرر الموافقة على مطالبتي بالحرية، مبدئيًا على الأقل.

لم يكن، طوال تلك المقابلة، ينظر إليّ في عينيّ، وهو ما يليق بالمسلم الحقيقي. وبقي طوال الوقت مُطرِقًا رأسه مثل مراهق خجول لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره. فكان يركّز بصره في نقوش السجادة، أو يحيد بنظرته للجدار، وكان أحيانًا يلعبُ بقلمه وهو يمعن النظر فيه، ليذكّرني بلقائي الأخير مع السيد «بحري». كنتُ قد أصبحتُ في ذلك الوقت خبيرة نوعًا ما بسلوك الرجال الورعين. فهم يبدون رأيهم في المرأة وهم يتجنّبون النظر إليها. أعني أن بعضهم قد يعكس موقفًا عدوانيًا وهو يحيد ببصره عنها. ذات مرة، طلب مني أحد الزملاء إعداد تقرير تقييمي لإحدى المنظمات. وإذ كنا أنا وزميلي في مكتب أحد المسؤولين الكبار في تلك المنظمة، كان الأخير يحدّق بشكل مباشر وواضح صوب الناحية الأخرى طوال الدقائق الثلاثين التي كنت فيها أقدم له تقريري. ثم راح يوجّه أسئلته ويعبر عن آرائه بالتقرير وهو يخاطب زميلي، حتى بدأ الأخير يتعرّق فعلًا من فرط الخجل. وبعد برهة، قررتُ أنا أيضًا أن أخاطب زميلي وكأننا في الغرفة وحدنا، متجاهلة وجود المسؤول الكبير. ولغبائي أيضًا، رفضتُ استلام النقود التي دفعتها لي المنظمة مقابل جهودي، وذلك نظرًا لإحساسي العميق.. بالألم!

لكنني أحسستُ بأن العميد كان يغضّ بصره بسبب تواضع وتقوى حقيقيين. صحيح أن سلوكه ذاك لم يرقني فعلًا، ولكنني أيضًا لم أشعر بالحقد عليه. ولو أننا لم نكن نحيا في الجمهورية الإسلامية، لكنت ربما أبديتُ شيئًا من الظُرف أو روح الدعابة تعليقًا على وضعنا المريك المحرج. فقد كان من الواضح أن الرجل كان مُحرَجًا ومرتبكًا أكثر مني، وكان من الواضح أنه كان مهتمًا ومتلهّفًا لمناقشة بعض الأمور التي لا يعرف الكثير عنها، مثل الأدب الإنكليزي، مثلما كان متلهفًا للتفاخر بمعرفته العميقة بأفلاطون وأرسطو!

وإذ وصلَتْ تفاصيلُ لقاءنا أنا والعميد إلى السيدة «رضوان» قالت لي بمرح بأنني لم أكن وحدي خائفة من المساومة، فقد كان المسؤولون في الجامعة هم أيضًا قلقون، وكانوا يشعرون بأنهم يغامرون بطلبهم لي أن ألتحق بالكلية.

كانت الخطوة التالية هي أن أجد نفسي وأنا بصدد الإعداد للدرس. في النصف الأول من السنة الدراسية، كنتُ مُحمّلة بثلاثة فصول تمهيدية تشمل «مدخل إلى الرواية» و«مسرح» و«نقد أدبي»، بالإضافة إلى فصلين للطلبة الخريجين؛ أحدهما في «أدب القرن الثامن عشر» والآخر «عرض للنقد الأدبي». كان عدد الطلبة في الصفوف العادية يتراوح ما بين ثلاثين إلى أربعين طالبًا للصف الواحد. وكانت صفوف الخريجين مزعجة ومزدحمة، وقد يتجاوز عدد الطلبة في بعضها ثلاثين طالبًا. وحينما كنتُ أتذمّرُ من ثقل وطأة العمل، كانوا يجيبونني بالقول بأن بعض الأساتذة كانوا يقدمون محاضرات تتجاوز عشرين ساعة في الأسبوع. فلم يكن ضغط العمل ليشكّل أي أهمية لدى إدارة الكلية؛ وكانوا يصفون «طموحاتي» بأنها مثالية وغير واقعية، أما أنا فقد كنتُ أصف عدم اكتراثهم بأنه: «إجرامي»!

بمرور الوقت، لم يلتزم أيّنا بشروط الآخر؛ فكنتُ دائمًا أضع حجابي بشكل غير ملائم، ليصبح هذا الأمر بالنسبة لهم حجة دامغة لمضايقتي باستمرار. وهم بدورهم، لم يكفوّا مطلقًا عن الضغط عليّ ومحاولة إرغامي على تدريس ما يشاؤون، أو إجباري على التصرف بالأسلوب الذي كانوا يرونه أنسب بالنسبة لهم. بيد أننا عشنا حقبة طويلة فيما يشبه الهدنة. وأصبحَتْ السيدة «رضوان» بمثابة جدارٍ عازلٍ بيني وبين الإدارة، وهي تحاول ترطيب الأجواء وتلطيف الامور، تمامًا مثل الوسيط في زواج فاشل. ولكن، مثلها مثل كل الوسطاء، لم تكن لتغفل عن مصلحتها الشخصية. لأن إقناع أشخاص مثلي أن يكونوا أكثر نشاطًا وفاعلية، قد جعل منها شخصًا متنفّذًا عند موظفي الجامعة. وطوال مدّة وجودها في الجامعة، كان لذلك الزواج أن يستمرّ بطريقة أو بأُخرى، سواء نحو الأحسن أو نحو الأسوأ.

كانت تقول لي بتلك النبرة الساخرة التي تشوبُ صوتها بأن علينا أن نقيمَ جبهة موحّدة لإنقاذ الأدب من براثن جهلة الجامعة الذين لا يفقهون منه شيئًا. هل تعلمين أن السيدة التي كانت تدرّس قبلك مادة الرواية في القرن الثامن عشر لم تقدّم للطلبة سوى «اللؤلؤة» لـ«شتاينبك» وإحدى الروايات الإيرانية؟ أو ذلك الأستاذ في جامعة الزهراء الذي كان مصرًّا بأن كاتب «الأمنيات العظيمة» هو «جوزيف كونراد»!

[11]

«انتباه.. انتباه.. جهاز الانذار الذي تسمعون يعلن إشارة الخطر.. إنه الإنذار الأحمر.. اتركوا أماكنكم حالاً وتوجّهوا الى الملاجئ».

أتساءل: في أية مرحلة من حياتي أو كم مرّتْ عليّ من سنين حتى كفّ صدى جهاز الإنذار عن الدويّ داخل رأسي؟ لقد كان مثل كمانٍ مذعور يئنّ في أجسادنا بلا رحمة. ولا أستطيع أن افكر بسنوات الحرب الثماني بمعزلٍ عن ذلك الصوت الصارخ الذي كان في أحيان كثيرة يقتحم حياتنا لمرات في اليوم، في أكثر الساعات أمنًا وبعدًا عن مرمى التوقّع. كانوا قد حدّدوا لنا ثلاث درجاتٍ للخطر، لكنني لم أفلح مطلقًا في التفريق ما بينها: كان الأحمر يعني الخطر، والأصفر يعني احتمالية وجود الخطر، وأخيرًا الأبيض الذي كان يعني زوال الخطر. كانت تُعلنُ الإشارة البيضاء أحيانًا بينما يبقى ثمة خطر. وفي حالات نادرة، كانت تُعلن الإشارة الحمراء بعد سقوط القذيفة أو وقوع الانفجار. وعلى كل حال، فإننا أصلاً لم نكن نملك في الجامعة ملاجئ حقيقية نأوي إليها.

لا يمكن نسيان الغارات الجوية على طهران لأكثر من سبب، وليس أقلها تلك الحميمية والصداقة التي نشأتْ بيننا وبين القصف! بدا الأمر وكأنه كالآتي: معارف عابرون جاؤوا في زيارة لبيتك عند العشاء، وبعد العشاء، لم يعد أمامهم من خيار سوى المبيت (العشرات منهم أحيانًا)، وبحلول الصباح،

يبدو الأمر حميميًا وكأنكم أصدقاء طوال العمر، هكذا أصبحت علاقتنا بالقصف!

وآه من ليالي الأرق! ففي بيتنا كنتُ أنا أقلهم نومًا. وكنت أريد دائمًا أن أنام قربَ طفليّ، فإذا ما حصل أي مكروه فيحصل لنا جميعًا. كان زوجي ينام، أو على الأصح بأنه كان يحاول أن ينام في غضون الغارة. أما أنا، فقد كنتُ آخذ وسادتين وبضع شموعٍ وكتابًا، وأروح إلى الممر الصغير الذي يفصل بين غرفتنا وغرفة الطفلين، وأجلس هناك عند باب غرفتهم. يبدو أنني أعتقدتُ، بطريقة أو بأخرى، بأن يقظتي ستردأ عنا الأذى وستحرّفُ مسار القذيفة فلا تصيب بيتنا.

أذكر أنني أفقتُ فجأةً ذات ليلة، لأجد البيتَ برمّته غارقًا في ظلام دامس، كانت الساعة قد قاربَتْ الثالثة أو الرابعة فجرًا. أدركتُ مباشرة بأننا في حالة تعتيم جديدة، فحتى المصباح الصغير الذي كان ينير الممر كان مطفأً. نظرتُ من الشباك لأجد أنوار الشارع هي الأخرى مطفأة. أشعلتُ مصباح البطارية، فاقتطعَ لي دائرة من الضوء وسط العتمة التي كانت تحيط بي من كل جانب. ولم تمضِ بضع دقائق، حتى صرتُ بأتم الاستعداد: بوسادَتيَّ المتكئتين على الجدار وشمعتيّ المضاءتين وكتابي. ثم.. سمعتُ دويّ انفجارٍ مباغت، فارتعشَ قلبي، وراحت إحدى يديّ إلى معدتي بحركة لا إرادية، تمامًا مثلما كانت تفعل في غاراتٍ مشابهةٍ حينما كنتُ حاملاً. أما عيناي، فقد تظاهرتا كأن شيئًا لم يكن، واستقرّتا من جديد على صفحة من كتاب «ديزي ميللر».

في تلك الحقبة، عدتُ من جديد دون وعيٍ مني الى التقاط ورقةٍ وقلم وذلك في خضم قراءاتي لكتّابٍ بعينهم. فلم أكن قد أقلعتُ تمامًا عن عادتي الممتعة التي اكتسبتها أيام كنتُ طالبة، وأعني عادة كتابة الملاحظات ووضع الخطوط والعلامات على الكتب. وكل ملاحظاتي على «الكبرياء والتحيّز» و«ميدان واشنطن» و«مرتفعات ويذرنغ» و«مدام بوفاري» و«توم جونز»، كنتُ قد كتبتُها

إبان تلك الليالي المؤرقة، حينما كان تركيزي عاليًا بشكل عجيب، تغذّيه ربما جهودي المضنية لتجاهل خطر القذائف والصواريخ.

كنتُ قد شرعتُ لتوي بقراءة «ديزي ميللر»، وبدأتُ أتعرّف على «ويتربورن» ذلك الشاب الأميركي المتشبّه بالأوروبّيين الذي يلتقي في سويسرا بالآنسة الفاتنة الغامضة «ديزي ميللر». فتثيرُ «ويتربورن» تلك الشابة الأميركية الجميلة التي يرى البعضُ أنها سطحية مبتذلة، بينما يرى البعض الآخر أنها بريئة غضة. ويتحيّر الشاب، فلا يعود يدري هل هي فتاة «لطيفة»، أم أنها مجرّد «عابثة». وتدور الحبكة حول «ويتربورن» وتأرجحه ما بين «ديزي» باستخفافها بقواعد الإتيكيت واللياقة، وبين عمته الارستقراطية ومَنْ حولها من مجتمع قوامه أميركيون متعجرفون. فقد قرّرتْ العمة أن تتجاهل «ديزي»، وهو ما أربك «وينتربورن». كنتُ أقرأ المشهد الذي يبدأ بعد أن تطلب «ديزي» من «ويتربورن» أن يقدّمها لعمته. فيحاول الأخير بكل ما أوتيَ من كياسة أن يشرح لها بأن عمته لن تراها:

توقفتْ الآنسة «ديزي ميللر»، ثم انتصبتْ وهي تنظر إليه. كان جمالها لا يزالُ مرئيًا في العتمة وهي تفتحُ وتغلقُ مروحتَها الهائلة. وقالت فجأة: «قلْ إنها لا تريد أن تعرفني! قلها بوضوح!».

سمعتُ صوت انفجارٍ آخر. كنتُ أحسّ بالعطش، لكنني لم أجد في نفسي القدرة على النهوض من أجل شربة ماء. دوّى انفجاران آخران، لكنني واصلتُ القراءة. كانت عيناي تتنقلان أحيانًا بين صفحات الكتاب وبين زوايا الممر المظلم. أنا أصلاً أخاف من الظلمة، بيدَ أن الحرب وانفجاراتها كانت قد جعلت ذلك الخوف يبدو تافهًا وغير ذي قيمة. وثمة مشهد سأبقى أتذكره دائمًا، وليس بسبب تلك الليلة:

قالت «ديزي» لـ«وينتربورن»: «لا داعي لأن تخاف فأنا لستُ بخائفة». ثم أطلقتْ ضحكةً خفيفة. فتوهّمَ «ويتربورن» بأن ثمة

رجفة في صوتها، وقد مسّتهُ وصدمته ودمّرَتْه. فقال محتجًّا: «يا سيدتي العزيزة.. إنها لا تعرف أي أحد.. أن ذلك فقط بسبب هزالة صحتها».

فمشَتْ الشابة بضع خطواتٍ وهي لا تزال تضحك، وقالتْ: «لا داعي لأن تخاف».

ثمة شجاعة فائقة في تلك الجملة. وثمة سخرية تكمن في أن «ويتربورن» لم يكن خائفًا من عمته، بل من سِحرِ الآنسة «ديزي ميللر». أعتقد بأنني للحظة كنتُ قد اندمجتُ بالقراءة فعلاً ونسيتُ أمر الانفجارات، حتى إنني استطعتُ أن أضع دائرة حول عبارة: «لا داعي لأن تخاف». ولكن ما أن عدتُ لمواصلة القراءة حتى حدثتْ ثلاثة أشياء في وقتٍ واحد تقريبًا: نادتْني ابنتي من غرفتها، ورنَّ جرسُ الهاتف، وسمعتُ طرقًا على باب الممر. التقطتُ شمعة وتوجّهتُ صوب الهاتف وأنا أقول لابنتي بأنني سأكون عندها بعد لحظات. وفي تلك اللحظة، فُتِحَ باب الممر، ودخلَتْ أمي وهي تحمل شمعة وتقول: «هل أنتم بخير؟.. لا تخافوا.. لا تخافوا».. ففي كل ليلة بعد الانفجار، كانت غالبًا ما تدخل علينا أمي بشمعتها المشتعلة، حتى أصبحتْ تلك الحركة أشبه بطقس. هرعَتْ أمي إلى غرفة الأطفال، وهرعتُ أنا إلى الهاتف. كانت على الجانب الآخر إحدى صديقاتي، وقد اتصلَتْ لتطمئن هي الأُخرى أننا بخير. فقد تصوَّرَتْ بأن الانفجار قد وقع في مكان ما قريب من منطقتنا. وقد أصبح ذلك أيضًا طقسًا من بين الطقوس: أن نتصل بعد الانفجارات بالأصدقاء والأقارب لنطمئن على سلامتهم، رغم اننا كنا نعلم بأن سلامتنا كانت تعني ضمنًا عدم سلامة أشخاص آخرين.

في تلك الليالي التي كانت تتناوب فيها صافرات الإنذار التي تعلن الخطر الأحمر أو الأبيض، كنتُ قد رسمتُ، دون وعيٍ مني، خارطة مهنتي المستقبلية القادمة. فطوال تلك الليالي التي لا عدّ لها، كانت قراءاتي تتركّز في

الرواية. وحين عدتُ إلى الجامعة من جديد، وجدتُ أمامي مادة جاهزة تغطي فصلين دراسيين كاملين في الرواية. وطوال الخمسة عشر عامًا التي تلت ذلك، لم أفكّر أو أقرأ أو أدرّس شيئًا مثل الرواية. وقد أثارت فيّ تلك القراءات فضولاً لمعرفة أصول الرواية، وما توصّلت الى إدراكه على انه الهيكل الديمقراطي الأساس للرواية. وقد بدأتُ أبحث في السبب الذي جعل الرواية الواقعية غير شائعة او ناجحة في بلادنا.

وإذا كان من الممكن أن نحتفظ بالصوت، مثلما نحتفظ بورقة الشجر أو الفراشة داخل الكتاب، فسأقول ملءَ فمي، بأن بين صفحات نسختي من «الكبرياء والتحيّز»، أكثر الروايات تنوّعًا في أصواتها، ونسختي من «ديزي ميللر»، تكمنُ ورقة مثل أوراق الخريف، هي صافرة إنذار تعلن الخطر الأحمر.

[12]

كانت هنالك: صافرات الإنذار، والصوت الميكانيكيّ الذي يأمرنا بالانتباه، والمتاريس في الشوارع، والانفجارات في الصباح الباكر أو بعد منتصف الليل، وكانت هنالك أوقاتٌ من الهدوء النسبي الذي قد يقصر أو يطول بين نهايات الهجمات وبداياتها الجديدة، وكان هنالك «جيمس» و«أوستن» وقاعات المحاضرات المختلفة في الطابق الرابع من المبنى الذي يضمّ كلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية. دعوني أصف لكم ذلك المكان: في الطابق الرابع ثمة خطّان من القاعات الدراسية التي اصطفّتْ على جانبي الممر الطويل الضيّق، تطلّ شبابيكها من أحد الجانبين على الجبال غير البعيدة، وتطلّ شبابيك الجانب الآخر على الحديقة الجميلة الحزينة التي غالبًا ما تكون مهملة بعض الشيء. يتوسّط الحديقة حوض زينة صغير يتصبب فيه تمثال محطّم، وقد تناثرَتْ حول الحوض مربعاتٌ ودوائر من الشجيرات وأحواض الورد التي تحيط بها الأشجار من كل جانب. يتراءى للناظر بأن الزهور كانت وكأنها تنمو بشكل عشوائي في المكان: جوري جميل وأضاليا كبيرة ونرجسٌ بريّ أصفر. وكم كنتُ أتخيّل دائمًا بأن الحديقة لا تنتمي الى الجامعة، وإنما الى صفحاتٍ من رواية عن الزعرور البرّي!

كنتُ قد ابتدعْتُ طقسًا خاصًا لاستعدادات خروجي من البيت: كنتُ أحرص قبل كل شيء الاّ أضع أي مساحيق تجميل على وجهي، وكنت أبتدئ

الطقس بإخفاء خطوط وتعرّجات جسدي بأن أنزلق في قميصي (الـ«تي شيرت») وبنطلوني الأسود (الباكي)، وكان بنطلونًا مريحًا واسعًا جدًا على جسدي وأكبر من قياسي بنصف درجة، ثم أضع فوقهما جلبابي الأسود الطويل والإيشارب الأسود الذي أعقده عند الرقبة. ثم أضع كتبي وأوراقي في الحقيبة. كنتُ أحشو حقيبتي بالكثير جدًا من الكتب والأوراق، وكان معظمها غير ضروري، لكنني مع ذلك كنت آخذها وكأنها «شبكة واقية».

بطريقة ما، أصبحتِ المسافة بين بيتي والجامعة مشوّشة ضبابية في ذاكرتي؛ فقد كنت فجأة وبطريقة سحرية، من دون المرور بالبوابة الخضراء والحرس، ومن دون المرور بالمدخل الزجاجيّ للمبنى بشعاراته التي تشجبُ الثقافة الغربية، أجد نفسي داخل مبنى كلية اللغات والآداب الفارسية والأجنبية، وأنا أقف أسفل السلالم.

أحاول، وأنا أرتقي درجات السلّم، أن أتجاهل الصور والشعارات والملاحظات التي كانت تغطي الجدران بشكل عشوائي. وكانت في معظمها صورًا بالأسودِ والأبيض عن حربنا مع العراق، وشعارات تلعنُ الشيطان الأكبر (أميركا)، وتندّد بعملائه، وأقوال لآية الله الخميني تصاحب الصور:

- «اقتلونا أو قتلناهم، لا فرق، لأننا سننتصر».
- «يجب أن تتأسلمَ كل جامعاتنا».
- «إن هذه الحرب هبة سماوية وبركة لنا».

لم أستطعْ مطلقًا أن أتجاوز استيائي من تلك الصور الباهتة المهملة والمنسية على الجدران الماجية اللون هناك. كانت تتداخل وتتعارض بشكل يومي مع عملي، لتجعلني أنسى أنني في الجامعة أو أنني أستاذة لمادة الأدب. فقد امتلأت بها الجدران وصاحبتها عبارات التأنيب عن ملابس المرأة، وعن قواعد السلوك. ولكنني، لم أكن أجد ولو بالخطأ إشارة إلى حوار ثقافي أو فيلم سينمائيّ أو كتاب.

[13]

كان قد مرّ ما يقارب الأسبوعين من النصف الثاني لسنتي الدراسية الأولى في جامعة العلّامة الطباطبائي. وكنتُ أهمّ بدخول غرفة مكتبي، وما أن فتحتُ الباب حتى لمحتُ على الأرض مظروفًا حدستُ أن يكون قد دُفِعَ من تحت الباب (ما زلت حتى الآن أحتفظ بالمظروف وبقصاصة الورق المُصفرّة التي كانت بداخله وقد طُوِيَتْ لتناسب حجمه). كان اسمي وعنواني في الجامعة مطبوعًا على المظروف، ولم يكن في القصاصة سوى سطرٍ واحد، سطر صبياني وفاحش مثل محتواه: «الزانية نفيسي يجبُ أن تُطرَد». كانت هذه هي الهدية الترحيبية التي استلمتُها لدى عودتي الرسمية للحياة الجامعية.

في ذلك اليوم لاحقًا، تحدّثتُ إلى رئيس القسم في الأمر. وعلمتُ بأن رئيس الجامعة نفسه كان قد استلم رسالة بالمعنى ذاته. ولا أدري لماذا أخبروني بذلك! فقد كنتُ أعلمُ مثلما يعلمون بأن كلمتَيْ «زانٍ» و«زانية» كانتا قد فقدتا معناهما، مثل كل الكلمات الأُخرى التي صادرَها النظام. ولم تعد الكلمة لتتعدى معنى الإهانة، وكان المقصود منها إشعار المقابل بأنه قذر وعديم الأهلية. وكنت أعلم بأن حوادث من هذا النوع يمكن أن تحدث في أي مكان. فالعالم ممتلئ بالمرضى الغاضبين الذين يمرّرون من تحت الأبواب، قصاصات من العبارات الفاحشة.

ليس هذا ما آلمني. إن ما آلمني ولم يزل؛ تلك العقلية والمفاهيم التي راحت

تتحكّم بحياتنا بشكل جوهري. فقد كانت هذه هي لغة الصحف الرسمية ولغة الإذاعة والتلفزيون، ولغة رجال الدين التي استخدموها من منابرهم لتشويه سمعة خصومهم وتدميرهم. وكان معظمهم، بتلك اللغة، قد أفلح في مهمته ونجح في بلوغ مقصده. لقد أحسستُ بالرخص، وبأنني بطريقة أو بأخرى شريكة في الجريمة، لا لشيء سوى علمي بأن الكثير من الناس كانوا قد حُرموا قوت عيشهم بسبب بعض التهم المشابهة (مثل الضحك بصوتٍ عالٍ أو مصافحة أشخاصٍ من الجنس الآخر). فهل سيكون عليّ أن أكون ممتنّة لحسن الطالع الذي وقاني، حتى تمكّنتُ من الهرب من دون خسائر أكثر من سطرٍ مُخربشٍ على قصاصة من ورق رخيص؟!

فهمتُ منذ تلك الحادثة معنى كل ما قيل لي عن أن هذه الجامعة وهذا القسم تحديدًا كانوا أكثر «تحرّرًا» من سواهم. فلم يكن ذلك يعني اتخاذهم أي إجراء أو تحرّك لدرء أو منع حوادث من هذا النوع، بل كان يعني أنهم لن يتخذوا أي إجراءٍ ضدّي أنا، لمصلحة المعتدي!

لم تفهم الإدارة غضبي، ولم تجد له من مبرر أو وصف سوى أنه «انفعالٌ أنثويٌ مبالغٌ به»! ثم راحوا يألفون أي احتجاج لاحق لي في السنوات القادمة ليندرج لديهم ضمن سياق الوصف نفسه. لقد دفعوا بي إلى الإحساس بأنهم يحاولون جاهدين تحمّل واستيعاب غرابة تصرفاتي؛ مثل مخاطبتي غير الرسمية لطلبتي، مزاحي، إيشارب رأسي الذي ينزلق دائمًا، و«توم جونز» و«ديزي ميللر» الخاصين بي. كل ذلك، كان يندرج ضمن إطار التسامح والتحمّل. والغريب في الأمر، أن ذلك كان بطريقة ربما ملتوية، هو تسامح، ومن ناحية أُخرى، إنما كان عليّ أن أكون ممتنة لهم فعلاً!

[14]

كلما تخيّلتُ نفسي وأنا أصعد درجات السلّم، لا أستطيع أن أرى نفسي وأنا أنزلها. ولكنني في ذلك اليوم كنت أنزل الدرج فعلاً، مثلما كنت أفعل في كل الأيام. كنت أنزل، وحالما أصل إلى غرفة مكتبي أتخلّص من كتبي وأوراقي الزائدة، لآخذ معي ما أعددته للمحاضرة الأولى. أهبط السلّم على مهلٍ إلى الطابق الرابع، وقبل نهاية الممر الطويل أستدير إلى اليمين وأدلف إلى القاعة. كانت محاضرة اليوم في مادة «مدخل إلى الرواية ـ الجزء الثاني». الكاتب موضوع النقاش: «هنري جيمس»، الرواية: «ديزي ميللر».

كما تقول لي الذاكرة، أرى نفسي وقد فتحتُ كتابي واستخرجتُ أوراق ملاحظاتي. ثم رحتُ أتطلعُ في الوجوه الأربعين الغريبة التي كانت تبادلني النظرات وقد بدا عليها استعداد تام لتنفيذ تعليماتي. رغم اني أصبحتُ معتادة على أخذ العزاء من بعض الوجوه من دون سواها. ففي الصف الثالث، في قسم البنات، كانت تجلس «مهشيد» ومعها «نسرين».

كانت رؤيتي لـ«نسرين» وهي جالسة في ذلك المكان قد أدهشتني في أول يوم لي في الفصل السابق. كنت أمرّ على وجوه الطلبة بشكل عابر، حينما ارتدّ بصري راجعًا إذ طالعني وجه «نسرين» وهي تبتسم لي. كان لسان حال ابتسامتها يقول لي: «أجل أنا هي.. لم تخطئي أبدًا!».

كان قد مرّ ما يربو على سبعة أعوام منذ أن رأيتُ «نسرين» الصغيرة وهي

تتأبّط رزمة من الكراريس، لتختفي بعدها في طريقٍ مشمسٍ قرب جامعة طهران. كنت أتساءل أحيانًا: «ترى ما الذي حل بها؟ أتكون ربما متزوّجة الآن؟». وها هي ذي أمامي، وقد بدَتْ ملامحها أكثر جراةً وقد لطَّفتها حمرة خفيفة. حين رأيتها آخر مرة، كانت ترتدي إيشاربًا أزرق بحريًا وجلبابًا فضفاضًا، أما الآن فهي ترتدي جادورًا أسود سميكًا من قمة رأسها حتى أخمص القدم. ولكنها بدتْ أصغر سنًا في ذلك الجادور بعد أن أخفت كل ملامح جسدها خلف كتلة القماش المعتمة عديمة الشكل. أما التغيير الثاني فقد لحظتُهُ في جلستها: فقد كانتْ في السابق تجلس باستقامة رمح على طرف الكرسي وكأنها تتهيّأ للركض عند أول صيحة نداء. اما في ذلك اليوم، فقد جلسَتْ باسترخاءِ نؤوم وهي حالمة ساهمة، تسجّل الملاحظات على مهل.

بعد تلك المحاضرة، تخلّفَتْ «نسرين» عن باقي الطلبة. لاحظتُ بأنها كانت ـ بعدُ ـ محتفظة بشيء من إيماءاتها القديمة؛ مثل حركة يديها غير المستقرّتين، واتكائها المتناوب على قدم ثم على الأُخرى. سألتها وأنا ألملِمُ كتبي وأوراقي: «أين اختفيتِ كل تلك السنين؟ هل لا زلتِ تذكرين بأنك مدينة لي ببحث عن «غاتسبي»؟». فابتسمَتْ وقالت: «لا تقلقي لديّ عذرٌ دامغ.. ففي هذا البلد لن يألوَ المرءُ حجة أو عذرًا!».

كانت في غاية الإيجاز وهي تسرد لي ما مرّ بها طوال السنوات السبع المنصرمة. فأوردَتِ الحقائق المجرّدة بشكلٍ عام، ولم أكن لأجرؤ طبعًا أن أسألها عن أي تفصيل. أخبرتني بأنه، بعد رؤيتي لها في ذلك اليوم، اعتقلت هي ورفاقها وهم يوزّعون المنشورات في الشوارع: «لعلّك تذكرين تلك الأيام التي جُنّ فيها النظام وهو يلاحق «المجاهدين» ويقوم بتصفيتهم؟ لقد كنتُ محظوظة فعلاً، فقد أعدموا الكثير جدًا من أصدقائي، أما أنا فقد حُكِمَ عليّ حكمًا ابتدائيًا بالسجن عشر سنواتٍ فقط».

ـ «كنتِ محظوظة لأنه حُكِم عليك بعشر سنوات؟!».

ـ «بالتأكيد! ألا تذكرين قصة الطفلة ذات الاثني عشر عامًا؟ تلك التي أطلقوا عليها الرصاص وهي تدور راكضة في باحة السجن تصرخ وتنادي أمها؟ حسنًا.. لقد كنت معها هناك! وكنت أريد فعلاً أن أصرخ منادية أمي! لقد أعدموا الكثير من الفتية والفتيات الذين لم يتجاوزوا الثامنة عشرة. وكان من الممكن جدًا أن أكون واحدة منهم. ولكن في حالتي، كانت مكانة أبي الدينية قد حالت دون ذلك، ودفعَتْ عني السوء. كان لديه بعض الأصدقاء في اللجان، وفي الواقع كان أحد طلابه «حاج آغا». فتمّ استثنائي من أجل أبي، وعاملوني معاملة خاصة. وبعد مدّة، قلّصوا سنوات سجني العشر الى ثلاث سنوات فقط. ثم أطلقوا سراحي. وبقيتُ بعد ذلك زمنًا ممنوعة من استكمال دراستي، كنت إبان ذلك ولا زلت تحت المراقبة. ولم يسمحوا لي إلا مؤخرًا، قبل عام واحد فقط، بالالتحاق بالجامعة. وها إنني الآن هنا!».

فقلت: «مرحبًا بك من جديد، ومرحى لعودتك. ولكن تذكّري: لا زلتِ مدينة لي بورقةٍ بحثية!». كانت تحكي وهي تحاول أن تجعلني أتعامل بخفة مع قصتها المريعة، فحاولتُ باستحياء وحرج أن أتعامل معها على هذا الأساس.

لا زلتُ أستطيع أن أرى «مهشيد» بابتسامتها البورسلينية الهادئة، بينما ترمقها «نسرين» بنظرةٍ وسنى في الجوار ـ غالبًا ما كنتُ أُحسّ بأن «نسرين» لم تأخذ قسطًا كافيًا من النوم قبل ليلة ـ ولكنها ستثبتُ بعد حين بأنها أصبحتْ واحدة من أفضل وأذكى طالباتي.

إلى اليمين منهما، جلستْ طالبتان عضوان في جمعية الطلبة المسلمين نسيتُ اسميهما، ولتعذراني عن إزعاجهما بأن أختار لهما اسمين جديدين، ولنقل مثلاً: الآنسة «هاتف» والآنسة «روحي». أتذكر بأنهما كانتا دائمًا في قمة اللا انتباه. وبين الحين والحين كانت تلتفتُ إحداهما صوب الأخرى تهامسان وتتبادلان الابتسامات من تحت الجادور الأسود الذي لم يكن يُظهر سوى أنفٍ مستدقٌ لإحداهنّ وأنفٍ صغير للأُخرى.

وثمة شيء غريب يخصّ ارتداءهما الجادور، وقد لَحَظتُ ذلك لدى نساء كثيرات، خصوصًا هاتيك الأصغر سنًا؛ فلم أعد أرى في إيماءاتهنّ وحركاتهنّ أيًا من ذلك الخجل والانزواء الذي كنتُ أجده عند جدّتي. فقد كانت كلّ إيماءة لجدّتي تتوسّلُ وتأمر الناظر أو توحي له بأن يتجاهل وجودها أو أن يدعها وشأنها! طوال سنوات طفولتي وشبابي الأول، كان جادور جدّتي قد مثّل لي معنىً خاصًا جدًا؛ كان لي ملاذًا، عالمًا معزولاً عن كل العالم. أتذكّر تمامًا تلك الطريقة التي كانت تلفّ بها الجادور حول جسدها، والطريقة التي كانت تمشي بها لتذرع حديقتها حينما يتفتّح في الحديقة زهر الرمان. أما اليوم، فقد أفسدَ الجادورَ إلى الأبد ذلك المغزى السياسي الذي ألصق به. لقد أصبحَ باردًا متوعّدًا، ترتديه نساء مثل الآنسة «هاتف» والآنسة «روحي» باستخفاف كبير وعدم اكتراث.

دعوني أنتقل الى الفتاة الجميلة ذات الوجه العذب التي تجلس في الصف الأول؛ إنها «ميترا»، صاحبة الدرجات الأعلى دائمًا في الصف. كانت هادئة، ونادرًا ما تتفوّه بكلمة وقت المحاضرة، وإذا تحدّثتْ فإنها تعبّر عن نفسها بهدوء تام إلى حدّ أنني أحيانًا أفقد التواصل مع فكرتها. ولم أكتشف «ميترا» إلا عبر إجاباتها في أوراق الامتحان، ولاحقًا عبر جريدة الصف.

في الجانب الآخر من «ميترا»، في قسم الذكور، يجلس «حميد» الذي سيتزوّج من «ميترا» بعد زمنٍ قصير، ويدخلان معًا إلى عالم الحاسوب. طالب ذكي وسيم (يحلق ذقنه بعناية). أراه وهو يوزّع الابتسامات البهيجة ذات اليمين وذات الشمال ويتحدّث مع أصدقائه. ويجلس خلف «حميد» مباشرة، السيد «فرصَتي». أتذكّره دائمًا وهو يرتدي معطفًا بنيًا فاتحًا، وبنطلونًا غامقًا. أراه يبتسم هو الآخر، لكنني أكتشف بأن الابتسامة هي جزء من ملامح وجهه، وقد غلّفت ابتسامته لحية مشذّبة وغير مكتملة. ينتمي السيد «فرصَتي» إلى صنف جديد من الطلبة الإسلاميين الذين يختلفون جدًا عن السيد «بحري» بإخلاصه العظيم لمبادئ الثورة.

كان السيد «فرصتي إسلاميًا»، لكن كان واضحًا أنه لم يكن معنيًا بالمفاهيم التي تأسس عليها الجيل الأول من الطلبة الإسلاميين. وكان جلّ اهتمامه هو الوصول. لا يبدو أن لديه صداقات حميمة مع أحد من طلبة الصف، ومع ذلك لا بد من أن يكون هو الشخص الأقوى هنا، لأنه رئيس منظمة الجهاد الإسلامي، وهي واحدة من منظمتين طالبيتين هما الوحيدتين الشرعيتين في إيران. أما المنظمة الثانية فهي جمعية الطلبة المسلمين، وكانت أكثر تعصّبًا وتمسّكًا بمبادئ الثورة. بعد مدّة وجيزة، اكتشفتُ أنني إذا فكّرتُ بعرض فيلم فيديو في الصف أو بتنظيم حلقات حوار، كان عليّ أن أقنع السيد «فرصتي» بالتأثير على الإدارة لصالحي. وقد كان عادةً يفعل ذلك من أجلي بكل سرور».

ما أن أبتدئ الكلام حتى أتطلّع بشكل لا إرادي إلى الكرسي الأخير في الصف الأخير عند الجدار. فمنذ بداية الفصل الدراسي كنتُ أغتاظ وأستمتع في الوقت نفسه بالتصرفات العجيبة التي تصدر من تلك الزاوية من الغرفة. كان يشغل ذلك الكرسي فتىً طويل هزيل، دعونا نسمّيه السيد «قُمّي» كان ينبري فجأة في خضم المحاضرة، ليقف نصف وقفة، ومن دون أن ينتظر حتى يقف منتصبًا تمامًا أو حتى أسمح له بالحديث، يبدأ بتقديم اعتراضاته. كان كل ما يقوله اعتراضًا، أستطيع قول ذلك ملء فمي.

ويجلسُ إلى جانب السيد «قُمّي» طالب أكبر منه سنًا وأرصن، هو السيد «نهوي». كان يتحدّث بهدوء، وكان ذلك على الغالب لأنه واثق جدًا مما يقول، فلم يكن ثمة شك من الممكن أن يتسرّب من كلامه بشكل انفعال عابر. بالإضافة الى انه كان يتحدّث بوضوح وبرتابة وكأنه ينظر إلى كلماته وهي تتشكّل أمام عينيه. كان كثيرًا ما يتبعني إلى غرفة مكتبي، ليتحفني بمحاضراته. كانت في معظمها عن تفسّخ الغرب، وعن انعدام القيم والثوابت التي أدّت إلى انحطاط وأفول الحضارة الغربية. كان يجادلني في تلك التفاصيل بحتمية مطلقة

وعلى أنها حقائق لا جدال فيها. كان حينما أبدأ أنا بالحديث يصمتُ تمامًا وباحترام بالغ، وما أن أنتهي حتى يستأنفَ حديثه من حيث انتهى تمامًا وبالرتابة نفسها.

كانت هذه هي المرة الثانية فقط التي يحضر فيها السيد «قُمّي»، محاضرة لي. ففي النصف الأول من السنة، لم يكن يحضر، بحجة انه عضو في الميليشيا وبأنه مشغول بالمجهود الحربي. وبقيت طبيعة انشغاله بالمجهود الحربي شيئًا مبهمًا، فلم يكن مُجنّدًا ولم يكن يومًا في الجبهة. بيد أن الحرب كانت قد غدتْ حجة دامغة آنذاك لبعض النشطاء الإسلاميين، وكانوا يتكئون عليها لانتزاع امتيازات لا يستحقونها من إدارة الكلية.

رسب السيد «قُمّي» في الامتحانات النهائية للفصل الأول، وفاتتهُ معظم الاختبارات. وكان رغم كل شيء، مستاءً مني لأنني السبب وراء رسوبه. لم أكن أعلم بدقة ما إذا كانت كذبة الحرب قد غدَتْ جزءًا من حياته إلى حدّ أنه بدأ يصدّقها فعلًا، ولكن من الواضح انه كان متألّمًا بشكل حقيقي، حتى انني بدأت كلما واجهته أشعر بالذنب فعلًا من دون سبب واضح! لكنه كان قد بدأ ينتظم في الحضور الى حدٍ بعيد. وصرتُ كلما صادفتُ طلبةً مثله، أفتقدُ السيد «بحري» الذي كان يمتلك من الاحترام والتقدير للجامعة ما يمنعه تمامًا من استغلال مركزه ونفوذه.

عاد السيد «قُمّي» للمرة الثانية يتلكّأ عن الحضور، وكان في كل مرة يبتدع قصة جديدة عن اضطرابات سياسية طارئة. وقد قرّر أن يجعل «هنري جيمس» القضية الكبرى بيننا. فكان يرفع يديه مثل سهم كلما سنحَتِ الفرصة، ويروح يسأل، أو في الغالب يدلي باعتراضاته الصّارخة. أصبح «جيمس» هدفه المفضّل، واعتاد ألا يوجّه سؤاله لي بشكلٍ مباشر، بل بشكلٍ ملتوٍ بأن يوجّه الإهانات لـ«جيمس»، وكأنه كان يحملُ ضغينة شخصية تجاهه.

[15]

حينما اخترتُ تدريس «ديزي ميللر» و«ميدان واشنطن»، لم يخطر ببالي أن تصبح الآنسة «ميللر» والآنسة «كاترين سلوبر» ممّا قضية تستحوذ على النقاش وتثير الجدل إلى هذا الحد. لقد اخترتُ هاتين الروايتين من دون سواهما لإحساسي بأنهما أقرب إلى التقبّل من بعض روايات «جيمس» الطويلة التي كتبها بعد ذلك، وكنا قبل «جيمس» قد درسنا رواية «مرتفعات ويذرنغ».

ركّزتُ في مادة «مدخل إلى الرواية» على «التكنيك» الذي تعتمده الرواية بصفتها أسلوبًا سرديًا جديدًا، وكيف أنها تنقل إلينا بشكل راديكالي تلك المفاهيم الأساسية الخاصة بالعلاقات المثالية بين الأفراد، وبذلك تقوم بتغيير المواقف التقليدية لعلاقة الناس بالمجتمع، وحقوقهم وواجباتهم. ولا مكان يمكن أن يظهر فيه ذلك التغيير والتطوّر أوضح من ذلك الذي يكمن في العلاقات بين الرجال والنساء. كانت «كرستينا هارلو» و«صوفيا ويسترن»، وهما فتاتان متواضعتان مطيعتان، قد رفضتا الزواج برجلين لا تحبّانهما. وبسبب ذلك الرفض يتغيّر مجرى الأحداث، ويُفتح الباب للشك في أهم مؤسسة اجتماعية في عصرهما: وأعني مؤسسة الزواج.

كان لدى «ديزي» و«كاترين» قليل من الصفات المشتركة، بيد أن كلتيهما كانت تتحدّى تقاليد عصرها، وكلتيهما كانت ترفضُ أن تُملى عليها تصرفاتها. فهما تنتميان إلى قائمة طويلة من البطلات المتحدّيات، التي تشملُ «إليزابيث

بينيت» و«كاترين ايرنشو» و«جين آير». وقد خَلقَتْ كل واحدة من هاتيك النسوة العقدة الرئيسة للحبكة وذلك عبر رفضهنّ الإذعان. وهنّ أكثر تعقيدًا من بطلات القرن العشرين اللاحقات، الأكثر وضوحًا في تمرّدهن، لأنهنّ لا يدّعين الراديكالية.

بدتْ «ديزي» و«كاترين» مثيرتين جدًا للكثير من طلبتي العمليين الذين لم يفهموا سبب تصرفاتهما؛ فلماذا تتحدّى «كاترين» أباها وخطيبها معًا؟ ولماذا على «ديزي» أن تغيظ «وينتربورن» بهذه الطريقة؟ وما هو الشيء الذي أرادتْهُ هاتين المرأتين الصعبتين من رجُلَيهما المحتارين الذاهلَين؟ فمنذ اللحظة الاولى التي تظهر بها «ديزي» بمظلّتها الرقيقة وثوبها الأبيض من نسيج الموسلين، تخلقُ اضطرابًا وإثارة في قلب «وينتربورن» وعقله. فهي تقدّم نفسها له بصفتها لغزًا مُبهرًا، أحجية سهلة وعصيّة على الحل في آن واحد.

في نقطة ما من هذا النقاش، وبينهما أنا بصدد الدخول في شرحٍ أكثر تفصيلاً عن «ديزي ميللر»، يرفع السيد «قمّي» يده. أشعر بنبرة صوته مفعمةً بالاحتجاج، مما يزعجني ويضعني في وضع دفاعي. ويسأل: «ما الذي يدعو لاعتبار هاتين المرأتين ثائرتين إلى هذا الحد؟ و«ديزي ميللر» فتاة سيئة بشكل واضح جدًا، وهي رجعية ومتفسّخة. نحن نعيش في مجتمع ثوروي، ونساؤنا الثورويات هن اللواتي يتحدّين التفسّخ في الثقافة الغربية بأن يصبحنَ محتشمات، فهنّ لا ينظرنَ إلى الرجال».. ويواصل حديثه بنَفَسٍ واحد وبنوع من الغلّ الذي لا مبرّر له إذ نحن بازاء عمل أدبي. ويختم كلامه بالتبجّح بأن «ديزي» شريرة وتستحقّ الموت، وهو يتساءل كيف شعرت الآنسة «فاء» التي تجلس في الصف الثالث بأن الموت لم يكن الجزاء العادل لـ«ديزي»؟

يلقي السيد «قُمّي» خطابه القصير ويجلس بفرحة المنتصر، وهو يتطلّعُ حواليه ليرى هل من أحدٍ يتحدّاه. ولكن لا أحد يفعل ذلك.. إلاّي أنا.. طبعًا. فالكلّ يتوقّع أن آخذ تلك المهمة على عاتقي. كان السيد «قُمّي» يفلحُ دائمًا في

تغيير وحرف مسار الدرس. كنت أغضب منه جدًا في البداية، ولكنني مع مرور الوقت بتّ أجد أنه يعبّر عن عواطف وآراء الآخرين الذين لا يجرؤون على البوح بها.

وحينما أسأل الطلبة عن رأيهم بما طرحه السيد «قُمّي»، لا أحد يجيب. فيشجّعُه الصمتُ ليرفع يده من جديد، ويقول: «نحن أصحاب أخلاق أعلى لأننا خبرنا الشرّ الحقيقي، لأننا في حربٍ مع الشر، حرب في الوطن وأخرى خارج الوطن». وهنا تقرّرُ «مهشيد» الكلام، فتقول بهدوء: «لا تنسَ أن «جيمس» عاش حربين رهيبتين. فحينما كان صغيرًا كانت ثمة حرب أهلية في أميركا. وقد شهد قبل وفاته الحرب العالمية الأولى». فما كان من السيد «قمّي» سوى أن يردّ بهزة كتفٍ صغيرة ساخرة وهو يقول: «ربما كان «جيمس» يشعر بأنهما حربان غير دينيتين».

أرى نفسي جالسة بصمتٍ على الكرسي. صمت يبدو وكأنه متعمّد. أبقى جالسة في مكاني بعد انتهاء المحاضرة، وأنا عالقةٌ في فراغ الضوء المتسلل من الشبابيك الواسعة العارية من الستائر. وهي تحتلّ أحد جوانب القاعة. تأتي ثلاث من طالباتي ويتحلّقن حول طاولتي. تقول إحداهنّ: «نريدك أن تعلمي أن معظم طلبة الصف لا يتّفقون مع هؤلاء. فالناس تخاف الكلام. انها قضية مثيرة للجدل؛ فإذا قلنا الحقيقة، خفنا منه ومن تقاريره ضدّنا. وإذا قلنا ما يرغب هو بسماعه، فإننا نخاف منك! نحن جميعًا نقدّر ونحترم محاضراتك».

خطر ببالي وأنا أعود إلى بيتي مشيًا في ذلك اليوم، مثلما سيخطر ببالي دائمًا كلما استعدت ذلك الحوار: «نعم.. فعلاً.. أنتم تقدّرون محاضراتي.. ولكن هل تقدّرون «ديزي ميللر»؟».

[16]

إذا كانت لدى السيد «قُمّي» آراؤه الصارخة ضد «الديزي ميللرات» في العالم، فإن طلبة الصف كانوا متحيّرين بشأن بطل الرواية «وينتربورن». فباستثناء «بيت الدمية» لم يتعامل طلبتي مع عمل أدبيّ آخر بكل تلك الحماسة. وقد نبعَتْ تلك الحماسة بسبب شكوكهم وارتباكهم إزاء العمل. لأن «ديزي» لم تدعهم يحسمون أمرهم، بل لقد جعلتهم لا يميّزون بين الخطأ والصواب.

وذات يوم، في نهاية المحاضرة، حَضَرَتْ عند طاولتي إحدى الطالبات بخجل وتردّد. كانت تلك الطالبة من النوع الجبان؛ فكانت تجلس في الصفّ الأول وتوحي بطريقة ما بأنها مختبئة في مكان آخر في الظل في الصفّ الأخير. كانت تريد أن تعرف ما إذا كانت «ديزي» فتاة سيّئة، فسألتني ببساطة: «ماذا تعتقدين؟».

ماذا أعتقد؟! ولكن.. لماذا استفزّني سؤالها البسيط كل ذلك الاستفزاز؟ أنا واثقة الآن تمامًا من أن تردّدي وحرصي على عدم إعطائها إجابة قاطعة، بالإضافة إلى إصراري على أن الغموض هو مسألة جوهرية في البناء الروائي لـ«جيمس»، كل ذلك قد أحبط البنت تمامًا، وجعلني منذ تلك الحادثة أفقد شيئًا من تأثيري عليها.

فتحنا الكتاب على المشهد الحاسم في المسرح الكبير. «ديزي» تستخفّ بالتحذيرات وتتحدى أصول اللياقة، وتمضي لترى ضياء القمر مع السيد

«جيوفانيللي»، الإيطالي عديم الأخلاق الذي كان يلاحقها أينما ذهبَتْ، حتى اغتمّ وانزعج منه رجال ونساء بلدَتِها. ويكتشفهما «وينتربورن»، فتكشف لنا ردة فعله الكثير عن شخصيته هو، لا هي: «يتوقَّفُ «وينتربورن» بشيء من الرعب، وأيضًا، لا بد أن نضيف، بشيء من الارتياح! فيبدو أن اللغز لم يعد عصيًا على القراءة، ولن يكون على شابٍ مثله أن يحتملَ عناء وألم احترام شابة مثلها».

كانت ليلة «ديزي» في المسرح الكبير ليلة قاتلة بالنسبة لها لأكثر من سبب: فقد أُصيبَتْ بالحمى الرومانية التي ستؤدي بها الى الموت. بيد أن ردة فعل «وينتربورن» كانت قد أوحت لنا بحتمية قرب موتها. فقد أبدى للتو لا مبالاته، وحينما تعود للعربة كي تغادر، ينصحها بتناول دوائها ضد الحمى الرومانية، «فتقول «ديزي» بنبرة واطئة غريبة: أنا لا أبالي أيًا كان الأمر، إذا ما أُصِبتُ بالحمى أو لم أُصَبْ». لقد اتفقنا جميعًا في الصف بأن موقف الشاب من «ديزي» قد حدّد، رمزيًا، حتمية قدرها. فهو الشخص الوحيد الذي تعشق آراءه، وتسأله دائمًا عن رأيه بتصرفاتها. وكانت، من دون علمه، تعشق بشكل لاذعٍ وجريء فكرة أنه يبرهن لها تفانيه في حبّها بأن يتقبّلها كما هي، دون أن يلجأ إلى نصحها ووعظها، بل من دون شروط. ولكننا لسخرية القدر، نجد «ديزي» في آخر المطاف هي الأكثر اهتمامًا وهي التي تثبت إخلاصها وتفانيها بأن تموت.

ولكن ليس «وينتربورن» وحده الذي يشعر بالارتياح إذ يكتشف سرّ أحجية «ديزي». فلقد شاركه الكثير من طلبتي هذا الشعور بالارتياح! تساءلَت الآنسة «روحي» عن سبب عدم انتهاء الرواية بموت «ديزي»؟ وسألت: «ألم يكن هذا هو المشهد الأفضل للتوقّف؟». لقد بدا موت ديزي وكأنه النهاية السعيدة لكل من يهمه الأمر. وكان السيد «قمّي» يتأمل بإعجاب فكرة أنها نالت الجزاء العادل على خطاياها. ومعظم الآخرين لم يستطيعوا التعاطف معها. دون أن ينتابهم شعور بالذنب.

لكن لم تكن هذه هي النهاية. فالرواية تنتهي كما تبتدئ بـ«وينتربورن» وليس بـ«ديزي». ففي بداية القصة، نجد العمة وهي تحذّره أنه في خطر، وأنه على أعتاب ارتكاب خطأ يتعلّق بـ«ديزي». كانت تعني بأنه قد ينخدع بها. وها هو الآن، بعد موت «ديزي»، يذكّر عمته بسخرية: «لقد كنتِ على حق في تحليلك لي في الصيف الماضي، لقد حجزتُ تذاكري صوب ارتكاب الخطأ، ولقد عشتُ في الأماكن الغريبة أكثر مما يجب». كل ذلك لأنه لم يقدّر «ديزي» حقّ قدرها.

في بداية الرواية، يحدّثنا الراوي عن إشاعة مفادها أن «وينتربورن» متعلّقٌ بامرأة غريبة، وها هي تنتهي بأن تدور بنا دورة كاملة لتنتهي من حيث ابتدأنا، وبالجملة ذاتها: «ومع هذا، فقد عاد مرة أخرى ليعيش في جنيف، حيث سيواصل من هناك تقديم تقديراته الأكثر تناقضًا لدراسة الدوافع وراء إقامته المؤقتة. وهو أمر يحاول دراسته بجدية، ناهيك عن مشاعره الشخصية التي تفيد بأنه على علاقة بامرأة أجنبية في غاية الذكاء».

هنا يكون القارئ الذي كان متفقًا تمامًا مع البطل حتى هذه اللحظة، قد وجد نفسه وحيدًا في العراء. فقد حملّنا «جيمس» إلى الاعتقاد بأن «ديزي»، مثلها مثل الوردة التي سمّيَتْ باسمها، إنما هي موضوع عرضي عابر وجميل. ولكن حتى هذا الاستنتاج ليس هو الحقيقة الكاملة. لأن نبرة الراوي تقودنا في النهاية الى الاعتقاد، أو الشك، بأن «وينتربورن» لن يتمكن يومًا من رؤية الحياة كما كان يراها سابقًا. فلا شيء سيبقى على حاله: لا بالنسبة لـ«وينتربورن»، ولا للقارئ غير المستريب. كان هذا ما توصّلتُ إليه بعد ذلك بزمن طويل، حينما عاد طلبتي السابقون إلى أخطائهم حول «ديزي» في كتاباتهم وحواراتهم.

[17]

ذكّرتني صديقتي «مينا» بأنه: «في «المُلهِمة التراجيدية» يوضّح لنا «جيمس» بأن هدفه من الكتابة هو تقديم الفن على أنه تعقيد إنسانيّ وحجر عثرة اجتماعية، وهذا ما يجعل أعمال «جيمس» عصيةً على الفهم».

أستطيع القول بأن «مينا» عالمة مختصّة بـ«جيمس». وكنت قد حدّثتها سابقًا عن الصعوبات التي يواجهها طلبتي مع «ديزي ميللر». فقالت بشيء من القلق: «أرجو ألا تكوني بصدد إلغاء «جيمس» من المنهج لكونه صعبًا جدًا». فأكّدتُ لها بأنني لا أنوي ذلك مطلقًا، وعلى أية حال، فإن مشكلة طلبتي مع «جيمس» هي أنه يجعلهم يشعرون بعدم الارتياح، وليست مشكلتهم أنهم لا يفهمونه.

وأضفت بأن مشكلتي لم تكن كبيرة مع طلبة من أمثال السيد «قُمّي»، وهم يقفون ببلادة بالضد من الالتباس والغموض. لكن مشكلتي هي مع الطلبة الآخرين الذين هم في الواقع ضحايا موقف «قُمّي» غير الغامض صوبهم. أعني أن أشخاصًا مثله يلجأون دائمًا إلى الهجوم لأنهم يخشون مما لا يفهمونه. فما يقولونه هو أننا لسنا بحاجة إلى «جيمس»، لكن ما يقصدونه هو: «أننا خائفون من هذا الذي يدعى «جيمس»، فهو يربكنا ويحيّرنا ويجعلنا نشعر بعدم الارتياح».

أخبرتني «مينا» بأنها كانت حينما ترغب بأن تشرح مفهوم الالتباس في الرواية، فإنها تلجأ إلى حيلة الكرسي. فبدأتُ محاضرتي التالية بأن التقطتُ

كرسيًا ووضعته أمامي. وسألتُ طلبتي: «ماذا ترون أمامكم؟». فأجابوا: «كرسيًا». ثم قلبتُ الكرسي رأسًا على عقب: «والآن، ماذا ترون أمامكم؟». فأجابوا: «كرسيًا». ثم أعدتُ الكرسي إلى وضعه الصحيح، وطلبتُ من بعض الطلبة أن يقفوا في أماكن مختلفة في زوايا القاعة. وطلبتُ من الواقفين والجالسين أن يصفوا لي الكرسيّ ذاته: «أترون؟ هذا كرسي». ولكنكم حينما تأتون على وصفه فإنما تفعلون ذلك وفقًا لمنظوركم الخاص من حيث تقفون أو تجلسون. وإذًا، هل بإمكانكم القول بأن ثمة طريقة واحدة فقط لرؤية كرسيّ ما؟ كلا مطلقًا.. فإذا لم يكن بالإمكان قول ذلك عن شيء في غاية البساطة مثل كرسي، فكيف يمكنكم بحال أن تمرّروا حكمًا قاطعًا عن شخص ما، أيًا كان ذلك الشخص؟

في محاولة مني لتشجيع الغالبية الصامتة من طلبتي على مناقشة أفكارهم وآرائهم بحرّية، طلبتُ منهم كتابة انطباعاتهم حول الكتب التي كنا ندرسها، وذلك بشكل مذكرات يومية. وقد سمحت لهم بالكتابة بحرية تامة عما يشاؤون من أحداث أو تجارب شخصية أُخرى، شرط أن يكون موضوع العمل الأدبي إلزاميًا. كانت الآنسة «روحي» مهتمة جدًا بوصف الحبكة، مما يؤشّر على الأقل إلى أنها كانت تقرأ الكتب المقررة فعلاً. وفي حالات خاصة، كانت تقرأ كتبًا عنها أيضًا، بيد أنها نادرًا ما كانت تعبّر عن وجهة نظرها الخاصة. فمثلاً، كتبتْ ذات مرة أنها كانت قد اعترضَتْ على «مرتفعات ويلدرنغ» لأنها وجدتها «لا أخلاقية»، حتى قرأتْ في كتابٍ ما عن أوجه الغموض في تلك الرواية. ولكنها وجدت بأن ذلك لا ينطبق على كتابات «جيمس». فلا علاقة للغموض بـ«جيمس». بل هو أرضيٌّ جدًا، حتى حين يحاول أن يكون مثاليًا.

كانت دفاترها مرتّبة دائمًا، وكانت في كل واجبٍ بيتي تكتب في أول السطر: بسم الله الرحمن الرحيم، بخطٍّ رائع. كتبت ذات مرة عن «ديزي» وهي تصفها بأنها ليست «لا أخلاقية» فحسب، وانما هي «لا منطقية» أيضًا. ولكن لا بد لنا

أن نعلم بأنه حتى في المجتمعات المتفسّخة مثل المجتمع الأميركي، ما زال ثمة اعتبارات وتقاليد، وثمة معايير يحكم من خلالها على الناس. وقد استشهدَت بقول أستاذٍ آخر يشعر بالأسف لأن بعض الكتّاب يجعلون من شخصياتهم اللاأخلاقية واللامنطقية شخصياتٍ تثير القارئ وتجعله يتعاطف معها فطريًا. وقالت بأنها تشعر بالأسف هي الأخرى وتتعجّب كيف لسيدتين مثل السيدة «كوستيللو» والسيدة «ووكر»، وهما تتمتّعان برجاحة العقل، أن تسقطا في ذلك المطب السالب نفسه؟ وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على قدرة الكاتب الشيطانية والربانية معًا. فكاتب مثل «جيمس» ـ بحسب «روحي» ـ يمتلك طاقات وقدراتٍ لا حدّ لها، بيد انه كان يستخدمها لفعل الشر؛ فيجعل القارئ يتعاطف مع امرأةٍ خطّاءة مثل «ديزي»، ويجعله ينفرُ ممن هم أكثر عفة وأقرب منها للفضيلة مثل «ووكر».

فعلًا، لقد شربت الآنسة «روحي» من الكأس التي شرب منها شخص مثل السيد «نيازي»، وآخرون كثيرون.

أما السيد «قُمّي» فقد كان واضحًا وصادقًا تمامًا: فهو لم يبدِ إلا نادرًا أي إشارة تعلن بأنه قد قرأ الروايات. كان يرعد ويزبد حول الشر واللاأخلاقية، ليس أكثر. وراح يأخذ على عاتقه مهمة تثقيفي بكتابة مقتطفات من أحاديث للإمام الخميني ولآخرين من العلماء البارزين. وكانت معظمها تتركز حول مهمة الأدب أو تفسّخ الغرب أو حتى حول «سلمان رشدي». وكان يمرّر في دفتر ملاحظاته كل حين قصاصات من الصحف تضمّ تقارير عن الجريمة والفساد في أميركا. ومرّ أسبوع، كان يشعر فيه بالإحباط إلى حدّ أنه لجأ إلى استخدام الشعارات التي كانت تملأ الشوارع! وكان أحدها ـ وهو ما أحببته أنا شخصيًا ـ يقول: «المرأة محميّة في الحجاب، مثل اللؤلؤة المحمية في الصَدَفَة». حينما ظهر هذا الشعار كان مصحوبًا بمُلصَق لصَدَفَة قاسية تتلامع لؤلؤة جميلة في داخلها.

أما السيد «نحوي»، الصديق الأكبر سنًا، فقد كتب بحوثًا فلسفية عن خطر

الشك وعدم الإيمان. وكان يتساءل: «أليس عدم الإيمان هو السبب الرئيس لانهيار الحضارة الغربية، في الوقت الذي كان «جيمس» أحد الذين أحدثوا ضجة كبيرة حول عدم الإيمان؟!». كان السيد «نحوي» مثله مثل كثيرين سواه، يتعامل مع بعض الأمور على أنها ثوابت لا جدال فيها، وكان من بينها فساد الغرب. فكان يتحدّث ويكتب وكأن ذلك الانهيار كان حقيقة مطلقة مسلّم بها ولا يعترض عليها حتى الغربيين الكفرة. وكان بين الحين والحين يسلّمني ملاحظاته وقد دسّ بينها كرّاسة أو كتيّبًا مثل «الأدب وارتكاب المعاصي» أو «مفهوم الأدب الإسلامي» أو ما شاكل من عناوين.

بعد سنوات، في صفي الخاص في صباحات الخميس، عدنا ذات يوم للحديث عن «ديزي ميللر». فعبّرت لي كل من «مهشيد» و«ميترا» عن أسفهما البالغ على صمتهما في تلك الأيام. واعترفَتْ «ميترا» بأنها كانت تحسد «ديزي» على شجاعتها. فكان غريبًا ومؤثرًا فعلاً أن أسمع حديثيهما عن «ديزي» وكأنها صديقة أو قريبة، كأنهما أخطأتا بالحكم على شخص حقيقي!

ذات يوم، وأنا أهمّ بمغادرة قاعة الدرس، رأيت السيدة «رضوان» تمشي عائدة إلى مكتبها. فتقدّمَتْ إليّ وقالت: «تصلني باستمرار تقارير مثيرة عن محاضراتك».. فهي تحصل على التقارير فعلاً بشكل دائم عن كل صغيرة وكبيرة. وواصلَتْ: «أتمنى أن تصدّقيني الآن حين أحدّثك عن الحاجة الماسة لأن نضع شيئًا في رؤوس هؤلاء الفتية والفتيات، لقد أفرغَت الثورة رؤوسهم من كل أشكال التفكير. ومع الأسف، ليست نخبتنا الثقافية ـ زبدة المجتمع ـ بأفضل حال منهم».

قلت لها إني لا زلت غير مقتنعة بأن الطريقة المثلى للتعامل مع هذا الأمر هي عبر الجامعات. وكنتُ أفكر أننا ربما نستطيع أداء المهمة بشكل أفضل إذ نكوّن جبهة موحّدة مع مثقفين من خارج الجامعة. فرمقتْني بنظرة بطرف عينها وقالت: فعلاً.. يمكننا أن نفعل ذلك أيضًا، ولكن ما الذي يجعلك تعتقدين

بأنك ستحرزين نجاحًا أكبر؟ فليست نخبتنا المثقفة على أية حال بأفضل حالٍ من رجال الدين. ألم تسمعي بالحوار الذي دار بين السيد «دوائي»، أهم روائيينا، وبين مترجم رواية «ديزي ميللر»؟ ذات يوم، عرّفوا أحدهما على الآخر فقال الروائي:

ـ «اسمك مألوف، ألست مترجم «هنري ميللر»؟».

ـ «كلا، «ديزي ميللر»»..

ـ «فعلاً، «ديزي ميللر»، إنها رواية لـ«جيمس جويس».. أليس كذلك؟».

ـ «بل «هنري جيمس»»..

ـ «آه.. نعم.. طبعًا.. بالمناسبة؛ ما هو جديد «هنري جيمس» هذه الأيام؟».

ـ «لقد توفي.. الواقع أنه توفي عام ١٩١٦».

[18]

قلت للساحر إن أفضل ما يمكنني أن أصف به صديقتي «مينا» هو بأن أستعير عبارة «لامبرت ستريثر»، بطل رواية «السفراء» لـ«جيمس»، التي استخدمها في وصف نفسه لحبيبته وتوأم روحه «ماريا غوستري»، إذ يقول لها: «أنا فشل كامل الدسم»! فسأل الساحر: «ماذا؟ فشل كامل الدسم؟». وأجبت: «نعم.. وهل تعلم ما قالته له؟».

ـ «حمدًا لله أنك «فاشل»، هذا ما يجعلني أميزك جدًا عن سواك. كل ما عدا ذلك فظيع هذه الأيام. أنظر حولك، أنظر الى الناجحين. أستحلفك بشرفك، هل يعجبك أن تكون واحدًا منهم؟». وواصلَتْ حديثها: «ثم، ناهيك عن ذلك كله: انظر إليّ أنا».

ولهذا التقَتْ عيناهما بعض الوقت، وردّ «ستريثر»: «آه، أرى أنك أيضًا خارج دائرة النجاح».

فأكّدتْ: «إن التفوّق الذي تلمسهُ فيّ هو الذي يعلن عن لا جدواي». ثم تنهّدتْ قائلة: «آه لو أنك فقط تدرك أحلام الشباب! إن واقعنا هو الذي جمعنا معًا، وإن نحن الا رفيقَيْ سلاحٍ مدحورَين!».

قلت لساحري: «سأكتبُ ذات يوم مقالاً بعنوان «أصحاب الفشل كامل الدسم». وسأتطرق فيه لذكر أهميتهم في الرواية، وخصوصًا الرواية الحديثة. فأنا أعتقد بأن هذه الصفة هي شبه تراجيدية، أو ربما أقرب إلى الكوميدية

وأحيانًا تدعو للشفقة، أو كلها معًا. قد تتبادر إلى أذهاننا ونحن بهذا الصدد شخصية «دون كيخوته»، ولكنها شخصية حديثة أصلاً، ولدت وتكوّنت في زمنٍ كان يُحتفى به بالفشل بطريقة ما. دعني أستعرض الشخصيات: لدينا «بنن» و«هيرزوغ» وربما حتى «غاتسبي»، ولكن لا، فهو لا يختار الفشل على أية حال. إن معظم الشخصيات الأثيرة عند «جيمس» و«بيللو» تقع ضمن هذا الإطار. فهم أشخاصٌ يختارون الفشل وهم بكامل وعيهم من أجل الحفاظ على مفهومهم الخاص عن الاستقامة والكمال أو المبادئ. يمكن اعتبارهم نخبويين أكثر من كونهم استعلائيين، وذلك نظرًا لمستوياتهم ومقاييس اختياراتهم العالية. أعتقد بأن «جيمس» كان يشعر بأنه واحد من هؤلاء، برواياته غير المفهومة وبإصراره على الالتزام بذلك النوع من الأدب الذي كان يراه صحيحًا. وهكذا هي صديقتي «مينا» أيضًا، وصديقك «رضا». طبعًا ومن دون أدنى شك فإنك أنت أيضًا واحد منهم، ولكنك لست خيالاً، ولا شخصية روائية. أم تراك كذلك؟».

فقال لي: «في الحقيقة، في هذه اللحظة، يبدو أنني نموذجٌ من صنع خيالك».

أعتقدُ بأنني اخترتُ «مينا» من دون سواها نموذجًا للفشل كامل الدسم حينما التقيتُ بها لأول مرة بعد الثورة، في واحد من آخر اجتماعات القسم التي حضرتها في جامعة طهران. كنت متأخرة، وعند دخولي رأيت امرأةً متشحة بالسواد، تجلس إلى يمين رئيس القسم مقابل الباب. بدتْ عيناها فاحمي السواد مثل ثوبها وشعرها القصير الكثيف، ولم تبدُ مهتمة بالجدل العدواني الذي كان يدور حولها. لم تكن تبدو هادئة بقدر ما كانت تبدو منسحبة ومشغولة بما في داخلها. فـ«مينا» واحدة من أولئك الناس ذوي الأمانة والنزاهة التامة التي لا تتزحزح، ولذا فهم غالبًا يكونون صعبي المراس ومعرضين للأذى في الوقت نفسه. هذا ما أذكره من انطباعي عنها في ذلك اليوم حالة رُقيّ في

أفول، أو جوًا من عزّ قديم بقيَ عالقًا بكل ما كانت ترتديه. ومنذ تلك النظرة الأولى وحتى لقائنا الأخير بعد سنوات طويلة، ظلّ يستبدّ بي احساسٌ متناقضٌ كلما التقيتها: إحساسٌ بالاحترام العميق وبالأسى. فلم أكن أستطيع احتمال ذلك المعنى القدري الذي يغلّف حياتها، وكل ما عانته وتقبّلته على أنه نصيبها في الحياة.

تحدثتْ «فريدة» والدكتور «أ» كثيرًا عن «مينا»: عن كفاءتها، والتزامها بالأدب وبعملها. كانت «فريدة» إنسانة معطاءة، مما جعلها متفتحة العقل والنفس مع بعض الناس حتى وإن كانوا خصومًا أيديولوجيين، على الرغم من تعصبها الأعمى لما تسميه الثورية. وكانت تلتقط بالغريزة أولئك الأشخاص المتمرّدين الأصلاء، من أمثال الدكتور «أ» أو «مينا» أو «لالة» وهم على خلاف تام مع معتقداتها ومبادئها السياسية. وعلى هذا الأساس جاء تعاطفها مع «مينا»، وأرشدتْها غريزتها إلى محاولة مساندتها ومواساتها على الرغم من أن «مينا» كانت على خلاف معها في كل شيء تقريبًا.

كانت «مينا» في الولايات المتحدة في إجازة دراسية في جامعة بوسطن أمدها سنتان، لإنجاز كتاب. وكانت في خضم العمل حينما استُدعيَتْ للعودة إلى إيران. استلمَتْ إنذارًا وعادت على إثره للوطن، وكان هذا، برأيي، هو أهم خطأ ترتكبه.

كان كتابها عن «هنري جيمس»، وقد درستْ تحت إشراف «ليون ايدل». وعندما رأيتها أول مرة، كانت تجد صعوبة بالغة، بل وتبذل جهدًا إذ تحاول ان تلفّظ جملة بسيطة. ولم تعد للتدريس مرة أخرى طبعًا؛ بل لقد عادتْ إلى إيران لتُفصل. فقد رفضتْ أن ترتدي الحجاب أو أن تقدّم أي تنازل أو مساومة. وكان تنازلها الوحيد هو العودة التي ربما لم تكن تنازلاً وإنما اضطرار لا مناص منه.

كان والد «مينا» شاعر البلاط، وهي من عائلة ميسورة ومثقفة. وحين كنا صغارًا، كانت عائلتي وعائلتها تخرجان معًا في نزهات نهاية الأسبوع. ولأن

«مينا» أكبر مني، لم تكن تتحدّث إليّ في تلك التجمعات العائلية، لكنني أتذكرها بشكل ضبابي. أستطيع أن أجد صورًا قديمة لها عندي من أيام الطفولة. أراها في إحدى الصور وهي تقف في حديقة بيتهم خلف والدها، ومعهما أحد أعمامها، وأبي، وشاب لا أعرفه. تبدو كئيبة وقد اصطبغ وجهها بابتسامة مقحَمة.

حاولنا أنا و«فريدة» أن نعبّر لـ«مينا» عن تقديرنا الكبير لها، وعن غضبنا الشديد من الجامعة التي لم تعطِها حق قدرها. استمعَتْ لنا من دون أن يبدرَ منها أي تعبير، لكن من الواضح أنها كانت مسرورة لذلك. كان أخوها الأقرب الى قلبها رئيسًا لواحدة من كبريات الشركات في البلد. وكان قد اعتُقِلَ في بداية الثورة. فقد كان، بخلاف الكثيرين سواه، قد رفض تقبّل النظام الجديد. وعلى الرغم من أنه لم يكن ناشطًا سياسيًا، إلا أنه يؤيّد النظام الملكي، وكان، مثله مثل أخته يعبر عن آرائه بصراحة ومن دون خوف، حتى وهو في السجن. كان شخصًا متغطرسًا، وكانت هذه التهمة وحدها تكفي لإدانته، فأُعدم. ولم تعدْ «مينا» ترتدي في تلك الأيام سوى السواد، وبدا أنها كانت تكرّس معظم وقتها للعناية بأرملة أخيها وأطفاله.

ذهبنا لزيارة «مينا» أنا و«فريدة» ذات يوم، وكلتانا كانت تحمل بين يديها باقة كبيرة من الزهور. كانت تسكن مع والدتها في قصرٍ في غاية الضخامة. كان يومًا مشمسًا، لكنني أحسستُ بأن النهار انقضى ما أن دخلنا إلى القاعة الأمامية الضخمة المعتمة حتى فتحت لنا والدتها الباب. كانت تعرف أهلي فقصَّت بعض الوقت تحدِّثني عنهم، ولكنها انسحبتْ فجأة، ولكن بلباقة عالية، ما أن أحسّت بوقع أقدام ابنتها وهي تهبط درجات السلّم الدائري. كنا نقفُ أنا و«فريدة» أسفل السلم، بباقتي زهورنا الملوّنة، وملابسنا الباستيلية الفاتحة. فبدونا في غاية الإشراق والألق أمام عتمة الأسى والوجوم الذي عمّ ذلك البيت، وهو يسحب كل شيء لينطوي تحت ظلّه.

كان تعبير «مينا» عن سرورها وتقديرها لزيارتنا مهيبًا. فبدتْ رغم كآبتها سعيدة بوجودنا، وقادتنا إلى غرفة الطعام التي كانت على شكل نصف دائرة واسعة جدًا. بدت الغرفة وكأنها تشكو هي الأخرى، مثل أرملة تخرج للناس أول مرة من دون زوجها. فكانت شبه خالية من الأثاث، وكانت ثمة أماكن فارغة كثيرة لا بد من أنها ضمّتْ في السابق بعض الكراسي والطاولات، و.. البيانو.

دخلتْ والدة «مينا»، وهي سيدة وقورٌ في أواخر الستينات من العمر، وهي تحمل صينية فضية فيها أكواب شاي زجاجية أنيقة ذات مقابض فضية منقوشة. كانت والدتها طباخة رائعة، ولذا فقد كان الذهاب إلى بيتهم يعني دائمًا وجود وليمة فاخرة. ولكن في ذلك اليوم، لم تكن إلا وليمة حزن، لأن لا طعام فاخرًا ولا سواه كان يمكنه أن يجلب شيئًا من الفرح لهذا القصر المهجور. كان الكرم البالغ الذي أبدته «مينا» ووالدتها، وجهودهما لتشعرانا بالترحيب، قد أكّد من جديد فداحة إحساسهما بالخسارة التي كانتا تجهدان لإخفائها.

كان هوس «مينا» الحقيقي هو الواقعية في الرواية، وحبها الحقيقي كان «جيمس». وكانت معرفتها في ذلك السياق شاملة عميقة. كنا دائمًا نغبطُ إحدانا الأخرى وتكمّلها؛ فقد كانت وجهات نظري غالبًا انفعالية متهوّرة وغير منظمة، أما هي فقد كانت معلوماتها جوهرية وفي غاية الدقة. كان من الممكن أن نجلس ساعات بأكملها نتناقش ونتحدّث. وكنا، نحن الثلاثة أنا وهي و«فريدة»، غالبًا ما نلتقي لنتحدث معًا ساعات طوالا في الأدب والسياسة، فأحيانا يأخذنا الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل. كان ذلك طبعًا قبل أن تختفي «فريدة» لتختبئ، ثم تلتحق بمجموعتها الثورية، لتفرّ بعدها هاربة إلى كردستان ثم إلى السويد.

كانت «فريدة» و«مينا» تقفان على طرفي نقيض حينما يتعلّق الأمر بالسياسة، فإحداهما ماركسية مخلصة والثانية ملكيّة متزمتة. وقد جمعهما معًا حقد لا حد

له على النظام الحالي. وحين أتأملهما، وأتأمل مواهبهما التي كانت تذهب أدراج الرياح، أزداد استياءً وغضبًا على نظام حرص على تصفية أفضل أبنائه وأكثرهم إخلاصًا، أو أنه في أحسن الأحوال، دفعهم إلى هدر أفضل طاقاتهم، ليحوّلهم إلى معارضين متطرّفين مثل «فريدة»، أو الى نُسّاك مستوحدين مثل «مينا» والساحر. فينسحبون، أو ينوؤون بحمل أحلامهم الموؤودة. فما الذي يمكن أن تحققه «مينا» بلا معشوقها «جيمس»؟

[19]

في أواخر شتاء ١٩٨٨ وأوائل الربيع من العام نفسه، استؤنفَت الغارات الجوية على طهران بعد حقبة هدوء طويلة نسبيًا. لا أستطيع أن أتذكر تلك الأشهر ولا تلك الصواريخ المائة وثمانية وستين التي قُصِفَتْ بها طهران من دون أن أتذكر ذلك الربيع ورقته الاستثنائية. تصادف أن يضرب العراق مصفاة نفط طهران ذات يوم سبت. فأثار الهجوم المخاوف القديمة والقلق الذي كان يساور الناس منذ أكثر من سنة، حين سقط آخر صاروخ على المدينة.

ردّت الحكومة الإيرانية بقصف بغداد. وفي يوم الاثنين التالي، بدأ العراق جولته الأولى من الهجمات الصاروخية على طهران. أما ما تبع ذلك من قسوة وشدّة، فقد استحال عندي إلى رمز لكل ما خبرته من تجارب عبر السنوات التسع التي سبقته: لقد كانت قسوة تلك الأيام هي القصيدة العصماء التي تختصرُ معاناتي.

قرّرنا، بعد الهجوم الأول، أن نثبّت الشريط اللاصق على زجاج ونوافذ بيتنا. في البدء نقلنا الطفلين للنوم في حجرتنا، مع تحصينات إضافية للشبابيك بأن غطيناها ببطانيات سميكة وشالات. ثم نقلناهما إلى الممر الصغير الخالي من الشبابيك خارج غرف النوم، وهو المكان الذي شهد معاناتي مع الأرق ومواعيدي الساهرة مع «جيمس» و«نابوكوف». فكرنا جدّيًا في مغادرة طهران أكثر من مرة، لكننا لم نفعل. وذات يوم، أو ذات نوبة انفعالٍ محموم، قمنا

بتنظيف وتهيئةِ غرفة صغيرة قرب مرأب السيارة، أصبحت غرفة مكتبي فيما بعد، وحصّنا شبابيكها لننام فيها. لكننا سرعان ما عدنا لننام ثانية في غرف نومنا. وحدثَ أن أغدو أكثر هدوءًا من الجميع، بعد أن كنتُ أكثرهم رعبًا في الهجمات الأولى على طهران، وكأنني كنتُ بذلك أكفرُ عن مواقفي وتصرفاتي السابقة.

في الليلة الأولى للقصف، ذهبنا مع بعض الأصدقاء لمشاهدة فيلم وثائقي أعدّهُ التلفزيون الألماني عن حياة المخرج الروسي المنفي الراحل «أندريه تركوفسكي» في ذكرى وفاته. كان مهرجان الفجر السنوي للأفلام (مهرجان طهران سابقًا) يقدم عروضًا خاصة لأفلام «تركوفسكي»، في محاولة لمغازلة المثقفين واسترضائهم. كان الناس يقفون صفوفًا طويلة خارج دار العرض، ويضطرون للانتظار ساعاتٍ قبل فتح شباك التذاكر، على الرغم من أن الأفلام كانت خاضعة لرقابة شديدة وكانت تعرضُ بلغتها الروسية الأصلية ومن دون ترجمة. كانت التذاكر تباع في السوق السوداء بأضعاف قيمتها الحقيقية، وغالبًا ما كانت تحدث مشاجرات ومعارك بين الجمهور عند الدخول، وخصوصًا بين أولئك الذين كانوا يتجشّمون عناء السفر من الأقاليم البعيدة فقط لأجل هذا الامر.

كان السيد «فرصتي» قد أتاني بعد إحدى المحاضرات قائلاً بأنه حصل على تذكرتين إضافيتين لعرض فيلم «التضحية» لـ«تركوفسكي»، وهو فيلم كنت قد أبديت بعضَ الاهتمام لحضوره. وإذ كان السيد «فرصتي» رئيس تنظيم «الجهاد الإسلامي»، وهو واحد من تنظيمَين إسلاميّين أسسه الطلبة في الجامعة، فقد كان من السهل عليه الحصول على تذاكر نادرة من هذا النوع. قال لي بأن هوس «تركوفسكي» قد استشرى بشكل عجيب، حتى أن وزير النفط وعائلته قد حضروا أحد العروض، فالناس متلهفون لمشاهدة الأفلام. قال لي ضاحكًا بأنه كلما قَلّ فهم الجمهور للفيلم، كلما زاد احترامهم له. فقلت له إذًا، في هذه

الحالة، لا بد لك أن تعشق «جيمس». فأجابني بمكر: «إن الأمر مختلف هنا، فالناس تحترم «جويس» مثلما تحترم «تركوفسكي»، وتنظر إليهما النظرة ذاتها. أما في حالة «جيمس»، فهم يعتقدون بأنهم يفهمونه، أو أنهم لا بد لهم من أن يفهمونه، ولذا فهم يغضبون فقط! فمعضلتهم مع «جيمس» تتجاوز بمراحل معضلاتهم مع كتّاب آخرين مثل «جويس» من الواضح انهم أصعب منه بكثير».

ثم سألتُ السيد «فرصتي» ما إذا كان سيحضرُ أحد هذه العروض. فأجابني بأنه فعلاً ذاهب لمشاهدة «تركوفسكي»، فقط ليكون رومانيًا في روما، أما عدا ذلك فهو يفضّل «توم هانكس» أكثر بكثير.

كان المساء شتويًا معتدلاً حين ذهبتُ لمشاهدة فيلم «التضحية». لم يكن شتويًا تمامًا، كان مزيجًا من الشتاء والربيع معًا. بيد أنه لم يكن الجو البديع هو ما جعل ذلك اليوم مميزًا فعلاً، ولا الفيلم نفسه، وإنما حشود الناس التي تجمهرَتْ أمام دار العرض. لقد بدا الأمر وكأنه تظاهرة احتجاجية. ضمّ الحشدُ خليطًا من المثقفين والموظفين؛ ربّات بيوت مع أطفالهنّ الصغار.. رجل دين شاب يقفُ منزعجًا في إحدى الزوايا. لقد كانت خلطة بشرية عجيبة لا يمكن أن نجدها معًا في مكان واحد في طهران.

في داخل القاعة، أحدثَ انفجار الشاشة بالألوان البرّاقة المضيئة صمتًا مطبقًا عمّ الجمهور. لم أكن قد حضرتُ فيلمًا في دارٍ للسينما منذ ما يربو على خمسَ سنوات: فكل ما كان يعرضُ في طهران في تلك الحقبة لم يتعدَ أن يكون أفلامًا ثوروية قديمة من أوروبا الشرقية، أو أفلامًا إيرانية تعبوية أو دعائية. ولذا لا يمكنني أن أقول رأيي بصدق عن الفيلم. فتجربة الجلوس في قاعة عرض، وأنا متوّجة فوق مقعدٍ من الجلد الوثير البارد، وأمام ناظريّ شاشة من الألوان بأكبر حجم، كان ذلك كلّه مذهلاً وكافيًا ليجعلني أحسّ بمتعةٍ ما بعدها متعة! كنت متأكدة أنني لن أفهم الحوار بالروسية، ومتأكدة أن غضبي سيحرمني من متعة المشاهدة إذا فكرت بما حذفتْهُ الرقابة، ولذا فقد أسلمتُ نفسي لسحر الألوان وروعة المشاهد.

وإذ أستعيد تفاصيل تلك الأيام تلوح لي أن تلك النشوة والهوس بـ«تركوفسكي» وقد بدرَتْ من جمهور لا يجيد معظمه حتى أن يتهجّأ اسمه، أو أنه لم يكن ليلتفتَ إليه أو يثيرهُ في الظروف الطبيعية، إنما عائدٌ إلى أننا كنا نعاني من حرمانٍ حسّيّ شديد. كنا نتوقُ لأيّ شكلٍ بسيط من أشكال الجمال، حتى وإن كان عبر مشاهدة فيلم تجريدي معقّد، غير مفهوم وغير مُترجَم، بالإضافة إلى الرقابة التي جرّدَتْهُ من بعض المشاهد ففقَدَ أي علاقة بمعناه الأصلي. كان قد ساد شعورٌ بالدهشة بأن يكون الناس معًا في مكانٍ عام، من دون خوف أو غضب؛ أو ضمن حشدٍ كبير من الغرباء الذين لم يتجمعوا للتظاهر، أو للمشاركة في مسيرة احتجاجية أو طابور خبز، أو.. لمشاهدة تنفيذ حكمٍ بالإعدام!

كان الفيلم نفسه يتحدّثُ عن الحرب. نجد البطل يُقسِمُ أن يكفّ عن الكلام إذا ما سلمتْ أسرته من ويلات الحرب. ويركّز الفيلم على الخطر الكامن وراء ما يتراءى بأنه إيقاعٌ هادئ للحياة اليومية، والتهديد الذي يختبئ خلف سحر الطبيعة الخلاّبة. فيدعُنا نحسّ بالحربِ وهي تعلن عن نفسها بأثاثٍ يرتجفُ من وقع الطائرات وهي تقصف، ونحسّ بالحرب إذ نلمسُ حجم التضحية الكبرى التي تشهرُ ضرورتها لمواجهة الكارثة. لقد أحسسنا جميعًا، لبعض الوقت، بوقع الجمال الآثم الذي لا يمكن الإحساس به إلا عبر الألم العظيم الذي يُعبِّر عنه بالفن.

[20]

في ظرف أربعٍ وعشرينَ ساعةً فقط قصفتْ طهران بأربعةَ عشرَ صاروخًا. كنا قد أعدنا الطفلينِ إلى غرفتهما، فسحبتُ اليها أريكة صغيرة وبقيتُ ساهرةً أقرأ حتى الثالثة فجرًا. كنت أقرأ في كتاب ضخم، قصة بوليسية لـ«دوروثي سايرز»، وأحس بالراحة والأمان مع اللورد «بيتر ويمسي» وخادمهُ الأمين، وحبيبته المولعة بالدراسة. ولم أكد أغفو حتى أيقظنا أنا وابنتي فجرًا دوي انفجار قريب.

لم يكن الضجيج المدوي وحده الذي أيقظنا ـ هذا إذا ما جاز لنا تسميته ضجيجًا ـ فما كان أعظم من الدوي هو اننا أحسسنا وكأن الانفجار كان كتلة مهولة قد هبطت على بيتنا. فاهتزّت أركان البيت، وارتجف الزجاج في النوافذ. وبعد الانفجار الأخير نهضتُ من مكاني وهرعتُ إلى الشرفةِ في الطابق العلوي. كانت السماء زرقاء وردية وقمم الجبال مكلّلة بالثلوج، وعلى مسافةٍ غير بعيدة كانت أعمدة الدخان تتلوى متصاعدة من النيران التي تشتعل في المكان الذي سقط فيه الصاروخ.

استأنفنا منذ ذلك اليوم الروتين الذي فرضَ على حياتنا في أيام القصف وهطول الصواريخ. كانت تلي كل انفجار مكالمات لا تعد ولا تحصى من وإلى الأصدقاء والأقارب للاطمئنان بأن الكل ما زال على قيد الحياة. كان يستبد بي بلا هوادةٍ شعور وحشي بالارتياح، ارتياح يشوبه غالبًا شيء من الخجل، كلما جاءني صوت تلك التحايا الحميمة. كانت ردة الفعل العامة

أيامئذ هي الهلع والغضب والإحساس بالعجز. فحتى بعد ثماني سنوات من الحرب لم تقم الحكومة بأي إجراءات وقائية لحماية المدينة سوى تكثيف الحملاتِ الدعائيةِ. ولم تكن الحكومة لتملك إلا أن تتبجح بتوق الشعب الإيراني لنيلِ الشهادة.

بعد تلك الضربة الأولى، كانت طهران، الملوثة والمكتظة دائمًا، قد أصبحت مدينة أشباح. كثير من سكان المدينة ولّوا هاربين إلى مناطق أكثر امنًا. وكنت قد قرأت إحصائية تفيدُ بأن نحو ربع سكان المدينة قد هجروها، بما فيهم موظفين حكوميين. فشاعت مزحة تقول بأن هذه كانت السياسة الأنجع للحكومة حتى الآن لحل مشاكل التلوث والكثافة السكانية في طهران. أما أنا، فقد وجدت فجأة بأن المدينة أصبحت مثيرة للشفقة، وكأنها تحت ظل القصف وهجرة الناس قد أزاحت خمارًا فظًّا لتكشف عن وجهها الإنساني الأليف. فبدت طهران لي مثلما كان يشعر حتمًا مواطنوها الباقين: حزينة يائسة وبلا دفاعات، ولكن بشيء من الكرامة.

كان الشريط الملتصق على ألواح الزجاج في النوافذ لحمايتها من التشظي يحكي قصة معاناة طهران. معاناة تبعث على المزيد من التأثر بسبب ذلك الجمال الذي استرد عافيته للتو، والخضرة اليانعة للأشجار المغسولة بزخات المطر الربيعي وتفتح الأزهار والجبال الشاخصة المكللة بالثلوج. وكم كان يبدو كل ذلك في غاية القرب الآن وكأنه صورة ألصقت على صفحة السماء!

بعد ستتين من الحرب حرّرت إيران مدينة «خرمشهر» (المحمرة) التي كانت قد سقطت بيد العراقيين. وكان صدام حسين قد بدأ يبدي إشارات جديةً لتسوية النزاع، بسبب ضربات فادحة أُخرى، وبتشجيع من جيرانه من العرب القلقين. لكن آية الله الخميني وبعض الأفراد من النخبة الحاكمة رفضوا توقيع أي هدنة. كانوا قد اتخذوا قرارهم آنئذٍ بالسيطرة على كربلاء، المدينة المقدسة في العراق، حيث استشهد الإمام الحسين. فلم يدخروا وسعًا في استنفاد كل

الوسائل لتحقيق غاياتهم، بما في ذلك ماقد غدا معروفًا باسم هجومات الـ«الأمواج البشرية»؛ اذ يساق الآلاف من الجنود الإيرانيين، غالبًا صبية بين العاشرة والسادسة عشرة من العمر أو كهول أو شيوخ كبار في السن، فيسيرون فوق حقول الألغام لتطهيرها بأجسادهم. كان صغار السن ينقادون وراء الإعلام الحكومي الذي يعدهم بحياة من البطولة والمغامرة على جبهات القتال، ويشجعهم على الانخراط في الميليشيات، بالضد حتى من رغبة ذويهم.

رحت أستأنف سهراتي مع «داشييل هاميت» وآخرين، وكانت النتيجة هي ان أضيف، بعد أربع سنوات من ذلك، فصلاً جديدًا لمنهجي الدراسي وهو فصل الروايات البوليسية، وقد بدأته بـ«أدغار آلان بو».

[21]

بعد استئناف الهجمات على إيران نقلنا محاضراتنا الى الطابق الثاني. ومع كل قصف، كان الطلبة والأساتذة يندفعون متراكضين إلى الطابق السفلي، الذي ربما كان من الأسلم لو تم نقل المحاضرات إليه. وكانت حالة الطوارئ الجديدة قد أخلت الصفوف، فكانت معظم المحاضرات تتم مع نصف العدد من الطلبة حينئذ. كان الكثيرون قد رحلوا إلى قراهم الأصلية، أو انهم غادروا طهران إلى مدن بعيدة عن مرمى القصف. وقد اختار البعض الآخر المكوث في داره ليس إلا.

كان استئناف الهجمات قد منح أشخاصًا مثل السيد «قمّي» أهميةً اكبر. فكانوا يحضرون ويتغيبون متبجحين دائمًا بحالة طوارئ جديدة. واستثمرت جمعية الطلبة المسلمين كل الفرص لتعطيل سير الدراسة، كأن يعزفوا الأناشيد الحربية إعلانًا عن انتصار جديد أو حدادًا على أعضاء من الجمعية استشهدوا في الحرب. فكنا ـ ونحن في خضم قراءة قطعة أدبية من «ميدان واشنطن» أو «الأماني العظيمة» ـ نتفاجأ بصوت صاخب لنشيد حربي، لتبوء بالفشل بعده كل محاولاتنا لمواصلة النقاش الذي يكون قد علا فوقه صوت النشيد.

كان ذلك الضجيج الصاخب يقف على النقيض تمامًا من صمت غالبية الطلبة والأساتذة. وكنت أستغرب فعلاً كيف أن ذلك لم يكن يجعل المزيد من الطلبة يستغلون تلك الأحداث كذريعة للتوقف عن الدراسة أو للكف عن اداء

الواجبات البيتية. كانت سهولة الانقياد التي يظهرونها، إنما تعكس حالة أكبر للإذعان في المدينة عمومًا. فحينما امتد سعير الحرب حتى السنة الثامنة بلا نصر حقيقي، كانت علامات الإجهاد قد بدأت تظهر حتى في الأوساط الأكثر حماسةً. لقد أصبح الناس حينئذ يعبرون عن مشاعر نبذهم للحرب في الشوارع والأماكن العامة، ويلعنون مرتكبيها، في الوقت الذي كان النظام يواصل نهجه في الإذاعة والتلفزيون ولا يجد ما يردعه عن الاستمرار في لعب الدور ذاته. في تلك الأيام، كانت الصورة لا تكف تتكرر: شيخٌ ملتحٍ ومعمم، يدعو للجهاد من دون هوادة مجموعةً من المراهقين الذين يلفون ربطات الاستشهاد الحمر حول جباههم. لم يكن هؤلاء سوى البقية الباقية من تلك الحشود الهائلة لصبيةٍ تمت تعبأتهم ذات يوم بإثارتهم في حمل أسلحة حقيقية وبوعود في الحصول على مفاتيح الجنة حيث سيتمكنون أخيرًا من التمتع بكل ما كانوا قد حرموا منه في حياتهم. لقد كانت حياتهم عالمًا ليس فيه ما يتحسرون على خسارته، ولذا فقد بدت المساومة لا معنى لها.

كان الملالي يمتعوننا بسرد قصص استشهاد الائمة الشيعة في معاركهم غير المتكافئة مع الكفار، لينقلب السرد فجأة إلى نحيبٍ هستيري يأخذ الجمهور إلى نوبة انفعالٍ شديدة تفتح الأذرع استعدادًا للشهادة في سبيل الله والإمام. وفي المقابل، تجيء ردة فعل المتفرج على الشاشة الصغيرة لتتخذ شكل الرفض الصامت، رفضٌ لا يبدو ذا معنى إلا إذا تأملناه ضمن سياق الالتزام الصارم الذي تطالبنا به الطبقة الحاكمة. وفيما عدا ذلك، لن يكون متاحًا إلا الإذعان الذي لا مناص منه، والذي كان التاريخ يسجّله دائمًا.

الحياة في الموت، ففكرة تمنّي الموت التي يطرحها النظام وتطرحها الصواريخ العراقية الغامرة، لا يمكن احتمالها إلا حين ندرك أن الصاروخ سوف يسلمنا رسالته الأخيرة ذات لحظة قدرية بعينها، وبأنه لا يعود من المنطق ان نحاول تجنبها. كنت في تلك الأيام فقط قد أدركت معنى ذلك

الإذعان الصامت: انه تعبير عن صوفية قاتلة، جعلتنا جميعًا نبدو مسؤولين ولو جزئيًا عن خيباتنا التاريخية. لقد فهمت حينئذٍ بأن ذلك الإذعان كان ـ ربما بحكم الظروف المحيطة ـ هو الخيار الوحيد المتاح لمقاومة الطغيان مع حفظ الكرامة. فلم يكن باستطاعتنا أن نعبّر بصراحة عما نريد، بيد أننا كنا نستطيع بصمتنا أن نظهر عدم اكتراثنا لما يطالبنا به النظام.

[22]

لا زلت أستطيع سماع تراتيل الحداد وأناشيد النصر التي كانت تتعطل بسببها الكثير من الدروس، إعلانًا عن استشهاد أحد الطلبة أو الأساتذة وهو يلبي نداء الواجب، أو إعلانًا عن انتصارٍ ما حققه جيش المسلمين على أعدائه الكفرة. لم يكترث أحد للإشارة إلى أن «الأعداء الكفرة»، لم يكونوا سوى أخوة مسلمين!

لقد احتفظتُ ذاكرتي بذلك اليوم الذي كانت تعزفُ فيه أناشيد الحداد إحياءً لذكرى استشهاد أحد قياديي جمعية الطلبة المسلمين. كنت بعد المحاضرة قد انضممت إلى مجموعة صغيرة من طالباتي كن يقفنَ معًا في الساحة الخارجية، وكن يسخرن من الطالب المتوفى ويتضاحكن. كنّ يمزحن قائلات بأن وفاته جاءت مثل زواج شاءته العناية الإلهية في السماء! ألم يكن يقول هو ورفاقه بأن حبهم الأوحد كان لله؟ كنّ يلمّحن بذلك إلى الوصايا والأمنيات الأخيرة التي كان يدلي بها الشهداء قبل رحيلهم، والتي كان الإعلام مهووسًا بتسليط الضوء عليها. كان غالبهم يزعم بأن الاستشهاد هو أقصى غايةً يبتغيها، لأنها تلبي أمانيه في التوحد المطلق مع «المعشوق» الأوحد.

كنّ يتضاحكن قائلات: «آه.. نعم!.. هو الله.. الله فعلاً!.. الله الذي كان يراهُ بهيئة كل امرأة كان يلتهمُها بعينيه، قبل أن يرفع شكوى ضدها ليتهمَها بقلّة الاحتشام! لقد كانت تلك هي نشوتهُ الحقيقية! كلهم منحرفون جنسيًا، كلهم بلا استثناء!».

راحت «نسرين» تروي لنا قصة عَن معلمةِ التربيةِ الدينية في مدرسةِ ابنة عمّها ذات الأثني عشرَ عامًا. كانت المعلمةُ تنصحُ طالباتها الصغيرات بأن يغطينَ اجسادهنّ، وتعدهنّ بأن ينلنَ ثوابهنّ على ذلك في الجنة. وهناك، في الجنة، سيجدْنَ أنهارًا من خمرة، وسيطلبُ الزواجَ منهنّ فتيةٌ أقوياء مفتولو العضلات. كانت شفتاها المكتنزتان تتلمظان وهي تذكر الفتية المفتولي العضلات، كمن اغتنمَ خروفًا وراح يتخيل صورته وهو مطبوخٌ على أكملِ وجه!

أظن أن شيئًا ما في تعابير وجهي التي عكستْ ما يشبه الصدمة، كان قد قطع سيل مرحهنّ الجارف. لم أكن أعرف الشهيد الشاب، ولو كنت قد عرفته فعلى الغالب أنني لم اكن سأعجب به، ومع ذلك، فلم يكن ذلك الجو من المرح إلا صدمة لي.

شعرَت البناتُ بأن الأمر قد يحتاجُ إلى تفسير. فقالت لي «موجغان»: «أنت لا تعرفينه، إن السيد «قمي» سيبدو أمامهُ ملاكًا مُنزلاً، لقد كان مريضًا.. مريضًا جنسيًا.. أتدرين ماذا أيضًا؟ كانت لديه صديقةٌ تسببَ في طردها لأنه قال بأن بقعةَ الجلدِ الأبيض التي تكادُ ألا ترى تحت إيشاربها كانت تثيره جنسيًا! لقد كانوا أشبهَ بكلاب الصيد». ثم حكت لنا «نسرين» قصة طويلة عن إحدى الحارسات؛ كانت طريقتها في التفتيش أقربُ ما تكون إلى التحرشاتِ الجنسية. وذات يوم كانت تقوم بتفتيش «نيلوفار»: «فراحت تضغط وتمسد حتى أُصيبَت الأخيرة بهستيريا. هم يفصلوننا حينما نضحكُ علنًا بصوتٍ عالٍ، أما هي، أتعلمين ماذا فعلوا لها حين اكتشِفَتْ؟ لقد اكتفوا بتوبيخها وإيقافها عن العمل لمدة فصلٍ دراسيٍّ واحد، لتعود إلى وظيفتها من جديد!».

أخبرتُ «نسرين» لاحقًا أنني كنتُ وأنا أراهنّ يسخرنَ من الطالبِ الراحل قد تذكرتُ قصيدة لـ«برتولد بريخت» ظلت تلحّ بخاطري. لا أتذكرها الآن جيدًا:

«بلا شكٍ

نحن نحيا في عصرٍ مظلم

عصرٍ..

حين نتحدثُ فيه عن الأشجار
فذلك يعني نوعًا من الجريمة»... إلى آخر القصيدة.

كنت أتمنى أن أتذكر القصيدةَ بشكلٍ أفضل. فثمة بيت قبل نهايتها يقول ما معناه:

«واحسرتاه!
فنحنُ الذين حُرِمْنا الحنان
ما استطعنا.. نحنُ أيضًا..
أن نكون حنونين».

صمتَتْ «نسرين» بعد ذلك لبرهة، ثم قالت أخيرًا: «انتِ لا تعلمين كم عانينا. في الأسبوع الماضي سقطت قذيفةٌ قرب بيتنا على مبنى للشقق السكنية. قال الجيران بأنه كانت ثمة حفلةُ عيد ميلاد في إحدى الشقق، وقد قتلَ ما يربو على عشرين طفلًا في الانفجار».

وبعد سقوط القذيفة مباشرةً، وقبل أن تصل سيارات الإسعاف، وصلَتْ ستٌ أو سبعٌ من الدراجاتِ الهوائية التي لا أحد يدري من أين جاءت، وراحت تحوم حول المكان. كان يقودها أشخاص يرتدون اللون الأسود ويربطون شرائط حمر على جباههم. وبدأوا يهتفون ويطلقون الشعارات: «الموت لأميركا، الموت لصدام، عاش الخميني». كان الناس في غاية الهدوء، وقد اكتفوا بمراقبتهم بحقد. حاول البعض التقدم لإسعاف المصابين، لكن المجرمين لم يسمحوا لأي احد بالاقتراب، وواصلوا هتافاتهم: «حربٌ، حربٌ، حتى النصر». فكيف يمكن ان يكون شعورنا جميعًا ـ باعتقادك ـ ونحن نراقبُ المشهد؟

كان ذلك قد غدا طقسًا: فبعد كل انفجارٍ كان رسل الموت إياهم يمنعون أي أمارةٍ من أمارات الحزن أو الاحتجاج. حين أعدمَ النظامُ الإسلاميّ اثنينِ من أبناءِ عمي، اتصلَ بعضُ أقاربنا الذين كانوا مع الحكومة آنذاك ليهنئوا عمي على موتهما!

كنا نتبادلُ القصصَ ونحن نتمشى معًا أنا و«نسرين» في ذلك اليوم. حدثتني المزيد عن أيامها في السجن، وكيفَ ان الأمر كله كان قد حدثَ بالمصادفة. أتذكرها، كم كانت صغيرةً حينذاك! لم تكن سوى طالبة في الثانوية. قالت لي: «أنت قلقةٌ بشأن آرائنا القاسية عن «هؤلاء»، ولكن هل تدركينَ بأن معظم القصص التي تُروى عمّا يحدثُ في السجون إنما هي قصص حقيقية؟ كان أسوأها حين يقومُ هؤلاء بالنداء على أسماءٍ معينةٍ بعد منتصف الليل، فكنا نعلم بأنه قد تمّ اختيارهنّ هذه الليلة للإعدام. كنّ يودّعننا، ليصلَ إلى سمعنا بعد قليلٍ صوتُ إطلاق الرصاص. كنا نعرف عدد المعدومات في كل ليلة من تلك الليالي بعد ان نحصي عدد الرصاصات المفردة التي كانت تطلقُ بشكل لا مناص منه بعد الرشقة الاولى لوابل الرصاص.

هناك، عرفتُ فتاةً كانت خطيئتها الوحيدة هي جمالها الفاتن. كانت قد أُدخلت السجن بتهمةٍ ملفّقة تتعلق بالأخلاق، فاحتجزوها بما يزيد على شهرٍ كامل، وتناوبوا على اغتصابها مرات ومرات، فكان يتركها سجانٌ ليستلمها آخر. وقد انتشرَتْ قصتها في أروقةِ السجنِ انتشار النار في الهشيم، لأنه لم تكن للبنتِ أي علاقة بالسياسة، ولم تكنْ مع السجينات السياسيات.

كانوا يزوّجون العذارى للسجانين، ليقوموا بإعدامهنّ بعد ذلك. كانت فلسفتهم في ذلك الفعل إنما تكمنُ في انه: إذا ما قُتِلَت المرأةُ وهي عذراء فإنها ستدخلُ الجنةَ لا محالة! انتِ تحدثينا عن الخيانة؟ هم غالبًا ما يدفعون بأولئك المتسترين بستار الإسلام لإفراغ رصاصاتهم الأخيرة في رؤوس رفاقهم ليكونوا مثالاً يُحتذى به لمعنى الولاء الجديد للنظام». ثم أردفَتْ بحقد: «لو لم أكن أحظى بذلك الامتياز، لو لم أكن محميةً بأبٍ يقاسمهم الولاء، فوحده الله يعلم أين كان يمكن أن ينتهي بي المطاف: في جهنم مع العذارى المُنتهكات، أو مع أولئكَ الذين يشهرون أسلحتهم في رؤوس الآخرين ليثبتوا ولاءهم للإسلام!».

[23]

في الرابع من آب ١٩١٤، أضاف «هنري جيمس» مقدمةً لجريدتهِ يقولُ فيها: «صارَ كل شيءٍ يشهرُ سوادهُ بسببِ الزمنِ الذي أفسدهُ الوضعُ العامُ المشين. اليوم هو الاثنين، عطلةُ المصارفِ في شهرِ آب، بيدَ أن قلقًا مرعبًا يشوبُ اليوم، وتلوحُ في أفقِهِ أسوأ الاحتمالات».

لقد تغير «هنري جيمس» تغيّرًا جذريًا في السنتين الأخيرتين اللتينِ سبقتا رحيلهُ بسبب التأثير العميق الذي أحدثتهُ فيهِ الحرب العالمية الأولى. لقد أصبحَ للمرة الأولى في حياتهِ شخصًا ناشطًا اجتماعيًا وسياسيًا، وهو الذي كان قد حرص طوالَ حياتهِ على استبقاءِ مسافةٍ من العزلةِ تفصلهُ عن أيةِ مشاعرَ واقعيةٍ تتعلقُ بالوجود. وقد لامهُ نقادٌ مثل «هـ ج. ويلز» على مواقفهِ المتعالية التي كانت تحول بينه وبين الاندماج بأية قضيةٍ من قضايا الساعة، اجتماعية كانت أو سياسية. كان قد كتب عن تجربته في الحرب العالمية الاولى يقول: «لقد كادت أن تقتلني. وصرت أشمئزُ من حياتي التي امتدتْ حتى بلغَ بي المطافُ ان أرى شيئًا فظيعًا وبشعًا إلى هذا الحد».

كان «جيمس» قد شهد الحرب الأهلية الأميركية وهو بعدُ فتىً صغير. كان أخواه الأصغران قد اشتركا في الحرب وقاتلا فيها بشجاعةٍ وشرف، لكنه كان قد حُرمَ من ذلك لأسباب صحية كانت تتعلق بألمٍ غريب في الظهر أصابهُ إثرَ مهمة قام بها لإطفاء مخزن غلال يحترق. كان هذا الابتعاد الجسدي قد جعله

نفسيًا يحاول الحفاظ على مسافةٍ بينهُ وبين الحرب بالكتابة والقراءة. وربما كانت نشاطاتهُ المهووسة لدعمِ ومساندةِ بريطانيا في الحرب العالمية الأولى بمثابةِ تعويضٍ عن تقاعسِهِ السابق. وليس من الخطأ الاعتقاد كذلك بأن الحرب التي أذكتْ فيه مشاعرَ الرعب كانت قد سحرتهُ أيضًا. لقد كتب رسالةً لأحد أصدقائهِ يقول فيها: «الدنيّ من الخيال ما يصوّرُ لي كارثة، وصرتُ أرى الحياة وحشيةً وتنذرُ بالشؤم».

كان «جيمس» في مطلعِ شبابهِ حينما كتبَ رسالةً إلى أبيه يقولُ فيها بأنه: «مقتنعٌ بأن تنظيم البناءِ الاجتماعي الحالي هو تنظيمٌ هشّ وعابر، وبأن الحالة الوحيدة التي تجعلُ المرءَ محترمًا فكريًا هي بأن لا يكفّ عن التعبيرِ عن رفضهِ المطلق لذلك التنظيم». وكان «جيمس» قد عبّر عن ذلك فعلاً في أفضلِ أعمالهِ الروائية. فنجد أن الصراع على السلطة، في جميع رواياته تقريبًا، موضوعة مركزية تدور حولها الحبكة الروائية وبها تُحلّ عقدُها؛ صراعٌ نراهُ متأصلاً في مقاومة الشخصية الروائية للمعايير الاجتماعية السائدة، مثلما نراه متأصلاً في رغبة تلك الشخصية في تحقيق الكمال والتميّز. ففي «ديزي ميللر» مثلاً، يقودنا الصراعُ بين القديم والحديث إلى موتِ «ديزي». وفي «السفراء» نجد أن قوة السيدة «نيوسوم» المرعبة إلى حدٍ بعيد، وسيطرتها على السفير وعلى عائلتها، هو ما يخلق الصراع الأساسي للحبكة. وسيكون من المثير أن نلحظ في هذا الصراع أن المقاومين يعبرون عن رغباتهم الدنيوية، بينما تتمثل رغبة المؤيدين في الحفاظ على لمسةٍ من كمالهم الشخصي واستقامتهم لمواجهة العدوانية القادمة من الخارج.

وإبان الحرب الأهلية الأميركية، وحينما كان «جيمس» بصدد اكتشاف قدراته الذاتية، كانت بعض دوافعه للكتابة تأتي تعويضًا عن عجزه عن المشاركة في الحرب. أما في هذا الوقت، في أواخر أيامه، فنراهُ يتبجح بأهمية الكلمات في مواجهة وحشية كهذه. وفي حوارٍ له مع صحيفة الـ«نيويورك تايمز» في ٢١ آذار

١٩١٥، قال: «لقد استمرَت الحربُ الكلمات؛ فأضعفَتْها واستهلكتها مثلما تُستَهلكُ إطارات السيارات. ومثلما حدثَ مع ملايين الأشياء الأُخرى، فقد أرهِقَت الكلماتُ وتضعضَعَتْ وجُرِّدَتْ من مظهرها المبهج في غضون الأشهر الستة الأخيرةِ فقط، أكثر من أي وقت مضى. وها نحن اليوم بصددِ مجابهةِ ذلك الانحطاط في قيمة مصطلحاتنا كلها، أو بعبارة أُخرى: الافتقار إلى التعبير الذي كان نتيجة حتمية للإنهاك، للحد الذي سيجعلنا نتساءل وبشدّة: أي أشباحٍ ستبقى لتجوب الأرض من بعدنا؟».

وبالرغم من اليأس، عاد «جيمس» إلى الكلمات مرة أُخرى، ولكن عودته هذه المرة لم تكن لكتابة الروايات، وإنما لكتابة النشراتِ الحربية. وراح يطالب اميركا بالانضمام إلى الحرب، وبألا تبقى حياديةً إزاء المعاناة والفظائع في أوروبا. وانشغلَ أيضًا بكتابة رسائلَ لاذعة، كان يعبّر في بعضها عن رعبه من الأحداث، وفي البعض الآخر كان يعزّي أصدقاءهُ الذين فقدوا ابنًا أو زوجًا في تلك الحرب.

ودخل في دوامة من النشاطات، فقام بزيارات للجرحى من الجنود البلجيكيين في المستشفيات، تبعتها زياراتٌ لجرحى بريطانيين. وراح يجمع التبرعات للاجئين والمصابين، ثم عكف على كتابة النشرات الدعائية الحربية بدءًا من خريف ١٩١٤ وحتى كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩١٥. كما وقِّبل بمنصب رئيس شرف للفرقة الأميركية المتطوعة لسيارات الإسعاف، وانضم إلى مشروع «تشلسي» لإغاثة اللاجئين البلجيكيين. كانت هذه الدوامة من الفعاليات قد بدتْ هائلة أمام كاتبٍ انطوائيٍّ خجول لطالما ظلّ ولعه المتوقّد وأحاسيسه منصبةً طوال حياته في كتابة الروايات. وقد وصفه «ليون إيدل» لاحقًا حينما كتبَ سيرة حياته قائلاً: «يبدو أن العالم كان يشعرُ بالكثير من الارتياح عند «جيمس»، وكان عليه أن يحمي نفسه دائمًا من بكاءِ العالم على كتفيه كل ذلك البكاء المرير». كان في زيارته للمستشفيات يشبّهُ نفسهُ

بـ«ويتمان» وهو يعودُ الجرحى في الحرب الأهلية، فيقول عن تلك الزيارات بأنها: «كانت تجعلني أحسّ بأنني أقلّ إجهادًا وأصغر سنًا.. خصوصًا حينما أزورهم في بعض تلك الأيام وأحاول أن أسحبَ من أجلهم عربة الكلام إلى أهالي التل». فأيّ رعبٍ داخليّ وأيّ سحر ذاك الذي حدا بهذا الرجل لأن ينهمكَ بكل ذلك النشاط في المجهودِ الحربي، بعد أن كان قد نأى بنفسهِ خجِلًا طوال حياته عن القيام بأيّ نشاطٍ عام؟

كانت من أهم الأسباب التي تدفعهُ إلى ذلك الانهماك هي المذابح البشرية، وموت أعداد كبيرةٍ من الشباب، والتهجير والتدمير. ومثلما كان يتفطّر حزنًا على الدمار الذي لحق بالعالم، فقد كان يملك في الوقت نفسه إعجابًا لاحد له بالشجاعة الفطرية التي كان يلمسها عند الكثير من الشباب الماضين إلى الحرب، وعند أولئك الذين ينتظرون عودتهم.

انتقل «جيمس» إلى لندن في أيلول/ سبتمبر، وكتب يقول: «صار بمقدوري الآن أن أسمع وأن أرى، وأن تكون لي صلة وثيقة بالإعلام.. بينما كنتُ سآكلُ قلبي حسرةً وأنا وحدي هناك.. بعيدًا عما يدور». كان يحاولُ التأثيرَ على السفيرِ الأميركي في بريطانيا وسواهُ من كبار الموظفين الأميركيين ويؤنّبهم على حياديتهم. كما كتب كراسات كان يدافع فيها عن بريطانيا وحلفائها.

وقد أكدّ «جيمس» في رسائلهِ الكثيرة على إحدى الوسائلِ المهمة التي بها نستطيع مواجهة لا معقولية الحرب. فقد كان مدركًا، مثلما لم يكن سواه، بأن قسوةً من هذا النوع إنما تأخذُ ضريبّتها من المشاعر، وأن أحداثًا من هذا النوع لا تولّدُ إلا المزيد من التجلّد. وفي الواقع، يصبحُ هذا النوع من غياب الإحساس وسيلةً للبقاءِ على قيدِ الحياة.

وقد أكّد، مثلما فعل في رواياته، على الصفة المميزة الأهم من بين كل الصفات البشرية: الشعور، وكان يشكو من نفسه بسبب: «عجز قواي اللذاتية عن فعل أي شيءٍ سوى ان أشعر.. بجموح وبشكل لا متناهٍ».

بعد سنوات طويلة، وجدت عبارتين لـ«جيمس» عن تجربته في الحرب، كنتُ قد كتبتهما على بطاقة وردية اللون كنت أستعملها كعلامة في كتبي، وقد رافقتني في رحلتي عبر المحيطات من طهران إلى واشنطن دي سي. كنتُ قد التقطتُ العبارتين لكي أطلع «نسرين» عليهما، لكنني لم أفعل. كانت الأولى من رسالة كتبها «جيمس» إلى «كلير شريدان». وهي صديقةٌ كانت قد تزوجت حديثًا واشترك زوجها في الحرب وقُتل. يقول في رسالته: «لستُ أملكُ أن أطالبك بأن تكفي عن الشكوى والتمرّد، لأنني لم أستطع فعل ذلك، وقد كلفني الكثير بأن أفكر بكل ما يدور، ولذا فأنا لا أملكُ أن أطالبك بألا تشعري.. بل اشعري، اشعري. أنا أطالبكِ بأن تشعري من كل قلبك، حتى لو أوشكَ ذلك الشعور على قتلك، فتلك هي الطريقةُ الوحيدة التي تجعلنا نعيش، وعلى الأخص، ونحن تحت وطأة ضغوطٍ مريعةٍ كهذه، وهي الطريقة الوحيدة التي ستُمكننا من أن نُجلّ وأن نحتفي بأولئك البشر الجديرين بالإعجاب، الذين هم مصدر فخرنا وإلهامنا». كان «جيمس» في رسائله لأصدقائه لا يكفّ يحثّهم مرة أُخرى وأُخرى أن يشعروا، فالشعور هو الذي سيحرّك الوجدان والضمير. وكان لا يكف يذكرهم بأن الحياة جديرةٌ بأن تُعاش.

والغريبُ في ردةِ فعل «جيمس» نحو الحرب، هو أن الدافع الوطني لم يكن سببًا في استثارةِ مشاعره وعواطفه. فأميركا، موطن «جيمس»، لم تكن طرفًا في الحرب، بينما كانت بريطانيا طرفًا فيها. بريطانيا التي قضى أربعين عامًا من حياته فيها، رغم أنه لم يطالب بالجنسية البريطانية طوال كل تلك السنوات. ولكنه طلب ذلك أخيرًا، وفي حزيران/ يونيو ١٩١٥ حصل «هنري جيمس» على الجنسية البريطانية، وكان ذلك قبيل أشهر قليلة من وفاته. وكتب رسالةً إلى ابن أخيه «هاري» يقول فيها بأنه كان يريد لحالته المدنية أن تأتي منسجمةً مع حالته المادية والأخلاقية.

«لولا الحرب، لكنتُ قد واصلتُ حياتي حتمًا كما كنت، ولبقيتُ أنظر

للأمور بمنتهى البساطة واليسر، بل وبمنتهى المحبة. بيدَ ان الظروف قد تغيرت الآن تمامًا.

كان وراء ذلك الانقلاب المفاجئ الذي حدث له سببٌ مباشر أكثر من سواه: وهو أنه ـ نظرًا لظروف الحرب ـ تم تصنيف «جيمس» على انه «أجنبي صديق»، وكان يحتاج إلى تصريح من الشرطة مع كل رحلة كان يقطعها من لندن إلى بيته في «سوسيكس». بيدَ أن السبب الأقوى والأكثر رمزية كان خيبة أمله في اميركا التي بقيَتْ متفرّجة في الحرب. كتب رسالةً إلى إحدى صديقاته «ليلي بيري»، يقول فيها: «إن الوجود المباشر مع العدو يقلب الأمور رأسًا على عقب حينما يعجزُ الانتماءُ القوميّ عن فعل أي شيء لك إذ أنت تحاول مجاراة ذلك الانقلاب».

الحقيقة هي أن «جيمس»، مثله مثل كثيرين سواه من الكتّاب والفنانين الكبار، كان قد اختار جنسيتهُ وولاءاته بنفسه. فبلاده الحقيقية، ووطنه، إنما هما عالمٌ مُتَخيل. في رسالة إلى صديقته القديمة «رودا براوتن» كتب يقول: «كم تبدو سوداء بشعة أمام ناظريّ تلك المأساة التي تهمّ بالحدوث.. كما أن ما بي لا شفاءَ له إذ أجد نفسي وقد عشت لأشهد كل هذا، وكان علينا نحن مفخرة هذا الجيل: أنا وأنتِ.. أن نُستثنى من هذا التدمير لقناعاتنا، فشهدنا كل تلك السنوات الطويلة من الحضارة المتنامية ومع ذلك أصبح الأسوأ هو الأكثر احتمالاً للحدوث».

وكتب إلى «إديث وارتون» عن «ذلك التدمير للحضارة». وقال بأن «بصيصَ النور الوحيد في هذه العتمة بالنسبة لي، هو الفعل. وهو التضامن المطلقُ للجميع مع الوطن». كانت فكرة «جيمس» عن الوطن مرتبطة بفكرة التحضّر. وإذ كان يعيش في «سوسيكس» إبان الحرب، فقد وجد أن القراءة قد غدتْ أمرًا صعبًا، وأصبحَ من المستحيل عليه العمل. ووصف نفسه بأنه كان يعيش: «في ظل التعويلة الجنائزية لحضارتنا المقتولة».

وحينما ضربَ الألمان كاتدرائية «ريمز» في فرنسا ودمروها في أيلول/ سبتمبر ١٩١٤، كتب «جيمس» يقول: «.. ولكن.. ليس ثمة كلماتٍ يمكن أن تردمَ الهوّة التي انفلقَتْ.. ولا شيء يمكن أن يمسّها.. أو أن يعيدَ الحياة لقلبِ عاشها.. أو.. أن يوقد بصيصَ نورٍ في تلك الظُلمةِ الحالكة. ولا شيء يمكن أن يخفّفَ قيد شعرةٍ ذلك الألم الذي يعتصر القلب والكرب على الأرواح التي أزهقَتْ، حتى لو وضعناها في مصافِ أفظعِ جريمةٍ سُجِّلَتْ بحق التاريخ الإنساني».

كانت حياته كلها صراعًا على السلطة: ليست السلطة السياسية التي كان يحتقر، وإنما سلطة الثقافة. فقد كانت الثقافة والحضارة هي كل شيء بالنسبة له. وقد خلص إلى القول بأن أعظم حرية للإنسان هي «استقلال الرأي»، ذلك الاستقلال الذي يمنح الفنان حرية التمتع بـ«شراهة الاختيار اللامتناهي لأيّ نمط من أنماط المعيشة». بيد أنه ـ أي «جيمس» ـ حين واجه هذا الكم الهائل من المجازر والدمار لم يعد ليشعر إلا بالعجز والعقم. وكانت صلته الروحية بإنكلترا، وبأوروبا عمومًا، إنما تأتي بدافع التحضّر والتقاليد الثقافية والإحساس الإنساني. ولكنه شهد الآن أيضًا فساد أوروبا، وشيخوختها من ماضيها، وخبر ضراوة طبعها المشؤوم. وليس غريبًا أن يكون قد استنفد أقصى طاقاته لمساندة أولئك الذين كان يؤمن بأنهم على حق، ولم يكن ذلك بالكلمات فقط. ولم يكن يعوزهُ الإحساس بإمكانيات العلاج الناجعة لهذه القوى، فكتب لصديقه «الوسي كليفورد» قائلاً: «من أجل حياتنا الغالية، لا بد لنا من أن نصنع واقعًا مغايرًا».

[24]

بعد حديثي مع «نسرين» بأيام قليلة، وجدت فتاتين بباب مكتبي قبيل بدء المحاضرة بقليل. كانت إحداهما «نسرين»، بابتسامتها الشاحبة المعهودة، وكانت الثانية فتاةً متشحة بجادور أسود يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها. وبعد أن أمعنتُ النظر هنيهة في تلك الـ«شبح»، استطعت التعرف عليها فجأة: لقد كانت «مهتاب».

وقفنا نحن الثلاثة برهة جامدات في أماكننا، وقد بدتْ «نسرين» بعيدة فعلاً. لقد أصبح الابتعاد وسيلتها الدفاعية التي تشهرها بوجه الذكريات المؤلمة والواقع اللامعقول. كنت أحتاج إلى بضع ثوانٍ كي أهضم هذه الـ«مهتاب» الجديدة، كنت أحتاج إلى نقلةٍ نوعية في البال لتخيّل تلك الـ«مهتاب» التي كنت قد التقيت بها آخر مرة في باحة مستشفى وهي تحاول العثور على رفاقها المغدورين، تلك الطالبة اليسارية، ببنطالها الكاكي ـ علامتها الفارقة ـ لأحوّلها إلى هذه الـ«مهتاب» الواقفة بباب مكتبي بابتسامتها الصفراء التي تتوسلني أن أتعرّف عليها! تردّدتُ وأنا أحاول احتضانها، لكنني ضبطتُ نفسي، وبادرتُ إلى سؤالها عن حالها طوال كل تلك السنوات. وتذكرتُ لحظتها فقط بأن أدعوهما للدخول إلى مكتبي، على الرغم من أنه لم يكن قد بقي من الوقت إلا القليل جدًا قبل المحاضرة التالية.

كانت مهتاب قد بقيَتْ على اتصال دائم مع «نسرين»، وحينما علمَتْ بأني

عدتُ من جديد للتدريس في جامعة العلاّمة، استجمَعَتْ شجاعتَها وجاءتْ لزيارتي. فسألَتْ ما إذا كان يمكنها حضور محاضرتي، ثم، ربما بعد المحاضرة، إذا كان وقتي يسمح وإذا لم يكن لدي أي مانع، أن تحدّثني قليلاً عن نفسها. فأجبتُ بأن ذلك ممكنٌ من دون أدنى شك وبأن عليها أن تحضر محاضرتي قطعًا.

طوال الساعتين اللتين استغرقتهما محاضرتي عن «ميدان واشنطن» لـ«جيمس»، كانت عيناي تشردان بين الحين والحين مع «مهتاب» بجادورها الأسود، وهي تجلس باستقامة شديدة، وتنصتُ باتقادٍ فكري وانتباهٍ لم أعهدهما فيها من قبل. وبعد المحاضرة، تبعتني إلى مكتبي تتبعها «نسرين» بتثاقل. طلبتُ منهما الجلوس، وعرضتُ عليهما تناول بعض الشاي فرفضتا، لكنني تجاهلت ذلك وأمرتُ لهما به وعدتُ لأغلق باب المكتب لأضمن سرية الحوار.

كانت «مهتاب» تجلسُ على طرفِ الكرسي وقد وقفتْ «نسرين» إلى جانبها وهي تحدّق بالجدار المقابل. طلبتُ من «نسرين» الجلوس لانها توتّرني، ثم التفتُّ إلى «مهتاب»، وبنبرةٍ حاولتُ جهدي أن أجعلها تبدو عادية، سألتُها عمّا كانت تفعلهُ طوال كل تلك السنوات.

في البدءِ، رمقتني بنظرةِ المستسلم الساذج وكأنها لم تفهم سؤالي، ثم راحتْ تعبث بأصابعها نصف المخفية تحت طيّات الجادور، وقالت أخيرًا: «حسنًا لقد كنتُ حيث كانت «نسرين»، فقد اعتُقِلْتُ بعد مدة قصيرة من لقائي بك يوم التظاهرات، وحُكمَ عليّ بالسجن خمسَ سنوات فقط. كنتُ محظوظة لأنهم كانوا يعلمون أنني لم أكن على درجة عالية من الأهمية في تنظيمنا. ثم أطلقوا سراحي مبكرًا، بعد عامين ونصف العام فقط، لحسن السير والسلوك».

لقد تركتني «مهتاب» لحدسي بما يعنيه «حسن السير والسلوك» لأناس مثل أولئك الذين سجنوها! سمعنا طَرقًا على الباب، ودخل علينا السيد «الطيف» بأكواب الشاي. فتوقفنا عن الحديث حتى غادر الغرفة.

واستأنَفَتْ «مهتاب»: «لقد فكرت فيك فعلاً وفي محاضراتك». كانوا بعد الاستجواب الأوليّ قد وضعوها في زنزانة مع خمس عشرة سجينة سواها. وكانت قد التَقَتْ هناك بـ«راضية» وهي طالبة أخرى من طالباتي.

قالتْ وهي توازنُ قدح الشاي الصغير على إحدى يديها دون أن تدع الجادور ينفلت: حدثتني «راضية» عن محاضراتك عن «همنغواي» و«جيمس» في جامعة الزهراء، وحدثتها عن محاكمة «غاتسبي»، كم ضحكنا.. أتعلمين؟.. لقد أعدموها! وكرّرَتْ مرة أخرى: «كنتُ محظوظة».

كانت «مهتاب» بعد أقل من عام على إطلاق سراحها قد تزوجَتْ، ثم أنجبَتْ، وكانت في لقائنا ذاك تنتظر طفلها الثاني. قالت وهي تشيرُ إلى بطنها بحياء: «أنا الآن في الشهر الثالث، إن ذلك لا يبين بسبب الجادور».

لم يكن ثمة ما أستطيع سؤالها عنه بشأن طالبتي التي أعدمت. لم أكن أريد أن أعرف كيف كانتا تعيشان في تلك الزنزانة، وأيّ ذكريات تقاسمتا معًا. أحسستُ بأنها إذا حدثتني عن شيء من هذا لربما أرتكبُ حماقةً، وربما لن أستطيع مواصلة اليوم الدراسي إلى آخره. فسألتها عن عمر طفلها الاول، ولم اتطرّق للحديث عن زوجها. فهل كنتُ سأجرؤ مثلاً أن أطرح عليها سؤالي المفضّل: «هل وقعتما في الحب قبل الزواج؟». كنت قد سمعتُ عن الكثيرات اللواتي يتزوجنَ بعد إطلاق سراحهنّ بمدةٍ وجيزة. كنّ يتزوجن ليقلّلنَ من الشكوك التي تدورُ حولهنّ، فقد كان السجّانون لسبب ما يعتقدون بأن الزواج هو جرعة مضادة للعمل السياسي. وأحيانًا تتزوج الفتاة منهنّ لتثبتَ لذويها بأنها قد اصبحت منذ الآن «فتاةً طيبة». أو لأنها ببساطة.. لا تجد شيئًا آخر تفعله.

قالت لي «مهتاب» وهي تنهضُ من مكانها وتهمّ بالمغادرة: «أتعلمين؟ لطالما فكرتُ بأن «غاتسبي» كان في غاية الجمال!.. وكذلك كان ذلك المشهد الذي قرأتِه علينا، عن ذلك اليوم الذي تلتقي فيه «ديزي» بـ«غاتسبي» لأول مرة بعد فراق خمس سنوات، وقد بلّل وجهَها المطر. وذلك المشهد الذي تقول له

فيه بأنه يبدو في غاية اللطف، وهي تقصد أن تقول له بأنها تعشقه! لقد استمتعنا بمحاكمة «غاتسبي».. تعلمين ذلك؟».

أجل.. كنتُ أعلم.. وكان سيرضيني جدًا، في ظروف لا تشبه هذه الظروف، أن أعلم بأنهنّ يتذكرنَ «غاتسبي»، ويتذكرنَ استمتاعهنّ أيضًا، بيد أني في ظرفٍ كهذا خطر ببالي من بين حشدٍ من الافكار، بأن متعة قراءة «غاتسبي» قد استحالَتْ منذ ذلك الحين إلى غصّة في الذاكرة، فقد ارتبطَتْ عندي بحياةِ «مهتاب» في السجن، وبإعدام «راضية».

أحسستُ بأن عليّ أن أفتح الشباك لأدعَ الغرفة تتنفس بعد أن غادرتاها. كنت أستطيع من غرفة مكتبي أن أرى باحة الجامعة، وأرى الثلوج وهي توشكُ أن تحتضن الأشجار. لقد تركَتْ «مهتاب» وراءها ثقلاً كبيرًا ومضَتْ، ثقلاً ملأ الجو بمشاعر من وخز الألم ولوعة الاستسلام. فهل كانت هي المحظوظة حقًا؟ المحظوظة التي أطلقَ سراحها لتتزوج برجل ما؟ المحظوظة التي ترفعُ التقارير للسجانين في كل شهر؟ المحظوظة التي تملكُ بيتًا ريفيًا في الخرائب وطفلاً عمره سنتان؟.. أكانت هي المحظوظة حقًا.. و«راضية» هي التي خطفها الموت؟! كانت «نسرين» هي الأخرى قد وصفَتْ نفسها بهذا الوصف: محظوظة! يبدو أن طالباتي قد ابتدعنَ مفهومًا جديدًا عن الحظ!

كانت الملاحظة الثانية التي اقتبستُها عن «جيمس» وكتبتُها على بطاقة الفهرسة الوردية، تحكي عن ردة فعله لدى رحيل «روبرت بروك»، الشاعر الإنكليزي الشاب الرائع الذي وافاهُ الأجل إثرَ تسمم في الدم إبان الحرب. فكتب يقول: «أعترف بأنني لا أملك أي فلسفة، أو إيمان، أو صبر، لا أملك أي موهبة للتأمل، ولا نظرية للمواساة، إذ أجد نفسي وجهًا لوجه مع هذه البشاعة، والوحشية والجنون؛ انه لأمرٌ مريع بشكلٍ يفوق الوصف، ولا شفاء لي من روعه، ولا أستطيع النظر إليه إلا بعينين أعماهما الغضب أو كاد».

أضفتُ كملاحظة لاحقة بقلم الرصاص، إلى جانب الكلمات الأخيرة: «راضية».

[25]

كم كانت غريبةً تلك الأماكن التي جمعتْ طالباتي معًا، وكم كانت مظلمةً كل تلك الزوايا التي كنّ يأتين إليّ منها بالأخبار! لم أستطع السفر إلى تلك الأماكن، بل ولا زلتُ لا أستطيع تخيّلها مهما كان عدد المرات التي أسمع فيها مزيدًا من التفاصيلَ عنها. ومع ذلك، لا بدّ من أن يكون ثمة شيء يمنح البهجة لـ«راضية» و«مهتاب»، إذ تتحدثان عن «جيمس» و«فيتزجيرالد» وهما في زنزانتهما هناك، تقفانِ على شعرةٍ بين الحياة والموت. ربما أن كلمة «بهجة» هي ليست بالضبط الكلمة المطلوبة. لقد ذكرتُها لأنها مثل رواياتي الأثيرة، سفرائي الأعز من العالم الجميل، فلا الـ«بهجة» ولا تلك الروايات يمكنني أن أتخيّلها وهي في تلك الأماكن! كم أفكر في «راضية» وهي في ذلك السجن! وكم أفكر فيها وهي تواجه فرقة الإعدام في ليلة حالكة من تلك الليالي! من يدري.. قد تكون هي الليلة ذاتها التي كنت أقرأ فيها «الوداع الطويل» أو «أهالي بوسطن»!

أتذكر الآن، كما تذكّرت حينئذ، كم أن أكثر ما كان يثير الدهشة في «راضية» هو عشقها لـ«جيمس». أتذكّرُ طالبات ذلك الصف الذي كنت أدرّسه في «جامعة الزهراء»، وأتذكر معهنّ كل ما أصابني من إحباط في ذلك الحين. كان ما يميّز هذه التي أطلق عليها تجاوزًا اسم جامعة، هو أن كل منتسبيها من الإناث، وكانت الكلية الوحيدة من نوعها في إيران. كانت عبارة عن مبنى صغير ذي

حديقة جميلة وارفة الظلال. وكنتُ قد حاضرتُ فيها لفصلين دراسيين أثناء تدريسي في جامعة طهران في السنة الأولى بعد عودتي. وما صدمني حقًا كان عند تصحيحي أوراق امتحان منتصف الفصل الدراسي، بأن أجد أن معظم الطالبات كنّ اكتفين بإعادة كتابة ما قلته لهنّ في محاضراتي بدلَ التفكير في الإجابة عن الاسئلة! وقد بدَتْ تلك الإعادة مدهشة حقًا في أربع أوراق من دون غيرها، فقد قُمنَ كما يبدو بنسخ محاضرتي عن «وداعًا للسلاح» حرفيًا، بما في ذلك عباراتي المعتادة مثل «كما تعلمْنَ».. بل وحتى استطرادي في الحديث عن حياة «همينغواي» الخاصة. كنت وأنا أقرأ تلك الإجابات أحسّ بأنني أحضر مسرحية هزلية عجيبة تقلّدني في إلقاء المحاضرات!

ذهب بي سوءُ الظن إلى الاعتقاد بأنها حالات غش. فلم أكن لأصدّق بأي حال، أنهنّ أعدنَ كتابة محاضراتي نصًا وبكل دقة، بلا أدنى تعليق! ولكنني علمتُ من زملائي الأساتذة بأن ذلك أمر معتاد: أن تحفظ الطالبات عن ظهر قلب كل ما يقوله الأستاذ، ثم يقمنَ بإعادته عليه من دون أي تحريف.

وفي محاضرتي التي تلت الامتحان، دخلتُ القاعة وأنا استشيطُ غضبًا، وكانت تلك من المرات النادرة التي أغضب فيها داخل الصف وأرفع صوتي، طوال مدة عملي في التدريس بالجامعة. كنتُ أصغر سنًا وأقل خبرة، واعتقدت بأن ثمة أمورًا أساسية لا بد من أن تكون متوقعة ومفهومة بلا جدال. أتذكر أنني قلتُ لهنّ بأنه لو كان ثمة غش لبدا الأمر معقولاً، فحتى الغش كان سيتطلّب بعض البراعة! لكنني وجدتُ بأنكنّ تكرّرنَ كلماتي حرفيًا من دون حتى بصيص فكرة أو رأي عابر.. واستطردتُ على هذا المنوال، وكنتُ كلما تصاعد الحديث كلما ازدادت مبررات سخطي. كنت أزداد اهتياجًا، فقد كان غضبًا من ذلك النوع الذي يتصاعد فنأخذه معنا إلى بيوتنا ونظهره لأسرتنا وأصدقائنا.

صمتنَ جميعًا، حتى هاتيك اللواتي لم يرتكبنَ الخطايا التي نَسبتُها اليهن. أنهيتُ المحاضرة قبل أوانها، لكن الطالبات المتهمات تخلّفنَ عن المغادرة

لإيضاح مبرراتهنّ، بالإضافة إلى مجموعة أُخرى صغيرة. كنّ مستسلمات مستكينات حتى في الدفاع عن أنفسهن، فأردنَ فقط أن يلتمسنَ العفو والسماح. فلم يكنّ قد خَبرنَ أي طريقة أخرى أفضل، وكان هذا ما يطلبه منهنّ معظم الأساتذة. اثنتان منهنّ كانتا تبكيان. ما الذي كان بوسعهنّ فعله أكثر من ذلك، إذ لم يعلمهنّ أحد أي طريقة غير هذه للإجابة؟ فمنذ أن خطَتْ أقدامهنّ على العتبات الأولى للدراسة الابتدائية كان ثمة من يعلّمهنّ بأن يحفظنَ بصمًا، ومن يخبرهنّ بأن آراءهن لم تكن ذات قيمة.

بقيَتْ «راضية» وحدها في القاعة بعد أن غادر الجميع. ثم أخبرتني أنها تريد أن تتحدث إلي. وقالت: «ليس الخطأ خطأهنّ.. أعني إنه كذلك بطريقة أو بأُخرى ربما، ولكنني طالما اعتقدتُ بأنك تهتمينَ بطالباتك». كانت نبرة التأنيب في صوتها قد أجفلتني، فقلت: «وهل كنت سأغضب إلى هذا الحد لو لم أكن مهتمة فعلاً ؟». فردّتْ بهدوء: «فعلاً.. هذا هو العذر الأسهل، ولكن كان عليك أن تضعي في حسابك الجو الذي أتينا منه. فمعظم البنات لم يستمعنَ في حياتهنّ لأيّ تشجيع على أيّ شيء يفعلنه، ولم يقل لهنّ أحد بأنهنّ كفوءات أو لا بد وأن يكون لهنّ تفكيرهنّ المستقل. وها إنك تأتين لتصطدمي بهنّ وتتهميهنّ بخيانة مبادئ لم يقل لهن أحد بأنها ذات قيمة. لقد توقعتُ منكِ أن تكوني أكثر تقديرًا للموقف».

انظروا إليها! لهذه البنت الصغيرة، طالبتي، وهي تلقي عليّ محاضرة! ها هي بعدُ لا يمكن أن تكون قد تجاوزَت العشرين من عمرها، ولكنها استطاعتْ أن تبدو بكامل سلطتها، من دون أن تتجاوز حدود اللياقة! قالت: «إنهنّ يعشقن هذا الدرس، لقد عرفنَ كيف يعشقن حتى «كاترين سلوبر» على رغم أنها ليست جميلة ويعوزها كل شيء يروق لهنّ وجوده في بطلة روائية». فقلت: «في هذه الأيام الشرورية أكاد ألا أندهش إذ أجد أن الطالبات لا يعرنَ اهتمامًا كبيرًا للشؤون والتجارب الشخصية لفتاة اميركية من القرن الثامن عشر، غنية وعادية

المظهر». فاحتجَّتْ بشدة، وقالت: «في هذه الأيام الثورية نجد أنهنّ حتى أكثر اهتمامًا! لا أدري لماذا يعتقد الأغنياء دائمًا بأن أولئك الأقل حظًا منهم لا يرغبون بالحصول على الأشياء الجيدة في الحياة، كأنْ يعتقدون مثلاً بأنهم لا يرغبون بسماع الموسيقى الجيدة، أو تناول الطعام الجيد، أو قراءة «هنري جيمس»».

كانت «راضية» فتاة ضئيلة الحجم، صغيرة وسمراء. لا بدّ من أن تكون جدّيتها قد شكّلتْ عبئًا على رهافة جسدها، ومع ذلك لم تكن ضعيفة. فكيف يمكن لمظهر شخص بهذه الرهافة أن يعطي انطباعًا بالتماسك إلى هذا الحد؟ لست أدري! «راضية».. لا أتذكر اسمها الأخير، لكني استطيع أن أذكر اسمها الأول من دون تحفظات أمنية لأنها لم تعد على قيد الحياة. فيا لها من سخرية: ليس بوسعي استخدام الأسماء الحقيقية إلا للموتى! كانت «راضية» تحظى بإحترام زميلاتها في الصف، وفي زمن الأيديولوجيات المتضاربة، كانت «راضية» تتمتعُ برأي تصغي إليه الطالبات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في الطيف السياسي. كانت عضوًا ناشطة مع المجاهدين، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من التشكيك بمصداقيتهم. لم تكن قد رأت والدها قط، وكانت والدتها تكسب لقمتها كعاملة تنظيف. كانت هي ووالدتها في غاية التديّن، وكانت عقيدتها الدينية هي التي دفعتها إلى الانظمام للمجاهدين، فقد كانت تشعر بالاحتقار للإسلاميين الذين اغتصبوا السلطة.

كان لدى «راضية» طاقة مذهلة لاستيعاب الجَمال. قالت لي ذات مرة: أتعلمين؟.. لقد عشت طوال حياتي في الفقر. كنت مجبرةً على سرقة الكتب، والتسلل إلى دور السينما.. ولكن.. يا إلهي!.. كم عشقتُ تلك الكتب! لا أظن بأن ثمة طفلاً غنيًا واحدًا قد تعلّق بـ«ربيكا» أو «ذهب مع الريح» قدر تعلّقي بهما. كنت قد استعرتُ الترجمات من البيوت التي كانت أمي تعمل فيها. أما «جيمس».. ! يا إلهي..! كم هو مختلف عن أي كاتب قرأت له طوال حياتي! ثم أضافت وهي تضحك: «أظن بأنني وقعت في غرامه!».

كانت مزيجًا عجيبًا من المشاعر المتناقضة معًا. فكانت قاسية وحاسمة وصارمة ومتجلّدة، ومع ذلك فقد كانت تعشق الروايات وتعشق الكتابة بل وتكتب بولعٍ حقيقي. كانت تقول بأنها لا ترغب بالكتابة بل بالتدريس؛ فهي تصف نفسها بأنها: «كاتبة عاجزة عن التعبير». وتقول: «نحن نحسدُ مَن هم مثلكِ، ونتمنى لو كنا «أنتِ»، لكننا لا نملك إلى ذلك سبيلاً، ولذا فنحن ندمرك!».

بعد أن تركتُ عملي في تلك الكلية، التقيتُ بـ«راضية» مرة واحدة فقط. أعتقد بأنها كانت تحسّ بأنني قد تخليتُ عنهنّ لأنني تركتُ العمل في كلّيتهنّ الصغيرة للتدريس في جامعة طهران. دعوتها إلى حضور محاضراتي، لكي نبقى على اتصال معًا، لكنها لم تفعل.

بعد التظاهرات الدامية صيف١٩٨١ بأشهر قلائل، كنت أسيرُ في شارع عريض مشمس قرب جامعة طهران، عندما لفتَت انتباهي هيئةُ إمرأةٍ ضئيلة الحجم، ملفّعة بجادور أسود تسيرُ في الاتجاه المعاكس. كان السبب الوحيد الذي لفت انتباهي لها فعلاً تلك الإيماءة الجافلة التي اوقفَتْها عن الحركة للحظةً وهي تنظر إليّ. كانت تلك هي «راضية». لم تُلق عليّ التحية، واستطعتُ ان ألمحَ في نظرتها إنكارًا والتماسًا بألاّ أشي بأنني أعرفها. فتبادلنا النظرات ومضينا كلٌّ إلى غايته.

ولن أنسى ما حييتُ تلك النظرة في ذلك اليوم، لن أنساها: بجسدها الناحل الضعيف جدًا، ووجهها الصغير وعينيها الواسعتين الشبيهتين بعيني بومٍ أو ماردٍ يطلّ من حكايات الخيال.

[26]

طالما أنني ذكرتُها، فلأغيّر إذًا مسار حديثي، وأحدثكم عن كتاب «راضية» المفضّل، وليكن ذلك إحياءً لذكرى رحيلها.

فما الذي يمكنهُ أن يسحرَ «راضية» في رواية «ميدان واشنطن»؟ صحيح أنه كان ثمة تطابق إذ وجدَتْ شيئًا من نفسها في بطلة الرواية سيئة الحظ، ومع ذلك فإن الأمر ليس بهذه البساطة.

تبدو رواية «ميدان واشنطن» لأول وهلة رواية مباشرة للغاية، ومع هذا نجدُ أن شخوصها خادعة: فهم يتصرفون بعكس توقعاتنا، ابتداءً من البطلة «كاترين سلوبر». فوالد «كاترين»، ذلك الرجل الذكي الناجح ماديًا، يضيّق الخناق على ابنته، ويتجاهلها ويزدريها. ولا يستطيع أن ينسى أن هذه الابنة المتفانية الخجول كانت سببًا في فقدانه لزوجته الحبيبة، التي رحلت وهي تلدها. ناهيك عن أنه لا يستطيع تجاوز خيبة أمله فيها لأنها لم تكن غايةً في الذكاء والجمال. وأيضًا: تقع «كاترين» في شرك حبها لـ«موريس تاوزند» الذي تصفه بـ«الشاب المبذّر الجميل»، والذي كان يتودّد إليها ويغريها حبًّا بمالها. وتكمّل السيدة «بنيمان» ثالوث الشر، وهي عمتها الأرملة العاطفية الضحلة والمتطفلة، التي تحاول استرضاء طموحات كاترين العاطفية بأن تفوّض نفسها لترتّب لها زيجات على مزاجها.

تعتبر «كاترين» شخصية استثنائية حتى بالنسبة لـ«جيمس». فهي تحملُ كل ما

لا نستطيع تخيّله في بطلة رواية: فهي ضخمة وغير جميلة، أمينة وتتمتع بصحة جيدة لكنها غبية وسطحية. وهي محشورة وسط شخصيات ثلاث، كلهم لامعون وأذكياء وأنانيون، فيسيئون إليها ويحطّون من شأنها، إذ هي مصرّة على الإخلاص والطيبة. لقد حرم «جيمس» «كاترين» من كل المقومات التي تجعل منها بطلة روائية مثيرة، فكان يسحب عنها المميزات الواحدة تلو الاخرى ليعيد توزيعها على بقية الشخوص: فمنح «موريس تاوزند» الوسامة والذكاء، وأعطى السيدة «بنيمان» ولعًا مكيافيلليًا بالمكيدة، أما الدكتور «سلوبر» فقد كانت حصته الحكمة والسخرية. بيد أنه في الوقت ذاته، يحرم الجميع من القيمة الوحيدة التي تمتاز بها بطلته، وهي الحنان.

و«كاترين»، مثلها مثل كثير من بطلات الروايات، لا بد وأن تكون على خطأ، فهي بارعة في خداع نفسها. وهي مؤمنة بأن «موريس» يحبها، وترفض تصديق أبيها الذي طالما أكد لها العكس. لم يكن «جيمس» يميل إلى أن يجعل أبطاله وبطلاته معصومين من الخطأ. في الواقع، هم جميعاً يرتكبون الأخطاء التي لا تسيء في معظمها إلا لأنفسهم. وتعتبر أخطاؤهم تلك بمثابة الخطأ التراجيدي في التراجيديات الكلاسيكية، الذي يعتبر ملمحًا أساسيًا في تنامي الشخصية ونضوجها.

والدكتور «سلوبر» الذي يبدو أكثر الشخصيات شرًا، فهو أيضًا أكثرهم استقامة، لأنه مستقيم في عمله وفي حياته الخاصة، ومعظم تكهّناته بشأن ابنته تأتي صائبة، إذا لم نقلْ كلها. فهو يتكهّن بسخريته المعهودة بأن السيدة «بنيمان» ستحاول أن تغري ابنته بقولها: «بأن شابًا ذا شارب قد وقع في غرامها». فيقول: «ولن يكون ذلك حقيقيًا بأي حال، فلا شاب بشارب ولا بغير شارب يمكنه ان يقع في غرام «كاترين»!». منذ البداية، يشكك الدكتور «سلوبر» في صدق نيات «موريس» تجاه ابنته، ويبذل قصارى جهده ليحول دون زواجهما. ولكنه رغم ذكائه الوقّاد لا يستطيع أن ينفذ إلى قلب ابنته، فهو يتفاجأ بتصرفاتها باستمرار

لأنه لا يعرفها حقّ المعرفة. وهو لا يحطّ من قدرها فحسب، بل ويزيد على ذلك الفعل ما هو أسوأ: فهو فاشل لأن قلبه فشلَ في أن يحب ابنته. وعليه، كان لا بد لقلب «كاترين» من أن يتحطّم مرتين: مرة على يد حبيبها المزعوم، ومرة أخرى على يد أبيها. فهو إذًا ـ أي الأب ـ مدانٌ بالجريمة نفسها التي يتّهم بها «موريس»: فكلاهما لا يحب «كاترين».

يحيلنا الحديث عن الدكتور «سلوبر»، إلى حكمة قالها «فلوبير»: «لكي تحسّ بقلوب الآخرين، لا بد أن تمتلك قلبًا أولاً». في تلك اللحظة تمامًا تذكرت السيد «قمّي» المسكين الذي فاتته كل تلك المعاني الرقيقة، أو ربما كان من الأصح القول: السيد «قمي» الأوفر حظًا منّا، فوساوس من هذا النوع لا يمكن أن تمرّ بباله، وفي رواية كهذه سيكون على البنت أن تطيع أباها، وتنتهي القصة.

نعود إلى الدكتور «سلوبر» ومعاملته لابنته، فنجد أنه لا يهتم بل ولا يرى احتياجاتها. فهو يتذمّر لأنها لا تحقق أي إنجاز، بيد أنه لا يقرأ فيها ولعها الدفين بالموسيقى والمسرح. وهو يتنبه لما ترتكبه من حماقات، ويفوته أن يحسّ بتوقها الجارف لأن تُعشق.

لم تكن مصادفة أن ترتدي «كاترين» فستانًا من الساتان الأحمر في أول لقاء لها مع «موريس تاوزند» في عرس ابنة عمها، بعد أن يكون قد «انبثق في داخلها فجأة ذوقٌ جديد في تفضيل الملابس الزاهية». ويحدّثنا الراوي أن «إطلاق «كاترين» العنان لنفسها بهذا الأسلوب، قد نبعَ من رغبة دفينة في داخلها لإثبات الذات، فسعَتْ إلى أن تكون معبرة فيما ترتدي، وأن تضع المساحيق التجميلية على حيائها في الكلام بارتدائها ملابس صارخة البوح». لكن الفستان كان كارثيًا، فلم يكن لونه مناسبًا مطلقًا، مما جعلها تبدو أكبر سنًا بعشر سنوات على الأقل، بالإضافة إلى أنه أصبح مادة غنية لتعليقات أبيها الساخرة. في تلك الليلة بعينها، تلتقي «كاترين» بـ«موريس» وتقع في غرامه، ويخسر الأب فرصته مرتين: مرة في فهمها، والثانية في محاولة مساعدتها.

وبذلك يرتكب الدكتور «سلوبر» أكبر جريمة لا تغتفر في الأدب وهي فقدان القدرة على الخيال؛ أو «عمى الخيال». يقول الشاعر «جون شايد» في رواية «النار الخافتة» لـ«نابوكوف»: «الرحمةُ هي كلمة السر». فذلك الاحترام للآخرين والتعاطف، إنما يقعان في صلب ثيمة الرواية. إنها القيمة التي تربط «أوستن» بـ«فلوبير»، و«جيمس» بـ«نابوكوف» و«بيللو». وبحسب اعتقادي إنه بهذه الطريقة يتم خلق الشخصية الشريرة المحض في الأدب الحديث: فهو مخلوق بلا شفقة أو ضمير. أما الشخصيات التي تجسد الخير والشر فإنها مأخوذة ومحددة عبر المفاهيم النمطية التي تتكون منها الملاحم الرومانسية، مثل مفاهيم الشجاعة والبطولة.. إلخ. فيغدو البطل هو ذلك الذي يتفانى في الحفاظ على شرفه وأمانته مهما كان الثمن، ومثله تكون البطلة.

أعتقد بأن معظم طلبتي يتفقون معي في ذلك التعريف للشر، لأنه كان قريبًا كل القرب من تجاربهم الحياتية. فأنا مؤمنة بأن انعدام الشفقة هي أكبر كبائر النظام، وهي التي تجرّ من ورائها كل الخطايا. وقد ذاقَ جيلنا طعم الحرية الشخصية ثم حُرم منها، وأيًا ما كان ألم الحرمان، فقد كنا نملك ذاكرة تحمينا من تصحّر الحاضر. ولكن، ما الذي يملكه هذا الجيل الجديد ليحمي به نفسه؟ لقد كانوا مثل «كاثرين»، فكانت رغباتهم وطموحاتهم وتوقُهم للتعبير عن أنفسهم، كل ذلك ينعكس ليظهر بشكل تصرفات غريبة الأطوار.

و«كاثرين سلوبر»، رغم معاناتها من تجاهل الأب، واستغلال العمة، وأخيرًا هجر الحبيب لها، فإنها تتعظ، وتتعلم كيف تقف بوجه الجميع، وليس بأسلوبهم، وإنما بأسلوبها هي: بهدوء وتواضع. وتبقى رغم كل شيء محتفظة بطريقتها الخاصة في التعامل مع الأحداث والبشر. فتعاند أباها حتى وهو على فراش الموت برفضها أن تعِدَهُ بعدم الزواج من «موريس»، رغم أنها لم تعد تملك رغبة في ذلك. وترفض أن «تفتح قلبها» لعمتها لترضي فضولها العاطفي. وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب، في ذلك المشهد الهادئ

الرائع، ترفض «كاترين» اليد التي يمدها إليها حبيبها المتلوّن بعد عشرين عامًا. فتفاجئ الجميع بكل تصرفاتها، رغم أنها لم تكن لتتصرف بدافع الرغبة بالانتقام، بل بدافع من الإحساس بالكرامة والإصرار على حسن التصرف واللياقة، وهي صفات لم تعد تلاقي رواجًا هذه الأيام، لكنها ما زالت مفضلة عند أبطال روايات «جيمس».

وتتمتع «كاترين» وحدها بقدرة على التغيّر والنضوج، على رغم أنها تدفع مقابل ذلك ثمنًا باهظًا، مثل الكثير من بطلات «جيمس» في روايات أُخرى كثيرة. وهي تنتقم فعلاً بطريقة أو بأُخرى من أبيها وحبيبها بأن ترفض الانصياع لهما، لتحقق فوزها الشخصي في النهاية.

هذا إذا جاز لنا أن نسميه فوزًا! فسيكون بوسعنا بعد ذلك أن نصدّق دعوى «جيمس» بشأن «تخيل الكارثة»، فالكثير من أبطال «جيمس» لا ينتهي بهم المطاف نهايات سعيدة، على رغم أن «جيمس» يعمد إلى خلق جو من الانتصار لهم. ولأن تلك الشخوص تعتمد إلى حد كبير على مفهومها للاستقامة والأمانة، فهم يعتبرون الانتصار أمرًا لا علاقة له بالسعادة، بل له علاقة ربما بالاستقرار النفسي. إنه مناورة داخلية تفضي بهم نحو الكمال. فليست «السعادة» هي الجزاء المنشود (وهي كلمة كثيرًا ما ترد في روايات «أوستن» ولكنها نادرة جدًا في عالم «جيمس»). فما يحظى به شخوص «جيمس» هو احترامهم لأنفسهم. ونغدو مقتنعين في النهاية كقراء بأن ذلك هو أصعب ما يمكن تحقيقه في الحياة، وهذا ما نحس به فعلاً إذ نصل إلى آخر صفحة من «ميدان واشنطن»، فنجد «كاترين» وقد تركها خطيبها الساخط: «تجلس في تلك الأثناء في البهو، وتلتقط قطعة التطريز التي تحبها لتستأنف العمل عليها من جديد، كما كانت تفعل سابقًا، وهذه المرة يبدو أنها ستكرّس لها كل ما تبقى من حياتها».

[27]

ضغطتُ على جرس البوابة الخارجية مرة أُخرى، ولم أسمع الرد أيضًا. تراجعتُ خطوة عن البوابة وتطلّعتُ إلى شقته: كانت ستائر شباك غرفة الطعام مسدلة، وكان كل شيء حليبيًا وهادئًا. كنتُ على موعد معه عصر ذلك اليوم، وكان من المفترض أن يمرّ بي «بيجان» بعد ذلك ليصطحبني إلى موعد على العشاء عند أحد الأصدقاء. كنت أفكر بالبحث عن هاتف لأتصل به حينما فتح البوابة أحد الجيران وهو يحمل كيسًا من الفواكه، فدعاني للدخول وهو يبتسم مُرحِّبًا. فشكرته ودخلت راكضة إلى السلالم. كان باب شقته مفتوحًا، وإذ لم أسمع ردًا على كل نداءاتي، اضطررت إلى الدخول.

كانت الشقة بأفضل حال، كل شيء في مكانه الصحيح: الكرسي الهزاز والبساط، كانت الصحف اليومية مطوية بعناية على المنضدة، وفراش السرير مرتبًا. رحتُ أدور بين الغرف بحثًا عن أي إشارة، عن شيء في غير مكانه، عن أي دليل يفسّر هذا التغير في الروتين الذي عوّدنا هو عليه. كان الباب مفتوحًا. فلا بد من أنه خرج لجلب شيء ما.. ليكن بعض القهوة أو الحليب، وترك الباب مفتوحًا من أجلي. وإلا فبماذا أفسّر هذا الغياب إذًا؟ هل ثمة شيء آخر يفسّره؟ هل جاؤوا إلى هنا وأخذوه؟ أيمكن أن يكونوا قد أخذوه فعلًا؟

ما أن طرأتْ هذه الفكرة ببالي حتى استحوذَتْ عليّ تمامًا، ظلّتْ تطنّ في أذنيّ مثل لازمة مزعجة: «لقد أخذوه!».. «لقد أخذوه!».. «لقد.. أ»...

لم يعد خافيًا على أحد أنهم فعلوا ذلك مع كثيرين سواه. ذات يوم، كانت شقة أحد الكتّاب مفتوحة، فدخلَ أصدقاؤه ليجدوا بقايا فطوره على مائدة المطبخ: صفارَ بيضةٍ يسيحُ على الصحن، قطعةً من الخبز المحمص، زبدة، وقليلاً من مربى الكرز، وقدح شاي نصف فارغ. كانت كل غرفة في الشقة تبدو وكأنها وصفٌ لعملٍ غير مكتمل: في غرفة النوم: كان فراش السرير غير مرتب، في المكتب كانت الكتب مبعثرة على الأرض وعلى الكرسي المغلّف الكبير، وقد تُرِكَ كتابٌ مفتوح ونظارات طبية على منضدة الكتابة. وبعد أسبوعين، اكتشفوا أن الشرطة السرية «اختطفته» لتستجوبه.

كانت هذه الاستجوابات قد غدَتْ جزءًا عاديًا من حياتنا اليومية. ولكن لماذا؟ لماذا يأخذونه؟ ليس للرجل ايّ انتماءاتٍ سياسية.. ولم يتعوّد كتابة مقالات تحريضية.. و.. ولكن لحظة.. إن لديه الكثير من الأصدقاء!.. أنى لي أن أعرف بأنه ليس متورطًا مع جماعة سياسية سرية؟ أو بأنه قائد لميليشيا تعمل تحت الأرض مثلاً؟ كانت الفكرة قد بدت لي سخيفة، لكن أي تفسير كان خيرًا من لا شيء: فقد كان عليّ أن أجد سببًا لهذا الغياب المفاجئ لرجلٍ يعرف معنى الانضباط ويعي ويقدّر التزاماته، فإذا أعطى موعدًا لأحد، يكون جاهزًا قبل خمس دقائق بالضبط من موعده. رجل اكتشفتُ فجأة بأنه تعمّد أن يخلقَ لنفسه صورة مبنية على أساس نظامه الخاص، فصارت الخطوط العامة لحياته مثل فتات خبزٍ ينثره لنا على الأرض، فنتتبعه لنعرف تحركات ذلك الرجل.

نظرتُ إلى الهاتف عند الكرسي الكبير في غرفة الطعام، لماذا لا أتصل بـ«رضا»؟.. أقرب أصدقائه؟ ولكنني سأقلقه هو الآخر، من الأفضل أن أنتظر بعض الوقت، فقد يعود في هذه الأثناء. ولكن ماذا لو عادوا من جديد ووجدوني هنا؟ إشش.. اسكتي.. اسكتي! انتظري فقط، وسيكون هنا بعد لحظات. تطلّعتُ إلى ساعتي. لم يكن قد تأخر سوى خمسٍ وأربعين دقيقة فقط. ماذا؟ فقط؟ سأنتظر نصف ساعة أُخرى، وبعدها أقرر.

ذهبت الى المكتبة وألقيتُ نظرة إلى رفوف الكتب، كل شيء كان مرتبًا بحسب الموضوع والعنوان. التقطتُ رواية، وأعدتها من جديد، ثم لمحتُ، وانا أسحبُ كتابًا نقديًا، كتاب إليوت: «أربعُ رباعيات».. فعلًا.. انها فكرة لا بأس بها. فتحته مثلما كنا نفتح ديوان «حافظ»: نغمضُ أعيننا ونحن نطرح السؤال الذي نريد، ثم نضعُ إحدى أصابعنا في صفحة من الصفحات لا على التعيين.

انفتحَ الكتاب على صفحة من منتصف قصيدة: «نورتون المحترقة»، وكانت الأسطر التالية أول الصفحة:

«في اللحظةِ الساكنةِ من العالمِ المتغيّر
ليس ثمة: نبضٌ
أو: لا نبض
ليسَ ثمة: من
أو: إلى
في تلك اللحظةِ الساكنةِ
ثمة رقصةٌ راهنة».

أغلقتُ الكتاب، وعدت إلى الكرسي الكبير وأنا أشعر بإعياءٍ كامل.

رنّ جرس الهاتف. إذا كان المُتّصل صديقًا، فسيغلقُ الخط بعد الرنة الثالثة. وإذا لم يكن كذلك؟ ماذا لو كان هو؟ تركَ لي الباب مفتوحًا، ثم اتصلَ بي في البيت ولم يجد أحدًا، وها هو يكلمني هنا. ولكن لماذا لم يترك لي أي ورقة أو ملاحظة؟ لو كنت مكانه، كنتُ سأنسى أن أكتب أي ورقة، هذا لو كنتُ «أنا»، بأفكاري غير المنظمة، أما «هو».. فلا.. لم يكن لينسى أن يفعل ذلك. ولكن ماذا لو لم يكن لديه الوقت الكافي لكتابة شيء؟ أو أنه ربما «لم يستطع» الكتابة؟ لو كانوا قد جاؤوا لأخذه، فهل كان سيستأذنهم: لحظةً من فضلكم، دعوني فقط أكتب ملاحظة لصديقتي فلانة التي ستكون هنا بعد قليل،

وبإمكانكم المجيء لأخذها هي الأُخرى لاحقًا! «عزيزتي آذر، آسف، لم أستطع الانتظار.. إبقيْ حيث أنت؛ سيعودون لأخذك قريبًا!».

أصابني الهلعُ فجأة. فكرتُ بأني لا بد من أن أتصل بـ«رضا». أتصل به لئلا أموتَ قلقًا. كل ما في الأمر إن رأسين معًا خيرٌ من رأس بمفرده! كان صوت الهاتف قد انقطع عند الرنة الثالثة، فطلبتُ «رضا» وشرحتُ له الأمر. كان صوته مطمئنًا، فلماذا أحسستُ برعبٍ مفاجئ يتسلل من بين كلماته المطمئنة؟ قال لي: «سأكون عندك، امهليني فقط نصف ساعة».

ما أن أعدتُ السماعة لمكانها حتى أحسست بالندم على اتصالي! فماذا لو حدث ما هو أسوء؟ لماذا أورّط معي شخصًا آخر؟ وإذا كان لم يكن قد حدثَ للرجل أي مكروه، فإن ذلك سيعني..

راوغتُ أفكاري وعدتُ الى «أربع رباعيات». قلّبتُ الصفحات لأقف عند البداية، تحديدًا عند تلك الأبيات التي اعتدتُ قراءتها مع نفسي في بداية دراستي لـ«اليوت» في الكلية:

الحاضر والماضي
كلاهما.. ربما.. حاضران في المستقبل،
والمستقبل مخبأ في الماضي
فإذا كانت كل الأزمنة حاضرة أبدًا
فهي إذًا حتميةٌ ولا مناص منها.

كيف لم ألتفتْ لمغزى حتمية الحاضر، رغم أنني قرأت هذه الأبيات مرارًا؟ ورحتُ أقرأ الأبيات بصوتٍ عالٍ وأنا أدور في الغرفة:

«ما كان يمكن أن يحدث، فهو المطلق
ويبقى احتمالاً أبديًا
في عالمٍ افتراضي محض
وما حدثَ، وما كان يمكن أن يحدث

فإنما يشير إلى نهاية واحدة، تبقى في الحاضر دائمًا».

هنا، وصلتُ إلى ذلك الجزء الأثير من القصيدة، وأنا أحسّ بأنني على شفا حفرةٍ من البكاء:

«صدى وقع أقدامنا يرنّ في الذاكرة
على الطريق التي لم نسلكْ
صوب الباب الذي لم نفتحْ
على الحديقة الملأى بالورود
هكذا يعود صدى كلماتي
في ذاكرتكِ
فلماذا إذًا
تشاكسين إناءً من أوراق الورد؟
لماذا تزعجينَ الورد بالغبار؟
لماذا؟
لست أدري!».

أعدتُ قراءة البيتين الأخيرين ودموعي تنهمرُ لتغسلَ خديّ من الفزع.

وصل صديقه أخيرًا. دعوته للدخول، ورحنا نتبادل الأفكار في اللحظة: نقلتُ إليه هواجسي وخوفي، إذ هو يحاول تهدئتي ممسكًا بيدي ومُربتًا على كتفي.

قال لي: لا تقلقي عليه، انه مجنون! فربما «اضطرّ» إلى حضور ورشة كتابة «طارئة»! لقد عرفَ عنه الإختفاء لأيام «تلبية لواجباتٍ من هذا النوع!». فرددت معترضة: «ولكن أيفعل ذلك بعد أن أكّد موعدًا قبل يوم واحد فقط؟ ألم يكن بإمكانه تركُ رسالة على الأقل؟».

بعد قليل، كنا نجلسُ أنا وهو على الكرسي الكبير، وقد تشابكَتْ أيدينا وشكوكنا ومخاوفنا بحميميةٍ واقتراب، وامتلأنا إحساسًا بالخيبة.

لم نلحظ الباب وهو ينفتح، لكننا سمعنا صرير المفتاح (كان قد نسي بأنه ترك الباب مفتوحًا)، وكان أول ما تفوّه به لحظة دخوله أن قال: «أنا آسف جدًا، لقد كنت مع الولد». بدا في غاية الشحوب، ولو كان يمكن لحاجبين مقوّسين أن يرتخيا أو يغيرا، لقلتُ لكم بأن حاجبيه كانا غائرين! ثم بدا عليه وكأن الإعياء والأسف يتصارعان فيه حينما علم بالقلق البالغ الذي سببه لنا غيابه. قلت له بوهن: «أقلّ ما كان يمكنك فعله هو أن تدعهم يعتقلوك، أو أن تأتينا بالمحققين الى هنا! هل قلتَ بأنك كنتَ مع الولد؟».

كان حينما يقول «الولد» فإنما يشير الى ذلك «الشاب» الذي جاوز الثامنة عشرة من عمره، والذي كان في سنته الأخيرة في الثانوية، حينما تعرف عليه في إحدى محاضراته في السنة الأولى للثورة. وكان الساحر قد تعلّق بهذا الشاب بشكل خاص. كان راغبًا في الالتحاق بكلية الطب، وكان مبهورًا بكلامه عن «إسخيليوس» و«تشابلن». كان قد نجح بتفوّق في امتحان القبول، لكنه حُرم من الحصول على مقعد لأنه كان قد اعترف بأنه بهائي.

كان البهائيون قد عاشوا إبان حكم الشاه حقبةً من الازدهار والحماية. وكانت تلك خطيئة الشاه التي لم يغفرها له النظام مطلقًا. وبعد قيام الثورة صودرَتْ أملاكهم وأعدم زعماؤهم، ولم يعد للبهائيين أي حقوق مدنية في ظل الدستور الإسلامي الجديد، ومُنعوا من الالتحاق بالمدارس والجامعات والوظائف.

كان بوسع الشاب أن يفعل ما فعله كثيرون سواه، بأن ينشر إعلانَ براءةٍ في الصحف ينكر فيه انتماءه لتلك الطائفة «الإمبريالية الفاسدة»، ويتبرأ من والديه، اللذين كانا لحسن الحظ في أوروبا بعيدًا عن مرمى الأذى، ويدّعي بأنه خرجَ عن دينه واهتدى إلى تقليد أحد آيات الله. وكان بذلك سيجعلُ كل الأبواب تنفتحُ أمامه، ولكنه عوضًا عن ذلك، أقرّ بأنه بهائي، رغم أنه لم يكن بهائيًا ملتزمًا أو له أي ميول دينية، حارمًا نفسه بذلك من مستقبل باهر في الطب، إذ لم يكن ثمة شك بأنه كان سيغدو طبيبًا لامعًا.

كان في ذلك الوقت يعيش مع جدته ويزاول أعمالاً متفرقة، (لم يستطعْ في الواقع أن يستمرَّ في أيّ منها طويلاً). وقد عمل أخيرًا في إحدى الصيدليات، العمل الذي وجده الأقرب إلى مهنة الطب. لم أكن قد التقيت به، لكنني سمعت عنه: عن وسامته المبهرة، وعن حبه لفتاة مسلمة سرعان ما تتخلى عنه لتتزوّج من رجلٍ ثري أكبر سنًا، ثم تعود اليه بعد حين، محاولةً استعادة العلاقة معه وهي متزوجة.

اتصل الولد قبل الغداء مباشرةً. كانت جدته مريضة منذ أمد طويل، وقد اتصل من المستشفى ليخبر «الساحر» بأنها توفّيتْ. كان يتكلّم بصوتٍ مخنوق ويردّد بأنه لا يدري ماذا سيفعل. فخرج «الساحر» من البيت على عجل ليهرع الى هناك، وكان يظن بأنه سيعود سريعًا، قبل موعدي بكثير.

وجدَ الشابّ بباب المستشفى يقفُ إلى جوار امرأة ضعيفة مثل خرقة بالية، وكانت تلك هي خالته. كاد الولد أن ينفجر بالبكاء، بيد أنه كان من المستحيل عليه أن يبكي امام أستاذه الذي يحترم ويؤلّه، فحاول التصرّف كرجل بالغ، وأضمرَتْ عيناه الجافتين ما كان أقسى من البكاء. لم يكن ثمة مكان لدفن البهائيين، فقد دمّر النظام مقبرة البهائيين منذ السنوات الأولى للثورة، وأزال القبور بالجرافات. وسرَتْ إشاعات تفيد بأنها أحيلتْ إلى حديقة عامة أو ملعب للأطفال. وقد علمتُ مؤخرًا أنها أصبحتْ مركزًا ثقافيًا يسمى «باختَران».

- «ماذا بوسعك أن تفعل حين تموت جدتك، ولم يكن ثمة مقبرة؟».

نهضتُ من مكاني ورحتُ أدور في الغرفة. فقال لي «ساحري»: «يا أنت.. إجلسي» وأشار الى بقعة بالقرب منه على الأريكة: «إجلسي هنا واهدأي.. لا تتوتّري أكثر.. شكرًا.. هكذا تتصرف البنات المطيعات!». وأجبت: «قبل أن تستأنف حديثك، هل لي أن أجري مكالمة؟». هاتفتُ «بيجان» وطلبتُ منه ان يذهب إلى الحفلة بمفرده، ووعدته بأن ألتحق به بعد حين. وحين عدتُ سمعتُ «رضا» يقول: «عجيبٌ ذلك الهاجس بامتلاك الأحياء والأموات معًا.

ففي بداية الثورة، دمّر الادعاء العام للثورة ضريح «رضا شاه» بالجرّافة، ودمّر النصب التذكاري له، وجعل مكانه دورة مياه عمومية، دشّنها بأن تبوّل فيها بنفسه!».

قطعتُ حديثهما وسألتهما ما إذا كانا يرغبان بتناول بعض القهوة. ذهبتُ وأتيتُ بثلاثة أكواب غير متناسقة مع إبريق للماء المغلي وبعض القهوة سريعة التحضير، ووضعتها على الطاولة. فنهض «ساحري» من مكانه وهرع ليجلب علبة الشوكولاتة من الثلاجة (جنتلمان حقيقي، وفي كل وقت!).

كان الولد قد استعار سيارة من أحد الأصدقاء، وكان يقف منتظرًا بباب المستشفى مع خالته الباكية. لم يكن بوسع الساحر أن يتركه مع خالته فيتدبران أمر الجثة بمفردهما، وقرّر أن يرافقهما على الرغم من اعتراضات الولد الشديدة. كان قد فكر بموعدنا، واتصل بي في البيت، ولكن لم يكن ثمة من يجيب. ولم يخطر بباله الاتصال بـ«رضا»، أو بأن يبلغ أي صديق آخر. فركب السيارة مع الولد وانتهى الامر.

استداروا بالسيارة صوب الباب الخلفي للمستشفى، حيث تسلّموا الجثة الملفحة بكفن أبيض: أمسك بها كلٌّ من طرف ووضعاها في صندوق السيارة. ثم تركوا المستشفى ليسلكوا طريقًا خارجيًا يؤدي بهم إلى أرضٍ خالية خارج طهران، كان قد سمع بأنها قد تفي بغرضهم فيدفنون المرأة بسلام.

كانوا في غاية القلق، فماذا لو استوقفتْهم الميليشيا وهم في الطريق إلى هناك؟ ما الذي يمكن أن يُقال في موقف كهذا؟ وما العمل لو أنهم طلبوا فتح صندوق السيارة؟ هل من سبيلٍ إلى منعهم؟ ما العمل والسيارة أصلاً ليست له، وكان همّ الولد الاّ يورط الأبرياء معه.

قال «الساحر» بانفعال: «الأبرياء!.. هل تدركان معنى أن يحسّ المرءُ بالذنب لا لشيء سوى أنه يحاول أن يدفن جدته؟! أن يدفنها فقط! لا أن يفكر بتشييعها أو بترتيب جنازة طبيعية لها!».

كنتُ أريد أن أقتربَ منه، أن ألمسه، بيد أن ما مرّ به كان قد جعله في مكان آخر.. بعيدًا عنا جدًّا.. لقد كان هناك، لم يزل في السيارة، يقود على الطريق الخارجي المفضي إلى تلك الحديقة المزعومة. كانت ثمة مواقفُ كثيرة تصبح فيها عبارات المواساة غير ذات معنى. فأيّ عبارة يمكنها أن تقالَ لشخص يحدّثك عن اغتصاب العذارى وقتلهن؟ «أنا آسف».. ؟!.. «أحسُّ بمعاناتك»؟!.. كان «ساحري» مثل «نسرين»، كلاهما لم يُطقْ عبارات الشفقة، كلاهما كان يتمنى علينا أن نتفهّم ليأتي تعاطفنا بحجم الأسى فيهما. وكان التعامل مع «ساحري» أصعب بلا شك، فقد اعتملَتْ في نفسه ذلك اليوم مشاعر الذنب والغضب معًا.

سار في الطريق العام الذي اعتاد أن يسلكه مرارًا باتجاه بحر قزوين. فمرّت بهم الأراضي والأشجار والجبال، بينما كانت الخالة تجلس في المقعد الخلفي هادئة، لا تنبس ببنت شفة باستثناء شهقات البكاء التي كانت تعلو بين الحين والحين. أما هما، فلم يتطرقا إلى أي موضوع مهم، باستثناء محاولةٍ لحوارٍ قصير وبأطراف الأصابع، عن جوائز الأوسكار للعام الماضي!

وصلوا إلى المكان، كانت الحديقة مثل أي حديقة عادية أخرى؛ وقد أحيطَتْ بسياج طيني بدَتْ من خلفه بعض الأشجار العالية. ضغط على جهاز تنبيه السيارة، ففتحَ البوابةَ رجلٌ عجوز وقادهم إلى الداخل. عرض عليهم أكثر من فسحة من الأرض وبضعة شواهد، كانت اثنتان منها محفورتان حديثًا وجاهزين. وكان مفهومًا بأن على أسر المتوفين القيام بأنفسهم بالطقوس الأخيرة من تغسيل وتكفين قبل الدفن. فقاد العجوزُ الولد وخالته إلى غرفة صغيرة معدة لهذا الغرض، وجلس الساحر منتظرًا في الخارج وبين يديهِ باقة صغيرة من النرجس الأصفر والأبيض كان قد ابتاعها في الطريق. أما البقيةُ.. فقد مرّت بسلام مثل الحلم: أنزلوا الجثمان في الحفرة وأهالوا عليه التراب، وقفوا عند القبر الرطب بضع دقائق، ثم التفتوا تاركين باقة الورد وحيدةً هناك.

دفع الولدُ للرجل العجوز أجرته. واستقلّوا السيارة قاطعين الطريقَ عودًا على بدء، ولم يتوقف «الساحر» الا عند باب شقته.

«وها إنني الآن هنا.. معكما.. ويرسم الخدمة!». وما أن نظر إليّ حتى التمعَ بعينيه حنان مفاجئ وقال: «وأعتذر جدًا.. فكم كان غباءً مني إذ لم أعِ بحق كيف كنتما ستشعران!».

جلسنا معًا بعض الوقت، ولا أتذكر ما إذا كنا قد تحدّثنا في شيء مهم. نهضتُ من مكاني أخيرًا وسألته أن يطلب لي سيارة أجرة، ففعل. ولمّا وصلَت السيارة أخذتُ وقتي في ارتداء الجلباب والإيشارب وفي إيجاد حقيبتي وإلقاء التحية. لم نتحدث طبعًا في الموضوع الذي كنتُ قد أتيتُ لأجله، فقد بدا الأمر كله بلا معنى! ولكن طبعًا كان ثمة غدٍ آتٍ، أستطيع أن أتصل فيه، بـ «ساحري» وأن أرتّب لموعد جديد. أما في تلك اللحظة، فقد اكتفيتُ بأن أتركَ قبلةً على خدّ كلٍ منهما، وبأن أشكر «رضا» على وقوفه معي، لأهرع نازلةً إلى السيارة التي كانت تنتظر.

[28]

قُبيل ليلتين من أول إعلان عن وقف إطلاق النار في حرب المدن، زارنا بعض الأصدقاء لنشاهد معًا فيلم «موغابو» لـ«جون فورد». كان السيد «فرصتي» قد اعتاد في ذلك الحين أن يمدّني بأشرطة الفيديو. وكان قبل ذلك قد فاجأني ذات مرة بأن تبعني إلى غرفة مكتبي، وفي يده طرد صغير، فاتضح لي بعد ذلك بأنه شريط فيديو لفيلم: «كيبر». ومنذ ذلك اليوم وهو يمدني بالأفلام التي كانت في معظمها أفلامًا أميركية من الدرجة الثانية أو الثالثة. فقد سمعنا بأن الإسلاميين كانوا يحصلون عليها بطريقة أو بأُخرى من البحارة المكلفين بمهماتٍ في الخليج، فلم يكن ممنوعًا عليهم ما هو ممنوعٌ علينا من أفلام، وكانوا يقومون بتهريبها في الموانئ. وبعد مدة، رحت أطلب من السيد «فرصَتي» أفلامًا بعينها. فطلبتُ منه بعضًا من كلاسيكيات السينما، مثل «جولز وجيم» و«الأزمنة الحديثة» أو أفلامًا لـ«هوارد هوكس» و«جون فورد» و«برونيل» و«فلليني». كانت تلك أسماء جديدة عليه، وقد وجدَ صعوبة بالغة في العثور عليها أول الأمر، ربما لأنها لم تكن تقع ضمن اهتمامات البحّارة.

وذات يوم جاءني بـ«موغابو»، وقال لي: «إنه هدية!».. فلم يكن ليخطر بباله بأنه قد يحبّ فيلمًا قديمًا يومًا ما، ولكن ها هوذا قد عشقه! وكان لديه شعور عميق بأن الفيلم سيعجبني.

في تلك الليلة، فرضوا علينا تعتيمًا دام ساعاتٍ طوالاً، وخيم الظلام على

المدينة بأسرها. فجلسنا على ضوء الشموع نتحدثُ ونشربُ «الفيشنوفكا»، وهو شراب الفودكا بالكرز المُعَد بيتيًا. ولم يعكِّر صفو حواراتنا التي انسابتْ بهدوء، سوى أصوات انفجاراتٍ متفرقة كانت تتناهى الينا من بعيد. وفي الليلة التالية، أعلنوا أن العراق سيقبل بوقف إطلاق النار شريطة أن تكون «رمية» الصاروخ الأخير للعراق! كانت هذه الحرب الدامية أشبه بلعبة يلعبها طفلان، ولم يكن مهمًا فيها سوى: «لمن ستكون الكلمة الأخيرة»!

لم يدم وقف إطلاق النار سوى يومين فقط. وكان كثير من الناس قد عادوا إلى طهران معتقدين بأن الهدنة ستستمر. كما وفتحَت الكثير من المحلات أبوابها حتى ساعات متأخرة من الليل، وقد اكتظَّت الشوارع بالناس الذين تهافتوا على الأسواق لتعويض ما فاتهم من أيام التسوّق قبل الأعياد ورأس السنة. وكنتُ قبيل سويعات من خرق وقف إطلاق النار قد دخلتُ في رهان مع أحد الأصدقاء عن المدة التي ستستغرقها الهدنة. كانت تلك الرهانات قد غدَتْ عادة مألوفة في تلك الأيام. فكنا نراهن على الوقت والمكان وعلى عدد الصواريخ التي ستضرب المدينة! كان ذلك يساعدنا على التخفيف من حدّة التوتّر، على الرغم من حجم الألم الذي كان يترتب عليه الفوز بالرهان.

في الساعة العاشرة والنصف من مساء الاثنين استؤنفَت الهجمات، وكانت حصيلة طهران منها فقط حتى فجر الثلاثاء: ستة صواريخ. راح الكثيرون ممن كانوا قد وصلوا طهران للتوّ يهمّون بمغادرتها من جديد. وكان الهدوء الذي حطَّ على المدينة فجأة تقطعه بين الحين والحين أناشيد المعركة وهي تصدح في الشوارع، وتتعالى من المساجد ودوائر الدولة ومقرّات اللجان الثورية وحتى البيوت. وكانت تتخلل الأناشيد «بيانات عسكرية مهمة» وهي تصرّح بهجماتٍ صاروخية جديدة على بغداد، وتعلن لنا المزيد من الانتصارات على «العدو الإمبريالي الصهيوني». فكان علينا أن نطيرَ ابتهاجًا بانتصار «قوى النور على قوى الظلام»، وأن نعزّي أنفسنا إذ نجد بأن العراقيين كانوا مثلنا يعانون من وطأة القدر المحتوم الذي كنا نعانيه!

[29]

توقفَتْ الدراسة في الجامعات قبل عيد رأس السنة الإيرانية في ٢١ آذار/ مارس ١٩٨٨، وبقيّت الجامعات مغلقة حتى وقف إطلاق النار. لقد تعبَ الناس وبدا أنهم لم يعودوا يعبأون بما تصرّح به الحكومة. فأقاموا الأعراس والحفلات بشكل طبيعي متجاوزين بذلك حرس الثورة والميليشيا. واختفى من المشهد ركاب الدراجات النارية الملقّعين بالسواد، نُدمان الموت كما أطلق عليهم بعض الناس، ولم يعد أحد نيراهم في مواقع الانفجارات، بعد أن ضاق الناس ذرعًا وارتفعَتْ أصواتُ نقمتهم ويأسهم، وراحوا يصبّون اللعنات على صدام والنظام الإسلامي على حد سواء. واعترى الجمودُ الكثيرَ من تفاصيل حياتنا اليومية، وصرنا نبحث عن أساليب أكثر نشاطًا للخلاص. فصار الذهاب لتسلّق الجبال المحيطة بطهران أو المشي مسافات طويلة من الأنشطة اليومية الثابتة التي استطعنا من خلالها أن نُنشئ صداقات جديدة، على الرغم من أنها لم تكن من النوع الذي يدوم.

أصبحنا نسمع اسم الدكتاتور العراقي في كل وقت، وأصبح مألوفًا تمامًا مثله مثل اسم الخميني؛ فكلاهما كان تأثيره على حياتنا قد تساوى. وكانت قدرة صدام المروّعة على اللعب بمصائرنا قد جعلتْ شخصيّته حاضرة متطفلة في كل التفاصيل. لم يكن بإمكان أي أحد أن يتّخذ أي قرار، من دون أن يضع في الحسبان تحركات صدام القادمة. صار من المعتاد جدًا أن يتردد اسمه بيننا مرارًا.

وصار شخصية رئيسة في ألعاب الأطفال، وأصبحَتْ تحركاته، في الماضي والحاضر والمستقبل، مادّة أساسية ومفضلة في أي حوار.

كان القصف العراقي المستمر والمكثّف للمدن الإيرانية الرئيسة، خصوصًا طهران، قد حدا بالنظام الى تخفيف شيء من وطأة سلطته على الشعب. لأول مرة أصبح وجود اللجان وحرس الثورة في الشوارع أقل وضوحًا؛ واختفَتْ دوريات حماية الأخلاق من الشوارع بصورة شبه نهائية. واستطاعتْ طهران، حتى وهي غارقة في لُجّةِ حزنٍ عميق، أن تبرزَ وجهها الأكثر إشراقًا. وبدأت تتزايد أعداد النساء اللواتي استبدلْنَ ألوان الإيشاربات الغامقة التي فُرِضَتْ عليهنّ في السابق، بأخرى أكثر ألقًا، وازدادتْ ظاهرة استخدام مساحيق التجميل، وصارت جوارب النايلون تظهر أكثر من تحت الجلابيب!

أقام الناس حفلاتهم التي كانت تُعزفُ فيها الموسيقى وتُقدَّم المشروبات الكحولية من دون أن يعيروا أي اهتمام لتفتيشٍ مفاجئ من الدوريات، ومن دون أن يضطروا لرشوة اللجان المحلية.

وللسخرية، كانت المساحة الوحيدة التي حاول النظام إبقاء حكم سيطرته عليها هي عقولنا وخيالنا! فراح يبثّ لنا عبر الشاشة الصغيرة كل ما تيسّر من أفلام وثائقية عن الحربين العالميتين على مدار الساعة. وفي الوقت الذي غدَتْ فيه شوارع طهران أكثر حيوية وأبهى لونًا، بعد أن كانت شبه خالية، صرنا مضطرين لمشاهدة أهالي لندن في التلفزيون وهم يبحثون عن كسرة خبزٍ في صناديق القمامة، أو وهم قابعون برعبٍ في ملاجئ تحت الأرض. وحدَّثونا عن حصار لينينغراد وستالينغراد الوحشيين، وكيف أن أهالي المدينتين كانوا يقاومون الموت بأكل لحم رفاقهم الميتين!

كان النظام بذلك يحاول أن يبررَ لنا حربًا بدأتْ تفقدُ معناها وشعبيتها بشكلٍ متزايد، بعد أن رفضَ وضعَ حدٍ لها إلا بـ«تحرير» العراق بشكل نهائي وكامل. وكان يهدف قبل هذا وذاك، إلى اتّباع سياسة ترغيبٍ وترهيب للغالبية

المتململة من الناس بالتلويح بإمكانية حدوث ما هو أسوأ بكثير، وبتذكيرنا بأنه لم يكن «كل شيء هادئًا على الجبهة الغربية»!

بدأنا نصدق كل ما تقوله الإشاعات. وكانت إحداها قد سرَتْ في ذلك الربيع تفيدُ بأن العراق صار يمتلك صواريخ حديثة أقوى وأكثر فتكًا، إلى حد أنها من الممكن أن تضرب أي جزء من المدينة في اللحظة من دون أدنى إشارة أو سابق إنذار. فصرنا نسلّي النفس بالرضا عن الصواريخ العادية، ونبتهل إلى الله أن يقينا شرّ السلاح الجديد. وأخيرًا، في نيسان/ أبريل من ذلك العام، أذاقونا الطعم المروّع للصواريخ الحديثة.

وبعد مدة وجيزة، جاءنا نبأ قصف قرية كردية داخل العراق بالأسلحة الكيماوية مما فتح الباب لتوقعاتٍ أكثر رعبًا بكثير. فكانت أحدث الإشاعات تحدّثنا أن العراق ينوي ضرب طهران والمدن الرئيسة الأخرى بالأسلحة الكيماوية. وكان النظام قد استثمر تلك الإشاعات لبثّ الهلع في النفوس، فأصدرت الصحف اليومية ملاحق ارشادية للوقاية من تلك الأسلحة عند وقوع هجوم، وتمّ تخصيص إشارة جديدة للإنذار «الكيماوي»، وهذه المرة كانت الإشارة خضراء! فكان الهلع الناجم عن تجريب الإشارات الخضر قد تكلّل بأن أرسى لدى الجميع قناعة راسخة بأن لا أحد سينجو من الآثار المهلكة لذلك التهديد الجديد.

أعلنتْ الحكومة عن تحديد يوم خاص لـ«مقارعة القنابل الكيماوية»، نظّم فيه حرس الثورة مسيراتٍ واستعراضاتٍ في الشوارع وهم يضعون أقنعة الغاز على وجوههم، ويشلّون بمركباتهم حركة سير المرور في معظم أرجاء المدينة.

بعد ذلك بأيام قلائل، سقط صاروخ على مخبز في إحدى المناطق المزدحمة من طهران. فتجمهر الناس في المكان وبدأوا يلاحظون سحبًا من الدقيق الأبيض وهي تتطايرُ في الهواء، فصرخ أحدهم: «قنبلة كيماوية!». ووقع الناس في هرج ومرج وتدافعوا مذعورين، أصيب الكثيرون واصطدمت

السيارات بعضها ببعض. ولا يُنكر بأن حرس الثورة كانوا قد وصلوا بعد حين مسلّحين بأقنعتهم الواقية من الغاز من أجل إنقاذ الضحايا!

في تلك الأيام أيضًا، أصبح لكلّ حيّ في المدينة علامة فارقة لا يمكن تجاهلها تعلن لنا بأنه قد تعرّض لهجمات صاروخية متلاحقة من دون هوادة. فنرى مثلاً صفًا طويلاً من البيوت والدكاكين وقد تحطّم زجاج نوافذها، ثم نرى مجموعة أُخرى من البيوت وقد تعرّضَتْ لأضرار أكبر، وأخيرًا نجد آثار بيتٍ أو اثنين لا يمكننا سوى تمييز الهيكل العام لهما يتراءى لنا من بين الأنقاض. فصرنا، ونحن في طريقنا إلى السوق أو لزيارة صديق، نمرّ بكل تلك المشاهد تباعًا وبشكل يكاد أن يتطابق من شارع لآخر مثل خط بياني يسجّل الخراب. فنبدأ طريقنا مرورًا بأول الخط البياني صعودًا بالتدريج نحو أعلى نقطة مُدَمَّرة، ثم يبدأ الخط بالتراجع شيئًا فشيئًا لنعود فنرى مشاهد أقل دمارًا ثم أكثر طبيعية، حتى نبلغ أخيرًا مكاننا المقصود!

[30]

لم أكن قد رأيتُ «مينا» منذ وقت طويل، وكانت الأجواء الاحتفالية بعيد رأس السنة الإيرانية قد أتاحتْ لنا فرصة جيدة لإعادة إحياء علاقتنا. لا زلت أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه لزيارتها، لا لشيء سوى لأنه تزامنَ مع وقوع حدثين مهمين: زواج زميلٍ سابق، وسقوط سبعة صواريخ على طهران! سمعتُ الانفجار الأول وأنا أهمّ بمغادرة محلٍ لبيع الزهور. فوقفنا أنا وأحد عمال المحل وبعض المارة نراقبُ سحب الدخان وهي تتصاعد في الجانب الغربي للمدينة. بدت السحابةُ في الأفق بيضاء بريئة، وكأنها طفلة انتهتْ لتوها من ارتكاب جريمة قتل!

هلّلتْ «مينا» لرؤيتي، فقد كنتُ بطريقةٍ أو بأُخرى صِلتها الوحيدة بالحياة الأكاديمية آنذاك. كان أفراد عائلتها قد باعوا قصرهم المنيف وانتقلوا للعيش في بيت جديد، بيت بدا مثل نسخة شبحيةٍ مصغرة عن البيت القديم. كانت «مينا» لما تزلْ ترتدي ملابس الحداد السود، وقد بدَتْ منطفئة وغير سعيدة، وأخبرتني بأن نوبات الكآبة ما زالتْ تلاحقها، وأنها كانت تخضع للعلاج.

سألتها بشيء من الإلحاح عن كتابها غيرِ المنجز عن «جيمس». فقد كان لدي اعتقاد متفائل وساذج في آن واحد، بأنها ما أن تشرع في العمل على إنجاز ذلك الكتاب حتى يكون كل شيء قد عاد إلى نصابه الصحيح. لكنها قالت بأنها لن تستأنف العمل عليه، وأضافتْ لاحقًا أنها تحتاج إلى وقت تستعيد به أنفاسها

كي تستطيع التركيز في عملها من جديد. وفي غضون ذلك، علمتُ أنها قامتْ بترجمة «الرواية السيكولوجية الحديثة» لـ«ليون إيدل»، وبأنها كانت بصدد ترجمة «نشوء الرواية» لـ«إيان واط». قالت لي: «لا شك أن كتبًا كهذه لم تعد تلاقي رواجًا هذه الأيام، فقد أصبح التوجه العام الآن إلى كتب ما بعد الحداثة، ولم يعد من أحد ليطيق حتى قراءة النص الأصلي للكتاب، فيعتمد القارئ بشكل كبير على أحد أدعياء الفلسفة ليحدِّثهم فقط عما يحتويه الكتاب». قلت لها: «لا تقلقي.. فحتى «جيمس» لم يعد يُدَرَّس هذه الأيام، وأنه هو الآخر قد أصبح من أصحاب الكتب غير الرائجة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على صحة ما نفعله».

كانت «مينا» مترجمة موضوعية وفي غاية الدقة. مما خلق لها بعض المعوقات مع الناشر، الذي كان يطالبها بأن تجعل نصوصها أكثر قربًا للقارئ العادي. وكانت تنظر باحتقار إلى ترجمات كتب «فيرجينيا وولف» المطروحة في المكتبات. وقد رفضت استخدام الترجمة الإيرانية لـ«السيدة دالاواي» كمقتبسات لكتاب «إيدل»، مما سبّب لها المزيد من المشاكل.

سألتني عن محاضراتي. فقلت لها بأننا، انا وطلبتي، نعاني من بعض الصعوبات مع «جيمس»، خاصة مع نثره الفني. فابتسمَتْ وقالت: «إذًا فطلبتك يتمتعون برفقة ممتازة! لقد تململ من موضوع «جيمس» نقاد وكتاب بارزون». فقلت لها: «هذا صحيح، ولكننا هنا إزاء مشكلة من نوع آخر، أتعلمين؟ لقد وضعتُ لهم في المنهج روائيين أصعب منه بلا شك، مثل «نابوكوف» و«جويس»، ولكنهم بطريقة أو بأخرى يجدون صعوبة أكبر مع «جيمس». فما توحي به الرواية من واقعية في الظاهر، تجعلهم يتوهمون بأنه لا بد من أن يكون أسهل بكثير من سواه، مما يوقعهم في حيرة أكبر!.. أنظري: كيف يمكنني أن أشرح لهم مفردة مثل: مُدْلَهِمّ؟.. فهو يستخدمها في «أهالي بوسطن» ويقول: عينان مُدلهمّتان، ويستخدمها في «السفراء» ليصف بها وجه

«ويمارش». فما الذي تعنيه تلك الكلمة اللعينة؟ أتدرين بأنها نادرة الاستخدام جدًا وغير موجودة في كثير من القواميس؟».

لم تستطع «مينا» ان تدعني أواصل حديثي على هذا المنوال، فلم يكن ولاؤها لـ«جيمس» ليسمح لها بذلك، لقد كانت مثل «كاترين سلوبر» تملك قلبًا متفانيًا لا يخون. لكنها كانت على الرغم من ذكائها الوقّاد تنظر للأمور أحيانًا بحَرْفية رهيبة.

قالت بانفعال واضح: «فكيف يمكنه إذًا أن يخلقَ خيالاً من هذا العالم من دون أن يكون لكلماته تلوّنها الخاص؟ أنت لا تفكرين بالتخلي عنه، أليس كذلك؟». كانت قد سألتني هذا السؤال منذ أمد بعيد، ولكن القلق كان لا يفتأ يعاودها بين الحين والحين لتعود فتسأله من جديد.

قلت: «لا.. بالتأكيد لا.. وكيف أتخلى عنه؟.. كيف أكف عن ذلك الروائي الذي إذا أراد أن يصف امرأة ذكية فإنه يقول: الآنسة ب. غير المطفأة.. عوضًا عن قوله: «اللامعة» مثلاً او «البرّاقة» بل ليتني أستطيع أن أسرق منه لغتهُ المركّبة! ولكن لا بد لنا من أن نخفّفَ الوطأ عن أولادنا قليلاً، فلا تنسي ان معظمهم لم يكن قد قرأ غير «اللؤلؤة» لـ«شتاينبك»».

حدّثتها عن مرجنا ونحن نحاول ان ننتقي الفقرات الأسوأ والأفضل من الكتاب، حين أشارت «مهشيد» إلى «الأشجار المسكونة بالطيور»، وقرأت «نسرين» فقرة من «السفراء» تصف وجبة غداء على شاطئ النهر: «كانت ابتسامة «مدام دي فيونيه» هي الأسلوب الوحيد الذي عبّرت به عن شكرها له على كل شيء، ابتسامة بدتْ أقرب إلى ابتسامة طفل، وهي تجلس أمامه وبينهما مفرش المائدة الكتاني الناصع البياض، و«الأومليت» بالطماطم، وشراب بلون القش هو الـ«تشابلي»، بينما كانت عيناها الرماديتان تدخلان وتخرجان من حوارهما، ثم تعودان إلى الجهة التي يهبّ منها هواء الربيع الدافئ، إذ كانت أوائل الصيف قد ابتدأت تعزفُ نبضها، لتعود العينان مرة أخرى إلى وجهه وإلى أسئلتهما الأرضية».

بدَتْ تلك الأحاديث بيني وبين «مينا» لا علاقة لها مطلقًا بما يدور حولنا من أحداث، وكانت مصدر رضا وراحة عظيمين لكلينا. والآن فقط، إذ أحاول أن ألملم فتاتَ تلك الأيام أكتشف كم أننا لم نكن نتطرّق إلا بنثار الكلام إلى الحديث عن حياتنا الشخصية: عن الحب أو الزواج أو عن ماذا يعني لنا وجود أطفال، أو عدم وجودهم. يبدو وكأن السياسة استبدّتْ بنا، فباستثناء الأدب، لم نكن نتحدّث إلا بالسياسة، ولم يترك لنا ذلك أي مساحة للخاص والشخصي.

[31]

سقط أحد صواريخ الـ«أرض ـ أرض» التي ضربت طهران قبل الهدنة على أحد البيوت المجاورة لبيتنا، في زقاق يسكنه صديقان لنا مع ابنتهما الصغرى. كان صديقانا يملكان دارًا للنشر ومحلاً لبيع الكتب غير بعيد عن البيت، يجتمع فيه الكتّاب والمثقفون الإيرانيون وتمتد فيه جلسات النقاش حتى المساء. وفي الليلة التي سبقت سقوط الصاروخ، كان بعض الأصدقاء قد تجمّعوا في بيتنا، فسهرنا معًا نتفرج على بعض أفلام الفيديو حتى أوائل الفجر، وكانت «لالة» معهم. وفي خضم الارتباك الحميم الذي يسببه مبيتُ الضيوف، استطعنا أن نجهّز فطورنا البسيط معًا من بعض الخبز والقشطة الطازجة والمربى البيتية والقهوة. كنتُ في المطبخ حينما أحسستُ فجأةً ببيتنا وكأنه ينخسف وترتجّ أرجاؤه. يا إلهي! الضربة قريبة جدًا هذه المرة!..

أدركنا بعد قليل كم كان ذلك الصاروخ في غاية القرب منا.

بعد الانفجار هرع الناس إلى موقع الحادث، بينما كان العشرات، ومعظمهم من النساء والأطفال، ينزفون أو يبكون أو يتصايحون ويشتمون، وهم يتراكضون بالاتجاه المعاكس مبتعدين عن المكان. وحينما وصل حرس الثورة وسيارات الاسعاف، بدأت الصرخات تتعالى أكثر. وراح الحرس يتفحصون الموقع بتوجّس وخيفة. كان في باحة البيت الذي أصابه الصاروخ، ثمة طفلان مسجّيان على الأرض بلا حراك، ومن بين الأنقاض تمكّن الحرس من انتشالِ

امرأتين: كانت إحداهنّ صغيرة في السن، ترتدي ملابس بيتية زاهية، أما الأُخرى فقد كانت في منتصف العمر، بدينة، وقد التصقت تنورتها بفخذيها.

في المساء التالي، ذهبنا لزيارة صديقينا الناشرين ومواساتهما. كانت الدنيا تنثّ رذاذًا خفيفًا، ويعبق الجو برائحة التراب البليل وقدّاح الربيع. حين وصلنا وجدنا بعض الناس وقد احتشدوا قرب المنازل المدمرة. قادتنا مضيفتنا إلى الداخل، وبكرمها المعروف قدمت لنا الشاي المعطر مع بعض المعجنات الصغيرة اللذيذة. وانتبهتُ إلى أنها كانت قد ملأت مطبخها بأوعية كبيرة من زهور الليلك.. لا أدري من أين أو كيف!

كان زجاج النوافذ قد تحطّم، ونفذت شظاياه الصغيرة في اللوحات الثمينة المعلقة على الجدران، وكانوا قد قضوا الليلة الماضية يزيلون آثار الزجاج المحطّم من كل زاوية من زوايا البيت. قادتنا إلى سطح المبنى وهي تبتسم. كانت جبالي الأثيرة تشخص من خلفنا، ومن أمامنا شخصَت البيوت الثلاثة المدمّرة. وفي جزء بدا وكأنه كان الطابق الثاني من المبنى الأقل تضررًا، كان ثمة رجل وامرأة يبحثان بين الأنقاض عما يمكن إنقاذه. أما البيت الذي وقع في الوسط فلم يعد سوى كومة ركام.

[32]

انتهَت الحرب مثلما ابتدأتْ : بغتةً.. وبهدوء عجيب. أو أنها هكذا بدتْ لنا على الأقل. أما آثارها، فستبقى حاضرةً في داخلنا زمنًا طويلاً، ربما إلى الأبد.

وما أن انتهَتْ حتى شعرنا بارتباك.. فما العمل الآن؟ كيف لنا أن نعود إلى ما كنا عليه قبل الحرب؟ إلى ما عشناه قبلها من حياة طبيعية؟ انتهَتْ.. لأن النظام الإسلامي لم يعدْ يقوى على صدّ هجمات العراق، فكان مضطرًا للقبول بوقف إطلاق النار، ولو على مضض.

كانت الهزائم المتلاحقة في جبهات القتال قد تركَتْ لدى الميليشيا وحرس الثورة شعورًا باليأس والإحباط، وغدَتْ معنويات أنصار النظام في هبوط دائم. وقد أعلن آية الله الخميني أن ما يعنيه السلام بالنسبة له هو «أن يتجرّع كأس السم». فكان تأثير ذلك قد انعكس على الجامعات، خصوصًا على أفراد الميليشيا وقدامى المحاربين وأتباعهم: فقد كان السلام بالنسبة لهم هو الهزيمة بعينها.

انتهتْ الحرب مع العدو الخارجي، ولكنها لم تنتهِ مع الأعداء في الداخل. فبعد توقيع اتفاقية السلام بوقت قصير، شكل آية الله الخميني لجنة ثلاثية في السجون الإيرانية لتقرير ولاء السجناء السياسيين للنظام. فأعدم الآلاف سرًا وبسرعة خاطفة، وكان من بينهم مَن قضى سنواتٍ طوالاً في السجن بانتظار المحاكمة، وآخرين ممن قضوا مدة محكوميتهم وكانوا بانتظار إطلاق

سراحهم. فكان ضحايا تلك الإعدامات الجماعية قد ذاقوا الموت مرتين: مرة بموتهم الفعلي، والمرة الثانية بالتعتيم وإخفاء هويات المعدومين، مما حرمهم حتى من موتٍ مُعترفٍ به أو ذي قيمة، ولذا فقد صحّ عليهم قول «هانا ارندت»: «لقد أقرّوا تمامًا بحقيقة أنهم لم يكونوا موجودين أصلاً».

حينما استُؤنفَت الدراسة أخيرًا، بدأتُ محاضراتي من النقطة التي توقفتُ عندها تقريبًا. تمّ تغيير أماكن بعض الكراسي، ولاحظنا غياب بعض الوجوه لأسباب غامضة، وحضور آخرين بشكل يثير الفضول. وفيما عدا ذلك، لم تكن ثمة أي إشارة تدلّ على توقف الدراسة في الجامعة لما يربو على الشهرين من الزمن. ولم يكن ثمة ما يوحي بالفرح أو الابتهاج، لكننا كنا نلمس فقط شعورًا عامًّا بالخلاص تشوبه الكآبة.

كانت تلك هي المرحلة الأولى لبداية الشعور بالخيبة والضياع. فقد ضاع النصر، وانهار الاقتصاد، وأصبحَتْ فرص العمل عملةً نادرة. ولم يكن أمام الذين تطوّعوا للقتال في الجبهة، بلا تدريبات حقيقية، سوى أن يعتمدوا على تعويضات وعدتهم بها الحكومة بصفتهم «محاربين قدماء»، لكن حتى تلك التعويضات لم تكن لتصلَ بعدالة الى أيدي الجميع. وتدهورَتْ كثير من المنظمات الإسلامية التي أنشئتْ باسم شهداء الحرب، لتغدو مصدرًا من مصادر جني الثروة بسبب فساد المسؤولين عنها. ويمضي الزمن حتى يكتشف أبناء الثورة أنفسهم حجم الفساد، ليفضحونه ويحاربونه، بعد أن يكون أفراد الجمعيات الإسلامية قد استمرأوا طعم السلطة وتمتعوا بمنتجات الغرب، واستغلّوا نفوذهم للحصول على امتيازات كانت مُحرّمة على الآخرين بشكل قاطع.

تطوّرتْ بعد الحرب جماعة الجهاد الإسلامي، تلك الجمعية الطالبية التي كان السيد «فرصتي» ينتمي إليها، فأصبحَتْ أكثر انفتاحًا، ونشأ صراع أكبر بينها وبين أعضاء من جمعية الطلبة المسلمين الأكثر تحفظًا.

ما أن استوفيْتَ الدراسة، حتى بتُّ أرى السيد «فرصتي» أكثر من ذي قبل. كانت الأفلام قد غدَتْ اهتمامه الأكبر، وكان بصدد البدء بمشروع إنشاء شركة تعنى بالأفلام وأشرطة الفيديو. واستطعْتُ بمساعدته أن أنظّم سلسلة من البرامج الثقافية لعموم الجامعة. لم يكن السيد «فرصتي» مبدعًا بطبيعته، لكنه أظهر إبداعًا في أسلوبه المتواضع لإثبات ذاته وإغنائها.

كنتُ بعد الحرب قد تخيّلتُ أن السيد «قُمّي» قد اختفى من حياتي، تمامًا مثل فيلم قديم يخْفُتُ وهو يُشرفُ على نهايته. لكنه لم يفعل، بل لقد استأنفَ حضورهُ اليوميّ لمحاضراتي. ولم يكن أقل خبثًا في التهجّم على «جيمس» أو سواه من الروائيين الذين كنت أنتقيهم لطلبتي. وكان الفرق الوحيد هو أن استياءهُ وغضبه قد تناميا، وأصبحَ يؤول إلى ما يشبه صراخ الأطفال. كان التغيير قد طرأ علينا نحن. فنحن لم نعدْ بطريقة ما، لُنعيره الكثير من الاهتمام، وصار إذ يحكي يجد من يردّ عليه ويوقفه عند حدّه. كان هو وأصدقاؤه لا يكفّون عن تذكيرنا كل يوم بأنه: إذا كان صدام قد ولّى، فإن تهديد الغرب والإمبريالية والصهيونية وعملائهم في الداخل ما زال قائمًا. وكان معظمنا يحسّ بالإرهاق إلى حدّ عدم القدرة على الإجابة!

أجول ببصري في قاعة المحاضرات: في الخط قبل الأخير، الى جانب الشباك، حيث جلس السيد «قُمّي» والسيد «نحوي»، صرتُ أرى شابًا هادئًا كان يعملُ كمعلم في مدرسة ابتدائية (دعوني أطلق عليه اسم السيد «دوري» ونواصل الحديث). تتأرجح نظراتي ما بين السيد «فرصَتي»، و«حميد»، ثم تنتقل الى الجهة الثانية من القاعة، جهة البنات، مرورًا بـ«مهشيد» و«نسرين» و«ساناز». وفي الخط الأوسط أرى «مانا» في المقعد المجاور للممشى الفاصل بين الكراسي. أرمق وجه «مانا» البَسوم بنظرة سريعة لأنتقل منها إلى الجهة الثانية من الممشى، فأجدهُ وقد جلس هناك تمامًا: أجل.. إنه «نيما».. «نيما» الذي كنت أبحث عنه.

وإذ تتأرجحُ نظرتي ما بين «مانا» و«نيما»، أتذكر تلك المرة الأولى التي رأيتهما فيها في إحدى محاضراتي. كانت عيونهما تتلامع معًا باتساق عجيب، فيذكراني بطفلَيَّ عندما يتآمران على فعل شيء يسعدني. كنت وقتئذٍ قد بدأتُ أرى عددًا من الطلبة المهتمين من خارج القسم يحضرون محاضراتي كمستمعين، من بينهم طلبة سابقون كانوا يواظبون على الحضور بعد تخرّجهم بزمن، أو طلبة من جامعات أخرى، أو كتّاب شباب، أو غرباء طارئون يدخلون بالصدفة. لم يكن لدى هؤلاء الطلبة أيّة مصادر لإثراء معرفتهم بالأدب الإنكليزي، وكانوا مستعدّين لاستثمار أوقات فراغهم في حضور تلك المحاضرات من دون الحصول على أيّ درجة أكاديمية في مقابل ذلك. فكان الشّرط الوحيد عندي لحضورهم هو أن يحترموا حقوق الطلبة المنتسبين وأن يتجنّبوا الحديث في ساعات الدرس. وذات صباح، وجدت «مانا» و«نيما» يقفان على باب مكتبي، وكلاهما يبتسم ويُظهرُ لهفته لحضور حلقتي الدراسية عن الرواية، فوافقتُ من دون تردد حقيقي.

وشيئًا فشيئًا، لم يعد الطلبة الفاعلون حقًا في الصف هم أولائك المنتسبين، وإنما أولائك الآخرين: الخارجيين، الذين جاؤوا فقط إيمانًا منهم بالكتب التي نقرأها، رغم أنني لا أملك أي شكوى ضدّ الطلبة المنتسبين.

طلب مني «نيما» أن أكون مُشرفةً على أطروحتِهِ للدكتوراه، إذ لم يكن ثمة أستاذ في جامعة طهران له علاقة بـ«هنري جيمس». وكنت في ذلك الحين قد عاهدتُ نفسي بألاّ أضع قدمًا في جامعة طهران، ذلك المكان الذي امتلأت ذكرياتي عنه بالألم والمرارة. بيد أن «نيما» لم يكفّ عن ملاطفتي وراح يتملّقني بشتى الطرق، حتى استطاع أن يقنعني في النهاية.

كنا قد اعتدنا التمشّي معًا نحن الثلاثة بعد كل محاضرة. كان «نيما» بارعًا في نسج القصص عن مفارقات الحياة اليومية التي كنا نواجهها في الجمهورية الإسلامية، بينما كانت «مانا» غالبًا هادئةً مستمعة. واعتاد «نيما» أن يسير إلى جانبي تتبعه «مانا» بمسافة نصف خطوة الى الجانب الآخر.

كان طويلاً وذا وسامةٍ طفولية، ممتلئ الجسم لكنه غير بدين، وكأنه ما زال محتفظًا ببقايا الوزن الزائد من أيام المراهقة، عيناه حانيتان مشاكستان في آن واحد، وصوته ناعم بشكل ملفت، لم يكن ذا نبرةٍ أنثوية، وإنما كان ناعمًا واطئًا، وكأنه لا يستطيع أن يرفعه إلى طبقة أعلى من حدّ بعينه.

وأصبح من عاداتنا الأهم أن نتبادل سرد القصص، بل لقد أصبحتْ تلك من الصفات التي تميّز علاقتنا. قلتُ لهما ذات مرة، بأنني إذ كنتُ أستمع لقصصهما، وإذ تتلبسُني بعض قصصي، كان يجتاحني شعور عارم بأننا كنا نحيا معًا سلسلة غير منتهية من حكايات الجنّيات، سلسلة أضربَتْ فيها ساحرات الخير عن العمل، وتركتْنا وحيدين وسط الغابة، غير بعيدين عن بيت الحلوى الذي تسكنه الساحرة الشريرة! كنا أحيانًا نعيد سرد تلك الحكايا لبعضنا البعض لكي نُقنعَ أنفسنا بأنها حدثَتْ فعلاً، لأنها وقتئذٍ فقط ستتحوّل إلى حقيقة.

يقول «نابوكوف»، في محاضرته عن «مدام بوفاري»: «إن كل الروايات العظيمة هي حكايات جنيات عظيمة». ويسألني «نيما»: «هل هذا يعني أن حياتنا اليومية، وعالمنا المُتَخيّل، كلاهما حكايات جنيات؟». فأبتسم.. فعلاً.. لقد بدا لي أن حياتنا كانت في بعض أوقاتها أكثر خيالية من الخيال نفسه.

[33]

في يوم السبت المصادف الثالث من شهر حزيران يونيو ١٩٨٩، إذ لم يكن قد مرّ عام على اتفاقية السلام، توفي آية الله روح الله الخميني. وقد أُعلنَ الخبر رسميًا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، على الرغم من أن معظم الإيرانيين كانوا يعلمون أو يتوقعون ذلك، وكان الآلاف منهم قد تجمّعوا خارج منزله في ضواحي طهران بانتظار إعلان النبأ. وكانت الحكومة قد اتخذَتْ احتياطاتها الأمنية قبل إعلان الوفاة، بأن أغلقَتْ الحدود البرية والبحرية والمطارات، وقطعَتْ خطوط الاتصالات الدولية.

وكم أتذكرُ ذلك الصباح الذي سمعنا فيه خبر وفاة الخميني!

كنا، كل أفراد الأسرة، قد تجمّعنا في غرفة الطعام، وقد تنازَع فينا ذلك الشعور الغبي بالذهول، ذلك الارتباك الذي تأتي به صدمةُ الموت. ولم يكن ذلك الموت عاديًا هذه المرة. انهار مذيع الإذاعة وهو يعلن النبأ واستبدّ به النشيج. كان ذلك الاسلوب في التعبير قد غدا نموذجًا معتادًا تتبعه الشخصيات العامة، بغض النظر ما إذا كان ذلك في مجلس عزاء أو حتى في مقابلة إعلامية شخصية، كان النحيب مطلوبًا في كل مكان، وكأنما لم يعد ثمة ما نعبّر به عن مدى حزننا إلا بالنشيج.

كان اجتماعنا معًا في غرفة الطعام المفعمة بعبق الشاي والقهوة الذي لا مفرّ منه، قد منحَتْنا شعورًا بالتكاتف والألفة. وقد اكتسح الأجواء تأملات

وتخمينات رافقَتْ نبأ الوفاة. فكانت حدثًا تمناهُ الكثيرون، وخاف منه الكثيرون، وتوقّعه الكثيرون، والآن وقد حدثَ فعلاً: كان من الغريب حقًا أن يكون له وقع مخيّب لآمال المريدين والخصوم على حدٍ سواء!

منذ أدخل الخميني المستشفى إثر نوبته القلبية الأولى أوائل الثمانينات، صارت إشاعات موته الوشيك تفاجئنا دائمًا بالظهور والاختفاء السريع مثل أعشاب البحر. أما وقد وافته المنية فعلاً، بدا الحدثُ أقلّ هولاً من القلق الذي رافق توقّعه. ولم تعوّض مواكب العزاء الهائلة التي اجتاحت البلاد عن ذلك الاحساس بالخيبة.

كان للحدث فضلاً في أن يجمع خليطًا عجيبًا من البشر في غرفة طعامنا: فكان والدي حاضرًا معنا، كان هو ووالدتي قد انفصلا منذ سنين، وكان يسكن موقتًا في شقة أخي الفارغة بعد تعرّضه لحادث. وكانت معنا حماة أخي السابقة أيضًا، وكانت هي الأخرى قد تدبّرتْ لها سكنًا في شقة أخي بشكل موقت. ولم تكن تنسجم مع أمي، وكانتا قد قطعتا سُبُل الحديث بينهما منذ أيام، بيد أن طبيعة المناسبة غير العادية اقتضَتْ إبرام هدنةٍ موقتة بينهما.

كان طفلي ممدّدًا في حضني بتلك الطريقة الخاصة بالأطفال حديثي الولادة. كان شعورهُ بالراحة التامة قد منحني إحساسًا بالهدوء والسكينة، فراحتْ يدي تداعبهُ من دون وعي مني وتمسّد حلقاتِ شعره الناعم، ومن حين لآخر تلامس نعومة جلده. كنا، نحن الكبار، نحكي ونتبادل التحليلات، وكانت ابنتي ذات الخمس سنوات تنظر من النافذة لحاجةٍ في نفسها، حينما التفتَتْ فجأة وصاحتْ: «ماما.. ماما.. لم يمتْ.. لم يمتْ.. انظري: .. ما زالت النساء ترتدي الإشاربات!»

بقيتُ أربط بين وفاة الخميني وبين تصريح «نيغار» التلقائي: فقد كانت على حق، لأنه في اليوم الذي تكفّ فيه النساء عن ارتداء الإيشاربات في العلن، سيكون يوم وفاته الحقيقي، وستصل ثورته إلى نهايتها، وحتى ذلك الحين، سيبقى يعيش معنا.

أعلنتْ الحكومة الحداد الوطني مدة خمسة أيام، والحداد الرسمي مدة أربعين يومًا. فأُلغيَت الدراسة وأغلقَت الجامعات.

شعرتُ بعدم الارتياح وأنا جالسة أجترّ الحديث في غرفة الطعام، فقررتُ الذهاب إلى الجامعة أيًا كان الظرف. كان كل شيء يشعرني بضبابية خانقة، مثل سراب في يوم قائظ. ولم يفارقني ذلك الإحساس طيلة ذلك اليوم وطوال ايام الحداد التي تلتْ، إذ كنا نقضي معظم الوقت أمام التلفزيون نتابع التشييع ومواكب العزاء التي لا تنتهي.

حين وصلتُ الكلية، لم أجد في المبنى سوى أفرادٍ قلائل. كان الصمتُ عميقًا إلى حدّ أنه غطى على أناشيد الحداد والأناشيد الوطنية التي كانت تنبعث من مكبرات الصوت. صعدتُ إلى مكتبي وأخذت بعض الكتب، وعندما كنتُ خارجة إلى الممر، التقيتُ بالسيد «فرصَتي»، وأحد أصدقائه من قسم اللغة الفارسية. كانت عيونهما دامعة وقد اجتاح كلاهما حزن مهيب. كانت نظرتي إليهما تتراوح بين التعاطف والارتباك، وأنا أبحث بلا جدوى عن الكلمات المناسبة. كانا يحملان بعض النشرات، وصورة للخميني ينويان تعليقها على أحد الجدران، فأخذت اثنتين منها وغادرت المكان.

لاحقًا، سوف يخرج للنور كتاب «الشِعر الصوفي» للخميني، الذي يهديه إلى زوجة ابنه. فبعد وفاته، برزَتْ حاجة ملحّة إلى إظهار الجانب الإنساني لذلك الرجل، الأمر الذي طالما عارضهُ هو في حياته. وقد أظهر الكتاب جانبًا إنسانيًا فعلاً، وهو ما لم نلمسهُ فيه يومًا. فصرنا نحسّه في اهتمامه بزوجة ابنه الشابة الجميلة، التي كان قد كتب أشعارهُ الأخيرة في دفاترها.

وتصفُ زوجة الابن في مقدمتها لذلك الكتاب، كيف كان الخميني يكرّس وقتًا للحديث معها وتدريسها أصول الفلسفة والتصوّف، وكيف أنها أعطته دفترها ذات يوم لينظم فيه أشعاره. سمعنا بأنه كان لزوجة الابن شَعر طويل أشقر، وكنتُ أتخيلها وهي تتمشّى مع الرجل العجوز في الحديقة، يدوران

حول الشجيرات وأحواض والورود، ويتحدثان عن الفلسفة. فهل كانت ترتدي الإيشارب وهي معه؟ وهل كان يتكئ عليها إذ هما يدوران معًا حول أحواض الورد؟

اشتريتُ نسخة من الكتاب الصغير وحملتها معي إلى اميركا، مع بعض النشرات، وكأنها تذكارات من زمن بدَتْ حقيقته هشة إلى حدّ أنني احتجْتُ إلى دليل مادي كتلك الأدلة كي أثبت لنفسي وجودها المتسرّب من بين الأصابع.

لم أكن يومًا شاطرةً في حفظ التواريخ والأرقام، لذا كان عليّ أن أتأكد مرة واثنتين من تاريخ وفاة الخميني، بيد أنني أملك ذاكرة تحفظ المشاعر والصور. ومثل حلم مزعج، تأتيني تلك المشاهد التي تحفظها الذاكرة من تلك الأيام وهي تمتزج بالبال مع الأصوات مثلما كانت كذلك على أرض الواقع: صوت المذيع الصارخ المغالي الذي يقف دائمًا على شفا الانهيار، أناشيد الحداد، الصلوات، برقيات التعزية التي يبعثها كبار الموظفين، وأهازيج النائحين والمشيعين وهي تعلو فوق كل صوت صادحةً:

«اليوم يومٌ للنواح.. فالخميني راحَ راحْ».

«اليوم يوم للعزاء.. والخميني في السماء».

«حطم الصنم.. خميني.. للسما علا.. خميني».

بعد يومين، أي في فجر الاثنين، نُقل جثمان آية الله الخميني من بيته في جماران في طهران إلى أرض قفرٍ واسعة في الشمال في منطقة تسمى «مُصلى»، كانت مخصصة مكانًا للصلاة. وضعوا الجثمان على منصة موقتة مؤلّفة من بضع خزّانات. كان الخميني مسجّى باتجاه القِبلة في نعش زجاجي مكيّف وملفع بكفن أبيض، وقد وضعوا على صدره عمامته السوداء، التي تمثل رمز هيبته الدينية بصفته من نسل الرسول.

تتشظى تفاصيل ذلك اليوم في ذاكرتي كلما عاودتني، أتذكّر ذلك النعش الأبيض جيدًا، أتذكر زهور الكلاديولس الصارخة الألوان وقد نسّقوها حول

الخزان، وأتذكر أيضًا حشود المشيعين. أفادت الأنباء بأن مئات الآلاف كانوا قد بدأوا يتدفقون إلى طهران: جيشٌ ملفّعٌ بالأسوَد يلوّح بأعلام سود، رجالٌ يمزقون قمصانهم ويلطمون صدورهم، ونسوةٌ ملفّعاتٌ بجادورات سود يوَلْوِلْنَ ويندبْنَ، وتختضّ أجسادهنّ بحزنٍ بلغ الذروة.

أتذكر اليوم أيضًا خراطيم المياه، فبسبب الحرّ القائظ وحشود البشر الهائلة، كانت دائرة المطافئ قد أعدّت عدّتها من خراطيم المياه، وراحت توجهها فوق المواكب، وترش الناس بين الحين والحين لتخفيف وطأة الحر! ولكن من الغريب أن تأثيرها جعل المشهد يبدو جنسيًا بشكل عجيب! وها أنني إذ أعيد تصوير الحدث في مخيّلتي، أكاد أسمعُ هسيسَ الماء وأرى الدفقات وهي تتشكّل مثل مظلةٍ تحت سقف السماء.

في كل برهةٍ كان ثمة من يفقد وعيه. وفي عزّ تلك النوبات العنيفة من الانفعال، وبتنظيمٍ مذهلٍ بدا وكأنه جاء بعد تدريب شاق، نجدُ الجموع وهي تحمل الشخص فاقد الوعي من فوق رؤوس المشيعين ليمرّرونه بأياديهم المرفوعة عاليًا حتى يصلوا به الى نقطةٍ آمنة.

حينما سمعت بأن الكثير من الناس لاقَوا حتفهم في الأحداث، وبأن عشرات الآلاف قد أصيبوا، سألتُ نفسي بحماقة: أية مكانةٍ سيحظى بها أولئك الموتى؟ فنحن قومٌ نهبُ الراحلين مكانًا ومكانةً في الممات أكبر منها في الحياة. فأما معارضو النظام وسواهم من البهائيين مثلًا، فلا مكانة لهم في مماتهم، وهم محرومون حتى من الشواهد، وتوارى أجسادهم الثرى في مقابر جماعية. وخلاف ذلك، كان ثمة مكانٌ ومكانةٌ للشهداء: ضحايا الحرب والثورة، وقد خُصّصَتْ لهم مساحاتهم في المقابر، ناهيك عن الورود الاصطناعية والصور التي تميّز قبورهم. فهل سيتم اعتبار ضحايا مواكب العزاء في عداد الشهداء؟ هل سيُمنحون تلك المكانة؟ وهل سيضمنون مكانهم في الجنة؟

هيّأت الحكومة تجهيزات مهولة من الطعام والشراب للمشيعين. فعلى طول مواكب الانفعال الشديد ولطم الصدور وأصوات النّواحين والإغماء، كنا نرى صفوفًا صفوفًا من المشيّعين على جانبيّ الطريق، وهم يأكلون الشطائر ويشربون المشروبات الغازية كأنهم في نزهة. وكان الكثيرون ممن كرهوا الخميني في حياته بشكل لا لبس فيه قد شاركوا في مراسيم العزاء.

كان الاستياء من الخميني قبل وفاته قد بلغ من الشدّة حدًّا جعل المسؤولين في بادئ الأمر يفكرون بدفنه تحت جنح الظلام، تمويهًا وتغطية منهم على قلة عدد المشيعين. ومع ذلك، حضر الجنازة ملايين الناس من مختلف أرجاء البلاد.

أتذكر حديثي مع أحد موظفي الجامعة، وكان رجلاً في منتصف العمر، يسكن في الحيّ الأفقر والأكثر شعبية من طهران. كان يحدّثني عن الباصات المكتظة التي نقلت حشودًا من السكان من حيّهم، وكانوا جميعًا قد أفاقوا من وهم الخميني وخللتهم جميعًا ثورته، ومع ذلك حضروا مراسيم التشييع، مثلما حضر هو أيضًا! فسألته: ولماذا ذهبت؟ هل كنتَ مُجبرًا على الذهاب؟ فقال: «لا، ولكن الأمر بدا وكأنه مفروغ منه، أو أنه شيء كان لا بد من فعله. والكل ذاهب، فكيف سيبدو الأمر لو أنني لم أفعل؟». سكتَ برهةً ثم أضاف: «على أية حال، حدثٌ كهذا لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر، أليس كذلك؟».

حينما تحرّك الموكب حاملاً نعش الخميني ليسير به عبر الشوارع وصولاً إلى المقبرة في ضواحي طهران، كان ضغط الجماهير هائلاً، مما حدا بالمسؤولين أن يعدِلوا عن فكرة التشييع الراجل وقرروا نقل الجثمان بالمروحية. اندفعت الحشود نحو المروحية، لكنها سرعان ما ارتفعتْ عن الأرض، وارتفع معها غبارٌ ذهبيّ يتحلّق حولها مثل تنورة طيّرتها الريح، وشيئًا فشيئًا لم يتبقَّ إلا ذراتٍ من الغبار الراقص، تتلوى وتتمايل مثل دراويش صغار في حلمٍ مجنون.

وفي مقبرة بهشتي زهرا، وإذ كانوا يحاولون إنزال النعش من المروحية،

اندفعتْ الجماهير مرة أُخرى، واستطاعوا هذه المرة انتزاع النعش من أيدي المسؤولين، فمزّقوا الكفن، لتتكشف ساقٌ تدلّت من القماش الأبيض، لكن الحرس تمكّنوا من إنقاذه واستعادته أخيرًا، وسارعوا بالعودة به إلى طهران مرة أُخرى كي يُعيدوا تكفينه من جديد. وبعد بضع ساعات، حينما عادوا بالجثمان في تابوت معدني، راح حرس الثورة وبعض المسؤولين من الدائرة المقرّبة من الخميني، يحولون بالقوة دون وصول الناس إليه. وذكرَ لنا أحد الأصدقاء أنه كان قد رأى حجة الإسلام «ناطق نوري» قرب الخزّان وهو يحمل سوطًا ويجلد كل مَن كان يحاول الإقتراب أو الوصول إلى النعش. (من الجدير بالذكر أن حجة الإسلام «ناطق نوري» كان قد خسر انتخابات الرئاسة أمام الرئيس خاتمي بعد ذلك بحين).

هكذا وبعد جهدٍ جهيد، دُفن روح الله الخميني.. أخيرًا.

وفي محاولة قامتْ بها الحكومة لجعل الخميني رمزًا دينيًا مقدسًا، تقرّرَ بناء مقام خاص به عند مقبرة بهشتي زهرا. فأُنشئ الضريح بعجالة، من دون مراعاة لأية مسحةٍ من ذوق أو جمال. وفي بلدٍ طالما عُرف عنه امتلاكه بعض أجمل الجوامع في العالم، بُني الضريح الأكثر بهرجة ليكون مرقدًا لآخر أئمّته. كما وأُنشئ نصبٌ عند مدافن شهداء الثورة: وهو عبارة عن نافورة صغيرة يتدفق منها رذاذ من ماء أحمر، تعبيرًا عن الدم الأزلي للشهداء.

كشف رحيل الخميني النقاب عن مشاعر كثيرة متضاربة. فأحسّ بعض الناس بأنهم غرباء في وطنهم، مثلي أنا. أما البعض الآخر فقد أحسّ بأنه تحرر من وهم «كل الدجالين الذين جاؤوا باسم الدين»، على حد تعبير سائق سيارة أُجرة التقيتُ به بعد أسابيع من تشييع الخميني. وأضاف: «لقد أدركتُ الآن كيف أنهم كانوا يخلقون الأئمّة والأنبياء قبل أربعة عشر قرنًا، تمامًا مثلما خلقوا ذلك الرجل، لذا فلم أعد أجد أي شيء حقيقيًا بعد الآن».

في الأيام الأولى للثورة، سرتْ إشاعة تفي بأن صورة الخميني يمكن رؤيتها

في القمر، وقد ذهب الكثير من الناس إلى تصديق ذلك، من بينهم أولئك الأكثر حداثة وثقافة. فعلاً، لقد رأوه في القمر! لقد كان صانع أساطير من الطراز الأول، فخلق من نفسه أسطورة. لم يحزن الناس على موتهِ مثلما حزنوا على موت الحلم، على الرغم من ان موته جاء في وقته تمامًا. فبعد الانحدار في الحرب، وكل ما تبع ذلك من خيبة أمل، لم يعد بوسعه فعل أي شيء سوى الموت!

ومثله مثل كل صنّاع الأساطير العظماء، حاول أن يفصّل الواقع على ضوء معطيات حلمه، بيدَ أنه في نهاية المطاف، نجح مثل «هومبرت»، في تدمير الواقع والحلم معًا: واقعنا نحن.. وحلمه هو..! وناهيك عن كل الجرائم، وعن القتل والتعذيب، سيكون علينا أن نواجهَ آخر المهانات: جريمة اغتيال أحلامنا. على كل حال، لقد فعل بنا ما فعل ونحن طائعون مستسلمون، فمنحناه صك القبول، وكنا أهم شركاء له في الجريمة.

[34]

كنتُ أسيرُ على غير هدى حينما قادتني قدماي الى محلٍ عتيق مظلم لبيع التحف والأنتيكات وسط البلد. كنت ذاهبة إلى شارع يضمّ محلاتٍ مخصصة لبيع المواد المستعملة، بحثًا عن كتاب قديم كنتُ أنوي إهداءه لـ«نيما». فقد كان الأخير أتاني بشرائط فيديو نادرة لمسلسل تلفزيوني مشهور كان يُعرض قبل الثورة. حينما دخلتُ المحل، كان البائع جالسًا خلف المنصة، وبدا منشغلاً بقراءة جريدة الصباح حتى إنه لم يتجشّم عناء النظر إليّ. رحتُ أدور في المحل الصغير نصف المضاء، وأستعرض الحاجيات المعروضة بشكل عشوائي على الرفوف والمناضد الخشب القديمة، فوقع بصري على مقص غريب الشكل منقوش بمهارة يدوية عالية وذوق. كان أحد مقبضيه أكبر بكثير من الثاني، وقد شكلا معًا شكل ديك، لم يكن ذا نصل حاد مثل أيّ مقص عادي. سألت صاحب المحل عما يمكن أن يكونه هذا المقص. فهز كتفيه بلا مبالاة وقال: «لست متأكدًا، قد يُستعمل لتشذيب الشاربين أو اللحية. ومن المحتمل ان يكون اوروبيّ المنشأ.. أو روسيًا ربما!».

لا أدري ما الذي أعجبني في ذلك الشيء، ولكنني أحسستُ بأن سببًا ما خارقًا للعادة جعل أحدهم ربما قبل مئة عام من الآن، يأتي بهذا المقص، أو آلة تشذيب الشارب أو أيّ كان، قاطعًا به الطريق كله من أوروبا إلى هنا، لينتهي به المطاف إلى طاولة قديمة في أبعد مكان عن متناول اليد في أعماق

هذا المحل المغبر! ثم لقد بدا لي أن جهدًا عظيمًا قد بُذِلَ من أجل إبداع شيء غير مفيد كهذا!

قرّرتُ أن أبتاعهُ «الساحري». كنت ذات يوم مؤمنة بنظرية مفادها أن بعض الهدايا لا بد من شرائها لذاتها، بل وتحديدًا لأنها غير مفيدة! وكنت متأكدة بأن «ساحري» سوف يقدّر قيمتها، وسيكون سعيدًا بحصوله على شيء لم يكن محتاجًا إليه، شيء لا رفاهية فيه، نحصل عليه لمجرد الرفاهية! وعوضًا عن شراء شيء لـ«نيما»، غادرتُ المكان وأنا أحملُ مقصًّا ذا رأس «ديكيّ»!

حينما أهديته «الساحري» وأنا منهمكة بشرح تفاصيل شرائه، كان هو منهمكًا بإعداد القهوة، وكان مشغول البال جدًا كما يبدو، إلى حدّ أنني لم ألمس منه أيّة ردة فعل. جاء بصينية عليها كوبان وعلبة شوكولاتة ووضعها على الطاولة، ثم دخل إلى المكتبة وعاد بعد برهة وهو يحمل بين يديه كتابًا ذا غلاف جلديّ أخضر مهيب، وقد كتب عليه بحروف مذهّبة: «السفراء». وأعطاني الكتاب قائلاً: «ما دمتِ قد أتيتِني بهدية كان من المفروض أن تكون لـ«نيما»، فسيكون عليّ ان أتكفّل بهديته، إليك الكتاب، وقولي له بأن يعيد قراءة المشهد في حديقة «غلورياني»، يبدو أن ما يحتاج إليه «نيما» هو شخص مثلي يذكّره ببعض الأمور، فهلا طلبتِ منه أن يعيد قراءة ذلك المشهد؟».

في ذلك الكتاب، كان الساحر قد وضع إشاراته على فقرتين اثنتين: كانت الأولى في مقدمة الكتاب، اذ يشير «جيمس» إلى أحد المشاهد المعروفة التي غالبًا ما تتكرر عنده، ويصفه بأنه «خلاصة حصير روايته»؛ وأما الفقرة الثانية فهي ذلك المشهد في داخل الرواية.

يدور المشهد في حفلة يقيمها النحات المشهور «غلورياني». ويتحدّث بطل الرواية «لامبرت ستريثر» إلى نحات شاب كان قد جعله وريثه الروحي ولو بصورة غير رسمية، ويدعى «بيلهام الصغير»، فيقول له: «عش قدر ما تستطيع؛ فمن الخطأ ألا تفعل. وليس من المهم جدًا ما تفعله بالضبط، ما دمت

تملك حياتك. فإن لم تكن تملك حياتك فماذا يمكن أن تملك إذًا؟ أنا رجل طاعنٌ في السن، على أية حال أنا أجد نفسي طاعنًا في السن. وقد خسرتُ ما خسرت. فليخسر المرءُ ما يخسر، هذا شيء يحدث دائمًا فلا تسئ تقديره، ولا تخطئه. ومع ذلك، فنحن نملكُ تصوّراتنا الخاصة نحو الحرية. ولذلك لا أريد منك أن تنسى تلك التصورات، مثلما أنا الآن. لقد كنتُ في الوقت المناسب للحرية إما في غاية الغباء أو في غاية الذكاء إلى حدّ أنني لم أستطع أن أمتلكها. واليوم صارت حياتي عبارة عن ردة فعل تجاه الخطأ، لأنني كنتُ على خطأ.. لعشْ حياتك.. عشها كما يجب».

[35]

«نحن نعمل في الظلام.. نعمل ما بوسعنا.. نعطي ما نملك.. شكنا هو شغفنا.. وشغفنا هو مهمّتُنا. وكل ما تبقّى بعد ذلك هو جنون الفن».

«هنري جيمس»

كان ذلك في الصباح الباكر، أولى محاضرات ذلك اليوم؛ كانت أشعة الشمس تملأ القاعة، وكنت أحاول تلخيص حديثي عن «جيمس»: «ناقشنا في المرة السابقة بعض خصائص «جيمس»، وكيف انها تتبدى لنا في شخوص مختلفة من رواياته، وضمن سياقات مختلفة. واليوم أودّ أن نناقش معًا كلمة «شجاعة»، وهي كلمة أصبحتْ كثيرة التداول في ثقافتنا هذه الأيام. ونستطيع أن نلمس في روايات «جيمس» أنواعًا مختلفة من الشجاعة. مَن منكم يمكنه أن يعطينا مثالاً على ذلك؟.. نعم.. «نسرين».. تفضّلي»..

قالت «نسرين» وهي تجهد في دفع نفسها إلى الأمام وتزيح عن جبهتها، بحكم التعوّد، خصلة شعرٍ مفترَضة: «إن أوضح مثال هو «ديزي»، فهي تقول لـ«وينتربورن» منذ البداية بألاّ يخاف.. وكانت تعني بذلك عدم الخوف من العادات والتقاليد وهذا ضربٌ من ضروب الشجاعة».

فقلتُ مشجعة: «فعلاً.. إن «ديزي» مثال جيد، وثمة شخصيات أُخرى أيضًا، شخصيات ليست «الشجاعة» من سماتها المعروفة، لأننا لا يمكن أن نتخيّل أمثالهم شجعانًا، وإنما نكتفي بالاعتقاد بأنهم أشخاص حليمون». أشرق

وجه «مهشيد»، وقبل أن تستجمع شجاعتها وتهمّ برفع يدها، نظرتُ إليها وقلت: «؟» فانسحَبَ الضوء عن وجهها وتردّدَتْ قليلاً. لكنني كنتُ مصرّة: «نعم «مهشيد».. ما رأيك؟». فقالتْ: «حسنًا، حين قلتِ «أشخاصًا حليمين»، خطرَتْ ببالي «كاترين» فجأة.. فهي انطوائية وخجولة، وليست مثل «ديزي».. ومع ذلك تقفُ وسط شخصياتٍ ثلاث، كلهم أكثر تفوّقًا منها، فتواجههم وتدفع ثمنًا باهظًا إزاء تلك المواجهة. فهي إذًا تمتلكُ ضربًا من الشجاعة تختلف عن تلك التي تمتلكها «ديزي»، لكنها شجاعة على كل حال، وأنا»...

عند تلك الكلمة تحديدًا سمعنا صوت جلبة في الممر، لكنني لم أعرها أي اهتمام. فقد اعتدتُ عبر السنوات أن انظر إلى كل ما يأتي من خارج الصف ويحاول التشويش أو تعكير سير الدرس على أنه جزء لا يتجزأ من تفاصيل المحاضرة نفسها. في أحد الايام دخل قاعة الدرس اثنان من البوابين وهما يحملان كرسيين، وضعاهما في إحدى الزوايا وخرجا من دون كلمة، وبعد بضع دقائق عادا ثانية بكرسيين آخرين. وذات مرة دخل بواب محني الرقبة يحمل مكنسة، وبدأ بكنس الصف، بينما كنتُ أنا أواصل حديثي عن «توم جونز»، متظاهرة بأني لم ألحظ وجوده!

حينما وجدتُ «مهشيد» قد توقفتْ واصلتُ حديثي عن «جيمس»، وقلتُ: «أما في رواية «السفراء» فإننا نجد ضروبًا متباينة من الشجاعة، ولكننا نكتشف أيضًا أن أشجع الشخصيات هنا هم أولئك الذين يتمتعون بالقدرة على الخيال، أولئك الذين يمكنهم بسبب ملَكتهم التخيّلية أن يتعاطفوا ويتفاعلوا مع الآخرين. فحينما نفتقد هذا الضرب من الشجاعة، سنبقى نجهل حقيقة مشاعر الآخرين واحتياجاتهم. فمثلاً يجد «ستريثر» توأم روحه «ماريا»، في باريس، وهي إنسانة يصح لنا أن نقول عنها بأنها شُجاعة، بينما نحن لا نرى السيدة «نيوسوم» كمثال آخر سوى امرأة متضاحكة لا علاقة لها بالشجاعة. ومدام «دي فيونيه»، تلك المرأة الباريسية الجميلة التي تقرر السيدة «نيوسوم» أن تطردها من

حياة ابنها، نستطيع أن نلمس شجاعتها الفائقة بتضحيتها بكل معطيات حياتها الواضحة الملامح في مقابل معطيات حبّ مجهول العواقب لحبيبها «تشاد». في الوقت الذي تُفضّل السيدة «نيوسوم» عدم المخاطرة وأن تلعب دورها بسلام. فبعد أن تخيّلت الآخرين وما يمكن أن يكونوا عليه ووظائفهم وأدوارهم، فضّلت ألاّ تغيّر خططها. فهي إنسانة مستبدة، ولكن على طريقة الروائي الفاشل: فهو يخلق الشخوص على ضوء رغباته وأيديولوجياته الخاصة، ولا يمنحهم أيّ مساحة لأن يكونوا أنفسهم. قد يحتاج المرء أن يكون شجاعًا فيموت من أجل قضية ما، ولكنه أيضًا سيحتاجها ليحيا من أجل قضية اخرى».

كان طلبتي يتنحنحون، وعيونهم تسترق النظرات نحو الباب، فحدسْتُ بأنهم لا يستطيعون التركيز معي في تلك الفكرة الملتبسة، ومع ذلك عقدتُ العزم بيني وبين نفسي على ألاّ أدع أي شيء يُربك فكرتي وقررت الصمود لأطول وقتٍ ممكن، فواصلت حديثي رغم كل شيء: «إن أكثر الشخصيات دكتاتوريةً في هذه الرواية هي الشخصية غير المرئية للسيدة «نيوسوم». فإذا أردنا أن نتعرف على خلاصة العقل الدكتاتوري، فسيكون من الأجدر بنا أن ندرسها. «نيما».. هلا تفضّلتِ بقراءة الفقرة التي يصف «ستريثر» فيها تلك المرأة؟».

وشرع «نيما» بالقراءة: «إنها امرأةٌ صعبة، وصعوبتها تتلخصّ في انها لا تؤمن بالمفاجآت. تلك هي الحقيقة التي تصفها وتقدّمها لنا كما أعتقد.. إنها امرأة باردة التفكير جدًا، هذا ما أطلقته عليها كوصف. كانت على طريقتها قد خططتْ للأمر مسبقًا، خططَته ورتّبتْ له من أجلي ومن أجلها. وكانت أينما تقوم بتنفيذ خططها لا يعود ثمة مكان لأي شيء آخر، ولا هامش لأي تغيير. إنها امرأة ممتلئة كما يمكن أن يكون الامتلاء، ومحزومة مثل رزمة ممتلئة عن آخرها.... لم أمسسها يومًا، فهي لا تمس. أستطيع أن أرى الأمر الآن كما لم أره من قبل: إنها تضمّ بروحها كمالاً خاصًا بها وحدها، كمالاً قد يوحي بالخطأ إزاء أي تغيير قد يطرأ على تركيبتها»..

في تلك اللحظة، كانت الجلبة قد بدأتْ تتصاعد في الخارج، فبدأنا نسمعُ وقعَ أقدام تتراكض وأصوات أناس يتصايحون. وقد بدا الانفعال واضحًا على الآنسة «روحي» والآنسة «هاتف»، فراحتا تتهامسان بصوتٍ مسموع وترمقان الباب بنظراتٍ ذات معنى، فطلبتُ منهما أن تذهبا لاستطلاع الأمر، وحاولتُ أن أستكمل حديثي. فاستدرت وقلت: «دعونا نعود إلى النص».. وقبل أن أكمل جملتي باغتتْني الآنسة «روحي» ورفيقتها اللاهثة وهما واقفتان عند الباب وكأن دخولهما أصبح مستحيلاً، وأبلغتانا بالآتي: «لقد أضرم أحد الطلبة النار في نفسه في أحد الصفوف الخالية، ثم راح يركض في الممر ويصرخ مُطلقًا هتافات ثورية!».

اندفعنا جميعًا إلى خارج القاعة. كان الطلبة من كلا جانبي الممر الطويل يتركون صفوفهم ويهرعون راكضين صوب السلالم. حشرت نفسي في مكان قرب السلالم، حيثُ وقف أحد زملائي. ورأيتُ ثلاثة أشخاص يحملون نقّالة، ويحاولون شقّ طريقهم عبر الزحام للنزول، وقد بدا واضحًا من الطريقة التي يحملون بها النقّالة أن حملهم كان خفيفًا. استطعتُ أن أتبيّنَ من فوق النقالةِ، من تحت ملاءة بيضاء، ملامحَ وجهٍ شديد الاحمرار تشوبهُ بقعٌ رمادية غامقة، وعينين سوداوين واسعتين بدتا وكأنهما مثبّتتين بوجهه بأسلاك مخفية، كانتا جامدتين بلا حراك، وكأنهما توقفتا عند مشهدٍ من رعبٍ لا يُصدّق، وعلى النقيض من ذلك، بدتا وكأنهما لا تكفّان عن الحركة أيضًا، ولكن بارتجاف سريع ذات اليمين وذات الشمال. استطعتُ أن أرى يدين مثل يديّ مهرج أسود، ممدودتين بلا حراك من فوق الملاءة البيضاء، توحيان بأنهما تتجنبان المساس بالملاءة مهما كلّف الأمر. ومن بين كل المشاهد البشعة التي داهمتني في ذلك الصباح، ظل يطاردني شبح العينين الجافلتين دون سواهما.

كانت مكبرات الصوت تطالب الجميع بالعودة إلى قاعات الدرس، بيد أن أحدًا لم يتحرّك من مكانه. كنا جميعًا نراقب الوجه المحمرّ والعينين القاتمتين

واليدين السوداوين وهي محمولة على النقالة نزولاً إلى الطابق الأرضي، وقد بدت وكأنها تنحدر بشكلٍ لولبي. كانت الهمهمات تخفتُ وتتعالى مع اقتراب النقالة ونزولها السلالم. كان ذلك مشهدٌ من تلك المشاهد التي لا تتخذ شكل الحلم فحسب، وأنما شكل ذكرى حلم، إذ نحن ما زلنا نعيش لحظتها ونواجهها. فتخيّل نفسك وأنت تعيش ذكرى حلم على أرض الواقع!

ما أن وصَلَتْ النقّالة إلى الطابق الأرضي حتى أصبحَت الهمهمات أكثر وضوحًا واتخذ اللغط شكل الكلام. وتحوّل المخلوق الاسطوري الممدّد على النقالة إلى شيء أقرب إلى الواقع، فاكتسب تاريخًا واسمًا وهوية. على الرغم من انه لم يكن مهمًا أن تكون تلك هوية شخصية تمامًا.

كان الشاب من بين الطلبة الأكثر نشاطًا في جمعية الطلبة المسلمين. وحين نقول «أكثر نشاطًا» فإن ذلك يعني أنه من أولئك الأكثر تعصبًا. كان واحدًا من المجموعات المسؤولة عن الملصقات والشعارات المعلقة على الجدران، وكان واحدًا من المسؤولين عن اللائحة التي وُضعتْ عند باب الجامعة والتي أُدرجَتْ فيها أسماء الطالبات اللواتي انتهكنَ تعليمات اللبس المحتشم.

تأملتُهُ وهو على النقّالة، يتزلون به الدرج، تأملتُهُ وهو يمرّ عبر تلك الـ«صور من المعركة» وقد غدَتْ «صورًا من الماضي»، أو وهو يمرّ عبر صور الخميني، الذي ما زال حتى بعد موته يرمقُ المواكب بتلك النظرة الصارمة التي لا يشق لها غبار، أو وهو يمرّ بشعاراته الأثيرة عن الحرب: «إذا قَتلنا أو قُتِلنا فإننا متصرون!» ..«نقاتل! نستشهد! لكننا لن نهادن».

كان ثمة شباب كثيرون من مثل ذلك الطالب في كل الجامعات، شبابٌ كانوا فتية أو أطفالاً صغارًا عند بدء الثورة، كثير منهم جاء من المحافظات أو أنه تحدّر من أسرٍ بسيطة. فقد كانت تتزايد في كل عام أعداد الطلبة المقبولين في الجامعات بناء على ولائهم للثورة، وكانوا غالبًا من عوائل الشهداء أو حرس الثورة، وقد أدرجوا تحت بند «حصة الحكومة». أولئك كانوا أبناء الثورة،

بناءها الذين كان عليهم أن يرثوا وصاياها، ويحلون فيها في نهاية المطاف محلّ القوى العاملة «المُغربنة». وكان لا بد للثورة من أن تعني الكثير بالنسبة لهم، فهي السلطة في الدرجة الأساس، وهي الوصول أيضًا. لكنهم استحالوا إلى مغتصبين، فتحَتْ لهم الجامعات أبوابها لا بسبب كفاءاتهم العلمية أو مثابرتهم، بل بسبب انتماءاتهم الأيديولوجية. وما عاد بأمكاننا، لا نحن ولا هم، أن ننسى تلك الحقيقة.

نزلْتُ الدرج ببطء هذه المرة، وقد أحاطتْ بي مجموعة من الطالبات. كنّ متحفّزات وهنّ يتحدثنّ فيما بينهن. وقد غدت معرفة مَن قد يكونه ذلك الطالب سببًا وجيهًا لتبادل الذكريات والقصص بشأنه. فتحدثنّ بحرقة عن المهانات التي تعرضنَ لها على يد أعضاء من الجمعية التي كان ينتمي إليها. وأعدنَ سرد حكاية قالها آخر من جمعية الطلبة المسلمين، من الذين استشهدوا في الحرب، وكيف أنه ادّعى بأنه أُثيرَ جنسيًا لمرأى بقعة جلد بيضاء تلوح من تحت إيشارب إحدى الطالبات. فما استطاع الموت نفسه أن يمحو ذكرى تلك البقعة الجلدية البيضاء، ولا أن يمحو تلك العقوبة التي نالتها الفتاة جزاء لها على ذلك.

لم يكن بإمكاننا ربما أن نتحدّث بطلاقة ووضوح عن تلك الـ«مهانات»، فلجأنا إلى سرد حوادث عرضية متحايلين في التعبير عن استيائنا وسخطنا، وحوّلنا الموضوع إلى قصص صغيرة كانت تفقد تأثيرها ما أن تُحكى. لم يعرف أحدٌ منا الكثير عن خلفية وتاريخ الطالب المصاب، بل وربما لم يبدُ على أحد الاهتمام بذلك. وقد اتضح لي بعد ذلك بمدة أنني لا أستطيع أن أتذكر اسمه، على الرغم من أنني أتذكر كل التفاصيل الدقيقة لكل القصص التي رُويَتْ لي عنه وعن رفاقه.

لقد جعل من نفسه ثائرًا وشهيدًا ومحاربًا قديمًا، لكنه لم ينجح في أن يبدو إنسانًا! فهل أحبّ يومًا ما؟ هل حلمَ يومًا بأن يحتضن إحدى الفتيات اللواتي التمعَ بياضهنّ من تحت الخمار الأسود؟

لقد كنتُ مثل كثيرين سواي في الجامعة: أرتقي السلالم وأسير في الممرات وأجول في الأروقة وأنا ملأى بالاستياء. لقد نجح الاستياء في أن يمحو أي التباس في التعامل مع من هم على شاكلة ذلك الطالب، فتحوّلنا إلى قطبين: «نحن» و«هم». كنا أنا وطلبتي وزملائي، نتبادل الحَكايا والنوادر مثل متآمرين متشبثين بكبوة أصابت خصمًا أشد بأسًا وأعتى منا بكثير، ولكن لم يكن ليخطر على بالنا في ذلك اليوم، بأن من بدا علينا بأنه يستمرئ استخدام سلطته ونفوذه إلى ذلك الحد، كان في الواقع هو الأشدّ رغبةً في تدمير ذاته. ولي أن أتساءل: هل إنه بقيامه بهذا العمل، بحرق نفسه، كان يتعمّد أن يسلبنا حتى حق الانتقام؟

كان في حياته «لا أحد» تمامًا بالنسبة لي، وها هو يغدو بموته هاجسًا مسيطرًا. كان جلّ ما عرفناه عن حياته الشخصية أنه كان ينتمي إلى أسرة فقيرة الحال، وبأن قريبته الوحيدة كانت امرأة عجوزًا طاعنة في السن، وكان هو معيلها الوحيد. وقد تطوّع للخدمة العسكرية وشارك في الحرب، بيد أنه سرعان ما أصيب برهاب القنابل[1]، فأُعفيَ من الخدمة العسكرية. ولكن من الواضح أنه لم يكن قد تعافى تمامًا. وقد عاد إلى الجامعة بعد اتفاقية السلام مع العراق. لقد انتهت الحرب ولملمت معها الإثارة والحماسة، وحل محلّها السلام الذي جاء محمّلاً بخيبة الأمل والإحساس بالضياع، وبهذا فقد الكثير من الشباب الثوريين نفوذهم.

«لقد كانت الحرب بَرَكَةً لنا!».

نحن لم نشعر ذات يوم بأننا جزء من تلك الحرب، أما بالنسبة لمن في مثل حالته، فلا بد وأن تكون الحرب بركة لهم! لقد منحتهم الحرب إحساسًا بالانتماء للمجتمع، وأصبحتْ بالنسبة لهم غايةً منشودةً ومصدرًا للسلطة والنفوذ. وقد فقد كل ذلك مرة واحدة ما أن أعيد من الجبهة. ولم تعد السلطة

(١) رهاب القنابل: حالة نفسية تصيب الجندي في الحرب، أعراضها رعب شديد عند سماع أصوات الانفجارات، وقد تؤدي إلى حالة من الشلل الهستيري. (هامش المترجمة).

والنفوذ لتعني له شيئًا بعد ذلك، وقد مضى رفاقه من الطلبة الإسلاميين كلٌ في حال سبيله. فما الذي يمكن أن يجول بباله إذ يرى رفاقه القدامى وهم متحمسون لمشاهدة فيلم عن احتفالات الأوسكار عبر طبقٍ لاقط ممنوع، عوضًا عن حماستهم لمشاهدة صورٍ من المعركة؟ كان بإمكانه التعامل معنا، ولكن ما الذي كان بوسعه أن يفعل إزاء شخصٍ مثل السيد «فرصَتي»؟ لقد أصبح السيد «فرصَتي» بالنسبة له شخصًا غامضًا ومربكًا وغير مألوف، تمامًا مثل شخصية روائية من شخصيات «هنري جيمس».

بقيتُ أتخيّله: وهو يصل إلى الجامعة مبكرًا في ذلك اليوم وبين يديه عبوتان من الكازولين، لا بد من أن أحدًا لم يقم بتفتيشه عند البوابة، فهو يتمتع بامتياز خاص بصفته من قدامى المحاربين. أراه وهو يمضي إلى إحدى القاعات الفارغة، ويصب الكازولين على رأسه. ثم أراه وهو يلتقط علبة كبريت وشيئًا فشيئًا يستعدّ ليضرم النار في جسده. فهل أشعل نفسه هكذا مرة واحدة ؟ أم تراه فعل ذلك على دفعات وفي أجزاءٍ مختلفة من جسده؟

بعد أن أضرم النار، راح يركض عبر الرواق ليقتحم صفّه هو، ثم بدأ يصرخ: «لقد خانتنا الخونة.. لقد كذبوا علينا.. انظروا إلى ما فعلوه بنا».

وكانت تلك هي آخر خطبه الحماسية.

نحن لسنا بحاجة إلى أن نتفق معه أو أن نستحسن عمله لكي نتفهّم موقفه. فقد عاد من الحرب التي كان ينتمي إليها، والتحقَ بالجامعة التي لم يكن ذات يوم جزءًا منها. لم يكن ثمة من يهتم لسماع حكاياته أو الإصغاء إليه، فكان الموت وحده قادرًا على أن يوقدَ جذوةَ الاهتمام به ولفْتِ الأنظار إليه. ولسخرية القدر، على الرغم من أن حياة ذلك الرجل كانت تحكمها ثوابت عقائدية لا لبس فيها، فإن موته جاء ملتبسًا وملبدًا بالكثير من التعقيد.

في تلك الليلة بعينها، توفي الشاب. فهل رثاهُ رفاقه فيما بينهم وهل ندبوا رحيله؟ أما في الجامعة، فلم يذكره أحد، وعلى الرغم من أننا في بلدٍ تحظى

فيه المآتم ومواكب التأبين بفخامة وإبداع في الإخراج أكثر مما يحظى به أي فن آخر، لم تترتب على وفاته خطبًا حماسية أو زهورًا أو احتفالاً بإحياء ذكراه، بل لقد كان الصمتُ مطبقًا في كل مكان. فحتى أنا، انا التي أتفاخر باعتراضي على فرض الحجاب واعتراضي على سواه من المضايقات المستمرة، كنتُ في ذلك اليوم قد التزمتُ الصمت. وباستثناء الهمهمات، كان الشيء الوحيد الذي كسر قاعدة الروتين اليومي المألوف، هو أن مكبرات الصوت كانت تؤكّد لسبب أو لآخر، إعلانها عن استئناف المحاضرات بشكل طبيعي لساعات ما بعد الظهر وكما هو معتاد. وقد استأنفنا المحاضرات فعلاً في ذلك اليوم، لكنني لم أكن أنا نفسي، «كما هو معتاد»!

الفصل الرابع

أوستن

[1]

قالت «ياسي» بما يشبه التصريح: «انها حقيقة مسلّم بها في كل مكان: حقيقة أن الرجل المسلم أيًا كانت حالته المادية، لا بدّ من أن يكون راغبًا بالزواج من فتاة عذراء في التاسعة من عمرها». أعلنت «ياسي» ذلك بنبرتها المعهودة الخالية من الانفعال والمشوبة بشيء من السخرية، وأحيانًا بشيء من التهريج، وكانت هذه ربما واحدة من تلك الأحايين.

فبادرتها «مانا» فورًا: «ولماذا لا نقول بأنها حقيقة مسلّم بها في كل مكان: حقيقة أن الرجل المسلم لا بد من أن يكون راغبًا بالزواج من أكثر من امرأة واحدة؟». قالتها وهي ترمقني بنظرة متآمرة، كانت عيناها السوداوان طافحتين بالسخرية وبالثقة التامة من أنها ستحظى منّا بالرد المناسب. كانت «مانا»، بخلاف «مهشيد»، تمتلك طريقة خاصة للتفاهم بشكل سرّي مع القلائل الذين تحبهم. وكانت وسيلة اتصالها الأهم هي عيناها: فأما أن تركزهما أو تبعدهما عن المقابل. وقد نمَتْ بيننا شيفرة خفية، بيد أنها كانت إذا ما شعرت بأنها استُفزّت، وما أسهل ما كانت تُستفز، فانها تخفض بصرها وتحيد به جانبًا، فتختفي نبرة التآمر من كلماتها.

كان ذلك ذات صباح من تلك الصباحات الرمادية الباردة في أوائل كانون الأول/ ديسمبر، كانت السماء الغائمة والقشعريرة في الجو تُنذر بقرب هطول الثلج. وكنت قد طلبتُ من «بيجان» أن يوقد لنا نار الموقد قبل أن يغادر إلى

العمل، ففعل، وراحتْ النار تغمرنا بدفئها اللذيذ. ربما كانت الـ«حميمية» هي أفضل وصف لشعورنا آنذاك، وهي واحدة من العبارات المفضلة لدى «ياسي». كانت كل المعطيات الضرورية قائمة: شبابيك مضمّخة بالضباب، أكوابٌ من القهوة تتصاعد أبخرتها، هسيسُ نار موقدة، حلوى من الـ«كريم بَف» بالقشطة، كنزات من صوف سميك، وكانت تتماهى في الغرفة رائحة القهوة والدخان والبرتقال. كانت «ياسي» تجلس شبه متمددة على الأريكة، في مكانها المعتاد ما بين «مانا» و«آذين». (كم تثير استغرابي تلك الفتاة مرة بعد أُخرى: فكيف لجسدٍ ضئيل كجسدها أن يشغل هذا الحيز الكبير من المكان؟). أطلقَتْ «آذين» ضحكتها العابثة المجلجلة في الفضاء، وقرّبَتْ «نسرين» كرسيّها من الموقد، وراحت يداها اللتان لا تعرفان الهدوء تطعمانِ النار قشورًا من البرتقال، وكانت حتى «مهشيد» قد جادت علينا بشيء من الابتسام.

كانت أحاديثنا التي تتقافز بين الحين والحين ما بين الجد والهزل تشكّل دليلاً واضحًا على مدى الحميمية والألفة التي نمَتْ بيننا. كان ما يشدنا لمعظم الكتّاب هو المتعة، خاصة «أوستن»، حتى إننا كنا أحيانًا نغالي في مشاعرنا فنتعامل مع النص بطفولية ومشاكسة، لا لشيء سوى الاستمتاع. فكيف يمكن للمرء أن يقرأ الجملة الأولى من «الكبرياء والتحيز» من دون أن يدرك تمامًا بأن ما تريده «أوستن» من قرائها هو ذلك التعامل تحديدًا؟

كنا بانتظار «ساناز» في ذلك الصباح، فقد أخبرتنا «ميترا» وقد أشرقتْ غمازتاها قليلاً، بأن «ساناز» تتمنى علينا انتظارها لأن لديها مفاجأة لنا. وقد اكتفَتْ «ميترا» بالرد على كل تخميناتنا المشاكسة بابتسامة متحفظة.

راحتْ «آذين» تخمّن قائلة: «لا بد أن أمرًا من اثنين قد حدث: فإما مشاجرة جديدة مع أخيها جعلتها تقرر أخيرًا ترك البيت والانتقال للعيش مع عمّتها الرائعة، أو أنها ستتزوج من حبيبها أخيرًا». قالت ذلك وهي تحرّك يدها و«تشخلل» بأساورها الذهب والفضِ. فعلقت «ياسي» وهي تعدّل من جلستها

قليلاً: «إذا احتكمنا لابتسامة «ميترا»، فإن احتمالية الزواج ستكون هي الأرجح».

ازدادت غمازتا «ميترا» إشراقًا، بيد أنها رفضتْ الاستجابة لاستفزازاتنا. نظرتُ إليها فخطر ببالي زواجها من «حميد» مؤخرًا. لا بد انهما كانا يختلسان اللقاءات من تحت أنفي من دون أن يساورني الشك بهما. لقد دعياني إلى زواجهما، ولكن «ميترا» لم تكن قد لمّحَتْ بشيء عن علاقتهما قبل ذلك. وكنت قد سألتها بفضول وقلق: «هل وقعتما في الحب؟». مما حدا بـ«مانا» أن تقول متأففة: «يا إلهي! إنه ذلك السؤال الممل مرة أُخرى!». لقد منحتُ أصدقائي وزملائي فرصة سانحة للتندّر دائمًا، إذ إنني لم أكن استطيع أن أقاوم سؤال كل من يتزوّج: «هل وقعتَ في الحب؟». كنت أطرح ذلك السؤال بلهفة وإلحاح دائمين، ولم أكن أحظى سوى بابتساماتٍ لا مبالية. أما «ميترا»، فقد احمرّتْ وجنتاها أمام سؤالي، وأجابت بخفر: «آه.. نعم.. بالتأكيد».

قالت «آذين» بتعفف زائف: «ولكن من ذا الذي يشغله التفكير بالحب هذه الأيام؟». كان شعرها مسحوبًا إلى الخلف على شكل ذيل الفرس وتتراقص بخفة خرزات صغيرة من الفيروز عند أذنيها كلما أومأتْ برأسها. واستأنفَتْ: «لقد أعادتنا الجمهورية الإسلامية إلى عصر «جين أوستن»، فليبارك الله الزيجات التقليدية التي ترتبها العائلة! لقد صارت البنات تتزوجن هذه الأيام لأنهنّ مجبرات على ذلك.. أعني أن العائلة تجبرهن، أو أنهن يتزوّجن من أجل ضمان الاستقرار المادي، أو ربما من أجل الحصول على البطاقة الخضراء في أميركا، أو من أجل الجنس.. أو.. أو.. إنهنّ يتزوّجنَ لأسبابٍ مختلفة، أما الحب فنادرًا ما يكون سببًا للزواج». ألقيتُ نظرة على «مهشيد»، فبدَتْ وكأن لسان حالها يقول: «ها قد عدنا من جديد إلى هذا الموضوع!»، على الرغم من أنها كانت قد التزمتْ الصمت تمامًا.

واصلَتْ «آذين»، وهي تمدّ يدها إلى كوب القهوة: «نحن نتحدث عن البنات

المتعلمات، عن مَن هنّ مثلنا، عن اللواتي درسْنَ في الكليات، ويتوقع المرء أن يكنّ على مستوى أعلى من الطموح».

فبادرتْها «مهشيد» بهدوء من دون النظر إليها: «ليسوا كلهنّ على تلك الشاكلة. فثمة الكثير من النساء المستقلات. وكم منهنّ اخترنَ أن يصبحنَ سيدات أعمال ناجحات، وأُخريات اخترنَ أن يعشنَ بمفردهنّ». فقلتُ في سري: «بلى.. فعلاً! أوَلستِ أنتِ واحدة منهن؟ إنسانة جادة متعلمة وعاملة، ومع هذا لا تزال تعيش مع أهلها وهي في الثانية والثلاثين!».

قالت «مانا»: «ولكن معظمهنّ لا يملكنَ حقّ الاختيار. أظن أننا متخلفون جدًا عن عصر «جين أوستن»». كانت تلك من المرات القلائل التي أتذكر بها «مانا» وهي تنحاز ولو ضمنيًا إلى «آذين» ضد «مهشيد». وخلُصَتْ «مانا» إلى القول بنبرة حزينة: «لقد كانت أمي أوفرنا حظًا في اختيار شريك حياتها، فغدَتْ خياراتي أنا أقل، وستكون خيارات أختي الصغرى أقل حتى مني».

فقالت «نسرين» وهي تعيد ترتيب قشور البرتقال في صحنها مثل لعبة الجيكسو: «ولكن ماذا عن الزواج الموقت؟ يبدو أنكنّ تتناسينَ البديل المتنوّر الذي منحنا إياه رئيسنا!». كانت «نسرين» تشير بذلك الى أحد الأحكام الإسلامية الخاصة بإيران، وهو حكمٌ يبيح للرجل أن تكون له رسميًا أربع زوجات، وأن تكون له ما يشاء من الزوجات بشكل موقت. والحكمة من وراء ذلك هو إشباع رغبات الرجال حينما تكون الزوجات غائبات، أو عاجزات عن الإرضاء. وبوسع الرجل إبرام «صيغة» عقد كهذه لمدةٍ قد تقصر لتصل إلى عشر دقائق، أو قد تطول لتصل الى تسعةٍ وتسعين عامًا. كان الرئيس رفسنجاني، الذي كان قد نال شرف الحصول على لقب الإصلاحي آنذاك، قد اقترح على الشباب الخوض في تجربة الزيجات الموقتة. وقد أثار هذا الأمر حفيظة السلفيين والتقدميين على حدٍ سواء. فقد وجد السلفيون في ذلك تحركًا سياسيًا محنّكًا من الرئيس لكسب تأييد الشباب له، وحدا بالتقدميين أيضًا إلى التشكيك

بدوافع الرئيس، بالإضافة الى أنهم وجدوا في ذلك الأمر إهانة صارخةً للمرأة على وجه الخصوص. وذهب بعضهم بعيدًا حتى أطلق على تلك الصيغة من الزواج اسم: «البغاء الشرعي».

قالت «مهشيد»: «أنا لست مع الزواج الموقت». ثم صمتت لتضيفَ بحذر: «ولكنني أرى أن الرجال هم أضعفُ فعلاً من النساء، ولديهم فعلاً رغبات جنسية لا تُشبع بسهولة، إنه في النهاية خيار الفتاة، فلا يمكن لأحدٍ أن يُجبرها على الموافقة».

فقالتْ «نسرين» باشمئزاز واضح: «خيار الفتاة؟ يبدو أن مفهومك عن الخيارات مضحك فعلاً!».

فلم تجبها «مهشيد»، واكتفتْ بأن تخفض بصرها.

وواصلَتْ «نسرين» بغضب: «إن بعض الرجال، بل وحتى أكثرهم ثقافة وعلمًا يرون في ذلك تقدّمًا. كنتُ أناقش أحد أصدقائي في هذا الأمر، وقد قلتُ له بأنني لن أقتنع بأن هذا الحكم ينطوي على تقدّم إلا إذا جعلوا للمرأة فيه حقوقًا مثل حقوق الرجل. هل تردنَ التعرّف على مدى «تفتح» عقلية هؤلاء الرجال؟ اسألوهم عن الزواج، ولكم أن تلمسوا بعد ذلك حجم الازدواجية! أنا لا أتحدثُ عن المتدينين منهم.. مطلقًا.. بل أخصّ العلمانيين». كانت تتحدّث وهي تُلقم النار قطعة أُخرى من قشور البرتقال.

فعلّقَتْ «ياسي» وهي تعقد ما بين حاجبيها: «فعلاً.. فلا أمي ولا أي من خالاتي كنّ قد تزوّجنَ عن حب، على الرغم من أن كل أخوالي لم يتزوجوا إلا عن حب! ألا يبدو ذلك غريبًا فعلاً؟ إلى أين سيمضي بنا الحال؟ أعني أي إرث سنرث من هذه القصص؟». بعد هنيهة تأمّل أضافتْ وقد أشرق وجهها من جديد: «لو كانت «جين أوستن» في مكاننا كانت حتمًا ستقول: إنها حقيقة مسلّم بها في كل مكان، تفي بأن الرجل المسلم أيًا كانت حالته المادية، لا بدّ من أن يكون راغبًا بالزواج من فتاة عذراء في التاسعة من عمرها!». هكذا كنا قد

ابتدأنا لعبتنا، فقد أغرتنا جملة «أوستن» الافتتاحية الشهيرة، ورحنا ننسج حولها الجُمل، وهو إغراء لا بد من أن يكون كل قارئ من قراء «أوستن» قد أحسّ به ولو لمرة واحدة.

قطعَ صوتُ الجرس مهرجان مرحنا. كانت «مهشيد» أقربنا إلى الباب، فقالت: «سأفتح أنا». سمعنا صوت البوابة الرئيسة وهو ينغلق، تبعَتْه خطوات على الدرج، ثم هنيهة صمت تلاها صوت «مهشيد» وهي تفتح الباب لأصوات الضحكات والتحايا. دخلتْ «ساناز» وقد ارتسمَتْ على وجهها ابتسامة مشرقة. كانت تحملُ علبة كبيرة من المعجنات، فسألتها: «ولماذا المعجنات؟ إنه ليس دورك». فقالت بغموض: «بلى.. ولكنني أحملُ أنباءً سارة».

فسألتْ «ياسي» بتكاسل وهي شبه غاطسة في مكانها على الأريكة: «هل ستتزوجين؟» وأجابت «ساناز» وهي تخلع عنها معطفها الطويل وغطاء رأسها الصوفي: «دعيني أجلس أولاً». ورفعَتْ رأسها بشكل مائل إلى أحد الجانبين، بخفة وغنج لا تجيده سوى امرأة ذات شعر جميل، وقالت مصرّحة: «سيهطل الثلج».

وتساءلتُ في سرّي: ألنْ تعتذر عن التأخير؟ لقد بدا ذلك ضروريًا حتى في مناسبة كهذه، مناسبة تملك فيها عذرًا دائمًا ولن يلومها أحد.

فقالت بابتسامة آسرة: «أنا آسفة جدًا على تأخري مرة أُخرى». ولم يكن في ابتسامتها ما يدل على الأسف.

قالت «آذين»: «لقد تعدّيتِ على حقوقي، فالتأخير هو من اختصاصي أنا!». كانت «ساناز» تفكر بتأجيل ما لديها من أخبار حتى وقت الاستراحة. كنا قد اتفقنا مسبقًا على أن نُرجئ حكاياتنا الشخصية حتى وقت الاستراحة، فقد كانت تلك الحكايا قد بدأت تتسرب بشكل متزايد بيننا في ندوات الخميس معرقلة بذلك ساعات الدرس. ولكن في ذلك اليوم تحديدًا، كنتُ أنا الأُخرى في غاية الشوق لمعرفة الأخبار، إلى حدّ أنني لم أكن أطيق الانتظار أكثر.

فاستجابَتْ «ساناز» لطلباتنا الملحّة أخيرًا، وقالت: «لقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة!».

علمنا بأن الحبيب قد اتصل بها فجأة ومن دون سابق إنذار، وطلب منها الزواج، ملمّحًا عن شيء يتعلّق بضيق الوقت. وقال بأنه قد أخبر والديه أصلاً، وهما بدورهما أخبرا والديها (من دون أن يأخذ رأيها أحد كما فهمتُ من بين السطور). وقد ابتهج الأهل، وطالما أنه لن يستطيع المجيء إلى إيران بسبب التجنيد، فربما سيكون بإمكانها هي وعائلتها الذهاب إلى تركيا. وإذ لم يكن الإيرانيون بحاجة إلى تأشيرة دخول إلى تركيا، فقد كان بإمكان «ساناز» وعائلتها ترتيب موضوع السفر بسرعة.

كان الخبر قد صعقها، فقد كان أمرًا لطالما انتظرَتْ حدوثه، بيد أنها بطريقة أو بأُخرى، لم تكن لتصدق أنه قد يحدث فعلاً. وهنا قاطعَتْ «ساناز» نفسها لتقول: «تكاد ناركم أن تخمد، أنا شاطرة في هذا الأمر، دعيني أوقدها ثانية». أضافتْ بعض الأخشاب إلى النار الخامدة، وراحت تحرّكها بهمّة، فتراقص في الموقد لهب جامح دام بعض الوقت، ليختفي ويهدأ بالسرعة التي ظهر بها.

في بداية القرن العشرين ارتفع سن الزواج في إيران، وهو تسعة وفقًا للشريعة الإسلامية، إلى ثلاثة عشر عامًا، ثم إلى ثمانية عشر عامًا. كانت أمي قد اختارتْ شريك حياتها بنفسها، وكانت واحدة من بين أول ستّ نساء انتُخبن للبرلمان عام ١٩٦٣. وحين كنتُ في مقتبل العمر في الستينات، لم يكن ثمة فرق كبير بين حقوقي وحقوق النساء في دول الغرب الديمقراطية. ولم يكن واردًا أن نعتقد بأن ثقافتنا لا يمكن مقارنتها مع الديمقراطيات الحديثة، أو بأنه ثمة نسخة غربية وأُخرى إسلامية للديمقراطية أو لحقوق الإنسان. لقد كنا جميعًا نطالب بفرص وحريات جديدة. ولذلك فقد أيّدنا التغييرات الثورية لأننا كنا نطمح إلى المزيد من الحقوق، لا إلى تقليصها.

وكنتُ قد تزوجتُ عشية اندلاع الثورة من الرجل الذي أحببت. في ذلك

الوقت كانت «مهشيد» و«نسرين» و«مانا» و«آذين» في سنوات المراهقة، وكانت «ساناز» و«ميترا» أصغر ببضع سنوات، بينما لم تكن «ياسي» قد تجاوزَتْ سنتها الثانية. وعندما ولدت ابنتي بعد ذلك بخمس سنوات، كانت القوانين قد ارتَدّتْ بنا إلى ما كانت عليه قبل عهد جدتي. وقبل بضعة أشهر من إقرار الدستور، كان أول قانون يتمّ إلغاؤه هو قانون حماية الأسرة، الذي كان يضمن حقوق المرأة في البيت والعمل. ومن جديد خفّضوا سن الزواج إلى تسع سنوات، وقد قيل بأن ذلك يعادل ثماني سنوات قمرية ونصفًا. وأصبحَتْ عقوبة الزنى والبغاء رجمًا بالحجارة حتى الموت. وتم اعتبار حق المرأة نصف حق الرجل (أي: حق الذكر مثل حق الانثيين). وتم إحلال أحكام الشريعة الإسلامية محل القوانين الوضعية التي كانت متبعة، لتصبح الشريعة هي المرجع الأساس في الحكم.

كنتُ في شبابي قد شهدتُ وصول امرأتين الى منصب وزير. وقد حوكمَتْ هاتان المرأتان بالاعدام بعد الثورة، بتهم ارتكاب المعاصي ونشر البغاء. كانت احداهما خارج إيران عند اندلاع الثورة، وهي وزيرة شؤون المرأة، فمكّنَتْ في المنفى وأصبحتْ بعد ذلك من القياديات البارزات في مجال حقوق المرأة وحقوق الانسان. أما الثانية، وقد كانت وزيرة التربية ومديرتي في المدرسة الثانوية قبل ذلك، فقد تمّ وضعها في كيس ورجمها أو رميها بالرصاص حتى الموت.

ومع بمرور الوقت، سوف ترنو البنات، بناتي، إلى هاتين المرأتين بكثير من التقدير والاحترام، ولسوف تبعثا فيهما الأمل: فطالما كان لنا في الماضي نساء مثلهما، فلماذا لا يكون لنا كذلك في المستقبل أيضًا؟

كان مجتمعنا أكثر تقدمًا بكثير من حكامه الجدد، وكانت النساء، بغض النظر عن معتقداتهن الدينية والأيديولوجية، قد خرجنَ إلى الشوارع احتجاجًا على القوانين الجديدة. كنّ قد خبرْنَ طعم القوة ولم يكنّ مستعدات للتخلي عنها

بسهولة. كانت هذه هي البداية التي جعلتْ أسطورة الحركة النسوية الإسلامية تضرب جذورها في الأرض. وهي فكرة تناقضُ نفسها وتحاول التوفيق بين مفهوم حقوق المرأة والعقيدة الإسلامية. لقد أتاحَتْ هذه الفكرة للحكام الحصول على الكعكة وأكلها في آن واحد. فقد ذهبوا إلى الادعاء بأنهم تقدميون وإسلاميون في الوقت نفسه، بينما اتُّهِمَت النساء المتحضرات بشتى أنواع التهم: مثل الغربنة والانحلال وعدم الولاء للثورة. كانوا بحاجة إلى وجودنا معهم بصفتنا نساء ورجالاً متحضرين فنرشدهم وندلهم على الطريق، ومع ذلك، كانوا يحرصون على إبقائنا ضمن حيز ضيّق لا نحيد عنه.

كان أهم ما ميّز هذه الثورة عن سواها من الثورات الشمولية في القرن العشرين أنها انبثقَت باسم الماضي: وكان هذا هو سر قوتها وضعفها على حدٍ سواء. حتى صرنا نعيش في الحاضر وفي الماضي معًا، صرنا نحن الأجيال الأربعة: جدتي وأمي وأنا وابنتي، نحسّ بأننا نواجه تجربة الحياة في عصرين مختلفين في آن واحد. وكان من المثير حقًا أن ندرك كيف أن الحرب والثورة جعلتانا أكثر وعيًا حتى إزاء مشكلاتنا الشخصية (خصوصًا الزواج الذي يضمرُ في جوهره قضية الحرية الشخصية، وهو ما اكتشفتُهُ «جين أوستن» قبل قرنين من الآن). كنت أقول في نفسي: لقد اكتشفتْ «جين أوستن» ذلك فعلاً، ولكن ماذا بوسعنا نحن الآن أن نفعل إذ نحن قابعات في هذه الغرفة، في بلد آخر وفي نهاية قرن آخر؟

أيقظتْني ضحكة «ساناز» المتوترة من استغراقي. قالتْ وهي تزيح بيدها اليمنى خصلة شعر مفترضة عن جبينها: «أنا خائفة جدًا، فقد كنت حتى هذه اللحظة أنظر إلى ذلك الزواج على أنه حلم جميل، على أنه محض فكرة تنتابني كلما تشاجرتُ مع أخي. ولم أكن لأدرك يومًا كيف يمكن لهذا الحلم أن يتحول إلى واقع ملموس، بل لا زلت لا أستطيع أن أستوعب حدوثه».

كانت «ساناز» متوجّسة بشأن رحلتها إلى تركيا، وكيف سيكون لقاؤهما معًا

بعد كل تلك السنوات. قالت بقلق: «ماذا لو انني لم أرقَ له؟»، (ولكنها لم تقل: «ماذا لو انه لم يرقني؟».. أو.. «ماذا لو اننا لم ننسجم معًا؟»). قالت: «ماذا لو انني لم أرقَ له مما يترتب عليه ألاّ يتم الزواج؟». هل سيصبح أخوها أكثر شراسةً وتصبح والدتها أكثر كآبة؟ وهل ستحمّله والدتها ذنبًا، فتنظر إليها بتلك النظرات الاستشهادية وكأنها تعمّدت إفشال الزواج؟ كانت تلك أسئلة في غاية الإرباك بالنسبة لـ«ساناز». وكان من الصعب التكهّن بما تنوي عمله؛ فهل كانت ستذهب إلى تركيا من أجل إسعاد الآخرين؟ أم لأنها تحب ذلك الرجل فعلاً؟ وكانت هذه هي جلّ مشكلتي مع «ساناز»، فلم يكن بوسع أحد أن يعرف ما الذي تريده فعلاً.

قالت «نسرين» وهي تنقل كوب قهوتها من يد إلى أخرى بعفوية: «لقد مرّتْ ست سنوات، وحده الله يعلم ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الرجل!». نظرتُ إليها باهتمام، مثلما أفعل دائمًا حينما نتطرّق إلى موضوع الزواج والرجال. فلم أكن أملك أن أغالبَ تساؤلاتي: كيف كان لها أن تتعامل مع المغمور من الذكريات؟ هل تضعُ نفسها في مقارنة مع صديقاتها اللواتي لايحملْنَ تجارب كالتي مرّتْ بها؟ وهل إنهنّ فعلاً لا يحملنَ تجارب مماثلة؟

نظرَتْ «ساناز» إلى «نسرين» نظرة تأنيب. فلم تكن تريد سماع ذلك الآن. على أية حال، سيكون سفرها إلى تركيا في صالحها، حتى لو أن الأمور لم تجرِ على ما يرام. فهي على الأقل، ستحسم وجوده في حياتها.

سألتُها وأنا أحاول تجاهل إبتسامات البنات الساخرة: «هل تحبينه؟ فطالما نحن بصدد اتخاذ قرار بالزواج فنحن إزاء مخاطرة دائمًا، ولكن السؤال هنا: هل تحبينه الآن؟».

أجابت «ساناز» ببطء، وقد منعها انفعالها الشديد من الدخول في لعبة المزاح مع البنات: «أحببته حينما كنت صغيرة جدًا، ولا أعرف أكثر من ذلك. ولكنه ظل بعيدًا عني زمنًا طويلاً، ولا بد من أن تكون قد أُتيحَتْ له فرصٌ كثيرة للقاء

نساءٍ غيري، أما أنا، فلم يكن أمامي سوى التفكير به هو، وهو هناك. تقول عمتي بأنه ليس مطلوبًا مني الآن أن أقول نعم أو لا، وتقول بأننا إذا أردنا اختبار مشاعرنا الحقيقية، فسيكون علينا أن نلتقي في تركيا أنا وهو فقط، وأن نقضي بعض الوقت معًا بعيدًا عن تدخلات الأهل».

لم أتمالك نفسي عن مقاطعتها والتدخل مثل حَكَم كرة القدم، فقلتُ: «يا لها من عمة حكيمة بشكل استثنائي! إنها على صواب فعلاً».

رنَتْ إليّ «مهشيد» هنيهةً خاطفة لتخفض نظرتها من جديد، فلمحَتْ «آذين» ذلك وقالت بخبث: «أنا أتفق مع الدكتورة «نفيسي»، سيكون من الحكمة لو أنكما عشتما معًا بعض الوقت قبل أن تصلا إلى قرار نهائي».

قررتْ «مهشيد» الاّ تسقط في الفخ، فاحتفظَتْ بهدوئها ورزانتها. ولا أدري هل تخيّلتُ بأنها رمقتني بنظرة معاتبة، أم أنها كانت قد فعلتْ ذلك حقًا قبل أن تُخفض نظرتها من جديد وتركزها على بقعة ما من السجادة؟

قالت «نسرين»: «إن أول ما سيكون عليك عمله لاختبار مدى التوافق بينكما، هو أن ترقصي معه!».

أربَكَنا ذلك التصريح الصارخ أول الأمر، وقد بدا غريبًا جدًا حتى على «نسرين». وقد استغرقتُ لحظة صمتٍ لأستوعب القصد من وراء جملتها. ولكن.. يا إلهي!.. لقد فهمتها من دون شك! فقد كانت تلمّح إلى «جمعية العزيزة جين»، تلك التي ابتدعناها في السنة الأخيرة لعملي في جامعة العلاّمة. كانت فكرة الجمعية التي ولدَتْ في مهدها، قد ابتدأت برقصة لا تنسى.

[2]

أستطيع أن أرى ذلك المشهد الآن تمامًا، وكأنني أنظر إليه من شباك واسع في بيت يتوسط حديقة خالية. ألصَقتُ وجهي بالشباك، فوجدتُهنّ هناك: خمس نسوةٍ متشحات بجلابيب وإيشاربات سود. كلما مرّتْ إحداهن بالشباك، استطعتُ أن أميّز ملامح وجهها. أرى إحداهنّ وهي تقفُ بمفردها لتراقب الأربع الباقيات. لم يكنّ على مستوى عالٍ من اللياقة، كانت تصطدم إحداهن بالأخرى ويصطدمنَ بالكراسي، كنّ صاخبات، ويتصرّفن بطريقة لا تخلو من ظُرفٍ غريب.

في ذلك الربيع، كنتُ في الفصل الدراسي للمتخرجين، وقد عقدتُ مقارنة بين البناء الروائي لـ«الكبرياء والتحيز» وبين رقصة كانت شائعة في القرن الثامن عشر. وبعد المحاضرة، بقيَتْ بعض الطالبات معي للحديث في ذلك الموضوع. لم يكنّ قد استوعبنَ ما كنتُ أرمي إليه، فوجدتُ أن أفضل طريقة لشرح الالتباس هي بأن أشرح لهنّ بشكل عملي حركات الرقصة، وأن نتتبّع خطواتها معًا. واقترحتُ الآتي: إغمضنَ أعينكنّ وتخيّلنَ الرقصة، تخيّلنَ أنفسكنّ وأنتنّ تتحركنَ خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف. وسيكون من الأفضل لو أن كل واحدة منكنّ تتخيل أن السيد «دارسي»، الرجل الذي لا مثيل له، هو الذي يراقصها، أو.. لا يهم.. لتتخيّل كلٌّ منكن من تشاء ليراقصها. سمعتُ قهقهة من إحدى الطالبات. وفجأة، كمَن أوحي إليه بشيء،

التقطتُ يدَيْ «نسرين» المتمنّعتين، وبدأتُ أراقصها: «واحد، اثنان.. واحد، اثنان».. ثم طلبتُ من الأخريات أن يقفنَ في صفٍ واحد، وسرعان ما صار الكل يرقص. كانت أثوابنا السود الطوال تدور معنا، وكنا نصطدم ببعضنا ونصطدم بالكراسي.

كانت كل واحدة تقف بمواجهة رفيقتها، تقوم بانحناءة بسيطة، تقفُ لتقولَ كلمة، ثم تتلامس الأيادي، ليبتدئ الدوران. فأقول لهنّ: «بعد أن تتلامس الأيادي، فلتنظر كل واحدة إلى عينيْ رفيقتها، ولنرى كم من الحوار يمكن أن يدور مع الرقص، فلتقُلْ كلٌ منكنّ شيئًا للأُخرى». يجدْنَ صعوبة في إبقاء الوجوه منتصبة وثابتة. وتقول «موجغان»: المشكلة هي أننا جميعًا نريد أن نكون «إليزابيث» و«دارسي». وتضيف «نسرين»: «ولكنني لا أمانع في أن أكون «جين»، فلطالما وددتُ أن أكون أجمل الجميلات».

وأستطرد: «نحن بحاجة إلى السيد «كولينز».. هيا يا «مهشيد»، ألا ترغبين بالتمتّع بالخطو فوق أصابع قدميّ؟». تتردد «مهشيد» وتضيف بحرج: «الكنني لم أرقص ولو مرة طوال حياتي!». فأرد: «لا يمكن لهذه الرقصة بالذات أن تثير قلقك. وفي الحقيقة، ولكوني أستاذتك، فإني آمرك أن تقومي بها». وأضيف: «لك أن تعتبريها جزءًا من واجباتك البيتية!». كانت هذه من المرات القلائل التي استمتع بها باستخدام سلطتي فعلاً. وواصلتُ: «هيا.. خطوة إلى الأمام، خطوة إلى الخلف، وقوف، دوران، دوران، لا بد من مراعاة التناغم مع المجموعة ككل، هذه هي النقطة الجوهرية: التركيز على حركتنا وحركة المقابل، وأيضًا جعل حركتنا جزءًا متناسقًا مع المجموعة.. فعلاً.. هذا هو أصعب ما في الرقصة، ولكنه يصبح بالنسبة للآنسة «إليزا بيث» أمرًا عاديًا وعفويًا جدًا».

وأشرح: «تعتمد كل أنواع الرقص في العالم على طريقة الأداء والعرض، ولكن ألا ترَيْنَ معي كيف أن الرقصات المختلفة تستدعي طرُقًا مختلفة للتعبير؟». فتقول «نسرين»: «بالتأكيد، لكِ أن تقارني ما نفعله الآن برقصة

إيرانية. لو استطاع الإنكليز هزّ أبدانهم كما نفعل نحن فستبدو حركاتهم في غاية الاحتشام.. مقارنة بنا!».

فسألهنّ: هل بينكنّ مَن تجيد الرقص الإيراني؟ الكل ينظر إلى «ساناز»، فينتابها الخجل وتتمنّع. نبدأ بمشاكستها واستفزازها لتفعل، ونشكل دائرة حولها. فتتحرّك بحذر وافتعال أول الأمر، لنبدأ بتشجيعها ونحن نصفّق وندندن إحدى الاغنيات. تُذكّرنا «نسرين» مُحذّرة بأن نخفض من أصواتنا. تبتدئ «ساناز» بحياء خطواتها الصغيرة الرشيقة الأولى، ويتمايل خصرها بتناسق وانتشاء. كلما زاد مرحنا ومزاحنا، ازدادت «ساناز» جرأة، فراحت تميل برأسها ذات اليمين وذات الشمال، وراح كل جزء من جسدها يتنافس في إثبات وجوده وجذب الانتباه إليه. يرتعش جسدها وهي تخطو بخطواتها القصار وتراقص بأصابعها ويديها. تلتمعُ في عينيها نظرة من نوع خاص، نظرة جريئة ومغرية معًا، نظرة خُلِقَتْ لتغوي، لتشدّ إليها الناظر، نظرة سرعان ما تنكسر وتتراجع إذ تنتهي الرقصة، وتفقد «ساناز» قوة نظرتها بانتهائها.

ثمة ضروب كثيرة للإغواء، أما ذلك النوع الذي خبرتُهُ في الرقص الإيراني، فهو خاص ونادر: هو مزيج من الرقة والجرأة. ولم أجد رقصًا غربيًا يشبهه لكي أقارن أو أشبّه. لقد التقيتُ بنساء ينتمين إلى بيئاتٍ اجتماعية مختلفة عن بعضها تمامًا، وقد حملنَ جميعًا التعبير والنظرة ذاتها على ملامحهنّ: نظرة من كسلٍ وغنجٍ وغموضٍ معًا. بعد سنوات طوالٍ من رقصتنا في قاعة المحاضرات، كنتُ قد لمحتُ نظرة «ساناز» ذاتها في عينيّ «البلي» صديقتي الراقية فرنسية الثقافة والنشأة. لمحتها حينما بدأتْ ترقص فجأةً على أنغام تلك المقطوعة المفعمة بفقراتٍ من «ناز» و«إيشوه» و«كرشمه»، وهي مفردات إيرانية تبدو مرادفاتها إلى اللغات الأخرى ضعيفة وغير ذات علاقة ولا تعبر عن المعنى الحقيقي، ومع هذا فأقرب ما قد تعنيه بطريقة أو بأُخرى: «جاذبية واستفزاز وغنج وتمنّع».

إن إغواءً من هذا النوع يبدو محيّرًا وتكتنفهُ المراوغة، فهو لاذع وحسّي، يتلوى ويتلولب، يشتدّ ويرتخي، فيه تُثَقّل اليدان وتنبسطان، بينما يدور الخصر ويلتفّ الجسدُ مثل سلك مرتعش. وكلها حركاتٌ مدروسة محسوبة، فلكأن تأثير كل حركة صغيرة قادمة يغدو محسوسًا ومتوقعًا خطوة بعد أُخرى. إنه مثير إلى الحد الذي لا يمكن للآنسة «ديزي ميللر» أو من هنّ مثلها أن تحلم بالوصول إليه. إنْ هو إلاّ إغواءٌ صريح، ولكن بكبرياء وتعفّف وبلا خضوع.

كنتُ ألمس ذلك كله في رقصة «سانازْ». كان سواد ثوبها الفضفاض وغطاء رأسها قد شكلا إطارًا لوجهها النحيل وعينيها الواسعتين وجسدها الرقيق النحيف. كان من الغريب حقًا ان أجدهما يضفيان المزيد من الإغراء على حركات جسدها. وخطوة إثر خطوة، كانت تبدو «سانازْ» وكأنها تحرّر جسدها طبقة إثر طبقة من ثقل القماش الأسود، حتى غدا الثوب في غاية الشفافية، وقد أضفَتْ شفافيته المزيد من الغموض إلى بهاء الرقصة.

توقفنا عن الحركة حينما فاجأنا وجه طالب جافل فتح باب القاعة بغتة. كانت ساعة الغداء قد مضَتْ من دون أن نشعر، وكان منظر الطالب وهو يقف على عتبة الباب، وإحدى قدميه داخل الصف بلا حراك، كافيًا بأن يجعلنا ننفجر بالضحك.

كان ذلك اللقاء قد جعل بيننا ميثاقًا سرّيًا. فناقشنا فكرة إنشاء جماعة سرية أطلقنا عليها اسم «جمعية العزيزة جين»، فنجتمع معًا ونرقص ونأكل حلوى الـ«كريم بَف» ونتبادل الأخبار والحكايا. وعلى الرغم من أننا لم نؤسّس تلك الجمعية بالفعل، إلا أن البنات بقينَ يطلقنَ على أنفسهنّ منذ ذلك الحين اسم «عزيزات جين». كانت تلك هي البذرة الأولى لمجموعتنا الخميسية. وكنت سأنسى كل ما له علاقة بذلك، لولا أنني كنت قد بدأت أفكر بـ«نسرين» مؤخرًا.

أتذكر الآن ذلك اليوم حين تمشينا أنا و«مهشيد» و«نسرين» إلى غرفة مكتبي،

فطلبتُ منهما فجأةً ومن دون سابق تفكير مني، أن تنضمّا إلى صفّي الخاص وإذ رأيتُ الملامح الذاهلة لوجهيهما، سارعتُ إلى إيضاح فكرتي وأنا أرتجلُ ربما تفاصيل كل ما كنت أحلم بتحقيقه ذات يوم، وما بقيتُ أخطط له ببالي. فسألتْني «مهشيد»: «وما هو المطلوب منا تحديدًا؟». فأجبت: «الالتزام المطلق بالأعمال الأدبية، وبالدرس». قلتُ ذلك بطريقة عنيفة وصارمة. ولكنني لم أكن صارمة معهنّ في الواقع مثلما كنت مع نفسي.

[3]

يبدو أنني أكاديمية أكثر مما يجب، لقد كتبتُ الكثير من البحوث والمقالات لكي أستطيع التعبير عن أفكاري وتجاربي بطريقة سردية حكائية، لكنني مع هذا لم أحقق غايتي المنشودة. على الرغم من أن ذلك هو هدفي: أن أحكي وأسرد وان أعيد اكتشاف نفسي مع كل هؤلاء الآخرين. لأنني ما أن أبتدئ الكتابة حتى ينفتح الطريق أمامي: فأرى الإنسان الزائف وقد استعاد جوهره، وأرى الأسد وهو يستعيد شجاعته، ولكن ليس هذا فقط، وليست هذه هي قصتي. فأنا أسير على طريق مختلف لا أستطيع أن أرى نهايته، ولا أدري إلى أين سيمضي بي. بل أكاد ألاّ أعرف أكثر مما كانت تعرفه «أليس»، في حكاية «أليس في بلاد العجائب»، حينما ركَضَتْ في بداية القصة وراء الأرنب الأبيض الذي يرتدي صدريّة وساعة ويتمتم: «لقد تأخرت.. لقد تأخرت!».

لم أجد وسيلة أشرح بها البناء العام لـ«الكبرياء والتحيز» لطلبتي أفضل من مقارنته برقصة من القرن الثامن عشر، تلك الرقصة التي كان بوسع طلبتي تخيّل «دارسي» و«إليزابيث» وهما يؤدّيانها في واحدة من الحفلات الكثيرة التي كانا يحضرانها. ورغم أن الرقصات والحفلات كانت واحدة من أساليب الحبكة لعدد من روايات «أوستن» الأخرى، مثل «مانسفيلد بارك» و«إيما»، إلا أن الرقص لم يكن أساسيًا فيها. وليس ما يعنيني هنا هو العدد الكامل والدقيق للرقصات في الرواية، بل آكد ما قد قلته سابقًا بأن البناء العام للرواية يبدو

وكأنه رقصة، وهو فعلٌ عام وخاص في آن واحد. وأن الأجواء العامة لـ«الكبرياء والتحيز» توحي لنا فعلاً بذلك المناخ الاحتفالي الذي يكتنف الحفلات الراقصة.

إذًا فالبناء الروائي هنا هو بناءٌ لرقصة، وبناء يعتمدُ أيضًا على الاستطراد. فهو يسير بشكل متوازيات وطبقات، ليس على مستوى الحدث والشخصيات فحسب، وإنما على مستوى البناء الزماني والمكاني أيضًا. ففي البدء نرى «إليزابيث» وهي في محيطها الخاص، ثم نراها وهي خارجه وفي محيط «دارسي»، ثم نرى «دارسي» في محيطه الخاص به. ويغدو ذلك الانتقال في المشاهد سببًا مهمًا يعزز اقترابهما أكثر (أي: «إليزابيث» و«دارسي»). ويأتي الحدث الذي يتقدم فيه «دارسي» للزواج من «إليزابيث»، ليكون موازيًا لتقدم «كولينز» للزواج أيضًا. ونجد تطابقًا ضمنيًا ما بين شخصيتيْ «دارسي» و«ويكهام». ونرى «دارسي» وهو يمعنُ النظر إلى «إليزابيث» حتى تصبح نظرته مثل صورة كاميرا وهي تركّز على هدفها بدقة تامة؛ بينما نرى العكس يحدث في الجزء الثاني من القصة عندما تقترب «إليزابيث» من «دارسي».

في الرقصة الأولى للرواية، نتعرّف على كل الشخوص الرئيسة، ويستمرّ الصراع الذي انطلقَتْ شرارته الأولى هناك ليغدو سببًا للتصاعد يحملنا معه طوال أحداث الرواية. ففي تلك الرقصة الأولى، تصبح «إليزابيث» عدوة «دارسي»، بعد أن تسترق السمع إليه وهو يخبرُ «بينغلي» بأنها ليست من الجمال حتى يمكن لأحدٍ أن يراقصها. وإذ يلتقيان مرة أُخرى في الحفلة التالية يكون رأيه فيها قد بدأ يتغير، ولكنها مع ذلك ترفض دعوته للرقص. ويحدثُ أن يلتقيا من جديد في «نيذرفيلد»، وهذه المرة يرقصان فعلاً، ولكنها تبقى رقصة مشوبة بالتوتر على الرغم من ظاهرها المتحضّر. وكلما زاد صدّها وتمنّعها، تزداد إثارة في عينيه، بينما يُزيد التنافر في حوارهما من تناغم خطوات جسديهما على حلبة الرقص.

نحن نجد أن أبطال رواية «أوستن» هم عبارة عن أفراد ذوي حيواتٍ خاصة، أُلقيوا في أماكن عامة. ونجد أن رغبتهم في الاحتفاظ بخصوصيتهم بمفاهيمهم الشخصية بحاجة دائمة الى تشذيب لكي تتناسب مع مكانتهم الاجتماعية في مجتمع صغير جدًا يضعهم تحت المجهر بشكل دائم. فيكون التوازن ما بين العام والخاص أمرًا حتميًا وفي غاية الأهمية في مجتمع مثل ذلك المجتمع.

ويتكرر إيقاع الرقصة إلى الأمام وإلى الخلف، بشكل مستمر في أفعال وتحركات بطلَيّ الرواية الرئيسين اللذَيْن تصوغ الحبكة نسيجها حولهما. تُقرّبهما الأحداث المتوازية أحدهما من الآخر، وتعود فتبعدهما، ويستمر ذلك الابتعاد والاقتراب لـ«دارسي» و«إليزابيث» طوال أحداث الرواية. وفي كل مرة يتقدمان فيها خطوة إلى الأمام، نجد الأرضية مهيّأة لاستقبال الخطوة التالية، وتكون الخطوة الى الخلف مصحوبة بإعادة تقييم للخطوة التي سبقتها الى الأمام. ويكتنف الرقصة أخذ وعطاء، ومحاولات متواصلة للتكيّف مع متطلبات الآخر وتحركاته. نلاحظ مثلاً كيف يتصرف السيد «كولينز» بفظاظة وهو على حلبة الرقص، وكذلك «ثورب» الأخرق في «كنيسة نورثانغر». إن فقدان القدرة على الرقص هنا تعكسُ افتقار هذين الرجلين إلى القابلية على التكيّف مع الآخر، الشريك على الحلبة.

كما أن مركزية الحوار في «الكبرياء والتحيز» تأتي متناغمة تمامًا مع فكرة كون البناء الروائي شبيهًا ببناء الرقصة. فثمة في كل مشهد تقريبًا حوار بين «إليزابيث» و«دارسي». وقد يكون حوارًا حقيقيًا أو متخيلاً، ولكن لا بدّ أن يكون موجودًا باستمرار، ومتراوحًا ما بين حوارٍ مع الذات وحوار مع الآخر. ثم يتشعّب ذلك الحوار المركزي ما بين «إليزابيث» و«دارسي» وبين «إليزابيث» ونفسها، ليتّسع إلى المزيد من الحوارات الأُخرى.

إن أروع ما في رواية «الكبرياء والتحيز» هو تنوّع الأصوات التي تجسّدها.

وتطالعنا في الرواية أساليب كثيرة ومتنوعة للحوار: الحوار بين مجموعة من الشخوص، والحوار بين شخصيتين، والحوار الداخلي لشخصية بعينها، بالإضافة إلى الحوار الذي نجدهُ في الرسائل. ونرى الأحداث والمشاكل وهي تشتعلُ وتنطفئ عن طريق الحوار.

لقد نجحتْ «أوستن» في خلق تعددية وتباينًا في الأصوات وفي الأداء، أثْرَتْ به العلاقات وعمّقت الصراعات ضمن نسيج بنائيّ واحد مترابط. وكانت في قدرتها على خلق كل تلك التعددية قد قدّمتْ لنا الدليل الأمثل على المنحى الديمقراطي للرواية. وبوسع القارئ أن يلمس في روايات «أوستن» مساحة تكفي جميع الفرقاء للعيش بسلام من دون الحاجة إلى إلغاء الآخر، وأن يلمسَ أيضًا مساحة بل ورغبة ملحّة لدى الشخوص للتأمل والنقد الذاتي، ذلك التأمل الذي سيقود بالضرورة إلى التغيير. فنحن لسنا بحاجة إلى حمل رسالة أو اعتناق دعوة صارخة للتعددية لكيما نعبر عن وجهة نظرنا. كل ما نحتاج إليه هو أن نصغي ونقيّم ذلك الخليط المتعدد من الأصوات، لكي نستوعب فكرة الديمقراطية. ومن هنا تأتي أهمية «أوستن».

لم يكن من المصادفة أن نجد أن أبعد الشخوص عن القارئ هم أولئك الذين تعوزهم القدرة على الحوار مع الآخر. فهم يتقنون اللغة الخطابية ونبرة التوبيخ والتسلّط، ولكنهم عاجزون عن الحوار الحقيقي الصادق. وهذا العجز إنما يدلّ على قصور في التحمّل وفي نقد الذات وكذلك افتقار للإحساس بالآخر. ولاحقًا سنجد عند «نابوكوف» هذا العجز وقد بدأ يتخذ أشكالاً أكثر وحشية عند شخصيات مثل «هومبرت هومبرت» في «لوليتا»، و«كينبوت» في «النار الشاحبة».

لا يمكن اعتبار «الكبرياء والتحيز» رواية شعرية، على الرغم من أنها تمتلك إيقاعاتها وتنغيماتها الداخلية الخاصة، وبإمكاننا أن نهجس الأصوات وهي تغدو وتعود متراكضة في أرجاء الغرفة. فها أنني في هذه اللحظة وأنا أمر على

الصفحات، أجدها تتقافز حولي: فأستطيع أن أسمع صوت «ميري» الجاف المثير للشفقة، وسعال «كيتي»، وتلميحات الآنسة «بينغلي» المتعففة. وها أنني ألتقط كلمة من السير «لوكاس» المتملّق، ولكنني لا أكاد استطيع أن أصغي بدقة إلى الآنسة «دارسي» الخجولة المتحفظة، بل أسمع بوضوح وقع أقدام تعتلي السلّم وتهبط من جديد، أصغي لسخرية «إليزابيث» الخفيفة ونبرة «دارسي» المتحفظة الحنون. وإذ أهمّ بغلق الكتاب، تصل مسامعي تلك النبرة الهازئة للراوي، ولا تكفّ الأصوات حتى بعد أن أغلق الكتاب. فتتناهى إلى مسامعي الأصداء وأصداء الأصداء، وهي تتقافز بمشاكسة من بين الصفحات، جاعلة للرواية طنينها الذي يرنّ في آذاننا.

[4]

كانت «آذين» تتفحصُ أظافرها بهوَس وهي تقول: إن لدى «سانازنا» الكثير من المؤهلات، وهي ليست بحاجة إلى ولد لا يساوي قرشًا، وأقصى إنجازاته هو التحايل على التجنيد والسفر للعيش في إنكلترا! كانت نبرتها عصبية بلا مبرر على الرغم من أنها لم تكن في تلك اللحظة تخاطب أحدًا بعينه. في ذلك الوقت كانت قد بدأتْ أظافر «آذين» تلفتُ انتباهي فعلاً. كانت قد اعتادت طلاءها بلون أحمر الطماطم الفاقع، وغدتْ مهووسة دائمًا بالعناية بشكلها ولونها. وصارت تغتنم كل فرصة سانحة أثناء الدرس لتنغمس بالتمعّن فيها، وكأن الطلاء الأحمر قد غدا صلتها بالبعد الآخر، بذلك المكان الذي لا تعرفه سوى «آذين». وكانت كلما مدّتْ يدها لالتقاط قطعة كعكٍ أو حبة برتقال، راحت عيناها تتبعان باهتمام بالغ حركة أطراف أصابعها المخضّبة بالأحمر.

كنا نناقش موضوع «ساناز» في الاستراحة. كان من المفترض أن تعود من تركيا في الأسبوع التالي. قالت لنا «ميترا»، وهي صِلتنا الوحيدة بـ«ساناز» وكانت تمدّنا بآخر الأخبار: «لقد وجَدَتْ بأنه شخصٌ رائع، وقد أحبته فعلاً وتمت الخطبة على خير. وتقولُ إنهما ذهبا معًا إلى شاطئ البحر. ستأتينا «ساناز» بصور كثيرة من هناك. أما عمتها فهي لا ترى فيه شيئًا مثيرًا، وتقول بأنه ليس أكثر من ولد لطيف قد يصلح أن يكون صديقًا أكثر من كونه زوجًا، وتقول بأنه بحاجة دائمة إلى من يصلح له سرواله! (تنفرج الغمازتان). ولكن لا يبدو على «ساناز» أنها منزعجة من ذلك».

فدمدمَتْ «ياسي» بما يشبه الطنين: «ليس ثمة ما يعيبُ صغر السن. هكذا ابتدأ خالي وزوجته حياتهما، وكانا قبل هذا وذاك مفلّسَين. حينما أفكر في الأمر أجد أن ثلاثة من أخوالي في الواقع كانوا قد تزوجوا بهذه الطريقة، باستثناء الأصغر الذي لم يتزوج أصلاً، فقد انتمى إلى منظمة سياسية». أضافت ذلك وكأنها تبرّر عدم زواجه.

كنا قد بدأنا نسمع عن أخوال «ياسي» أكثر تلك الأيام، فقد كان الخال الأكبر يقضي إجازة من ثلاثة أسابيع في إيران. كان هذا هو الخال الأقرب لـ«ياسي». فكان يصغي لقصائد الشعر التي تكتبها، ويرى اللوحات التي ترسمها أختها «مينا»، ويعلّق باهتمام على حكايات والدتها الخجولة. كان صبورًا ومُصغيًا ومشجعًا، ولكنه كان في الوقت ذاته يميل إلى الانتقاد، فلا تفوته الإشارة إلى هذه الهفوة البسيطة أو نقطة الضعف تلك. كانت «ياسي» تنتشي حين يكون في إيران وحين يراسلهم أو يهاتفهم من أميركا أحيانًا طالبًا التحدث إليها هي بالذات. كان هذا الخال هو الشخص الوحيد المسموح له أن يزرع الأفكار في رأس «ياسي» من دون لوم أو عتاب. وكان فعلاً قد زرع أفكارًا في رأسها؛ كان قد شجعها في البداية على مواصلة تدريباتها الموسيقية، ثم قال لها: ولماذا لا تكملين دراستك الجامعية في طهران؟ وكان في تلك الزيارة قد نصحها باستكمال دراستها في أميركا. كان كل شيء يحدّثها به عن الحياة في أميركا يكسبُ عينيها التواقتين وهجًا سحريًا حتى فيما يخص التفاصيل اليومية العادية بالنسبة له. وكانت تراجع معي بانتظام كل تلك التفاصيل لتتأكد من صحتها أولاً بأوّل، وكنت دائمًا أجد ما أضيفه لها من معلوماتي الشخصية. كنت أحس بأن كلينا: أنا والخال متآمران عليها، ونحاول معًا أن نحيد بـ«ياسي» الصغيرة عن الطريق. وكثيرًا ما كنت أقلق من هذا الأمر: فماذا لو أننا كنا نشجعها على السير قدُمًا نحو حياة لا تناسبها فعلاً؟

كنت قد لمستُ فعلاً كيف أن تشجيعنا ذاك، قد حوّل «ياسي» من فتاة حنون

مطيعة ومتعلقة جدًا بعائلتها الحنون، إلى امرأة تمرّ بنوبات كآبة وتنتابها مشاعر متضاربة تستبدّ بها أيامًا. كانت تسخر من نفسها وتقول بأنها تشعر دائمًا بأنها... وأقول: «مشوشة؟».

ـ «لا..لا.. ما هي الكلمة؟».. وفجأة يضيء وجه «ياسي» وتصيح: «مشاكسة متهورة!».

ـ «لا «ياسي»، ليست هذه هي الكلمة، بالتأكيد ليست هي».

ـ «آه.. نعم.. ربما مشوشة، وأيضًا غير متوائمة.. إن هذا هو ما أحس به فعلًا.. وربما أحسّ بأنني مشاكسة متهورة أيضًا!».

في تلك الأيام، كان قد بدا لي أن بناتي راغبات بالسفر وعدم العودة إلى إيران، كلهن باستثناء «مهشيد» التي أصبحتْ مشغولة بوظيفتها أكثر من أي وقت سابق. كانت راغبة بالاستمرار فيها والحصول على الترقية، ولكنها حُرمت من ذلك الحق بسبب ولائها السابق لجماعة دينية معارضة.

كانت «ميترا» قد تقدّمت للحصول على تأشيرة دخول الى كندا، على الرغم من انهما، هي و«حميد»، ما زالا غير مقتنعَين تمامًا بذلك. كانت والدة «حميد» ترفض الفكرة، وكانت تشخصُ أمامهما فكرة المستقبل المجهول في كندا، مقارنة بحياتهما هنا، حياة بدتْ رغم هنائِها أمرًا معروفًا وواضحًا إلى حدّ بعيد. كان «حميد» يعمل بوظيفة جيدة، وهما مستقران ماديًا. «ومثلما لا تكفّ والدته أن تذكّرنا: فنحن هنا معروفان ولنا مكانتنا، أما هناك.. فنحن لا أحد»..

انبرَتْ «آذين» فجأة: «أنا أيضًا أفكر بالرحيل. لو كانت «ساناز» تملك ذرة من عقل لرحلَتْ، أو لتزوجَتْ من ذلك الفتى وغادرَتْ إيران لتبقى هناك ثم تطلقه!.. ماذا؟».. تساءلَتْ «آذين» بطريقة المدافع عن نفسه وهي تواجه النظرات الجافلة للبنات، ثم التقَطَتْ سيجارة من حقيبتها بعصبية وهي تقول: «.. ماذا.. هل قلتُ شيئًا خطيرًا؟».

لم تشعلْ سيجارتها، فهي لا تفعل ذلك مطلقًا في الصف، بيد أنها اكتَفَتْ

بإبقائها بين أصابعها البيض الطوال ذات الأظافر المخضّبة بأحمر الطماطم. وانتبَهَتْ فجأة إلى صمتنا، ومثل طفل ضُبط متلبِّسًا وهو يسرق الشوكولاتة، نظرتْ إلى سيجارتها غير المشتعلة وألقَتْها في المنفضة، مع ابتسامة استرضاء.

فسألتها حرصًا على تغيير الموضوع: «كيف تستطيعين التملّص بهذه الأظافر؟». أجابت: «أرتدي القفاز، صرتُ حتى في الصيف أرتدي قفازات غامقة». فالأظافر المخضبة، مثلها مثل المكياج، جرائم يعاقب عليها القانون بالجلد أو بالغرامة أو بالسجن لمدّة قد تصل الى سنة. قالت: «إنهم يدركون الحيلة بلا شك، واذا شاؤوا فإنهم يستطيعون مضايقتك فيأمرونك بخلع القفاز». راحتْ تستفيض بالحديث عن القفازات والأظافر، ثم توقفَتْ فجأة وقالت بنبرةٍ واهنة لا أثر فيها للفرح: «إنها تسعدني، فذلك الأحمر القاني، يبعد البال عن الخوض في الأفكار المُتعبة».

فسألتها «نسرين» بلطف على غير عادتها: «أي أفكار؟». أجابت «آذين»: «آه.. تلك الأفكار.. أنت تفهمين ما أعني». وأجهشتْ بالبكاء. صمّتْنا جميعًا وقد أجفَلَنا المشهد. ناولَتْها «مانا» علبة المناديل بتحفظ في محاولة واضحة لتفادي دموعها، وانسحبتْ «مهشيد» إلى داخل قوقعتها، كما انحنتْ «نسرين» إلى الأمام وقد عقدَتْ كفيها معًا بعصبية. كانت «ياسي» جالسة قرب «آذين» فمالتْ نحوها وراحتْ تربّتُ بلطف فوق كتفها اليمنى.

[5]

لن أستطيع الآن أن أبحث في تلك الجروح الحقيقية التي كانت تخفيها «آذين»، أو غير الحقيقية التي كانت تبديها. بل سأبحث عن إجابة لتساؤلاتي في تلك الصورة التي التقطناها في آخر ليلة لي في طهران، بينما يُبهرُ عينيّ التماعُ قرطَيْ «آذين» الذهبيين المستديرين. قد تُبهرنا الصور وقد تخدعنا، لكن الأمر قد يختلف تمامًا إذا امتلكنا موهبة قراءة طبيعة البشر عبر استدارة أنوفهم، وهذا ما يجيدهُ «ساحري»، ولم أكن لأجيده أنا.

وإذ أنظر إلى الصورة، لا يمكنني أن أتخيل أيًا من مشاكل «آذين». فهي تبدو أمامي إنسانة بلا مسؤولية وبلا مشاكل تمامًا. لقد تناغمَ شعرها الأشقر مع لون بشرتها الشاحب وعينيها العسليتين الغامقتين. كانت تحب أن توحي بأنها مثيرة، وقد دعم ادعاءها لتلك الصفة كونها قد تزوجتْ ثلاث مرات متتالية. فكانت قد ارتبطَت بزوجها الأول قبل أن تبلغ الثامنة عشرة، وتطلقتْ منه قبل أن تكمل معه سنة واحدة. ولم تتطرّق يومًا للحديث عن زوجها الثاني. وقد يكون السبب وراء زيجاتها المتكررة كون الزواج في إيران أسهل بكثير من الارتباط بعشيق.

كانت تحدّثنا عن زوجها، وتقول بأنه كان يغتاظ من كل شيء تبدي اهتمامًا به. فكان يغار من كتبها ومن حاسوبها ومن صباحات الخميس التي تعشق. وتصف لنا بابتسامة شمعية كيف أنه كان يشعر بالإهانة مما تسمّيه «روحها

المستقلة». فكان يضربها ثم يحاولإسترضاءها بأن يحلف بكل مقدّساته بحبه الأبدي لها. كنتُ غالبًا ما أحسّ بألم جسدي وأنا أستمع لتفاصيل حياتها معه. كانت توجعني كلماته أكثر مما يفعلُ الضرب، كلماته وهو يصرخ في وجهها قائلًا بأنها لن تستطيع الزواج من أحدٍ بعده، فلا أحد سيرغب بها لأنها أصبحتْ امرأة «مستعملة»، تمامًا مثل السيارة القديمة. ولا رجل في العالم يمكن أن يكون راغبًا باتخاذ زوجة مستعملة، كان يقول لها بأنه يستطيع متى شاء بأن يتزوج من بنت في الثامنة عشرة؛ بنت «طازجة جديدة غير مستعملة»، وأيضًا ذات ثمانية عشر ربيعًا. يقول لها كل ذلك، ومع هذا يزعم بأنه لا يستطيع تركها أو العيش من دونها.

لم أعد أتذكّر كلماتها بدقة قدر ما أتذكر دموعها وهي تلتمعُ لتفضح ابتساماتها الشمعية وتُناقِضُها، وهي تواصل سرد تفاصيل حياتها الزوجية المضطربة. قالت لنا لتنهي ذلك الحديث: «.. والآن.. صار بوسعكنّ أن تفهمنَ السبب وراء تأخري المتكرر عن الدرس». وقد علّقَتْ على ذلك «مانا» بعد حين بنبرة يعوزها التعاطف قائلة: «أرجو أن تقرّ بأن «آذين» مستعدة للحصول على أي شيء مهما كان رخيصًا مقابل استمرارها لمشاكلها الزوجية!».

سرعان ما انخرطنا جميعًا بالبحث عن حلول لمشاكل «آذين» الزوجية. في البدء حدّثتُ «بيجان» بها بعد العشاء. ثم تحدثتُ مع إحدى صديقاتي المقرّبات، وهي محامية ممتازة، وكانت نقطة ضعفها الأهم تكمن في أنها لا تقاوم القضايا الخاسرة، وقد أقنعتُها بقبول قضية «آذين». ومنذ ذلك الحين، أصبحتِ الأخيرة مادة دائمة لحواراتنا: ترددها، شخصية زوجها، شكاواها منه، إخلاصها له، عدم إخلاصها.. إلخ.

لم يكن من المفترض أن نخوض في غمار مشاكلنا الشخصية في ساعات الدرس، ومع ذلك فقد راحت تلك المشاكل تتسرب إلى نقاشاتنا جالبة المزيد المزيد من الحوارات الجانبية. كنا قد ابتدأناها بحوارات عمومية مجرّدة، وتشعّبنا لنصل إلى عوالم تجاربنا الشخصية.

تطرقنا في حواراتنا إلى حالات مختلفة دعتْ القاضي إلى اعتبار الاعتداء الجسدي أو المعنوي على الزوجة سببًا غير كافٍ للطلاق. وناقشنا بعض القضايا التي لم يرفض فيها القاضي التفريق وحسب، وإنما راح يعنّف الزوجة التي حدّثْ بزوجها إلى ضربها، ويأمرها بإعادة النظر وبالتفكير مليّا بالأخطاء التي ارتكبتْها فأدّتْ به إلى الاستياء منها. وكنا نسخر ونحن نمرّ على ذِكْرِ ذلك القاضي الذي اعتاد ضرب زوجته بانتظام وبلا هوادة. لقد كان القانون أعمى فعلاً في حالتنا: فلم يكنْ يقيم أي اعتبار لدينٍ أو عرق أو مذهب في سوء معاملته للنساء.

[6]

يقولون بأن المشاكل الشخصية هي سياسية بطريقة أو بأُخرى. وهو قول غير دقيق من دون شك. لأن في جوهر الصراع لنيل الحقوق السياسية تكمنُ الرغبة في حماية النفس، وفي الحيلولة دون إقحام السياسة في حياة الأفراد. ويعتمد الشخصي والسياسي أحدهما على الآخر، ولكنهما ليسا وحدة واحدة، ولا يمكن أن يكونا الشيء نفسه بحال. أما عالم الخيال فهو الجسر الذي يربط الضفتين معًا، ويعيد تشكيل كلٍ منهما لكي تتناسب مع الأُخرى. كان «الملك الفيلسوف» عند «أفلاطون» يدرك ذلك تمامًا، وكذلك كان يدركه الرقيب الأعمى. ولذا فلم يكن من الغريب ان تكون أولى مهمات الثورة الإسلامية هي إذابة الفوارق والتعتيم على الحواجز التي تفصل ما بين الشخصي والسياسي، وبهذا خلصوا إلى تدمير الاثنين معًا.

حينما أُسألُ عن الحياة في الجمهورية الإسلامية، أجد نفسي لا أستطيع الفصل ما بين أكثر التفاصيل خصوصية وشخصية في حياتنا، وبين نظرة الرقيب الأعمى التي لا ترحم. وأتذكّر بناتي، فعلى الرغم من أنهنّ أتين من بيئاتٍ اجتماعية مختلفة جدًا، واعتنقنَ أفكارًا مختلفة، إلاّ أن مشاكلهنّ واحدة ومشتركة، ومعظمها جاءت بسبب مصادرة النظام للحظاتهنّ الحميمية وأنفاسهنّ الخاصة.

ويشكّل الصراع ما بين الشخصي والعام جوهر التناقض الذي خلقه الحكم

الإسلامي. فبعد أن حكم الملالي البلاد، استُخدام الدين كأيديولوجيا وكأداة لتعزيز السلطة. وقد أصبحتْ هذه النظرة الأيديولوجية للدين هي ما يميّز بين مَن هم على دفة الحكم، وبين الملايين من المواطنين العاديين، خصوصًا المؤمنين منهم مثل «مهشيد» و«مانا» و«ياسي»، اللواتي بدأن يشعرنَ بأن الجمهورية الإسلامية هي أعدى أعدائهن. كان بوسع مَن هو مثلي أن يحقدَ على الظلم والاضطهاد، أما أولئك الآخرون فكان لا بد لهم أن يجدوا طريقة للتعامل مع الخيانة. وحتى هؤلاء، فقد وجدوا أنفسهم منهمكين بشكل يومي بالتناقضات والكبت في الحياة الخاصة، أكثر من انشغالهم بقضايا البلاد الكبرى كالحرب والثورة.

لقد عشتُ في الجمهورية الإسلامية ثمانية عشر عامًا، لكنني لم أتمكن من استيعاب تلك الحقيقة تمامًا في السنوات الاولى للاضطراب. لقد كنتُ عاجزة عن إدراكها في خضم مهرجانات الاعدامات العلنية والتظاهرات الدامية، مثلما كنت عاجزة عن إدراكها إبان سنوات الحرب الثماني، حينما اختلطتْ عندي أجهزة الإنذار الحمر والبيض بأصوات الصواريخ والقنابل. ولم تتضح الرؤيا أمامي إلا بعد انتهاء الحرب وبعد وفاة الخميني، وهما العاملان اللذان أجبرا البلد على الحفاظ على وحدة صفوفه، وحالا دون ظهور الأصوات المتنافرة المتضاربة.

لا بد من أنكم ستقولون: انتظري.. ماذا تقولين؟ «تنافر»؟ «تضارب»؟ أليس هذا هو وقت «الأمل» و«الإصلاح» و«السلام»؟ ألم تخبرينا بأن نجم السيد «قمّي» كان في أفول، وأن نجم السيد «فرصتي» كان في صعود؟ وها أنت تعودين بنا إلى نهاية الفصل السابق، حينما لم يعدْ ثمة خيار لدى الثورويين المتعصّبين سوى أن يحرقوا أنفسهم أو أن يستسلموا لواقع التغيير. أما فيما يخصّ «مهشيد» و«نسرين» و«مانا» فستقولين لنا: «لقد عشنَ حياتهنّ، فقد مُنِحْنَ فرصة جديدة للحياة». يبدو أنك تبالغين بعض الشيء، وتضمين بعض الملح الدرامي لإثراء التأثير السردي لقصتك.

كلا، فأنا لا أبالغ ولا أبتدع القصص. إن الحياة في الجمهورية الإسلامية كانت دائمًا في غاية الاضطراب، وفي غاية الدرامية والفوضى إلى الحد الذي لا يمكن معه التورط في صوغهما بالنسق الذي يتطلبهُ التأثير السردي لرواية. وفي أزمنة السلام، يتضح جليًا حجم الدمار الذي خلّفته الحرب. فنرى على الأرض بوضوح لا لبس فيه، تلك الحفرة الواسعة التي أحدثتها القنابل وهي تحل محل البيوت الآمنة. لقد آن الأوان الذي نحسّ فيه بهسيس تلك الأصوات المبحوحة التي بقيّتْ سجينةً دهرًا من الحرب، فنهجسُها وهي تكسر قمقمها وتتسرّب إلى الهواء لتحلّق في كل اتجاه.

كما اعتادتْ «مانا» أن تقول: «ثمة جمهوريتان إسلاميتان.. واحدة للكلمات وأُخرى للواقع». وفي جمهورية الكلمات ابتدأت التسعينات بوعود للسلام والإصلاح. واستيقظنا ذات صباح لنسمع بأن مجلس حرس الثورة قد انتخب بعد التشاور الرئيس السابق حجة الإسلام علي خامنئي ليكون خلفًا لآية الله الخميني. وقد كان مركز خامنئي السياسي قبل ذلك مثيرًا للشكوك. فقد كان مرتبطًا بالتنظيمات السياسية الأكثر راديكالية وتعصبًا بين النخبة الحاكمة. ولكنه كان قد عُرف أيضًا بأنه راعٍ للفنون. فكان يجالس الشعراء والأدباء، وكان قد تلقّى ذات يوم توبيخًا قاسيًا من الخميني لأنه كان ميّالاً إلى تخفيف حدة الفتوى التي صدرتْ بحق «سلمان رشدي».

بيد أن ذلك الشخص نفسه، القائد الأعلى الجديد، الذي تسنّم آنذاك أعلى منصب ديني وسياسي في الدولة وتطلّب منا فائق الاحترام والتقدير، لم يكن في واقع الأمر سوى أكذوبة. كانت تلك هي الحقيقة التي يعرفها هو، ونعرفها نحن، وما هو أسوأ من هذا وذاك، كان كل زملائه وأصحابه من رجال الدين الذين انتخبوه يعرفونها هم أيضًا. وقد حرصت الحكومة على أن تمحو أي أثر من الصحف والإذاعات والإعلام الحكومي ما قد يشي بأن ذلك الشخص قد ارتقى إلى درجة آية الله بين عشية وضحاها، مع أن درجةً كهذه لا يمكن أن

تُمنح، بل إنها لا بد ومن أن تؤخذ باستحقاق. وكانت ترقية هذا الرجل بهذا الأسلوب مخالفة صريحة للأحكام والأعراف الدينية.

لقد اختار خامنئي الانضمام إلى التيارات الأكثر سلفية. ولم يكن ذلك بسبب قناعاته الدينية التي أملَتْ عليه ذلك القرار فحسب، وإنما لأنه وجد في ذلك ضرورة حتمية لضمان الدعم السياسي والحماية، وللتعويض عن افتقاده لاحترام نظرائه من رجال الدين. فاستحال ذلك الرجل بين لفتة عين وانتباهتها من ليبرالي عادي وغير مؤثر إلى متعصب راديكالي لا يُشقّ له غبار.

قالت لي السيدة «رضوان» في لحظة صدق وصراحة نادرة: «أنا أعرف هؤلاء الناس أكثر منك. فهم يستبدلون كلماتهم أكثر مما يستبدلون ملابسهم. لقد أصبح الإسلام تجارتهم، تمامًا مثل النفط لدى «تكساكو». هؤلاء الناس الذين يتعاملون باسم الإسلام، إنما يحاول كل منهم أن يصبغه على هواه ويعقد به صفقته بطريقة يتفوق بها على من يأتي بعده. وإنْ نحن إلاّ مبتَلون بهم. ألا ترينَ معي بأنهم لن يستطيعوا أن يقرّوا ذات يوم أن بإمكاننا العيش من دون نفط؟ وهل يمكن لأحدهم مثلاً أن يجرؤ على القول بأن الحكومة الجيدة ليست بحاجة الى الإسلام؟ كلا.. من دون شك.. ومع ذلك فإن الإصلاحيين أكثر دهاءً، سوف يمنحوننا نفطًا أرخص قليلاً، ويعدوننا بأن يكون نفطًا أنظف قليلاً!».

أصبح رئيسنا حجة الإسلام رفسنجاني هو الأمل الجديد. كان سابقًا رئيسًا قويًا للبرلمان، وهو أول من نال لقب الإصلاحي. بيد أن ذلك الذي يدعو نفسه جنرال إعادة الإعمار والملقب بـ «آية الله غورباتشوف»، كانت قد وصَمَتْهُ سمعةٌ سيئة لتورطه في قضايا الفساد المالي والسياسي، ولضلوعه في قمع المعارضين في الداخل والخارج. وكان قد تطرّق فعلاً الى الحديث عن شيء من المرونة أو الليبرالية في تطبيق القوانين. تلك الليبرالية التي تعني، بحسب قول «مانا»: «أن تكوني إسلامية قليلاً، وأن تتحايلي قليلاً في تخطي بعض الحدود، وأن تدَعي قليلاً من الشعر يتسللُ من تحت الإيشارب». فقلتُ:

«لكأنك تقولين يمكنك أن تكوني فاشية قليلاً، أو فاشية معتدلة أو شيوعية معتدلة أو...».. فضحك «نيما» وهو يقول: «أو حاملاً قليلاً!».

كانت إحدى نتائج هذا الاعتدال هي أن «ساناز» و«ميترا» لم يعد يساورهما الخوف إذ تضع إحداهما الإيشارب بطريقة أكثر جرأة، وتدع خصلة شعر صغيرة تطيش منه، على الرغم من أن مليشيا حماية الأخلاق ما زالت تمتلك حق اعتقالها. وحينما ستذكّر إحداهما الحرسَ بكلمات الرئيس، فستُعتقل فورًا وتُقاد إلى السجن، وستسمعهم وهم يكيلون الشتائم على الرئيس وعلى أمه وعلى كل ابن (...). يصدرُ أوامر كهذه في بلاد المسلمين! وعلى أية حال فإن ليبرالية الرئيس، لم تكن لتصل إلى أبعد من ذلك الحد، تمامًا مثلما حدث مع خلفه الرئيس خاتمي. أما أولئك الذين أخذوا أفكاره الإصلاحية على محمل الجد، فقد دفعوا الثمن غاليًا إلى الحد الذي أوصل بعضهم إلى دفع حياته ثمنًا لذلك. بينما أفلت سجّانوهم وعاثوا في الأرض مرحًا من دون أي عقاب.

وعندما اعتُقلَ الكاتب المشاكس «سيّدي سرجاني»، كان يعتقدُ متوهمًا بأنه سيجد دعمًا مباشرًا من الرئيس، لكنه سُجن وعُذب وأعدم في آخر الأمر من دون أن ينبري لنجدته أحد. وهو مثال آخر على الصراع الدائم بين جمهوريتَيْ الكلمات والواقع، ذلك الصراع الذي ما زال قائمًا حتى يومنا هذا.

صار يحلو للسيدة «رضوان» أن تعيد على مسامعي القول: «لا تنسي: مصالحهم أولاً وفوق كل اعتبار، وأيًا كانت ادعاءاتهم بالتحرر، فإنهم غير مستعدين للتخلي عن الواجهة الإسلامية، فهي علامتهم التجارية الفارقة. وإلا فمن الذي سيكون بحاجة إلى شخص مثل السيد رفسنجاني حينما تكون إيران بلدًا ديمقراطيًا؟».

كانت تلك هي حقبة الأمل، هذا صحيح، ونحن نملك أحلامنا التي تقول لنا بأن أزمنة الأمل لن تشوبها الصراعات أو التوتر، ولكن تجربتي تحدّثني بأنها الأزمنة الأكثر خطورة، لأن وجود الأمل عند بعض الناس قد يعني فقدانه

عند آخرين. وحين يستعيد اليائسون شيئًا من الأمل، يتسلل الخوف إلى من يمتلك دفة السلطة، أو بالأحرى من استولى عليها عنوة، ويغدو أكثر تمسكًا بمصالحه التي ستكون معرضة للخطر، ويصبح أكثر اضطهادًا للآخرين. ولذا فقد جاءتنا أيام الأمل والتسامح بطريقة أو بأُخرى، بقلقها وهواجسها مثلما اعتدنا في الأيام السابقة. واكتسبت الحياة نسيجًا روائيًا دبّجه كاتب فاشل، لم يمتلك القدرة على أضفاء أي نظام أو منطق على شخصياته التي بدت في سُعارٍ دائم.

فعلًا انه زمن السلام، زمن إعادة الإعمار، زمن كان لا بد لإيقاع الحياة وتناغمها المنتظم فيه من أن يستعيد عافيته ويثبت وجوده. ولكننا عوضًا عن ذلك وجدنا أنفسنا، وقد غرقنا في ضجيج من الأصوات المتنافرة التي حلّت محل أصوات الحرب الكئيبة.

لقد انتهت حربنا مع العراق، بيد أن الحكومة واصلتْ حربها مع الأعداء في الداخل؛ مع أولئك الذي تعتبرهم نموذجًا للانحطاط الثقافي وتأثيرات الغربنة. وعوضًا عن إضعاف هؤلاء الأعداء والقضاء عليهم، أدّتْ تلك الحملات التعسفية، بطريقة أو بأُخرى، إلى تقوية وتعزيز وجودهم. ففي عالم السياسة، كان أعضاء الأحزاب السياسية المعارضة والخصوم السياسيون في السجون، أو ممنوعين من مزاولة نشاطاتهم. ولكن الأمر اختلف كثيرًا في عالم الثقافة، ففي عالم الأدب والموسيقى والفن والفلسفة كانت كفة القوى العلمانية هي الراجحة بعد أن فشلت النخبة الإسلامية في إبراز تفوّقها في أيٍّ من تلك المجالات. وغدَت المعركة الثقافية مركزية عندما راح الكثير من الشباب الإسلاميين الأكثر تشددًا، من مثقفين وصحافيين وأكاديميين، يميلون إلى الانضمام للضفة الأُخرى. فبعد خيبة أملهم بالثورة الإسلامية، وبعد أن صدمهم الفراغ الفكري الذي خلفه انهيار الاتحاد السوفياتي، لم يعد لهم من ملاذ سوى الديمقراطيات الغربية التي كانت ذات يوم من ألدّ الأعداء. أما

أولئك الذين حاول النظام تدميرهم أو إسكاتهم باتهامهم بالغربنة، فلم يعد بإمكانه فعل شيء من ذلك إزاءهم، فقد أثبتوا أنهم جزء لايتجزأ من نسيج الثقافة الإيرانية، مثلهم مثل أولئك الآخرين الذين نصّبوا أنفسهم حماة لها. بيد أن ما أرعب النخبة الإسلامية فعلاً، هو أن تصبح هذه العناصر نفسها مثالاً أعلى يقتدي به المزيد المزيد من الثورويين السابقين الذين خابت آمالهم بالثورة، ناهيك عن الشباب منهم، أو من اصطلح على تسميتهم: أبناء الثورة.

وبدأ الكثير من العاملين في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي يصطفون إلى جانب الكتّاب والفنانين، فسمحوا بنشر بعض الكتب التي كانت قد اعتُبِرَتْ في السابق كتبًا غير إسلامية. وقد صدر كتابي عن «نابوكوف» عام ١٩٩٤ بدعم من بعض العناصر المتنوّرة في تلك الوزارة. وتم السماح لبعض المخرجين المتميّزين الذين كانت أفلامهم قد مُنعت بعد الثورة، بعرض أعمالهم بفضل جهود الرئيس التقدمي لمؤسسة الفارابي للأفلام، الذي قامتْ بعض العناصر السلفية في النظام بمحاربته واتهامه بالتقصير بعد ذلك. وأصبحت الوزارة نفسها ساحة معركة للتيارات المختلفة، وكان النزاع الأهم يدور بين ما صرنا نطلق عليهم المتشددين وبين الإصلاحيين. وراح بعض الثورويين السابقين يقرأون ويترجمون أعمالاً لمفكرين وفلاسفة غربيين ويعيدون النظر مشككين بالأفكار المتشددة التي كانوا يعتنقونها هم أنفسهم. كانت بادرة الأمل التي قد لا تخلو من سخرية، أن تغدو تلك الأفكار والمعتقدات التي شرعوا ذات يوم في تدميرها، هي ذاتها السبب الرئيس وراء التغيير الذي أصابهم.

واضطر المسؤولون إلى فرض تعليماتهم الساذجة على الأدب مثلما فرضوها على الحياة، بسبب عجزهم عن استيعاب التعقيدات والملابسات الجديدة وبسبب غضبهم مما اعتبروه خيانة بين صفوفهم. ومثلما فرضوا رقابتهم الصارمة على الألوان والتنوّع في الواقع لكي يتناسب مع عالمهم الأسود والأبيض، فقد عمدوا إلى فرض تلك الرقابة على كل شيء روحي أو باطني

في الأدب. وللسخرية، أصبح أي عمل أدبي خيالي ولا يحمل بين طياته رسالة سياسية، يصنّف على أنه عمل خطر، وكان ذلك الموضوع قد اتفق عليه المسؤولون ومعارضوهم الجدد على حد سواء. وهكذا وجدوا في كاتبة مثل «أوستن» خصمًا لدودًا لهم، سواء أعرفوا من هي «أوستن» أو أنهم لم يعرفوا.

[7]

قال «ساحري»: «يجب أن تكفّي عن لوم الجمهورية الإسلامية على كل مشكلة من مشاكلنا». فتجهّمتُ وأنا أحشر طرف جزمتي(البوت) في الثلج. كنا قد أفقنا على صباحٍ ثلجي مشمس، وهو أحلى ما يمكن أن يجود به شتاء طهران. كانت الطبقةُ البيضاء الرقيقة التي تغطي الأشجار وأكوام الثلوج التي تتكدس على الأرصفة تبدو متلامعة وكأنها ملايين من الشموس الصغار.

كان ذلك واحدًا من الصباحات التي تشعرنا بالانتعاش والطفولة، برغم غضبنا من التلوّث مثلاً، وبرغم تذمّرنا الحقيقي المخفي في القلوب والعقول. وحينما حاولت التعبير عن شكواي راحت الذكريات تشاكسني وتتمرّد لتحول بيني وبين حزني. فانتشيتُ وانا أستذكر طعم شراب الكرز الذي كانت تعدّه أمي لنا وتخلطه بالثلج الطبيعي المنعش. لكنني لم أكن من النوع الذي يهدأ بسهولة، فقد كنتُ مثقلة بهواجسي بشأن زوج «آذين» وخطيب «ساناز». وكنتُ أحاول أن أحكي «لساحري»، في خمس عشرة دقيقة، بعضًا من المعاناة والمحن التي تمرّ بها بناتي، وأنا أضيف إلى قصصي ملحًا من الاتهامات الحقيقية والباطلة للمصدر الأساس الذي تنبع منه كل ويلاتنا؛ وأعني بذلك الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

لم يكن قد مرّ أسبوع واحد على عودة «ساناز» من تركيا حين حضرتُ درس الخميس وهي مفعمة بمزاج من البهجة الراقية المنضبطة. افترشنا الصور

الفوتوغرافية على الطاولة الزجاج لغرفة الطعام: صورة الأسرة في صالة الفندق؛ صورة لـ«ساناز» مع شاب ذي شعر بني غامق وعينين بنيتين حانيتين، يرتدي قميصًا أزرق وبنطلون جينز، ويتكئ على سياج حديد. صور حفلة الخطوبة: صورة «ساناز» بفستان أحمر، شعرها الرائع يحتضن كتفيها العاريتين، وهي ترنو إلى ذلك الشاب المهندم ببدلته الغامقة وقميصه الأزرق الفاتح، إذ يبادلها النظرة بشغف حنون، أو وهو في صورة أخرى يضع خاتم الخطوبة في إصبعها، وهي تتأمل الخاتم بشغف. (تقول «ساناز» معلّقة: «كان من المخجل فعلاً أن يشتري والداه الخاتم من دون استشارتنا!»). صورة أُخرى للعمة المتلمرة والأم الكئيبة والأخ المزعج.

وقبل أن تكون «ساناز» قد استوعبَتْ كل ما يجري حولها، كان قد آن الأوان لعودة «علي» إلى لندن، وعودتها هي إلى طهران. وستخبرنا لاحقًا بشيء من الخيبة: «لم نتحدث أنا وهو سوى بنثار الكلام، كنا محاصرَين بالآخرين طوال الوقت».

بعد اسبوعين كانت «ساناز» منكفئة على نفسها طوال ساعة الدرس والمناقشة. وفي الاستراحة بدتْ لنا في غاية الحزن وهي تعتذر عن إهدار الوقت في مشاكل خاصة. كان الدمعُ يغمر عينيها ويدها اليمنى تزيح خصلة شعر غابتْ عن جبهتها وهي تخبرنا بأن كل شيء قد انتهى. ولن يعود هنالك من زواج. لقد تخلى عنها الحبيب، اتصل بها مؤخرًا وقال بأنه لم يعد يدري كيف له أن يسعدها، فكيف سيمكنه أن يعيلها وهو لما يزل بعدُ طالبًا؟ كم سيمضي من الوقت حتى يغدو بإمكانهما أن يعيشا معًا فعلاً؟ «هذا ليس عدلاً أبدًا». كان يكرر عليها تلك العبارة، مُبررًا بأنه لن يكون من العدل أن يدعها تنتظر، ويعزّز كلامه بالمزيد المزيد من الأعذار. قالت لنا: «أستطيع تمامًا أن أفهم وجهة نظره، فلطالما كانت تراودني تلك الهواجس ذاتها، ولكنني مع ذلك، كنت أتمنى عليه من كل قلبي ألاّ يكون عادلاً إلى حدّ اللعنة!.. لقد زعم بأنه سيبقى يحبني إلى الأبد، وماذا بوسعه أن يقول سوى ذلك؟».

وقلتُ في سري: «يا لك من وغدٍ جبان!».

كان من أهم نتائج فسخ الخطوبة هي أن يصبح الجميع في غاية اللطف مع «ساناز». فحتى أسرته كانت غاضبة جدًا من تصرفه، قالت لها والدته: «لقد أفسدَتْه السنوات التي قضاها مع الإنكليز الباردين، فهؤلاء الغربيون ليسوا مثلنا، إنهم بلا مشاعر». وقال والده بثقة: «سيثوب إلى رشده حتمًا.. امنحوه فقط بعض الوقت». ولم يدُرْ بخلد أي منهم أن يكون تدخلّهم وضغوطهم الشديدة عليه هي التي أجبرتْه ربما على اتخاذ خطوة لم يكن واثقًا منها أصلاً.

كانت كل تلك الأجواء من المواساة والرثاء فوق احتمال «ساناز». فحتى أخاها بدا متعاطفًا معها. وكانت ثمة إشاعات عن وجود امرأة أُخرى في حياته، فانبرتْ «آذين»: «سيكون دائمًا ثمة امرأة أُخرى.. هؤلاء هم الرجال». وردًا على سؤال «مهشيد» قالت «ساناز»: «لا، إنها ليست إيرانية، وليس هذا هو المهم على أية حال، قد تكون إنكليزية أو سويدية». وعلقتْ إحداهن: «آه.. فتاة أجنبية.. صيد ثمين من دون شك».

كانت «ساناز» قد ضاقتْ ذرعًا بالطريقة الجنائزية الصامتة التي تتصرف بها عائلتها وصديقاتها. قالتْ وهي تحاول أن تنتزع ابتسامة ساخرة من بين دموعها: «هل تتخيّلنَ ما يحدث؟ لقد بتّ في شوق لواحدة من سورات غضب أخي.. من باب التغيير! فليته مثلاً يصادر سيارتي كما كان يفعل في السابق! لقد اختنقتُ». كانت هذه هي المرة الأولى التي يتسنى لها الابتعاد فيها عنهم، وقد بدتْ أفضل حالاً وهي معنا.

قالت «مانا» بمرارة مفاجئة: «لا يكون الرجل محبوبًا ومرغوبًا به فعلاً إلا حينما يكون بعيد المنال. وأعني الرجال عمومًا». ثم أضافتْ بغموض: «..أنا لا أقول ذلك للتخفيف عن «ساناز»»..

فردّدتْ «نسرين» بغضب: «الرجال!» وتبعتها «آذين» وهي تُقفّي: «الرجال!» أما «ياسي» التي كانت قد انكمشتْ إلى حجمها الطبيعي في ذلك اليوم، فقد

انتصبتُ في جلستها فجأة وعقدتْ يديها في حضنها بصمت. أخبرتنا «ساناز» أن العمة وحدها كانت سعيدة بفسخ الخطوبة، فقد كان أول ما تفوّهتْ به هو: «الحمد لله الذي أنقذك من اختيارك الأحمق. ماذا كنت تتوقعين إذًا؟ وحده الأحمق يمكن أن يعتقد بأن من الطبيعي لشاب في مثل عمره، او أي عمر آخر، أن يعيش بمفرده خمس سنوات من دون أن تكون له علاقات». فردّتْ «ساناز»: «لكنني اعتقدتُ ذلك فعلاً يا عمتي». فقالت العمة: «طبعًا.. لأنك حمقاء!».

كانت ردة فعل «ساناز» على العموم هادئة ومتماسكة، ربما لأنها أحسّتْ في داخلها بشيء من الارتياح. كان ثمة شيء في عقلها الباطن يحدّثها بأن الأمر لن يتم على ما يرام، على الأقل لم يكن ليتمّ بهذا الأسلوب. ولكن بقي الألم يئنّ في داخلها: لماذا رفضها؟ هل وجد أنها تبدو قروية جدًا مقارنةً بالأُخريات؟ مقارنةً مثلاً بفتاة إنكليزية حسنة المظهر وأكثر جرأة، فلا تخاف أن تقيم الليل معه؟

قلتُ أُجادلها: الحسرة هي الحسرة في كل مكان. فحتى الانكليزيات والأميركيات يُهجَرْنَ وتتحطم قلوبهن. لقد قرأنا قصصًا كثيرة في هذا الشأن، ألا تذكرين «هجر الجدة ويذيرول»؟ وأيضًا ومن دون شك «وردة من أجل الآنسة إميلي».. فعلقتْ «ساناز» لاحقًا بشيء من السخرية بأنها تفكر بتخليد ما حدث لها، فتتشبه بالآنسة «هافيسهام» التي أصبحت بطلتها الأثيرة الآن. لكنها أضافتْ بحسرة: «الفرق الوحيد هو أنني لم أكن قد اشتريتُ حتى فستان الزفاف».

لا أدري كيف استطردنا بالحديث بدءًا من مأزق «ساناز» وصولاً إلى الحياة في الجمهورية الإسلامية؟ كنا بطريقة ما قد أدرنا دفة النقاش لتصل بنا إلى سرد بعض النوادر عن النظام؛ عن عدد رجال الدين وكبار المسؤولين الذين يحملون البطاقة الأميركية الخضراء، عن عقدة النقص لدى النخبة الحاكمة، عن حرق

العلم الأميركي من جهة والتذلل للغربيين من جهة أُخرى، خصوصًا التملّق للصحافيين الأميركان. وانتهى بنا المطاف إلى الحديث عن «فائزة رفسنجاني»، ابنة الرئيس، وعن بنطالها الجينز وحذاء الـ«ريبوكس»، وشعرها الأشقر المقصور الذي يتسلل من تحت جادورها.

حكيتُ «الساحري» كل ذلك بأدق التفاصيل، ورحت أرسم له صورًا نابضة تمزّق الفؤاد عن خيبة أمل «ساناز» وحزن «آذين» الشديد. وختمتُ روايتي بطريقة مسرحية فقلتُ: «لقد توغّل هذا النظام في قلوبنا وعقولنا، وراحَ يتلصصُ علينا ونحن في غرف نومنا، حتى صار يشكّلنا بحسب هواه وبالضد حتى من إرادتنا. فكيف يمكننا، في ظل رقابة كهذه، أن ننظرَ إلى مصائبنا الشخصية بمعزل عن الوضع السياسي؟ إنه شعور جميل أن تعرف على مَن تضع اللوم، فلعل ذلك واحدًا من التعويضات القليلة المتاحة أمام عقدة الشعور بالاضطهاد. وبحسب تعبير «بيللو» في «هيرزوغ»: وأما المعاناة، فهي عادة أُخرى من بين العادات السيئة».

ارتفع حاجبه الأيمن، وبنظرة فضول مشوبة بالسخرية قال «الساحر»: «هل لي أن أعرف بدقة طبيعة العلاقة بين فسخ خطوبة فتاة جميلة وبين الجمهورية «الإسلامية»؟ هل تعنين أنه لا توجد أي بقعة أُخرى من بقاع العالم تُهجر فيها النساء أو يُساءُ لهن؟». أحسستُ بأني كنتُ في مزاج متأكد أو ربما بائس إلى الحد الذي يمنعني من الرد بعقلانية، على الرغم من أنني كنت أَلمس منطقية دامغة فيما قاله، ولذلك لذتُ بالصمت.

وإذ لم يكن يطلق الكلام جزافًا من دون إيضاح، فقد واصل قائلاً: «ولأن النظام لن يدعكِ وشأنك، فهل في نيتك التآمر معه وتسليمه دفة السيطرة التامة على حياتك ومقدّراتك؟». وأضاف: «أنت محقة بالتأكيد.. فقد نجح هذا النظام الى حدٍ بعيد في استعمار كل لحظة من لحظات حياتنا إلى حدّ أننا لم نعدْ نستطيع التفكير بحيواتنا بمعزل عن وجوده فيها. وأصبح كامل السلطة،

مطلق النفوذ إلى حدّ أننا ربما لا نجافي الصواب إذا قلنا إنه مسؤول عن نجاح أو فشل حياتنا العاطفية. دعيني أذكرك بالسيد «بيللو»، آخر أحبّتك».. وتوقف بضع ثوان عند كلمة أحبتك، ثم قال: «تذكّري دائمًا تلك الجملة التي طالما رويتِها عنه (هي واحدة فقط من بين الكثير من الجمل شنّفتِ بها أسماعنا في الأسبوعين الماضيين) تذكّري قوله: هؤلاء الناس يقتلونك أولاً، ثم يجبرونك على أن تطيلي التفكير في جرائمهم!».

ثم قال وهو يقترب بعينيه الفضوليتين من وجهي: «هل أنت معي؟.. أين ذهبَتْ بك الأفكار؟» قلت: «أبدًا.. أنا معك فعلاً.. كنت فقط أفكر فيما تقول». قال: «فعلاً.. هذا صحيح». قالها بتهذيبه الإنكليزي الذي يمنعه من اتهام سيدة بالكذب!

قلتُ مؤكّدة: «كنت أصغي إليك فعلاً، لقد أضأتَ لي شيئًا مهمًا، شيئًا كنت أفكر فيه منذ مدة طويلة». راح يتأملني منتظرًا ما سأقول، وواصلتُ: «كنت أفكرُ في الحياة والحرية والسعي من أجل تحقيق السعادة، وأفكر في بناتي، في حقيقة كونهنّ غير سعيدات، أعني أنهنّ يشعرنَ بأن التعاسة هي قدرهن».

وسألني: «وما هو اقتراحك لجعلهنّ يدركنَ أن الحياة والحرية والسعي للسعادة وكل هذا من حقّهن تمامًا؟.. لن يكون ذلك طبعًا بتشجيعهن على أن يتلبّسن دور الضحايا، فمن المهم جدًا أن يتعلمنَ النضال من أجل تحقيق السعادة».

بقيتُ أحفر في الثلج عميقًا بجزمتي، وفي الوقت نفسه كنتُ أحاول جاهدة أن أتابع حديثه، وكان يقول: «ولكن طالما أننا أخفقنا في استيعاب ذلك، وبقينا نناضل من أجل الحرية السياسية من دون أن ندرك أنها تعتمد تمامًا على الحرية الشخصية، فإننا لا نستحقّ تلك الحقوق. فالحرية السياسية تعتمد على فكرة أنه لم يكن على «ساناز» أن تتجشم عناء الطريق إلى تركيا لمجرد أن أحدهم أراد أن يخطبها».

بعد أن أصغيتُ لتلك المحاضرة من دون أن أجد ما أعترض به عليها، أطلقتُ العنان لأفكاري الصامتة. فتمشينا بعض الوقت من دون أن نتبادل الأفكار. ثم قلتُ ربما بطريقة بدتْ مسرحية: «ولكن ألا ترى انني إذا ما حاولتُ جعلهن يدركن ذلك، إنما سأسبب لهن التعب أكثر من الراحة؟ فها إنهنّ كلما سمعنَ أكثر عن تجربتي في الماضي، رحنَ يرسمنَ من دون تمييز صورة أكثر إشراقًا عن ذلك العالم، عن العالم الغربي. ولذلك فإنني أحس.. لا أدري.. أعني أنني ربما»...

فقال: «تعنينَ أنك ربما كنت تساهمين في جعلهنَ يخلقنَ وهمًا موازيًا، أو لنقل وهمًا مضادًا للوهم الذي خلقَتْهُ الجمهورية الإسلامية من حيواتهم؟».

فأجبتُ بانفعال: «نعم.. نعم فعلاً!».

قال: «أولاً، وقبل كل شيء: إن الذنب ليس ذنبك أنت، فلا أحد منا يستطيع أن يتحمل هذا الوهم، ويتعيّنُ البقاء على قيد الحياة هنا في هذا البلد، من دون أن يخلق فردوسه الخاص الذي يهرب إليه. وثانيًا، تبقى ثمة إمكانية لفعل شيء بهذا الصدد، والحل لديك».

فسألته بلهفة: «أتعتقد ذلك؟ ثمة حل فعلاً؟». كنت لا أزال أحس بالغمّ وأتوق إلى من يخبرني ولو لمرة واحدة بما سيكون عليّ عمله. فأجاب: «أجل ثمة حل، وأنت في الواقع تلجئين إليه في ذلك الصف، إحذري فقط من إفساده. وافعلي ما يفعله الشعراء مع ملوكهم الفلاسفة. فأنت لست بحاجة إلى أن تخلقي لهنّ من الغرب وهمًا موازيًا، بل امنحيهنّ أفضل ما يمكن أن يمنحه العالم الآخر، امنحيهنّ الأدب الخالص، أعيدي إليهنّ خيالهنّ».

أنهى جملته بفرحة المنتصر. ونظر إليّ بفخرٍ كما لو أنه كان يتوقع تهليلاً وتصفيقًا حارًا لنصيحته الحكيمة! وواصل: «ومن باب التغيير، أرى ان خير ما تفعلينه الآن هو أن تطبّقي ما حرصتِ على التبشير به، وأن تطبّقيه بالفعل لا بالكلام والوعظ، خذي على سبيل المثال تلك التي تدعى «جين أوستن» (قال ذلك وكأنه يتفضل بعرض سخي) فلطالما تحدثتِ لنا جميعًا عن تجاهل «جين

أوستن» للسياسة، لا بسبب جهلها بالسياسة، بل لأنها لم تكن تسمح لأعمالها وخيالها أن يكون القمة سائغة للمجتمع من حولها، ولم تكن تسمح لذلك المجتمع أن يبتلع إبداعها. وفي الزمن الذي كان العالم فيه غارقًا في الحروب النابوليونية، خلقتْ «أوستن» عالمها الخاص المستقل، عالم تحاولين أنت تدريسهُ بعد قرنين من الزمن في الجمهورية الإسلامية بوصفه الأنموذج الخيالي الأمثل للديمقراطية. هل تذكرين حوارك المستفيض الذي تؤكدين فيه أن أول درس في مقاومة الطغيان هو أن تخلص في عملك الخاص وترضي ضميرك؟». كان يواصل حديثه بصبر: «أنت لا تكفّين عن الحديث بشأن هامش الديمقراطية، والحاجة إلى مساحة للخصوصية والإبداع. حسنًا، وليكن، فلتذهبي وتخلقي مساحتك يا امرأة، كفّي عن التذمّر وتبديد الطاقة على ما تقوله الجمهورية الإسلامية وما تفعله. وابدأي بالتركيز على «أوستن».. «أوستنك» أنت».

كنت أعلم أنه على صواب، ولكنني كنت محبطة وغاضبة من نفسي إلى الحد الذي يمنعني من الاعتراف بذلك. فليس الخيال وصفة سحرية لكل شيء، ولكنه وسيلة لإدراك الحياة وتقييمها، ليس فيما يتعلق بعالمنا فحسب، وإنما ذلك العالم الآخر الذي غدا حلمًا. لقد كان على حق في كل ما قاله، وأنا فعلاً لم أكن أصغي إليه كما يجب، ولولا ذلك لكنتُ اعترفتُ بأن بناتي، مثلهنّ مثل الملايين من المواطنين، حينما رفضنّ التخلي عن حقهن في السعي لتحقيق السعادة، إنما قد أحدثن شرخًا في العالم الصارم للجمهورية الإسلامية.

حينما عاد للحديث مرة أُخرى، بدا صوته وكأنه قادم من ضبابٍ بعيد. كان يقول: «عندما تحدثتِ عن فكرة إنشاء ذلك الصف الخاص، وجدتُ بأنها فكرة جيدة، ربما لأنني وجدتُ بأنها إلى حدٍ ما ستلهيكِ عن التفكير بالسياسة، لكني بتّ أرى أنها فعلت العكس، لقد جعلتْكِ حتى أكثر انشغالاً بها».

عندما أخبرته أول مرة عن قراري بالاستقالة، وعن نيّة إنشاء صف خاص، قال لي: «وكيف سيمكنك البقاء على قيد الحياة؟ لقد ألغيتِ كل صلة لك بالعالم الخارجي، وأصبح التدريس الجامعي بمثابة آخر المعاقل وآخر الملاذات».
فقلت له: «أريد أن أنشئ ورشة عملٍ أدبية في بيتي، وأقوم بتدريس مجموعة منتخبة محدودة من الطلبة الذين يعشقون الأدب بحق؛ فهل ستساعدني؟».

فقال: «طبعًا سأفعل، ولكن هل تدركين ماذا يعني ذلك؟.. معناه بأنك ستتركينا قريبًا جدًا، فها أنك تنسحبين شيئًا فشيئًا إلى داخل نفسك.. لقد استقلتِ بالتدريج من كل النشاطات العامة». وقلت: «ولكن ماذا لو امتلكتُ صفًا خاصًا بي؟». قال: «سيكون ذلك صفًا بيتيًا!.. كنتِ في السابق تحدثينني عن نيّتك تأليف كتابك القادم باللغة الفارسية. أما الآن فقد أصبح جلّ ما نتحدث به هو ما ستقولينه في مؤتمرك القادم في أوروبا أو أميركا. أصبحتِ تكتبين لقراء آخرين، من نوع آخر». قلت: «ولكن سيبقى لديّ أنت!» قال: «لستُ مثالاً جيدًا.. فأنت تجعلين وجودي جزءًا من عالمك الخيالي المفترض!».

بعد أن إفترقنا وعدتُ إلى البيت، تغيّر مزاجي تمامًا. كنت مشغولة البال برواية «سول بيللو» التي كنت أنوي إضافتها إلى منهجنا، وهي «ديسمبر العميد» التي تناقش معضلات الشرق والغرب. أحسستُ بالذنب لأنني شكوتُ للساحر. فقد كنت أتمنى عليه بشدّة أن يغيّر لي كل شيء راهن في التو واللحظة، أن يدّعكَ مصباحه السحري من أجلي، فيختفي حرس الثورة وزوج «آذين» ورئيس «مهشيد» في العمل. كنت أتمنى عليه أن يضع حدًا لكل ذلك، لكنه راح يطلب مني ألا أشغل نفسي كثيرًا بالسياسة. أحسستُ بالخجل من نفسي لأني لم أشأ أن أتفهّم وجهة نظره، ولأنني تصرفتُ مثل طفل مزعج طائش يناكفُ والده الحبيب.

كانت الشمس قد ابتدأتْ رحلة غروبها وأنا في الطريق إلى البيت. كانت تبدو

وكأنها تلملمُ ذراتها الرائعة التي كانت قد نثرتها على الثلج ذرةً إثر ذرة. وحين دخلتُ بيتي، أحسستُ بالدفء لمنظر النار المتأججة في الموقد. بدا «بيجان» مسترخيًا وهو جالس في كرسي يكاد يلتصق بالنار، وعلى الطاولة قريبًا منه انتصبَ قدح من الفودكا المصنوعة بيتيًا، وبين يديه كتاب «الوداع الطويل». كنت أستطيع أن أرى من النافذة تلك الأغصان التي تغطيها الثلوج، وأرى الخطوط الواهية التي ترسم الجبال البعيدة، والتي تكاد ألا تُرى في ذلك السديم.

[8]

قالتْ «ياسي» بلهجة ساخرة: «كانوا يحاولون أن يكونوا عصريين جدًا!». كانت جالسة باسترخاء تام في مكانها المعتاد على الكنبة، وهي تصف لنا آخر مغامراتها مع «النبيل العابر» على حد تعبيرها. كانت الضغوط من حولها تتزايد لإقناعها بالزواج، فأعزّ صديقاتها وأقرب بنات العمام والخؤول كنّ قد تزوّجن أو قد طُلبن للزواج. قالت: «لقد اتفقَتْ العائلتان على أنه لا بد من أن يتعرّف أحدنا على الآخر قبل أن نتخذ أي قرار بالرفض أو الموافقة. وهكذا، كان لا بد لنا من أن نذهب معًا إلى الحديقة العامة، ويكون من المفترض أن تتعمّق المعرفة بيننا ونحن نتمشّى ونتبادل الحوار في وقتٍ لم يتجاوز الساعة!». كانت نبرتها الساخرة هي هي، ولكنها هذه المرة كانت تشي بأن «ياسي» كانت مُستمتعة.

وتواصل: «كنا نسير أنا وهو في المقدمة، يتبعنا أبي وأمي وأختي الكبرى مع اثنتين من أخواته. كان حديثهم يكاد أن يصلنا بوضوح وهم يتظاهرون بالحديث بشكل عام في كل الأمور، بينما يتظاهر كلانا بتجاهل وجودهم خلفنا. سألته عن عمله: فقال بأنه مهندس ميكانيك. وسألته عن قراءاته فقال بأنه لا يجد الوقت للقراءة. كنتُ أحسّ بأنه يريد أن ينظر إليّ ولكنه لا يستطيع. حينما حضر إلى بيت عمي ليخطبني رسميًا، كان عليه أن يحني رأسه طوال الوقت، وها هو الآن أيضًا يجد أن من المستحيل عليه أن يراني كما يجب. ولذا فقد مشينا معًا، جنبًا الى جنب، وعيوننا تلصق نظراتِها بالأرض. كانت تنتابني طوال الوقت

أفكار مجنونة، كانت إحداها مثلًا: كيف لرجلٍ أن يعلم بأن المرأة التي ينوي الزواج منها لم تكن صلعاء؟».

فقالتْ «نسرين»: «هذا أمره سهل، في الماضي كانت بعض النساء من أهل العريس تتفحّص العروس المرشّحة، وتمعنُ التدقيق حتى في أسنانها».

فردّتْ «ياسي»: «الحمد لله، ما زالت كل أسناني سليمة! على أية حال، واصلنا السير على هذا المنوال بعض الوقت، حتى خطرتْ ببالي فكرة جهنمية؛ فبدأت أسير بسرعة، تاركة الجميع بحالة من الذهول. وحينما بدأوا يسرعون هم أيضًا محاولين اللحاق بي أو على الأصح: إبقاء المسافة ما بيننا على حالها، توقفتُ فجأة، حتى إنهم أوشكوا أن يصطدموا بنا. كان الرجل مصدومًا بشكل كامل، لكنه حاول إخفاء ذلك بأن يسرع هو الآخر ليستقيم الأمر. كنت أحاول من دون جدوى أن أصطاد عينيه أو أن أرغمه على أن يتطلع إلي. كانت فكرتي هي أن أضعه في اختبار، فإذا ما فهم اللعبة وضحك، فإنه يستحق إعادة النظر، وإذا لم يفهم، فلن أضيّع من أجله المزيد من الوقت. كنتُ متأكدة من أنه لو كان معي أي أحد من أخوالي مثلًا، لكان فهم اللعبة مباشرة وشاركني بها». أكملَتْ جملتها الأخيرة وغاصتْ في صمتٍ عميق.

قالت إحدى البنات: «وإذًا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟». فأجابتْ «ياسي» كأنها تفيق من إغماءة: «آه.. لا.. لا شيء».

ـ «لا شيء؟».

فقالتْ: «بلى.. لا شيء.. لم يسألني الأبله حتى عن سبب إسراعي، حاول فقط مجاراتي في السرعة من باب اللياقة. وبعد مدة قصيرة تعبتُ.. فتوادعنا ومضينا. وبعد ذلك لم أعد أرد على سؤالهم عني وسلاماتهم، حتى توقفوا عن السؤال. أنا متأكدة أنه قد تزوج الآن وسعيد مع بنت أُخرى ذات جسد أقل لحمًا». كانت لهجتها المرحة ما زالت طاغية، فهي تعشق دائمًا سرد القصص الجميلة، حتى لو جعلتْ من نفسها مادة للضحك.

كان ذلك الاسبوع مهلكًا بالنسبة لـ«ياسي»، بما حملتها لها قصة الخطيب العابر التي تزامنتْ مع عودة خالها إلى الولايات المتحدة. فقد كانت تبعات كل زيارة لخالها إلى إيران، وهي زيارات متباعدة، تثير لديها مختلف الشكوك والأسئلة والأفكار، فتبقيها ذاهلة لأسابيع، وينتابها شوق مرتبك وتشوّش يجعلها تحسّ بالافتقاد، من دون أن تدري حتى لأي شيء تفتقد. فما تعرفه الآن تمامًا هو أنها لا بد وأن تغادر إلى أميركا، تمامًا مثلما كانت تعرف وهي في الثانية عشرة بأنها لا بد من أن تعزف على تلك الآلة الموسيقية الممنوعة. فكان عزفها على تلك الآلة، ثم إصرارها على الالتحاق بجامعة طهران، ثم قرارها بالانضمام إلى هذا الصف، كل ذلك كان إحماءً قادها إلى هدفها الأخير: أن تكون موجودة بجسدها هناك حيث يكون أخوالها، وأن تتذوّق أخيرًا تلك الفاكهة المرغوبة المحرّمة التي طالما بقيَتْ حاضرة في حيوات خالاتها ووالدتها؛ فاكهة بقيَتْ مدلاةً فوق رؤوسهنّ، تغريهنّ، ولا يستطعن الوصول إليها أو لمسها. ولم تكن هاتيك النسوة لتعوزهنّ الثقافة أو الذكاء، ولكن كانت تعوزهنّ الحرية. ولم يعد أمام «ياسي» من خيار سوى أن تكون كأخوالها، ليس كمثلهم تمامًا، ولكن على الأقل أن تتملك ما امتلكوه من حقوق بدتْ لها أمرًا لا يمكن التنازل عنه.

ولم أكن أريد لها أن تتزوج. أردت لها أن تعيش التجربة، وأن تواجه المحنة وتذلل العقبات، على الرغم من أن كل العقبات كانت قد شخصتْ أمامها بشكل عجيب. فكانت معارضة الأهل في الدرجة الأساس: فذهاب بنت في سنها للدراسة في الخارج كان أمرًا غير مسبوق وغير مقبول، بالإضافة الى تبعاته المالية المهولة. ثم تأتي عقبة الحصول على قبول في إحدى الجامعات الأميركية، والحصول على تأشيرة دخول. كنت أريد لها أن تنجح في مساعيها، ليس من أجلها فحسب، وإنما من أجلنا جميعًا، فقد كنتُ أضمر دائمًا توقًا جامحًا لتحقيق الأحلام المستحيلة.

كان ذلك يومًا للنبلاء العابرين، فقد كانت «ساناز» هي الأُخرى ملأى بالقصص. إذ بعد فشل خطوبتها السابقة دخلتْ في دوامة جديدة، وتهافتَتْ عليها المواعيد مع مختلف الخاطبين الجدد. فجاءتنا بتقارير مفصّلة عن ذلك الشاب المهندس الدارس في أميركا والحاصل على البطاقة الخضراء، بمكانتها الرمزية المعروفة. وكان قد رأى صورتها ضمن صور عائلية، وحين جاء في زيارة لطهران، بحث عنها فوجدها ودعاها إلى أحد المطاعم السويسرية. ثم عرجت بنا الى قصة ذلك الخاطب التاجر الغني، الذي استهوته فكرة الزواج بامرأة مثقفة جذّابة، فقرّر شراء مكتبة كاملة لها وحدها، كي يضمن بقاءها في البيت، وسوى ذلك من القصص. كانت كل تلك النزهات قد بدتْ لـ«ساناز» ضربًا من الترويح عن النفس والتطهير للذات من بقايا الألم.

قالت «آذين» وقد أعادتْ لنبرتها مسحة من الغنج العابر: «خذي نصيحة مجرّب، فما الذي ستجنينه من الزواج؟ لا حاجة لَكِ به، لا تأخذي هؤلاء الخاطبين على محمل الجد، استمتعي بالمواعيد والنزهات معهم وكفى».

كانت صديقتي المحامية تواجه صعوبات حقيقية في محاولاتها مساعدة «آذين». فقد كانت «آذين» متمسكة جدًا بالطلاق أول الأمر. ثم بعد عشرة أيام، ذهبت إلى مكتب المحامية مع زوجها ووالدته وأخته، وهي ترى أن ثمة إمكانية للتصالح. وبعد مدّة وجيزة، دخلتْ على المحامية من دون سابق موعد، وجسدها تملأه الكدمات، وهي تقول بأنه ضربها من جديد، وأخذ منها الطفلة الصغيرة ليبقيها عند أمه. ثم عاد في الليلة ذاتها، وركع عند فراشها باكيًا ضارعًا ألا تهجره. وحين سألتُها عن تطورات القضية، انفجرتْ بالبكاء مرة أُخرى، وقالت بأنه سيحرمها من ابنتها إذا أصرّتْ على طلب الطلاق. وقد كانت تلك الطفلة هي كل حياتها. قالت وهي تبكي: «أنت تعرفين المحاكم، سيحكمون بالوصاية للأب مثلما يفعلون دائمًا، وهو لن تهمّه الطفلة في شيء، لن يعبأ بها، سيرسلها حتمًا لتعيش مع أمه». كانت تعلم تمامًا أن السبب الوحيد الذي يجعله مصرًا على أخذ الطفلة منها هو أن يؤذيها.

كانت «آذين» قد تقدّمتْ بطلب تأشيرة دخول إلى كندا، ولكن حتى لو أنها حصلتْ على الموافقة، فإنها لن تتمكن من السفر من دون موافقة الزوج. قالت بيأس: «الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله دون موافقة زوجي هو الانتحار!».

كانت «مانا» متفقة مع «آذين» تمامًا، ولكنها وجدتْ صعوبة في إظهار ذلك، فقالتْ تنصح «ساناز»: «لو كنت مكانك، لغادرتُ هذا البلد ما إن أجد الفرصة لذلك، لا تبقيْ في هذا المكان، ولا تتزوجي من رجل سيكون عليه البقاء في هذا المكان، فلن تبلغي إلا العفن!».

نظرتْ إليها «مهشيد» نظرة تأنيب وقالت: «هذا بلدك.. هناك الكثير الذي يمكنك عمله».

فقالتْ «مانا» بحزم: «لا شيء يمكن عمله، لا شيء!».

رمقتني «مهشيد» بنظرة عابرة وقالتْ: «تستطيعين أن تكتبي وأن تدرّسي. نحن بحاجة إلى نقاد جيدين، ومدرّسين جيدين».

فردّتْ «مانا»: «فعلاً مثل الأستاذة نفيسي التي كرّستْ حياتها للتدريس وأرهقتْ نفسها سنوات وسنوات.. و.. ثم.. ؟ ما الذي جنَتْهُ بعد ذلك؟ قال لي «نيما» قبل أيام بأنه لو كان قد عمل بائعًا جوالاً لكان جمع مالاً أكثر، عوضًا عن إضاعة كل تلك السنوات في الحصول على الماجستير في الأدب الإنكليزي».

قالتْ «مهشيد»، وعيناها مسمّرتان في الأرض: «إذا غادر الجميع، فمن ذا الذي سيساهم في إنجاز شيء من أجل هذا البلد؟ لا يمكننا أن نتخلى جميعًا عن الإحساس بالمسؤولية».

الحقيقة هي أنني كنت أطرح على نفسي هذا السؤال ليل نهار. قال لي «بيجان»: «لا يمكن لنا جميعًا أن نغادر هذا البلد، إنه وطننا، وطننا نحن». وحينما حملتُ آلامي وذهبتُ بها إلى «ساحري»، قال يحاججُني: «إنه عالمٌ فسيح، وأينما ذهبتِ سيكون بإمكانك الكتابة والتدريس، وستكونين في الواقع

مقروءة بشكل أوسع ومسموعة بشكل أفضل إذا ما كنتِ هناك. أما السؤال الذي يقول: أغادر أم لا أغادر.. فتبقى الإجابة عنه في النهاية أمرًا شخصيًا. ولطالما أُعجبتُ بزميلك السابق الدكتور «أ» الذي قال بأن السبب الوحيد الذي يدعوه لمغادرة البلد هو رغبته في تناول البيرة بحرية! أما أولئك الذين يُقنّعون نزواتهم ورغباتهم الشخصية بقناع الوطنية والصالح العام، فهم يشعرونني بالغثيان. فهم يمكثون لأنهم لا يملكون الوسيلة التي تساعدهم على العيش في أي مكان آخر، ولأنهم إذا غادروا، فإنهم لن يجدوا هناك ما يجعلهم يحسّون بأنهم الأهم والأفضل مثلما وجدوا هنا، ومع هذا فهم يعلّلون بقاءهم بالتضحية في سبيل الوطن! أو أولئك الذين يغادرون فعلًا، ثم يزعمون بأنهم لم يتركوا الوطن الا لكي ينتقدوا النظام ويفضحوا أساليبه. نحن لسنا بحاجة إلى كل تلك التبريرات».

كانت تلك وجهة نظر لا بأس بها، ولكن الأمور ليست بهذه البساطة. فقد كنتُ أعلم مثلًا بأن «بيجان» كان راغبًا في البقاء، لا لأنه لا يستطيع الحصول على عمل أو مكانة في الولايات المتحدة، فمعظم أقاربه من الدرجة الأولى هناك، وكان هو نفسه قد عاش هناك أكثر مما عاش هنا. قال لي ذات مرة: «أريد البقاء هنا، لأنني أعشق هذي البلاد. فلا بد لنا من أن نبقى لنشكل ببقائنا نوعًا من المقاومة، سنجعلهم يدركون أننا لا نُهزم بسهولة، فبقاؤنا، بقاؤنا المحض، هو شوكة في عيونهم». ثم سألني: «هلا أخبرتني في أي مكان في العالم يمكن لمحاضرة عن «مدام بوفاري» أن تجتذب كل تلك الحشود من الناس حتى لتكاد تقود إلى أعمال شغب؟ لا يمكن أن نستسلم أو أن ننسحب فنغادر، هذا البلد بحاجة إلينا، وأنا أعشق البلد، أعشقه». فسألتُ نفسي: «وأنا؟ هل أعشق هذا البلد؟»

وقلتُ لـ«مهشيد»: «إن «بيجان» متفق معك تمامًا، بل ان جذوره ضاربة أكثر في فكرة الوطن. ولقد خلق لنا وطنًا في الوطن، أعني انه فعلًا بنى لنا هذا البيت

وأنبتّ موقعه وسط الجبال. مثلما أنشأ عادات ربما تخصّنا وحدنا: مثل مشاهدة قناة الـ«بي بي سي»، أو دعوة الأصدقاء بانتظام إلى مآدب الشواء.. إلخ. وسيكون من الصعب عليه جدًا أن يعيد تفكيك كل شيء ليعاود تركيبه وإثباته في مكان آخر. ربما لا بد من أن تكون لكلٍ منا اختياراته الخاصة به، وفقًا لما تمليه عليه إمكاناته وضمن حدود المسموح». كنت أقول ذلك وأنا أحسّ كم يبدو لوقع كلماتي عليهم صدى باهت وسطحي.

فانبرَتْ الدبدوبة «ياسي»: «أما أنا، فلديّ مبرر دامغ للذهاب إلى أميركا.. لأنني كما ترون ممتلئة الجسم جدًا، وقد سمعتُ بأن البنات البدينات يستمتعن بأوقاتهن هناك أكثر من سواهن، يقولون بأن الأميركيين يفضلون البنات مع بعض اللحم الزائد».

فعلّقتْ «ميترا» وهي تلكز «ياسي» بخفّة: «ذلك يعتمد على الفتاة نفسها».

لا شك أنه لن يكون لدى «ميترا» بغمازتيها وعينيها العسليتين الواسعتين أي مشكلة في أي بقعة من بقاع الأرض. كانت قد قررتْ هي و«حميد» السفر إلى سوريا والبقاء هناك لأسبوع لإجراء مقابلة في السفارة الكندية، فكندا لم تكن توافق على طلبات الهجرة المقدمة من إيران. وكانت «ميترا» لا تزال مترددة وتتأرجح أفكارها ما بين البقاء والهجرة.

كانت تشكك بالفكرة وهي تقول: «هنا، نحن نملك هويتنا وكياننا، ويمكننا أن نصنع شيئًا لأنفسنا، أما هناك.. فحياتنا مجهولة».

قالت «نسرين» بإيجاز: «معضلة الحرية». وكانت تحاكي عبارتي الأثيرة المقتبسة عن «بيللو».

وحدها «مهشيد» كانت هنا قد التزمَتْ الصمت. كنتُ أعلم أنها أكثر استقرارًا وثقة من الأخريات إزاء ما تريد. فلم تكن تفكر بالزواج. وعلى الرغم من معتقدها وتربيتها التقليدية والتزامها الأخلاقي، فإنها لم تكن ميالة للزواج مثل «ساناز». لم تكن تتفق مع النظام، بيد أن مشكلاتها معه كانت عملية أكثر

من كونها وجودية. كانت قد نذرتْ عقلها وقلبها لعملها، بعد خيبة أمل طالت في العثور على الرجل المناسب، إذ لم تكن تملك حتى أن تحلم بإمكانية العيش في الخارج. وأصبحت أهم مشكلاتها الآن هي كيف يمكنها أن تتجاوز جهل وغباء رؤسائها في العمل، بعد مُجازاتها على جهودها الاستثنائية في العمل بما يشبه الحسد، وبعد أن جعلوا من ماضيها السياسي سيفًا وضعوه فوق رقبتها.

لطالما أقلقتني «مهشيد»، وأقلقني ذلك الدرب الانعزالي الذي اصطفتْه لنفسها. ولطالما قلقتُ على «ياسي» من خيالاتها غير المسؤولة حول أرض اللاعودة حيث يعيش أخوالها. وقلقتُ على «ساناز» لخيبة أملها في الحبيب، وعلى «نسرين» من ذكرياتها، وعلى «آذين». كنت أقلق عليهنّ جميعًا، ولكن ليس كقلقي على «مانا». فقد امتلكتْ «مانا» ذكاءً حادًا وطموحًا وصدقًا، ومثل هذا الذكاء يكون قاسيًا ومدمّرًا لها هي قبل أي أحد سواها. وكان كل شيء حولها في ذلك الوقت يربكها ويضايقها، بدءًا من حقيقة اتكائهما هي وزوجها ماليًا على أسرتها، وانتهاءً بمكانة المثقفين البائسة في البلد، مرورًا بالممارسات اليومية الوحشية للنظام. لقد عزز «نيما» عزلتها القاتلة، على الرغم من أنه كان يشاطرها المشاعر والرغبات ذاتها. كانت «مانا»، بخلاف «ياسي»، ترفض بعناد أن تقوم بأي إجراء أو حل لحالتها النفسية أو العامة، فكانت وكأنها تمرح حين تجد جهودها تضيع هباء، فقد كانت مثلها مثل الساحر، تصرّ أن تكون أقسى على نفسها من قسوتها على العالم من حولها. كان كلاهما يلوم نفسه حينما يجد أناسًا أقل منه يتحكمون بمصيره.

قالت «ميترا»: «كيف عدنا إلى الكلام عن الزواج مرة أُخرى، بينما من المفترض أننا هنا للحديث عن الكتب؟». فقلتُ ضاحكة: «نحن الآن بحاجة إلى السيد «نهوي» ليذكّرنا كم نحن تافهات إذ نقرأ «أوستن» ونتحدث عن الزواج!». كنا بين الحين والحين نجد السيد «نهوي» وقد تحوّل عندنا إلى مادة

للتنذّر، فقد كان ببدلته المتربة وقميصه المزرّر حتى الرقبة وشعره المخصّل وعينيه المغبرتين، قد أصبح موضوعًا دسمًا للضحك. وكان قد استحقّ مني قلّة الاحترام إلى الأبد في تلك اللحظة التي صرّح فيها بأن «نماذج الشخصيات النسوية عند «غوركي» في روايته «الأم» هي أفضل بكثير من كل الشابات الطائشات في روايات «جين أوستن»».

[9]

كانت «أولغا» صامتة.

قال «فلاديمير» متوسلاً: «آه، لماذا لا تحبينني كما أحبك؟».

فقالتْ: «انا أحب بلدي».

فهتفَ بثقة: «وأنا أيضا أحبه!».

واصلتْ «أولغا» وهي تحرّر نفسها من عناق الشاب: «وثمة شيء أحبه أكثر حتى من بلدي».

فقال متسائلاً: «ألا وهو؟».

فركّزَتْ «أولغا» عينيها الزرقاوين الصافيتين عليه، وقالت بسرعة:

«إنه الحزب».

لقد أصبح كل كتاب عظيم نقرأه يمثل تحديًا للأيديولوجيا التي تحكمنا. وأصبح يشكّل خطرًا قائمًا وتهديدًا، لا بسبب ما يقوله العمل فحسب، بل وبسبب الكيفية التي يقول فيها ما يقول، بالإضافة إلى موقف ذلك العمل الأدبي من الحياة والأدب. ولم يكن ثمة تحدٍ أكبر من ذلك الذي بدا واضحًا مع «جين أوستن».

كنتُ قد أضعتُ الكثير من وقت المحاضرات في جامعة العلاّمة وأنا أعقد مقارنات ما بين «فلوبير» و«أوستن» و«جيمس»، وبين أعمال أدبية أيديولوجية

مثل «الأم» لـ«غوركي» و«الدون الهادئ» لـ«شولوخوف»، وبعض مما يسمى الأدب الواقعي الآتي من الخارج. كانت الفقرة السابقة المقتبسة عن «نابوكوف» من محاضراته عن الأدب الروسي قد فجّرت الكثير من الصخب والمرح في إحدى محاضراتي في جامعة العلاّمة. حينذاك، سألتُ طلبتي: «ما الذي يحدث لو أننا جرّدنا شخوصنا من أصغر ذرة من الخصوصية؟ ومن هي الشخصية الأقرب إلى واقعها الإنساني: «إيما بوفاري» أم «أولغا» ذات العينين الزرقاوين الصافيتين؟».

ذات يوم، لحق بي السيد «نهوي» إلى مكتبي عقب انتهاء المحاضرة. كان يحاول أن يشرح لي أن «أوستن» لم تكن كاتبة غير إسلامية فحسب، وإنما كانت مدانة بخطيئة أُخرى أيضًا، فهي كاتبة استعمارية. لقد عجبتُ فعلاً لسماعي ذلك من فم شخص لم يكن حتى ذلك الحين قد اقتبس كلمة إلا عن القرآن الكريم (سواءً أكان الاقتباس صحيحًا أو خاطئًا). وقال لي بأن «مانسفيلد بارك» هو كتاب يشجّع على العبودية، وبأن الناس حتى في الغرب بدأوا الآن يدركون حجم الخطأ في أساليبهم. ما أربكني فعلاً هو أنني كنتُ شبه متيقنة من أن السيد «نهوي» لم يكن قد قرأ «مانسفيلد بارك».

لم أفهم إلا بعد زمن طويل من أين جاء السيد «نهوي» بتلك الأفكار، كان ذلك حينما اشتريتُ نسخة من كتاب «الثقافة والإمبريالية» لـ«أدوارد سعيد» أثناء رحلة لي إلى الولايات المتحدة. من السخرية حقًا أن أجد إسلاميًا متشدّدًا يلجأ إلى الاقتباس عن «إدوارد سعيد» ضد «أوستن»، ومن السخرية أيضًا أن تكون العناصر الأكثر رجعية في إيران متفقة مع نظريات أولئك الكتّاب الذين يعتبرهم الغرب ثوريين، وأن يقرر الرجعيون اختيار أعمالهم من دون سواها.

لم يكفّ السيد «نهوي» عن ملاحقتي إلى مكتبي وهو يجود عليّ بجواهر حكمته التي كان نادرًا ما يتفوّه بها داخل الصف. فهناك كان يلتزم الصمت تمامًا، ويحتفظ بملامح من هدوء وعزلة تامتين، وكأنه يخبرنا أنه يحضر

المحاضرة إكرامًا لنا فقط. وكان من الطلبة القلائل الذين لم أستطعْ أن أجد فيهم ولو خصلة جيدة تعوّض عن سوء خصالهم الغالبة. يمكنني القول بأنه كان رجلاً بلا إحساس مثل «إليزا بيث». وذات يوم، وبعد نقاش مهلِك فعلاً، قلتُ له: «يا سيد «نهوي»، أريدك ألاّ تنسى شيئًا مهمًا: أنا لا أقارن بينك وبين «إليزا بيث»، فهي لا تشبهك في شيء، ولكن واثقًا بأن الفرق بينكما هو تمامًا مثل الفرق بين الإنسان والفأر! ولكن هل تذكر كم إنها كانت مهووسة بـ«دارسي»؟ وكم كانت تتصيّد له الأخطاء؟ وتُسائل عنه كل من تتعرف عليه لتثبت بأنه سيّئ مثلما تعتقد هي؟ وهل تذكر علاقتها بـ«ويكهام»؟ وهل تذكر أن أساس تلك العلاقة لم يكن بسبب مشاعرها صوبه بقدر ما كان بسبب كرهها لـ«دارسي»؟ فلتنظر إلى نفسك إذًا وإلى حديثك عمن تطلق عليهم «الغرب»، فأنت لا تستطيع الحديث عنهم من دون إطلاق صفات مثل: الغرب المتفسخ أو الحقير أو الفاسد أو الإمبريالي. أرجو أن تضع ما حدث لـ«إلزا» نصب عينيك!»

ما زلتُ أذكر تعابير وجهه لحظة أن سمع مني هذا الكلام، فقد قلتهُ له مرّة واحدة وأنا أستغل سلطتي عليه بصفتي أستاذته التي كان لها عليه حقّ قول الكلمة الأخيرة.

كان السيد «نهوي» يتمتع بنفوذ واسع في جامعتنا، وكان ذات يوم قد رفع تقريرًا عن «نسرين» الى اللجنة التأديبية، فقد امتلكَ عيني نسرٍ استطاع بهما أن يضبطها وهي متلبسة بالهرولة على الدرج حينما تأخرتْ عن المحاضرة. رفضت «نسرين» التوقيع أول الأمر على ورقة اعتذار تتعهد بها بألاّ تعود إلى الركض في مباني الجامعة مرة أُخرى حتى حينما تكون متأخرة عن المحاضرة. بيد انها أذعنتْ في النهاية، بعد أن أقنعتها السيدة «رضوان» بأن القضية لا تستحق كل ذلك، ولن يفضي بها رفضها العنيد سوى إلى الفصل من الجامعة.

لاحظتُ بأن «ميترا» و«ساناز» كانتا تتهامسان وتتضاحكان طوال حديثنا عن السيد «نهوي». ولمّا سألتهما عن سبب المرح السري علّنا نشاركهما به،

إحمرّتْ وجنتا «ميترا» خجلاً، وراحت «ساناز» تشجعها أن تحكي لنا قصتها معه. فاعترفتْ لنا «ميترا» بأنهما أطلقا على السيد «نهوي» اسم: «مستر كولينز جامعة الطباطبائي»، تيمّنًا بـ«مستر كولينز» القس المتعجرف في رواية «جين أوستن».

ورووث لنا أنها ذات يوم وجدتْ السيد «نهوي» يظهر أمامها فجأة بعد المحاضرة، ولم يكن يبدو كعادته..

فقاطعتها «ياسي» اللحوحة: «مروّعًا؟»، فقالت «ميترا»: «لا.. لا أقصد ذلك بالضبط»، فواصلتْ «ياسي» بلا خجل: «مهيبًا؟.. متعجرفًا؟.. ثقيل الدم؟». فأجابت «ميترا»: «لا.. لا.. على أية حال، لم يكن يبدو كما يبدو عليه عادة، أعني أنه لم يكن هو نفسه!».

كان غروره قد تلاشى ليحلّ محلّه توتّر شديد وهو يضع بين يدي «ميترا» مظروفًا. فأشارتْ «ساناز» لـ«ميترا» أن تصف لنا المظروف، فقالت بأنه كان ذا لون أزرق بشع، وتفوح منه رائحة. «رائحة؟!». فأجابتْ: «نعم.. رائحة.. رائحة بدتْ رخيصة.. ومضمخة بماء الورد». وقد وجدتْ «ميترا» في المظروف رسالة من ورقة واحدة باللون والعطر ذاته، مكتوبة بحبر أسود وبخط يدوي معتنى به جدًا. وظلت «ساناز» تحثّ «ميترا»: «أخبريهم كيف ابتدأ الرسالة». فقالت «ميترا» ببطء وكأنها أضاعتْ الكلمات: «حسنًا.. لقد ابتدأ رسالته بعبارة».....

فصاحت «ساناز»: «نرجستي الذهبية!»، وانفجرتْ بالضحك.

فسألنا: «نرجسة ذهبية؟.. فعلاً؟». فأجابتا: «فعلاً!».

كان قد مضى يشرح لها حبه الأبدي، وبأن كل حركة وكلمة منها كانت محفورة في فؤاده وخياله، وبأن أي قوة على الأرض مهما كانت، لم تستطع أن تفعل به ما فعلته ابتسامها التي كان يتمنى دائمًا أن تكون له، وله وحده، وإلى آخره من ذلك الكلام.

وماذا فعلتْ «ميترا»؟ كيف تصرفتْ معه؟ كنا جميعًا نريد أن نعرف. وذكّرتنا «ساناز» بأن كل ذلك كان قد حدث في خضم بدايات الاستلطاف بين «حميد» و«ميترا» الذي كان في غاية السرية. وفي اليوم التالي، حينما انبجس السيد «نهوي» أمامها فجأة بعد أن كَمَنَ لها في الشارع، حاولتْ أن تشرح له أنه من المستحيل أن تبادله المشاعر ذاتها. فأحنى رأسه برباطة جأش، واختفى ليعاود الظهور بعد يومين. كانت توقف سيارتها الصغيرة في أحد الأزقة قرب الجامعة، وكانت تهمّ بفتح باب السيارة حينما أحسّت بوجود أحد ما خلفها مباشرة.

قاطعتها «نسرين» كمن ينذر بسوء وقالتْ: «مثل ظل الموت!».

كانت «ميترا» قد استدارتْ لترى السيد «نهوي»، بشعره المجعد وعينيه المغبرّتين وأذنيه الناتئتين، وقد حمل بين يديه كتابًا، ديوانًا شعريًا لـ«كومينكز»، وقد برزت من بين صفحات الكتاب زُرقة ظرف آخر. وقبل أن تعترض «ميترا»، ألقى بالكتاب بين يديها واختفى من جديد.

لم تكف «ساناز» عن التلقين: «أخبري الدكتورة نفيسي عما كتبه لك في الرسالة هذه المرة، سيسرّها جدًا أن تعلم أن محاضراتها قد أتتْ ببعض الفائدة للسيد «نهوي»!».

كان قد كتب لها في الرسالة: «إلى وردتي الخجولة».

ـ «ثم؟.. ماذا حدث؟».

فأضافت «ساناز»: «ثم كان قد أعاد كتابة قصيدة كنتِ اعتدتِ تدريسها لنا في مادة: مدخل إلى دراسة الأدب».

«في مكان ما لم أكن قد رحلتُ إليه
وأفرحني أنه كان خارج حدود تجربتي
هنالك فقط.. تخبّئُ عيناك صمتهما
وتكمنُ في التفاتك الرقيقة
تلك الأشياء التي لا أستطيع لمسها

لا لشيء.. سوى لأنها قريبة جدًا.

..

ونظرةٌ منك عابرة.. تجعلني أتفتّح
رغم أني أغلقتُ نفسي مثل قبضةٍ من الأصابع
بكِ أتفتح.. وريقة بعد وريقة
مثلما يفتح الربيعُ أول وردة
إذ هو ببراعته وبمكره.. يلامسها.

..

أو.. لو أنك شئتِ أن أغمض روحي
فأنا.. وحياتي.. سنغمضُ أنفسنا بغتةً وبمنتهى الجمال
تمامًا مثل قلب تلك الوردة
حينما يتخيل الثلج
وهو يزحف شيئًا فشيئًا ليغطي كل شيء.

..

ولا شيء يمكن إدراكه في هذا العالم
يوازي رقتك المذهلة
تلك التي نسيجها يُخضعني بألوان مداناته
فيذيبُ الموت
لتبادل الشهيق معًا الى الأبد

..

لا أدري ما لذي فيك
ذلك الذي يجعلني أغمض روحي أو أتفتّح
بيد أن شيئًا وحيدًا في داخلي
يدرك أن لعينيك صوتًا أعمقَ من كل الأزهار

وبأن لا أحد.. ولا حتى المطر

له مثل كفَّيك الصغيرتين».

فقلتُ وقد أصابتني عدوى المرح الصبياني: «وذلك وحده يكفي ليجعلني أقلع عن تدريس مادة الشعر!».

اقترحتْ «مهشيد»: «سيكون عليك من الآن أن تبدأي بتدريس الشعر الحزين فقط، مثل «الطفل هارولد» أو «أغنية البحار العجوز»»..

أحسّتْ «ميترا» هذه المرة بأن عليها أن تتخذ إجراءً أكثر حسمًا قبل أن تخرج الأمور عن نطاقها. وبعد نقاشات في الأمر مع صديقاتها استطاعتْ أن تدرك أن الحل مع شخص متنفذ مثل السيد «نهوي» لا يمكن أن يكون محض «لا» صريحة وحاسمة، لأن ذلك لا يخلو من مخاطرة، فكان من الأفضل لها أن تبتدع كذبة تضعه فيها أمام طريق مسدود.

وحينما جمعتْهما المصادفة مرة أخرى، استجمعتْ «ميترا» شجاعتها لتوقف السيد «نهوي» عند حده. فأخبرته وهي تتلعثم ويحمرّ وجهها أنها كانت تشعر بالخجل من مصارحته بالسبب الحقيقي وراء صدّها له، وأنها كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من أحد أقاربها، وأن أهل خطيبها المزعوم كانوا متنفذين ومحافظين جدًا، وكانت خائفة جدًا مما يمكنهم أن يفعلوه اذا اكتشفوا أمره. فجمد الشاب في مكانه برهة لا تتعدى أجزاء الثانية وكأن قدمَيه قد تجذّرتا في الأرض، ثم استدار على عقبيه ومضى من دون أن يتفوّه بحرف، واختفى تاركًا «ميترا» وسط الشارع العريض، وهي لا تزال ترتجف.

[10]

أهدتني السيدة «رضوان» ثلاثة مشابك للشعر في آخر عيد لرأس السنة قضتهُ في طهران. كانت عبارة عن مشابك صغيرة تستخدمها النساء في تثبيت أغطية الرأس. فلم أكن قد تعلمّتُ مطلقًا أن أرتدي حجابي كما يجب، حتى صار ثمة طقس بيننا قبل كل حديث أو محاضرة وهو أن تقوم بنفسها بترتيبه لي أو التأكد من أنني أضعه على رأسي بالصورة الصحيحة. قالت لي: «سيدة نفيسي، عزيزتي، أنا آسفة بأنك ستتذكرينني بهذه، ولكنني أقلق عليك فعلاً، فهل تعدينني بأنك ستستعملين هذه المشابك بعد أن أسافر؟ أريد أن أراك هنا حينما أعود».

كانت السيدة «رضوان» تستعدُ للذهاب إلى كندا. فقد استطاعتْ أخيرًا بعد سنوات وطول عناء أن تحصل على المنحة الدراسية التي طالما حلمتْ بها لاستكمال الدكتوراه، تلك المنحة التي ما أن تمت لها أخيرًا حتى وجدتْ نفسها في غاية الانفعال والقلق إلى الحد الذي منعها من الاحتفاء باللحظة. وكان جلّ انفعالها منصبًا في التساؤل: هل لها أن تنجح في مسعاها؟ وهل ستكون أهلاً لتلك المهمة الصعبة؟ كنت سعيدة لسعادتها، وأيضًا كنتُ أحسّ بأنني محتاجة لسفرها، فقد بدا لي ذلك الأمر أشبه بشعور الخلاص.

كنت أحسّ في وقت من الأوقات بأنها إنسانة في غاية الطموح، وبأنها استمرَأتني واستمرأتْ من هم مثلي في الوصول إلى مآربها. لكنني اكتشفتُ بعد

ذلك بأن القضية لم تكن بهذه البساطة. فطموحها لم يكن منصبًا على تحقيق أغراض على المستوى الوظيفي، كأن تصبح رئيسة للهيئة التدريسية أو ما شابه ذلك، رغم أن ذلك لم يكن غائبًا عن بالها. لكن المشكلة كانت تكمن في توقها لأن تصبح شخصية أدبية مرموقة، فقد كان حبها للأدب حقيقيًا أصيلاً، لكن مواهبها كانت محدودة، وكان طموحها للسلطة والنفوذ يفوق أحيانًا حبها للأدب، أو أنه يتعارض معه. لقد نجحَتْ في أن تخلق في داخلي مشاعر متناقضة صوبها. كنت أشعر بأنها كانت دائمًا على وشك إخباري بشيء مهم عن نفسها، شيء ما يجعلها أمامي ربما أكثر وضوحًا. وربما كان علي ان أكون أكثر فضولاً، أو انني ربما كنتُ سأفهمها أكثر لو أنني كنتُ أقل انشغالاً بطلباتها الملحّة واقتحامها المستمر.

في أواخر صيف ١٩٩٠، وللمرة الأولى بعد أحد عشرَ عامًا، سافرنا أنا وأسرتي في رحلة خارج إيران. ذهبنا إلى قبرص لقضاء الإجازة وللقاء أخوات زوجي اللواتي لم يكنّ قد رأين طفلينا. كنتُ لسنوات طوال ممنوعة من مغادرة البلاد، وحينما سمحوا لي أخيرًا بالسفر، أحسستُ بالشلل التام، ولم أجد في نفسي القدرة على تقديم طلب الحصول على جواز سفر. ولولا إصرار «بيجان» وطول صبره، لما كنتُ أتممتُ الإجراءات مطلقًا. لكنني حصلتُ على الجواز في النهاية، واستطعنا أن نغادر فعلاً من دون أية معوّقات. مكثنا هناك عند إحدى الصديقات، وكانت طالبة سابقة عند السيدة «رضوان». وقد حدثتي عن الأخيرة، وقالت بأنها كانت تسألها عني دائمًا وعن عائلتي وعملي.

أخبرتني صديقتي لاحقًا بعد عودتنا إلى الوطن، أن السيدة «رضوان» كانت قد وصلتْ إلى قبرص يوم مغادرتنا، وربما على نفس الطائرة التي حملتنا عائدين إلى طهران، ولكنها أقلّتْها باتجاه آخر. كانت السيدة «رضوان» ذاهبة إلى قبرص في إجازة، وكانت بمفردها. وقد اتصلتْ بصديقتي تسألها عني، فأخبرتْها الأخيرة بمغادرتي في اليوم ذاته. طلبتْ «رضوان» من صديقتي أن

نفعلها إلى الأماكن ذاتها التي زرناها معًا في رحلتنا، وكانت تسألها عن كل ما فعلتْ هنا أو ما فعلتْ هناك.

ذات يوم، ذهبنا إلى شاطئ البحر حيث ذهبنا قبلهما للسباحة. كانت السيدة «رضوان» خجولة، فترددتْ قبل أن ترتدي ملابس السباحة، وحين ارتدتها اختارتْ الذهاب إلى مكان مهجور من الشاطئ حيث لا يمكن لأحد أن يراها. دخلت الماء وسبحتْ بعض الوقت، لكنها سرعان ما خرجتْ لتخبر صديقتنا أنها مهما حاولتْ جهدها، فإنه من الصعب عليها جدًا أن تتنزّه أو ان تجول في مكان مكشوف وهي بملابس السباحة.

بعد أن غادرتْ السيدة «رضوان» البلاد، كانتْ قد اختفَتْ من حياتي. كان غيابها كاملاً، تمامًا مثلما كان حضورها مكثفًا ودائمًا. لم تكن تتصل بي أو تكاتبني حتى في زياراتها العابرة لإيران. كنتُ أعرف أخبارها عن طريق سكرتيرة قسم اللغة الإنكليزية. فعلمتُ أنها كانت قد طلبتْ تمديدًا لمرتين لتتمكن من إنهاء أطروحتها. ومرّ وقتٌ كنتُ إذ أسير في الممرات أو أمر أمام مكتبها بالصدفة، أتذكر أيامها وأحسّ بغيابها الذي انطوى على الأسى والارتياح في آنٍ واحد.

بعد وصولي إلى أميركا بأشهر قلائل، علمتُ أنها أُصيبتْ بمرض السرطان. فاتصلتُ بها ولم أجدْها في البيت. فعادتْ واتصلتْ بي بنفسها. كانت كلماتها مفعمةً بالعبارات الترحيبية الحميمة المعتادة في طهران. راحتْ تسألني عن عملي وعن أخبار بعض المعارف المشتركين بيننا من طالباتنا. ولأول مرة، أطلقت العنان للبوح وبدأت تتحدّثُ عن نفسها. قالتْ بأنها لم تعد تستطيع الكتابة، مما سبّب لها الكثير من المعاناة والألم، وقالتْ بأنها صارت تحسّ دائمًا بالوهن والإرهاق، فكانت تعينها ابنتها الكبرى. وقالتْ بأنها لا تزال رغم كل شيء، تحتفظ بالكثير من الأحلام وما زالتْ مفعمة بالأمل. كان الصدق في نبرتها أهم بكثير مما باحتْ به، مما خلق جوًا من الثقة إزاء كل ما قالته عن

ضعفها وعدم قدرتها على الكتابة واعتمادها على ابنتها. كانت متفائلة بالعلاج الأخير الذي خضعت له، على الرغم من أن المرض كان منتشرًا في جسدها الى حدٍ بعيد. سألتْني عن عملي، فلم أقلْ لها بأنني بخير وبصحة جيدة، أو بأنني كنت بصدد تأليف كتاب جديد، وبأنني على العموم، كنت مستمتعة بحياتي.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أتحدّث بها معها، فبُعيد مدة قليلة جدًا حال المرض دون حديثها بالهاتف. لكنها صارت تشغل بالي طوال الوقت تقريبًا، كنتُ أحسّ بأن من الظلم أن يخطفها المرض وهي على أعتاب خطوة من تحقيق طموحها. لم أشأ أن أكلمها بعد ذلك، لم أكن أريد أن أذكرها أنني كنت أنا المحظوظة مرة أُخرى، وأنني مُنحتُ المزيد من الوقت للبقاء على الأرض، ذلك الوقت الذي كانت هي بأمسّ الحاجة اليه، فاغتُصب منها عنوة.

رحلتْ السيدة «رضوان» عن هذا العالم بعد مكالمتنا الأخيرة بوقت قليل. وراحت اقتحاماتها تتخذُ شكلاً آخر. وصرتُ بين الحين والحين، أستعيد ملامحها وأعيد تشكيلها في الذاكرة، وأحاول أن أتوغّل أكثر في المشاعر والعواطف التي لم تكن تصرّح بها إحدانا للأخرى. ولم تكن تكفّ تعاودني على ضوء الشمعة المتراقص في لقائنا الأول، بنظراتها الساخرة ذات اليمين وذات الشمال، تمرّ بي وتمضي، لتتركني أسيرة هواجسي وأسفي.

[11]

في ربيع ١٩٩٦، وفي شهر آذار/ مارس منه على وجه الدقة، بدأتُ ألاحظ بعض التغيرات التي طرأتْ على «نسرين». وحدث ذات يوم أن تحضر «نسرين» من دون أن ترتدي جلبابها وإيشاربها المعتادين. كانت «ياسي» و«مهشيد» قد اعتادتا ارتداء إيشاربات مختلفة الألوان، وكانتا تخلعانها ما أن تدخلا بيتي. أما «نسرين» فقد كانت ترتدي غالبًا جلبابًا وتضع إيشاربًا من لونه الذي كان لا يتعدى أن يتغيّر من الأزرق إلى البني الغامق أو الأسود.

في ذلك اليوم وصلتْ «نسرين» متأخرة عن موعدها المعتاد، وخلعتْ معطفها بعفوية، ليتكشّف قميص أزرق فاتح وسترة زرقاء غامقة وبنطلون جينز. بدا شعرها الأسود طويلاً منسابًا، وقد لمّته إلى الخلف على شكل ظفيرة واحدة تتحرك من جانب لآخر مع كل التفاتة. تبادلتْ «مانا» النظرات مع «ياسي»، وقالت لها «آذين» بأنها تبدو جميلة وكأنها قد غيّرتْ تسريحة شعرها. ثم قالت «ياسي» بنبرتها الساخرة: «أنت تبدين.. تبدين في غاية الجرأة!». عند نهاية الدرس، بدتْ لي «نسرين» في غاية الفطرية في زيّها الجديد، حتى صار من الصعب عليّ جدًا أن أستعيد ذاكرتي عن تلك الـ«نسرين» السابقة.

حينما كانت «نسرين» تروح وتجيء بجادورها أو حجابها، كانت مشيتها ملأى بالتحدّي، كانت تمشي مثلما تفعل كل شيء: بغير استقرار، وأيضًا بشيء من التظاهر بالشجاعة. أما الآن وهي من دون الحجاب، فقد صارت

تمشي الهوينا وتنحني قليلاً وكأنها تحاول أن تعتّم على شيء أو تغطّيه. كنا في غمرة نقاش عميق عن نساء «أوستن» حينما اكتشفتُ ما كانت تحاول «نسرين» إخفاءه. لم يكن بوسع أحد أن يرى من خلف الجادور كم كان جسدها مثيرًا حقًا ومليئًا بالتضاريس. كان عليّ أن أضبط نفسي لئلا آمرها بالكف عن رفع يديها، وأعني الكف عن محاولة إخفاء صدرها. فبعد أن رأيتها من دون الجادور، لاحظتُ كم كان ارتداؤه يمنحها ذريعة لاخفاء ما كانت تريد أن تتبرأ من امتلاكها له، لأنها فعلاً وبصدق كبير لم تكن تدري ما تفعله به. كانت لها طريقة خاصة مرتبكة في المشي، وكأنها طفل ما زال يتعلم أن يخطو خطواته الأولى، بل وكأنها برسم السقوط في أية لحظة!

بعد بضعة أسابيع، مكثتْ «نسرين» بعد نهاية الدرس، وطلبتْ مني موعدًا على انفراد. فدعوتها للمجيء إلى البيت، لكنها كانت في غاية الرسمية وسألتْ ما إذا كان بإمكاننا أن نلتقي في المقهى الذي اعتدنا ارتياده أنا وطالباتي. حينما أستعيد اليوم تفاصيل تلك الأيام، أتذكر كم من الأسرار والحكايا الأكثر خصوصية كنا نبوح بها في الأماكن العامة؛ في مكتبي وفي المقاهي العامة وفي سيارات الأجرة وفي جولات المشي في الأزقة الضيقة قرب بيتي.

حين دخلتُ المقهى، كانت «نسرين» قد اختارت الجلوس إلى طاولة خشب عليها زهرية من أقمار القرنفل الشمعية الحمر الدموية. طلبتْ «نسرين»: «آيس كريم» الفانيلا والشوكولاتة، وطلبتُ أنا: «كافيه غلاسيه» (قهوة مثلجة بالكريما). كانت «نسرين» قد رتّبتْ هذا اللقاء لكي تسجّل رسميًا: ظهور حبيب في حياتها.

سألتها: «هل أعرفه؟». غرستْ ملعقتها بعنف في «الآيس كريم»، وقالتْ وهي تتلعثم: «لا.. أعني.. أنك ربما تكونين قد التقيتِ به.. لكنه يعرفك جيدًا.. نحن نعرف بعضنا منذ زمن بعيد.. و».. واصلت حديثها وكأنها بصدد الوصول إلى اعتراف مشين: «.. منذ أكثر من عامين في الواقع». ثم تنهّدت وهي تقول: «لكننا الآن.. معًا.. فيما يشبه العلاقة الحميمة منذ أشهر».

كانتْ قصتها قد فاجأتني، فحاولتُ إخفاء دهشتي بالبحث عن شيء مناسب أقوله لها، لكن ملامحها حالتْ بيني وبين المراوغة. قالتْ لي: «كنت أريد أن أعرّفك عليه منذ مدّة، بيد أني ببساطة لم أدرِ كيف السبيل إلى ذلك. ثم إنني كنتُ خائفة». فقلتُ في محاولة بائسة لافتعال المزاح: «خائفة ممّاذا؟ أهو شخص مخيف؟». فقالتْ وهي ترسم بملعقتها دوائر من الـ«آيس كريم» الذي بدأ يذوب: «لا أبدًا.. لقد كنتُ أخشى ألاّ تحبينه». فقلت: «نسرين!.. لست انا التي يجب عليها أن تحبه!».

شعرت بالأسف من أجلها. لقد وقعتْ في الحب، لا بد من أن تكون تلك هي أحلى أيام حياتها، ولكنها عوضًا عن ذلك، كانت ملأى بالقلق. فكان عليها طبعًا أن تكذب على أبيها، وتتذرع بالمزيد من الوقت لترجمة النصوص الإسلامية! كانت تعيش الكثير من العوالم المختلفة المتوازية مع بعضها البعض في آن واحد: ممّ يسمى العالم الواقعي لأسرتها والعمل والمجتمع، إلى العالم السري لصفنا الخاص وحبيبها الشاب، وانتهاءً بالعالم الافتراضي الذي اختلقتهُ من أكاذيبها. لم أكن لأحدسَ بدقةٍ ما الذي كانت تتوقعه مني. فهل كان عليّ أن أتلبّس دور الأم، فأحدّثها عن الحياة وخفاياها؟ أم كان عليّ أن أظهر المزيد من الفضول، فأسألها أكثر عن تفاصيل الشاب وعن علاقتهما معًا؟ صمتّ قليلاً، وأنا أحاول جهدي أن أبعد عينيّ عن التأثير المنوّم للقرنفل الأحمر، وأحاول التركيز على «نسرين». لم تكفّ عن تحريك ملعقتها دوائر دوائر في رحلة من الآيس كريم، وقالت جملة في غاية الغموض: «لن ألومك أبدًا إذا سخرتِ مني».

فقلتُ باحتجاج: «لن أفعل أي شيء من هذا مطلقًا. ولماذا أسخر منك وأنا سعيدة بك جدًا؟».

فقالتْ وهي تتابع حبل أفكارها، حتى بدتْ وكأنها لم تستمع لما قلت: «إنه لأمرٌ مثيرٌ للشفقة فعلاً، كان لأمي طفلٌ بالغٌ وهي في سني، وأنتِ كنتِ أستاذة

متمرّسة، وها أنني اليوم أتصرّف مثل طفلة في العاشرة، انّ هذا هو فعلاً ما يجب أن نناقشه في الصف».

فقلتُ في محاولة متواضعة لتحسين مزاجها: «تقصدين كونك طفلة في العاشرة؟».

فألقَتْ بملعقتها وقالتْ: «لا، لا.. بل أعني أن نناقش وضعنا نحن، نحن جميعًا: أنا ومن هنّ مثلي من بنات، قرأن لـ«أوستن» و«نابوكوف» وسواهما، وتحدّثنَ عن «دريدا» و«بارثيس» وأحوال العالم، وكيف أننا بعد ذلك كله لا نعرف شيئًا.. أي شيء.. عن العلاقة بين الرجل والمرأة، أو ما الذي يعنيه الخوض في غمار علاقة والخروج مع شاب. لا بد وأن ابنة أختي ذات الاثني عشر عامًا تفهم في هذه الأمور أكثر مني، بل من المحتمل أن تكون قد أقامت علاقات مع أولاد أكثر مني». كانت تتحدّث بعصبية وهي تفتح أصابعها وتغلقها تباعًا.

كانت على حق فيما تقول، وكانت مستعدة للحديث في الأمر مما جعلني أحسّ صوبها بالحنان وبالرغبة في حمايتها. فقلت: «لا أحد منا يمكن أن يكون ضليعًا في هذه الأمور إلى الحد الذي تتخيلين. أتعلمين أنني أحس إزاء كل شخص جديد أتعرف إليه وكأنني أخوض تجربة للمرة الأولى؟ هذه أمور فطرية، وما تحتاجين إليه فعلاً هو أن تدعي هواجسك و«لاءاتك» جانبًا، وأن تعودي بذاكرتك إلى سنوات الطفولة، حينما كنتِ تلعبين بالكرات الصغيرة مع الأولاد الصغار، وأنت لا تفكرين بأي شيء أبعد من اللعب».

لم تجبْ «نسرين». كانت تلعب بوريقات الأزهار الشمعية، وتداعبُ ملمسها اللزج.

قلت: «أتعلمين ما حدث لي مع زوجي الأول؟.. نعم.. لقد كنت متزوجة قبل «بيجان»، كان ذلك قبل أن أتجاوز الثامنة عشرة. أتعلمين لماذا تزوّجني؟ قال بأنه أحب براءتي؛ لأنني لم أكن أعرف ما هي القبلة الفرنسية! لقد ولدتُ

ونشأتُ في أزمنة التحرّر، كبرتُ وترعرعتُ في عائلة متحررة، أرسلني والداي إلى الخارج ولم أكن قد تجاوزتُ الثالثة عشرة. ولكن ها أنذي أمامك: لقد اخترتُ حينئذٍ الزواج من رجل كنتُ أحتقره من الأعماق، رجل كان يبحثُ عن زوجة عذراء عفيفة طاهرة، وعلى هذا الأساس، مع الأسف، اختارني أنا من دون سواي. كان قد عرف الكثيرات قبلي، وحينما تزوجنا، وسافرتُ معه إلى أوكلاهوما حيث كان يدرس، فوجئ بي أصدقاؤه. فقد كان قبل ذلك يعيش مع فتاة أميركية يعرّفها على الجميع على أنها زوجته، كان يتصرّف هكذا حتى آخر مرة عاد فيها لإيران قبل زواجنا.. تخيلي؟ لذا لا أريد منك أن تشعري بالإحباط، فهذه أمور معقدة، ولا أحد منا يستطيع فهمها بسهولة». ثم سألتها بلهفة: «هل أنت سعيدة؟».

تبعَ سؤالي صمتٌ طال بعض الوقت، التقطتُ في خضمّه المزهرية وأزحتها جانبًا لأضعها لصقَ الجدار.

أجابتْ «نسرين»: «لا أدري.. لم يعلّمني أحد ذات يوم ما هي السعادة. لقد علّمونا أن المتعة هي من أكبر الكبائر، وأن الجنس للتناسل فقط، وهلم جرّا إلى آخر هذا الموال. أنا أشعر بالذنب، ولكنني أعلم أنني لا يجب أن أشعر بذلك، على الأقل لا أريد أن أشعر بذلك لمجرد كوني مهتمة برجل، يا إلهي! ..مهتمة برجل! في هذه السن!». كانت تتنهّد وهي تكرّر تلك الكلمات، وواصلتْ: «في الحقيقة أنا لا أعلم ماذا أريد، ولا أدري ما إذا كنت أفعل الشيء الصحيح. كانوا يخبرونني دائمًا ما هو الصح وما هو الخطأ، وها أنني فجأة أجد نفسي لا أعرف شيئًا. بتُّ أعرف ما لا أريده، لكنني لم أعد أعرف ما أريد». أنهتْ حديثها وهي ترنو إلى الآيس كريم الذي لم تتذوّقه.

قلتُ لها: «حسنًا.. ولكنك لن تجدي الجواب عندي». وانحنيتُ وقد تملّكتني رغبة في لمس يدها فيما يشبه المواساة، أو لكي أشدّ من أزرها. بيد أنني لم أفعل، لم أجرؤ على ذلك. فقد بدتْ لي في غاية البعد والانسحاب إلى

الداخل. وقلتُ: «سأكون معك تمامًا لحظة تحسين بأنك بحاجة إليّ، ولكن إذا كنتَ تسأليني النصيحة، فأنا لا أملك أن أسديها لك، سيكون عليك اكتشاف ذلك بنفسك». ثم قلتُ لها بما يشبه التوسّل: «استمتعي.. وعيشي التجربة.. كيف يمكن لأمرئ أن يعشق وينكر على نفسه ولو بعض المتعة؟».

كان اسمه «رامين». كنت قد التقيت به في أكثر من مناسبة، كانت أولها في ندوة عن كتابي حول «نابوكوف». كان يحمل شهادة الماجستير في الفلسفة، ويحاضرُ في الجامعة من دون أن يكون ضمن الملاك التدريسي. وقد التقتْ «نسرين» به في أحد المؤتمرات، إذ كان يقدّم ورقة بحثية، وقد تبادلا الحوار بعد المؤتمر.

كنتُ أتمنى أن أسألها: «هل كان حبًا من النظرة الأولى؟ وكم من الوقت مرّ عليهما قبل أن يصرّحا بحقيقة مشاعرهما؟ وهل تبادلا القُبَل؟». كانت هذه بعض التفاصيل التي وددتُ معرفتها بشدّة، ولكنني لم أسأل عنها طبعًا.

وعندما كنا نهمّ بمغادرة المقهى قالتْ «نسرين» بتردد: «هل تمانعين من مرافقتنا لحضور حفلة موسيقية؟.. سيقدمُ بعضٌ من طلبة «رامين» عرضًا موسيقيًا.. نستطيع أن نجلب بعض البطاقات لك ولعائلتك»..

[12]

لا بد من أن أضع «حفلة موسيقية» بين قوسين، لأن فعاليات ثقافية من هذا النوع لم تكن لتتعدى المحاكاة للعمل الأصلي، ولم تعد تقام إلا في البيوت، فهي إذًا حفلة موسيقية بالاسم فقط. وكانوا آنذاك قد بدأوا منذ وقت قريب يقدّمون بعض العروض في مركز ثقافي أنشأه المجلس البلدي جنوب طهران. وكانت تلك الفعاليات أيضًا مثار جدلٍ واسع، فعلى الرغم من كل الضوابط والمحددات التي كانت تُفرض عليها، كان الكثيرون من داخل الحكومة يعدّونها بؤرًا سيّئة السمعة.

كانت كل الفعاليات خاضعة للرقابة الدقيقة، وكان يؤديها غالبًا هواة أو مبتدئون، مثل تلك الحفلة التي حضرناها تلك الليلة. ولكن المنازل كانت دائمًا مكتظة بالحضور، والتذاكر كانت دائمًا مباعة ونافدة مسبقًا، وكان البرنامج يبتدئ متأخرًا بعض الوقت.. دائمًا.

لم يكن «بيجان» راغبًا بحضور الحفلة. فكان يفضّل الاستماع إلى موسيقى جيدة بارتياح وبحميمية البقاء داخل البيت، عوضًا عن أن يكون مضطرًا للاستماع إلى موسيقى حية يؤديها عازفون متواضعو الموهبة، وأن يقف صفًا طويلاً ويتعرّض لكل الإزعاجات التي ستترتب على ذلك لا مناص. بيد أنه في آخر المطاف، أذعن لرغبة الأطفال وحماستهم بالإضافة إلى رغبتي. فبعد قيام الثورة، أصبحتْ معظم الفعاليات المرتبطة بالخروج من البيت تقام داخل

البيوت فقط: مشاهدة الأفلام، سماع الموسيقى، تناول الغداء أو العشاء أو الشرب.. إلخ. ولذا فقد كان الخروج من البيت حتى لحضور حفلة بائسة كتلك، إنما يشكل أحيانًا نوعًا من التغيير.

التقينا بالحبيبين عند الدخول. بدتْ «نسرين» متوترة، وبدا على «رامين» الخجل. كان طويلاً نحيفًا وفي أوائل الثلاثينات من العمر، وقد أحاطتْ به هالة أبدية تخبرنا بأنه طالب متخرج. كان جذابًا ولكن مثل جاذبية أبطال الروايات. تذكرتُ رؤيتي له، تذكرته وهو متحدّث لبق واثق من نفسه، لكنه بصفته الحالية، وكما قدّمته لي «نسرين» بدا وكأنه قد فقدَ طلاقته ورغبته في الحديث. شكرْته على دعوته، وتقدمنا نحو صفٍ طويل مكتظ بالشباب والشابات بشكل رئيس. أخذتْ «نسرين» تشغل نفسها بالأطفال.

أما أنا وقد وجدتُ نفسي فجأة معقودة اللسان، فقد رحتُ أحاول أن أسأل «رامين» عن محاضراته. وحدهُ «بيجان» بدا غير مكترث بالحرج الذي خلّف تلك اللحظات وبالجو المتوتر حوله، فقد قدم تضحية بأن اضطر إلى مغادرة بيته الحميم في سهرة لعطلة نهاية الاسبوع، ولم يجد نفسه مضطرًا لمجاملة أي أحد فوق ذلك كله.

حين وصلنا إلى داخل القاعة أخيرًا، وجدنا الناس وقد حشروا أنفسهم فوق المقاعد، وافترشوا المماشي والأرضيات، ووقفوا متجمهرين عند جدران القاعة. ولحسن الحظ، كنا نحن من بين ضيوف الشرف، وكان مكاننا المحجوز لنا في الصف الثاني، وعليه فقد حصلنا على أماكننا فعلاً. بدأ البرنامج متأخرًا، ورحّب بنا شاب محترم، ثم راح يهين الجمهور لربع ساعة أو عشرين دقيقة بالتمام والكمال. أخبرنا بأن الإدارة غير معنية بإمتاع الجمهور الذي ينتمي إلى «الطبقة الغنية الإمبريالية»، والذي أفسدته الثقافة الغربية المنحلة. فابتسم الكثير من الناس الذين حضروا تلك الأمسية لسماع موسيقى الـ«جيبسي كينغز» (ملوك الغجر). ثم حذّرنا الشاب المحترم أيضًا من أن أي

شخص سيقوم بتصرّف غير إسلامي، رجلاً كان أو امرأة، فسيُطرد من القاعة فورًا. وواصل حديثه مخاطبًا النساء وأوصاهنّ بالالتزام بالقواعد الصحيحة والتعليمات التي تخص ارتداء الحجاب.

من الصعب فعلاً استعادة صورة دقيقة لما حدث في تلك الأمسية. كانت الفرقة عبارة عن أربعة من الشباب الإيرانيين، وكلهم من الهواة، كانوا يمتعوننا بأدائهم بعضًا من موسيقى «الجيبسي كينغز»، ولكن المشكلة فقط أنهم كانوا ممنوعين من الغناء، كان مسموحًا لهم فقط العزف على آلاتهم. ولم يكن مسموحًا لهم أن يُظهروا أي انفعال أو حماسة إزاء ما كانوا يعزفون، فإظهار العواطف يعتبر تصرّفًا غير إسلامي.

خطر ببالي وأنا جالسة وسط ذلك الحشد المكتظ من البشر، بأن الطريقة الوحيدة التي ستجعل من تلك الليلة أمسية ممتعة هي بأن أتظاهر أمام نفسي بأنني مراقبة محض، لا تنتمي إلى هذا المكان، وبأنني لم أحضر الحفلة من أجل التسلية، بل من أجل كتابة تقرير عن سهرة خارج البيت في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

لكن، بالرغم من كل القيود ومستوى الأداء، لا يمكن لأولئك العازفين الشباب أن يجدوا في العالم كله جمهورًا متفاعلاً مثل ذلك الجمهور. لقد كان بحق جمهورًا متسامحًا، متقبلاً للهفوات، ممتنًا لسماع تلك الموسيقى. وكنا بين الحين والحين، نرى بعض الجمهور وهم يحاولون التصفيق أو التمايل، وكان معظمهم من الشباب وليس من الأغنياء بالضرورة، فينبري رجلان مهندمان من كلا جانبي المسرح، ليشيرا إلى هؤلاء بالكف عن التصفيق أو الدندنة أو التمايل. وحتى حينما كنا نحاول الاصغاء أو تناسي تلك البهلوانيات، كان هذان الرجلان يصرّان على فرض وجودهما في مرمى النظر. فكانا حاضرين دائمًا، جاهزين في أية لحظة للمباغتة والاعتراض. ولقد كنا دائمًا على خطأ.. ودائمًا مذنبين.

كان يبدو على العازفين الوقار والهيبة. فطالما انه لم يكن بإمكانهم العزف من دون أي تعبير على الوجه مهما كان، فقد تلبّست الكآبة وجوههم. كان قائد الفرقة هو عازف الغيتار، وقد بدا عليه وكأنه غاضب من الجمهور. فقد عبس بوجوهنا محاولاً منع جسده من الحركة، وطبعًا كانت تلك مهمة شاقة طالما أنه كان يعزف الـ«جيسي كنغز».

اقترح «بيجان» أن نغادر القاعة قبل نهاية الحفل، فامتثلنا لمقترحه. قال لنا: «دعونا نفرّ مبكرًا قبل أن يسحقنا جمهور الغوغاء، إذ طالما أنه لم يكن باستطاعته إظهار عواطفه أثناء العرض، فقد يلجأ إلى الأخذ بالثأر من بعضه بعضًا بعد انتهاء العرض!». فغادرنا القاعة ووقفنا بضع دقائق عند المدخل.

استطاع الحدث تحريك «بيجان» وكسر حاجز صمته المعتاد، فقال: «أشعر بالأسف لهؤلاء الشباب، فهم ليسوا بلا موهبة تمامًا، ولكنهم لن يجدوا من يقيّم موسيقاهم على أساس قيمتها الفنية. فالنظام يتقدهم وينعتهم بالغربنة والانحلال، والجمهور يغدق عليهم المديح الخالي من النقد البناء، ليس لأنهم مبدعون من الطراز الأول، وإنما لأنهم يمنحون الجمهور فرصة لسماع ما هو ممنوع». ثم أضاف وهو يوجّه حديثه لنا جميعًا: «فمتى وكيف إذًا سيتعلمون العزف الجيد؟».

فأضفت وقد أحسستُ بحتمية ملء فراغ الصمت الذي تلا كلام «بيجان»: «فعلاً.. فلم يعد ثمة مَن يُقيِّم على أساس جدارته أو تميّزه.. صرنا نرى أناسًا لا يملكون أدنى موهبة في الموسيقى وهم يصولون ويجولون في كل مكان ويطلقون على أنفسهم اسم موسيقيين». كانت «نسرين» متجهمة، وكان «رامين» مغتبًا وقد ملأه الخجل. دهشتُ تمامًا لذلك التغيير الكامل الذي أصابه، وقررتُ ألاّ أزيد من إحراجه بإرغامه على الكلام.

فجأة استعادتْ «نسرين» حيويتها وقالت بانفعال: «لم يكن «نابوكوف» ليعير اهتمامًا لكل ذلك، أما نحن.. فانظروا إلينا.. نحن نثير الشفقة إذ نلهث وراء

أمسية كهذه طلبًا للاستمتاع». كانت تلوّح بيديها وتتحدّث بنبرةٍ لاهثة رغبة منها لإخفاء حرجها خلف وابلٍ من الكلمات المتوترة، وواصلتْ: «لو كان «نابوكوف» معنا الآن لكان قد حصل على يوم حافل بالتجربة.. ولكان حدّثنا بإسهابٍ عن الـ«بوشلاست»!».

فسألتْ «نيغار»: «ماذا؟!». لم تكن مستمتعة جدًا بالموسيقى بقدر استمتاعها بسهرة خارج البيت.

فأجابتْ «نسرين» مكررة: «بوشلاست!». وعلى غير عادتها، تركت الموضوع عند هذا الحد، ولم تضفْ كلمة للتوضيح.

[13]

كنتُ أتذمر وأدمدم بيني وبين نفسي وأنا أضع صحون العشاء على المائدة بلا تركيز. فالتفتَ إليّ «بيجان» وسألتني: «ما بك تدمدمين؟». فأجبتهُ بحدة لا موجب لها: «لن يهمك الأمر في شيء!». فقال: «جرّبيني!» قلت: «حسنًا.. كنت أفكر بسن اليأس». فالتفتَ ليتابع الـ«بي بي سي» من جديد، وقال: «معك حق.. لن يهمني الأمر في شيء». تساءلت في نفسي: «ولماذا عليه ألا يهتم لهذا الأمر؟ ألن يرغب بمعرفة ما حدث لوالدته ذات يوم؟ وما سيحدث لزوجته؟ ولأخواته وابنته؟». واستطردتُ بكآبة: «وماذا لو أنه مرّ بنزوة عاطفية؟ ألن يرغب بمعرفة ما سيحدث لعشيقته؟». كنتُ أعلم أنني لم أكن منصفة في تعاملي معه في تلك الأيام. فهو لم يكن غير متأثر بكل الضغوط التي تواجهنا كل يوم في الجمهورية الإسلامية، بيد أنه صار في موقف الدفاع في تلك الأيام كلما وجدني أشكو أو أتذمّر. فقد كنت أحتجّ دائمًا وكأنه هو المسؤول عن جملة الضغوط والويلات التي يصبّها علينا النظام، مما حدا به إلى الانسحاب إلى نفسه والانعزال. فراح يتصرف متظاهرًا بعدم المبالاة بأمور هو في الواقع مهتم بها جدًا.

انتهى اجتماعنا الأخير في الصف الخاص بملاحظة غريبة. فقد كنا نناقش موضوع أمهات بناتي: تجاربهنّ والمحن التي مرزنَ بها وحقيقة أنهنّ لا يعرفنَ أي شيء عن سن اليأس. كان النقاش قد ابتدأ بـ«مانا»، وكانت قد شاهدتْ قبل ليلة هي و«نيما» على إحدى القنوات الفضائية فيلم «المصممة» لـ«فينسنت

مينيللي» للمرة الثالثة. وتركتْ مشاهدة الفيلم أثرًا محزنًا في قلب «مانا»، التي أحسّت فجأةً بأنها لم تعشْ ولو تجربة حب خيالية واحدة على الطريقة الإيرانية. الحب هو الحب في كل مكان، لكن ثمة أساليب مختلفة للتعبير عنه. حينما قرأتْ «مانا» رواية «مدام بوفاري»، وشاهدتْ فيلم «كازابلانكا»، كانت تستطيع أن تتخيل النسيج الحسي للعمل، فكان بإمكانها أن تسمع وتلمس وتتشمّم وترى. بيد أنها لم تكن قد استمعتْ لأغنية أو قرأتْ رواية أو شاهدتْ فيلمًا يجعلها تحسّ بأن تلك قد تكون تجربتها هي. فحتى في الأفلام الإيرانية، حينما نشاهد اثنين من المفترض أنهما عاشقان، لم نكن لنحسّ بالعشق فعلاً في نظراتهما أو إيماءاتهما. فالحب ممنوع ومنفي من مجمل الجو العام هنا، فكيف لنا أن نتخيله ما دام مجرد التعبير عنه أمرًا غير مشروع؟

قادني ذلك النقاش إلى إضاءات وإلى رؤى كانت خافية. فاكتشفتُ أن كل بناتي تقريبًا يميّزن بين ما يسمينه الحب الروحي والنظري على أنه: «خير»، وبين الجنس على أنه: «شر». وقد اتضح بأن الأهم بالنسبة لهنّ هو اتساع مدى السمو والرفعة في الانسجام الروحي الذي ينمو بين عاشقَين. وحتى «ميترا» فقد لوحتْ بغمازتيها وعززتْ تلك الفكرة بقولها إن الجنس ليس مهمًا في العلاقة بين الرجل والمرأة، وبأن الإشباع الجنسي لم يكن يعني لها شيئًا. ولكنني أحسستُ بالضربة القاضية تأتيني من «آذين». فقد صرّحتْ بغنج بأن أهم ما في الحياة هو ذلك التوحّد الصوفي الذي يحسه الإنسان صوب الكون. كانت نبرتها المغناج توحي بعودتها إلى وضعها الطبيعي، فقد كانت تمرّ بما يشبه الهدنة مع زوجها. ثم أضافتْ لتعمّق فلسفتها في الأمر، أن الرجال ليسوا أكثر من أوعية لذلك الحب الصوفي الروحي.

_ «أوعية؟!».

ومن هنا، ذهبتْ أدراج الرياح كل ادعاءاتها بالاستمتاع الجنسي والتوافق الجسدي، وحتى «مهشيد» التي تبادلتْ النظرات السريعة مع «مانا»، بدتْ في غاية الاندهاش.

وقالتْ «نسرين» التي كانت قد التزمتْ الصمت حتى هذه اللحظة: «وإذًا؟ حينما يضربكِ زوجكِ يمكنك أن تتظاهري بأن ذلك كله لا يحدث لك إلاّ في الخيال طالما أنه مجرد وعاء تعبئين به خيالاتك؟.. أنا لا اوجّه حديثي لـ«آذين» فقط.. فأنتنّ جميعًا متفقات على الشيء نفسه بطريقة أو بأُخرى».

فسألت «ميترا» «مانا»: «وماذا عنكما أنت و«نيما»؟ يبدو أن علاقتكما أكثر اتزانًا من كل هذا؟».

أجابت «مانا» بهزة من كتفها: «تجمعني به المحبة، لأنني لا أجد في هذا العالم من أستطيع الحديث معه كما أفعل مع «نيما»».

فعلّقتْ «ياسي»: «مسكين «نيما»».

كانت «مانا» في مزاج هجومي في ذلك اليوم، فقالتْ: «انه ليس مسكينًا، فهو الآخر ليس لديه من يُكلمه، فالألم والمعاناة يحبان الرفقة، ويمكن أن يكون لذلك طاقة أقوى وأكثر تأثيرًا من الحب بين اثنين».

فقالت «ياسي» وهي تغوص بعمق في الأريكة: «أنتنّ جميعًا تخذلنني. كنت أتمنى عليكنّ أن تحدثنني عن التجاذب الجسدي وعن أهميته، وكيف ان الحب ليس روحًا وفكرة فقط. كنت آمل بأن تخبرنني بأنني سوف أتعلم عشق الجسد، وأرى كيف أنني كنت على خطأ بأفكاري النظرية، أنا مصدومة بكنّ تمامًا.. أنا منذهلة!». ثم أضافت بابتسامة المنتصر وهي تعلك عبارتها: «إنني مصدومة.. منذهلة.. عاجزة عن التفكير!».

ـ «آخ..!».

صرختُ، فرفع «بيجان» عينيه عن الشاشة وقال: «ما المشكلة؟». فقلتُ: «لا شيء.. جرحتُ إصبعي فقط». كنت أعدّ شرائح الخيار الذي يقدّم مع كباب الدجاج الذي يتقن إعداده «بيجان»، فجرحتُ إصبعي. ذهب «بيجان» إلى الحمام وأتاني بضماد طبي وضعه برفق على إصبعي. لم يقل كلمة، كان يبتسم ابتسامة ودودة وهو يفتح الخزانة ويصبّ بعضًا من الفودكا البيتية في قدح صغير.

أخذ القدح ووضعه على الطاولة الجانبية قرب صحن الفستق، واستقر في مكانه ليعاود متابعة «البي بي سي». بقيتُ أغدو وأعود من وإلى المطبخ وأنا أدمدم مع نفسي: لا عجب أن يكون مستمتعًا بحياته، هذا ما كان سيفعله لو أننا عشنا في الولايات المتحدة. كنتُ أشتكي لمستمع مجهول وأنا أدمدم بأن وطأة الأمور أثقل وأصعب عليّ أنا، أنا التي يُسخر منَ تذمرها وتُساءل دائمًا على شكواها. ورحتُ أكرر: «انها وطأة أثقل عليّ فعلاً»، وأنا أتجاهل إحساسي بالذنب إزاء تحمّل «بيجان» كل الضغوط والمصاعب من دون شكوى تُذكر، وإحساسي بأن عليّ ألا أستكثر عليه حقه بشيء من الفودكا والبي بي سي».

بعد الانتهاء من تقطيع الخيار والخضرة، وإضافتهما إلى اللبن الرائب، توصّلت إلى استنتاج: إن مجتمعنا يتجنّب الجنس بسبب انهماكه الشديد به، فكان عليه أن يقمعه بعنف وحزم مثلما يقمع الرجل العاجز زوجته الجميلة ويغلق عليها بالقفل والمفتاح. نحن نفرّق دائمًا ما بين الجنس، وبين المشاعر والحب النظري، فنعزل الاثنين عزلاً تامًا. وكما قال عم «نسرين»: «إما أن تكوني طاهرة عفيفة، وإما أن تكوني قذرة لعوب». وما كان يبدو لنا في غاية الغرابة كانت الشهوة الجنسية، والحسّية الحقيقية. فهاتيك البنات، بناتي، يعرفنَ الكثير عن «جين أوستن»، وبإمكانهنّ الخوض في أي نقاش عن «جويس» أو «وولف» بمنتهى الموضوعية والعمق. بيد أنهنّ يكدنَ ألا يعرفنَ شيئًا عن أجسادهنّ، وعمٍّ يمكن توقعه من أجسادهنّ، تلك الأجساد التي قيل لهنّ بأنها ينابيع الإغراء.

فكيف لي أن أقول لامرأةٍ بأن عليها أن تحبّ نفسها وجسدها قبل أن تفكر بأن تحبّ رجلاً أو أن تُحَب؟ ما أن وضعتُ الملح والفلفل على الطبق الذي أعدّ حتى توصّلتُ إلى جواب على ذلك التساؤل. وبدأت الدرس التالي وأنا مسلحة بنسخة من كتاب «الكبرياء والتحيّز» بيَد، وبنسخة من «أجسادنا هي نحن» باليد الأُخرى، وهو الكتاب الوحيد الذي وجدته متاحًا أمامي عن الجنس.

[14]

لم تكن «شارلوت برونتي» تحب «جين أوستن»، وقد انتقدتها في رسالة لأحد الأصدقاء تقول: «إن ما لا تعرفه «جين أوستن» فعلاً هو العاطفة الحقيقية، وحتى تلك المشاعر التي تُظهرها ليست سوى جمالٍ عابر غير محسوس، ومهما أمعنا القراءة أكثر لن نجد سوى قرقعة فارغة لمسيرة أدبية أنيقة!».

إن معرفتنا بـ«شارلوت برونتي» وبطبيعة ميولها تجعلنا نتفهم كيف يمكن لروائية من الطراز الأول ألاّ تحبب أُخرى مثلها على ذلك النحو الذي حدث لـ«برونتي» مع «أوستن». لقد بدت الأولى عنيفة وملفتة للنظر في نبذها للأخيرة. وفي عام ١٩٤٨ كتبتْ إلى «جـ. هـ لويس» تقول: «لا أدري لماذا تحب الآنسة «أوستن» إلى هذا الحد؟ إنه لأمرٌ يحيّرني فعلاً.. فأنا لم أكن قد رأيت «الكبرياء والتحيّز» حتى قرأت جملتك تلك. فجئتُ بالكتاب، ولكن يا إلهي! ماذا تراني قد وجدت؟ صورة فوتوغرافية تقليدية دقيقة لوجه بمنتهى العادية، وأخرى لحديقة مشذّبة ومسوّرة بعناية فائقة، تحيط بها أحواض مرتّبة وأوراد رقيقة، ولكن.. ابدًا.. من دون أدنى التماعة لملامح نابضة وضّاءة، من دون فضاء مفتوح أو هواء طلق، أو تلٍ أزرق او مركب جميل. أظن بأنه لن يمكنني بحال أن أحيا مع سيداتها وَسادتها الأفاضل في بيوتهم الأنيقة الخانقة».

قد يكون في ذلك شيء من الصحة، ولكن مع هذا فإن اتهام «برونتي» ليس

عادلاً تمامًا. فليس بوسعنا أن نقول بأن روايات «أوستن» تفتقر إلى العاطفة. قد يعوزها ذلك الانفعال المغالي في الحسية، أو ذلك الميل الفطري لرومانسية أكثر حرية وانغماسًا في اللذة كتلك التي نجدها لدى «جين آير» أو«روشستر». فهنا نجد أن العواطف تميل لأن تكون حسية صامتة مدفوعة برغبات فطرية جامحة.

أرجو أن ننتقل إلى الصفحة ١٤٨، ونحاول معًا أن نتخيّل المشهد ونحن نقرأ القطعة؛ في هذا المشهد نحن في بيت السيد «كولينز»، إذ نجد أن «دارسي» و«إليزابيث» بمفردهما هناك. كان «دارسي» قد بدأ يدرك شيئًا فشيئًا أنه لا يستطيع العيش من دون «إليزابيث»، كانا يتحدثان عمَّ تعنيه المسافة ما بين بيت المرأة المتزوجة وبين بيت أهلها.

> اقترب السيد «دارسي» بكرسيه نحوها قليلاً، وقال: «*أنت* لا يمكن أن يكون لك الحق بمثل هذا الارتباط القوي الشديد بالمكان، *فأنت* لا يمكن أن تكوني قد عشتِ طوال حياتك في «لونغبورن»».
>
> ردتْ «إليزابيث» مندهشة. فأحسّ الرجل وكأن تغييرًا ما قد أصاب مشاعره، فأعاد كرسيه إلى مكانه، والتقط جريدة من على الطاولة، وراح ينظر إليها من فوق الصفحات، وقال بنبرة أقل حماسة:
>
> ـ «هل *أنت* سعيدة في «كنت»؟».

دعونا نتأمل معًا هذا المشهد آنف الذكر؛ إن الإصرار الذي نلمسه في نبرة «دارسي» يشكّل دلالة واضحة على شغفه بـ«إليزابيث»، فقد كان يظهر جليًا في أكثر التفاعلات أرضيةً بينهما، بل إننا نستطيع أن نتتبّع تطوّر مشاعر «دارسي» صوب «إليزابيث» عبر متابعتنا لنبرة صوته. فنجد نبرة الصوت وقد بلغتْ ذروتها حينما يطلب يدها للزواج. فيصبح إصراره السلبي أقرب ما يكون إلى العنيف وهو يبدأ حديثه بالقول: «عبثًا أكافحُ.. فمهما كافحتُ ستذهب جهودي

أدراج الرياح»، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن الرواية برمتها مقيّدة مكبّلة، وأكثر الشخصيات المكبلة بالقيود فيها هي شخصية «دارسي».

دعونا نصغي بدقة إلى تلك الـ«أنتِ» التي استعملها «دارسي». فـ«دارسي» يكاد ألا يخاطب «إليزابيث» باسمها إلا نادرًا جدًا، بيد أنه يمتلك أسلوبه الخاص في قول «أنتِ» مرة بعد أُخرى، حتى ليصبح ذلك الضمير غير الشخصي وكأنه مصطلح في غاية الحميمية. على المرء أن يقدّر تلك الفروقات الدقيقة حقّ قدرها خصوصًا في ثقافة كثقافتنا، إذ يشجعوننا على إظهار مشاعر حبنا للإمام بأقصى أشكال التعبير مغالاة، بينما يحرّمون علينا أن نظهر أي تعبير علني عن مشاعرنا الشخصية، وأعني الحب بشكل خاص.

من النادر جدًا أن نجد وصفًا دقيقًا لشخصية ما أو لمشهد من «الكبرياء والتحيّز»، ومع ذلك فنحن نحسّ بأننا رأينا كل تلك الشخوص وعشنا عوالمهم الحميمة، ونحس بأننا نعرفهم تمام المعرفة، وأننا جزء من محيطهم وأجوائهم. نستطيع أن نرى ردة فعل «إليزابيث» إزاء إنكار «دارسي» لجمالها. وأن نرى السيدة «بينيت» وهي تثرثر إلى مائدة العشاء. ونرى «إليزابيث» و«دارسي» وهما يغدوان ويعودان مشيًا في ظلال مزرعة «بمبرلي». لكن من المدهش حقًّا هو أننا لا ندرك ذلك كله إلا عبر نبرة الصوت، وأعني النبرات المتباينة المتنوعة من الأصوات، وعبر الكلمات التي تصبحُ متغطرسة ومشاكسة، ثم لطيفة أو قاسية، متملّقة أو مبطّنة أو غير مبالية أو فارغة أو.. إلخ.

إن حاسّة اللمس التي تفتقرُ إليها روايات «أوستن» تمّتْ الاستعاضة عنها بالتوتر، وبذلك النسيج الحسّي من الأصوات والصمت. فهي، أي «أوستن» تنجح في خلق إحساس من الاشتياق بحرصها على إبقاء مسافة بين الشخصيات الراغبة بعضها ببعض. فنرى «إليزابيث» و«دارسي» قريبين في الكثير من المشاهد، بيد أن الأماكن العامة في تلك المشاهد تحول دون أي تواصل خاص بينهما. وتنجح في خلق توتّر وإحباط عظيمين بأن تضع البطلين

معًا في غرفة واحدة وتجعل كلاً منهما بعيدًا عن منال الآخر. ويتعمّق التوتّر حينما يتوقع الجميع أن يقع «جين» و«بينغلي» في الحب، بينما يكون العكس تمامًا هو المتوقَّع بين «إليزابيث» و«دارسي».

لنأخذ مثلاً مشهد الحفلة في بيت «إليزابيث» ونحن نشارف على نهاية الرواية، ونرى كيف تستميتُ الأخيرة من أجل أن تحظى بـ«دارسي» على انفراد. فنحسّ بأن الحدث برمته يجري في جو من اللهفة والتوق الشديدين. تقفُ «إليزابيث» بجوار أختها تساعدها في صبّ الشاي والقهوة وهي تقول في نفسها: «إذا لم يأتِ إليّ الآن، فلسوف أنسى وجوده إلى الأبد!». ولكنه يتقدّم نحوها فعلاً، يقترب، فتسبقه إليها إحدى البنات، لتحتضنها وهي تهمس: «لن أسمح لأي رجل بأن يفرّقنا، أنا مصرّة، نحن لا نريد أي أحدٍ منهم، أليس كذلك؟». فينسحبُ «دارسي» ويجبرها أن تلحقَ به بعينيها فقط. تحسّ بأنها «تحسدُ كل من يتحدث معه، لم تعد تجد في نفسها ذرة صبر أو احتمال لتتمكن من تقديم القهوة لأي أحد، ثم يتملّكها الغضب من نفسها لأنها تتصرف بحماقة». وتستمرّ اللعبة طوال تلك الأمسية، يقترب «دارسي» من طاولتها مرة أُخرى، ليعيد فنجان قهوته إلى مكانه، فيتباطأ قليلاً ليتبادلا بعض العبارات المازحة، ثم يكون مضطرًا للابتعاد من جديد.

تحرص «أوستن» على أن تجعلنا ندرك أهم الخواص التي تكتنف أي علاقة وأكثرها شدًا للقارئ. وأعني بذلك: اللهفة والتوق الشديدين لذلك الشخص الذي يحفز الرغبة، فنراه في غاية القرب وفي غاية البعد في آن. إنه ذلك الشوق الجامح الذي سيكلَّل بالرضا، وتلك الإثارة التي ستنتهي بالتوحّد والسعادة. أما المشاهد الواقعية لممارسة الحب فهي غير موجودة في روايات «أوستن»، بيد أن حكاياتها تأتي مثل سلسلة طويلة ومعقّدة من الشدّ والاستلطاف والتودّد. وأنه لمن الواضح بأن اهتمامها بالسعادة يفوق اهتمامها بمؤسسة الزواج، ويأتي الحب والتفاهم ليكونا أعلى منزلة عندها من فكرة الاقتران. يبدو لنا ذلك جليًا

في كل الزيجات غير المتكافئة أو غير المتوائمة في رواياتها، مثل زواج «السير توماس» من «الليدي بيرترام»، والسيد والسيدة «بينيت»، و«ميري» و«تشارلز مزكروف». فمثل حكايا شهرزاد، بوسع المرء أن يجد تباينًا لا نهاية له من الزيجات الناجحة والفاشلة، ومن الرجال والنساء الجيدين والسيئين.

إن ما تزعمه «برونتي» عن الحدود الضيقة لروايات «أوستن» لا يمكن اعتباره صحيحًا بشكل كامل. لأن نساء «أوستن» يشكّلنَ تهديدًا دائمًا لتلك الحدود. انهنّ يشعرن بالأمان أكثر في المحيط الشخصي الخاص بدل المحيط العام المعلن، وأعني بالخاص ذلك الحيّز الذي يتحرك فيه القلب والعلاقات الفردية الملتبسة. ولقد حظيَت البطلة في روايات القرن التاسع عشر بمكانة مميّزة، وقد جعلت تلك الروايات من سعادة البطلة ومعاناتها وحقوقها حجر الزاوية في الحكاية. ولذا فقد كانت مسألة الزواج هي الثيمة الأهم في تلك الروايات. فإذا استعرضنا «كلاريسا» اليائسة عند «ريتشاردسن»، و«صوفيا» الخجول عند «فيلدينغ»، وأخيرًا «إليزابيث بينيت» عند «أوستن»، سنجد أن النساء هنّ المحرّك الأول الذي تتصاعد عبره الحبكة بكل ما يخلقنه من تعقيدات وتوترات. فهنّ يجعلنَ القارئ يركّز جلّ اهتمامه على ما تحاول «أوستن» الرهان عليه: فهي لا تراهن على الزواج بقدر رهانها على الحب والانسجام داخل مؤسسة الزواج، وهي لا تعطي الأولوية للأعراف والتقاليد بقدر اهتمامها بالتمرّد على تلك التقاليد. إن هاتيك النسوة الأنيقات الجميلات هنّ في الواقع ثائرات، يعرفنَ قول «لا» للخيارات التي تطرحها أمهات حمقاوات ويقرّرها آباء متخبّطون (لاحظوا أننا نادرًا ما نجد عند «أوستن» آباءً حكماء!). ويجب ألا ننسى تمرّد نساء «أوستن» على المجتمع الأرثوذكسي المحافظ الصارم، فهن يخاطرن بحياتهنّ ويعرّضن أنفسهنّ للنبذ والمقاطعة والفقر والفاقة ليكسبنَ في المقابل الحبّ والرفقة والألفة، لكي يحققنَ أخيرًا تلك الغاية الملتبسة التي تتربعُ في جوهر الديمقراطية، وأعني بها: حق الاختيار.

[15]

دعونا نتخيّل معًا ليلة صيف، إذ نحن مدعوون إلى حفلة، نجلس خارج البيت في حديقة عابقة تطلّ على بركة سباحة. وقد أعدّ لنا مضيفنا اللذّواقة موائد صغيرة عليها شموع رقيقة. وفي إحدى الزوايا عند الحائط، وضع سجادة فارسية تناثرت فوقها وسائد ملوّنة. افترش بعضنا السجادة متكئًا على الوسائد، وكان النبيذ والفودكا مصنوعين بيتيًا ولكن ألوان الشراب لم تكن لتدلّ على ذلك. كانت الضحكات والأحاديث الجانبية تتصاعد من بين الموائد، وكانت الصحبة رائعة، مثلما يمكن أن تكون في أي مكان في العالم: جو من المثقفين الظرفاء المتنورين الممتلئين بالحكايا. كنتُ من الذين افترشوا السجادة متكئين على الجدار مع بعض المدعوين، نلعب بأقداح النبيذ ونستمع إلى مضيفنا وهو يعيد علينا سرد حادثة الحافلة. كانت القصة لا تزال طازجة خارجة لتوّها من الفرن، كان معظمنا قد سمع بعض تفاصيلها العابرة من هنا وهناك في اليومين السابقين. وعلى الرغم من اعتيادنا على تصديق كل ما لا يمكن تصديقه إلا أنها بدتْ لنا حكاية عجيبة لايصدّقها عقل. لكن مضيفنا كان شخصًا موثوقًا جدًا، ناهيك عن أنه كان قد سمع الحكاية من فم المصدر، أو على الأقل من فم أحد المتورطين في الأمر.

تقول الرواية بأن المسؤولين في اتحاد الأدباء والكتّاب كانوا قد استلموا دعوة للمشاركة في مؤتمر في أرمينيا قبل حوالى شهرين من ذلك اليوم. وقد وصلت

الدعوة إلى أعضاء الاتحاد كافة. في بداية الأمر، استلم بعض الأعضاء مكالمات هاتفية من جهاز الاستخبارات تضمّنتْ تهديدات أو تعليمات تحذّرهم من مغبة المشاركة في المؤتمر. وبعد مدة، تراءى بأن موقف النظام قد بدأ يلين، حتى أنه صار يشجّع على قيام الرحلة. وأخيرًا وافق ما يزيد على عشرين كاتبًا على تلبية الدعوة. وقرّروا استئجار حافلة تقلّهم إلى هناك. اختلفت الروايات حول هذه الحيثية الصغيرة: فالبعض يزعم بأنه كان يشك من البداية بأن أمرًا مريبًا كان يُدبّر في الخفاء، والبعض الآخر كان يتهم سواء بالتواطؤ في المؤامرة. بيد أن ما اتفق الجميع عليه هو أن واحدًا وعشرين أديبًا وكاتبًا كان قد حضر ذلك الصباح عند موقف الحافلات. وقد استغرب بعض الحاضرين قليلاً من تأخّر الحافلة وتغيير السائق، ولاحظ البعض الآخر غياب بعض الزملاء بعد قرار مفاجئ بالعدول عن السفر صباحًا في اللحظة الأخيرة.

ابتدأت الرحلة أخيرًا. مضى كل شيء بهدوء وعلى أحسن ما يرام حتى ما بعد منتصف الليل، أو حتى الساعة الثانية فجرًا بحسب بعض الروايات، أي حينما كان كل الركاب يغطّون في نوم عميق، كلهم ما خلا شخص واحد فقط كان قد استبدّ به الأرق. لاحظ الأخير بأن الحافلة قد توقفتْ فجأة، وبأن السائق قد اختفى. وما أن ألقى نظرة من الشباك حتى اكتشف بأن الحافلة متوقفة عند حافة جبل وعلى شفا هاوية عميقة شديدة الانحدار. وفي تلك اللحظة هرع راكضًا إلى مقدمة الحافلة وهو يصرخ كي يوقظ النائمين، وجلس خلف المقود ومضى بالحافلة بضع خطوات إلى الخلف ليستدير بها فينقذ الجميع من الهلاك. وإذ استفاق بقية الركاب فزعين من نومهم، راحوا يتدافعون خارجين من الحافلة بهلع وغضب، ليجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع مجموعة من رجال الأمن بمروحياتهم وسياراتهم المرسيدس.

اقتيدَ الركاب إلى أماكن ومخافر مختلفة للتحقيق معهم وتوقيفهم، ثم أطلق سراحهم بعد أن أخذوا تعهدات صريحة على الجميع بعدم النطق بكلمة حول

حدث. وفي اليوم التالي، كانت طهران كلها قد سمعتْ بالخبر. وقد بدا واضحًا للجميع أنه كانت ثمة مؤامرة مدبّرة لدفع الحافلة إلى الوادي، ثم الادعاء بأن الأمر كله كان قضاءً وقدر.

سمعنا الكثير من النكات حول الحادث، مثلما كان يجري مع كل الحوادث المشابهة. وعند عودتنا إلى البيت في ذلك المساء، كنا نناقش أنا و«بيجان» تلك المحنة العصيبة التي مرّ بها الكتّاب، فقال «بيجان»: «انه لأمر غريب فعلاً، فنحن حينما نتحدّث عادة عن معظم أولئك الكتّاب، نجد أنفسنا محبطين من مواقفهم الأيديولوجية تجاه الأدب، أما عندما نكون إزاء حادث من هذا النوع، فإن الوضع كله يختلف تمامًا. فبغض النظر عن خلافنا مع بعضهم، أو مدى اعتقادنا بسوء البعض الآخر، سنجد أن التعاطف المطلق هو سيد المواقف كلّها، وأمامه تتلاشى كل الاعتبارات الأُخرى».

لم يكن قد مضى زمن طويل على تلك الحادثة حينما أفقنا صباحًا على مكالمة هاتفية من إحدى الصديقات، وهي زوجة كاتب كان واحدًا من مؤسّسي اتحاد الكتّاب. كان صوتها ملبّدًا بالخوف والفزع وهي تسأل عن إمكانية الاتصال بهيئة الإذاعة البريطانية الـ«بي بي سي» لإبلاغهم بما يحدث. كانا هي وزوجها قد أُجبرا على مغادرة طهران بشكل قسري بعض الوقت حتى تهدأ الامور، وكانت تسألنا إذا كان بإمكانها ترك ولدهما عندنا لبضعة أيام.

كان ذلك الحادث مسبوقًا بحوادث أُخرى كثيرة: مداهمة بيت القنصل الألماني أثناء إقامته دعوة صغيرة لبعض الأدباء والمثقفين، واعتقالهم. اختفاء صحفي يساري معروف، كان يعمل محررًا في صحيفة معروفة. كان قد اعتقلَ مع آخرين، وأُطلق سراح الجميع ما عداه. وأُشيع بعد ذلك بأنه غادر البلاد إلى ألمانيا حيث تعيش زوجته وأسرته، لكنه لم يكن قد وصل إلى هناك مطلقًا. وقد زعمت الحكومة الإيرانية بأنه غادر إيران، وبأن الحكومة الألمانية قد اعتقلته. ولكن الأخيرة كذّبتْ كل تلك الادعاءات. كانت المناشدات الدولية

التي رافقتْ اختفاءه قد حوّلتْ الموضوع إلى قضية رأي عام، مما ساهم في إبقاء الأمر ساخنًا في عقول الجميع. بعد مدة، شوهد في مطار طهران ملفّقًا بحكاية غريبة عن وصوله لألمانيا وسفره من هناك إلى بلد آخر. وبعد أيام، كتب الرجلُ رسالة مفتوحة يصف فيها التعذيب الوحشي الذي ناله على يد النظام، فاعتقل على إثرها مرة أُخرى، ليُطلق سراحه أخيرًا تحت ضغط دولي كبير.

وبعد مدة وجيزة، سمعنا عن ناشر إيراني خرج من بيته صباحًا ولم يعد، وعلمنا بأنه كان قد ساعد الصحافي اليساري آنف الذكر وسواه من الكتاب المشاكسين. وقد وُجِدَتْ جثة الناشر ملقاة في منطقة مهجورة من ضواحي طهران، مثلها مثل كثير سواها من جثث الكتّاب المشاكسين أو المعارضين.

في منتصف تسعينات القرن الفائت، بدأ النظام يظهر بوادر للتقرّب من أوروبا، فوجهوا دعوات لمجموعة من المثقفين الغربيين لزيارة إيران. وحضر «بول ريكير» لإلقاء بعض المحاضرات. فأقام ثلاث ندوات ضجّتْ بالجمهور الذي ملأ حتى الممرات والسلالم خاج القاعات. ثم حضر «ف. س. نايبول»، وقد رافقه في زيارته لأصفهان «أحمد مير علائي»، وهو مترجم وناشر معروف.

ما زلت أتذكر «مير علائي» جيدًا وهو جالس في مكتبته في أصفهان، وكانت قد غدتْ ملتقى للأدباء والمثقفين ومنبرًا لنقاشاتهم وحواراتهم. كان رجلاً بدينًا قصير القامة شاحب الوجه، يضع نظارات طبية مستديرة بنية اللون، وكانتْ بشرته تبدو مطفأة بشكل غريب. ولسبب ما، كان ذلك التمازج الغريب بين الشحوب والبدانة قد منح هيئة ذلك الرجل هالة من الثقة وإحساسًا بأنه خزينة أسرار. كان رجلاً سريع البديهة، ومستمعًا متعاطفًا من نوع عجيب، ربما لأنه لم يكن من النوع الصِدامي على العكس من أصدقائه الأكثر حبًا للمواجهة. أستطيع أن أجزم أنه كان ضحية لأنه لم تكن له علاقة بالسياسية. لقد وقع في مرمى النار رغم أنفه، وكان في وقت ما مضطرًا لاتخاذ موقف سياسي متطرّف

خلافًا لطبيعته. وكان صاحب ذائقة عالية جدًا في انتقائه لما يترجم من كتب، مثل أعمال «نابيول» و«كونديرا» وجمهرة من مبدعين آخرين.

بعد أشهر قليلة من زيارة «نابيول» لإيران، وُجِدَتْ جثة «مير علائي» في أحد الشوارع بالقرب من نهر صغير. ومثله مثل سواه، كان قد خرج من بيته صباحًا ولم يعد. وفي ساعة متأخرة من الليل أبلِغَتْ أسرته بوفاته، وتم العثور على قنينة فودكا صغيرة في جيب سترته، وقد سُكبتْ كمية من الفودكا على قميصه من الأمام في محاولة للإيهام بأن السيد «علائي» كان، في وضح النهار، فاقدًا للوعي بسبب نوبة سُكْرٍ شديد، وبأن نوبة قلبية داهمته في الشارع فأودتْ بحياته. وطبعًا لم يصدق أحد تلك الرواية، فقد لوحظ على صدره أثر ضربة مبرحة، وعلى ذراعه أثر وخزة حقنة. كان قد أخذ للتحقيق وقُتل، إما عمدًا أو خطأ بسبب التعذيب.

وبُعيد زمن قصير، عُثِرَ على «جهانغير تفضّلي» مقتولاً. و«جهانغير تفضلي» هو الخبير الأهم المتخصص في التاريخ الإيراني القديم. كنتُ أعرف ذلك الرجل جيدًا، كان خجولاً جدًا، نحيلاً وذا شعر أشعث فاحم وعينين واسعتين تبدوان هائلتين من خلف النظارة. لم يكن «تفضّلي» مرتبطًا سياسيًا مع أية جهة على الرغم من انه كتب للموسوعة الإيرانية، وهو مشروع يشرف عليه باحث إيراني بارز يعيش في كولومبيا، كانت الحكومة الإيرانية تتهمه بأبشع التهم. وكان «تفضّلي» مختصًا بشكل رئيس في التاريخ الإيراني قبل ظهور الإسلام، وهو موضوع يمقته النظام الإسلامي جدًا. تقول الرواية بأن «تفضّلي» خرج من جامعة طهران عائدًا إلى بيته، وكان في الطريق قد أجرى مكالمة هاتفية مرية مع ابنته عبر هاتف سيارة. ثم وُجِدَتْ جثته ملقاة على جانب طريق بعيد عن البيت والجامعة معًا. وقد زعموا بأنه كان يحاول استبدال عجلة معطوبة في السيارة، فصدمته سيارة يقودها مجهول، أودتْ بحياته.

كنت بين الحين والحين، في طقوس إحياء الذكرى وفي الدعوات

والتجمعات أمرٌ من جديد مع الأصدقاء والزملاء على تلك الميتات المتلاحقة، فأبقى أعيد وأستعيد تفاصيلها. كنا ننبشُ ونستدعي بشكلٍ مهووس تفاصيل الموت التي أعلنها المسؤولون، ثم نعيد ترتيب اللغز ونحن نحاول أن نتصوّر التفاصيل الحقيقية للوفاة، وكأننا كنا بذلك نعيد قتلهم من جديد. لا زلت أتخيّل «تفضّلي» جالسًا في قلب سيارة بين سفّاحَين يجبرانه على الاتصال بابنته في البيت، ثم أروح أرسم دائرة بيضاء من الانشداه وأنا أتساءل: كيف ومتى قتلوه؟ هل كان ذلك بضربة مباغتة داخل السيارة؟ أم تراهم اقتادوه إلى بيت من بيوتهم السرية الآمنة بعيدًا عن العيون، فتمكّنوا من تصفيته، ليلقوا بجثته بعد ذلك في الشارع المهجور؟

[16]

قال «الساحر» في الهاتف: «إذا وعدتِ بأن تكوني فتاةً مطيعة، فسيكون لك عندي مفاجأة».

اتفقنا على أن نلتقي في أحد المقاهي المعروفة، وكان جزءًا من مطعم وفي واجهته محل الحلويات الخاص به. غاب عن بالي اسم المقهى الآن، على الرغم من أنني أكاد أجزم بأن الاسم قد تغيّر بعد الثورة، مثله مثل أسماء أماكن أخرى كثيرة. وحينما دخلت المقهى وأنا أنوء بحمل حقيبتي الملأى بالكتب، وجدت «ساحري» جالسًا عند طاولة في ركنٍ ركين، يتصفّح رزمة من الكتب التي لا بد من أنه ناء بحملها هو الآخر. وقال لي: «أظن أنك كنت تبحثين عن النسخة الإنكليزية لكتاب «ألف ليلة وليلة»، أليس كذلك؟ لقد وجدتُ لك طبعة أوكسفورد منها».

طلب كلانا قهوة: «كابوتشينو» لي، و«إسبريسو» له، مع حلوى «نابوليون» لكلينا، تلك المعجنات التي اشتهر بها المحل. وواصل كلامه: «كما وجئتك بقصيدة «أودين» التي كنت تبحثين عنها، على الرغم من أنني لست أدري لماذا كنت تبحثين عنها». وناولني ورقة مطبوع عليها بالآلة الكاتبة قصيدة «أودين» المعنونة: «رسالة إلى اللورد بايرون».

قلت له: «لقد كان لنا نقاشات ممتعة حقًا آخر مرة في الصف، تحدّثنا عن «ديسمبر العميد» و«لوليتا» وعن كتب أُخرى كنا ندرسها معًا. وتساءلتُ إحدى

طالباتي.. «مانا».. تتذكر «مانا»، أليس كذلك؟». فأجاب: «بلى.. أتذكرها، أليست هي الشاعرة؟». رددت: «فعلاً إنها هي، حسنًا، لقد تساءلتُ «مانا» كيف لنا أن نجد علاقة بين كل أولئك الكتاب وبين «جين أوستن»، وهي الأكثر تفاؤلاً من الجميع؟ فهي متفائلة بالعالم وبالبشر».

فأجاب: «هذا خطأ يقع فيه معظم الناس مع «أوستن»، سيكون عليهم أن يقرءوها بتأنٍ أكبر».

فقلت: «فعلاً.. وهذا ما قلته لها، فموضوعة «أوستن» وثيمتها في الكتابة هي البحث في القسوة في ظل ظروف يومية عادية، وليس في ظل الظروف الاستثنائية، تلك القسوة التي يرتكبها أناس عاديون مثلي ومثلك. ألا يبدو ذلك مرعبًا حقًا؟». ثم أضفتُ متباهية وأنا أفكر بهوَسي الجديد: «ولهذا فأنا أعشق «بيللو جدًا»..!»

فتعجب قائلاً «الساحر»: «يا لك من متقلّبة! وماذا حدث لـ«نابوكوف» معك؟ كتاب واحد فقط، ليصبح بعده جزءًا من الماضي؟!». فقلتُ وأنا أحاول تجاوز نبرته الساخرة: «لا.. ولكن روايات «بيللو» تحاكي تلك الشرور الشخصية، وتبحث في محنة الحرية، وثقل القدرة على اتخاذ القرار، وكذلك الأمر مع روايات «جيمس». إنه لمن المخيف حقًا أن يحسّ الإنسان بالحرية، وأن يكون مسؤولاً عن قراراته».

فقال: «فعلاً.. وألاّ يكون لدى الإنسان جمهورية إسلامية يضع عليها كل اللوم!». ثم أضاف بعد برهة صمت: «أنا لا أقصد أن أقول بأن الجمهورية الإسلامية غير ملامة، لا أبدًا».

رحتُ أقلّب في صفحات «المزيد يموتون حسرة» لـ«بيللو»، وكنت قد أتيتُ بالكتاب خصيصًا لأقرأ «الساحري» بعض العبارات منه، ورحت أقرأ: «إن معنى الثورة كان قد تجلى في محاولة روسيا عزل نفسها عن معضلات الوعي العصري، فغدتْ في عزلة تامة مطبقة؛ وفي داخل البلد المعزول راح ستالين

يسكب وابلاً من الموت «القديم». أما في الغرب، فقد كانت المحنة تكمن في الموت «الجديد». ليس ثمة كلمات يمكنها أن تصف ما يعتملُ في الروح حينما تكون في عالم حر. فبغض النظر عن ارتفاع المؤهلات، وعن الرفاهية في نسق العيش، سلوا الأرواح عن حكمها الدفين في داخلها، فستعرف أكثر وأكثر. نحن نلمس كل ذلك في البؤر البعيدة لوعينا، ذلك الوعي الذي يصارع ضد الصحوة التامة، ضد الاستيقاظ المطلق. لأن تلك الصحوة ستجعلنا نواجه الموت «الجديد»، تلك المعضلة التي يتميز بها هذا الجزء الخاص بنا من العالم. لأننا إذا فتحنا الباب للوعي الحقيقي بشأن ما يحدث على أرض الواقع، فإننا سنكون كمن يتعلّق بين الجنة والنار».

أكملتُ قراءة السطور وقلت: «أحببتُ عبارة «يسكب وابلاً من الموت القديم».. كما وأنه يتحدث في مكان آخر عن «ضمور المشاعر»، فالغرب مصابٌ بـ«ضمور المشاعر»»..

فقال: «آه.. نعم.. فالسيد «بيللو».. أو «سول» كما تسميه طالباتك، كاتب جديرٌ بأن يستشهد به دائمًا.. ولا أدري ما إذا كان ذلك عيبًا أو ميزة».

فقلت له بنبرة اتهام: ومن ذا الذي دلّني على هذا الطريق؟ من أعطاني كتاب «رابطة البيلاروزا»؟.. أنا أظن أن ذلك كله مهم جدًا لطالباتي، فأنا أحسّ بميلهنّ إلى النظر للغرب نظرة مثالية لا يشوبها أي انتقاد، وأحسّ بأنهنّ يحملنَ في خيالهنّ صورة وردية عنه، وكله بسبب الجمهورية الإسلامية! هن يجدْنَ كل ما يأتي من أميركا أو اوروبا على أنه رائع، ابتداءً بالعلكة والشوكولاتة، وانتهاءً بـ«أوستن» وإعلان الاستقلال. أما «بيللو» فيمنحهن فرصة الخوض في تجربة أصدق عن ذلك العالم الآخر، ويسمح لهن بأن يتعرّفن على مشكلاته ومخاوفه.

نظرتُ إلى صفحة في الكتاب وقلت: «أنظر هنا، هنا يكمن صلب الموضوع، وكل ما كنا بصدد الحديث عنه»... لم يكن ينظر إليّ، فقلت بصبر

نافد: «أنت لا تصغي لما أقول» كان ينظر من خلفي وهو يشير إلى النادل، فحضر إلينا مباشرة، وسأله: «ماذا يجري؟ لماذا كل تلك الجلبة؟». كان ثمة اضطراب يحدث من حولنا في المقهى، ولم أكن قد انتبهتُ إليه في خضم انهماكي باستعراض فضائل السيد «بيللو».

أوضح لنا النادل بأن أفرادًا من الحرس داهموا المحل، وكانوا في تلك اللحظة يقفون عند الباب ليتحققوا من أولئك الذين بدأوا يغادرون المكان، واقترح علينا بتهذيب عالٍ إذا لم تكن بيننا أي قرابة بأن ينسحب الساحر إلى طاولة أُخرى، وحينما أسأل عن سبب جلوسي بمفردي أن أقول بأنني بانتظار وصول طلبي من المعجنات.

قلت للنادل: «نحن لا نفعل أي شيء خاطئ.. ولن أبرح مكاني».

ثم التفتُ صُوب «الساحر» وأضفت: «ولن تفعل ذلك أنت أيضًا».

فقال: «لا تكوني حمقاء.. هل أنت راغبة بفضيحة؟».

فقلت: «سأهاتف «بيجان» حالاً».

فقال: «وإذًا؟ ماذا سيفعل لك «بيجان»؟ هل تعتقدين فعلاً بأن أحدًا منهم سيصغي إليه طالما انه لا يستطيع «السيطرة» على تصرفات زوجته؟». وحمل فنجان قهوته بين يديه وانتصب واقفًا، فقلتُ وأنا أناوله كتاب «ألف ليلة وليلة»: «لقد نسيتَ شيئًا!».

فردَّ عليَّ بالإنكليزية: «أنت تتصرفين بصبيانية!».

وقلت: «أظن أنك بحاجة إلى ما يشغلك، ثم إنني أصلاً كنتُ قد صوَّرت النسخة التي أعرتني إياها سابقًا».

أخذ الكتاب ومضى بقهوته وبقية كتبه ليجلس عند طاولة بعيدة عني، وبقيتُ بمفردي أحاول أن آكل حلوى «نابوليون»، وأتصفَّح بعصبية كتاب «المزيد يموتون حسرة» كمن يراجع بعجالة مواد مقرّرة في امتحان الغد.

دخل المقهى حرس الثورة، وراحوا يتنقلون من طاولة لأخرى. نجح بعض

الشباب في التسلل إلى الخارج، بينما كان البعض الآخر منهم أقل حظًا، ولم يعد في المقهى سوى خمس طاولات مشغولة: أسرة من أربعة أشخاص وامرأتان في منتصف العمر وثلاثة شبان، و«الساحر» وأنا. وما أن وصل طلبي من المعجنات حتى وقفتُ وأغدقتُ على النادل إكرامية باهظة، وأفلتتْ من بين يديّ رزمة كتبي فانفرطتْ على الأرض متناثرة في كل مكان. بقيتُ في مكاني أنتظر أن يأتيني النادل بكيس أضعها فيه، ثم غادرتُ المكان من دون حتى التفاتة إلى «الساحر».

وفي سيارة الاجرة، تملّكني شعور بالاضطراب والغضب، وأحسستُ بشيء من الندم. قلت لنفسي: سأرحل عن هذا المكان، لن أستطيع مواصلة العيش بهذه الطريقة. في كل مرة يحدث شيء من هذا القبيل، أجد نفسي، مثل كثير سواي، وأنا أفكر بمغادرة البلد، بالمضيّ إلى مكان آخر لا تكون فيه الحياة اليومية ساحة معركة. لم تعد فكرة الرحيل عن إيران في الآونة الأخيرة مجرد وسيلة دفاعية، وأصبحتْ حوادث من هذا النوع تتزايد شيئًا فشيئًا لترجّح كفة الرحيل. كان من بين الأصدقاء والزملاء مَن يحاول التكيّف مع الظروف. قالت لي صديقة ذات مرة: «نحن لسنا مع النظام جملة وتفصيلاً، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل سوى إطاعة الأوامر؟ هل لا بد لي من أن أدخل السجن وأخسر وظيفتي بسبب خصلتين طائشتين من الشعر؟». وقالتْ السيدة «رضوان» ذات مرة: «لقد اعتدنا على ذلك بمرور الوقت، أما هاتيك الفتيات، فإنهنّ يتدللنَ بعض الشيء، وربما يحلمْنَ بما لا يُطال. انظري الى الصومال وأفغانستان، نحن نحيا مثل الملكات مقارنة بهن!».

وذات مرة، قالت «مانا» في الصف: «أنا لا أستطيع الاعتياد على كل ذلك». لم أستطع بدوري أن ألومها، فقد كنا تعيسات. كنا نقارن وضعنا الراهن بحجم إمكاناتنا، وبما كان يمكن أن نكون عليه. لم نكن نجد العزاء في الإيمان بأن ثمة ملايين من البشر هم فعلاً أكثر تعاسة منا. فلماذا علينا أن نجد في بؤس الآخرين

عزاءً؟ ولماذا علينا أن نكون أكثر سعادة ورضا حينما نرنو الى مآسي الآخرين؟

حين وصلت البيت لم أجد «بيجان» والطفلين، فقد كانوا عند امي في الطابق الأسفل. وضعتُ في الثلاجة قطع الـ«نابوليون» التي ابتعتها لهم، وتركتُ كيكة الجزر في المطبخ كي أحملها لأمي. ثم فتحتُ المجمدة (الفريزر) فورًا وأعددتُ لنفسي طبقًا كبيرًا من الآيس كريم الذي أحب، سكبتُ عليه شيئًا من القهوة التركية ونثرتُ بعض الجوز. وحينما عاد الطفلان و«بيجان» من عند أمي، كنت قد أصبحتُ في الحمام، أستفرغ كل ما بجوفي، حتى قضيتُ الليل بطوله وأنا أستفرغ. كان «الساحر» قد اتصل في ساعة ما من المساء وقال: «أنا آسف.. كم يشعر المرء إزاء كل ذلك بالاشمئزاز وبأنه قد أصبح ملطخًا!». فبادلته الكلمات: «أنا أيضًا آسفة.. كلنا نحسّ بالأسف!.. أرجو ألا تنسَ أن تضع التاريخ على كتابي، لكي نؤرّخ الواقعة».

لم أستطع استبقاء أي شيء في معدتي في تلك الليلة ولا حتى الماء. وحينما أفقتُ صباحًا كانت حجرة نومي تدور حولي، كانت شرارات الضياء الصغار تتراقص أمام عينيّ وتشكّل أكاليل ملأى بالثقوب تتطاير في جو الغرفة الذي أصابه الدوار. أغمضتُ عينيّ، وما أن فتحتهما حتى عادت الأكاليل اللدودة تتراقص من جديد. فوضعتُ يدي على معدتي وهرعتُ إلى الحمام لأستفرغ مرارتي.

قضيتُ بقية اليوم في الفراش، وجلدي متحسّس حتى من ملمس الشراشف.

[17]

«أنت لم تستطع أن تصدمها كما تصدمني هي دائمًا
فحتى «جويس» يبدو أمامها ساذجًا مثل عشبٍ أخضرْ
إنه لأمرٌ يجعلني في غاية الضيق
ان ألتقي بعانس إنكليزية من الطبقة الوسطى
فتصف لي ذلك الأثر العشقي الذي يحدثه النحاس
وهو يكشف بصراحة وبمنتهى الاعتدال
عن حقيقةِ الأساسِ المادي لحياتنا».

فتاة يغتصبها مجهول، توضع في صندوق سيارة، وتُقتَل. ثم يُقتَلُ تلميذٌ صغير، وتُقطعُ أذناه. ثمة نقاشات كثيرة عن مخيمات السجناء، وعن الموت والدمار عند «بيللو». وعند «نابوكوف» نلتقي بوحوش مثل «هومبرت» الذي يغتصب فتياتٍ في الثانية عشرة. وحتى عند «فلوبير» نجد الكثير من الألم والخيانة. «ولكن ماذا عن «أوستن»؟» هكذا كانت تتساءل «مانا» ذات يوم.

فعلا، وماذا عن «أوستن»؟ كانت روايات «أوستن» الساخرة وروحها المعطاءة تحدو بطالباتي أحيانًا إلى الإيمان بالفكرة الشائعة التي تفيد بأن «أوستن» لم تكن سوى عانس متحفظة، تعيش بسلام مع عالم وحشي لا تدرك مدى قسوته. فكان علي أن أذكرهنّ بقصيدة «أودين»: «رسالة إلى اللورد بايرون»، تلك التي يطلب فيها من «بايرون» بأن يخبر «جين أوستن»: «كم تعشق الناس رواياتها ها هنا».

نحن نجد بأن بطلات «جين أوستن» غير غفورات أو متسامحات، ولكن بطريقتهن الخاصة. وفي رواياتها نجد الكثير من الخيانة والجشع، والكثير من الخداع والزيف والتفاهة والوحشية والألم، بالإضافة إلى الكثير من الأصدقاء غير المخلصين والأمهات الأنانيات والآباء المستبدين. وتبدو «أوستن» في غاية الكرم مع شخصياتها الشريرة، لكنها مع ذلك لا تدع أحدًا وشأنه ولا تكفّ عن أحد ببساطة، حتى وإن كان واحد من أهم أبطالها أو بطلاتها. فنرى أن «فاني برايس» بطلة «أوستن» المفضّلة وأقلهن جدارة بتعاطف القارئ، نراها في الواقع أكثر الشخوص معاناة وألمًا.

في الرواية الحديثة، يلمس القارئ الشرّ في تفاصيل الحياة اليومية البسيطة: في المنزل، في العلاقات العادية التي تربط بين البشر الذين هم مثلي ومثلك يا.. «أخي القارئ».. بحسب تعبير «هومبرت». والشر في روايات «أوستن»، مثلما هو في كل الأعمال الأدبية العظيمة، يكمن في عدم القدرة على «رؤية» الآخرين، مما يؤدي الى عدم التعاطف معهم. إن ما يدعو إلى الرعب في ذلك فعلاً: هو أن ذلك «العمى» يمكنه ان يكون جليًا في أفضل الشخوص مثل «إلزا بينيت»، وكذلك في أسوأهم مثل «هومبرت». فنحن جميعًا نمتلك في داخلنا القدرة على أن نكون الرقيب الأعمى، وأن نفرض على الآخرين رؤانا ورغباتنا الخاصة.

حينما يصبح الشر فرديًا وشخصيًا ويصبح جزءًا من تفاصيل الحياة اليومية، تصبح مقاومته هي الأخرى فردية. ويصبح السؤال الجوهري الأهم هو: كيف للروح أن تقاوم وتبقى على قيد الحياة؟ ويكون الجواب الأهم هو: بالتمسك بالحب والخيال. لقد أفرغ «ستالين» روسيا من روحها وهو يسكب فيها وابلاً من الموت «القديم». بيد أن «ماندليستام» و«سينيافسكي» أعادا إحياء تلك الروح وهما يقرآن القصائد لزملائهما السجناء، ويكتبان عن كل ذلك في يومياتهما. يقول «بيللو»: «ربما أن تبقى شاعرًا في ظل ظروف كهذه، فهو يعني

أيضًا أن تصيبَ كبدَ السياسة، وبذلك تكون المشاعر الإنسانية والتجارب الإنسانية والأشكال والوجوه الإنسانية كلها قد استعادت مكانتها الصحيحة في المقدمة».

[18]

جاءَ قرارُنا مغادرةَ إيران بشكلٍ عرضي وعابر، أو على الأقل هكذا بدا الأمر. فقراراتٌ من هذا النوع، أيًا كانت خطورتها، نادرًا ما تأتي بشكل مخطط له. فهي مثل الزواج الفاشل، غالبًا ما يكون نتيجة سنواتٍ طوالٍ من الاستياءِ والغضب الذي ينفجرُ بشكلٍ مفاجئ، ويؤدي إلى قرارات انتحارية. فكانت فكرة الرحيلِ عن إيران تشبهُ فكرة الطلاق؛ كانت كامنة في البال مثل فكرةٍ مشؤومة مبهمة مهيّأة للظهور على السطح عند أبسط استفزاز.

صرتُ كلما سألني أحد عن سبب الرحيل أعيد عليه شرح الأسباب المعتادة: وظيفتي ومشاعري كامرأة ومستقبل الطفلين وزياراتي السابقة للولايات المتحدة، تلك الزيارات التي جعلتنا نعي فعلاً قيمة قراراتنا وندرك حساب احتمالياتها.

في البدء، اشتبكنا أنا و«بيجان» في مشاجراتٍ حقيقية، ومكثنا بعض الوقت لا نتحدّث في شيء تقريبًا سوى الرحيل أو البقاء. وحينما أدرك أخيرًا أنني كنت هذه المرة عازمة على الرحيل فعلاً، دخل في نوبة صمتٍ قاتلة. ودخلنا في مرحلة جديدة حينما ازدادت النقاشات الحامية التي راح يشاركنا فيها الأهل والأصدقاء. كانت وجهة نظرِ «بيجان» تتلخص في قوله: «هذه فكرة غير مقبولة، فعلينا أن ننتظرَ على الأقل حتى يكبرَ الطفلانِ ويصبحان في سن الجامعة!». كان «الساحرُ» يرى أن السفر هو الخيار الوحيد أمامنا. وانقسم

أصدقائي إلى قسمين: نصفٌ مع، ونصفٌ ضدّ الفكرة. أما بناتي، فلم يكنّ يرحّبن برحيلي عنهنّ، بيد أن معظمهنّ كن قد اخترنَ الرحيل بعد ذلك هنّ أيضًا. وكان والدايَ يدفعاننا للمغادرة، على الرغم من أن ذلك كان يعني بالنسبة لهما الفراق والوحدة. ففكرة أن يحيا الأبناء حياةً أفضل، حتى وإن كان ذلك وهمٌ محض، كانت تشكّل إغراءً كبيرًا لكل الآباء.

وأخيرًا كان «بيجان»، وهو الحكيم دائمًا والمنطقيّ جدًا، قد أذعن لقرارِ الرحيل، بشرط أن يكون رحيلاً موقتًا، بضع سنواتٍ لا غير. وكان قبوله لتقرير مصيرنا الجديد قد جعله ينخرط في دوامةٍ من الحركة، فكان موقفهُ عمليًا جدًا في التعامل مع سفرنا الوشيك، وراح يكرّس وقته تمامًا في تفكيك ثماني عشر عامًا من الحياة والعمل، وصبّها من جديد لتناسب حجم الحقائب الثمانية التي كانت أقصى ما هو مسموح لنا بأن نأخذه. أما موقفي أنا، فقد اتخذَ شكل التهرّب من المواجهة، حتى بدا أشبه بالرفض! كان نبلُ «بيجان» في التعامل مع القضيةِ قد جعلني أحسّ بالذنب فعلاً والارتباك، فأرجأتُ أمر حزم الحقائب، ورفضتُ أي حديثٍ جدّيٍ في الموضوع. كان موقفي الهازل وثرثرتي السطحية في الأمرِ داخلَ الصف قد حيّرا بناتي وأربكا فيهنّ ردة الفعل.

لم نكن قد ناقشنا أمر سفري بشكل جدّي في الصف. كان مفهومًا ضمنيًا بأن الصف الخاص لم يكن ليستمرّ إلى أجلٍ غير مسمّى، وكنتُ قد عبّرتُ لهنّ عن أملي بأنه سيكون لطالباتي صفوفهنّ الخاصة بهن، لكي ينضمّ إلى عالمنا المزيد من الأصدقاء. ولكنني كنتُ أستطيعُ أن ألمسَ التوترَ في صمتِ «مانا»، وفي تلميحات «مهشيد» غير المباشرة عن الواجب صوب الوطن والأهل. وقد أبدَتِ الأخريات انزعاجًا وحزنًا بشأن اضطرارنا إنهاء ندوات الصف الخاص. وقالت «ياسي» مستعينةً بتعبير إيراني: «سيكون مكانكِ خاليًا جدًا!». بيد أنهنّ كنّ قد ابتدأنَ بالفعل إذكاء مشاريعهنّ الخاصة للرحيل.

وما أن أصبح قرار الرحيل نهائيًا، حتى لم يعدْ أحدٌ للحديثِ عنه مطلقًا.

أصبحتْ عينا أبي أكثر انسحابًا، وكأنه كان يرنو إلى نقطةٍ هائمة في البعيد وقد توارينا خلف أفقها من دون عودة. وأصبحتْ والدتي عصبية فجأة وبدتْ في غاية الاستياء، وراحتْ تلمّحُ إلى أن قراري قد أكّد لها من جديد أسوأ الظنون التي تراودها بشأن ولاءاتي. أقرب صديقاتي تحمّستْ لمرافقتي في جولة تسوّق لشراء الهدايا، وراحتْ تتحدّثُ في كل شيء سوى الرحيل، كما لم ألحظْ على بناتي أيّ تغيير في المواقف. لم يعدْ يتطرقُ للموضوع سوى الطفلين، فقد كانا يتحدثان عن سفرنا الوشيك بمزيجٍ من الإثارة والحزن.

[19]

ثمة تعبير بالفارسية يُقال حينما يشتدّ الضغط النفسيّ على المرءِ وتزداد حدّة التوتر: «الصخرة الصابرة». فيُفترضُ بالمرءِ أن يلقي بكل همومهِ وشكواهُ على تلكَ الصخرة، فتصغي إليه، وتحملُ عنه الآلام والأسرار، وهكذا يجدُ طريقةً للخلاص. ومع هذا، قد تضيق الصخرة ذرعًا أحيانًا بما تنوءُ بحملهِ عن الآخرين، فتنفجر!

وعلى الرغم من أن «ساحري» لم يحكِ قصتهُ الشخصية لأحد مدعيًا بأنها لا تهمّ أي أحد، إلا أنه لم يكن «صخرتي الصابرة» في تلك الأيام. كان يقضي ليالي من السهر الطويل وهو يصغي لهموم الآخرين وشكاواهم، ويحمل عنهم الأعباء والآلام، ومع هذا لم تكن نصيحتهُ لي في هذا الأمر لتتعدى قوله: «لا بد لك من أن تغادري هذا المكان، إرحلي عنه، واكتبي قصتكِ الخاصة، وأقيمي صفّكِ الخاص في مكانٍ آخر».

ربما لأنه كان يدرك ما كنتُ أمرّ به وأعانيه، فيراه بوضوح أكبر. أما أنا، فلم أدرك إلا الآن أنني كنتُ، للسخرية، كلما أصبحتُ أكثر تعلّقًا بصفّي وطالباتي، كلما ازدادَ ابتعادي عن إيران، وأنني كلما ازداد إدراكي لطبيعة إيقاع حياتنا، كلما أصبحتْ حياتي نسجًا من الخيال. ها إنني أستطيع تشخيصَ كل ذلك الآن والحديث عنه بدرجة لا بأس بها من الوضوح، على الرغم من أنه لم يكن واضحًا أمامي مطلقًا وأنا هناك، بل لقد كان في غاية الغموض والتعقيد.

كنتُ أتتبّع الطريقَ المؤدي إلى بيت «ساحري» عبرَ الأزقة والمنعطفات، وأمرّ من جديد بتلك الشجرةِ العجوزِ التي تشخصُ أمام بيته، حينما داهمني خاطرٌ مفاجئ: إن للذكريات قابلية على منح الواقعِ صفة لا علاقة لها بحقيقته، أو على الأصح: صفة لا تمتّ بصِلةٍ لما تستدعيهِ الذكرياتُ من واقع! فتجعلنا نلينُ ونتسامح مع من أوقع فينا عميق الألم، وتجعلنا ننفرُ أو نستاء ممن تقبّلنا وأحببنا ذات يوم من دون تفكيرٍ أو شروط.

كنا نجلسُ أنا وهو و«رضا» مرة أخرى حول مائدةِ الطعامِ المستديرة، نتناولُ العشاء ونتبادلُ الحوار أمام لوحة خضراء من أشجارٍ وارفة، ونتقاسمُ ساندويشات الجبنة والـ«هام»[1] المحرّمة. «ساحرنا» لم يكن يشربُ الكحول، فقد كان يرفضُ التعامل مع الأشياء المزيفة: شرائط الفيديو المهرّبة والنبيذ المزيّف والروايات والأفلام الخاضعة للرقابة. كان يرفضُ مشاهدة التلفزيون، أو الذهاب إلى السينما، وكان جلّ ما يبغضُ هو أن يشاهدَ فيلمًا أثيرًا لديه عبر الفيديو، على الرغم من أنه كان يحتفظ لنا دائمًا بمجموعة منتخبة من أفلامه المفضلة على شرائط فيديو.

في ذلك اليوم كان قد أتانا ببعضِ النبيذِ المصنوع بيتيًا. كان لونهُ أحمرَ شاحبًا مثل لونِ الخطيئة، كان محفوظًا في أربع قناني كانت تستخدمُ سابقًا لحفظ الخل (سآخذ النبيذ معي لاحقًا إلى البيت وأشربه، لأحسّ بأن ثمة خطأ ما، وبأن طعم النبيذ كان يشبهُ طعم الخل، لكنني لن أخبرُ «ساحري» بشيء!).

كان حديثُ الساعةِ الساخنُ في ذلك الوقت هو الترشيح الجديد لـ«محمد خاتمي». وكان «خاتمي» معروفًا لدى المثقفين بشكل رئيس، لأنه أصبح وزيرًا للثقافة الإسلامية والإرشاد لمدّة وجيزة. بيد أنه أصبحَ في غضونِ أسابيعَ قلائل اسمًا يترددُ في كل مكان: في الحافلات، في سيارات الأجرة، في أماكن

(١) هام: قطعة لحم من فخذ الخنزير................... (هامش المترجمة).

العمل، في الحفلات. كان الكل يتحدّث عن «خاتمي» الذي أصبح من واجبنا الأخلاقي أن نصوّتَ له. فلم تكن لتكفينا سبعة عشر عامًا مرّتْ، كان فيها رجالُ الدين يصرّحون بأن التصويتَ ليس واجبًا فحسب، وإنما هو فرض ديني على كل مسلم، صرنا نحن أنفسنا نتبنى الموقف ذاته. ودارتْ بين الناس نقاشاتٌ حامية، ونشأت خلافاتٌ وقُطعَتْ علاقات بسبب ذلك الأمر تحديدًا.

وفي ذلك اليوم، في الطريق إلى بيتِ «الساحر» وأنا أجهدُ نفسي في الحفاظ على حجابي وعلى إبقائه فوق رأسي بالشكل الصحيح، مررتُ بأحد ملصقات حملة «خاتمي» الانتخابية على أحد الجدران. كان الملصقُ عبارة عن صورة كبيرة للمرشّح تزيّنها عبارة كُتِبَتْ بحروف كبيرة تقول: «إيران تقعُ في الحب مرة أخرى!». فقلتُ في نفسي بكآبة: «يا إلهي! ها قد عدنا من جديد!».

ورحتُ أحدّث «الساحر» و«رضا» عن ذلك الملصقِ ونحن جالسونَ حول مائدةِ الطعام التي كانت منبرًا للكثيرِ من الحكايا التي روينا وابتدعنا. قلتُ لهما: «نحنُ نحبُ أهالينا، أسرنا، أحبّاءنا، أصدقاءنا، فلماذا يكون علينا أن نحبّ سياسيينا أيضًا؟ ها إننا حتى في صفّي الخاصّ نتشاجرُ ونختصمُ بسببه. تتساءلُ «مانا» كيف يمكنُ لأيّ أحدٍ أن يصوّت لذلك الرجل؟ فهي لا تجد سببًا مقنعًا لذلك، طالما أنها لا تجدُ أي فرقٍ فيما لو سُمحَ لها بارتداءِ إيشارب أفتحُ لونًا، أو سُمِحَ لها بأن تُظهرَ المزيد من خصلات الشعر تتسربَ من تحت الحجاب. فتقولُ لها «ساناز» بأنها عندما تكونُ إزاء اختيارٍ ما بين السّيئ والأسوأ، سيكونُ عليها اختيارَ السّيئ من دون شك. فتردّ «مانا» بأنها لا تريدُ سجّانًا أقلّ قسوة، وإنما تريدُ ألا تكون في السجنِ أصلًا. وتتساءلُ «آذين»: «يقال بأنه يريد اللجوء إلى حكم القانون، أليس كذلك؟ أليس ذلك هو القانون نفسهُ الذي يسمحُ لزوجي بأن يضربَني وأن يأخذ مني ابنتي؟». تبدو «ياسي» في حيرةٍ من أمرها، و«ميترا» تقول بأنه حتى في هذهِ الانتخابات، سوف يتحققونَ من جوازات السفر، ويمنعون السفرَ على من لم يصوّت. فتردّ عليها «مهشيد»

بحدّة قائلةً بأن تلك ليستْ أكثر من إشاعةٍ مغرضةٍ جديدة لا يجوز لأحدٍ تصديقها».

قال «رضا» وهو يقضمُ قطعةً من الـ«هام» بالجبنة: «لا ينالُ المرءُ عادةً إلاّ ما يستحق». فرمقتُهُ بنظرةِ لوم، ليردّها بقوله: «أنا أعني ما أقول، فنحنُ مستعدّون دائمًا للانخراط في خدعةٍ ما يسمى الانتخابات مع علمنا بأنها ليست حقيقية، لأنه لا يمكن أن يشتركَ فيها إلاّ مرشّح إسلامي محض، مشهودٌ له بمساندته للثورة، يختاره مجلسُ حرسِ الثورة ويصادق عليه القائد الأعلى. على أية حال، ما دمنا نتقبلُ تلك التمثيلية المسماة انتخابات، وما دمنا نتأمل من أحدٍ مثل «رفسنجاني» أو «خاتمي» أن يكون بطلنا المخلّص، فإننا نستحقّ كل ما سيترتّبُ على ذلك من خيبات قادمة».

فأضافَ «الساحر»: «ولكن ذلك ليسَ إحباطًا من طرفٍ واحد، وإلا...»..

وهنا التفتَ إليّ وهو يرفعُ أحدَ حاجبيهِ ويرمقني بنظرةٍ فضولية ويقول: «.. فكيف يمكن أن يكون شعور السيد «خاتمي» وهو يرى «ميترا» وساناز» وهما ماضيتانِ في طريق العبث لتفسدا معهما بناتٍ مسلماتٍ ملتزمات من أمثال «ياسي» و«مهشيد»؟ أو شعورهُ وهو يستمعُ إلى بعض الإسلاميين الثورويين المتطرفين الـ«سابقين» وهم يستشهدون بأقوالٍ لـ«كانط» و«سبينوزا»، عوضًا عن الاستشهادِ بمصادرَ إسلامية؟ وماذا قال لنفسه حينما وجد ابنة الرئيس وهي تروّجُ لحملتها الانتخابية بأن تعدَ النساء بمنحهنّ حقَ ركوبِ الدراجات الهوائية في الحدائق العامة؟

فقلت: «سخيفٌ كل ذلك، بمنتهى السخافة».

وقال: «قد يبدو سخيفًا ومضحكًا بالنسبة لك، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للرئيس وأتباعه، فهم يسعون إلى كسبِ عقولِ وقلوبِ أبناءِ الثورة، بأن يعدونهم، ولو بشكل ضمني، بالحصول على كل ما هو غربي». ثم أضافَ كمن يزيدُ الشعر بيتًا: «ومع هذا فهؤلاء الشباب يستمعون إلى «مايكل

جاكسون»، ويقرأون «نابوكوفك» باستمتاع ولهفة أكثر بكثير مما كنا نحسّ به أنا وأنت في أيام شبابنا المتفسخ».

وصمتَ فجأة، ثم أضاف: «ولكن.. ما الذي يقلقكِ في كل ذلك ما دمتِ ستغادريننا قريبًا جدًا وتتركين مشاكلنا؟».

فأجبته: «كلا طبعًا.. لن أغادركم أو أترك مشاكلكم.. ماذا تقول؟ أنا أعوّل عليك أنت لتضعني معكم في الصورة».

فقال: «كلا.. لن أفعل.. لن تتواصلَ بعد أن تغادري هذا المكان».

فنظرتُ إليه نظرةً جافلةً ردّ عليها بقوله: «سمّها ما شئتِ: جبنًا أو دفاعًا عن النفس او.. فأنا لا أحب التواصل مع أصدقائي الذين يحالفهم الحظ ليتركوا هذا المكان».

فقلتُ لهُ وقد أربكني تمامًا ما سمعتُ منه: «ولكن كيف؟.. ألم تشجّعني على السفر؟!».

فأجاب: «بلى.. فعلاً.. وهذا موضوع آخر، ولكن على أية حال، هذا هو مبدأي: من لا نراه إلاّ نادرًا ننساه بسرعة، والبعيدُ عن العين بعيدٌ عن القلب.. وما إلى ذلك. على المرء أن يتعلّم كيف يحمي نفسه».

كان «ساحري» قد عمل كل ما بوسعهِ وكرّس جلّ طاقتهِ لمساعدتي على تنفيذِ فكرةِ السفر. وأخيرًا، حينما صرتُ على أعتابِ الرحيل، وكل شيء صار جاهزًا وعلى أحسن ما يرام، لم أعد أحسّ بأنه سعيد بي. فهل كان يحسُّ بخيبة أمل؟ بوهم أفاقَ منه؟ هل كان يجد سفري بمثابة تعليقٍ سيّئ أو انتقادٍ لكل من تركتُ خلفي وكأنني أرفضهم ضمنًا بسبب بقائهم؟

[20]

كنتُ أتحدّثُ عبر الهاتفِ مع صديقتي حينما رنَّتْ «نسرين» الجرس. فتحَتْ «نيغار» البابَ وراحتْ تصرخُ بلا مبرر: «ماما.. ماما.. إنها «نسرين».. «نسرين» هنا!». وبعد لحظات، رأيتها تقفُ بخجلٍ عند الباب وكأنها تعتذرُ مسبقًا عن زيارتها المفاجئة، فأشرتُ إليها أن تنتظرني في غرفةِ الجلوس ريثما أنتهي من مكالمتي.

قلتُ لصديقتي: «أعتقد بأنني مضطرة لأن أهاتفكِ لاحقًا، فقد جاءتْ إحدى بناتي لزيارتي».

فسألَتْ: «بناتك؟!». كانت تعلم تمامًا ما أعني.

وأجبتُها: «طالباتي.. طالباتي».

فبادرتني: «عيشي حياتك يا امرأة!.. لماذا لا تعودينَ إلى التدريس؟».

وأجبتُ: «ولكنني أدرّس!».

فقالتْ: «آه.. أنت تفهمينَ ما أعني. وبمناسبة الحديثِ عن طالباتك: إن «آذينك» تضعني على حافةِ الجنون، فهذه البنتُ لا تفهم نفسها ولا تدري ماذا تريد، إما هذا، أو أنها تلعبُ لعبةً لا أفهمها».

فقلتُ بسرعة: «إنها قلقةٌ بشأن ابنتها. ولكن اسمعيني.. أنا فعلاً مضطرةٌ لإنهاء المكالمة، سأتصل بك لاحقًا».

حينما دخلتُ غرفةَ الطعام وجدتُ «نسرين» تتفرّسُ في «عصافيرِ الجنة»،

وهي تقضمُ أظافرها بذلك التركيزِ الذاهل الذي لا يتقنه إلاّ من أدمنَ تلك العادة السيئة. كان لا بد لي من أن أحدسَ بأنها تنتمي إلى فئةِ «قاضمي أظافرهم»! لا بد من أنها مارستْ كبتًا عظيمًا على نفسها في أثناء الحصص (أتذكرُ أنني فكرتُ بذلك لحظة ضبطتها بهذا المشهد). استدارتْ بفزعٍ لحظة أن سمعتْ صوتي، وأخفتْ يديها خلفَ ظهرها بسرعة. ولكي أتجاوز الإحراج الذي أدخلَتْهُ «نسرين» معها إلى الغرفة، سألتها عَمّ تحبّ أن تشرب.

ـ «لا شيء.. شكرًا».

لم تكنْ قد خلعَتْ جلبابها، واكتفَتْ بفتح أزرارِهِ لينحسرَ عن قميصٍ أبيضَ محشورِ الأطراف في بنطالٍ أسود من القطيفةِ المضلّعة، شعرها مسحوبٌ إلى الخلفِ بتسريحة ذيلِ الفرس، وكانت تنتعلُ حذاءَ الريبوك. كانت تبدو جميلة، غضة ورقيقة، وتشبه كل الفتيات الجميلات في أي بلدٍ في العالم.

كانت قلقةً كعادتها، تنقلُ ثقلَ جسدها من ساقٍ إلى أخرى، فتذكَّرْني بلقائي الأول بها منذُ ما يربو على ستةَ عشرَ عامًا. قلتُ لها بهدوء: «نسرين.. هلا هدأتِ لثانية؟.. أو اجلسي.. استريحي رجاءً.. ولكن لا.. دعينا ننزلُ إلى غرفة مكتبي، إنها أكثر عزلةً وهدوءًا». كنتُ أحاولُ إرجاءَ ما قد جاءتْ تخبرني به، فأخّرتُ نفسي معها في المطبخ. ناولتها صينيةً عليها صحنُ فاكهة كبير، وإبريقُ ماءٍ وقدحانِ وطبقانِ صغيران. وإذ كنا ننزلُ السلالمَ معًا لم تطقْ «نسرين» الانتظار أكثر، فباغتتني قائلة: «سأرحلُ بعيدًا!».

كنتُ قد تعلمتُ من تجربتي معها بألاّ أفقدها المزيد من التوازنِ بإظهار دهشتي أو مفاجأتي الكبيرة، فقلتُ بشيءٍ من الهدوء: «إلى أين؟».

فأجابتْ: «إلى لندن، لأعيشَ مع أختي بعض الوقت».

وسألتها: «وماذا عن «رامين»؟».

كنا عند بابِ غرفة المكتب، فانتظرتني ريثما أفتحُ الباب وهي تنقلُ جسدها من ساقٍ لأخرى، وكأن كلا ساقيها كانت ترفضُ أن تنوءَ بحملِ جسدها.

إستطعتُ أن أحدسَ من شحوبها وتعبيرِ الذهول الذي اعتلى وجهها بأنني سألتُ سؤالاً في غيرِ محلّه. فتمتمَتْ ونحن ندخلُ الغرفة: «لقد أنهيتُ علاقتي به».

جلسَتْ وظهرها للشباك، بينما ألقيتُ بنفسي على الأريكةِ المتكئةِ على الجدار، بلوحتِهِ الكبيرة التي تصوّر جبال طهران (كانت كبيرةً جدًا على تلك الغرفةِ الصغيرة). سألتها: «وكيف ستسافرين؟». أجابتْ: «بمساعدة المهربين، فأنا لا زلتُ لا أستطيعُ استصدارَ جوازِ سفر. سيكون عليّ أن أتدبّرَ أمري في الوصول الى تركيا برًّا، ومن هناك، سأنتظرُ وصولَ زوجِ أختي ليصحبني إلى إنكلترا».

ـ «ومتى سيكون ذلك؟».

ـ «في غضونِ اسبوع، لستُ متأكدة من التاريخ بدقة، سيخبرونني به».

ثم أضافتْ بعد لحظةِ صمت: «ستعرفينَ التفاصيل عن طريقِ «مهشيد»، فهي الوحيدة التي تعلمُ بالأمرِ من بين بناتِ الصف».

ـ «وهل سيرافقكِ أحد؟».

ـ «لا.. فأبي يعارضُ الفكرة، والشيء الوحيدُ الذي وافقَ عليه أخيرًا هو أن يساعدني في تحمّلِ جزءٍ من المصاريف، وستتحمّلُ أختي الباقي، وقد أطلقَتْ على ذلك: مهمةُ إنقاذِ «نسرين»! أبي يقولُ بأنني إذا كنتُ مصرةً على المضي في تنفيذ تلك الفكرة المجنونة، فسيكون عليّ أن أخوضها بمفردي، يقول بأن الناس هنا هم ناسنا، أيًا كانت آراؤنا بهم. لقد أضاع ابنتهُ الأولى، وها هي الثانية تلتحقُ بها لتضيعَ منه هي الأخرى، في البدءِ كان الصف الخاص، والآن، السفر».

ـ «لقد فهمتُ منكِ أنه لا يعرفُ شيئًا عن صفنا..!».

ـ «اتضحَ لي أنه كان يعرف!.. يبدو أنه هو الآخر كان يصرّ على الاحتفاظ بالشكليات».

راحتْ تفركُ يديها بهوسٍ وهي تتفادى النظرَ إليّ مباشرة. كانت هذه هي «نسرين»، أو توخيًا للصدق، هذه هي حالنا أنا و«نسرين»، نتقاسمُ معًا أكثر اللحظاتِ حميميةً، ولكننا نتعاملُ معها بهزةِ كتفٍ لا مبالية متظاهرتينَ بأنها ليست حميمية. ولم تكن الشجاعة هي دافعنا للتصرفِ بذلك الشكلِ العابر غير الإنساني في التعامل مع الألم العميق، إنما كان ضربًا من ضروب الجبن، أو نوعًا من ميكانيكية دفاعٍ مهلك عن النفس. كنا أنا وهي نحملُ الآخرين على الإصغاءِ لأعتى التجاربِ المروّعة ثم نحرمهم وننكرُ عليهم لحظة التعاطف، وكأننا بذلك نقول لهم: «لا أريدُ منكم أن تشعروا بالأسف لأجلي، إنه ليس أمرًا لا يمكنني احتماله، إنه لا شيء.. حقيقة لا شيء. ليس ثمة مشكلة!».

قالتْ لي بأنها طوال سنوات السجن وسنوات الحرب لم تعانِ بقدر معاناتها في سنواتِ إعادة التأهيلِ والضبط، فقد كانت تلك هي الأصعبُ فعلًا. في البدء، كانت تعتقدُ بأنها بحاجة إلى الابتعاد بعض الوقت، بيد أنها أدركتْ بالتدريج أنها تريد أن تغادر إلى الأبد. ولما لم يكن مسموحًا لها حتى ذلك الحين بأن تصدرَ جوازَ سفر، اي أنها كانت ممنوعةً رسميًا من السفر، فقد كان عليها أن تدبّر أمرها بالطرق غير الشرعية، ولم تكن تجدُ مشكلة في ذلك الأمر.

رحتُ أتحدثُ في الأمرِ وكأنه رحلة عادية، كأن تكونَ زيارةً معتادة إلى أختها في لندن. وقلت: «سيكون الجو في لندن ماطرًا جدًا في هذا الوقتِ من العام.. اسمعي.. لا تنسي أن تطلبي منهم أخذكِ إلى الـ«غلوب»... اممم.. ولكن أخبريني.. لماذا قطعتِ علاقتكِ بـ«رامين»؟».. (لم أستطعْ أن أمنعَ نفسي من طرح هذا السؤال!).. هل كان يعارضُ فكرة السفر؟ أم أنه هو الذي ألهمكِ بها؟».

فأجابتْ: «لا.. إنه.. إنه.. حسنًا.. لقد كان يعلم كم كنتُ أريد السفرَ بسبب ذلك المرض، تعلمين بأمره.. ذلك الذي خرجتُ به من سنواتِ السجن. فقد

ناقشنا الأمر أنا وأمي وأختي منذُ مدةٍ طويلة، ووجدنا أنه قد تكون فرصُ علاجِهِ أفضلَ هناك». (ولم أكن قد سالتها يومًا عن طبيعة مرضها بدقة). وواصلَتْ: «في البدء، وافقني «رامين» الرأي بضرورة السفر، «رامين» رجلٌ شريف جدير بالاحترام (التمعَتْ ابتسامة حقيقية في نظرةٍ خاطفة من عينيها بعثَتْ فيهما نزقَ «نسرين»: الأنثى/ الطفلة).. لكنه كان يرى أن علينا على الأقل أن نرتبط رسميًا قبل سفري». كنتُ أستمعُ إليها بإنتظار أن تستكمل. فقالتْ بعد صمت: «ولكنني بعد ذلك.. حسنًا.. لقد أنهيتُ العلاقة».

ـ «نسرين...؟».

أخفضتْ رأسها وركّزتْ نظرها على يديها وهي صامتة، ثم قالتْ بكلماتٍ متسارعة: «لقد كان.. أعني.. إنه ليسَ بأفضلَ من الآخرين. هل تذكرينَ ذلك البيت الشعري الذي قرأتِهِ علينا من «بيللو»؟ البيت الذي يحكي عن أناسٍ يلقونَ بنفاياتِ أفكارهم فوق رؤوسِ الآخرين؟». وابتسمتْ من جديد وهي تقول: «حسنًا إليكِ هذا الخبر: هذا هو «رامين» وأولئك هم اصدقاؤه المثقفون الذين يلقونَ بنفاياتِ أفكارهم فوق رؤوسنا!».

كانت عبارتها الأخيرة كبيرة عليّ، أنا المراوغة المحترفة، وفكرتُ بأخذِ رشفةِ ماءٍ صغيرة كسبًا للوقت، هكذا علمتني الروايات. ثم سألتُها: «وماذا تعنين بقولكِ ليس بأفضل من الآخرين؟ ومن هم أولئك الآخرون؟».

فأجابتْ ببطء هذه المرة: «لا أقصدُ عمي مثلًا.. لا.. لقد كان عمي أكثرَ وضوحًا وفجاجة، ربما هو أقربُ إلى السيد «نهوي»، تفهمينني؟.. أو.. ربما كان «رامين» مختلفًا بعض الشيء. فقد قرأ «دريدا» وشاهد «بيرغمان» و«كياروستامي»، وهو لم يلمسني مثلًا، في الواقع، كان حريصًا جدًا على ألاّ يلمسني. لا.. لقد كانت المسألة أسوأ من ذلك. لا أدري كيف أصف الأمر، كانت المشكلة في عينيه».

ـ «في عينيه؟!».

- «في نظراتِهِ للآخرين، أعني الأخريات.. تلك النظراتِ التي لا تُخطئها العين». ثم أحنتْ رأسها بخجلٍ وهي تنظرُ إلى أصابعها المتصارعة، وأكملَتْ: «كان «رامين» يعتقدُ بأن ثمة فرقًا ما بين البنتِ التي تثيرهُ جنسيًا، وبين تلك التي سيتزوجها والتي يتوافقُ معها فكريًا وتشاركهُ حياته، أي المرأةُ التي يكنّ لها الاحترام!». وراحتْ تكررُ بغضب: «الاحترام!.. الاحترام هي الكلمةُ التي كان يستخدمها!.. فعلاً.. لقد كان يحترمني!.. لقد كنتُ «سيمون دو بوفوار» الخاصة به.. «سيمونه» ناقصًا الجنس. وإذ كان أجبنُ من أن يمضي في ممارسةِ الجنسِ مع الأخريات ببساطةٍ، فقد اكتفى بالنظرِ والتمعّن. وقد افتُضِحَتْ نياته حينما ضبطتُهُ وهو ينظرُ إلى أختي الكبرى بينما كان يتحدثُ اليّ. لقد كانت محضُ نظرة.. لكنني اكتشفتُ بأنه ينظرُ إلى النساءِ بتلك الطريقة ذاتها التي.. التي كان عمي يمدُّ بها يدهُ على جسدي!».

لقد أحسستُ بالأسفِ لـ«نسرين»، ولعجبي، فقد أحسستُ بذلك صوبَ «رامين» أيضًا. لقد أحسستُ بأنه هو الآخرُ كان بحاجةٍ إلى المساعدة. فهو الآخرُ كان بحاجةٍ إلى معرفة المزيدِ عن نفسهِ، عن احتياجاتهِ ورغباته. ورغم أنها كانت ترى أنه ربما لا يشبهُ عمها.. ولكن كان من الصعبِ جدًا أن يطالبها أحدٌ بالتعاطفِ معه. كنتُ أحسّ بأنها ربما كانت قاسيةً عليهِ، لقد أقنعتْ نفسها بأنها لن تحتملَ أن تتركَ لديه أي مشاعر تخصّها. وقالت له بأن كل شيء بينهما قد انتهى، جعلْتُهُ يفهم تمامًا أنها لم تعدْ تجدهُ أفضلَ من سواه، من أولئك الرجالِ الذين يتقدمهم ويحتقرهم هو نفسه. قالت له: «إننا على الأقل نستطيعُ أن نفهمَ أين يمكننا أن نقفَ إزاء آية الله خامنئي، ولكن ما الذي يمكننا أن نفعلهُ إزاء أولئك الآخرين؟ أولئك الذينَ يتشدّقون بأفكارهم السياسية الصائبة، ويتبجحون بكل أشكالِ الادّعاءات الأخرى؟ إنهم الأسوأ من بين الجميع. وما دمتَ تفكرُ في إنقاذ البشرية انت وبائستك «آرندت»، فلماذا لا تنقذ نفسك أولاً بإيجادِ حلّ لمشكلاتكَ الجنسية؟ إذهبْ وابحثْ لنفسك عن عاهرة، وكفّ عينيك عن أختي!».

كلما فكرتُ بـ«نسرين»، وجدتُ نفسي أبتدئ وأنتهي عندَ ذلك اليوم وأراها وهي جالسة في تلك الغرفة تقول لي بأنها ستغادر. كان المساءُ قد حلّ في الخارج، كانت السماءُ بلون الغسق، لا ظلام ولا ضياء ولا حتى لونًا رماديًا. وكان المطرُ يهطلُ مدرارًا، وقطراتهُ تعلقُ بالأوراقِ الصفر لشجرة الكمثرى اليابسة.

قالتْ «نسرين»: «أنا راحلة». قالتْ بأنها قد جاوزتْ السابعةَ والعشرين، ولما تكنْ قد فهمتْ حتى الآن معنى أن تعيش. كانت تعتقدُ دائمًا بأن حياةَ السجنِ هي الأصعب، ولكنها لم تكنْ كذلك. قالتْ وهي تزيحُ عن وجهها خصلاتِ شعرٍ طائشة: «هناك، في السجن، كنتُ أفكر مثل كل الذين كانوا معي، كنا نفكرُ بأنهم قد يعدموننا وينتهي الأمر، أو بأنهم قد يدعوننا نعيش، ويطلقون سراحنا، فنولدُ من جديد. كانت أقصى أحلامنا ونحن هناك، هو أن يُطلقَ سراحنا، لقد كنتُ فقط أحلمُ بالحرية، ولكنني ما أن خرجتُ من السجنِ حتى بدأتُ أكتشفُ افتقاداتي: لقد بتُّ أفتقدُ الاحساسَ بالتكاتفِ والإصرار والصمود، بتُّ أفتقدُ ذلكَ الإحساسَ المشتركَ باقتسام الذكرياتِ والطعام. ووجدتُ أن أعظمَ ما أفتقدُ حقًا هو الأمل. ففي السجنِ كنا مفعمينَ بالأمل، أمل أن نخرج للحرية: أن نذهبَ إلى الجامعة، إلى السينما، وأن نتسلى ونمرح. لقد جاوزتُ السابعة والعشرين وأنا بعدُ لا أعرف معنى الحب. لم أعد أرغبُ بأن أكون سرًا مخفيًا إلى الأبد. أريد أن أفهم.. وأن أعرف من هي «نسرين»»..

ثم ختمتْ كلامها وهي تبتسمُ قائلة: «ربما ستطلقينَ على حالتي عبارة: «معضلة الحرية».. أليس كذلك؟».

[21]

طلبتْ مني «نسرين» أن أبلغَ البناتِ بسفرها، فلم تكنْ لتقوى على مواجهتهن، كانت تجدُ أن ذلك فوق طاقة احتمالها وأن من الأفضلِ لها أن تمضي بلا وداع. فكيفَ كان لي أن «أزفّ» لهنّ هذا الخبر؟ «لن تحضرَ «نسرين» الدرس بعد اليوم!» عبارة بمنتهى البساطة، ولكن الأمر كان يعتمد على الكيفية التي تُقالُ بها، كيف وعلى أيّ جزءٍ منها نشدّد. فقلتها لهنّ فجأة وبسرعة، وبطريقة أقرب إلى القاسية، مما دفع الجميع إلى السقوط في صمتٍ من الذهول. أحسستُ بضحكة «ياسي» المكبوتة الغاضبة، وبنظرةِ «آذين» الجافلة، وبالنظرات المتبادلة العجلى بين «ساناز» و«ميترا». وبعد صمتٍ طالَ قليلاً، قالتْ «ميترا»: «وأينَ هي الآن؟». فقلتُ: «لا أدري، علينا أن نسألَ «مهشيد»»..

فقالتْ «مهشيد» بهدوء: «لقد وصلت إلى الحدودِ منذ يومين، وهي بانتظارِ أن يتصلَ بها المهربون، ومن المفترضِ أن تكون في الأسبوع القادمِ على ظهرِ جملٍ أو حمارٍ أو تستقلّ سيارة «جيب» تقطعُ بها الصحراء».

فقالتْ «ياسي» بضحكةٍ مرتبكة: «ليسَ من دون ابنتي!»[1] ثم قالتْ وهي تضعُ يدها على فمها: «أنا آسفة جدًا.. أشعرُ بأنني مضطربة تمامًا».

---

(١) «ليس من دون إبنتي»: عنوان فيلم أميركي، يحكي قصة سيدة أميركية متزوجة من رجل إيراني، تعاني الكثير في إيران بعد الثورة، فتقررُ الهرب بصورة غير شرعية عبر الحدود البرية مع ابنتها. (هامش المترجمة).

في البدءِ رحنا نناقشُ تفاصيلَ رحلةِ «نسرين»: المخاطرَ التي قد تواجهها في السفرِ عبر الحدودِ التركية، اضطرارها لمواجهةِ كل ذلك بمفردها، توقعاتنا بشأن مستقبلها هناك. ثم قالتْ «آذين» بنبرةٍ معترضة: «هلاّ توقفنا عن الحديث عنها وكأنها ماتت؟.. ستكون أفضلَ بكثيرٍ وهي هناك، ولا بدّ لنا من أن نفرحَ لها». فرمقتْها «مهشيد» بنظرةٍ حادة. ولكن «آذين» كانت على حق، فما الذي يمكن أن نتمناهُ لها أفضل من هذا الخيار؟

بيدَ أن ردة الفعلِ الأعنف بين الجميع كانت تلك التي أبدتْها «مانا»، فهي الأكثر شبهًا بي من سواها، ولم يكن انفعالها بسبب سفر «نسرين»، بل بسببِ سفري أنا، لقد جعلها اختفاءُ «نسرين» المفاجئ تعي الآن فقط حقيقةَ أن الفراقَ قادمٌ لا محالة.

فقالتْ من دون النظرِ إلى أحد: «على أيةِ حال، إن هذا الصف سيتلاشى تمامًا قريبًا جدًا.. فقد استلمتْ «نسرين» الرسالة من الدكتورة نفيسي!».

ـ «أيةُ رسالة؟».

ـ «تلك الرسالة التي تقولُ بأن علينا جميعًا أن نغادر».

أصابتني مرارةُ ذلك الاتهام بما يشبهُ الصدمة، فأحسستُ بالذنب فعلاً، وكأن قرارَ سفري كان خيانةً لعهدٍ ما كنتُ قد قطعتهُ لهن (لاحقًا قال لي «الساحر» بعد أن شكوتُ إليه هواجسي: «لقد أصبحَ الإحساسُ بالذنبِ جزءًا من تركيبتك النفسية، لقد كنتِ تشعرين بالذنبِ حتى قبل أن تختمرَ ببالك فكرة السفر»).

التفتَتْ «آذين» صوبَ «مانا» وقالتْ بنبرةٍ ملأى باللوم: «لا تكوني سخيفة، فما ذنبُ الدكتورة إذا كنتِ تشعرينَ هنا بأنكِ مثل فأرٍ في مصيدة؟».

فقالتْ «مانا» بشراسة: «لستُ سخيفة، ثم إنني أشعر فعلاً بأنني فأرٌ في مصيدة، وكيف لا أشعر بهذا الشعور؟».

وضعَتْ «آذين» يدها داخل حقيبتها ربما لاصطياد سيجارة، لكنها أخرجتْها خالية الوفاض. وقالت لـ«مانا» ويدها ترتعش: «كيف تجرئين؟ ها أنك تتحدثين وكأن الذنبَ كله هو ذنبُ الأستاذة نفيسي!».

فقلتُ: «كلا أرجوكِ، دعي «مانا» تشرحُ لنا قصدها بنفسها».

فانبرَتْ «ساناز» لتقولَ بارتباكٍ: «ربما هي تقصدُ بأن تقول...».

فقاطعَتْها «مانا»: «شكرًا لك.. يمكنني جدًا أن أعبّرَ عن نفسي». واستدارتْ صوبي قائلةً: «لقد قصدتُ بأنكِ خلقتِ لنا نموذجًا، ضربتِ لنا مثلاً يحتذى به يفي بأن البقاءَ هنا لم يعدْ مجديًا، ولا بدّ لنا جميعًا من أن نغادرَ هذا المكان إذا أردنا أن نحققَ ذواتِنا».

فقلتُ بشيءٍ من الانفعال: «هذا ليس صحيحًا، أنا لم أفترضْ مطلقًا أن تكون تجربتي الشخصية هي بالضرورةِ ما يجب أن تكون عليه تجاربكنّ، لا يمكنكِ أن تتّبعيني في كل شيء يا«مانا»، أعني بأن على كل واحدةٍ منا أن تحققَ ما هو الأفضل بالنسبة لها، هذه هي أقصى نصيحةٍ أستطيعُ تقديمها لكُنّ».

فقالتْ «مانا»: «ان الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أقنع نفسي بأنكِ لا تجدين ضيرًا في تركِنا هنا، هي علمي بأني لو ملكتُ نصف فرصة لرحلتُ أنا أيضًا». (أتذكر قولها بدقة: «تركنا هنا»). ثم أضافتْ بعد تفكيرٍ سريع: «ولتركتُ كل شيء أنا أيضًا».

ـ «حتى «نيما»..؟».

فردّتْ بابتسامةٍ خبيثٍ صغيرة: «بل و«نيما» على وجه الخصوص!.. فأنا لستُ مثل «مهشيد»، أنا لا أجد أن من الواجبِ على أي أحدٍ البقاء في هذا البلد، نحن لا نحيا إلاّ مرةً واحدةً فقط».

لقد بقيتُ لسنواتٍ وأنا في دورِ الكاهنةِ لهاتيكَ البنات. كنّ يفتحنَ قلوبهنَ ويحكين لي آلامهنّ ومشكلاتهنّ، وكأنني إنسانةٌ بلا مشاكل، وكأنما لم تكن لي آلامي المحتاجة إلى علاج، وكأنني كنتُ أحيا تحت سطوةِ تعويذةٍ سحرية تقيني من الأهوالِ والشدائد التي تتعلقُ بالحياة برمّتها، لا فقط تلك المتعلقة بالحياة في الجمهورية الإسلامية. وها إنّهنّ الآنَ يطلبنَ مني أن أتحمّلَ مسؤولية قراراتهنّ أيضًا وخياراتهنّ، وهي أمورٌ شخصيّةٌ تتعلقُ بهنّ وحدهن، ولن

أستطيعَ مساعدة أيِّ منهنَّ إلا إذا عرفَتْ هي نفسها ماذا تريد. فكيف يمكنكَ أن تخبرَ أحدًا بما لا بدّ له من أن يريد؟! (في ذلك المساء، اتصل بي «نيما» وقال لي بشيءٍ من السخرية: «إن «مانا» بدأتْ تخشى الآنَ تحبيها بعد الآن.. وهي التي طلبتْ مني أن أتصلَ بك»).

إن أفراحَ الآخرين وأتراحهم غالبًا ما تحيلنا بطريقة أو بأخرى إلى التفكير بأنفسنا، فيكون جزءًا من تعاطفنا معهم بسببِ سؤالنا لأنفسنا: وماذا عني أنا؟ ما تأثيرُ ذلك على حياتي أنا؟ على آلامي وكربي؟ وبقدر تعلّق الأمر بنا، كان سفر «نسرين» قد أيقظَ فينا اهتمامًا حقيقيًا بها، وقلقًا وأمنياتٍ صادقةً تتعلّقُ بحياتها الجديدة. وقد كنا في تلك اللحظات على الأقل، لا نزالُ مفجوعاتٍ بألم افتقادها، ونتصوّر ما يمكن أن يكون عليه الصف بلا «نسرين». بيد أننا في النهاية عدنا مرةً أخرى للتفكيرِ بأنفسنا، عدنا إلى هواجسنا الخاصة وآمالنا الشخصية، ورحنا ننظرُ إليها على ضوء ما يمليهِ علينا قرارُها بالرحيل.

كانت «ميترا» هي الأولى التي بدأتْ بالتعبيرِ عن قلقها الشخصي، لكنني تنبّهتُ لاحقًا بأنها كانت تضمرُ غضبًا ومرارةً لم أعرفهما فيها من قبل، مما ازاد من قلقي عليها. أحسستُ بأن نبرة صوتها قد بدأت ترتفعُ من بين الكلماتِ التي تكتبها في أوراقها ومذكراتها منذُ أن بدأتْ تحكي قصةَ زيارتها إلى سوريا مع زوجها. كان أولُ ما حزّ في نفسها، ذلك الإذلالُ الذي يعانيهِ الإيرانيونَ بخنوعٍ في مطارِ دمشق. كانوا يعزلونهم عن سواهم في صفوفٍ جانبيةٍ، ويقومونَ بتفتيشهم تفتيشًا دقيقًا كما لو كانوا مجرمين. بيدَ أن صدمتَها الكبرى، من جانبٍ آخر، كانت وهي تواجه أحاسيسها الشخصية وهي في شوارعِ دمشق. كانت تسيرُ بحريّة وانطلاقٍ يدًا بيدٍ مع «حميد»، وهي ترتدي قميصًا عاديًا (تي شيرت) وبنطلون جينز. وصفَتْ إحساسَها بالهواءِ والشمسِ وهما يداعبانِ شعرَها وبشرتَها، وقالت بأنه: «كان دائمًا إحساسًا مثيرًا وصادمًا في آنٍ واحد». وقد كان ذلك هو شعوري ذاته أنا شخصيًا، ولاحقًا جدًا، سيكون هذا هو شعورُ «ياسي» و«مانا» أيضًا.

في مطارِ دمشقَ، أُهينَتْ على أساسِ ما يُفترضُ أن تكونه. وإذ عادتْ إلى طهران، كانت غاضبةً جدًا بسببِ ما كان يمكنُ أن تكونه! كانت غاضبةً على كل السنينِ التي ضاعتْ من عمرها، كانت تتحسّرُ على أنها أضاعتْ حصتها من الشمسِ والهواء، على كل ما فاتها من مشي في الشوارعِ مع «حميد». قالت بِجيرة: «الغريب في الأمر، هو أن المشي في الشوارع بحريّةٍ معه كان قد حوّلهُ إلى شخص آخر، شخص غريب». فكان ذلك قد شكّلَ سياقًا جديدًا في علاقتهما معًا، لقد بدتْ هي الأخرى غريبة حتى على نفسها. وراحتْ تتساءلُ: «هل هذه هي «ميترا» حقًا؟ هذه المرأة التي ترتدي الجينز والقميصَ البرتقالي، وتتمشى في الشمسِ مع شابٍ وسيم؟». من هي تلك المرأة؟ وهل سيكون بإمكانها أن تعتاد على التعايشِ معها، إذا كتبَ الله لها العيش في كندا؟

فتساءلتْ «مهشيد» وهي تنظرُ بتحدٍ الى «ميترا»: «هل تقصدينَ أنكِ لا تملكينَ أيّ إحساسٍ بالانتماءِ هنا؟ يبدو أنني صرتُ الوحيدة التي تشعرُ بأنها مدينةٌ بشيء لهذا المكان!».

فقالتْ «ميترا»: «أنا لا أستطيعُ العيش في جوٍ من الخوف الدائم والقلقِ المضني في كل لحظة بشأنِ ما أرتدي وما أفعل وكيف أمشي، كل شيء أفعله بتلقائية يُعدّ خطيئةً بنظر القانون، فكيف يمكنني أن أتصرف؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟».

فقالتْ «مهشيد»: «ولكنكِ تعرفينَ ما هو مطلوبٌ منكِ، وتعرفين حدودَ القانون، فما هو الجديد؟ لماذا صرتِ تجدينَ ذلك وقد أصبحَ أمرًا لا يمكنُ احتماله؟».

فقالتْ «ساناز»: «ربما يبدو الأمر أسهل بالنسبة لك...».

فلم تدعْها «مهشيد» تكمل جملتها وقالت وهي تحدجها بنظراتٍ حادة: «تظنينَ بأنني أواجهُ كل ذلك بسهولة؟ أنتِ تعتقدينَ بأن بشرًا مثلكِ فقط هم الذين يعانون في هذا البلد، أليسَ كذلك؟». بدأت تشوبُ نبرتَها المرارةُ وهي

تقول: «أنت لا تعرفين حتى ما هو الخوف، هل تعتقدين بأن إيماني وارتدائي الحجاب يقفانِ دون إحساسي بالتهديد؟ تعتقدين بأنني لا أحسّ بالخوف؟ ألا يبدو ذلك في غاية السطحية؟ أن يعتقدَ المرء بأن الخوف الوحيد في العالم هو ذلك الخوفُ الذي يعانيه هو فقط؟».

فقالتْ «سانار» بنبرةِ ألطف: «أنا لم أقصدْ ذلك مطلقًا، كنتُ أعني أن معرفتنا بالقوانين واعتيادنا عليها لن يجعلَها تبدو أفضل، ولن يجعلنا ذلك بعيدين عن الشعورِ بالخوفِ والضغطِ النفسي. وبقدر تعلّق الأمر بك أنت، فارتداؤك الحجاب أمرٌ طبيعي، فهو خيارُكِ الشخصي».

فردّت «مهشيد» بضحكة ساخرة: «خياري الشخصي! وما الذي قد بقي عندي سوى ديني؟ وإذا ما خسرتُ ذلك فـ ...».... وتركتْ جملتها تائهة من دون أن تكملَها، وعادتْ لتحدّقَ في الأرضِ من جديد، وتمتمتْ: «أنا آسفة، لقد غلبني الانفعال أكثر مما يجب».

فانبرتْ «ياسي»: أنا أفهمُ تمامًا ما تعنيه «مهشيد»، لأن أعتى أنواع الخوف هو الخوف من أن نفقد إيماننا، فحينئذٍ لن يتقبّلَنا أحد: لا أولئك الذين يعتبرون أنفسهم علمانيين، ولا أولئك الذين يحملون إيماننا نفسه، إنه أمرٌ مريع. لقد كنا نتحدّثُ أنا و«مهشيد» في ذلك، وكيف أنه منذ زمنٍ أبعد من الذاكرة، كان ديننا قد شرحَ وأوضحَ لنا كل تفصيلٍ وفعلٍ في حياتنا. وإذا فقدتُ إيماني ذات يوم ـ لا قدّر الله ـ فسيكونُ ذلك بمثابة موتٍ تام، وسيكون عليّ البدءُ من جديد لإتقانِ فعلِ العيش في عالمٍ بلا ضمانات.

انفطرَ قلبي حزنًا على «مهشيد»، نظرتُ إليها وهي جالسةٌ في مكانها تحاولُ أن تبدو متماسكة، بينما يتوهّج وجهها احمرارًا، وتجيشُ انفعالاتها الحادةُ مثل أوردةٍ تنبضُ تحت جلدها الرقيق. وخطرَ ببالي كيف كانت تدورُ كل تلك الأسئلة الإشكالية الدامغة في الدين في رأس «مهشيد»، أكثر من أكثر طالباتي ميلاً إلى العلمانية. فكانت تتساءلُ في أوراقها ومذكراتها عن أدقّ تفاصيلِ

الحياةِ في ظل الحكمِ الإسلامي، بغضبٍ مكبوتٍ يشبهُ ابتسامتها المكبوتة. وقد كتبتْ لاحقًا في مذكراتِها الخاصةِ بالصفِ تقول: «كلتانا، أنا و«ياسي» نعلمُ أننا نفقدُ إيماننا شيئًا فشيئًا، فقد بدأنا منذُ زمنٍ نتساءلُ عنه في كل حركة نقوم بها. في عهدِ الشاه، كان الأمرُ مختلفًا، كنتُ أحسّ بأنني أنتمي إلى أقليةٍ من البشر، وكان عليّ أن أصونَ معتقدي أمام كل ما يواجهني من أفكارٍ مضادة. والآن، وقد أصبحَ رجالُ الدين في السلطة، بتُّ أشعرُ بالعجزِ والاغتراب أكثر من أي وقتٍ مضى. منذُ أن وعَينا وهم يقولون لنا بأن الحياة على أرض الكفارِ هي الجحيم بعينه، وكانوا يعدوننا بأن كل ذلك سينتهي ما ان نكون في ظلّ حكمٍ إسلامي عادل ..حكم إسلامي!.. يا إلهي!.. لم يكن ذلك سوى مهرجاناتٍ ومواكبَ من العارِ والتظاهرِ بالدين والفضيلة!». كتبتْ تنتقدُ رؤساءها في العمل، وكيف أنهم كانوا لا ينظرون في عينيها. وكتَبَتْ تنتقدُ فرضَ الحجابِ حتى على طفلة في السادسةِ من عمرها ومنعها من اللعبِ مع الأولاد، وكيف انها كانت ترى كل ذلك في صالات السينما والأماكن العامة. وعلى الرغم من أنها بقِيَتْ ملتزمةً بحجابها، إلا أنها كانت تصفُ الألم الذي يصيبها وهي تشعرُ بأنها مُطالَبةٌ بارتدائه، وقد وصفَتْهُ بأنه «القناعُ الذي يجبرونَ النساءَ على الاختباءِ خلفه». كانت قد كتبتْ كل ذلك ببرود وغضبٍ متلازمين، وكانت تضعُ دائمًا علامة استفهامٍ بعد كلّ نقطةٍ في آخرِ الكلام.

في ذلك اليوم، أحسستُ للمرةِ الأولى بأنني مستعدةٌ للحديثِ معهنّ بصدقٍ وصراحة بشأن ما كنتُ أنوي فعلهُ وما يعنيه السفر بالنسبة لي، فقلتُ: «لقد كان قرارًا صعبًا، وكان عليّ الخوض في مناقشاتٍ ومشاوراتٍ مهلكة، حتى إنني فكرتُ بترك «بيجان»». (سألني «بيجان» لاحقًا حينما حكيتُ له ما حدثَ في الصفِ في ذلك اليوم: «لكنك لم تصارحيني بذلك أبدًا! هل فكّرتِ بذلك حقًا؟»).

كان لحديثي عن نفسي تأثيرهُ الخاص في إشغالهنّ ولو لبعض الوقتِ عن

الخوض في غمارِ الغضبِ والإحباط الذي كنّ يعانينّ منه. رحتُ أحدّثهنّ عن مخاوفي الشخصية، عن تلك الليالي الطوالِ التي كنتُ فيها أستيقظُ فزعةً من نومي وأنا أشعرُ بالاختناق، وكأنني لن أستطيعَ الخروج من المصيدة أبدًا، عن نوبات الدوارِ والغثيانِ التي كانت تصيبني، وعن قضائي ليالٍ بأكملها وأنا أذرعُ شقتنا جيئةً وذهابًا على غير هدى. كانت تلك هي المرة الأولى التي أفتحُ بها قلبي لهن، وأحدّثهنّ عن مشاعري وانفعالاتي الشخصية، ويبدو أنه كان لذلكَ مفعولٌ مهدّئٌ لهنّ بشكلٍ غريب.

فجأة قفزَتْ «آذين» من مكانها. كانت ابنتها تعيشُ مع أهل أبيها موقتًا في ذلك الوقت، وفي خضم حوارنا تذكّرتْ «آذين» فجأةً بأن دورها في زيارة البنت كان في ذلك اليوم (كانت «آذين» قد اسمَتْ إبنتها «نيغار» على اسم ابنتي).

مرّ بنا الوقتُ من دون أن نشعر، وفي اللحظةِ التي أيقظتْنا بها «آذين» كنا نحسّ بأننا أخفّ بكثيرٍ وأقلّ توترًا مما كنا عليه في أول الجلسة. ولمّا شارفنا على نهايتها وجدنا أنفسنا نتمازحُ بشأن «النبلاءِ العابرين» لـ«ساناز»، وبشأن محاولاتِ «ياسي» للتخلّص من بعض الكيلوغرامات الزائدة من وزنها. وقبل أن يغادرَ الجميع، التقطَتْ «مهشيد» طردًا كانت قد جلبتْهُ معها وقالت لي: «الديّ شيءٌ لك، «نسرين» تبعثُ لك بتحياتها، وقد طلبَتْ مني أن أعطيكِ هذه». وناولتْني حافظةَ أوراقٍ سميكةً ورزمةَ أوراق.

ها هي أمامي الآن، على مكتبٍ آخر، في غرفةٍ أخرى، في بلدٍ آخر. تبدو ألوانها في غاية الروعة: أبيض مخطط ببرتقالي بلون علكة البالونات، وقد رُسِمَتْ عليه ثلاثُ شخصياتٍ كارتونية، وكُتِبَ عليه بحروفٍ نابضة من الأخضر والبنفسجي عبارة تقول: «تراكم في فلوريدا الخرافية، كل شيءٍ سيكونُ أروع في ضوء الشمس!». وقد دوّنتْ «نسرين» بداخلها كل حرفٍ وكل كلمةٍ قلتُها في محاضراتي عبر الفصول الثلاثة الأخيرة من تدريسي في جامعة العلاّمة. وقد كتبتْها بخطِ يدها الأنيق النظيف، بعناوينها الرئيسة

والفرعية، ولم تغفلْ عن جملةٍ أو قولٍ مأثور أو طرفة. الكل كان هناك: «جيمس» و«أوستن» و «فيلدنغ» و«برونتي» و«بو» و«توين». بيد أنها لم تترك بين الأوراقِ شيئًا آخر: صورة أو تعليقًا شخصيًا، باستثناءِ سطرٍ واحدٍ كتبتُه في الصفحة الأخيرة:

ـ «لا زلتُ مدينةً لكِ بورقة بحثية عن «غاتسبي»».

[22]

- «إن العيشَ في الجمهوريةِ الإسلاميةِ هو أشبهُ بممارسةِ الجنسِ مع شخصٍ تتقزَّزُ منه!».

هكذا قلتُ لـ«بيجان» في مساءِ ذلك اليوم بعد درس الخميس. كان قد عادَ إلى البيتِ ليجدني جالسةً على كرسيِّ المعتادِ في غرفةِ الطعام، وفي حضني أوراقُ «نسرين»، وقد تناثرَتْ أوراقُ ودفاترُ طالباتي على الطاولة أمامي جنبًا إلى جنبٍ مع طبقي المفضَّل من الـ«آيس كريم» بالقهوة وهو ذائبٌ تمامًا. فقالَ بعد أن ألقى نظرةً على الطبق: «ياآآه! تبدينَ مرهقةً تمامًا!». ثم جلسَ قُبالتي وقال: «لا تدعي تلك العبارة هكذا معلّقةً في الهواء، إشرحيها قليلًا».

فقلت: «حسنًا.. هذا ما يحدث: إذا ما أُجبِرْتَ على ممارسةِ الجنسِ مع شخصٍ لا رغبةَ لك به، فإنك ستُلغي تفكيركَ تمامًا، وتتظاهرُ أمام نفسكَ بأنك في مكانٍ آخر، وتحاولُ أن تلغي جسدك، ثم تكرهُ جسدك! وهذا ما نفعله نحنُ هنا، فإننا نتظاهرُ أمام أنفسنا دائمًا بأننا في مكانٍ آخر، مكان نقرّرهُ أو نحلمُ به. أتدري؟.. منذ أن غادرَتْ طالباتي بعد ظهرِ اليوم حتى الآن وأنا أفكرُ بهذهِ القضية».

كنت أنا و«بيجان» قد غدونا أقربَ بشكلٍ مدهشٍ بعد تلك الحقبةِ من المشاجراتِ الحاميةِ المؤلمة. كان «بيجان» من النوع الذي يعبرُ عن نفسهِ بالصمت، بل ويجيدُ التعبير الصامت. ومنهُ خبرْتُ وجود أشكالٍ مختلفةٍ

للتعبير صمتًا: الصمت الغاضب والصمت الرافض بالإضافة إلى الرضا صمتًا والحب صمتًا. كان الصمتُ عنده يتراكم أحيانًا فيتفجّرُ سيولاً من الكلماتِ الهادرة. لكننا وجدنا أنفسنا في الآونةِ الأخيرة ننخرط في حواراتٍ طويلة مستمرة. وكان كل ذلك قد بدأ حينما قررنا أن يصفَ أحدنا للآخر شعورهُ تجاه إيران. فصارَ كلانا لأولِ مرةٍ ينظرُ للأمرِ بعين الآخر. فـ«بيجان» الذي كان قد ابتدأ منذُ ذلك الحين يفككُ حياته في إيران، بدا بحاجةٍ إلى التعبيرِ عن آرائهِ ومشاعرهِ لأحد، مثلما كنتُ أنا. فرُحنا نقضي ساعاتٍ طوالاً نتحدّثُ بها عن مشاعرنا، وعن مفهوم كلٍ منا عن فكرة: البيت الوطن، الذي كنتُ أنظرُ إليه أنا على أنه شيء قابلٌ للحملِ والحركة، بينما كانت نظرةُ «بيجان» إليه متأصّلةً متجذرة وأكثر تقليديةً. فكان بالنسبة لي «محمولاً»، وبالنسبة له «ثابتًا».

حكيتُ له بالتفصيلِ عن نقاشاتنا الحاميةِ في الصفِ ذلك النهار، ثم قلتُ له: «.. ومنذُ أن غادرنَ استحوذَتْ عليّ فكرةُ الإرغامِ الجنسي، أو ممارسة الجنسِ مع شخصٍ نتقزّزُ منه، وبقيتُ أعذّبُ نفسي بفكرةِ أنه لا بدّ من أن هذا هو شعور «مانا»».

لم يعلّق «بيجان» بكلمة، فبدا وكأنهُ كان ينتظرُ المزيدَ من الإيضاح. بيدَ أنني أحسستُ فجأةً بأنه ليسَ عندي ما أقولُ بعد. فرُحتُ أتمطّى في مكاني والتقطتُ بعضَ الفستقِ وأنا أحسّ بأنني أصبحتُ أخفَ قليلاً. وقلتُ له وأنا أقشّرُ فستقةً بأصابعي: «ألم تلاحظ يومًا كم هو غريبٌ أنكَ حينما تنظرُ إلى هذه المرآة لا ترى نفسكَ بل ترى الأشجارَ والجبالَ وكأنكَ تخفي نفسكَ بلمسةٍ سحرية؟».

فأجابَ وهو ذاهبٌ إلى المطبخِ ليجلبَ كأسهُ المعتادَة من الفودكا: «أجل، في الواقع لقد لاحظتُ ذلك، لكنهُ لم يحرمني النوم». ثم أضافَ وهو يضعُ كأسهُ على الطاولة مع طبقٍ جديدٍ من الفستق: «ولا بدّ من أنك كنتِ بطريقةٍ أو بأخرى تفكرينَ بذلك ليلَ نهار. أما فيما يخصّ استعاراتكِ البليغة وتشبيهكِ الدامغ، فلا بد من أن طالباتكِ مستاءاتٌ من فكرةِ رحيلكِ عن ذلك الشخصِ

البغيض، بينما هنّ مضطراتٍ للاستمرارِ في ممارسةِ الجنسِ معه!». وأضافَ وهو يأخذُ رشفةً من الفودكا: «بعضهنّ على الأقل». ثم راحَ يتأمّلُ كأسهُ وهو يقول: «سأفتقدُ هذا القدح!.. والآن.. عليكِ أن تقرّي بذلك: نحن نصنعُ أفضلَ فودكا مزيّفة في العالم!».

فقطعتُ تأملاتِهِ بشأن مزايا الفودكا التي نصنعها، وقلت: «إن الرحيلَ عن ذلك الشخص المزعوم لن يكونَ علاجًا ناجعًا مثلما تظن، فنحنُ نحملُ ذكرياتنا أينما ذهبنا مثلما نحملُ تلوّثنا وإحساسنا بالقرف، فذلك ليس بالأمرِ الهيّن الذي نستطيعُ الإنسلاخ عَنه لحظةَ نغادره».

فقال: لديّ تعليقانِ على هذا، أولاً: لا أحد منا يستطيعُ أن يكون بمنأى تمامًا عن التلوّثِ بشرورِ العالم، فذلك يتوقفُ على موقفِ كل منا من تلك الشرور. وثانيًا: طالما أنك تتحدّثين دائمًا عن تأثيرِ «أولئك البشر» عليك، فهل فكرتِ ذات يوم بتأثيركِ أنت عليهم؟ فتطلّعتُ إليه بريبة وهو يواصلُ حديثه: «تلك علاقة غير متكافئة على كل المستويات، فهم يملكون القدرة على قتلنا وجَلدنا، بيد أن ذلك لا يذكّرهم إلاّ بضعفهم، فهم يرتعدون خوفًا وهم يرون ما يحدثُ لرفاقهم في النضالِ ولأبنائهم».

[23]

كان يومًا صيفيًا دافئًا بعد مضي أسبوعين على حوارنا أنا و«بيجان»، وكنتُ قد لجأتُ إلى مقهى جميل. كان في الواقع محلًا لبيع الحلويات، واحدًا من المحلات القلائل التي تبقّتْ منذ أيام طفولتي، وقد اشتهرَ بإعدادِ نوعٍ ممتازٍ من الـ«بيروشكي»[1] الذي كان الناس يقفونَ صفوفًا طويلة بانتظارِ دورهم في شرائه. وقد وضعوا قربَ المدخلِ طاولتينِ أو ثلاث بجانبِ نوافذه الفرنسية الواسعة، فجلستُ الى إحداها وكان أمامي قدحٌ من الـ«كافيه غلاسيه». إستخرجتُ من الحقيبة قلمًا وورقة، وبدأتُ أحدّقُ في الفضاء وأكتب. كان ذلك التحديقُ في الفضاءِ والكتابة قد أصبحا سمةً تميّزُ حياتي، خصوصًا في الأشهرِ القلائلِ الأخيرةِ التي سبقَتْ رحيلي عن طهران.

وفجأةً، لفتَ انتباهي وجهٌ مألوفٌ من بين الواقفين في الصف الطويلِ بانتظار الـ«بيروشكي»، في الواقع إنه لم يكن وجهًا مألوفًا إلى الحدّ الذي مكنني من استذكاره. كانت ثمة امرأة تنظرُ إليّ بطريقةٍ أقرب الى التحديق، فابتسَمَتْ وتخلّتْ عن دورها الغالي في الصف الطويل، واتّجهَتْ إلى طاولتي. قالتْ وهي تبتسم: «مرحبًا دكتورة «نفيسي».. ألا تتذكريني؟». كان قد بدا واضحًا أنها واحدة من طالباتي السابقات، صوتها بدا مألوفًا هو الآخر ولكنني مع ذلك، لم أستطعْ تذكّرها.

---

(١) البيروشكي: نوع من المعجنات المحشوة بالجبنة أو السبانخ. (هامش المترجمة).

راحتْ تذكّرني بمحاضراتي عن «جيمس» و«أوستن»، وشيئًا فشيئًا راحَ شبحها يأخذ مكانهُ في ذاكرتي، ويحومُ حولَ صورةٍ تقفُ جنبًا إلى جنبٍ مع وجودها الراهن، فاستطعتُ أن أميّز من بين كل ذلك ملامحَ الآنسة «روحي». لم أكن قد التقيتُ بها منذُ سنين، وكنتُ سأتعرّفُ عليها بسرعةٍ لو أنها كانت قد ارتدَت الجادور الذي كان سيُبرزُ أنفها المستدقّ المرتفع وابتساماتها المحايدة.

هذه المرة كانت الآنسة «روحي» ترتدي اللونَ الأسود ولكن بلا جادور. وقد ربطَتْ رأسها بإيشاربٍ أسودَ طويل عقصَتْهُ بدبّوسٍ فضيّ بدا وكأنه يتراقصُ مثل خيوطِ العنكبوتِ فوقَ القماشِ الأسود. كانت تضعُ مكياجًا باهتًا، وقد تسلّلتْ خصلاتٌ من شعرها البنيّ الغامقِ من تحتِ الإيشارب. بقيَتْ تحضرُني صورةُ وجهها الآخر، ذلك الوجه المتزمّت المتواري إلى حدّ أنه جعل شفتيها في حالة صراعٍ دائم. وقد انتبهتُ في ذلك الحين بأن وجهها لم يكن ليعوزهُ الجمال مثلما كنتُ أعتقد.

وقفَتْ بتردّدٍ عند طاولتي، فدعوتها للجلوسِ معي وتناولِ القهوة ما دامتْ قد ضحّتْ بمكانِها المشتهى في الصفِ الطويل. تلكأتْ قليلاً ثم جلستْ بقلقٍ عندَ حافة الكرسي. أخبرتْني أنها بعد تخرجها أصبحتْ ناشطةً في إحدى منظماتِ الميليشيا، بيد أنها تركتْهم بعد مدّةٍ وجيزة. قالت بابتسامة: «.. لم يكونوا معنيينَ بالأدبِ الإنكليزي.. كما تعلمين». وقالت بأنها تزوّجَتْ منذُ عامين، وبأنها تفتقدُ أيام الجامعة جدًا. كانت في وقتٍ ما تقولُ في نفسها: «لماذا أكملتُ دراستي في الأدبِ الإنكليزي؟ لماذا لم أجدْ لنفسي فرعًا آخر أكثر فائدة؟». وهنا ابتسمتْ وأضافتْ: «لكنني الآن راضية وسعيدة بتحصيلي الدراسي، فأنا أحسّ بأنني أمتلكُ شيئًا لا يمتلكهُ الكثيرون. هل تذكرينَ نقاشاتنا حولَ «مرتفعاتِ ويذرينغ»..؟».

فعلاً لقد تذكّرتُ تلك النقاشات، وبينما كنا نتحدّثُ رحتُ أتذكر الآنسة «روحي» بوضوحٍ أكبر. فراحت الصورُ تطردُ وجهها غير المألوفِ الحاضرَ

أمامي، وتستبدلهُ بوجهٍ آخرَ، كان في طريقه ليصبحَ غير مألوفٍ هو الآخر. وعدتُ بذاكرتي إلى ذلك الصف، في الطابقِ الرابع، القاعة الثالثة في الممشى الطويل، أم تراها كانت الرابعة؟

استطعتُ أن أميّزَ وجهين أقربُ إلى المتطابقين في عدم رضاهما عن كل ما يجري، وأراهما معًا تدوّنان الملاحظات. كانتا هناكَ عند دخولي القاعة، وستخلفان عن مغادرتها بعدي. كان الكلّ ينظرُ إليهما بريبة، فقد كانتا ناشطتينِ في جمعية الطلبة المسلمين، ولم تكونا تخالطان أحدًا حتى لو كان من عناصر الجهادِ الإسلامي الأكثر تحررًا ربما، من أمثال السيد «فرصتي».

أتذكرها تمامًا، وأتذكّر ذلك النقاش عن «مرتفعات ويذرينغ». أتذكرُ كيف تركت الآنسةُ «روحي» صديقتها الملاصقةَ لها وتبعتني إلى خارج قاعةِ الدرس، وهي تقريبًا تحصرني في زاويةٍ من الممرّ. فوَبّخَتْ أمامي وراحتْ تصبّ جامّ غضبها وسُخطها على تصرفاتِ «كاترين» و«هيثكليف» غير الأخلاقية. كانت كلماتُها ملأى بالانفعالِ والغضب، إلى حدّ أنني صُعِقتُ وأنا أتساءلُ: عماذا تتحدّثُ هذه الآنسة؟

لم أكنْ على استعدادٍ لتقديم روايةٍ أخرى للمحاكمة، فقلتُ لها بأن الحديثَ عن رواية عظيمةٍ بهذه الطريقة بحد ذاته تصرّفٌ «غير أخلاقي»، وبأن شخوصَ الرواية ليسوا وسائل لاستعراضِ الضوابط الأخلاقية السطحية، وليستِ الرواية موضوعًا للتوبيخ واللوم. فدمدَمتُ بشيءٍ عن كياسةِ بعضِ الأساتذةِ الذين حذفوا حتى كلمةَ «نبيذ» من الروايات التي يدرّسونها لئلاّ يخدشوا مشاعرَ طلبتهم المسلمين. وقلتُ في نفسي: «فعلاً.. ولهذا لم يعد أمامهم سوى «اللؤلؤة» التي التزموا بها منهجًا من دون غيرها من الروايات!». وقلتُ لها إن بإمكانها الكفّ عن حضورِ محاضراتي، أو اللجوءِ إلى سلطاتٍ أعلى، فهذا هو أسلوبي في التدريس، ولن أتخلى عن تدريسِ ما أراه مناسبًا. ثم مضيتُ وتركتُها في تلك الزاوية المظلمةِ من ذلك الممرّ الطويل الطويل. وعلى الرغم

من أنني رأيتها بعد ذلك مراتٍ كثيرة، إلا أنني أبقيتُها في بالي هناك الى الأبد. وها هي الآن أمامي، أراها وقد نقّبتْ في ثنايا روحها لتستخرجَ وجهًا آخر حرصَتْ على صقلِهِ ليبدو أكثر تهذيبًا.

كانتْ قد اعترضتْ كذلك على «ديزي ميللر»، فلم تكنْ ترى أنها سيئةُ الأخلاق فقط، بل لقد وجدَتْ بأنها «تافهة» و«غير منطقية». وعلى الرغم من خلافاتنا واعتراضاتها الصارخة بشأن الروايات التي كنتُ أدرّسها، إلا أنها سجّلتْ نفسها من جديد في صفي في العام التالي. كانت ثمةَ إشاعاتٌ تفي بأنها كانت على علاقةٍ بأحدِ الزعماءِ البارزينَ في جمعيةِ الطلبةِ المسلمين. كانت «نسرين» هي التي تلفتُ انتباهي لتلك الإشاعات، في محاولةٍ منها أن تؤكّدَ لي مدى نفاق وزيف «أولئكَ الناس».

قالت الآنسة «روحي» بأنها تفتقدُ أيام الجامعة، ورغم أنها لم تكنْ تحسّ بحلاوتها وهي طالبة إلا أنها اكتشفَتْ ذلك لاحقًا، بعد تخرّجها. كانت تفتقدُ الأفلامَ التي كنا نشاهدها معًا والمناقشاتِ التي كانت تدورُ في ساعاتِ الدرس.

ـ «هل تذكرينِ «جمعية العزيزة جين» يا دكتورة؟».

ودهشتُ فعلاً. أنى لها أن تعرفَ بذلك؟ فلم تكنْ أكثرَ من مزحةٍ كنا نتشاطرها أنا ومجموعة صغيرة من طالباتي. قالتْ لي: كم كنتُ أتمنى لو أنضمّ إليها! كنتُ أعتقدُ دائمًا بأنني سأستمتعُ بها جدًا، فلقد أحببتُ «جين أوستن» فعلاً. لو تدرينَ يا أستاذة كم من الطالباتِ كنّ مهووساتٍ بـ«دارسي»!». فقلتُ: «لم أكنْ أعلمُ أنه كان من المسموحِ أن يكونَ لكُنّ قلوبٌ في الجمعية التي تنتمينَ إليها». فقالت: «لكِ أن تصدّقي أو لا تصدّقي، لقد كنا نقعُ في الحب طوال الوقت، وكنا ننتقلُ من حبّ إلى حب كل يوم!».

قالت بأنها حاولتْ دراسة اللغة العربية، وبأنها قامتْ بترجمةِ بعضِ القصصِ والقصائدِ من الإنكليزية إلى الفارسية. وأضافتْ بأنها كانت تفعل ذلك لنفسها، وقد استعملَت التعبير الإيراني: «من أجل قلبي فقط». وأضافتْ أيضًا بعد برهةٍ

صمت: «ثم تزوّجتُ وأنجبتُ بنتًا». فتساءلتُ في نفسي ما إذا كانت قد تزوّجَتْ من ذلك الرجل؛ بطل إشاعتنا، وهو شخصٌ لم أكن أحتفظُ له بأية ذكرى طيبة.

سألتُها عن عمرِ ابنتها، فقالتْ بأنها في شهرها الحادي عشر. ثم استأنفَتْ وقد علَتْ وجهَها ظلالُ ابتسامةٍ لعوب: «.. ولقد استلهمتُ اسمها منكِ أنت!».

ـ «مني أنا؟».

ـ «أجل.. هي في الواقعِ تحملُ اسمًا مختلفًا في شهادة ميلادها، فقد سميناها «فهيمة» وهو إسم عمةٍ عزيزةٍ علينا توفيَتْ في سن مبكرة، بيد أنني منحتها إسمًا سريًا.. لقد سميتها «ديزي»!.. كنتُ مترددةً ما بين «ديزي» و«لِزي».. لكنني خلصتُ إلى «ديزي»، كانت «لِزي» هي حلمي، لكن الزواجَ من «دارسي» أيضًا كان حلمًا بعيد المنالِ جدًا».

ـ «ولماذا «ديزي»..؟».

ـ «ألا تتذكرين «ديزي ميللر»؟.. ألا تدرين بأنكِ إذا منحتِ طفلكِ اسمًا ذا معنى ما، فإنه سيأخذُ شيئًا من مسمّاه؟ لقد أردتُ لابنتي أن تكون ما لم أكنهُ أنا.. أن تصبحَ مثل «ديزي».. أعني.. أن تصبحَ شجاعةً مثلها».

ولكَم عجبتُ لانقلابِ المواقف!

وتذكرتُ كيف كانت «ديزي ميللر» من أكثر الشخصيات التي تعتبرها بقية طالباتي شبيهةً بهنّ، حتى إن بعضهنّ أصبحنَ مهووساتٍ بها. ولاحقًا في صفي الخاص، صرنَ يتحدثنَ عنها كثيرًا، فيذكرنها لسببٍ أو لآخر، ويذكرنَ شجاعتها التي كنّ يشعرنَ بالافتقارِ إليها. كانت «مهشيد» و«ميترا» تتحدّثانِ عنها بما يشبه الندم، وكانتا تشعران بأنهما أساءتا فهمها مثلما فعل «وينتربورن».

حينما نهضَت الآنسة «روحي» لتودّعني وتمضي، نظرتُ إليها بشيءٍ من التردد قبلَ أن أقول: «هل لي أن أسألَ سؤالاً أقربَ إلى الشخصي؟.. لقد ذكرتِ لي أنك الآن متزوجة.. فماذا عن.. ماذا عن زوجك؟». فأجابتْ: «لقد تزوّجتُ برجلٍ من خارج الجامعة، يعملُ في مجالِ الحاسوب». وأضافتْ بابتسامة: «وهو رجلٌ واسع الأفق ومتفتّح».

قالتْ بأنها لا بدّ من أن تمضي، فقد كانت بانتظارها في البيت طفلةٌ في شهرها الحادي عشر، وتحملُ اسمًا سرّيًا! وكانت آخرُ كلماتها لي: «أتدرين؟.. لم أكن قد فكّرتُ بالأمر مليًا في ذلك الوقت، لكننا كنا مستمتعينَ فعلاً في تلك الأيام. ولقد أقمنا الدنيا ولم نقعدها على أولئك الكتّاب بلا سبب، وكأن ما قد كتبوهُ كان مسألةَ حياةٍ أو موتٍ بالنسبة لنا!.. كلهم: «جيمس» و«برونتي» و«نابوكوف» و«جين أوستن».. وكلها لم تكن سوى ضجّةٍ بلا طائل».

[24]

ثمة ذكرياتٍ صغيرة، تشبهُ البالوناتِ الخيالية التي ترسمها «سي» بيديها الرقيقتينِ حينما تكونُ سعيدة منتشية، تفاصيلُ تنبثق من مكنٍ ما من تلك الأعماق التي نسميها الذاكرة. وهي أيضًا، مثلها مثل البالونات، خفيفة وضّاءة ساطعة، ولا يمكن استعادتُها بسهولة، على الرغم من «حزن الهواء» الذي يحيط بها و(«حزن الهواء» هو تعبيرٌ خالص لـ«بيللو»).

في الأسابيعِ الأخيرةِ قبلَ رحيلي عن إيران، صرتُ ألتقي بناتي في أيام الخميس، وفي أماكنَ مختلفةٍ من المدينة، حتى أنهنّ رافقنني في مشاوير التسوّقِ حينما قررتُ شراءَ بعضِ الهدايا للأقاربِ والأصدقاءِ في أميركا. وذات يوم، ذهبتُ بعد الظهر الى أحد المقاهي الأثيرة عندي. بحثتُ عن بناتي ولم أجدْهنّ. فاصطدتُ نادلاً عجوزًا كان يرتدي بنطالاً أقصرَ من المعقول، ويحملُ صينيةً فيها بعض المعجناتِ وقدحانٍ من القهوة يتصاعد منهما البخار. وسألتُه ما إذا كانت قد خطرت أمامهُ مجموعةٌ صغيرةٌ من الشبات. فسألني: «وهل هنّ بلا مُرافق؟». فنظرتُ إليهِ بدهشةٍ وقلت: «.. فعلاً.. أنْ ذلك.. أظنُّ بأنهنّ بلا مُرافق!» فقالَ وهو يومئ برأسهِ إلى جهتي اليسرى حيثُ المطعم الرئيس: «فإذًا.. لا بد وأنهنّ في الغرفةِ الخلفية.. أنت تعرفين التعليمات، لا يسمحُ للنساء بالجلوس في هذا القسم بلا مُرافق».

كانت بناتي جالساتٍ عند الشباك، وكانت الطاولةُ الوحيدةُ الأخرى

المشغولةُ في ذلك المكانِ الواسعِ هي تلك الصغيرة التي عند الحائط. وقد شغلتْها إمرأتانِ تحتسيانِ القهوة.

هتفَتْ «مانا» بمرح: «لا رجال.. إذًا لا امتيازات!.. هذهِ من المراتِ النادرة التي قد يكون فيها لـ«نيما» بعض الفائدة!» كان غياب «نسرين» قد بدا صارخًا في تلك الأيام الأخيرةِ التي كنا نقضيها معًا. سألتُ عنها «مهشيد»، وما إذا كان ثمةُ أخبار جديدة. فأجابتْ بالنفي، ثم أضافتْ بشيءٍ من المرارة: «على أية حال.. الـ«لا أخبار».. هي خبرٌ جيد!».

جلبتْ كل من «مانا» و«آذين» كاميرتيهما. وعلقتْ «مانا»: «ذكرياتٌ في المقهى!». أما أنا، فما أن اقتربَ موعد سفري حتى غدوتُ مهووسةً بتصويرِ كل تفاصيلِ حياتنا. وكنت، حينما لا تكون بين يديّ كاميرا حقيقية، أغدو أنا نفسي كاميرا، فأروحُ أكتُبُ بانفعالٍ محموم عن تحليقِ الطيورِ في «بولور»، منتجعنا الجبلي قرب طهران، وعن روعةِ الهواء الذي كاد أن يكون ملموسًا خصوصًا في الصباحاتِ الباكرة عندَ شروق الشمس، وقد أحاطتْ بنا وجوهُ كل الأحبةِ في تلك الأسابيع الأخيرة.

بدتْ «ميترا» مستكينةً خانعة، كانت قد بدأتْ تحكي للأخرياتِ عن مشكلاتها في البيت وواصلتْ حديثها بعد مجيئي. فقد كانت والدة «حميد» تعارضُ بشدّة فكرة هجرتهم إلى كندا، مما أثّرَ على موقف «حميد» وجعله متذبذبًا في قرارو بشكلٍ دائم. قالتْ «ميترا»: «أنا لستُ مستاءةً من معارضتها لسفرنا تحديدًا، ولكن من تدخلها المستمرّ في شؤوننا. كانت في البدءِ تلحّ على مسألة الإنجاب بحجةِ أنها تريدُ حفيدًا تستمتعُ به قبل أن تتقدّمَ في السن، والآن تلحّ في هذا الأمر».

رغم ما قالتهُ «ميترا» إلا أنها كانت هي الأخرى مترددة مثلما كان «حميد». فقد كانت لدى «حميد» وظيفتهُ الجيدة التي تضمنُ استقرارهما المادي. أما في كندا، فسيكون عليهما البدء من الصفر. قالت لنا بأنها بدأتْ تحسّ بالتغيير من

الداخل، فقد أصبحتْ أكثرَ قلقًا وحساسيةً، وكانت قد بدأتْ تتتابها الكوابيس. قالتْ بأنها أفاقتْ ذات ليلةٍ وهي تحسّ بأن البيتَ كلهُ يرتجّ من تحتهم، فإذا بها تستفيقُ وترى نفسها وهي تهزّ الطاولةَ الصغيرةَ بجانبِ السرير. وقالتْ بنبرةٍ خائبة: «أعتقد بأنه لا يمكن لرجلٍ أن يحسّ بمدى الصعوبة التي نواجهها نحن النساء هنا». فبادرتْها «ياسي»: «الحياة هنا أسهل بالنسبة لهم». فقالتْ «ميترا»: «يقول «حميد» بأنه من الممكنِ لهذا المكانِ بطريقة ما أن يكون جنةً للرجال، وبأنه إذا ضمنّا مصدرَ دخلٍ جيد، فسيكونُ بإمكاننا السفرَ إلى الخارج والعودة في الاجازات».

فقالتْ «آذين»: «لا شكّ بأن الحياة هنا أفضلُ بالنسبة للرجال، أنظرنَ إلى قوانينِ الزواجِ والطلاق، أنظرنَ إلى كمّ الرجالِ الذين يتخذونَ أكثرَ من زوجةٍ وهم محسوبونَ على العلمانيين.. «فأكملتْ «ميترا»: «.. وعلى الأخصّ أولئكَ المثقفين الذين يتبجّحونَ بالمناداة بالحرية والمساواة».

فاعترضتْ «ساناز»: «ليس كلّ الرجالِ كذلك..!».

التفتَتْ «آذين» وقد أضاءَ وجهها فجأةً وقالتْ لـ«ساناز»: «آه!.. فعلاً.. ثمة رجالٌ مختلفونَ مثلَ العاشقِ الولهان الـ...»....

فاعترضتْ «ساناز»: «إنه ليس بعاشق!». وراحتْ تقهقه، كان من الواضحِ أنها أصبحتْ أفضلَ حالاً بعد أن استبدّتْ بها الكآبةُ زمنًا. ولمّا قرأتْ نظراتي المتسائلة قالت: «إنهُ أحدُ أصدقاء «علي»، وقد جاءَ من إنكلترا في زيارة. نحن نعرف بعضنا منذ زمن، فقد عرّفني عليه «علي» وكان بمثابةِ صديق، بل وكان من المفترضِ أن يكونَ شاهدًا على زواجنا. لذا فقد اتصلَ ليراني من باب المجاملة واللطف».

راحتْ غمازاتا «ميترا» ونظراتُ «آذين» تلمّحانِ إلى أن وراءَ الأكمةِ ما هو أبعدُ من اللطف. فقالتْ لهما «ساناز» معترضة: «ما بكما؟.. إنه أصلاً غير وسيم بالمرة». ثم ضيّقتْ عينيها وقالتْ: «في الواقع.. إنه قبيح نوعًا ما!»

فاقترحتْ «ياسي» بتفاؤل: «ربما هو غليظُ القسماتِ بعض الشيء؟». فقالتْ «سانان»: «لا.. لا.. إنه أقربُ إلي.. أعني إنه أقربُ إلى القبيح، لكنهُ رجلٌ لطيفٌ جدًا، لطيفٌ وطيبٌ وجديرٌ بالاحترام. وعلى الرغمِ من أن أخي يسخرُ منه دائمًا إلا أنني أحسّ أحيانًا برغبةٍ في مرافقته، أو الخروجِ معه. قبل أيام كان يتذمّرُ لأنه لايستطيعُ ارتداءَ قمصانٍ بأكمامٍ قصيرة هنا، وبأنه لا يستطيع السباحة بحرّية. وبعد خروجهِ، راح أخي يقلّدُ طريقتهُ في الكلام ويسخرُ منه قائلاً بأن هذهِ وسيلة جديدة للإغواء، وستقعُ فيها أختي الحمقاء لا محالة!».

جاءَ النادلُ يسألُني عن طلبي، فطلبتُ «كافيه غلاسيه»، ثم قلتُ له وأنا أنظرُ إلى «مانا»: «ولو كان ممكنًا.. نريد أن تجلبَ لنا جميعًا قهوةً تركية بعد ذلك». فمنذُ أن ابتدعتُ والدتي طقسَ القهوةِ التركيةِ في الصفِّ الخاص، حتى غدونا شبه «مدمناتٍ» على عادةِ قراءةِ طالعنا في بقايا الفنجان. كانت «مانا» و«آذين» تتنافسانِ لنيلِ شرفِ قراءة الفناجين للجميع. وكانت الأخيرةُ قد قرأتْ فنجاني في المرة السابقة، فوعدتُ «مانا» أن تأخذَ دورها قريبًا.

بعد ذهابِ النادلِ قالتْ «آذين»: «يا إلهي!.. كم أتوقُ لالتقاط صورة له!.. ماذا لو تشغلُنَه عني فألتقطُ له صورة؟». فقالتْ «مانا»: «وكيف نشغلهُ؟.. لا أظن بأنه سيسعدكِ أن ندخلَ السجن بتهمةِ التحرّشِ بهذا المخلوقِ المتداعي!». وحينما عادَ النادلُ بطلبي، رأيتُ «آذين» تُخرجُ كاميراها، وتتبادلُ الإشاراتِ مع «ياسي» التي كانت تجلسُ بجانبي، ثم راحتْ تحرّكُ الكاميرا ببطءٍ نوعًا ما باتجاهي، فبدَتْ وكأنها تركّزُ على الجدار. قالتْ «ياسي» للنادل: «هل لي أن آخذَ قهوتي من دون سكرٍ من فضلك؟». فأجابها بتجهّم: «لا أدري.. فهم عادةً يخلطونها بالسكرِ مسبقًا». ثم استدار بحدةٍ مفاجئةٍ على صوتِ طقّة الكاميرا، وألقى نظرةً مستريبةً على تعابير وجوهنا البريئة، ومضى. قالتْ «آذين»: «يا إلهي!.. لا أدري كيف سيظهرُ في الصورة!.. سننتظر ونرى!». وحين ظهرت الصورة، كان يبدو واقفًا عندَ مقعدي وهو ينظرُ إلى «ياسي»، لذا لم يكن من

الممكنِ أن نرى وجهه، ويبدو جذعهُ محنيًا بعض الشيء وبلا رأس، ويضعُ صينيةً فارغةً على إحدى يديه. ونبدو أنا و«ياسي» ونحن ننظرُ إليه، وقد أمسكتُ أنا بكأسيّ المثلجةِ بكلتا يديّ لحمايتها، أو لكأنني كنتُ أخشى أن ينتزعها مني أحدٌ في أيةِ لحظة.

ولاحقًا، جمعتُ الصورَ التي التقطناها في تلك الأسابيعِ الأخيرةِ وأطلعتُ «ساحري» عليها. قلتُ له: «ينتابُ المرءَ شعورٌ غريبٌ إذ يكونُ بصددِ الرحيلِ عن مكانٍ ما، فيحسّ بأنه لن يفتقدَ أحبتهُ في ذلك المكانِ فحسب، وإنما يحسّ بأنهُ سيفقدُ الشخصَ الذي يكونه في ذلك المكانِ والزمان، وكأنه لن يصبحَ هذا الشخصَ ذاته مرة أخرى أبدًا».

جاءنا النادلُ بالقهوةِ مقدّمةً في فناجينَ صغيرةٍ مختلفةِ الألوانِ والأحجام. ورحنا نناقشُ المعضلاتِ والمحنَ التي يمرّ بها الكتّابُ في إيران ونحنُ نرتشف قهوتنا. وتوصلنا إلى أن ثمةَ الكثيرَ مما يقالُ ويكتب، ولكن لم يكن مسموحًا إلا بالقليل. حينما نظرتُ إلى ساعتي وجدتُ أن الحديثَ قد أخذني عن موعدي التالي، فقلت: «دعونا نصغي إلى قراءة «مانا» لفنجاني، فعَليّ أن أمضي بسرعة».

ثم قلتُ لـ«مانا» وأنا ألتقطُ قلمي ومذكراتي بأنني أصبحتُ جاهزة لأكتب، وبأنني سأسجّلُ كل كلمةٍ تقرأها من فنجاني فلتكن مسؤولةً عما تقول! وذكّرتُها بعبارةِ «غاري غرانت» في أحد أفلامهِ الرائعة: «إن الكلمة هي فرصة ضائعة، لا يمكن استعادتُها بعدَ أن تُقال».

أخذتْ «مانا» فنجاني وبدأتْ تتأمّلهُ لتقرأ طالعي: «أرى طيرًا يشبهُ الديك.. مما يشيرُ إلى وجودِ أخبارٍ جيدة، ولكنك تبدينَ قلقةً مُستنفَرة.. وثمة طريقٌ مشرقٌ تمدّين على أولهِ خطوتكِ الأولى.. وتفكرين بمئاتِ الأشياء في اللحظةِ ذاتها.. طريقٌ مسدودٌ معتم.. وآخر مفتوحٌ ملؤهُ النور.. وكلاهما قد يكون.. والخيارُ لك أنت.. وثمة مفتاح.. ويعني مشكلةً تجد طريقها للحل.. لا نقود.. وثمة سفينةٌ لا تزالُ راسيةً في الميناءِ تنتظرُ أن تبتدئَ الإبحار».

[25]

هل يمكنُ لكل ساحرٍ أصيلٍ حقيقيّ مثل «ساحري» أن يستدعيَ المشعوذَ المخبوءَ داخل كلٍ منا فيستعرضُ كل الطاقاتِ والإمكاناتِ التي لا ندري أنها موجودةٌ فينا أصلاً؟

ها هو الآن أمامي، جالسٌ على ذلكَ الكرسيِّ الذي أنا بصددِ ابتداعه. وما أن أبتدئَ الكتابةَ حتى أرى الكرسيَ موجودًا أمامي: كرسيٌّ من خشبِ الجوز، منجّدٌ بقماشٍ بنيّ، غير مريحٍ بعض الشيء، مما يبقيكَ يقظًا. هذا هو الكرسيُّ إذًا، بيدَ أنه لا يجلسُ عليه، بل أجلسُ أنا. وأراهُ جالسًا بارتياحٍ أكبرَ على الأريكةِ وقد غلفها القماشُ البنيّ نفسه (ربما أنعمُ قليلاً)، ويبدو متألّقًا وفي بيتِهِ أكثر مما أبدو أنا، فهي أريكته. وها هو يجلسُ في منتصفِها مثلما يفعلُ دائمًا، تاركًا من المكانِ أوسعهُ على الجانبين، ظهرهُ متصبٌ من دون أن يتكئ، يداه في حجره، ووجههُ نحيلٌ صارم.

قبل أن يهمّ بالحديث، دعوني أراهُ ذاهبًا إلى المطبخ. فهو شخصٌ مضيافٌ جدًا ومن المؤكدِ أنه لن يدعني أطيلُ الحديثَ من دون شيءٍ من القهوةِ أو الشاي، او.. ماذا لو كانت بعض المثلجات؟ فليكن شايًا هذا اليوم، شايًا يتوزّعُ كوبينِ غير متماثلين: الكوب البني له، والأخضر لي. ها هو ذا! بلباقةٍ وارستقراطيةِ فقره، بأكوابه الجميلة، ببنطالِهِ الجينز المهترئ، بقمصانِهِ الـ«تي شيرت»، بالشوكولاتة التي تميّزه. وبينما هو في المطبخ، دعوني أتأملُ كيفَ

صاغ عالمه وطقوسهُ بتلك الدقة المتناهية: قراءة الصحف في ساعةٍ معينة بعد الفطور، مشاوير المشي الصباحية والمسائية، الردّ على الهاتفِ بعد الرنةِ الثانية.

يستبدّ بي حنانٌ مفاجئٌ إذ تمرّ ببالي تلك الخاطرةُ العجيبة: كم يبدو لنا قاسيًا صارمًا، وكم رقيقةٌ هشةٌ هي حياته!

يأتي حاملاً كوبيَّ الشاي، فأقول له: «أتدري؟.. أحسُّ بأن حياتي كانت سلسلةً من المغادرات..!». يرفعُ حاجبيهِ وهو يضعُ الكوبينِ على الطاولة، وينظرُ إليّ كمَنْ كان يتوقعُ أن يرى أميرًا فلم يجدْ غير ضفدع! فنسقطُ في الضحك. ويقولُ وهو لا يزالُ واقفًا: «بإمكانكِ التفوّه بهذا الهراءِ هنا، ضمنَ الحدود الخاصة لهذه الجدران الأربعة، فأنا صديق، والصديقُ يغفر ويتسامح، ولكن إياكِ أن تكتبي ذلك في كتابك!». فأقول: «ولكنها الحقيقة!». فيردّ: «يا سيدتي.. نحن لسنا بحاجةٍ إلى حقائقك، بل إلى خيالك، فإذا كنت مبدعةً حقًا، فلربما تستطيعين أن تسرّبي بعض الحقائق، ولكن أرجو أن تعفينا من التعرّف على مشاعركِ الحقيقية!».

يعود إلى المطبخ من جديد، ليبحثَ عن شيءٍ ما في الثلاجة. ويعودُ ومعهُ طبقٌ صغيرٌ يضمّ خمسَ قطعٍ من الشوكولاتة. يجلسُ قُبالتي على حافةِ الأريكة تقريبًا، ويقول: «أخشى أنْ يكونَ مخزوننا قد نفد، فلم يعدْ لديّ سوى بضع قطع من الشوكولاتة في الثلاجة».

قُلتُ له: «اريدُ أن أنجزَ كتابًا أشكر فيه الجمهورية الإسلامية على كل الأشياء التي علّمتني؛ فقد علّمتني أن أعشقَ «جيمس» و«أوستن» والآيس كريم والحرّية، ولم يعد كافيًا الآن أن أحتفظَ بإعجابي وتقديري لكل ذلك، بل أحسّ بأنني لا بدّ من أن أكتبه». فقال: «لن تتمكني من الكتابةِ عن «أوستن» من دون الكتابةِ عنا نحن، عن هذا المكانِ الذي اكتشفتِ فيه «أوستن» من جديد. لن تتمكني من إبعادنا أو إخراجنا من رأسك.. حاولي.. وسترَين!.. ستجدينَ أن «أوستن» التي تعرفينَ مرتبطةٌ بهذا المكان بشكلٍ يتعذّرُ عليك انتزاعه،

مرتبطة بكل شيء هنا، بهذه الأرض وتلك الأشجار. فهل تعتقدينَ بأن هذه هي «أوستن» ذاتها التي درّستِها مع الدكتور «فرنتش»؟ (كان اسمهُ «فرنتش» أليس كذلك؟).. لا يا سيدتي، بل هذه «أوستن» التي درّستِها هنا، في هذا المكان، حيثُ رقيبُ الأفلامِ شبهُ أعمى، وحيثُ يشنقونَ الناسَ في الشوارعِ، ويضعون ستارةً تشطرُ البحرَ نصفينِ كي يعزلوا النساءَ عن الرجال». فقلتُ له: «حينما سأكتبُ عن كل ذلك، ربما سأكونُ أكثرَ تسامحًا، وأقلَّ غضبًا».

وهكذا نجلسُ معًا، نحوكُ الحكاياتِ إلى ما لا نهاية. هو على أريكتِهِ وأنا على كرسيّ؛ ووراءنا يشخصُ مدارُ الضوءِ المستطيلِ، أمام الكرسيّ الهزّاز.

يضيق المدارُ أكثرَ فأكثر، يصغرُ ويصغرُ حتى يتلاشى. فيوقدُ «الساحرُ» مصباحهُ.. ونواصلُ هديرَ الكلام.

[26]

«تستبدُّ بي فكرةٌ لا تكفّ تعاودني بين الحين والحين، فأحلمُ بأن مادةً جديدةً قد أضيفتْ إلى لائحةِ حقوقِ الإنسان: «الحقّ في إطلاقِ حريةِ التخيل». فقد خلصتُ إلى الإعتقادِ بأنه لا وجودَ لديمقراطيةٍ حقيقةٍ من دون وجود حرّية التخيل، ومن دون حقّ اللجوءِ إلى الأعمالِ الأدبيةِ الخيالية بلا قيدٍ أو شرط. فمن أجلِ الحصولِ على حياةٍ كاملة متكاملة، لا بدّ من أن يكون ممكنًا لأيّ إنسانٍ أن يجسّد ويعبرَ علنًا عن عوالمهِ الخاصةِ وأحلامهِ وأفكاره ورغباته، وأن يتمكنَ من الوصولِ إلى حوارٍ دائم ما بين الخاصِ والعام. وبغير ذلك لا يمكن لنا أن نعي وجودنا وأحاسيسنا ورغَباتنا وما نكرهُ أو مما نخاف. فنحنُ نتحدّثُ عن الحقائق، على الرغم من أن الحقائقَ لن تبدو لنا جليةً إلا إذا قيلتْ مرارًا وأعيد صوغها عبرَ العواطفِ والأفكارِ والمشاعر. ويبدو الأمرُ بالنسبة لي وكأننا لم نوجد، أو أننا وُجدنا بشكلٍ منقوصٍ لأننا لم ندرك أو نعي أنفسنا بالتخيل لكي نتواصلَ مع العالم، ولأننا لجأنا إلى استخدامِ الأعمال الأدبية الخيالية وسيلةً تخدمُ أغراضًا سياسية محض».

في ذلك اليوم، حينما غادرتُ بيتَ «ساحري»، وصلتُ إلى بيتي وافترشتُ الدرجاتِ العليا للمبنى وكتبتُ الحروف السابقة في دفتر ملاحظاتي. أرّختُ ما كتبتُ بتاريخ: ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٩٧، وكتبتُ بجانب التاريخ: «إلى كتابي الجديد».

مرّت سنةٌ كاملةٌ بعد ذلك التاريخ حتى بدأتُ التفكيرَ من جديدٍ بكتابةِ هذا الكتاب، وسنة أخرى مثلها قبلَ أن أحملَ نفسي على مسلكِ القلم، كما يقول المثل، لكي أبدأ بالكتابةِ فعلاً عن «أوستن» و«نابوكوف» وعن كل أولئكَ الذين قرأوهما وعاشوا عوالمهما معي.

في ذلك اليوم، حينما غادرتُ بيتَ «ساحري»، كان الهواءُ عليلاً والشمسُ في طريقها إلى الخفوت، وكانت الأشجارُ تزهو بخضرتها. وكنتُ أملكُ أكثر من سببٍ يجعلني أشعرُ بالحزن. فقد بدأتْ كل الأشياء والوجوهِ تفقدُ حقيقتها الملموسة، وتتراءى وكأنها ذكرياتٌ عالقةٌ في الذهن لا تُنسى: أهلي.. أصدقائي.. طلبتي.. وهذا الشارعُ وهذه الأشجار، وضياءُ الشمسِ على المرآةِ وهو ينسحبُ شيئًا فشيئًا من وراء الجبال. بيد أني على الرغمِ من ذلك كله، كنتُ أحسّ في داخلي بنشوةٍ غامضة. دعوني أعيدُ صوغ عبارةٍ عن لسانِ بطلة رواية «موريل سبارك» الرائعة: «التسكع بقصد»، وأقول بأنني رحتُ أنتشي بتسكعي. وأفكر: كم هو رائعٌ أن أكون امرأةً وكاتبة في نهاياتِ القرنِ العشرين!

* * *

الخاتمة

غادرتُ طهرانَ في الرابعِ والعشرينَ من حزيران/ يونيو١٩٩٧، إلى ذلك الضوء الأخضر الذي حلم وآمنَ به «غاتسبي». وها إنني مرةً أخرى أكتبُ وأدرّس، لكنني أفعلُ ذلك هذهِ المرة في الطابقِ السابع عشرَ من مبنى يقعُ في مدينةٍ بلا جبال، بل تزدانُ بشلالاتها وينابيعها الرائعة. لا زلتُ أدرّسُ «نابوكوف» و«جيمس» و«فيتزجيرالد» و«كونراد»، بالإضافةِ إلى «إيراج بيزيشكزاد» الذي كتبَ واحدة من أحَبِّ الروايات الإيرانية إلى قلبي: «عمي نابوليون»، مثلما أدرّسُ «زورا نيل هيوستن» و«أورهان باموق»، وكل أولئكَ الذينَ إكتشفتهم بعد وصولي إلى الولايات المتحدة. وقد أدركتُ الآنَ تمامًا أن عالمي سيبقى «عالمًا محمولاً» قابلاً للنقلِ إلى الأبد، تمامًا مثل عالم «بنن».

بلى لقد غادرتُ إيران، بيد أن إيران لم تغادرني. وقد تغيّرَ في مظهرها الكثير منذ أن غادرناها أنا و«بيجان». ثمة جرأةٌ وتحدٍ أكبر في مشية «مانا» وبقية النساء؛ أصبحتْ إيشارباتهنّ أزهى ألوانًا وجلابيبهنّ أقصر بكثير، صارت مساحيقُ التجميلِ تظهرُ على الوجوه، وتستطيعُ النساءُ السير بحرية مع رجالٍ هم ليسوا بالضرورةِ إخوةً لهنّ أو أزواجًا أو آباءً. ومن جانبٍ آخر، تتواصلُ المداهماتُ والاعتقالاتُ والإعداماتُ العلنية، ولكننا نلمسُ مطالباتٍ أعنفَ بالحرية.

أكتبُ هذا، وأفتحُ الصحفَ لأقرأ عن التظاهراتِ الطالبيةِ الأخيرةِ التي انطلقتْ دعمًا لأحدِ المعارضين، فقد حكمَ عليه بالإعدام لأنهُ اقترحَ بأنه لا

يجبُ إطاعةُ رجالِ الدين طاعةً عمياء مثل طاعة القرود، ولأنه طالبَ بإعادةِ صوغ الدستور. أتصفّحُ كتاباتِ الطلبةِ والشبابِ ورجالِ الثورةِ السابقين، أمرّ على الشعاراتِ والنداءاتِ المُطالِبةِ بالديمقراطية، فأحسّ بأنني مؤمنةٌ الآن تمامًا بأن من سيصوغُ مستقبلنا فعلًا هو هذه الرغبة الحقيقية لشباب إيران اليوم، أبناء الثورة، في حقهم في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة، ناهيك عن نقد الذات اللاذع الذي يوجهه الثورويونَ السابقونَ لأنفسهم.

منذ أن غادرتُ إيران، لم أتصلْ ولم أكاتبْ «الساحر» بحرفٍ واحدٍ احترامًا لرغبته. بيدَ أن سحرهُ قد استحالَ إلى جزءٍ لا يتجزأ من حياتي، إلى حدّ أنني بتُّ أسائلُ نفسي أحيانًا: هل كان حقيقيًا فعلًا؟ هل ابتدعتهُ أنا؟ أم أنه هو الذي ابتدعني؟

تصلني أحيانًا رسائلُ عبرَ البريدِ العادي أو البريدِ الإلكتروني من طهران أو سدني. أجدها مثل اليراعاتِ المضيئةِ، تكتبها طالباتي السابقاتِ، يحدثنني فيها عن حياتهنّ وذكرياتهن.

علمتُ أن «نسرين» وصلتْ بسلامٍ إلى إنكلترا، ولا أعلمُ عنها أكثر من ذلك.

وغادرتْ «ميترا» إيرانَ إلى كندا بُعيدَ شهورٍ قليلةٍ من مغادرتنا إلى الولاياتِ المتحدة. كانت قد واظبَتْ في البدءِ على الاتصالِ بي ومراسلتي عبر البريد الإلكتروني، بيد أنها انقطعتْ عني منذ مدة طويلة. وقد علمتُ من «ياسي» أنها التحقتْ بالجامعةِ لاستكمالِ دراستها، وبأنها رُزقَتْ بولد.

واتصلتْ بي «ساناز» أيضًا بعد وصولي إلى هنا بوقتٍ قصير. هاتفتني من أوروبا وأخبرتني بأنها تزوّجتْ وتنوي الالتحاق بالجامعة. بيدَ أن «آذين» قالتْ بأنها غيّرتْ رأيها في موضوع الجامعة، وآثرت البقاء في البيت.

لم تكن «آذين» على اتصالٍ دائمٍ بي أول وصولي، فقد كانت تكتفي بمهاتفتي في عيد ميلادي. وقد أخبرتني طالِبَةٌ سابقة أنها ـ أي «آذين» ـ راحتْ تدرّسُ في

جامعة العلاّمة الطباطبائي تلك الكتب والمواد نفسها التي كنتُ أدرّسها هناك. وأضافتْ بخبث: «وآخرُ أخبار «آذين» أنها ستنتقلُ إلى غرفةٍ في الطابقِ الخامسِ قربَ غرفةِ مكتبك القديم». كانت كثيرًا ما تخطرُ ببالي هي وابنتها الجميلة «نيغار».

وقبيلَ أشهرٍ قلائل، فاجأتني «آذين» بمكالمةٍ من كاليفورنيا. كانتْ نبراتها مفعمةً بذلك الغنج والابتهاج اللذَين ظلتْ ذاكرتي تحتفظ بهما. أخبرتني بأنها تزوجتْ من جديد، وبأن زوجها يعيشُ الآن في كاليفورنيا، وبأنها لم تعدْ تجدُ أي سببٍ يبقيها في طهران بعد أن استطاعَ زوجها السابق أن يأخذ منها «نيغار». كانت ملأى بالأفكار عن الدراسة وعن البدء بحياةٍ جديدة.

واصلتْ «مهشيد» و«مانا» و«ياسي» لقاءاتهنّ بعد سفري. قرأنَ معًا لـ«فيرجينيا وولف» و«كونديرا» وآخرين، وكتبنَ عن الأفلامِ والشعرِ وعن عوالمهنّ وحيواتهنّ كنساء. وقد حصلتْ «مهشيد» أخيرًا على المكانةِ التي تستحقها، وهي الآن تشغلُ منصب مديرة تحرير، وقد قامتْ بكتابة ونشر كتبها الخاصة.

أما «ياسي»، فقد أنشأتْ صفها الخاص في آخر سنةٍ قضتها في طهران. وصار لديها طالبات يعشقونها، ويذهبن معها في نزهاتٍ لتسلّقِ الجبال. كتبتْ لي عن ذلك في رسائل ألكترونيةٍ محمومة ملأى بالحماسة لاكتشافها الجديد لقدراتها. وقد عملتْ جاهدةً من أجلِ الوصولِ إلى أميركا لاستكمالِ دراساتها العليا، فحصلتْ أخيرًا على القبول في جامعة «رايس» في تكساس عام ٢٠٠٠، وهي الآن تحضّرُ لنيل درجة الدكتوراه.

انخرطَ «نيما» في التدريس، فهو كما اعتقدتُ دائمًا من أولئك البشرِ الذين خلقوا للتدريس. كما وكتبَ الكثيرَ من المقالاتِ الرائعةِ، ولكن غير المكتملة، عن «جيمس» و«نابوكوف» وبعض الكتّاب الإيرانيين الأثيرين لديه. وما زال حتى الآن يمتعني بقصصهِ ونوادره.

وما زالت «مانا» تكتبُ الشعر. وحينما أخبرتها مؤخرًا أنني بصدد كتابة خاتمة

لكتابي، وبأنني لا زلتُ متحيّرة بشأن ما أكتبه عنها هي، أرسلتُ إليّ هذه الحروف:

«خمسُ سنواتٍ مرّتْ منذُ أن بدأت القصة في غرفةٍ أضاءتْها الغيوم، حيثُ قرأنا «مدام بوفاري»، وتناولنا الشوكولاتة من طبقٍ بلونِ النبيذِ الأحمر في صباحاتِ الخميس. لم يتغيّرْ أي شيء في الرتابة المتواصلة في حياتنا اليومية. بيد أنني في مكانٍ ما من روحي أحسّ بأنني تغيرتُ. ففي كل صباح، ومع إشراقة الشمسِ الروتينية، وأنا أفيق من نومي وأضع حجابي أمام المرآةِ لكي أخرج من بيتي فأغدو جزءًا مما نسميه الواقع، أعلم كذلك بأنه ثمة «أنا» أخرى أصبحتْ عاريةً على صفحات كتابٍ من عالم آخر هو عالم الخيال، وأعلمُ أنني غدوتُ ثابتةً خالدةً مثل تمثالٍ لـ«رودان». ولذا فإنني سأبقى حاضرةً طالما أبقيتني نصبَ عينيك.. عزيزي القارئ».

* * *

شكر وتقدير

لقد ترك الكثيرُ من الأشخاص بصماتهم الواضحة في صفحات هذا الكتاب، مرّوا بأرواحهم الحقيقيةِ أو بأشباحهم أو بظلالهم. كنت قد تعرفتُ إلى بعضهم منذ زمنٍ بعيد، وعشتُ معهم الكثيرَ من التجاربِ التي رويتها لكم عبرَ فصولِ الكتاب، وآخرين صرتُ أحس بأني عرفتهم طوال حياتي، على الرغم من أنهم لم يكونوا معي فعلاً. وأمام هؤلاء جميعًا، أحسّ بأنني عاجزة عن التعبيرِ عن امتناني بهذه الكلماتِ القليلةِ التي لن تفيَهم حقهم. لقد كانوا الملائكة الحراس لكتابي، مثل ساحراتِ الخير والجنياتِ اللواتي كنّ يحمينَ «بنن» في رواية «نابوكوف». وإني لمدينة لهم بما لن أستطيع التعبير عنه مهما فعلت.

رحلتْ أمي، «نزهت نفيسي»، في الثاني من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣. لم أستطع أن أكون معها في الأشهر الأخيرة لمرضها ولم أحضر مراسم دفنها. وسيبقى ذلك الأسى معي مضمّخًا بحقدٍ لطالما شاطرتُها إياه، حقد على كل الأنظمة الشمولية الشريرة التي شجبها «نابوكوف» لأنها تُحكِم قبضتها على مواطنيها وتشدّهم من نياط قلوبهم لتحتفظ بهم كرهائن. لم تكن معركة أمي ضدّ الطغيانِ صراعًا سياسيًا، بل كان وجوديًا. ولم أستطع بصفتي ابنتها أو بصفتي إنسانة أن أبلغ مستوى الكمال الذي كانت تبتغيه مني، ولكنها مع ذلك كانت تحسّ بنشوة حقيقية إزاءَ عملي، وكنا نؤمن معًا بالمُثُل والقيَم ذاتها. كانت تتمنى أن تقرأ هذا الكتاب، وأنا أهديه إليها إحياءً لذكرى شجاعتها واستقامتها، تلك التي كانت السبب الرئيس في فشلها العاطفي. كانت هي

وأبي أول وأشدّ المتحمسين المساندين لي في عملي، بإيثارٍ ونكرانِ ذاتٍ حقيقيين.

كان أبي أول قاص في حياتي، كان ينسج حكاياته لي ومعي. علمني أشياءَ كثيرة، منها الإيمان بالمُثُل والقيم. علمني كيف أواجه عالمَ الواقع بالمعطياتِ التي يخلقها عالم الخيال. شاطرتُ أخي «محمد» أحلامي وقصصي الأولى (وهي تجربة لا زلتُ أعيشها مع ابنتِهِ العزيزة على قلبي «صنم بانو نفيسي»). وعلى الرغم من انه لم يكن يعيش قريبًا مني إبّان عملي على إنجاز هذا الكتاب، إلا أن عينيه الناقدتين الحانيتين لم تفارقاني في الكتابة.

أما زوجي «بيجان» الذي كان شريكي في الكثير من أحداث هذا الكتاب، فقد كان فعلاً نصفي الأفضل في هذا العمل، مثلما هو دائمًا في كل الأشياء الأخرى. وباستثناء الناشر، كان «بيجان» هو الشخصُ الوحيدُ الذي قرأ المخطوطةَ الكاملة للكتابِ قبل طباعته، وساعدني كثيرًا بآرائه الحيادية، وكمالِ أخلاقِهِ وحبه الغامر.

أما «دارا» و«نيغار»، فلذتا كبدي، فقد أمدّاني بفيضٍ من الحبّ والمساندة إلى الحد الذي جعلنا نتبادلُ الأدوارَ في أحيانٍ كثيرة.

وقد جعلَ بعضُ الأقاربِ والأصدقاء إنجازَ هذا الكتاب أسهلَ وأيسرَ عبر دعمهم وتشجيعهم لي، مثل: «منيجة» و«ق. أغازادة» و«ترانة» و«مو شمس زاد». وكذلك «بروين» التي لا تستطيعُ الكلماتُ ايفاءَ حقّ صداقتها الغالية ودعمها. و«خسرو» و«تهمينة جون» و«كُلي» و«كريم» و«ناهيد» و«زَري». وصديقتي «مهناز أفخمي» التي منحتني صداقتها ومحبتها وآراءها الحكيمة إبّانَ مرحلة من الوحدةِ والزمن الصعب. و«بول» (أشكركَ لأنكَ عرّفتني على «الاضطهاد وفن الكتابة» من بين أشياء أخرى كثيرة)، و«كارل غريشمان» و«هليل فرادكين» وزملائهما الرائعين وأعضاء الهيئة التدريسية في جامعة فريدونيا، و«برنارد لويس» (الذي فتح الباب). و«هايدة داركاهي» و«فرشته

شهير»، و«فريبور فرزان»، و«شهران طبري»، و«زيما» (لتعليمي العلاقة بين بيتهوفن والحرية). و«ليا كينيغ» لصداقتها ودعمها لي ولحبها للكتب التي تقاسمتْها معي بكرم نادر. وأصدقاء الطفولة الذين استعدتُهم من جديد: «فرح إبراهيمي» و«عيسى هـ رودي»، وصوتُ الضمير وأقربُ الأصدقاء: «لادن بُرومند» و«رويا بُرومند» و«عبدي نفيسي».

وسأبقى مدينةً إلى الأبد لطلبتي الذين منحوا حياتي نسقًا آخر وعلموني أن أنظرَ للحياة والأدب بشكل مختلفٍ جديد، وأخصّ منهم: «آذين» و«ياسي» و«ساناز» و«ميترا» و«مهشيد» و«مانا» و«آوا» و«مجغان» و«نسرين» و«نيما». فكل صفحة من هذا الكتاب تكادُ تطفحُ بذكرياتِ تجربتي في التدريس، ولذا فإنني بطريقةٍ أو بأخرى أهدي كل صفحةٍ من صفحات هذا الكتاب لهم.

منذ مغادرتي إيران عام ١٩٩٧ ووصولي إلى الولايات المتحدة، صار بيتي الثقافي والأكاديمي في مدرسة «بول هـ نيتز» للدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز. وقد أفادني كثيرًا ذلك الانفتاح وفضول المعرفةِ والحرية الفكرية التي يتحلّى بها الزملاء السابقون والحاليون في هذا المكان، ولهم أدين بالشكر الجزيل والامتنان على تهيئتهم ذلك الجو الأكاديمي المفعم بالإثارة والمغامرة، البعيد عن التكلّف والتقييد. وأخصّ بالشكر الأستاذ «فؤاد عجمي»، وهيئة وأعضاء قسم دراسات الشرق الأوسط، والزملاء في معهد السياسة الخارجية ومدير المعهد الدكتور «توم كيني».

كانت المنحة السخية التي حصلتُ عليها من مؤسسة «سميث ريتشاردسون» قد هيّأت لي فرصة سانحة للعمل على هذا الكتاب وإنجازه، ولمتابعة عملي في مدرسة «بول هـ نيتز» في الوقت نفسه. وهنا أقدم شكري وامتناني الخاص لـ«مارين ستريميكي» و«سامانثا رافيتش» لإيمانهما بحقوق الإنسان في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة في كل مكان على الأرض.

اشعر بالامتنان لـ«باقر معين» وكتابه: «حياة آية الله الخميني» (أ. ب. توريس

١٩٩٩)، الذي اقتبستُ عنه أقوالاً لآية الله الخميني وحقائقَ ومعلوماتٍ دقيقة عن حياته.

وأشكر العاملين في «راندوم هاوس» (الناشر)، على دعمهم لي وعلى حماستهم ومهنيتهم العالية. أشكر «فيرونيكا ويندهولز» على دقتها المتناهية في تصحيح مخطوطة الكتاب، وأشكر لها حماستها ورفضها الصارخ للاستبداد. وأشكر «روبن روليويكز»، الذي اعتمدتُ تمامًا على ابتسامته ومساندته السخية لي بالوقت والجهد اللتين فاقتا حدود الواجب بكثير. ولكم عجبتُ في السابق من أولئك الكتّاب الذين يغدقون المديح على من يقوم بتحرير كتبهم أو تنقيحها، حتى بدأتُ العمل مع «جوي دي منيل». فقد قررتُ «جوي»، رغم حداثة سنها، أن تقوم بدور ساحرة الخير، جدة الجنيات، لهذا الكتاب. وكم اقدّر الصداقة التي نشأتْ وتعمّقت بيننا إبّان عملنا معًا، وأقدّر تفهمها وسعة خيالها، ومقترحاتها ودقة تنقيحاتها، وكذلك شغفها وتقديرها للأعمال الأدبية العظيمة.

وأخيرًا، شكري العظيم دائمًا إلى ذلك الفذ الرائع الراسخ الذي لا محيد عنه: السيد ر. أينما قد يكون في هذه اللحظة، وايًا كانت الحكاية التي يبتدعها أو يكون جزءًا منها.

* * *

هذا الكتاب

في هذا الكتاب، لم ألجأ الى تغيير الأحداث والوجوه الا حرصًا مني على أصحابها بالدرجة الاولى، ومن أجل حمايتهم. ولا أقصد هنا حمايتهم من عين الرقيب فحسب، بل من عيون اولئك الناس الذين يسعون لقراءة القصص بحثًا عن معرفة من يكون فلان وماذا فعل لعلان، فيزدهرون ويملأؤن فراغاتهم النفسية بأسرار الآخرين. ان أحداث ومعطيات هذه القصة حقيقية الى أقصى مدى تستطيع أن تحمله الذاكرة من صدق، بيد أني بذلتُ قصارى جهدي لئلا أسيءَ لأحدٍ من أصدقائي او طلبتي، فرحتُ اعمدّهم بأسماء جديدة، وأمنح وجوههم أقنعةً تضللهم ربما حتى عن أنفسهم، ورحتُ أغيّرُ وأستبدلُ تفاصيلهم الصغيرة، كيما تكون أسرارهم في أمان.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^